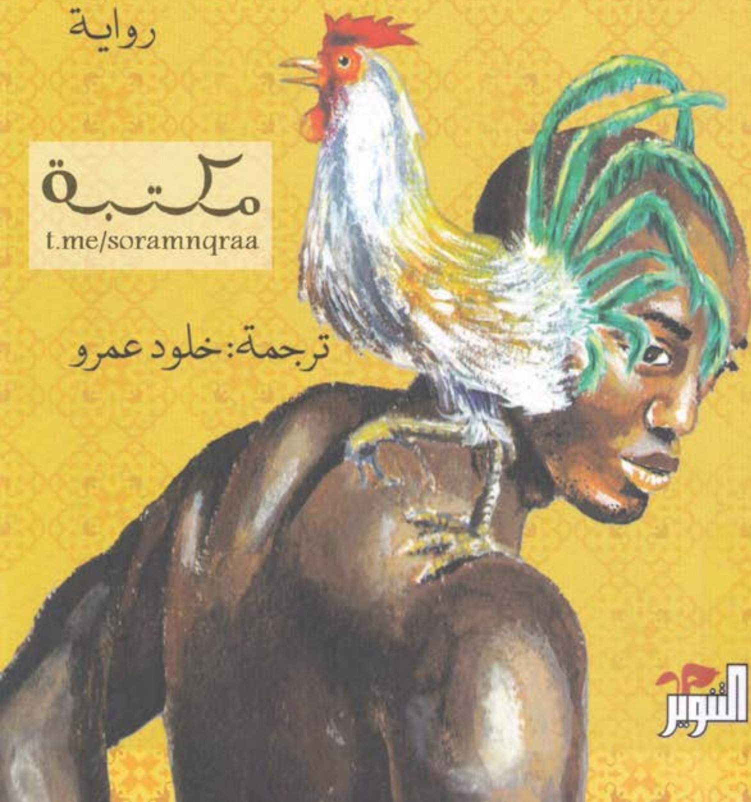
القائمة القصيرة لجائزة مان بوكر البريطانية للرواية سنة 2019

تشيغوزي أوبيوما

أوركسترا المغلوبين

رواية

ترجمة: خلود عمرو



التنوير

تشيغوزي أوبيوما

أوركسترا المغلوبين

الكتاب: أوركسترا المغلوبين (رواية)
تأليف: تشيغوزي أوبيوما
ترجمة: خلود عمرو
عدد الصفحات: 576 صفحة
الترقيم الدولي: 7-166-472-614-978
الطبعة الأولى: 2021
نشر مشترك بين دار جامعة حمد بن خليفة للنشر ودار التنوير

هذه ترجمة مرخصة لكتاب
AN ORCHESTRA OF MINORITIES
Originally published in hardcover by Little, Brown and Company, January 2019 First Back Bay trade paperback edition, October 2019

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - بئر حسن - بناية فارس قاسم (سارة بنما) - الطابق السفلي
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
مصر: القاهرة 2- شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي
هاتف: 002022795557
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.daraltanweer.com

تشيغوزي أوبيوما

أوركسترا المغلوبين

رواية

ترجمة: خلود عمرو



إلى جاي كاي
لـم ننسَ

عزيزي القارئ

بقدر ما استمتعت بقراءة هذه الرواية، ثم بالعمل على ترجمتها، وجدت صعوبة في نقلها إلى اللغة العربية، فمع أن الرواية مكتوبة باللغة الإنكليزية، إلا أنها تتضمّن ثلاثة مكوّنات لغوية، وهي: الإنكليزية، ولغة النايجا (اللغة المستخدمة في نيجيريا) ولغة الإيبو (لغة محليّة).

أمام هذا الوضع، كان لا بد لي من نقل هذا التنوّع اللغوي، فلا يمكنني أن أنقل النصّ باللغة العربية الفصحى، ولا يمكنني استخدام لغة عاميّة لبلد عربي معيّن، ولا توجد لغة عربية هجينة مكوَّنة من عدة لغات كما هو حال الـ«نايجا». وإذا كنت أعتبر أن الترجمة إبداع على الإبداع الأصلي، فقد قرّرت أن أبتدع طريقة لتقديم هذا التنوّع، فترجمت كلام الراوي كلّه بالعربية الفصحى، أما الحوارات التي جاءت بلغة الـ«نايجا»، وهي مكتوبة في النص بإنكليزية ركيكة، فقد نقلتها بلغة هي أقرب إلى كلام العمّال الأجانب الذين يتكلّمون العربية لتيسير شؤون حياتهم، فيتكلّمون بلغة ركيكة أو هجينة، ولكنهم يوصلون ما يَرمون إليه. أما المفردات والعبارات التي وردت بلغة «الإيبو» -وهي قليلة- فقد كتبتها بالعربية عن طريق رسم حروفها فقط، لأنها جاءت بلغة الإيبو في النصّ الأصلي، حيث وضعها المؤلّف كما هي، تاركًا للقارئ أن يستنتج المعنى في السياق. وسرت بذلك خلف الكاتب الذي رسم حروفها باللاتينية في النصّ الأصلي. وبقيت مشكلة لفظ الأسماء، وكانت عملية شائكة، لأن الاسم كما سمعته من أهله لا يمكن كتابته

بالعربية مطابقًا للفظ، فقط نجد اسمًا مؤلّفًا من 15 أو 20 حرفًا!! لذلك قطّعته إلى مقاطع صوتية ليسهل لفظه، كما قمت بالتشكيل، ووضعت هوامش... كل هذا لتوضيح ما ورد بلغة الإيبو قدر الإمكان.

وكلما كنت أتقدّم بالترجمة، كنت أشعر بإصرار المؤلّف على نقل المناخ والثقافة والشخصة النيجيرية بتنوّعاتها عن طريق استعارات خاصّة بتلك البيئة، وبالتالي كان عليّ أن أجد طريقة لنقل هذا المناخ وموسيقى ومعاني اللغة. فهو -مثلًا- حين يتحدّث عن توفّر الشيء كثيرًا يقول: «مثل الماء»، وهذا تشبيه سيبدو غريباً على القارئ العربي!! لأنه لا يرِد في اللغة العربية وصف الكثرة بـ«الماء» بسبب شحّه في منطقتنا! وهذا ما وجدته في الكثير من الأمثال. وكمثال آخر يرد مثلٌ يقول: «التراب مكانه الأرض، والنجوم مكانها السماء، وهما لا يلتقيان». قد نقول بالعربية: «أين الثريا من الثرى»، لو ترجمت المثل بهذه الصيغة لغابت هوية النصّ الأصلي.

هذه ليست سوى ملاحظات أوّلية مختصرة، لكنّي كتبت ملحقًا في آخر الرواية يوضح السياق التاريخي واللغوي والإثني والعقائدي الذي انبنت عليه هذه الرواية... وأنصح القارئ المهتم أن يقرأه قبل قراءة الرواية.

خلود عمرو

2021/3/31

عن الرواية

إن لم تحكِ الفريسة حكايتها، فسيلعب المفترس دائمًا دور البطل في قصص الصّيد.

من أمثال الإيبو

على العموم، يمكننا أن نتخيّل القرين الحامي لشخص ما على أنّه هويّته الأخرى في عالم الأرواح -كينونته الرّوحيّة متمّمة لكينونته البشريّة الأرضيّة؛ إذ لا يمكن لشيء أن يقوم بمفرده، بل يجب أن يكون هناك دائمًا شيء آخر قائم إلى جانبه.

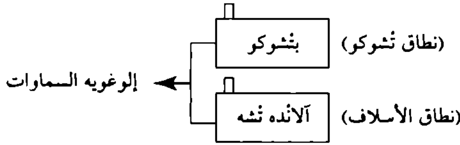
تشينوا آتشيبي، «القرين الحامي ونظرة الإيبو إلى الكون»

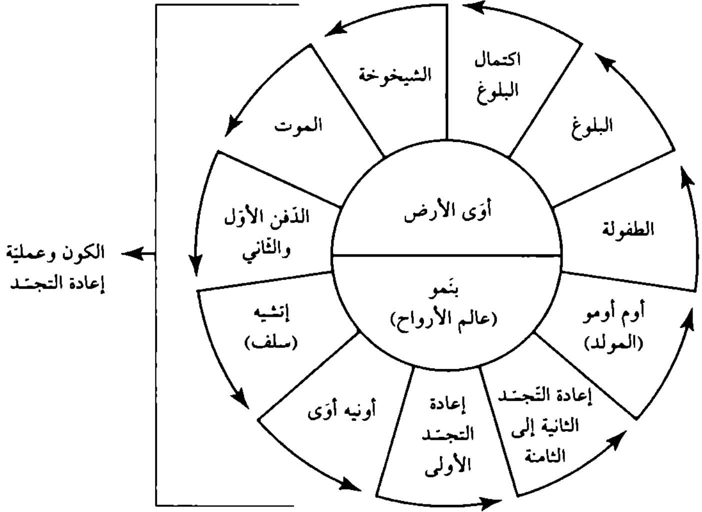
«**أوى مو آسا، أوى مو آساتو!**» هذا هو العامل البَدْئيّ في تحديد حالة الهويّة الحقيقيّة لأيّ مولود جديد. فرغم وجود البشر في الأرض على هيئة مادّيّة، إلّا أنّهم يؤوون قرينًا حاميًا و«أونيه أوى» بسبب القانون الكونيّ الذي يقضي بأنّه حيث يقوم شيء واحد، يجب أن يقوم آخر إلى جانبه، وبهذا فإنّه يفرض الثّنائيّة على كافّة الأشياء. كما أنّه المبدأ الأساس الذي يقوم عليه مفهوم إعادة التّجسّد لدى الإيبو. هل تساءلت قطّ لماذا حين يرى مولود جديد لأوّل مرّة فردًا معيّنًا فإنّه بدءًا من تلك اللّحظة يبدأ وبلا سبب ظاهر في كره هذا الشخص؟... غالبًا ما يحدث ذلك

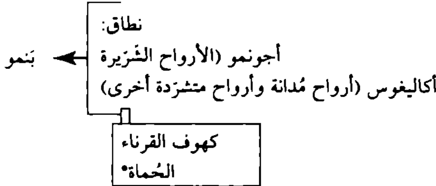
لأنّ الطّفل قد يتعرّف على هويّة ذلك الفرد كعدوّ له خلال فترة وجود سابقة، وربما كانت عودة الطّفل إلى العالم أصلًا عبر حلقة إعادة تجسّده السّادسة أو السّابعة أو حتّى الثّامنة لأجل تسوية حساب قديم! في بعض الأحيان، يمكن، كذلك، لشيء أو واقعة ما التّجسّد مرّة أخرى خلال فترة حياتيّة. وهذا هو السبب في أنّنا قد نجد أنّ الرجل الذي امتلك شيئًا في الماضي وخسره ربّما يجد نفسه وقد استعاد تملّك شيء مشابه بعد سنوات لاحقة.

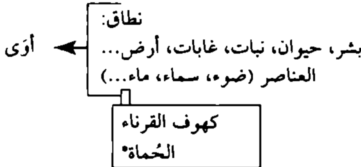
نْجوكووجي، عرّاف بلدة نْكبا. تسجيل صوتيّ.

نظرة الإيبو إلى الكون

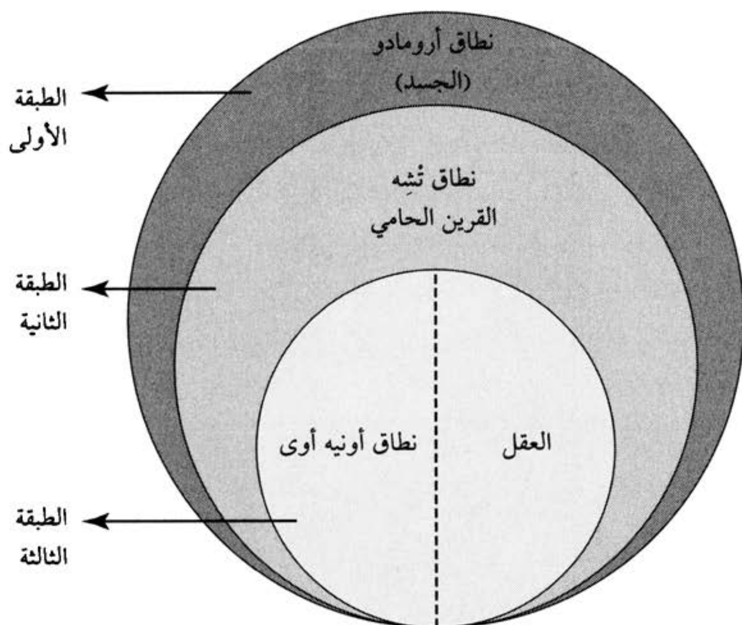








* متواجد في كلا النطاقين


نظرة الإيبو إلى الإنسان
نطاق أرومادو
(الجسد)
نطاق تُشِه
القرين الحامي
نطاق أونيه أوى
العقل
الطبقة الأولى
الطبقة الثانية
الطبقة الثالثة

الجّزء الأوّل

التّعويذة الأولى

«أوبَا سيدي نِلُّو»-

أقف بين يديك هنا في بلاط «بتشوكو» البديع، في «إلِوِغويه»[1]، أرض النّور السّاطع إلى الأبد، وتراتيل النّاي السّرمديّة التي تهَدّد الأثير منذ الأزل-

مثل سائر القرَناء الحماة، أُرسلت إلى «أُوى» في دورات حياتيّة تناسخيّة كثيرة، وسكنت كلّ مرّة جسدًا خلق للتوّ-

أتيت إلى هنا على عجل، مندفعًا كالرّمح في أجواز الفضاء، لأنّي أحمل رسالة عاجلة، مسألة حياة أو موت-

أقف بين يديك وأنا أعرف أنّه لا ينبغي لأيّ قرين حامٍ أن يأتي إلى هنا لتقديم شهادته إلّا بعد موت مُضيفه وصعود روحه إلى «بَنْمو»، ذاك البرزخ المزدحم بالأرواح والكائنات الأثيريّة غير المتجسّدة من كافّة الأطياف والأصناف. بعد ذلك فقط، تأمر القرين الحامي بالقدوم إلى مقرّك، هذا البلاط السّماويّ العظيم، ليسألك أن تمنّ على روح مُضيفه بعبور آمن إلى «آلانِده تشِه»، مقرّ الأسلاف-

إنّنا نلتمس هذا منك لأنّنا نعرف أنّ روح الرّجل بمقدورها أن تعود إلى الدّنيا على هيئة «أونيه أوى»، كي تُولد من جديد، لكنّ هذا الخيار غير متاح لها إن لم تُستقبَل أوّلًا في مقرّ الأسلاف-

«تشوكو»، يا من خلقت كلّ شيء، أعترف بأنّني خالفت الأعراف حين جئت الآن إلى هنا لطرح شهادتي ومُضيفي ما زال على قيد الحياة-

(1) إلِوِغويه: السّماوات العُلى.

لكنّني هنا لأنّ الآباء الأوائل يقولون: «إنّنا لا نذهب إلى الغابة لتقطيع الحطب إلّا إن كان لدينا ساطور حادّ يتكفّل بالمهمّة». لو استدعى الظّرف إجراءً حاسمًا، فعلى الواحد ألّا يتوانى عن اتّخاذه -

يقولون: «التّراب مكانه الأرض، والنّجوم مكانها السّماء. وهما لا يلتقيان»-

يقولون: «إنّ الظلّ ربما يتشكّل من الرّجل، لكنّ الرّجل لا يموت لأنّ ظلًا انبثق منه»-

جئت نيابة عن مُضيفي كي أتشفّع له، لأنّ ما فعله يستأهل العقاب والقصاص من طرف «آلا»، ربّة الأرض وحارستها-

إنّ «آلا» تُحرِّم على البشر إيذاء أيّ حامل، أكانت إنسًا أو وحشًا-

إذ إنّ الأرض تَبَعٌ لها، أمّ البشر العظمى، الأعظم بين سائر الخلائق، التي لا يعلو منزلتها أحد سواك، يا من لا يَعلم له جنس أو نوع أيٌّ أحد في عالم الإنس أو عالم الأرواح-

أتيت لأنّني أخشى أنّ «آلا» سترفع يدها ضدّ مُضيفي، وهو من يُعرف في هذه الدّورة الحياتيّة باسم تشِنَنْسو سلومون أوليسا-

لذا، هرولت بالمجيء إلى هنا كي أشهد على سائر ما شهدته، وكي أقنعك والربّة العظيمة بأنّه لو صحّ بالفعل حصول ما أتخوّف من حصوله، فليكن معلومًا بأنّ ارتكابه لهذه الجريمة النّكراء لم يحدث إلّا خطأً، من دون قصد أو عمد-

رغم أنّني سأروي أغلب الوقائع بكلماتي، إلّا أنّها ستكون الكلمات الحقيقيّة، لأنّني أنا وإيّاه اثنان في واحد. صوته هو صوتي. وأن أتحدّث عن كلماته كما لو كان متمايزًا عنّي، يجعل كلماتي نفسها كما لو أنّها نُطقت من قِبل أحد غيري-

يا خالق الكون، وحافظ الأيّام الأربعة، «إكي وأوري وآفور ونكوه»، أيّام الأسبوع عند الـ«إبو».

يا من نسب له الآباء الأوائل أسماء وصفات لا تُحصى ولا تُعدّ: «تشوكو»، «إيبونو»، «أوزه بِروَّه»، إزوَّه»، «إيبوبديكي»، «غاغان أوغو»، «أَغوجِغبه»، «أُبا سيدي نِلُّو»، «أَغباتَّه آلومالو»، «إِجانغو إِجانغو»، «أُكاَومي»، «أَكوآكورو»، والكثير الكثير-

أقف هنا بين يديك، بجرأة لا يدانيها إلّا لسان ملك، لأترافع عن قضيّة مُضيفي، عارفًا أنّك ستسمع صوتي-

1

امرأة فوق الجّسر

«تشوكو»، لو أنّ الواحد قرين حام كُلّف للمرّة الأولى بالحلول في مُضيف سيُرسَل إلى الدّنيا ليُولَد في «أوماهيا»، بلدة في أرض الآباء العظماء، لكان أوّل ما سيُبهر هذا القرين هو امتداد تلك الأرض الشّاسعة. لدى هبوط القرين الحامي مع الجسد الذي سيتقمّصه مُضيفه الجّديد، تُذهل العين بما يتكشّف لها. فعلى حين غرّة، كما لو أنّ ستارًا أزليًا أزيح فجأة، يجد الواحد نفسه عرضة لوهج ساطع من الاخضرار المورق على مدِّ البصر. وعند اقترابه من «أوماهيا» تفتنه العناصر المحيطة بأرض الآباء: التّلال وغابة «أوغبُتي أوكو» العظيمة، غابة كثيفة عمرها من عمر الإنسان الأوّل الذي اصطاد طرائده فيها. قيل للآباء الأوائل إنّ آثار الانفجار الكونيّ الذي ولّد العالم يمكن أن تُرى هنا، وقيل لهم إنّ غابة «أوغبُتي أوكو» منذ لحظة البدء، حين قُسِّم العالم إلى سماء وماء وغابة وأرض، أصبحت بلدًا، بلدًا أرحب من أيّ قصيدة كُتبت عنه. هنا، في عروق الأشجار، يسبح تاريخ محلّي للكون. ولا ينتهي عجب الواحد عند هذه الغابة العظيمة الموقّرة، بل يتجاوزه إلى ما بعدها، فتسحره وفرة الماء ومجاريها، وعلى رأسها نهر «إمو» بروافده التي لا تُحصى.

ينسج هذا النّهر أغصانه وفروعه حول الغابة في شبكة دائريّة متشابكة لا يماثلها سوى شرايين الإنسان وأوردته. يصادفه الواحد في ناحية من

المدينة وقد انبجس مثل الجّرح الغائر. وإن تابع السّير لمسافة قصيرة على الطّريق نفسه، فسيباغته من خلف تلّ أو أخدود عظيم. ثمّ يعود هناك، بين أفخاذ الوديان، إلى الجّريان من جديد. ولو فاتتنا رؤيته في البداية، فإنّنا إن تابعنا المسير وتجاوزنا «بندي» باتجاه «أوباما»، عبر قرى «نجوا»، فسيطلّ علينا أحد روافده الصّغيرة الصّامتة بوجه فتّان. يحتلّ النّهر مكانة فارقة في أساطير النّاس لأنّ للماء في عالمهم منزلة علويّة. فهم يعرفون بأنّ الأنهار كالأمّهات، قادرة على الولادة. أنجب هذا النّهر مدينة «إمو». أمّا شقيقتها الجارة، فخرجت من رحم النّيجر، وهو نفسه نهر أعظم من سابقه ونُسجت كثير من الأساطير عنه. منذ زمن بعيد، تجاوز النّيجر مجراه في رحلته العنيدة والتقى بنهر آخر، «بينو»، وغيّرت هذه المواجهة تاريخ النّاس وحضاراتهم حول النّهرين إلى الأبد.

«إيبُنو»، تبدأ شهادتي، التي أتيت إلى عرشكم المنير كي أقدّمها في هذه اللّيلة، بما حدث عند نهر «إمو» ذات يوم قبل نحو سبع سنوات. في صباح ذلك اليوم، ذهب مُضيفي، كالعادة، إلى «إنوجو» لشراء احتياجات طيوره الدّاجنة من العلف واللّوازم. بعد ليلة مطيرة في «إنوجو»، كان الماء في كلّ مكان، منحدرًا من أسطح البنايات، وراكدًا في حُفر على طول الطّرقات، ومتجمّعًا فوق أوراق الأشجار، ومتساقطًا من شباك العنكبوت نقطة بعد نقطة. كان ثمّة رذاذ خفيف يبرقش وجوه النّاس وما يرتدونه من ثياب. انصرف مُضيفي إلى قضاء حاجاته في السّوق بروح عالية، أطراف سرواله مثنيّة إلى أعلى لدى انتقاله من كشك إلى كشك، ومن دكّان إلى آخر. كان السّوق ممتلئًا بالنّاس، مثلما كان على الدّوام منذ زمن الآباء العظماء. في ذلك العهد، كان السّوق مسرح كلّ شيء. فهنا كانوا يتبادلون البضائع، وينظّمون الاحتفالات، ويعقدون المفاوضات بين القرى. وعلى مقربة من هنا، كانوا في سائر أرض الأجداد يشيّدون نصب «آلا»، الأمّ العظمى. في

مخيّلة الآباء، كان السّوق، أيضًا، التجمّع البشريّ الذي يستقطب أكبر عدد من الأرواح المتشرّدة- «أكاليغولي»، «أموسو»، وكينونات هائمة بلا أجساد. ففي الأرض، أيّ روح بلا مُضيف لا شيء. يجب أن يحلّ الواحد منها في جسد ماديّ كي يكون له أيّ تأثير فيما يجري في العالم. ولهذا، لا تكفّ تلك الأرواح عن البحث بشراسة عن مطايا لامتطائها، وشهوتها إلى صيد الأجساد لا حدود لها. يجب أن يتجنّب الواحد تلك الكائنات بأيّ ثمن. في إحدى المرّات، رأيت أحدها وقد عمد إلى تلبُّس جسد كلب نافق لشدّة ما استبدّ به اليأس. ثمّ استطاع، بحيلة سحريّة ما، أن يحرّك الحياة في تلك الجيفة، وأن يحملها على السّير بضع خطوات، لكنّه سرعان ما ترك الكلب ليهبط ميّتًا فوق العشب من جديد. كان مشهدًا مرعبًا. لهذا، يعدّ إقدام أيّ قرين حام على ترك جسد مُضيفه في السّوق، والأماكن المشابهة، أو تركه أثناءً نوم أو غيبوبة تصرّفا طائشًا. بل إنّ بعض تلك الكائنات غير المتجسّدة، خاصّة الأرواح الشّرّيرة، تحاول أحيانًا طرد القرين الحامي الحاضر والحلول عنوة في جسد مُضيفه، أو تستغلّ غيابه لأجل التماس استشارة نيابة عن مُضيفه فتحلّ في مكانه. لذلك، حذّرتنا، «يا تشوكو»، من مغبَّة ترك المُضيف، خصوصًا أثناء اللّيل! لأنّ الرّوح الأجنبيّة إن تمكّنت من الحلول في جسد، فهيهات أن تخرج منه! وهذا هو سبب وجود المختلّين عقليًا، ومرضى الصّرع، وأصحاب الأهواء الضّالّة، ممّن يقتلون آباءهم وأمّهاتهم وأبناء جلدتهم! كثير من هؤلاء، تلبّست أجسادَهم أرواحٌ أجنبيّة، وأحالت قرناءهم الحماة إلى مجرّد قرناء مهمّشين، لا حيلة لهم غير تتبّع المُضيف أينما تحرّك، وهم يستجدون أو يحاولون التّفاوض، من دون جدوى في الغالب، مع الرّوح الشّرّيرة الدّخيلة. رأيت هذا مرّات ومرّات.

عندما رجع مُضيفي إلى باصه الصّغير، سجّل في دفتره «الفولسكاب»

شراء ثمانية طيور داجنة: ديكين وستّ دجاجات، وكيس من العلف، ونصف كيس من علف فرّوج اللّحم، وكيس من النّمل الأبيض المقليّ. دفع ضعف السّعر العاديّ ثمنًا لواحد من تلك الطّيور الدّاجنة، ديك ناصع البياض ذي عُرف طويل وريش غزير. لمّا ناوله البائع ذلك الدّيك، غامت عينا مُضيفي بالدّموع. ولوهلة بدا البائع، وحتّى الطّائر الذي في يده، مثل سراب متلألئ. راقبه البائع حينذاك بدهشة، ولعلّه تعجّب ممّا أثاره هذا الدّيك في نفس مُضيفي من مشاعر جيّاشة. لكنّه كان معذورًا، فهو لم يكن يدري بأنّ مُضيفي رجل صاحب غريزة قويّة وعاطفة متدفّقة، وأنّه دفع ضعف الثّمن لأنّ هذا الطّائر كان يشبه فرخ إوزّ امتلكه في صغره وأحبّه من صميم قلبه، فرخًا غيّر حياته.

«إيبوبديكي»، بعد شراء مُضيفي للدّيك الأبيض، الذي كان لا يُقدَّر بثمن بالنّسبة له، قفل عائدًا إلى «أوماهيا» بحبور. مزاجه لم يتعكّر عندما انتبه لمكوثه أكثر من اللّازم في «إنوجو»، ولتركه طيوره الدّاجنة بلا طعام طوال معظم النّهار. بل ولم ينزعج حتّى حين تخيّلها وهي تعبّر عن رفضها بثورة غاضبة من الزّعيق والصّياح، كعادتها حين يقرصها الجوع، فيحمل ضجيجها حتّى جيرانه الأباعد على الشكوى. في هذا اليوم، وخلافًا لمعظم الأيّام الأخرى، كلّما مرّ بحاجز للشّرطة، وقف ببساطة ودفع بلا مماطلة. لم يتحجّج بأنّه لم يكن يحمل نقودًا، كما يفعل دومًا. بل إنّه قبل وصوله إلى حواجزهم، حيث يسدّون الطّرقات بألواح خشبيّة ذات مسامير، كان يمدّ لهم يده من النّافذة بحفنة من الأوراق النّقديّة.

«غاغان أَوغو»، انطلق مُضيفي مسرعًا عبر دروب ريفيّة تعقّبت القرى ومرّت عن رجوم الآباء الأوائل، فوق طرقات محفوفة بأراضٍ زراعية خصبة وأدغال ملتفّة. طوى المسافات على عجل، وأعتمت السّماء على مهل. وفي الأثناء، هاجمت جحافل الحشرات النّافذة

الأماميّة، وانفقأت مثل حبّات الفاكهة الصّغيرة، إلى أن تلطّخ الزّجاج بسائل حشريّ لزج. اضطرّ إلى التوقّف مرّتين لإزالة مخلّفات تلك الهجمات بخرقة بالية. لكنّه ما إن ينطلق، حتى تعود الحشرات إلى الهجوم من جديد. حين بلغ حدود «أوماهيا»، كان النّهار قد شاخ، وأمسى من الصّعب قراءة المكتوب فوق العامود الصدئ «مرحبًا بكم في أبيا، ولاية الإله نفسه». انتبه لبطنه المشدود كالوتر بعد قضاء يومه بلا طعام. فتوقّف على مقربة من جسر نهر «أماتو»، أحد أفرع نهر «إمو» العظيم، وركن باصه خلف إحدى الشّاحنات.

فور إطفاء المحرّك، سمع خبط الأقدام الصّغيرة داخل باصه. خرج ووثب فوق قناة تصريف المياه المحيطة بالمدينة. ثمّ توجّه نحو فسحة خالية من الشّجر، حيث كان الباعة المتجوّلون يجلسون فوق كراس قصيرة وطاولات مظلّلة تحت ضوء القناديل والشّموع.

خيّم الظّلام على المنطقة الشّرقيّة، والتحف الطّريق بغطاء معتم لدى رجوعه إلى الباص حاملًا بعض الموز والـ«پاو پاو» واليوسفيّ. أشعل المصابيح الأماميّة ثمّ انطلق فوق الطّريق السّريع، وصياح ديكه الجديد يأتيه من الخلف. أثناء التهامه للموز، وصل إلى جسر نهر «أماتو». في الأسبوع الماضي، إبّان هذا الموسم الأغزر مطرًا من بين سائر المواسم المطيرة، كان قد نُقِل إليه أنّ النّهر فاض وأغرق امرأة وطفلها. لم يكن من طبعه تصديق ما يتداوله أهل المدينة من إشاعات حول المصائب والبلايا، لكنّ هذه القصّة ظلّت في باله لسبب ما، حتّى أنا، قرينه الحامي، لم أفهمه. كان مستغرقًا في التّفكير بتلك الأمّ وطفلها لمّا اقترب من وسط الجّسر، وعندئذ رأى سيّارة مركونة إلى جنب وبابها مشرع. في البداية، لم يرَ سوى السّيّارة وجوفها المظلم وبقعة الضّوء المنعكسة عن المرآة الجّانبية. لكنّه حين حوّل بصره عن السّيّارة، اصطدم بمنظر مرعب، امرأة كانت تحاول القفز من فوق الجّسر.

«أَغوجِغبه»، أليس عجيبًا أن ينشغل بال مُضيفي لأيّام بغرق امرأة، ثمّ يجد نفسه فجأة أمام امرأة أخرى تسلّقت حافّة الجّسر وعلى أهبة رمي نفسها في النّهر! لحظة رآها، تحرّك شيء في داخله. وعلى الفور، أوقف الباص وقفز في الظّلام صارخًا: «لا، لا، لا تُقدمي على هذا. أرجوك، لا تقدمي على هذا! بيكو، إمي نا[1]!».

هذا التّدخّل المباغت أجفل المرأةَ، فاستدارت بسرعة خاطفة. وعندئذ تأرجحت قليلًا ثمّ سقطت فوق الأرض برعب واضح. هرع إليها كي يساعدها، ثمّ انحنى نحوها، وقال: «لا، يا مامي، لا، أرجوكِ!».

صرخت المرأة لدى اقترابه منها: «اتركني وشأني! دعني. اذهب في حال سبيلك».

«إيبونو»، أمام هذا الصدود، تقهقر مُضيفي بخطى متعثّرة، ويداه مرفوعتان بتلك الهيئة الغريبة التي يستخدمها أطفال الآباء الأوائل إعلانًا للاستسلام أو الهزيمة. قال: «أنا أتوقّف، أنا أتوقّف».

أولاها ظهره، لكنّ نفسه لم تطاوعه على الرّحيل. خشي ممّا قد تُقدِم على فعله في حال ذهابه، إذ كان يعرف، وهو نفسه رجل كان يحمل الكثير من الأسى والحزن، بأنّ اليأس آفة الرّوح، وكفيل بتقويض بقايا حياة محطّمة. لذلك، استدار وقابلها بيدين ممدودتَيْن ثمّ قال: «لا تفعلي ذلك يا مامي! لا شيء، مهما كان عظيمًا، يستدعي أن يموت الشّخص بهذه الطّريقة. لا شيء مهما كان عظيمًا، يا مامي، لا شيء».

بذلت المرأة مجهودًا في الوقوف على قدمَيها ببطء، ركعت على ركبتَيْها أوّلًا، ثمّ رفعت جسدها إلى أعلى، وأثناء ذلك، لم تكفّ عن ملاحقته ببصرها وهي تقول: «دعني وشأني. أتركني. اذهب في حال سبيلك».

---

(1) ورد كل كلام لغة الإيبو في الرواية الأصلية بالحرف اللاتيني من دون ترجمة أو شرح.

لمح وجهها الآن تحت ضوء مصابيح باصه الأمامية. كان ممتلئًا بالخوف. بدت عيناها منتفختين من بكاء لا بدّ وأنّه تواصل لساعات طويلة. أدرك على الفور بأنّ تلك المرأة كانت مجروحة في الصّميم. فكلّ من ذاق مرارة الألم أو شهد معاناة الآخرين منه، قادر على تمييز إماراته في وجه شخص آخر ولو من بعيد. أثناء وقوف المرأة بارتعاد تحت الضّوء، تساءل عمّن فقدته. أحد أبويها؟ زوجها؟ طفلها؟ ردّ وقد رفع يديه إلى الأعلى مجدّدًا: «سأتركك الآن وشأنك. سأدعك. أقسم بمن خلَقني».

استدار نحو الباص، لكن لفرط ما رآه من حزن في وجهها، شعر بأنّ جرّ قدميه بعيدًا عنها عمل لا مروءة فيه. توقّف، شاعرًا بهبوط متسارع في أحشائه وبضجيج مسموع في قلبه، واستدار ثانية، ثمّ قابلها وقال: «لكن يا مامي، لا تقفزي عن الجسر، هل تسمعين؟».

فتح باب الباص الخلفيّ على عجل ورفع غطاء أحد الأقفاص، مثبّتًا عينيه عليها عبر النّافذة ومتمتمًا بأنّ عليها ألّا تفعل ذلك، سحب دجاجتين من أجنحتهما، واحدة في كلّ يد، وهرول راجعًا.

وجدها حيث تركها، واقفة بذهول وبصرها مشدود إلى باصه. ورغم أنّ القرين الحامي لا يستطيع رؤية المستقبل أو معرفة ما سيفعله مُضيفه بالضّبط -«تشُوكو»، أنت وحدك والآلهة العظام من يمتلك روح استشراف المستقبل وقد تهب هذه الموهبة لبعض العرّافين والكهنة- إلّا أنّني عرفت بالحدس ما كان سيحصل. لكن لأنّك حذّرتنا، نحن القرناء الحُماة، من التّدخّل في كلّ كبيرة وصغيرة من شؤون مُضيفينا، وبصورة تتيح للرّجل أن ينفّذ إرادته وأن يكون إنسانًا، لم أبادر إلى إيقافه. عوض ذلك، قدحت في ذهنه ببساطة فكرة أنّه رجل يعشق الطّيور، وأنّ حياته تحوّلت تحوّلًا جذريًّا عبر علاقته بكلّ ذي جناح. ثمّ نبشت من ذاكرته في تلك اللّحظة صورة مؤثّرة

لفرخ الإوزّ الذي امتلكه ذات مرّة. لكنّ هذا كلّه كان بلا جدوى، إذ إنّ الرّجل إن استحكمت به العاطفة، أصبح مثل الـ«إجبَنتشي»، الحدأة العنيدة التي لا تنصت ولا تعقل أيّ شيء ممّا قد يقال لها. بل تندفع أينما يحلو لها وتفعل كلّ ما يروق لها.

رفع الدّجاجتين فوق رأسه، ثمّ قال: «لا شيء، لا شيء ينبغي أن يحمل أحدًا على السّقوط في النّهر والموت غرقًا. لا شيء. هذا ما سيحصل إن سقط شخص هناك. سيموت، ولن يتمكّن أحد من رؤيته ثانية».

اندفع نحو حافّة الجّسر، والطّائران يزعقان بجزع، ويحاولان الإفلات من قبضتيه بعنف. ثمّ قال وقد رماهما من فوق الجّسر إلى قلب العتمة: «حتى هذه الطّيور الدّاجنة».

في تلك اللّحظة الخاطفة، راقب الطّيرين وهما يصارعان تيّار الهواء الصّاعد، أجنحتهما ضربت الرّيح بعنف، لكنّ قتالهما المرير لم يتكلّل إلّا بالفشل. حطّت ريشة فوق يده، فضربها على عجل بقوّة آلمته. ثمّ سمع صوت ارتطام الدّجاجتين بسطح الماء، وما أعقبه من ضجيج خبط وضرب مستميت. يبدو أنّ المرأة كانت منصتة أيضًا، وعبر الإنصات، أحسّ برابطة بينه وبينها لا توصف -كأنّهما كانا شاهدين على جريمة سرّية لا مثيل لها. ظلّ واقفًا هناك إلى أن سمعها تشهق بالبكاء. فرفع بصره ورنا إليها، ثمّ خفضه باتّجاه الماء المختفي تحت ستار العتمة، ثمّ رجع به إليها. أشار إلى النّهر وسط زمجرة الرّيح بحشرجة مكبوتة وكأنّها كحّة عالقة في حلق اللّيل المحموم، ثمّ قال: «أرأيتِ ما سيحدث؟ هذا ما سيحدث لو سقط شخص هناك».

بحذرٍ اقتربت أوّل سيّارة طرقَت الجّسر منذ وصوله. توقّفت على بُعد خطواتٍ وعلا زعيق بوقها، ثمّ قال السّائق شيئًا بلسان الرّجل الأبيض لم يتمكّن مُضيفي من التقاطه، لكن أنا، قرينه الحامي، سمعته، قال: «أتمنّى ألّا تكونا فردَيْن في عصابة إجراميّة، أوه!».

ثمّ انطلقت السّيّارة وتجاوزتهما مسرعة.

كرّر مُضيفي قوله: «أرأيتِ ما سيحدث؟».

حال أن نطق تلك الكلمات، ذهب ما به وعاد إليه الهدوء، مثلما يحدث للرّجل حين يخرج عن مألوف طبعه ويقوم بعمل استثنائي ثمّ يؤوب إلى نفسه من جديد. لم يكن في ذهنه شيء سوى ترك ذلك المكان، ورافق هذا الخاطر حماسة بالغة. أمّا أنا، قرينه الحامي، فقدحت في ذهنه أنّه قام بما عليه، وأنّ من الأفضل له أن يترك المكان. وهكذا هرع إلى باصه، وحرّكه وسط الأصوات الثّائرة التي كانت تأتيه من الصّندوق. في المرآة الجّانبيّة، التمعت صورة المرأة فوق الجّسر مثل روح استحضرت وسط بقعة من الضّوء، لكنّه لم يتوقّف، ولم ينظر إلى الوراء.

2

في براثن الألم

«أَغوجِغبه»، يقول الآباء العظماء: «كي تصل إلى رأس التلّ، يجب أن تبدأ من أسفله». أدركت بمضيّ الزّمن أنّ حياة الإنسان سباق من نقطة إلى أخرى. وأنّ ما حصل فيما مضى هو لازمة منطقيّة لما سيحصل فيما بعد. لهذا يطرح النّاس سؤال «لماذا؟» حين يقع ما يثير الحيرة في نفوسهم. وفي غالب الأحيان، إن نقّب الواحد عميقًا في قلب الرّجل، فسيتوصّل إلى الكشف حتّى عن أشدّ أسراره ونواياه الخفيّة.

لذا، «تشوكو»، كي ألتمس الشّفاعة لمُضيفي، أرى أنّ علينا تقصّي البدايات الأولى، رجوعًا إلى السّنوات المريرة التي سبقت تلك اللّيلة فوق الجّسر.

كان والده قد توفّي قبل تسعة أشهر فقط. ذهب وتركه وراءه يعاني من ألم ممضٍّ فاق أيّ شيء ألَمَّ به من قبل. ولعلّ وطأة الحزن كانت ستخفّ لو أُحيط مُضيفي بأهل أو أصدقاء، مثلما كان عليه الحال حين فقد أمّه، وحين فقد فرخ الإوزّ، وحين تركت شقيقته البيت. لكنّ مُضيفي كان بعد وفاة والده وحيدًا تمامًا. فشقيقته، نْكِرو، التي هربت مع رجل كبير في السنّ بسبب رفض والدها لزواجها منه، وبعدما شعرت، قطعًا، بتأنيب الضّمير جرّاء وفاة والدهما، نأت عنه وأصبحت أكثر جفاءً. ولعلّ سبب ذلك كان خوفها من أن يلومها مُضيفي على وفاة والدهما.

كانت الأيّام التي أعقبت الوفاة هي الأشدّ حلكة واسودادًا. لم يسلم مُضيفي خلالها من «آغو»، إله الألم، الذي تسلّط عليه ليلًا ونهارًا، وصيّره خربة مهجورة قبعت في زواياها ذكريات عائلته المفزعة مثل الجّرذان. كان يفيق في الصّباح وفي أنفه رائحة طبخ أمّه. وأثناء النّهار، كانت أخته تتجلّى أمامه متجسّدة بشحمها ولحمها، وكأنّها كانت طوال الوقت متوارية خلف ستار رقيق سُحب دفعة واحدة. وإبّان اللّيل، كان يشعر بحضور طاغ لوالده يصل أحيانًا إلى حدّ اقتناعه بأنّه كان هناك بالفعل. عندئذ كان يهبّ كالمسعور، ويركض هنا وهناك مناديًا وسط الظّلام: «أبي! أبي!». لكن لم يكن هناك من مجيب غير الصّمت، صمت قاهر كان يردّه في العادة إلى صوابه ويعيده إلى أرض الواقع من جديد. سار مترنّحًا في عالمه، كما لو كان يسير فوق حبل مشدود. صار سقيم البصر وكأنّه ضرير. لم يعد يعثر على الرّاحة في أيّ شيء، ولا حتّى في موسيقى «أوليفر دي كوك»، التي كان يتركها تصدح من جهاز الكاسيت في معظم الأمسيات أو أثناء عمله في الفناء. لم تسلم حتّى طيوره الدّاجنة من حزنه الشّديد. أهملها، وكثيرًا ما غفل عن إطعامها. لم يقدّم لها العلف سوى مرّة في اليوم، وأحيانًا ينساها تمامًا. إعلانها عن التّمرّد بإطلاق صيحات الاحتجاج الجّماعيّة هو ما كان يردّه في تلك الأيّام إلى نفسه، مرغِمًا إيّاه على إطعامها. ولمّا كان شاردًا منشغل الذّهن، انصرف عن حراستها، فصارت طرائد سهلة المنال لكلّ من الصّقر والحدأة.

كيف قات نفسه في تلك الأيّام؟ عاش ببساطة على ما كان موجودًا في مزرعته الصّغيرة، قطعة الأرض الممتدّة من أمام بيته وحتّى بداية الشّارع، حاصدًا غلّتها من البندورة والبامية والفلفل. أمّا الذّرة التي كان والده قد زرعها بيده، فتركها للذّبول والموت، غاضًّا الطّرف عن التهام الحشرات لما كان قد تعفّن منها، طالما أنّها لم تتطاول على المحاصيل

الأخرى. وعندما لم يعد في مزرعته ما يسدّ رمقه، اضطرّ إلى شراء ما يلزمه من السّوق المجاور للدوّار الكبير، عازفًا عن الكلام إلّا للضّرورة. بمرور الوقت، أصبح رجلًا صموتًا يقضي أيّامه صائمًا عن الكلام، بل لم يعد يكلّم حتّى طيوره الدّاجنة التي اعتاد على مخاطبتها بـ «أيّها الرّفاق». كان يشتري البصل والحليب من كوخ التّموين المجاور، ويتناول الطّعام أحيانًا في الكافتيريا المقابلة لبيته، «مطعم مدام كمفورت». هناك، أيضًا، كان لا ينطق بحرف، بل يجلس مكتفيًا بالتّلصّص على من حوله برهبة مكبوتة، وكأنّ هؤلاء في طمأنينتهم البادية عليهم مجرّد أرواحٍ مارقة عبرت إلى عالمه من بوّابة خلفيّة.

سرعان ما أصبح، «أوزه بروَّه»، ومثلما يحدث في الغالب، رجلًا مثقلًا بالألم، تصدّه نفسه عن قبول أيّ مساعدة. فحتى إلوتْشوكو نفسه، الصّديق الوحيد الذي بقي على تواصل معه بعد ترك المدرسة، عجز عن التّخفيف عنه. حمله حزنه على الابتعاد عن إلوتْشوكو وتجنّبه. ذات مرّة، أقبل إلوتْشوكو فوق درّاجته النّاريّة وركنَها أمام المدخل، ثمّ قرع الباب ونادى على مُضيفي ليتأكّد من وجوده في البيت. لكنّ مُضيفي تظاهر بأنّه لم يكن في الدّاخل. فعمد إلوتْشوكو، ربّما لشكّه بأنّ صديقه كان هناك، إلى طلب رقم هاتف مُضيفي. ترك هاتفه يرنّ إلى أن رحل إلوتْشوكو، إذ ظنّ أنّ مُضيفي لم يكن موجودًا بالفعل. على المنوال ذاته، رفض الاستجابة إلى كافّة مناشدات عمّه، شقيق والده الوحيد الذي بقي على قيد الحياة، بالقدوم إلى «آبا» والمكوث في بيته. وعندما ألحّ العجوز، أقفل هاتفه ولم يفتحه لمدّة شهرين، إلى أن استيقظ ذات يوم على ضجيج سيّارة عمّه في فناء البيت.

جاء عمّه غاضبًا، لكنّه حين وجد ابن أخيه كسير النّفس هزيل البدن عاجزًا بلا حول ولا قوّة، جاشت مشاعره. طفق العجوز في البكاء أمام مُضيفي. منظر هذا الرّجل الذي لم يكن قد رآه منذ سنوات، وإجهاشه

في البكاء لأجله، أثّر في مُضيفي وأحدث تحوّلًا في نفسه ذلك اليوم. اكتشف أنّ حياته كانت مشروخة. وفي المساء، وسط شخير عمّه الممدّد على كنبة في غرفة الجّلوس، خطر له فجأة أنّ حياته صارت مشروخة إثر وفاة أمّه. كان هذا صحيحًا، «غاغان أَوغو». فأنا، قرينه الحامي، كنت هناك حين رأى أمّه تُنقل من المستشفى إلى البيت، لتموت بعد مدّة قصيرة على ولادة شقيقته. حصل هذا قبل اثنتين وعشرين سنة، في العام الذي يشير إليه الرّجل الأبيض بعام 1991. آنذاك، لم يكن سوى ابن تسع سنوات، صبيّ صغير لم يكن بمقدوره استيعاب أو تقبّل ما يرميه به الدّهر من النّوائب. صارت دنياه التي كان يعرفها قبل تلك اللّيلة فجأة معوجّة ولا سبيل إلى تقويمها ثانية. إخلاص والده، الرّحلات إلى لاغوس، الزّيارات إلى حديقة الحيوان في «إبدان»، ومنتزهات وملاهي «بورت هاركورت»، بل وحتّى ألعاب الفيديو، كلّ هذه الجهود ذهبت سدى. عجز والده، رغم كلّ ما بذله، عن سدّ الشّرخ الذي أصاب ابنه.

في أواخر ذلك العام، قرابة الوقت الذي يغزل فيه عنكبوت «الوي جُويه» الكونيّ شباكه الكثيفة حول القمر للمرّة الثّالثة عشرة، تعاظم يأس الوالد من إصلاح العطب الذي طال ابنه، فأخذه إلى قريته. كان الوالد قد تذكّر بأنّ مُضيفي لطالما انبهر بتلك الحكايات التي رواها له عن رحلات صيد الإوزّ البرّي في غابة «أوغوتِه» حين كان صبيًّا صغيرًا إبّان الحرب. لذا، أخذ مُضيفي لصيد الإوزّ في الغابة، وهو ما سأسرد تفاصيله لكم، «تشوكو»، في الموضع المناسب. كان ذلك هو المكان الذي عثر فيه على فرخ الإوزّ، الطّائر الذي سيغيّر مجرى حياته.

بعد أن رأى حالة مُضيفي، غيّر العمّ ما عزم عليه، فمكث معه أربعة أيّام بدلًا من يوم واحد. انشغل العجوز خلالها في تنظيف البيت، ورعاية الطّيور الدّاجنة، وحمل مُضيفي بسيّارته إلى «إنوغو» لشراء

العلف وغيره من اللّوازم. وعلى مرِّ تلك الأيّام، حشا العمّ بوني، رغم تأتأته، عقل مُضيفي بالكلمات. كان جلّ كلامه يدور حول مخاطر العزلة والحاجة إلى زوجة. ولم ينطق العمّ إلّا بالحقّ، إذ إنّني عشت أزمانًا بين البشر، وعرفت أنّ الوحدة هي الكلب المسعور الذي ينبح بلا كلل على مدى ليل الحزن الطّويل. شهدت ذلك مرّات ومرّات.

قال العمّ بوني صباح يوم رحيله: «نَنْسو، إن... إن... إن لم تختر لـ... لـ... لنفسك زو... زو... زوجة عمّا قريب، سـ... سـ... سوف أضط... أضطرّ أنا وعمّـ... عمّـ... عمّتك إلى اختيار واحدة لك».

ثمّ هزّ رأسه وتابع قائلًا: «لأنّ... لأنّ... لأنّه... لأنّ ليس بوسعك أن تعيش هكذا».

كان كلام العمّ سديدًا، حتّى أنّ مُضيفي بعد رحيل عمّه بدأ يفكّر في أشياء جديدة. وكما لو أنّ بيوض الشّفاء فقَّست داخل مواضع سرّية في نفسه، أحسّ باشتهاء شيء لم يذق طعمه منذ أمد بعيد، دفء امرأة. هذه الرّغبة صرفته عن التّفكير في ما فقده. فبدأ بالخروج من البيت أكثر فأكثر، والتسكّع حول «الكلّيّة الحكوميّة الفيدراليّة للبنات». في البداية، اكتفى بمراقبة الفتيات من «كافتيريا» على جانب الطّريق بشغف متقطّع. كان انتباهه ينصبّ على شعورهنّ المجدولة، وصدورهنّ، ومظهرهنّ الخارجي. بعدما ازداد شغفًا، حاول مع إحداهنّ، لكنّها صدّته. فقرّر مُضيفي، وهو الرّجل الذي منعته ظروفه من التّحلّي بثقة كبيرة في النّفس، ألّا يحاول من جديد. قدحتُ في ذهنه أنّ الفوز بامرأة من المحاولة الأولى أمر صعب للغاية. لكنّه لم يحفل بنصيحتي. وبعد بضعة أيّام من تعرّضه للصّدود، بحث عن بيت من بيوت الهوى.

«تشوكو»، المرأة التي أُرسِلَ بها إلى سريرها كان عمرها ضعف عمره، شعرها حرّ طليق بلا قيد، على الهيئة التي كانت شائعة بين الأمّهات العظيمات، ووجهها مدهون بمسحوق أضفى عليه مسحة

ناعمة، قد يجدها الرّجال جذّابة. بدت في ملامحها مثل «ألوما انزانِه»، المرأة التي زفّت، قبل مئتين وستّة وأربعين عامًا، إلى مُضيف قديم لي، (آرإنزي إهيمي)، والتي اختفت أثناء الحفل، قبيل انتهاء مراسم الزّواج بتسليم كأس نبيذ النّخل إلى مُضيفي العريس. كان صائدو العبيد من أبناء قبائل «آرو» قد اختطفوها.

أمام ناظريه، تجرَّدت المرأة من الثياب وعرَّت جسدا مغويًّا عظيم الأثداء. لكنها لما طلبت منه اعتلاءها، أصيب بالعجز. كانت يا«إيبونو»، لحظة فارقة، لم أشهد لها مثيلًا من قبل. فلحظة بات متاحًا له أن يقضي وطره، تبخّر في طرفة عين ذلك الانتصاب الذي كابد عناءه لأيّام. ما ألمَّ به شتّت على حين غرّة انتباهه، لأنّه كان مبتدئًا ولا دراية له بتلك الأمور. ومع هذا الخاطر، انهالت عليه مشاهد أمّه على سرير المستشفى، وفرخ أوزّة الرّابض على نحو محفوف بالخطر فوق السّور، واحتضار والده، ثمّ تخشّب جسده في قبضة الموت الفولاذيّة. اعتراه الارتجاف، وجرجر نفسه ببطء من السّرير، متضرّعًا للمرأة بأن تأذن له بالانصراف.

قالت المرأة: «ماذا؟ يريد أنت يبدّد نقوده هكذا؟»[1].

أجاب بأجل، ثمّ نهض والتقط ثيابه.

لكنّها ردّت قائلة: «أنا كلّا أستوعب انظر إلى انتصابك».

ردّ بلسان «الإيبو» قائلًا: «بِكو، كا آم لا».

فأجابت: «أنت لا سابي يتكلّم إنجليزيّة؟ تكلّم إنجليزيّة مهجّنة، أنا لا لغة إيبو».

---

(1) ورد الحوار الأصلي بلغة انجليزية ركيكة للدلالة على أن المتحدثة تتكلم بلغة «النايجا»، وهي لغة هجينة يستخدمها النّيجيريّون على اختلاف أصولهم ولغاتهم المحلية في التّواصل فيما بينهم، تحديدًا بين من لا يجيدون لغة «الإيبو». ويتكرر هذا الأمر في الكثير من حوارات الرواية.

وعندئذ ردّ قائلًا: «أوكيه، أنا أقول أنا يريد أذهب».

قالت وقد نهضت من السّرير وأشعلت النّور: «إيه، نا وا أوه. أنا لا أرى مثل هذا من قبل، أوه. لكن أنا لا يريد أنت أن يبدّد نقوده هكذا».

أمام وهج أنوثتها الكاسحة، تقهقر إلى الخلف وقال: «شكر، شكر، هوّني عليكِ، إيه؟».

وقف بلا حراك. واستسلم كالمغلوب على أمره حين أخذت المرأة ثيابه من بين يديه ووضعتها ثانية فوق الكرسي. جثت فوق ركبتيها مواجهةً انتصابه، واعتصرت مؤخرته بالأخرى. تلوَّى مرتعدا، فضحكت المرأة وقالت:

- ماذا عمرك يبلغ؟

- ثلاثون، آخ...أخ، ثلاثون.

قرصته بين أصبعيها وقالت:

- قل الصدق، ماذا عمرك يبلغ؟

شهق من طريقة إرغامه على الحديث، لكنها التقمت ما في قبضتها وابتلعته إلى منتصفه. غمغم مضيفي بشكل خاطف محموم:

- أربعة وعشرون.

حاول الإفلات منها، لكنها طوقت خصره بيدها وثبتته في مكانه بقوة، فيما أخذ يصرخ، ويكزُّ على أسنانه، ويهذي بكلمات غير مفهومة. رأى قوس قزح موشى بالظلام وأحس ببرود في داخله. تابعت المعادلة الصعبة انفجارها داخل جسده إلى أن صرخ قائلا:

- أنا أقذف، أنا أقذف!

نحت المرأة رأسها عن مرمى نيرانه، وبالكاد نجا وجهها من طلقات منيه. ارتمى فوق الكرسيّ، خشية أن يغشى عليه. سيترك بيت الهوى، مصدومًا مُنهك القوى، وسيحمل على عاتقه ثقل هذه التجربة وكأنّها شوال ذُرة. حدث هذا بعد أربعة أيّام على مصادفته للمرأة فوق الجّسر.

«إزوَّه»، لمّا ترك الجّسر في تلك اللّيلة، لم يكن متأكّدًا ممّا فعله هناك بالضّبط، لكنّه كان يعلم بأنّه أقدم على فعل استثنائيّ. وأثناء عودته إلى البيت، اعتراه شعور من الرّضى، شعور لم يذق طعمه منذ أمد طويل. وبهذا السّلام الدّاخلي، أنزل دجاجاته الجّديدة، عشرًا بدلًا من اثنتي عشرة، ثّم حمل الأقفاص إلى الفناء تحت ضوء مصباح جوّاله. ثم أنزل كيس العلف وما اشتراه من لوازم في «إنوغو». ما إن رتّب كلّ شيء في مكانه، حتّى داهمه خاطر مفاجئ. هتف قائلًا: «تشوكو!»، ثمّ هرول نحو غرفة الجّلوس. تناول مصباحه اليدويّ وضغط زرّ التّشغيل، فتوهّج ضوء شاحب من ثلاث لمبات صغيرة. دفع زرّ التّشغيل إلى أعلى، لكنّ الضّوء ظلّ شاحبًا. بعد تفحّص المصباح، اكتشف أنّ إحدى اللّمبات محترقة، طرفها الأعلى مغطّى بالسّخام. رغم ذلك، ركض بالمصباح إلى الفناء، وحين أشعل نصف الضّوء داخل القفص، صرخ ثانية: «تشوكو، أوه! تشوكو!». اكتشف أنّ ديكه الأبيض كان أحد الطّيرين اللّذين رماهما من فوق الجّسر.

«أكه تاكا»، من الظّواهر الشّائعة بين البشر أن يحاول الواحد منهم دفع عجلة الأحداث إلى الوراء؛ يحاول إرغام ما كان قد تقدّم إلى الأمام بالرّجوع إلى الخلف. لكنّها المحاولة التي تتكلّل دائمًا، دائمًا، بالفشل. مثل سائر أبناء جنسه، هرول مُضيفي صوب باصه الذي كان قطّ أسود قد جثم فوقه محدّقًا إلى ما حوله وكأنّه حارس. طرد القط بّعيدًا، فأطلق مواء عاليًا ماكرًا ثمّ فرّ إلى الدّغل المجاور. ركب مُضيفيّ وقفل عائدًا من حيث أتى تحت جنح الظّلام. كانت حركة السّير خفيفة، فلم يعترض طريقه سوى باص صغير لدى توقّفه أمام محطّة وقود. عند وصوله إلى الجّسر، لم يكن هناك أيُّ أثر للمرأة التي قابلها قبل مدّة وجيزة أو لسيّارتها. خمّن بأنّها لم ترم نفسها في النّهر، فلو فعلت، لكانت سيّارتها موجودة هناك. لكن في تلك اللّحظة، لم تكن

المرأة هي ما يشغل باله. هرع إلى الأسفل، صوب ضفّة النّهر، فملأ ضجيج اللّيل أذنيه، وابتلع مصباحه الظّلام مثل الأفعى. لدى اقترابه من الضّفّة، أحسّ وكأنّ جموع الحشرات توحّدت في جبهة واحدة ورمت وجهه بشباكها. ضرب الهواء بعصبيّة لإبعادها عنه. فتراقص ضوء المصباح على وقع حركات يده، ساقطًا بخطوط مستقيمة فوق سطح الماء، ومتوهّجًا على بُعد أمتار فوق الضّفّة الأخرى. تتبّع مرمى الضّوء، لكنّه لم يرَ سوى أطمار بالية وقاذورات هنا وهناك. ظلّ يمشي تحت الجّسر، ملتفتًا كلّما سمع صوتًا إلى الوراء. ثمّ تسارعت نبضات قلبه. اقترب، ودقّق النّظر، فكشف له الضّوء عن سلّة مضفورة. كانت السلّة تجرجر وراءها بعض حبالها التي تفكّكت وامتدّت على هيئة ألياف طويلة متشابكة. ركض بلهفة وترقّب، علّ دجاجة من دجاجتيه قد كوّرت نفسها بداخلها لتحتمي من الماء.

حين لم يعثر في السلّة على شيء، سلّط الضّوء على الماء تحت الجّسر، ثمّ فوق أقصى نقطة يمكن أن يبلغها ضوء مصباحه، لكن لم يكن هناك أيّ أثر للطّيرَيْن. حضرته لحظة رميه لهما، كيف ضربا الهواء بأجنحتهما، كيف حاولا التشبّث بقضبان الجّسر بجزع واستماتة، وكيف أنّهما لم يفلحا في ذلك. كان أوّل ما تعلّمه حين بدأ في رعاية الدّواجن أنّ تلك الطّيور هي الأضعف بين سائر الكائنات. فهي تعدم وسائل الفرار أو الدّفاع عن النّفس في وجه ما كبُرَ أو صغُر من المخاطر. وهذا الضّعف بالذات هو ما ضاعف من محبّته لها. في البداية، أحبّ سائر الطّيور بسبب فرخ الإوزّ، لكنّه لمّا شهد هجومًا ضاريًا شنّه صقر على دجاجة، صار يحبّ الطّيور الدّاجنة الضّعيفة فقط.

بعد أن مشّط جلد اللّيل السّميك، كمن يبحث عن قمل في فرو حيوان كثيف، رجع مغمومًا إلى بيته. بدا له أنّ ما فعله كان أمرًا تواطأت يده مع عقله على اقترافه. وهذا، أكثر من أيّ شيء آخر، هو ما

أوجعه. حين يتفطّن المرء إلى إلحاقه الأذى بغيره عن غير قصد، تهبط ظلمة فجائيّة على قلبه، فتجثو روحه معلنة الهزيمة الشّاملة، مستسلمة لـ«آلوسي»، إله النّدم والخزي، وباستسلامها هذا فإنّها تجرح نفسها. ومتى جُرحت، فلا سبيل إلى شفائها إلّا بردّ الحقّ لصاحبه أو تعويضه عنه. فإن كان المرء قد أتلف إزار شخص ما، فلعلّه يحمل إليه إزارًا جديدًا ويقول: «خذ يا أخي، هذا إزار جديد عوض الذي أتلفته». وإن تسبّب في كسر شيء، فلعلّه يحاول إصلاحه أو استبداله. لكن إن فعل ما لا يمكن أن يُنقَذ، أو كسر ما لا يمكن أن يُصلَح، فليس أمامه سوى أن يستسلم لتعويذة النّدم المسكّنة. إنّه لغز محيّر!

«إِزوَّه»، حين كان مُضيفي يلتمس جوابًا لأمر محيّر يتجاوز حدود فهمه، كنت أزوّده به في الغالب. لذا، قبل أن يغفو في تلك اللّيلة، ألحّيت على ذهنه بأنّ عليه أن يعود إلى النّهر في الصّباح؛ إذ لعلّ العثور على دجاجتيه ما زال ممكنًا. لكنّه لم يحفل بنصيحتي. ظنّ أنّ هذا الخاطر مجرّد فكرة من بنات أفكاره، فالإنسان ليس بوسعه التمييز بين ما تبثّه روح ما في ذهنه، حتّى قرينه الحامي، وما يشير به عليه صوت عقله من خواطر وأفكار.

طوال اليوم التّالي، واصلت قدح تلك الفكرة في ذهنه مرّات ومرّات، لكنّ صوت عقله لم يكفّ عن مقارعتها في كلّ مرّة والقول له إنّ الأوان قد فات، وإنّ الدّجاجتين غرقتا لا محالة. وهذا ما كنت أقابله بالنّفي عبر قدحي في ذهنه فكرة أنّه غير متأكّد من ذلك. وفي لحظة ما، قال صوت عقله: «قضي الأمر، لا يمكن فعل أيّ شيء». لذا، حين حلّ المساء، وبعدما تأكّد لي أنّ مُضيفي لن يذهب، فعلت ما حذّرت أنت، «أوسِه بُروَّه»، سائر القرناء الحماة من فعله، وطلبت منّا اجتنابه إلّا لظرف قاهر. تركت جسد مُضيفي وهو على قيد الوعي. فعلت هذا لعلمي بأنّ حدود مهامي كقرين حامٍ لا تقتصر على أن أكون

مجرّد مرشد لمُضيفي فحسب، بل وأن أكون له، أيضًا، مساعدًا وشاهدًا على ما قد يفوق حدود قدرته. وهذا لأنّني أنظر إلى نفسي كممثّل له في عالم الأرواح. إنّني حين أكون داخل مُضيفي، أسجّل كلّ ما تصنعه يداه، وكلّ خطوة تخطوها قدماه، وكلّ حركة يصدرها جسده. جسد مُضيفي بالنّسبة لي مثل الشّاشة التي تُعرض عليها حياته برمّتها. إنّني حين أكون داخل مُضيفي لا أكون إلّا مثل الإناء الفارغ الممتلئ بحياة إنسان، ولا يصير هذا الوعاء وعاءً إلّا بتلك الحياة. وهكذا، فإنّني من موقع المعاينة هذا أراقبه أثناء عيشه، وتفاصيل عيشه تصبح فيما بعد مضمون شهادتي. لكنّ القرين الحامي وهو داخل جسد مُضيفه يكون مقيّدًا. حين يكون هناك، يصبح من المحال له أن يرى أو يسمع ما يدور أو يُقال في العالم الغيبي. أمّا عند خروجه من مُضيفه، فإنّه يصبح قادرًا على رؤية ما يجري في العالم الغيبيّ من أسرار محجوبة عن الإنسان وعالمه.

حال خروجي من مُضيفي، صعَقني عالم الأرواح بصخبه وضجيجه الرّهيب؛ سيمفونيّة مدوّية تبثّ الرّعب في قلوب أعتى الرّجال. جوقة مذهلة من الصّياح والعويل والصّراخ والزّمجرة، أصوات من شتّى الأصناف. العجيب في الأمر، أنّ ما يفصل عالم الإنس عن عالم الأرواح أدقّ من حدّ ورقة شجر، لكنّ الواحد، مع ذلك، لا يسمع ولو همسة خافتة من هذه الأصوات إلّا عند خروجه من جسد مُضيفه. إنَّ القرين الحامي الحديث الخلق، عند تكليفه بالهبوط لأوّل مرّة إلى الأرض، تصيبه هذه الجلبة بالذّعر، وقد يستبدّ به الهلع، فيهرع إلى حصن الصّمت الذي يمثّله مُضيفه ويلوذ به. حدث هذا لي إبّان مهمّتي الأولى في الأرض، مثلما حدث لكثير من القرناء الحماة الذين قابلتهم خلال فترات الاستراحة في كهوف «أوغبُنيكِه» و«نْغُودو» و«إزي أو»، وحتّى في رجوم «أباجا» الأزليّة. على أنّ هذا الضّجيج يصبح أسوء بكثير في وقت اللّيل، وقت الأرواح.

عندما أترك مُضيفي وهو على قيد الوعي، أقوم بزياراتي على نحو خاطف، لئلّا يمسّه سوء في غيابي، وكي لا يُقدِم على عمل لا أستطيع أن أكون شاهدًا عليه. لكنّ القرين الحامي حين يتحوّل إلى الصّورة غير المتجسّدة، فإنّ الطريق الذي يقطعه إلى أيّ مكان لا يصبح الطريق نفسه الذي يقطعه حين يكون محمولًا في الإناء البشرّي. شققت طريقي ببطء وسط الحشود المكدّسة في «بَنمو»، حيث الأرواح من كلّ صنف وشكل تتلوّى فوق بعضها البعض، كما لو كان «بَنمو» علبة ديدان غير مرئيّة. وصلت النّهر في غضون سبع طرفات للعين، لكنّي لم أر شيئًا هناك. قفلت عائدًا في اليوم الثّاني، وفي زيارتي الثّالثة رأيت الدّيك الذي كان مُضيفي قد رماه من فوق الجّسر. كان ممدّدًا فوق صفحة النّهر ورجليه إلى أعلى، منتفخًا ومتيبّسًا ونافقًا. لونه رماديّ بعض الشّيء، وبطنه عارٍ تمامًا من الرّيش، وكأنّ شيئًا من داخل الماء قد نهَشَه. أمّا رقبته فكانت ممطوطة منتفخة. حطّ طير جارح فوق جناح الدّيك، بعد أن حام في الأعلى، محدّقًا إلى الطّائر النّافق وما حوله. لم أر أيّ أثر للدّيك الأبيض.

«إيبوبديكي»، عبر الدّورات الوجوديّة الكثيرة التي عشتها، فهمت أنّ الأمور التي تحصل للإنسان تكون قد حصلت بالفعل قبل أمد بعيد في عالم ما تحت الأرض، وأنّه ما من شيء في الكون ليس له سابقة. يدور العالم بلا ضجيج حول عجلة صبر مغرق في القدم، وبقرب هذه العجلة، تنتظر كافّة الأشياء كي تُبعث حيّة عبر هذا الانتظار. ما يصيب الإنسان من حظّ عاثر إنّما كان في انتظاره منذ أمد طويل، وسط طريق ما، أو فوق شارع سريع، أو في ساحة معركة، مترقّبًا بصبر حلول الأجل الموعود. إنّ المرء هو من يبلغ هذا الأجل فيصيبه ما يصيبه، وهو من قد يستغفل فيقع أسير الصّدمة والكآبة، هو وسائر من قد يتعاطفون معه، حتّى قرينه الحامي. لكن هذا الإنسان في الحقيقة

كان ميتًا منذ زمن طويل، وواقعة موته لم تكن مختفية إلّا وراء غلالة الزمن الرّقيقة، والتي ستنحسر تدريجيًا لتسفر عن تلك الواقعة. رأيت هذا مرّات ومرّات.

حين نام في تلك اللّيلة، خرجتُ منه، مثلما أفعل دومًا، كي أتمكّن من حراسته، فنشاط أهل «بَنْمو» في الأرض يتزايد أثناء اللّيل، وقت نوم البشر. من هذا الموضع، قدحت في عقله الباطن صورة الدّيك والطّير الجارح، إذ إنّ أسهل طرق إيصال مثل هذه الحادثة الغامضة إلى المُضيف هو الحلم، وهو نطاق هشّ يجب أن يدلف إليه القرين الحامي بحيطة وحذر، لأنّه مسرح مفتوح أمام أيّ روح من الأرواح. يجب أن يطلق القرين الحامي نفسه أوّلًا من مُضيفه قبل أن يخطو إلى عالم حلمه. فهذا يقي القرين الحامي من اكتشاف الأرواح الأجنبيّة لهويّته، ومعرفة أنّه قرين حام ترك وراءه جسدًا بلا حراسة.

لحظة قدحت تلك الصور في عقله الباطن، ارتجف مُضيفي في نومه، ثمّ كوّر قبضته ورفعها على نحو واهن. عندئذ، تنهّدت بارتياح، مدركًا أنّه بات يعلم الآن ما حلّ بديكه الأبيض.

«**غاغان أَوغو**»، حزنه على إغراق ديكَيه، صدّه عن التّفكير في المرأة فوق الجّسر. لكن، مع تراجع منسوب الحزن، بدأ التّفكير فيها يغزو تخوم ذهنه شيئًا فشيئًا، ثمّ استولى عليه تمامًا. أصبح دائم التّفكير فيها، في ما رآه منها. كان جلّ ما تمكّن من رؤيته في اللّيل هو أنّها متوسّطة الحجم، ليست مكتنزة مثل الآنسة جاي، بائعة الهوى. كانت ترتدي بلوزة فاتحة وتنوّرة. وتذكّر أنّ سيّارتها كانت «تويوتا كامري» زرقاء اللّون، شبَه سيّارة عمّه. ثمّ سرعان ما كانت أفكاره تقفز كالجّندب من التّفكير في مظهرها إلى التّفكير بفضول حيال ما فعلته بعد رحيلها عن الجّسر. عندئذ كان يوبّخ نفسه على استعجاله ترك الجّسر.

في الأيّام اللّاحقة، أهملَ طيوره الدّاجنة ومزرعته، وكان ذهنه

منصرف تمامًا إلى التّفكير بها. كان كلّما قاد سيّارته في أرجاء المدينة، لا يكفّ عن البحث عن السّيّارة الزّرقاء. بعدما مرّت الأسابيع، بدأ يتوق إلى بائعة الهوى من جديد. في إحدى الأمسيات، قادته تلك الحاجة إلى بيت الهوى، لكنّ الآنسة جاي كانت مشغولة. طوّقته النّساء هناك برعونة، وجرّته إحداهنّ إلى إحدى الغرف. كانت نحيلة الخصر وفوق بطنها أثر جرح قديم. أحسّ معها بأنّه واثق من نفسه، وبأنّ رهبته وسذاجته السّابقة رُجمت حتّى الموت خلال تلك المواجهة الأولى. استسلم لها بلا تردد، ومع أني أتجنب في العادة أن أشهد ممارسة مضيفي للجنس لما لها من شبه مريع بالموت، إلا أني لم أتزحزح في هذه المرة لأنها كانت ستكون أول ممارسة له. حين انتهى، لطمته المرأة على ظهره بإعجاب وقالت له إنه كان فحلًا.

لكنه، مع ذلك، ظل منجذبا إلى الآنسة «جاي»، إلى جسدها وصوت تنهدها المألوف. أدهشه أن ما فعله مع المرأة الأخرى كان أعمق أثرا، لكنه مع ذلك أحس بلذة أكبر بين يدي الآنسة «جاي». رجع إلى بيت الهوى بعد ثلاثة أيّام وتجنّب المرأة الأخرى، رغم أنّها ركضت نحوه بشوق وشغف. لم تكن الآنسة جاي مشغولة هذه المرّة. رمقته وبالكاد تعرّفت عليه، ثمّ تجرّدت من ثيابها بصمت. قبل أن يتاح لهما البدء بما جاء لأجله، تلقّت مكالمة هاتفيّة وأخبرت المتّصل أن يأتيها بعد ساعتين، ولمّا بدا أنّ الصّوت الذكوريّ على الطّرف الآخر رفض المساومة، تنازلت وعرضت عليه أن يأتيها بعد ساعة ونصف.

لمّا شرعا في الأمر ضحكت وأشارت إلى المرّة السّابقة بقولها: «أنت كلا تفتح عينك الآن كما أفعل أنا أنت في المرة الماضية، با؟».

ضاجعها بنشوة عارمة واقتدار. لكنّه لمّا ارتمى إلى جنبها، دفعت ذراعه بعيدًا عنها ونهضت من السّرير. ناداها والدّمع يكاد يطفر من عينه: «آنسة جاي».

ردّت وهي منشغلة بارتداء ملابسها: «نعم، ماذا أنت بك هذه المرّة؟».

«أنا أحبّك».

«إيبونو»، توقّفت المرأة عمّا كانت منشغلة به، ثمّ صفّقت بيديها وانفجرت بالضّحك. أشعلت الضّوء، ثمّ قلّدت النّبرة الجدّيّة والمحسوبة التي نطق بها كلماته، وأردفتها بضحكة رقيعة، ثمّ قالت: «يا للهول! أنت لا تعرف ما تقول».

ثمّ صفّقت ثانية، وتابعت: «تعالوا وتفرّجوا، هذا يقول هو يحبّ أنا! عشنا وشفنا، إيه. أنت لا تحبّني بل أنت تُحبّ أمّك».

فرقعت بإصبعيها وانفجرت ثانية في نوبة جديدة من الضّحك والتندّر عليه. طوال أيّام، ظلّ رجع ضحكاتها يتردّد عبر كثير من المواضع الجوفاء في كينونته، كما لو أنّ العالم نفسه كان هو الذي قد ضحك منه، وكأنّه كان شبه رجل ذنبه الوحيد هو توقه للصّحبة والعشرة. هنا، كان أوّل عهده بعاطفة الحبّ الرومانسيّ المربكة، تقاطع طريق كان مختلفًا عمّا شعر به من عاطفة تجاه طيوره وتجاه عائلته. كانت عاطفة موجعة، فالغيرة هي الرّوح التي تقف على العتبة بين الحبّ والجّنون. أرادها أن تكون له وأن تبغض سائر من يأتيها من الرّجال بعده. لكنّه لم يكن يعلم بأنّ ما من أحد يملك أيّ شيء في الحقيقة. عاريًا كان يوم ولد، وعاريًا سيكون يوم يعود. لعلّ الإنسان يمتلك الشّيء طالما مكث هذا الشّيء معه. لكنّه إن تركه وذهب، فقد يخسره إلى الأبد. آنذاك، لم يكن يعلم أنّ الرّجل قد يضحّي بكلّ ما يملك من أجل امرأة يحبّها، وحين يتركها لضرورة ما ثمّ يعود، قد يكتشف بأنّها لم تعد راغبة به. رأيت هذا مرّات ومرّات.

وهكذا، بعد أن جرحه جهله بالحياة وبأمور لم يكن قد تعلّمها بعد، ترك بيت الهوى وصمّم على عدم العودة إليه أبدًا.

3

صحوة

«إجانغو إجانغو»، عبر إقاماتي المؤقّتة والكثيرة في عالم البشر، سمعت الآباء الموقّرين، بحكمتهم العميقة، يقولون: «مهما بلغ حزن الرّجل، فما من شيء يرغم العين على ذرف الدّم. ومهما طال أمد بكائه، فلن يهطل من مقلتيه سوى الدّمع». قد يظلّ الرّجل أسير الحزن لوقت طويل، لكنّه لا بدّ من أن يتحرّر منه في نهاية المطاف. فبمرور الوقت، تشتدّ سواعد العقل، وتتحطّم جدران الحزن، وتحرّره من أسره. إذ مهما اشتدّ ظلام اللّيل، فلا بدّ من أن ينقضي سريعًا، ولا بدّ من أن ينشر «كامانو»، إله الشّمس، رايته العظيمة في اليوم التّالي. رأيت هذا مرّات ومرّات.

بحلول الشّهر الرّابع على مصادفة تلك المرأة فوق الجّسر، كان حزن مُضيفي قد شارف على الانتهاء. وهذا لم يكن يعني أنّه كان سعيدًا الآن، إذ حتّى أيّامه المشرقة، كانت تمرّ وهي تجرّ أردية مطرّزة بخيوط من الأسى العميق. بل كان يعني أنّ مُضيفي دبّت فيه الحياة من جديد، وأنّه استردّ شهيّته نحو احتمالات السّعادة. لجأ إلى صديقه إلوتْشوكو، فبدأ هذا بالتردّد عليه وإقناعه بالانضمام إلى «حركة إقامة دولة بيافرا ذات السّيادة»، الجماعة التي كانت تكنس شباب الإيبو بمكنسة بالية وتحيلهم إلى كوم من التّراب. إلوتْشوكو، صديقه وموضع سرّه في الثّانويّة، الفتى الذي كان ضامرًا كالرّمح،

أصبح الآن متين البنية مفتول العضلات، لا يرتدي غير قمصان بلا أكمام. «نيجيريا فشلت»، كان يردّد على مسامع مُضيفي بلسان الرّجل الأبيض، ثمّ يخونه ذلك اللسان، فيكمل بلسان الآباء قائلًا: «إهي مي بي غو. آنيا تشورو نزوبوته!». تحت إلحاح إلوتْشوكو، انضمّ مُضيفي إلى تلك الجّماعة. كانوا يجتمعون كلّ مساء في محلّ كبير لأحد تجّار السّيّارات، وهم يرتدون قبّعات عسكريّة سوداء وقمصانًا حمراء، وحولهم رايات نصف شمس مشرقة، وخرائط وصور جنود قاتلوا لأجل «بيافرا». شغل مُضيفي وقته بالتسكّع مع هذه الجماعة، مطلقًا عنان حنجرته بالهتافات والشّعارات الرنّانة. كان يهتف معهم: «لتنهض بيافرا من جديد»، ثمّ يدقّ أرضيّة المحلّ بقدمه ويهتف: «حركة إقامة دولة بيافرا ذات السّيادة! حركة إقامة دولة بيافرا ذات السّيادة!». كان يجلس بين هؤلاء الرّجال منصتًا إلى تاجر السّيّارات وقائد الحركة، رالف أوزُروكِ. في هذا المكان، استردّ مُضيفي قدرته على الكلام، وحُمل إلى عالم المرح من جديد، ولاحظ كثيرون ابتسامته العريضة وضحكته السّريعة. شهد هؤلاء الرّجال أولى علامات شفائه دون أن يدروا أين كان أو من أين أتى.

«تشوكو»، لأنّني كنت حاضرًا في أحد المُضيفين السّابقين أيّام حرب «بيافرا»، خفت على مُضيفي الرّاهن من الأذى وإضاعة الوقت مع تلك الجّماعة. لهذا، لجأت إلى بثّ الأفكار في رأسه، محاولًا إقناعه بأنّ ارتباطه بهذه الجّماعة قد يزجّ به في دائرة العنف. لكنّ صوت رأسه كان يردّ بنبرة حازمة بأنّه لم يكن خائفًا. وفعلًا، ظّل مع هذه الجماعة لفترة طويلة، لكنّ ما دفعه إلى ذلك كان مجرّد غضب لم يستطع سبر غوره. إذ إنّه لم يكن يعاني من تلك المظالم التي لم ينفكّ هؤلاء الرّجال عن الحديث عنها. كما لم تكن لديه معرفة شخصيّة بمن قُتل على يد أناس من الشّمال النّيجيريّ. ورغم إحساسه بصحّة كثير من

الأقاويل الملغزة التي كانت تردّدها الجّماعة -كان بوسعه، مثلًا، أن يرى أنّ نيجيريا لم يترأسّها أيّ رئيس من الإيبو، بالفعل، وأنّ هذا ربما لن يحدث أبدًا- إلّا أنّ تلك الدعاوى لم تكن تمسّ حياته بشكل شخصيّ مباشر. لم يعرف أيّ شيء عن الحرب سوى أنّ والده قاتل فيها، وروى له كثيرًا من القصص عنها. أثناء أحاديث هؤلاء الرّجال، كانت تفاصيل ما رواه والده له تنهال على شطآن ذاكرته الموحلة مثل حشرات مثخنة بالجّراح.

لكنّه، على الأرجح، داوم على حضور تلك الاجتماعات لأنّه لم يكن لديه أيّ صديق سوى إلوتْشوكو. كانت يد أحد أولاد الجّيران في مقتل فرخ الإوزّ، قد أوصدت باب قلبه في وجه صحبة بني البشر. إثر تلك الحادثة، حلّق فوق حقل الإنسانيّة الكالح، وقرّر أنّ عالم البشر أعنف من قدرته على التّحمّل. استعاض عن صحبة البشر برفقة الطّيور، وعثر على السّلوى بين الكائنات ذات الرّيش. إضافة إلى ذلك، كان يحضر تلك الاجتماعات لأنّها منحته فرصة القيام بشيء عدا الاعتناء بطيوره الدّاجنة ومزرعته الصّغيرة، ولأنّه كان حين يجوب شوارع المدينة، هاتفًا لإقامة دولة «بيافرا» ذات السّيادة، كان يأمل في أن يصادف المرأة التي قابلها فوق الجّسر.

«أكه تاكا»، كان هذا هو السّبب الرّئيس الذي احتلّ المقام الأوّل في ذهنه. إذ إنّه، حتّى بعد أن تزايد خطر المشاركة في المسيرات، ظلّ مواظبًا على الخروج والمشاركة. لكن بعد شهر حافل بالمظاهرات، والاشتباكات مع الشّرطة، وأعمال الشّغب، والعنف، ومحاولاتي الدّائبة لبثّ الأفكار في ذهنه، والتي قابلها دومًا بالرّفض، انفصل عن الجّماعة مثلما ينفصل إطار عن سيّارة مسرعة ثمّ يتدحرج بعيدًا نحو الخلاء.

عاد إلى حياته العاديّة، لينهض في الفجر على أنغام دجاجاته العذبة والمحيّرة أيضًا؛ سمفونيّة من صياح الدّيكة، وقوقأة الدّجاج، وزقزقة

الكتاكيت، تلتحم معًا لتؤلّف جوقة تؤدّي ما وصفه والده ذات مرّة بأغنية بهيّة التّقاسيم. ثمّ ليفتتح يومه بجمع البيض، وتسجيل ميلاد الكتاكيت الجّديدة في دفتر الفولسكاب، وإطعام الدّجاج، وحراسته بمقلاع متأهّب أثناء نقب الحبوب في أرجاء الفناء، ورعاية المريض والضّعيف منه. في أحد أيّام ذلك الشّهر، يوم واصل العمل لا يشغله شيء، زرع بندورة في الجّزء المهمَل من أرضه. كان قد أهمل هذا الجّزء لفترة طويلة، وهاله ما آل إليه حاله خلال تلك المدّة. اكتشف، لدى اقتلاع الأعشاب الضّارّة، أنّ النّمل الأحمر لم يقنع بالاعتداء على مُلك الغير، بل احتلّ الأرض برمّتها أيضًا. كان النّمل قد استوطن في بطن التّراب، معشعشًا في أحشاء كلّ كتلة منه. ويبدو أنّه كان يقتات على درنة «كاسفا» قديمة ميّتة، ربّما لم تتمكّن من النّموّ بسبب مهاجمته لها. غلى بعض الماء في قدر ثمّ سكبه فوق التّربة الرّمليّة الطّينيّة، مبيدًا جحافل النّمل. وبعدئذ، كنس أكوام النّمل الميّت جانبًا ونثر بذاره.

رجع إلى الفناء وغسل بذور البندورة التي علقت تحت أظافره ودبغت أصابعه بالسّواد. ثمّ توجّه إلى غرفة متروكة في البيت كان يحتفظ فيها بصومعة الحبوب، غرف كمّيّة من حبوب الدّخن ونثرها فوق بساط ممدود في الفناء. لمّا فتح باب القنّ، هرعت على الفور دزّينة من الدّجاج إلى العلف المنثور. كان في القنّ أيضًا قفصان، وضع في الأوّل كلّ دجاجة مع كتاكيتها كي تتمكّن من رعايتها، وخصّص الثّاني لرقود الدّجاجات فوق بيضاتها. تفقّد كلّ طائر من هذه الطّيور على حدة كي يتأكّد من خلّوها من الأمراض. كان هناك نحو أربعين دجاجة بنّيّة ودزّينة من الدّجاج الأبيض. بعد انتهائه من علفها، وقف منتظرًا في الفناء إلى أن تُفرغ إحداهنّ فضلاتها كي ينقب ذرقها بعود ويتأكّد من خلّوه من الدّيدان. أثناء انشغاله في فحص فضلات باهتة أفرغها أحد الفراريج قرب البئر، انتبه لصوت بائعة متجوّلة كانت تبيع الفستق.

«إيبونو»، يجدر بي التّنويه إلى أنّ مُضيفي لم يكن من طبعه الالتفات إلى صوت كلّ امرأة يصل إلى مسامعه، لكنّ صوت تلك المرأة بالذّات كان مألوفًا على نحو غريب. ورغم أنّه، هو، لم يدرك وجه الغرابة في هذا الأمر، إلّا أنّني، أنا، أدركت بأنّ صوتها ذكّره بأمّه. لمّا نظر باتّجاه الصّوت، رأى امرأة مكتنزة، ذات بشرة داكنة، وفي مثل عمره. كانت تتصبّب عرقًا تحت الشّمس الملتهبة، وحبّات العرق اللّامعة تنداح على طول ساقيها. مشت وهي تجرجر قدميها من ثقل الفستق المكوّم في صينيّة فوق رأسها. كانت من الفقراء المعدمين، ابنة تلك الشّريحة التي استحدثتها الحضارة الجّديدة. ففي زمن الآباء الأوّلين، ما كان العوز ليطال أحدًا إلّا إن كان كسوّلا أو خاملًا أو قعيدًا أو ملعونًا، أمّا الآن فعامّة النّاس ترزح تحت وطأة الفاقة والعوز. أخرجْ إلى الطّرقات، إلى قلب أيّ سوق في «أرض الإيبو»، وستجد هناك رجالًا كادحين، رجالًا أيديهم صلدة كالصّخر وثيابهم غارقة بالعرق، لكنّهم، مع ذلك، يعيشون في فقر مدقع. عندما أتى الرّجل الأبيض، جلب معه أشياء حسنة. لمّا رأى أطفال الآباء السّيّارة، صاحوا من شدّة الانبهار والدّهشة. الجسور؟ قالوا: «آه، يا لروعتها!». المذياع؟ قالوا: «أليس هذا من عجائب الدّنيا؟». وعوض مجرّد الاكتفاء بإهمال حضارة آبائهم المباركين، قاموا بتدميرها. هرعت أفواجهم إلى المدن، «لاغوس» و«بورت هاركورت» و«إنوغو» و«كانو»، لكنّهم اكتشفوا أنّ الأشياء الحسنة لم تكن من نصيب الجميع. تساءلوا عند بوّابات تلك المدن: «أين نصيبنا من السّيّارات؟». قيل لهم: «إنّها من نصيب فئة قليلة فقط!».

قالوا: «ماذا عن فرص العمل الجّيّدة، تلك التي يجلس أصحابها تحت مكيّفات هوائيّة ويرتدون ربطات عنق طويلة؟». قيل لهم: «آه، إنّها متاحة فقط لمن درس في الجّامعة لسنوات، وحتّى بعد ذلك، على هؤلاء أن يتنافسوا مع أفواج من حاملي المؤهّلات نفسها».

حين استحكم الغمّ واليأس بأطفال الآباء استداروا للعودة. لكن إلى أين؟ إلى خرائب تلك الحياة التي دمّروها بأيديهم. وهكذا صاروا يعيشون عيش الكفاف، وبتّ ترى أناسًا حالهم من حال هذه المرأة التي كانت تذرع المدينة طولًا وعرضًا لأجل بيع الفستق. ناداها لتأتي إليه. التفتت المرأة نحوه ورفعت يدها لتثبيت الصينيّة فوق رأسها. ثمّ أشارت إلى شخصها، وقالت شيئًا لم يتمكّن من سماعه. رفع صوته قائلًا: «أريد شراء بعض الفستق».

بدأت المرأة في السّير فوق الطّريق التّرابي، الذي علته آثار إطارات باصه الصّغير، وإطارات سيّارة عمّه منذ عهد قريب. في الأمس، هطلَ المطر فوق التّربة، فاشتدّ احمرارها. أمّا في هذا النّهار المشمس، فبهت لونها، وسرحت الدّيدان في أرجائها، حافرة جحورًا وتاركة آثار دبيبها فوق الطّريق. كان يحلو له في الصّغر بعد هطول زخّات المطر، أن يتسلّى بسحق الدّيدان تحت قدميه، بل كان يقوم أحيانًا هو وأصحابه، تحديدًا إجْيكي الذي سرق فرخ الإوزّ، بجمع الدّيدان في أكياس بلاستيكيّة ثمّ اللّهو بمراقبتها وهي تتلوّى وتتشقلب في الحيّز المحصور بلا هواء.

أقبلت من بعيد وهي تجرجر شحّاطتها البلاستيكيّة التي التصقت بها طبقات طينيّة سميكة لطّخت أصابع قدميها وكعبَيْها. كانت تتدلّى فوق صدرها محفظة نسائيّة صغيرة، مثبّتة بشريط ساتانيّ التفّ حول عنقها. لمّا اقتربت، وقدماها تدقّان الأرض دقًّا، نظّف يديه على عجل بمسحهما فوق جدار باب البيت. ثمّ خطى إلى الوراء وعبر البيت متفقّدًا أرجاءه على عجل. لاحظ، للمرّة الأولى، شِباك العنكبوت الممتدّة على طول وعرض سقف حجرة الجّلوس، مذكّرة إيّاه بمرور وقت طويل على وفاة والده، الذي كان حريصًا للغاية على نظافة البيّت.

حيّته المرأة بانحناءة بسيطة، وقالت: «مساء الخير أيّها السّيّد».

«مساء النّور أيّتها الأخت».

أنزلت صينيّة الفستق عن رأسها ووضعتها على الأرض، ثمّ أخرجت من جيب تنّورتها منديلًا مبتلًا وملطّخًا ببقع من الوسخ تتفاوت في درجات لونها البنّيّ، ومسحت به جبينها.

سألها: «بكم، بكم الـ»...

ردّت: «الفستق؟».

تهيّأ لمُضيفي أنّ ثمّة تهدّج طفيف في نبرة صوتها، مثلما يحدث للرّجل حين يقع تحت تأثير عقله المنحاز فيجانب الصّواب في الحكم على تصرّفات الآخرين. إذ كنت، أنا، قد سمعت ما سمعه، لكنّي لم ألتقط أيّ اهتزاز في صوتها. بل كانت نبرته متّزنة ولم تشِ بأيّ انفعال.

هزّ مُضيفي رأسه وقال: «أجل، الفستق».

فار من جوفه سائل ما وبلغ حلقه، مخلّفًا في فمه مذاقًا لاذعًا كالفلفل. أربكته تلك النّبرة المألوفة في صوتها، ورغم عجزه عن تحديد وجه الألفة فيها، إلّا أنّها اجتذبته إلى صاحبتها. أشارت المرأة إلى علبة بندورة صغيرة ممتلئة بالفستق، وقالت: «الصّغيرة خمس نيرات، الكبيرة عشر».

ردّ قائلًا: «علبة كبيرة بعشر نيرات إذًا».

هزّت المرأة رأسها بامتعاض، وقالت: « أوغا، حملت أنا على المجيء إلى هنا وقطع كلّ تلك المسافة لتشتري أنت علبة واحدة بعشر نيرات فقط؟ آه، أرجو أنا أن تضيف أنت مزيدًا من النّيرات».

ثمّ ضحكت. أحسّ ثانية بذلك الفوران اللّاذع في حلقه. كان قد انتابه أوّل مرّة إبّان الصّباح. لكنّه ما كان يدري بأنّه علّة من علل سوء الهضم تصيب من يعاني من مصاب أليم أو قلق عظيم وتسبّب له ثورة وهيجانًا في الجّوف. رأيت هذا مرّات ومرّات، لعلّ آخرها وأنا

داخل جسد مُضيفي السّابق، إجِنكيونيه إزيغادي، إبّان قتاله في الحرب البيافريّة قبل نحو أربعين سنة.

ردّ قائلًا: «حسنًا، أريد اثنتين كبيرتين إذًا».

أجابته: «شكرًا، أوغا».

انحنت المرأة وغرفت الفستق بعلبة بندورة كبيرة، ثمّ أفرغتها في كيس بلاستيكي باهت اللّون. لدى انهماكها في إفراغ العلبة للمرّة الثّانية، قال: «أنا لا أريد فستقًا فقط».

خفضت رأسها، وقالت: «إر؟».

لم تنظر إليه مباشرة، لكنّه سلّط ناظريه عليها. أطلق العنان لعينيه، فراحتا تصولان وتجولان في وجهها. كان وجهها خشنًا ومتواريًا خلف إمارات الفاقة والعوز. تراكمت فوقه طبقات متكلّسة من الوسخ، وكأنّها رقع جلديّة، أضفت على لونه درجات متباينة الحمرة. رغم ذلك، تمكّن من رؤية أنّ طلعتها المتوارية تحت تلك الطّبقات كانت بديعة للغاية. لمّا ضحكت، غار غمّازاها عميقًا في وجنتيها ونتأت شفتاها المكتنزتان. كانت ثمّة شامة فوق مبسمها، لكنّه لم يُطل النّظر إليها ولا إلى الثغر المتشقّق، الذي واظبت صاحبته على لعقه لإضفاء مسحة لامعة عليه. بل حطت عيناه هناك في الأسفل، وربضتا فوق الصدر: فوق ثديين عظيمين بينهما واد فسيح. كانا متكورين وممتلئين ونافرين بجموح، مع أن علامات قمعهما، طرفي حمالة الصدر، كانت ظاهرة فوق كتفيها.

سألها:

«إنّا آنو كوه إيبو؟».

حين أومأت برأسها، لم يكلّمها إلّا بلسان الآباء الفصيح: «أودّ أن تدخلي وتمكثي معي قليلًا. أشعر بالوحدة».

ردّت متسائلة: «لا تريد شراء الفستق إذًا؟».

هزّ رأسه وقال: «لا، أنا لا أريد الفستق وحسب. بل أريد أن أتحدّث معك أيضًا».

ساعدها على النّهوض، ولمّا انتصبت واقفة، أطبق فمه على فمها. «أَغباتَّه آلومالو»، رغم تخوّفه من صدودها، إلّا أنّ جموح صبابته تغلّب على صوت عقله. حين فكّ الاشتباك بينهما، رآها منذهلة ومستسلمة له من دون أيٍّ مقاومة. بل أبصر في عينيها ومضة فرح، فعاود الكرّة بقوّة أكبر. جذبها إليه وقال: «أودّ أن تأتي معي إلى الدّاخل».

قالت وقد ضحكت أكثر من السّابق: «إسِه غي إني؟ يا لك من رجل غريب الأطوار».

عندما قالت «غريب»، استخدمت كلمة لم تكن دارجة في لغة الآباء الأوائل المحكيّة في «أوماهيا»، لكنّه طالما سمعها في السّوق الكبير في «إنوغو». فسألها مستفسرًا: «هل أنتِ من إنوغو؟».

«أجل! كيف عرفتَ؟».

«من أيّ ناحية في إنوغو؟».

«أبّولّ آفُر».

هزّ رأسه بالنّفي.

في تلك اللّحظة، سحبت نفسها بسرعة من أحضانه ثمّ طوت ذراعيها وقالت: «أنت غريب بحقّ. هل تعرف حتّى إن كان لديّ صديق أم لا؟».

لكنّه لم يردّ عليها. بل وضع صينيّة الفستق فوق طاولة الطّعام التي كان شيء من ذرق الدّجاج قد جفّ على حافّة من حوافّها. لمّا طوّق خصرها بيديه وجذبها إليه برفق، همست قائلة: «إذًا، هذا ما تريده فعلًا؟».

حين ردّ بأجل، ضحكت ثمّ ضربت على يده بخفّة وهو يفكّ أزرار قميصها.

«تشوكو»، في هذا الوقت، كانت قد انقضت على معرفتي بمُضيفي

سنوات كثيرة. لكن في هذا اليوم، شعرت وكأنّني لم أكن أعرفه أبدًا. فقد تصرّف وكأنّه كان تحت تأثير تعويذة ما، على نحو لا يمكن لأحد أن يتعرّف عليه حتّى لو كان هو ذاته. من أين أتته الجّرأة، وهو الرّاهب المنعزل الذي لم يكن يحفل كثيرًا بالعالم الخارجيّ وما فيه، ليطلب من امرأة أن تطارحه الغرام؟ من أين أتته الشّجاعة، وهو الذي إلى أن اقترح عليه عمّه العثور على امرأة قلّما فكّر في النساء، ليجرد امرأة غريبة، بالكاد قابلها، من ثيابها؟ لست أدري. كل ما أعرفه هو أنه بتلك الجرأة غير المعهودة فيه، نزع ثياب تلك المرأة عنها.

تناولت المرأة يده وشدت عليها ثم غطت فمها بيدها الأخرى، مطلقة ضحكًا مكتومًا. وصلا غرفته. ولما أوصد الباب، بنبض متسارع، قالت:

- مهلا، أنا متسخة.

لكنه لم يعِرْ كلماتها التفاتًا. بل ركَّز في يديه المرتعشتين قليلا وهما تسحبان لباسها الداخلي. ولما انتهى من ذلك رد قائلا:

- لا يهم يا مامي.

سحبها إلى سرير والده الذي توفي فيه، وقد أحرقته شهوة جامحة انفجرت في داخله مثل البركان. وسَمَت شهوته تلك وجه المرأة بانفعالات عجيبة: لحظة من اللذة، ثم لحظة من الألم، كزَّت خلالهما على أسنانها؛ لحظة من النشوة أينعت ضحكة صغيرة؛ لحظة من الصدمة فغرت فيها فمها اندهاشا؛ لحظة من السلام المؤرق أسبلت فيها الجفون كما لو كانت في غمرة نوم لذيذ ومضن. ظلت تلك الانفعالات تتقَّلب فوق وجهها إلى أن حانت لحظة الختام، حين أدركه الذبول فجأة. بالكاد التقط تلك الكلمات التي قالتها: «انزع، أرجوك»، قبيل ارتمائه جنبها، منتهي الصلاحية بالكامل.

وصف الفعل ذاته أمر صعب. فهما لم يتكلما، بل ناحا، وشهقا،

وتنهدا، وكزًّا على أسنانهما. لكن الأشياء التي كانت في الغرفة تكلمت بدلا منهما: أطلق السرير زعيقا مولولا، وتجاذبت الأغطية أطراف حديث خافت الإيقاع كدندنة طفل بلحن ما. حصل كلّ شيء باحتفاء طقس تعبّديّ؛ باندفاع بالغ، وبسرعة بالغة، وبفجاءة بالغة، وبشدّة بالغة، ولكن بحنوّ بالغ أيضًا. في الختام، من بين شتّى الانفعالات التي تقلّبت فوق وجهها، لم يستقرّ سوى الحبور. تمدّد جنبها، ثمّ لمس شفتيها، وفرك رأسها إلى أن ضحكت. كان الرّعب الكامن في قلبه قد تبدّد في تلك اللّحظة. اعتدل جالسًا، وانحدرت حبّة عرق ببطء فوق ظهره، لم يستطع في تلك اللّحظة أن يعرف تمامًا حقيقة ما كان يشعر به. لكنّه استطاع أن يعرف أنّها كانت تشعر بالامتنان، إذ إنّها أمسكت يده الآن وضغطت عليها بقوّة شديدة، حتّى تألّم بصمت. ثمّ استرسلت في الحديث. تكلّمت على نحو نمّ بصورة غير متوقّعة عن ذهن ثاقب، تحدّثت عنه وكأنّها كانت تعرفه منذ زمن بعيد. قالت إنّه رغم غرابة تصرّفه، إلّا أنّ ثمّة شيئًا في روحها طمأنها إلى أنه رجل «طيّب». رجل طيّب، أكّدت على ذلك المرّة تلو الأخرى. قالت: «لم يتبقَ كثير من هؤلاء في هذا العالم». ورغم أنّه بات الآن متعبًا ومرهقًا وشبه غافٍ، إلّا أنّه تمكّن من استشعار نبرة الختام في صوتها. رفعت رأسها ونظرت إلى أسفل فرأت أنه ما زال منتصبًا حتى بعيد إفراغ نفسه فوق أغطية السرير. شهقت وقالت:

«ما زلت منتصبا؟ آنو وم و أو!».

حاول أن يردّ، لكنّ ما خرج من فمه لم يكن سوى غمغمة غير مفهومة.

فعقّبت بالقول: «إهن، أرى أنّك تغرق سريعًا في أسر النّوم».

هزّ رأسه، محرجًا من إرهاقه المفاجئ وغير المتوقّع.

نهضت قائلة: «سأذهب حتّى تتمكّن من الاستغراق في النّوم».

التقطت حمالة الصدر وبدأت بارتدائها، قطعة ثياب لم تستخدمها الأمهات الموقرات قط، فهن كن يغطين أثداءهن إما بقطع قماش تعقد من الخلف أو يتركنها عارية، وأحيانا، كن يغطينها بأصباغ وزخارف فن الـ«أولي».

ردّ قائلًا: «حسنًا، لكن أرجوك أن تأتي في الغد».

استدارت نحوه متسائلة: «لماذا؟ أنت لا تعلم، بل ولم تسأل، إن كان لديّ صديق».

أيقظت هذه الفكرة ذهنه، لكنّ عينيه ظلّتا ثقيلتين. غمغم بكلام مبعثر لم تتمكّن من سماعه لكنّي أنا سمعت مضمونه المحيّر: «إذا أتيتِ، تعالي مرّة أخرى».

قالت: «أرأيت! لم تعد قادرًا حتّى على الحديث. سأذهب. لكن ما اسمك على الأقلّ؟».

أجاب: «تْشِنُنْسو».

ردّدت من خلفه ببطء: «تشي نون سو. اسم جميل. أنا موتو، هل تسمعني؟».

صفّقت بيديها وتابعت: «أنا صديقتك الجّديدة. سأعود في الغد، في مثل هذا الوقت. نومًا سعيدًا».

تناهى إلى سمعه، ويقظته في النّزع الأخير، صوت إغلاق الباب لدى خروجها من البيت. وهكذا ذهبت، حاملة معها رائحتها المميّزة، التي ظلّ بعض منها عالقًا بيديه وفي رأسه.

«**أَغباتَّه آلومالو**»، يقول الآباء الأوائل: «لا ظلّ للمرء بلا نور». كان مجيء هذه المرأة إلى حياته مفاجئًا وعجيبًا، كأنّها كانت قبسًا من نور، سقط فوق سائر الأشياء فانبثقت منها الظّلال. وقع مُضيفي في حبّها. مع الوقت، تبدّلت أحواله، وكأنّها تمكّنت بطلقة مقلاع واحدة من إخراس وجعه، ذلك الكلب الشّرس الذي ظلّ ينبح بلا هوادة في هذا المطلع

المدلهمّ من حياته. كانت الرّابطة التي جمعت بينهما متينة إلى حدّ جبر نفسه الكسيرة. بل إنّ علاقته معي أنا تحسّنت، لأنّ ليس بمقدور المرء أن يتواصل مع قرينه الحامي على خير وجه إلّا إن كان على وئام مع نفسه. لمّا كنت أتكلّم، صار يصغي لي، وصارت حنايا إرادته، مكمنًا لظلال إرادتي. ولو عاش في زمن الآباء الأوائل، لقالوا إنّه شخص نال القبول، ولكنت أنا، قرينه الحامي، قد نلت القبول، كذلك، وما نطقوا إلّا بالصّدق حين قالوا: «أونيه كوي، تشي يا إي كويه»[1].

ما من رجل يعيش مثل تلك اللّحظات ويتمنّى زوالها. لكنّ الأمور، في «أوِي»، لا تجري دومًا وفق ما يشتهيه الرّجل. رأيت هذا مرّات ومرّات. لذا، لم أُدهش أبدًا حين استيقظ مُضيفي يوم انتهى الأمر برمّته مثلما كان يستيقظ في صباحات كثيرة من قبل، متيَّمًا بحبّ تلك المرأة التي وهبته نعيم أربعة أسابيع سوق (ثلاثة أسابيع بحسب تقويم الرّجل الأبيض). بدت الأمور بالنّسبة له عاديّة في ذلك الصّباح، مثلما كانت طوال الأيّام الواحدة والعشرين التي تألّفت منها تلك الأسابيع. ذاك أنّ الرّجل يفتقد إلى نفاذ البصيرة. وهذا، بعدما رأيت ما رأيته، هو أعظم نقاط ضعف الرّجل. فلو كان قادرًا على رؤية القاصي كقدرته على رؤية الدّاني، أو لو كان قادرًا على رؤية المستور كقدرته على رؤية المكشوف، ولو كان قادرًا على سماع المسكوت عنه كقدرته على سماع المنطوق، لنجا من كثير من المصائب العظيمة. بل ما هي المصيبة التي كانت ستكون قادرة على قصم ظهره؟

قضى مُضيفي ساعات ذلك السّبت منتظرًا وصول حبيبته. لم يعرف أنّ ما من طارق كان سيطرق في ذلك اليوم الطّريق الذي يقطع مزرعته على طول كيلومترين وصولًا إلى الشّارع الرئيسيّ. جلس أمام البيت وعيناه على طول ذلك الطّريق منذ الصّباح الباكر، لكن حين أشرف

(1) «حين يقول المرء أجل، فإنّ قرينه الحامي، أيضًا، يقول أجل».

النّهار على الزّوال، انبثقت من لجّة عميقة في نفسه أمور لم تكن قد دارت في خلده من قبل، ثمّ عقدت اجتماعًا مهمًّا معه. لم يكن قد دار في خلده أن يسأل موتو عن عنوانها. عندما سألها ذات مرّة، راجيًا إيصالها إلى البيت، قالت إنّ عمّتها ستعاقبها بشدّة لو اكتشفت أنّ لديها صديق. لم يكن لدى موتو هاتف. كلّ ما يعرفه عنها هو أنّها آنسة من قرية في «أبّولّ آفُر»، تقوم على خدمة عمّة لها، سيّدة كانت تقيم معها ولا تربطها بها صلة قرابة، وتعمل على قضاء حوائجها في المدينة. لم يكن لديه علم بأيّ شيء آخر.

انقضى ذلك اليوم أيضًا، وجاء الذي يليه على عجل، كأنّه كان عربة غريبة أعلنت عن وصولها عبر ضوضاء بوقها ووقع عجلاتها المهيب. هرع إلى الخارج لاستقبالها والتّرحيب بها، مرتعدًا من وطأة التّرقّب. لكنّه حين فتح الباب، لم يجد أحدًا. لا شيء سوى عربة قديمة صدئة وصوت حديد مهترئ ساخر. حلّ اليوم التّالي متّشحًا بألوان سماء مألوفة، سماء ذكرته بممارسته الحب مع «موتو» في المطبخ وسماعه لأول مرة فرج امرأة ينفث منه الهواء إلى الخارج. كان أوّل يوم استحمّت فيه موتو في بيته، وارتدت ثوبًا كان قد اشتراه لها: فستانًا أزرق لامعًا من أقمشة «أنكارا»[1]، غسلته حينذاك داخل سطل في حمّامه ونشرته فوق حبل الغسيل المعلّق في الفناء بين شجرة الغوافة والسّور. أسهب وقتذاك في الحديث عن حياته إلى أن تفطّن، في لحظة من الكشف، كم أصبح تاريخه ثقيلًا. عندما حلّ العصر، عرف بأنّها لن تأتي. قضى النّهار في الرّقود وحيدًا، شاردًا، ذاهلًا، ومنصتًا إلى قرع المطر وجه الأرض وسقوط حبّاته في سطل داخل الغرفة.

«أُوزه بروَّه»، أصبحت أنا نفسي قلقًا. فليس من السّهل على أيّ

---

(1) أقمشة مميّزة بألوانها المشرقة وزخارفها الإفريقيّة الصّميمة وبرسومات الحيوانات البرّيّة.

قرين حام رؤية مُضيفه يفقد السّعادة بعد أن عثر عليها. لهذا، كنت أنصتُ مترَقّبًا صوت مجيء هذه المرأة بلهفة، وأحيانًا، أثناء انشغاله في مزرعة الدّجاج، كنت أترك جسده وأقف في الخارج على أمل رؤيتها في الشّارع وبثّ ما أراه في رأسه. لكنّي لم أرَ أنا، أيضًا، أيّ أثر لها. سخرت منه في تلك اللّيلة عبر المنام أرواح سقيمة، فاستيقظ في الصّباح مضطربًا. رأى في منامه أنّه مع موتو في مكان ما، معبد أو كنيسة قديمة. كانا يطالعان معًا رسومًا جداريّة وصورًا لقدّيسين. ثمّ تفحّص إحدى الصّور، لرجل فوق شجرة، عن كثب، ولمّا استدار، لم يرها. كان في مكانها صقر. حدّق إليه بعينين صفراوين، ومنقار نصف مفتوح، ومخالب فتّاكة شدّت على حافّة أحد المقاعد بقوّة. لم ينبس بحرف، لأنّه أدرك أنّها كانت ذلك الصّقر[1]. «إيبونو»، أنت تعلم أنّ المعرفة في عالم الأحلام لا يُبحث عنها؛ الأشياء هناك تُعرَف ببساطة. وهكذا، أدرك مُضيفي أنّ المرأة التي كان ينتظرها أصبحت طيرًا. وبعد أن حُمل على معرفة ذلك، استيقظ من نومه. مع نهاية الأسبوع الثّاني، وهطول الأفكار على ذهنه بما يشبه فمًا عتيقًا لا يكفّ عن البصق في رأسه، أدرك أنّ شيئًا ما قد حصل وأنّه كان من الممكن ألّا يرى موتو ثانية أبدًا. كان هذا، «غاغان أَوغو»، بمثابة صحوة: يمكن للرّجل أن يعثر على امرأة تقبل به وتحبّه، ويمكن لها أن تختفي ذات يوم بلا سبب. كانت وطأة هذا الإدراك كفيلة بتحطيمه لولا أنّ الكون تداركه في ذلك اليوم. إذ إنّ من بين طرق نجاة الرّجل من المعاناة، الإقدام على فعل عمل استثنائيّ، عمل سيتذكّره دائمًا. فهذا العمل،

(1) رؤية الصّقر في المنام نذير شؤم. ودلالته عند الإيبو بالنّسبة للرّجل أنّ هناك من يحسده بشدّة على سعادته مع امرأة ما. وقد تعني أنّ علاقته بها ستنتهي. أمّا بالنّسبة للمرأة، فرؤية الصّقر في المنام تعني أنّ سمعتها لطّخت بنميمة تطعن في شرفها.

العصيّ على النّسيان، يرغم الجّرح النّازف على الالتئام، ويعين المتألّم على الشّفاء.

في ذلك اليوم، وبعد أن نثر الحبوب والذّرة فوق أكياس مفرودة في أنحاء الفناء، تمدّد فوق أرضيّة المطبخ، وراح يراقب ديوكه ودجاجاته وكتاكيتها وهي تنقّب الأرض جنبًا إلى جنب. عبر النّافذة، التقطت عينه صقرًا يحوم فوق طيوره، متحيّنا لحظة انقضاض مناسبة. هبّ إلى مقلاعه المعلّق على الجّدار، التقطه ثمّ انتشل بعض الحجارة من سلّة القصب الصّغيرة قرب النّافذة. هزّ الحجارة ونفخ ما عليها من نمل صغير أحمر. ثمّ أغمض عينًا من عينيه وتوارى خلف الباب، ثبّت حجرًا في المقلاع المطّاطيّ ووقف متأهّبًا. كان الطّائر قد بلغ منتصف مسافة الانقضاض، لكنّه عاد وحلّق عاليًا كي لا يراه الدّجاج. ثمّ فرد جناحيه على اتّساع، وبلمح البصر، انطلق بسرعة مذهلة صوب الفناء. تتبّعه بنظره إلى اللّحظة التي حاول فيها اقتناص أحد الدّيوك المنشغلة بالعلف قرب السّور، وعندئذ أطلق مقلاعه.

صحيح أنّه كان ماهرًا بهذا الضرب من الرّماية، وأنّه تعوّد منذ نعومة أظفاره على رمي الحجارة بالمقاليع، لكنّ كيفيّة تمكّنه من إصابة الطّائر في جبينه تظلّ أمرًا عصيًّا على الفهم. كان في الأمر شيء غريزيّ ما، شيء إلهيّ المصدر. كما لو أنّ هذا العمل، يا «تشوكو»، جرى التدرّب عليه قبل سنوات بعيدة، قبل أن يُولد، وقبل أن تكلّفني بأن أكون قرينه الحامي. هذا العمل نفسه كان بلسمًا لجراحه. كأنّه ذلّل له سبل الانتقام من تلك القوّة الأزليّة التي كان عليه أن يصفّي حسابه معها، تلك اليد الخفيّة التي كانت تخطف منه كلّ شيء. ذلك الصّوت الذي بدا وكأنّه يقول: «انظر، إنّه سعيد منذ أجل طويل، حان الآن موعد إرجاعه إلى مطرحه، إلى ذلك المكان المظلم مرّة ثانية». انطلاقًا من نهاية ذلك الأسبوع الثّاني، استأنف مُضيفي العيش من جديد.

تواصل هطول الأمطار طوال الأيّام اللّاحقة، فتذكّر مُضيفي سنة من سنوات طفولته. آنذاك، كانت أمّه على قيد الحياة، ولأنّ الأمطار دمّرت بيت أحد الجّيران، لجأت العائلة المنكوبة إلى بيت مُضيفي. خلال تلك الأيّام المطيرة، لم تستطع دجاجاته الخروج من القنّ إلى الفناء. وهو، كذلك، تجنّب معظم الأشياء وانكفأ إلى عالم منعزل كان قد أصبح معتادًا عليه. «تْشُوكْو»، سيعيش على هذا المنوال طوال الأشهر الثّلاثة التي تلت اختفاء موتو، متجنّبًا حتّى إلوتشوكو قدر ما استطاع.

«**إجانغو إجانغو**»، يقول الآباء العظماء: «لا يموت الطّفل لأنّ الحليب جفَّ من صدر أمّه». كان هذا القول مصداقًا لما حدث مع مُضيفي. إذ سرعان ما اعتاد على فقدان موتو وعاد إلى الخروج من البيت لقضاء حوائجه اليوميّة. لذا، حين ذهب إلى محطّة قريبة لأجل التزوّد بالوقود، في اليوم الذي صادف انتهاء تلك الأشهر الثّلاثة، خرج من دون توقّع أيّ شيء، بل كان يتوقّع أن يرجع إلى بيته مثلما خرج منه. انتظر في الطّابور الطّويل أمام المحطّة إلى أن وصل أخيرًا إلى مضخّة البنزين، ولما ترجّل كي يفتح خزّان الوقود للعاملة المسؤولة، لمح يدًا لوحّت له من طابور السّيّارات في الخلف. في البداية، لم يتحقّق من صاحب اليد الملوّحة، إذ أراد أن يخبر العاملة، التي وضعت الخرطوم في الخزّان، بأنّه يريد كمّيّة من البنزين تبلغ قيمتها ستمئة نيرة.

قالت العاملة: «هذا يعني ثمانية لترات. أي سيفنتي في، سيفنتي في نيرة».

أجابها: «أوكيه مدام».

حين ضغطت المرأة مفتاح المضخّة وبدأ العدّاد بالدّوران، استدار إلى الخلف، فرأى أنّ صاحب اليد الملوّحة لم يكن سوى المرأة فوق الجّسر. كيف كان، يا «تشوكو»، سيخطر في باله بأنّه في مثل هذا

اليوم العاديّ البائس، سيأتيه، فجأة، ذلك اليوم الذي طالما بحث عنه، وسيجلي له نفسه طواعيّة؟

رغم أنّه لم يزحزح عينيه عن عدّاد المضخّة، خشية التعرّض للغبن بعد أن كان قد سمع عن تلاعب أصحاب المحطّات بعدّادات الضّخّ، إلّا أنّ هذه المصادفة الصّادمة التفّت حول غصن من أغصان ذهنه كالثّعبان. بخليط من العجلة والقلق، ركن جانب المحطّة، قرب مصرف مائيّ منحدر باتّجاه الشّارع في الأسفل. بصرف النّظر عن التّقويم الذي لجأ إليه- تقويم الآباء الذي يتألّف فيه الأسبوع من أربعة أيّام، والشّهر من ثمانية وعشرين يومًا، والسّنة من ثلاثة عشر شهرًا، أو تقويم الرّجل الأبيض الذي أصبح شائعًا الآن بين أبناء الآباء العظماء- كانت ثمانية أشهر قد مرّت على تلك اللّيلة التي ضحّى فيها بديكين من طيوره الدّاجنة لثنيها عن رمي نفسها إلى التّهلكة. أثناء انتظاره، عاد بذاكرته إلى الوراء، متأمّلًا سائر ما حصل له منذ ذلك اللّقاء. لمّا ركنت سيّارتها وراءه، وترجّلت للقائه، أحسّ أنّ ذلك التّوق الذي بدا وكأنّه تبدّد منذ زمن طويل، عاد وطفا إلى السّطح من جديد، كما لو كان مختبئًا ببساطة في جيب قلبه الخلفيّ مثل قطعة النّقود المنسيّة.

4

فرخ الإوزّ

«**أننغا رِنغا أُبياليلي**»، عندما يواجه الرّجل أمرًا يذكّره بحادث مرير في ماضيه، فإنّه سيقف متلكّئًا أمام باب التّجربة الجّديدة، مقلّبًا في رأسه إن كان يودّ الدّخول إلى معتركها أم لا. لو كانت قدماه قد اندفعتا وخطتا، بالفعل، خطوة أو اثنتين، فإنّه قد يتقهقر إلى الوراء ويعيد النّظر في الأمر برمّته. ذاك أنّ أيّ رجل، مثل مُضيفي، مقيَّد بأغلال ماض لا فكاك منه، يخامره الشّكّ دومًا في أنّ الماضي قد يعيد نفسه. لذا، وتجربة موتو ما زالت حاضرة في ذهنه، تعامل مُضيفي مع رغبته تجاه هذه المرأة بحذر. استطلعها من مكانه، فلاحظ أنّها تغيّرت كثيرًا، وكأنّها ليست تلك المرأة نفسها التي كانت مسكونة بالألم والذّعر حين قابلها لأوّل مرّة في تلك اللّيلة. كانت أطول ممّا يتذكّر عبر تلك المصادفة السّريعة، وعيناها يؤطّرهما قوس رقيق، وجبينها لامع مشدود بشعرها الأجعد المسحوب إلى الوراء.

بدت أكثر جمالًا من تلك الصّورة التي رسمها لها في ذهنه منذ أمد بعيد. أقبلت عليه بعد أن انتهت من التزوّد بالوقود، ثمّ صافحته وعرّفته على نفسها باسم نْدالي أُبيالور. كلّمته بلسان الرّجل الأبيض، مثلما فعلت فوق الجّسر. عرّفها هو الآخر على نفسه وأخبرها باسمه. أثارت في نفسه شيئًا من التململ، لا لقوّة حضورها فقط، بل أيضًا لأريحيّتها في التّحدّث بذلك اللّسان الذي كان نادرًا ما يستخدمه.

كان يتملّكه الفضول لمعرفة كيف تمكّنت من التّعرّف عليه، فأشبعت فضوله وهي تقول ضاحكة: «باصك الصّغير، العلامة الضّخمة التي يحملها، ’أوليسا للزّراعة‘، أتذكّرها جيّدًا. رأيتك منذ شهر تقريبًا، قرب تقاطع «أُوبي»، لكنّك كنت مسرعًا للغاية. مع ذلك، كنت واثقة من أنّني سأراك ثانية».

علا بوق سيّارة طالبًا منها التّنحّي عن الطّريق، وإثر مرور تلك السّيّارة، استأنفت الحديث قائلة: «كنت أبحث عنك لأشكرك على ما فعلته في تلك اللّيلة. شكرًا جزيلًا لك».

ردّ بإنجليزيّة ركيكة: «شكرًا أنت، وأنا أيضًا».

أطبقت جفنيها أثناء ردّه، لكنّها فتحتهما الآن، ثمّ قالت: «إنّني في طريقي إلى الكلّيّة الآن. هل بمقدورك أن تأتي إلى ’مستر بِغز‘؟».

أشارت صوب مطعم على الجّانب الآخر من الطّريق ثمّ استأنفت كلامها: «هل بمقدورك أن تأتي إلى هناك في السّادسة عصرًا؟».

أومأ برأسه، فقالت: «أوكيه، تْشِنُنْسو. باي باي، سعدت بلقائك ثانية».

راقبها لدى رجوعها إلى سيّارتها متسائلًا في نفسه، هل كان، طوال الفترة التي قضاها في البحث عنها، قد رآها من دون أن يعلم بأنّها كانت هي؟

التقط في عينيّ تلك المرأة شيئًا ما؛ شيئًا لم يستطع سبر غوره. ثمّة أوقات يعجز فيها الرّجل عن استيعاب حقيقة مشاعره تمامًا، وهذا الأمر لا يقتصر على الرّجل فقط، بل يشمل، كذلك، قرينه الحامي. في هذه الأحيان، تنتاب الحيرة القرين الحامي، ولا يعرف تحديد ما بوسعه قوله أو فعله. لذا، ظلّ هذا الأمر الملغز معلّقًا فوق رأس مُضيفي مثل الغمامة الصّغيرة لدى توجّهه إلى البيت كي يجهّز نفسه للقائها عصر ذلك اليوم. أمّا الأمر الذي كان واضحًا بالنّسبة لي وله، فهو أنّ تلك

المرأة لم تكن مثل أيّ امرأة قابلها من قبل. فاللّهجة البارعة التي كانت تتقنها، لا يمكن أن يملكها إلّا شخص عاش في بلاد البِيض الأجنبيّة. كما أنّ إمارات التّرف الواضحة في سلوكها ومظهرها، لم تكن تشبه في شيء مظهر موتو الفوضويّ، أو ذلك الامتزاج العجيب بين الاتّزان والشّراسة في شخص الآنسة جاي. «إيبونو»، حين يقابل الرّجال أشخاصًا يعلونهم في المقام والمرتبة، فإنّ هؤلاء يحسبون تصرّفاتهم بدقّة، ويتفحّصون أنفسهم بعناية، ويحاولون الظّهور والتّصرّف بصورة تحفظ لهم كرامتهم وتنتزع تقدير واحترام من يفوقونهم في المرتبة. رأيت هذا مرّات ومرّات.

وهكذا، حين وصل مُضيفي إلى بيته، مدّ بساطين ونثر فوقهما حبوب الدّخن والذّرة. ولما فتح باب قنَّيّ الطّيور البالغة، هرعت الطّيور في الحال نحو البساطيْن واحتشدت فوقهما. فبادر، على عجل، إلى ملء أوعية الشّرب بالماء ووضعها داخل القنَّيْن. ثمّ أخرج إحدى البدل التي ورثها عن أبيه، وفرك بقعة وسخ عنها بخرقة اقتطعها قبل بضعة أيّام من كيس للحبوب. توجّه إلى الفناء وعلّقها على غصن الشّجرة حتّى تنشف. استحمّ، ولمّا همّ بإحضار البذلة، تنبّه إلى شعره الأشعث. كان قد تركه نحو ثلاثة أشهر من دون تهذيب، منذ اليوم الذي أصرّت فيه موتو على أن تقصّه له، فقصّته، وسارع هو كالمجنون إلى كنس الفناء، خوف أن تبتلع إحدى دجاجاته شعرة من شعره. على جناح السّرعة، انطلق إلى صالون الحلاقة في شارع النّيجر، حيث اعتاد على قصّ شعره منذ الصّغر. كان حلّاقه، السّيّد إكونِنه، قد أُصيب بالفالج، وحلّ الآن ابنه الأكبر، صنداي، في مكانه. عندما أتى دوره وشرع صنداي في قصّ شعره، تعطّلت ماكينة الحلاقة فجأة. لدى انتباه صنداي لانقطاع التيّار الكهربائيّ، هرع إلى خلف المحلّ لتشغيل مولّد الكهرباء الاحتياطيّ، لكنّه لم يعمل. حدّق مُضيفي إلى صورته المطلّة

من المرآة: كان نصف شعره محلوقًا؛ ونصفه الآخر أشعث متشابكًا. تلفّت هنا وهناك، ترجّل عن الكرسيّ الدوّار، ثمّ عاد إلى الجّلوس ثانية. أصابه التململ والقلق، فالسّاعة الدوّارة، ذلك الشّيء العجيب الذي بات أطفال الآباء يقيسون به الوقت الآن، كانت تلفّ وتقترب من الدّقّة الموعودة التي ينبغي أن يقابل فيها تلك المرأة. عاد صنداي بعد برهة قصيرة، ويداه مسودّتان، وقميصه مبتلّ بالعرق، وسرواله ملطّخ بالوسخ جرّاء محاولة إصلاح المولّد. ثمّ أعلن قائلًا: «تعطّل المولّد».

هبط قلب مُضيفي، وسأله على الفور: «هل يحتاج إلى وقود؟».

أجابه «صنداي»: «لا، عطل في مفتاح التّشغيل. عطل في مفتاح التّشغيل. بحاجة إلى صيانة وإعادة تشبيك الأسلاك. آسف جدًّا جدًّا يا ننسو، سأنهي لك الحلاقة فور أن تصلح شركة الكهرباء المشكلة ويعود تيّار الكهرباء، أوه. أو في الغد، بعد أن أصلح المولّد. بِكو إولويه، نْوانه نم، أوه».

هزّ مُضيفي رأسه وردّ بلسان الرّجل الأبيض قائلًا: «لا عليك».

استدار ثانية نحو المرآة التي انتابها الآن الشّحوب والغبش، ورنا إلى رأسه نصف المحلوق. انتزع صنداي إحدى القبّعات الكثيرة المعلّقة على الحائط وناولها له. وضعها فوق رأسه ومضى إلى المطعم.

«إيبونو»، إنّ من أهمّ الأمور الفارقة بين جيل الآباء العظماء وجيل الأبناء، هو تبنّي الأبناء لفكرة الرّجل الأبيض عن الوقت. منذ أمد بعيد، تصوّر الرّجل الأبيض أنّ الوقت إلهيّ، كينونة لا مناص للرّجل من الخضوع لإرادتها. إثر دقّة محدّدة، سيصل المرء إلى مكان معيّن، واثقًا من أنّ فعاليّة ما ستبدأ في الموعد المضروب. كأنّ لسان حالهم يقول: «أيّها الأخوة، إنّ يدًا إلهيّة حلّت بيننا، وقد ضربت ميقات مشيئتها في الثّانية عشرة وأربعين دقيقة، لذا علينا أن نخضع لإملاءاتها». وإذا

وقع حدث ما، يرغم الرّجل الأبيض نفسه على أن يعزوه إلى الوقت؛ «في هذا اليوم، العشرين من كانون الثاني\يناير من عام 5891، وقع كذا وكذا». في المقابل، كان الوقت بالنّسبة للآباء الأجلّاء أمرًا روحيًّا وبشريًّا في آنٍ واحد. كان في جزء منه، متجاوزًا لحدود سيطرتهم ومنظّمًا من قبل القوّة نفسها التي جلبت الكون إلى الوجود. لذا، حين كانوا يريدون تحديد بداية موسم أو وصف عمر يوم أو إحصاء عدد السّنين، كانوا يلتفتون إلى الطّبيعة. هل بزغت الشّمس؟ إن كان كذلك، فهو، إذًا، يوم جديد. هل اكتمل القمر بدرًا؟ إن كان كذلك، فعلينا ارتداء أبهى الحلل، وإفراغ حظائرنا، وتجهيز أنفسنا للاحتفال بالعام الجّديد! إن كان ما نسمعه حقًّا هو هدير الرّعد، فلا بدّ من أن يكون موسم الجّفاف قد انتهى، وأن يكون موسم المطر قد هلَّ علينا. لكنّ الآباء الحكماء كانوا يؤمنون أيضًا بأنّ ثمّة جزءًا من الوقت بوسع الرّجل أن يسيطر عليه، وهذا الجّزء وسيلة تمكّنه من إخضاع الوقت لسلطان إرادته. بالنّسبة لهم، لم يكن الوقت إلهيًّا؛ بل كان عنصرًا من العناصر، كالهواء، يمكن استغلاله. يمكنهم استغلال الهواء في إشعال النّار، وفي النّفخ على عيون البشر لطرد الحشرات، أو حتّى لحمل النّاي على عزف الموسيقى. بهذه الصّورة يمكن إخضاع الوقت لإرادة الرّجل. على سبيل المثال، حين تقول جماعة من الآباء: «سنعقد نحن، شيوخ 'آما أكبو'، اجتماعًا عند غروب الشّمس»، فلا شكّ في أنّ هذا التّوقيت هو توقيت فضفاض، إذ يمكن أن يكون بدء الاجتماع في بداية الغروب، أو في منتصفه، أو في نهايته. لكنَّ هذه النّقطة ليست هي النّقطة المهمّة. بل النّقطة المهمّة هنا هي معرفة هؤلاء بعدد من سيأتي إلى الاجتماع. فمن يصل منهم أوّلًا، سيجلس منتظرًا وصول الآخرين وسيقضي الوقت في مسامرة الآخرين إلى أن يبلغ العدد النّصاب، وحين يكتمل النّصاب يكون هذا هو وقت بدء الاجتماع.

وهكذا، حين دقّت السّاعة دقّتها المحدّدة بالضّبط، وصلت هي إلى هناك قبل وصوله. بل وبدت أبهى ممّا بدت عليه في السّابق، متزيّنة بأحمر شفاه قانٍ ذكّره بالآنسة جاي، ومرتدية فستانًا مرقّطًا مثل جلد النّمر. إثر جلوسه وتعديل قبّعته للتّأكّد من إخفائها كافّة أجزاء رأسه، كلّمته قائلة: «إيه، نُنسو، أريد أن أسألك. لماذا توجّهت إلى ذلك الجّسر في تلك اللّحظة ثمّ توقّفت هناك؟».

لمّا همّ بالإجابة، رفعت يدها، ثمّ قالت وقد أطبقت جفنيها: «بكلّ جدّيّة، أريد أن أعرف، حقًّا، لماذا ذهبت إلى هناك في تلك اللّحظة؟».

رفع رأسه ورمى ناظريه إلى الأعلى، صوب السّقف، كي يتفادى نظراتها. ثمّ انتقى كلماته بحذر وعناية، لأنّه كان قلّما يضطرّ إلى الحديث بلسان الرّجل الأبيض، وقال: «لا أدري يا مامي. شيء ما حملني إلى هناك. كنت في طريق العودة من 'إنُغو' البعيدة، ثمّ رأيتك. قلت في نفسي دعني أتوقّف».

اختطف نظرة خارج النّافذة، فوقعت عيناه على طفل في الطّريق، كان يدحرج إطار درّاجة بعصا، ومن خلفه قاطرة من الأطفال. قالت: «لقد أنقذت حياتي في ذلك اليوم. سوف لن»...

قاطعها رنين هاتفها، فكّته من منديل أخرجته من محفظتها، ولمّا نظرت إلى شاشته قالت: «آه! كان من المفترض أن أذهب في هذا الوقت مع والديَّ إلى مكان ما. لكنّي نسيت هذا تمامًا حين قابلتك. آسفة للغاية، لكن عليّ أن أذهب فورًا».

ردّ قائلًا: «أوكيه، أوكيه»...

قاطعته: «أين تقع مزرعتك؟ أودّ أن آتي لرؤيتها. في أيّ شارع؟».

أجاب: «رقم 12 في شارع آمازُنكو المتفرّع من شارع النّيجر».

قالت: «أوكيه، ما رقم هاتفك؟».

مال نحوها ونقر الأرقام على جوّالها. قالت على عجل: «سآتي إلى

هناك في أحد الأيّام المقبلة. سأتّصل بك لاحقًا، كي نتمكّن من اللّقاء ثانية».

لأنّني لاحظت نموّ تلك البذرة القويّة داخل مُضيفي- بذرة حال أن تُلقى في روح الرّجل، تُطلق، في الأسفل، جذرًا ضاربًا، وفي الأعلى، ثمارًا، ثمار محبّة تتحوّل إلى حبّ- خرجتُ منه ولحقت تلك المرأة. أردت أن أعرف حقيقة نواياها؛ إن كانت ستبقى أو تختفي، مثلما فعلت تلك التي كانت قد سبقتها. تتبّعت المرأة أثناء قيادة سيّارتها، فرأيت في وجهها ما دلّ على الحبور. سمعتها تقول: «تشِنُنْسو، يا له من رجل طريف»، ثمّ ضحكت. كنت أرقب ما يجري بفضول، وإذ بشيء يطفو من داخل تلك المرأة، مثل بخار كثيف متصاعد. وفي طرفة عين، تجلّت أمامي روح لها وجه وهيئة تلك المرأة، عدا عن جسمها النّورانيّ المغطّى بنقوش وزخارف فنّ «أولي»، وأطرافها، المزيّنة بحليّ من الخرز والودع. كانت قرينتها الحامية. ورغم كثرة ما ذكر لي إبّان وجودي في كهوف الأرواح عن امتلاك القرينات الحاميات لإناث الجنس البشريّ قوى استشعار أقوى، إلّا أنّني دُهشت من مقدرتها على رؤيتي حين كانت ما تزال داخل جسد مُضيفتها. قالت بنبرة رفيعة تماثل أصوات الحسناوات اللّواتي يقطنّ في الطّريق إلى «آلاندِه تشِه»، موئل الأسلاف في السّماوات العُلى: «يا ابن الأرواح، ما الذي تريده من مُضيفتي؟».

قلت: «يا ابنة الرّبّة 'آلا'، جئت بسلام ولم آتِ لإثارة أيّ متاعب».

«تشوكو»، رأيت القرينة الحامية، التي كانت ترتدي الجّلد النّورانيّ البرونزيّ الذي كسوتَ به القرينات الحاميات لبنات البشر، وقد تفحّصتني بعينين لهما لون اللّهيب الصّافي. ولمّا همّت بالكلام، ضربت مُضيفتها بوق السّيّارة، وأوقفتها وقوفًا اضطراريًّا مفاجئًا ثمّ صرخت: «بحقّ المسيح! ما هذا يا أوغا، أليست لديك أيّ فكرة عن قيادة السّيّارات؟». كانت ثمّة سيّارة قد اعترضت طريق المرأة وانعطفت

بحدّة إلى شارع آخر. إثر ذلك، انطلقت المرأة مجدّدًا وقد تنهّدت بصوت عالٍ. ربّما لأنّ القرينة الحامية اطمأنّت على سلامة مُضيفتها الآن، استدارت نحوي وكلّمتني بلغة «بَنْمو» الباطنيّة قائلة: «نصبت مُضيفتي في معبد قلبها تمثالًا صغيرًا. نواياها بصفاء أنهر أُسميري السّبع، ورغباتها ببياض الملح الصّافي تحت بحيرة إي اوْشه».

قلت: «صدقتِ، إم وآي ابُييف، يا قرينة نور الفجر الحامية، وابنة أَوغوه غوه، وآلا، وكوموسو. ما جئت إلّا للتأكّد من أنّها راغبة فيه كذلك. سأعود برسالتك كي أطمئن مُضيفي. ليكن لمّ شملهما مدعاة لجلب الرّضا والحبور في حياتهما خلال هذه الدّورة الحياتيّة وحتّى الدّورة السّابعة والثّامنة أيضًا، أوى ها آسا، أوى ها آساتو!».

فتمتمت ثمّ اختفت في جسد مُضيفتها بلمح البصر: «إسيه[1]!».

«أُوزه بروّه»، غمرتني هذه الاستشارة بفرحة عظيمة. فعدت إلى مُضيفي، بهذه التّطمينات، وقدحت في ذهنه أنّ المرأة تحبّه.

«أَكوآكورو»، رغم ما قدحته في ذهنه، إلّا أنّ مُضيفي ظلّ متوجّسًا. لم يكن بمقدوري أن أطلعه على ما فعلته، لأنّ القرناء الحماة لا يستطيعون التّواصل مع مُضيفيهم بشكل مباشر. بل حتّى لو حاولنا، فإنّ البشر لن يتمكّنوا من استيعاب ما يحدث. نحن لا حيلة لنا غير قدح الأفكار في الأذهان، ولو استحسنها المُضيف وأحسّ بأنّها مقبولة، فقد يتبنّاها ويعمل بموجبها. لذا، لم يكن أمامي من خيار آخر غير مراقبة مُضيفي وقد راح يفكّر في الأمر بنبض متسارع، خوفًا من أنّها ستختفي ثانية مثل موتو. طوال أيّام، ظلّ يراقب هاتفه بفضول بالغ، منتظرًا مكالمة منها. ثمّ، في اليوم الرّابع، أثناء استلقائه فوق أريكة غرفة

---

(1) «إسيه»: لفظ يستخدمه الايبو للتّوكيد على الدّعاء. وهو يقابل «آمين» في الثّقافة العربيّة.

الجّلوس، سمع صوت سيّارة عبرت حدود مزرعته واتّجهت صوب بيته. كان ذلك بعد الغروب، حينما شاخت ظلال كانت قد استطالت في ذروة النّهار. لمّا أطلّ من النّافذة، رأى سيّارة ندالي وقد شارفت على الوصول. فهتف قائلًا: «تشوكو!».

كان قد تناول طعام الغداء قبل مدّة وجيزة، والطّبق البلاستيكيّ ما زال مرميًّا فوق الطّاولة الصّغيرة بقربه، بقايا الماء فيه طفا فوقها كيس فستق فارغ وكيس حليب بودرة «كاوبيل». ألقى الصّحن في حوض المطبخ، ثمّ ركض إلى غرفته وارتدى السّروال المرميّ فوق السّرير. اختطف نظرة إلى المرآة المعلّقة فوق حائط غرفته، ممتنًّا من صنداي الذي، وأخيرًا، أكمل له الحلاقة قبل يومين. لمّا هرع إلى غرفة الجّلوس، سقطت عيناه على صندوق مكعّبات السّكر الأزرق فوق طاولة الوسط، كان نصف مفتوح وإلى جنبه بقعة وسخ متكلّسة. أمّا عند أرجل الطّاولة، فكان كيس البلاستيك الذي كان يحتفظ فيه بالخيطان والإبر، وكيس مسامير صغير. طرقت الباب لدى تخلّصه من تلك الأكياس. رجع ثانية وألقى نظرة خاطفة ليرى إن كان بإمكانه ترتيب ما يمكن ترتيبه، وحين لم يرَ شيئًا معوجًّا يمكن إصلاح أمره بسرعة، هرع إلى الباب، ويداه تشدّان على صدره خشية أن يقفز قلبه من بين الضّلوع. ثمّ فتح الباب. سألها حال دخلت: «كيف عثرت عليَّ؟».

ردّت: «وهل تسكن في القمر أيّها السّيّد؟»

فأجاب: «لا، لكن كيف يا مامي؟ المزرعة متوارية عن الأنظار، والأرقام لا واضحة، آسِف».

هزّت رأسها وابتسمت برقّة. ثمّ نطقت اسمه بأحرف مقطّعة وبنبرة بطيئة، مثل طفل بدأ يتعلّم الكلام، قائلة: «نُونْ... سُو. هلّا دعوتني إلى الجّلوس؟».

جال ثانية بعينيه في أرجاء الغرفة ثمّ أومأ لها بأن تتفضّل. جلست فوق الأريكة الكبيرة قرب النّافذة، أمّا هو فلم يبرح موضعه لدى الباب. ثمّ نهضت، على الفور تقريبًا، وبدأت في التّجوّل داخل الغرفة. وفي الأثناء، داهمه القلق من أنّها قد تتنبّه إلى رائحة الهواء العطن. فرصد أيّ علامات للقرف على أنفها، إن كانت ستحكّه أو تغطّيه بيدها. عندئذ شدّت انتباهه، وبقلق أعظم، بقعة وسخ واضحة للعيان فوق الحائط. ولمّا خاف من أن تكون زرق دجاج، تحرّك من مكانه، وسترها بظهره، راسمًا ابتسامة كي يواري ارتباكه. قالت: «هل تعيش بمفردك يا نُنْسو؟».

ردّ على عجل: «أجل، أنا أعيش هنا بمفردي. أنا فقط. شقيقتي لا تأتي، لكنّ عمّي يزورني أحيانًا».

لم تُترجِم إيماءتها إلى التفاتة، بل تابعت المشي خلال ردّه ودلفت إلى المطبخ. الحالة التي كان عليها المطبخ أصابته بهبوط في القلب. شباك العنكبوت الممتدّة على جوانب السّقف الأربعة كانت مسودّة من السّخام. أمّا الحوض فكان مكدّسًا بالصّحون القذرة، وفوق أحدها ليفة مقتطعة من قماش شوال مقلّم، وفي شباكها قبعت فلقة صابونة خضراء متآكلة. كان ثمّة شيء معيب أكثر بالنّسبة له، مع أنّه غير مسؤول عنه بشكل مباشر: صنبور الماء فوق الحوض. بعد تآكله على مدار السّنين، أزيل الصّنبور ببساطة واستبدل بكيس بلاستيكي أسود. موقد الكيروسين كان قذرًا كذلك. كان يتربّع فوق لوح خشب مسودّ وقد ارتدى جلد الدّجاجة التي شواها قبل أيّام فوق حوامله العليا، وعلى طول محيطه العلويّ، التصقت حبّات أرزّ متيبّسة وما يشبه قشر البندورة النّاشفة. وأبشع من كلّ ذلك، في الزّاوية البعيدة، خلف الباب المؤدّي إلى الفناء، كانت تقبع تلك السلّة الممتلئة بقاذورات منتنة.

«إيبونو»، كان سيخرُّ ميّتًا فورًا لو تلكّأت داخل المطبخ للحظة ثانية

بعد أن هيّج إشعالها للنّور قطعان الذّباب المستقرّ فوق كومة الصّحون القذرة. لكنّه تنفّس الصّعداء حين رأى انفراج باب المنخل، وسمع صرير زنبركاته وقد استجابت لليد التي دفعته باتّجاه الفناء. قالت: «لديك دجاج كثير!».

توجّه نحوها. كانت واقفة وإحدى رجليها فوق العتبة، والأخرى في الفناء. مالت نحو المطبخ باتّجاهه، ثمّ كرّرت قولها بشيء من الدّهشة: «لديك دجاج كثير!».

ردّ قائلًا: «أجل، أنا مزارع دواجن».

عقّبت بالقول: «واو!».

خرجت إلى الفناء، وحدّقت إلى قنّ الدّجاج بعينين مفتوحتين على اتّساعهما. ثمّ رجعت، من دون أن تنبس بكلمة، إلى غرفة الجّلوس، وجلست فوق الأريكة إلى جانب حقيبتها. مضى في إثرها والتقط بنظرة خاطفة لباسها الدّاخلي لدى انفراج ساقيها للحظة قصيرة أثناء جلوسها. انضمّ إليها، متوجّسًا من كلّ ما رأته. لم تتكلّم لمدّة من الوقت، لكنّها لم تكفّ عن النّظر إليه بطريقة غير مريحة قطّ، حتّى همّ أن يسألها إن كانت تحتقره بسبب حالة بيته، لكنّ الكلام في فمه ظلّ على أهبة الرّمي، مثل مدفع مذخّر جاهز للقصف، بانتظار إشارة بدء إطلاق النّار. لأجل صرفها عن مطالعة البيت ثانية، قرّر أن يشاغلها بالحديث. قال: «ما الذي حدث معك في تلك اللّيلة؟».

رمت بصرها فوق أرضيّة الغرفة، وقالت: «كنت سأموت».

خفّفت كلماتها من وطأة شعوره بالخزي، فردّ متسائلًا: «لماذا؟».

من دون تردّد، سردت عليه كيف استيقظت، في صبيحة اليوم السّابق على ذهابها للجّسر، لتكتشف أنّ عالمها الذي شيّدته بعناية فائقة قد انهار وتحوّل إلى رماد. حطّمتها رسالة إلكترونيّة وصلتها من خطيبها، أعلن لها فيها عن زواجه من امرأة بريطانيّة. كانت هذه الضّربة، حسبما

أخبرته، قاصمة للظّهر، لأنّها كانت قد وهبت هذا الرّجل خمس سنوات من عمرها، وسلّمته كافّة مدّخراتها، بل وسرقت من أبيها لمساعدته في تحقيق حلمه بالحصول على شهادة في الإخراج السّينمائيّ من كلّيّة في لندن. لكنّه، وبعد خمسة شهور فقط على انتقاله إلى بريطانيا، تزوّج. بنبرة مفعمة بالألم، أكّدت بأنّه لم يكن هناك أيّ شيء يبرّر فعلته أو ما يحضّرها لتلقّي مثل تلك الضّربة.

قالت: «لم يكن هناك أيّ شيء يمكنني أن أتعلّق به، أيّ شيء حتّى... لا شيء. كنت طوال ذلك اليوم، قبل أن أراك فوق الجّسر، مرهقة إلى أبعد الحدود، لأنّي حاولت الوصول إليه، ثمّ حاولت، وحاولت، لكن لا شيء. لا شيء يا نُنسو».

بعد ذلك، ذهبَتْ إلى النّهر. لا لأنها كانت تمتلك أيّ قوّة أو إرادة لقتل نفسها، بل لأنّ النّهر كان الشّيء الوحيد الذي بمقدورها التّفكير فيه بعد قراءة تلك الرّسالة للمرّة الألف. لم تستطع الجّزم بأنّها كانت ستقفز في النّهر أم لا لولا مجيئه إلى هناك. أصغى مُضيفي إلى حكايتها بإنصات شديد، ولم يتكلّم سوى مرّة واحدة، طالبًا منها تجاهل الدّجاج الذي بدأ بإطلاق زعيق حزين. ورغم أنّه لم يفهم تمامًا كلّ التّفاصيل التي روتها له، إلّا أنّه قال: «ما جرى لك مؤلم للغاية».

كان استخدامها الفذّ للسان الرّجل الأبيض قد تضمّن مفردات تجاوزت حدود استيعابه. حوّم ذهنه، مثلًا، فوق مفردة «ظروف» الإنجليزيّة، كما تحلّق حدأة حائرة فوق مجموعة من الدّجاجات وكتاكيتها، عاجزة عن البتّ في كيفية الهجوم أو اقتناص أيّ واحدة منها بالضّبط. أمّا أنا ففهمت سائر ما روته، لأنّ كلّ دورة وجوديّة للقرين الحامي هي فترة تعليميّة يكتسب خلالها القرين ما تحوزه أذهان مُضيفيه من معارف وحكمة، ويصبح ذلك كلّه جزءًا منه. قد يتعلّم القرين الحامي، مثلًا، خفايا فنّ الصّيد لأنّه سكن ذات مرّة، قبل

مئات السّنين، مُضيفًا كان صيّادًا. كنت في آخر دورة وجوديّة لي، قرينًا حاميًا لرجل ذي موهبة استثنائيّة في قراءة الكتب وكتابة القصص، إزيكي انكيوي، الذي كان الشّقيق الأكبر لوالدة مُضيفي الرّاهن. حين بلغ هذا الرّجل سنّ مُضيفي الحالي، كانت كافّة كلمات لسان الرّجل الأبيض تقريبًا قد باتت مألوفة بالنّسبة له. فاكتسبت أنا بدوري معظم ما أعرفه الآن من هذا الرّجل. بل حتّى في هذه اللّحظة، وأنا أقدّم شهادتي بين أيديكم نيابة عن مُضيفي الرّاهن، فإنّني مثلما أستخدم كلماته أستخدم كلماتي أيضًا، ومثلما أرى الأشياء عبر عينيه أراها بعيني أيضًا، والأمران يمتزجان أحيانًا ويؤلّفان وحدة واحدة لا يمكن فصل أحدها أو تمييزه عن الآخر.

تابع مُضيفي كلامه مؤكّدًا مرّة ثانية: «إنّه مؤلم للغاية. أقول هذا لأنّني أنا أيضًا عانيت الكثير. أنا لا أب لي ولا أمّ. في الحقيقة، لا عائلة لديّ».

فغر ثغرها، ثمّ قالت وقد سترته بيدها: «آه! هذا محزن للغاية. أشعر بالأسف الشّديد. أشعر بأسف بالغ».

ردّ: «لا، لا، لا، إنّني الآن بخير. أنا بخير».

لكنّ صوت ضميره كان يؤنّبه على عدم ذكر أخته، نْكِرو. راقب ندالي وقد ارتكزت على فخذها ومالت بجسدها نحو الطّاولة الصّغيرة التي كانت تتوسّط المسافة بينهما. أسبلت جفنيها، وهذا دفعه للتّفكير بأنّها كانت تغوص في مستنقع الشّفقة عليه، ثمّ خاف من أنّها قد تبكي لأجله. فقال بنبرة أكثر حزمًا: «أنا بخير الآن يا مامي. لديّ شقيقة، لكنّها تعيش في لاغوس».

ردّت متسائلة: «أوه، أصغر أم أكبر؟».

أجابها: «أصغر».

أطلّت ابتسامة من وجهها الحزين لدى التقاطها حقيبتها من الأرض،

ثمّ قالت: «أوكيه، أتيت إلى هنا لأنّي أودّ أن أشكرك. أعتقد أنّ الله أرسلك لي».

ردّ قائلًا: «أوكيه يا مامي».

فقالت: «ما هذه الـ 'مامي' التي لا تكفّ عن ترديدها؟ لمَ تردّد هذه الكلمة؟».

ضحكاتها الآن أشعرته بجموح ضحكاته نفسها، فحاول استعادة زمام سيطرته عليها كي يتجنّب إحراج نفسه. استأنفت ندالي الحديث وقالت باستهجان: «حقًّا، هذا أمر غريب!».

فأجابها قائلًا: «لم يعد لدي أمّ. لذا، أيّ امرأة طيّبة هي 'مامي' بالنّسبة لي».

ردّت بإشفاق: «أوه، آسفة للغاية يا عزيزي!».

قال وقد توجّه إلى الحمّام لأجل التبوّل: «لحظة وأعود».

ولمّا رجع، قالت: «هل نسيت أن أخبرك بأنّني أحبّ ضحكتك؟».

نظر إليها ولم يردّ، فتابعت: «أحبّها حقًّا. أنت رجل جميل».

أومأ لها على عجل وقد همّت بالذّهاب، تاركًا قلبه يطير للحظة من الفرح على هذا المآل غير المتوقّع بالمرّة لما كان يظنّ بأنّه لن يكون سوى كارثة محقّقة. ثمّ قال: «لم تسنح لي فرصة تقديم أيّ ضيافة لك».

فردّت: «لا، لا، لا عليك. ربّما في وقت آخر. يجب أن أذهب، لديّ امتحانات».

دفع يده باتّجاهها مصافحًا، فوضعت يدها في يده، ثمّ قالت بوجه مشرق بالابتسامات: «شكرًا لك».

أيّها القرناء الحماة لجنس البشر، هل تدبّرنا فيما يخلقه اتّقاد العاطفة من قوّة في نفوس البشر؟ هل فكّرنا لماذا وكيف بمقدور الرّجل أن يعدو وسط ميدان مشتعل بالنّيران لأجل الوصول إلى المرأة التي يحبّها؟ هل تفكّرنا فيما للجّنس من تأثير مذهل على أجساد العاشقين؟

هل تأمّلنا فيما له من قوّة متساوقة؟ هل أخذنا في الحسبان ما يشعله من شِعر في أرواحهم، وما تتركه المحبّة من دمغة فوق قلب رهيف؟ هل تفرّسنا في قسمات الحبّ؛ كيف تولد بعض العلاقات ميّتة، وكيف يولد بعضها مشوَّهًا بلا قابليّة أو قدرة على النموّ، وكيف يشبّ بعضها عن الطوق ليصل البلوغ ويدوم على مدار حياة العاشقين؟

لطالما فكّرت في هذه الأمور، ولطالما عرفت بأنّ الرّجل إن أحبّ امرأة، فإنّ الحبّ يغيّره. حين تمنح المرأة نفسها لرجل، فإنّها تفعل ذلك بمحض إرادتها، لكن فور أن يتزوّجها ذلك الرّجل، فإنّها تصبح له. تصبح مُلكه، ويصبح مُلكها. يناديها الرّجل «انْوُيِم»، وتناديه «دِم». يشير الآخرون إليها على أنّها زوجة «له»، ويشيرون إليه على أنّه زوج «لها». هذا لغز محيّر، «ايبونو»! فكثيرًا ما رأيت أناسًا إن تركهم أحبّاؤهم، يحاولون استردادهم وكأنّهم من جملة متاع مسروق لهم. ألم تكن هذه هي قضيّة إمْجويه، الذي قَتَل قبل مئة وثلاثين عامًا، الرّجل الذي أخذ زوجته منه؟ «تشوكو»، عندما قضيت في أمره بعد تقديم شهادتي نيابة عنه، هنا في «بغويه»، مثلما أفعل الآن، كان حكمك عليه محزنًا وإن كان عادلًا. والآن، بعد مرور أكثر من مئة عام على ذلك، أصابني الوجل لدى مراقبتي اشتعال قلب مُضيفي الرّاهن بنار مشابهة، إذ أنّني أعرف جبروت تلك النّار، وأعرف أنّها إن استحكمت، فلا سبيل إلى إخماد حرائقها. لهذا، لدى مرافقته لها إلى سيّارتها، اعتراني الخوف من أن تدفعه تلك النّار في اتّجاه قد لا أستطيع ثنيه عن المضيّ فيه. خفت من أنّ الحبّ متى اكتمل في قلبه، سيعميه وسيصيبه بالصّمم، فلا يسمع منّي نصحًا أو مشورة. كان بوسعي رؤية أنّ الحبّ بدأ يستحوذ عليه بالفعل.

«**أُبا سيدي نلو**»، أيّ جوهر ذاك الذي تضفيه امرأة على حياة رجل! في عقيدة الدّين الجّديد الذي اعتنقه أطفال الآباء، يُقال إنّ الإثنين

يصبحان «جسدًا واحدًا». يا لها من حقيقة، «إيبونو»! لكن إن التفتنا إلى زمن الآباء الحكماء، لوجدنا أنّ الأمّهات العظيمات كنّ لا غنى عنهنّ. ورغم أنّهنّ لم تملكن يدًا في وضع القوانين الموجّهة للمجتمع، إلّا أنّهنّ كنّ للمجتمع بمثابة القرين الحامي.

فكلّما تعرّض نظام المجتمع للتّخريب والدّمار، كنّ هنّ من يُعِدن إليه النّظام من جديد. فلو اقترف أحد أهالي القرية جريمة روحيّة نكراء وأثار بها سخط «آلا»، ولو أنزلت الرّبّة الرّحيمة، بسبب نقمتها المحقّة فيها، الغضب على القرية، وابتلت أهلها بالمرض أو الجّفاف أو الموت الكارثيّ، فإنّ الأمّهات القديمات كنّ يذهبن إلى كاهن القرية لاستشارته نيابة عن سائر المجتمع. فصوت الأمّهات القديمات له منزلة عند «آلا» لا تدانيها أصوات الآخرين. حتّى في زمن الحرب، مثلما شهدت بنفسي قبل مئة واثنين وسبعين عامًا، حين قاتلت قبيلة «يوزواكولي» قبيلة «انْكبا»، وتمدّد في الغابة سبعة عشر رجلًا برؤوس مقطوعة، كانت الأمّهات، من كلا الطّرفين، هنّ من تحرّك وأعاد السّلم ومنع نزول غضب «آلا». لهذا، خلع النّاس عليهنّ لقب «أودوزي أوبودو»[1]. فإن كان بمقدور ثلّة من النّساء إعادة التّوازن لمجتمع يترنّح على شفير الهاوية، فما بالك بما يمكن لامرأة واحدة أن تصنعه بحياة الرّجل الواحد! على حدّ تعبير الآباء العظماء، فإنّ الحبّ يغيّر حرارة حياة الرّجل. فإن كانت حياة الرّجل باردة، أصبحت دافئة. هذا الدفء، في توقّده واضطرامه، يُغيِّر المرء. فهو يحثّ الأشياء الصّغيرة في حياته على النّموّ، ويبثّ الوهج في نسيج حياته. وما كان الرّجل يقوم بفعله كلّ يوم، يفعله الآن بمزيد من الحبور. يشعر معظم الرّجال بتغيّر شيء ما في داخل أنفسهم. وقد لا يشعرون أحيانًا بالحاجة إلى الحديث عن

---

(1) أودوزي أوبودو: مصلحات القرى

هذا لأيّ شخص آخر. لكنّ وجوههم، وهي أكثر أجزاء البشر عريًا، حين تأخذ في الإشراق، تفضحهم، وسرعان ما ينتبه لذلك أيّ شخص فطين. لنقل، إن كان للمرء رفقاء في العمل، فلربّما جذبه أحدهم جانبًا وقال له: «تبدو سعيدًا»، أو «ماذا جرى لك؟». وكلّما اشتدّت المحبّة، كانت إماراتها أوضح بالنّسبة للآخرين. ومحبّة مُضيفي لندالي، كان يلجمها خوفه من أنّه غير جدير بها. لهذا، عقد العزم على أنّها إن استسلمت له، فإنّه سيمنحها قلبه بتمامه وكماله.

عوض رفقاء العمل من الإنس، كانت الطّيور الدّاجنة هي الشاهد على ما أصاب مُضيفي من تحوّلات. أطعمها بعد مغادرة المرأة منزله في ذلك اليوم بانشراح ونشوة. بحث عن الدّيك العليل المصاب بانحراف في الذّيل، ثمّ حمله إلى طرف المزرعة، وذبحه أمام البيت، بعيدًا عن أعين الطّيور. تريّث إلى أن نزّت الدّماء منه في حفرة صغيرة، ثمّ وضعه في صحن مجوّف وأودعه في الثّلاجة. بعد غسل يديه في الحمّام، كنس حظيرة الدّجاج المقسّمة بجدران خشبيّة إلى أقسام متساوية. ثمّ طارد سحليّة، سحليّة رأسها أخضر، كانت تثير ضيق الطّيور، إلى أن هربت من ثقب في السّقف. ارتقى سلّمًا وحشا الثّقب بخرقة مغمّسة بزيت النّخل. بعد انتهائه من ذلك، لاحظ أنّ حوض شرب الماء مقلوب، طرفه متّكئ الآن على الحائط الخشبيّ، وفي زاويته كمّيّة ماء بحجم العين. حدّق إليه الوسخ المترسّب في قعر الماء وكأنّه بؤبؤ عين. لمّا سار نحو الحوض، وطأ شيئًا طريًا ثمّ اكتشف بأنّه كان كتلة من الرّيش. تحت ثقل وزنه، انزلق الرّيش في خطّ مستقيم فوق الأرضيّة الطينيّة، وتعثّرت قدماه. هوى باتّجاه حوض الماء الآخر، فطار في الهواء وأفرغ ما في جعبته، من وسخ وريش وتراب، فوق وجهه.

«تشوكو» لو كان الدّجاج بشرًا، لضحك من منظر وجهه؛ اختفى جبينه وأنفه تحت لطخة كبيرة من الوسخ والطّين. لولا أنّي شهدت

ما جرى بنفسي، لتشكّكت فيما بدَرَ من مُضيفي في ذلك اليوم. فرغم الألم وذلك التّورّم في الرّأس الذي جسّه بأصابعه مرارًا خوف نزف الدّماء منه، إلّا أنّه كان سعيدًا. نهض من عثرته ضاحكًا على نفسه، وقد عنّ في باله كيف جلست ندالي على الأريكة ووصفته بالرّجل الجّميل. نظر إلى موضع تعثّره، فرأى أنّ الجّزء الذي انفصم من الأرضيّة الطّينيّة كان ملتحمًا الآن بنعله. على الطّرف الآخر من الحظيرة، كانت الدّجاجة التي أوشك أن يسقط فوقها واقفة. عندما هوى أرضًا، قفزت بعيدًا بشكل هستيريّ، فأثار خبط جناحيها العنيف زوبعة من الغبار والرّيش. أدرك أنّها إحدى الدّجاجتين البيّاضتين اللّتين تضعان بيضًا رماديّ اللّون. وقفت تنعب باحتجاج، ففتحت الأخريات جوقتهنّ كذلك. ترك قنّ الدّجاج ونظّف نفسه من الأوساخ، وطوال ذلك الوقت، حتّى حين تمدّد لاحقًا في سريره، ظلّت ندالي في باله.

لحظة غفا، مثلما يحدث دومًا حين يقع في أسر النّوم، أتحرّر أنا من قيود جسده. حتّى أنّني، من دون أن أخرج منه، أتمكّن في الغالب من رؤية ما لا أتمكّن من رؤيته أثناء يقظته. فكما تعلم، أنت خلقتنا ككائنات لا وجود للنّوم بالنّسبة لها. نحن أطياف تتكلّم لغة الأحياء. حين ينام مُضيفونا، نظلّ نحن ساهرين. نحرسهم من شرّ القوى التي تتنفّس اللّيل. فالعالم الأثيري، أثناء نوم البشر، يعجّ بضجيج اليقظة وهسيس الموتى. وأثناء زياراتهم الخاطفة إلى الأرض، يزحف كثير من الـ «أغو»[1] والأشباح والـ«أكاليُغولي»[2] والأرواح و«نْدِه تْشِه»[3]، من عيون اللّيل مثل النّمل، ثمّ تذرع الأرض طولًا وعرضًا كما يحلو

(1) «أغو»: الأرواح الشّرّيرة.
(2) «أكاليُغولي»: أرواح مدانة وحكم عليها بالتّشرّد من دون جسد.
(3) «نْدِه تْشِه»: الأسلاف.

لها، غافلة عن تخوم الإنسان، وغير عابئة بجدران أو أسوار. لربّما نشب عراك بين بعض الأرواح، فتدافعت داخل منزل عائلة، ثمّ انطرح بعضها فوق النّائمين، لكنّها، مع ذلك، تتابع القتال حتّى عبر الأجساد الغافية. في بعض الأحيان، يدخل هؤلاء إلى أماكن سكنى البشر لأجل الفرجة فقط.

كانت تلك اللّيلة، كمعظم اللّيالي، تضجّ بضوضاء طبل العالم الدّنيويّ النّحاسيّ، وبصخب الأرواح ولغطها، جوقة حافلة بالصّياح والصّراخ والزّمجرة والجّلبة العارمة. كان عالم الأرواح السّفلي «بَنْمو»، وممرّه إلى الأرض، «إزنمو»، غارقان في تلك الضّوضاء. من بعيد، انداحت عبر الهواء أنغام ناي آسرة، نبضت مثل الشّيء حين تبعث فيه الحياة. ظلّ الحال على هذا المنوال لمدّة طويلة من الوقت، لكن، بحلول منتصف اللّيل، اخترق الحائطَ بسرعة خارقة شيء ما. على الفور، تثنّى في حلقات على هيئة لولب رماديّ مشعّ يصعب على العين إدراك كنهه. في البداية، بدا كأنّه يتصاعد نحو السّقف، لكنّه أخذ في الانتشار ببطء، ثمّ استطال مثل ثعبان من الأخيلة. بعدئذ تحوّل إلى أفظع «أغو» يمكن تصوّره، برأس يشبه الصّرصار وجسد بشريّ بدين. وثبتُ في الحال، وأمرته بالخروج. لكنّه رماني بنظرة حادّة من عينين ممتلئتين بالحقد، ثمّ راح يحدّق إلى جسد مُضيفي الغائب عن الوعي. كان فمه لزجًا، وأطرافه ملتصقة ببعضها، كأنما بفعل إفراز قيحيّ دبق. ظلّ يشير إلى مُضيفي، لكنّي قابلت إشاراته بإصراري على خروجه. حين لم يحرّك ساكنًا، خفت أن يصيب هذا المخلوق مُضيفي بالأذى. فتمتمت بتعويذة، محصّنًا نفسي لدى طلب الغوث منك. يبدو أنّ هذا أوقف الكائن عند حدّه. فتقهقر إلى الخلف، ثمّ زمجر، وتلاشى.

واجهت أرواحًا من هذا القبيل عبر دوراتي الوجوديّة الكثيرة في الأرض، فأنا أتذكّر بكلّ وضوح، حين كنت أسكن إجِنْكونيه، تلك اللّيلة التي نام فيها، إبّان الحرب، في بيت محطّم ومهجور في

«أوماهيا»، وأثناء نومه، ظهرت روح بسرعة خاطفة حملتني على القفز من شدّة الهلع. نظرت إليها، لم يكن لديها رأس. كانت تلوّح بذراعيها، وتدقّ الأرض بقدميها، وتشير إلى موضع الرّأس المبتور. «إيبونو»، لم يفلح قطّ، ولا حتّى الـ «أكاليُغولي»، تلك المخلوقات المفزعة بمادّتها وشكلها، في إثارة كلّ ذلك الرّعب في روح حيّ مثلي من قبل. ثمّ، وبفعل قوّة تحوّليّة ما، تجلّى الرّأس المقطوع وظلّ معلّقًا في الهواء، والعينان تقلّبان النّظر في الأرجاء. ظلّ المخلوق المبتور يخبط بذراعيه، محاولًا القبض على الرّأس، لكنّ الرّأس تفاداه بالميل يمينًا ويسارًا، إلى أن طار بخفّة وذهب من حيث أتى، وخرجت الرّوح في إثره. سأكتشف في اليوم اللّاحق، عبر عيني مُضيفي، أنّ الرّجل كان جنديًّا من الأعداء، قطع رأسه أثناء اغتصابه امرأة حاملًا، فأصبح من الـ «أكاليُغولي». وسيراقب مُضيفي، إجِنْكونيه، حرق جثّة الرّجل في الصّباح، ولن يعلم بما حصل في اللّيلة الفائتة.

وثبتُ في الحال كي ألحق بالرّوح، وكي أعرف لماذا استهدفت مُضيفي، لكنّي لم أستطع تحديد الوجهة التي سلكتها. لم أعثر لها على أثر في بطحاء اللّيل، أو خبط أقدام في مسالك الهواء، أو وقع خطى في «إزْنمو»، النّفق المظلم تحت الأرض. كان اللّيل يعجّ بالنّجوم اللّامعة في السّماء، وبحشود الأرواح المنصرفة إلى شؤونها في محيط مزرعة مُضيفي. لكن لم يكن هناك بشر، بل لم يكن هناك أيّ أثر لهم سوى أصوات سيّارات نهبت الأرض فوق طريق على مسافة مجهولة. ساورني إغواء التّجوّل لبعض الوقت، لكنّي خمّنت بأنّ «أغو» الذي رأيته لم يكن سوى روح شريدة تبحث عن جسد للاستحواذ عليه، ومن الممكن أن ترجع في غيابي وتحتلّ جسد مُضيفي. لهذا عدت إلى المزرعة على جناح السّرعة، مندفعًا عبر السّور إلى الفناء، ثمّ عبر الجّدار إلى الغرفة، حيث كان مُضيفي ما زال غارقًا في نوم عميق.

«أَكواكورو»، استيقظ مُضيفي في الصّباح على ضجيج طيوره الدّاجنة. كان أحدها قد أطلق عنان صياحه، فما أن تخبو صيحة لالتقاط النّفس، حتّى تتلوها أخرى أشدّ لعلعة منها. دفع قطعة القماش التّقليديّ التي التحفها ومضى نحو الباب، وحين همّ بالخروج انتبه إلى عريّه. ستر نفسه بشورت قصير وقميص مجعّد ثمّ خرج إلى الفناء. أفرغ بقايا كيس العلف في وعاء مجوّف ثمّ وضعه وسط الفناء فوق جريدة قديمة. لمّا فتح أحد الأقفاص، تدافعت الطّيور بعنف نحو الوعاء، وفي طرفة عين، غرق في سيل من لعاب تلك الكائنات الرّيشيّة.

انسحب إلى الوراء، وعيناه تمسحان دجاجاته لرصد أيّ شيء غير مألوف. راقب واحدة منها على وجه الخصوص، تلك التي كان جناحها في الأسبوع الماضي قد علق في مسمار جنح من مكانه ونتأ من خشب أحد الأقفاص. كانت الدّجاجة قد حاولت تحرير نفسها من المسمار، فجذبت نفسها بقوّة حتّى كادت أن تخلع جناحها من موضعه. حينذاك، رتق جناحها بخيط، والآن، شاركت الدّجاجة في التّدافع على العلف بحذر، وخيوط قطبها الحمراء بادية من تحت جناحها. التقط الدّجاجة من رجليها. فحص جناحيها، جاسًّا المواضع المحيطة بأطراف العروق. لكنّه أفلتها حين علا رنين الهاتف فجأة. هرول إلى البيت، ولمّا بلغ غرفة الجّلوس، توقّف الهاتف عن الرّنين. رأى أنّ نداليي هاتفته وبعثت له برسالة نصّيّة. في البداية، تردّد في قراءتها، كأنّه خاف من أنّ ما سيقرأه مكتوبًا سيظلّ عصيًّا على المحو إلى الأبد. ترك الهاتف يسقط من يده فوق طاولة الطّعام، ثمّ وضع كفّه فوق جبينه وكزّ على أسنانه. كان بمقدوري رؤية أنّه أصبح موجوعًا من الجّرح الذي أصابه في رأسه بالأمس. من فوق الثّلاّجة، تناول علبة أقراص «باراسيتامول»، وانتزع أحد القرصين المتبقّيين. وضع الدّواء المسكّن فوق لسانه، وذهب إلى المطبخ، ثمّ ابتلعه مع جرعة ماء من الإبريق البلاستيكيّ.

التقط الهاتف ثانية، وقرأ الرّسالة: «نُنْسو، هل من الممكن أن أزورك في المساء؟». «تشوكو»، ابتسم لنفسه، ثمّ لكم الهواء بقبضته وهتف قائلًا: «أجل!». أودع الهاتف في جيبه، ولمّا همّ بالرّجوع إلى الفناء، تفطّن إلى أنّه ردّ عليها شفويًّا، وكأنّها كانت معه في الغرفة. وقف لدى باب المنخل المطلّ على الفناء، ثمّ نقر: «أجل» على شاشة الهاتف.

سعيدًا بزيارة ندالي المرتقبة، جمع بعض البيض وصفّه في قوالبه الخاصّة داخل صندوق بلاستيكيّ. ثمّ قبض ثانية على الدّجاجة المصابة. طرفت عيناها بذعر، وانفتح منقارها وانطبق وهو يربّت على رأسها ويفحص جناحها ليرى إن كان بمقدورها أن تطير. نظّف وعاء العلف، ووضع بعض العلف فيه. برز عود بحجم نصف «نكّاشة» أسنان من وسط العلف. التقطه ورماه وراء ظهره. لكن لمّا عنّ له أنّ إحدى دجاجاته قد تعثر عليه وتبتلعه، نهض وراح يفتّش عن العود. عثر عليه قرب أحد القفصين، ذاك المخصّص للكتاكيت الصّغيرة، فوق حافّة اللّوح الخشبيّ المبلّل الذي كان يضع القفص فوقه. التقطه وقذفه من فوق السّور، ليستقرّ فوق المكبّ خارج مزرعته. ثمّ ثبّت وعاء العلف في أرضيّة أحد القفصين.

بعد انتهائه من إطعام الدّجاج، كانت يداه قد اسودّتا لشدّة ما علق بهما من قذارة ووسخ. تكدّست أوساخ داكنة تحت أظافره، وبدا لحم إبهامه الأيمن متآكلًا ومليئًا بالرّضوض. كانت إحدى البيضات مغلّفة بطبقة قاسية من الخراء المتيبّس، فحاول أن يزيلها بأصابعه. لهذا، فإنّ ما كان متكدّسًا الآن تحت أظافره هو تلك الطّبقة المتيبسة من خراء الدّجاج. أثناء تنظيف يديه في الحمّام، استولى عليه التّفكير في كم كان عمله غريبًا وكم سيبدو وضيعًا لشخص حديث العهد به. عندئذ، انتابه القلق من أنّ ندالي قد لا يعجبها عمله، أو قد تنزعج منه لو عرفت حقيقة عمله وتفاصيله بالكامل.

«تشوكو»، مثلما ذكرت سابقًا، اجترار مثل هذه المخاوف يحدث في العادة حين يقابل الرّجل أشخاصًا يعتبرهم فوقه في المقام والمنزلة، ومجرّد حضور هؤلاء يشعره بالدّونيّة والنّقص. وحال أن يشعر الرّجل بذلك، فإنّه يُقيّم نفسه من خلال التّركيز على كيف سيتصوّره الآخرون وكيف سينظرون إليه. في مثل هذه الحالات، قد لا يكون هناك حدّ لما قد يتشكّل في ذهن المرء من أفكار انهزاميّة ومسيئة للذّات، وهذه بدورها، ومهما كانت بلا أيّ أساس من الصّحّة، قد تستحكم بعقل صاحبها وتستنفد قوّته في نهاية المطاف. لكنّ مُضيفي، مع ذلك، لم يسترسل في تقليب تلك الأفكار في ذهنه. لأنّه، عوض ذلك، كان في عجلة من أمره كي يستعدّ لاستقبال ندالي. كنس البيت والشّرفة. ثمّ نفض الغبار عن الوسائد والأرائك. نظّف مغسلة الحمّام ورشّها بمعقّم «إزال» ورفع براز الفئران من خلف خزّان الماء. رمى أحد السّطلين البلاستيكيّين، سطل دهان كان قد تشقّق في مواضع عديدة. ثمّ رشّ معطّر الجوّ في أرجاء البيت. فور أن فرغ من الاستحمام، وشرع في دهن جسده بمسحوق مرطّب، أبصر عبر النّافذة سيّارتها وهي تتهادى صوب البيت، مخفورة عن اليمين واليسار بنباتات مزرعته.

«إجانغو إجانغو»، انتشى مُضيفي من شدّة إعجابه بمظهرها. لعلّ تسريحتها كانت ستبدو غريبة بالنّسبة للأمّهات العظيمات، لكنّ شعرها كان لامعًا وجذّابًا بالنّسبة لمُضيفي. تفحّص الشّعر المجعّد بأناقة، السّاعة في المعصم، الأساور حول الرّسغ، العقد وخرزاته الخضراء التي ذكّرته بخالته إفْميه، التي رحلت واستقرّت في لاغوس وفقد الاتّصال بها منذ أمد بعيد. رغم بدء شعوره بأنّه لا يستحقّ ندالي، بسبب قلّة مخالطته للنّاس (لم يرتد أيّ نادٍ ليليّ أو مسرح قطّ)، إلّا أنّ مستوى تقديراته انحطّ الآن إلى مرتبة أدنى. رغم أنّ معاملتها له كانت في منتهى اللّطف والمحبّة، إلّا أنّه وقف وقد سيطر عليه إحساس عميق بعدم الجّدارة والأهليّة. لهذا، تصرّف أثناء الحديث الذي جرى بينهما، وكأنّه شخص

مرغم على أن يكون هناك، مكتفيًا بقول ما كان مطلوبًا منه وما كان ملحًّا فقط. عبر الحديث، وفي نقطة متأخّرة بالنّسبة لما توقّعه، وعلى نحو عمّق مخاوفه من أنّها لن تمنحه نفسها في نهاية المطاف، سألته ندالي قائلة: «هل كنت ترغب دومًا في أن تكون مزارعًا للطّيور الدّاجنة؟».

أومأ برأسه، لكن لمّا بدا له أنّ ذلك قد يكون ردًّا كاذبًا، قال: «ربّما لا يا مامي. أبي هو صاحب الفكرة وهو من بدأ بتنفيذها، لا أنا».

سألته بعفويّة: «تقصد مزرعة الدّجاج؟».

فأجاب: «أجل».

حملقت فيه، وابتسامة مكبوتة تلوح فوق وجهها. ثمّ قالت: «كيف؟ قل لي كيف؟».

ردّ: «هذه قصّة طويلة يا مامي».

ردّت بشيء من الإحباط: «يا إلهي! آه، إنّني أودّ سماعها. أرجوك قصَّها عليّ».

رفع عينيه ونظر إليها ثمّ قال: «أوكيه يا مامي».

«إيبوبديكي»، روى لها قصّة فرخ الإوزّ، مستهلًّا الحديث عن كيفية القبض عليه حين كان هو نفسه طفلًا صغيرًا لم يبلغ من العمر سوى تسع سنوات، وهي حادثة غيّرت حياته فيما بعد، ولا بدّ لي الآن من سرد تفاصيلها. ذات يوم، أخذه والده من المدينة إلى قريته وطلب منه أن ينام مبكرًا لأنّه سيأخذه في الصّباح إلى غابة «أوْغبوتي»، حيث كانت فصيلة من الإوزّ الأبيض تعيش في قلب الغابة تمامًا، قرب بركة متوارية عن الأنظار. كان معظم الصّيّادين يتجنّبون قلب الغابة، خوفًا من الأفاعي القاتلة والوحوش البرّيّة. في الزّمن الغابر، كانت البركة رافدًا من روافد نهر «إمو». رأيت هذا مرّات ومرّات. فقبل زمن طويل، وقبل بدء مقاتلي قبيلة «آرو» باكتساح هذا الجّزء من «آلا إيبو» لاختطاف النّاس وبيعهم إلى تجّار العبيد، كان النّهر ما زال يجري في هذه المنطقة. لكنّ مجراه

انقطع إثر زلزال فصل تلك البقعة عن بقيّة النّهر وحوّلها إلى بركة مياه راكدة اتّخذها الإوزّ الأبيض موطنًا له. عاش الإوزّ هناك على طول امتداد ذاكرة أهالي القرى التّسع المحيطة بالغابة.

عندما وصل مُضيفي ووالده، الذي حمل معه بندقيّة «داين» الطّويلة، إلى تلك البقعة، كمنا وراء شجرة تآكلت وسقط معظم جذعها أرضًا، فنما فوقه الحشيش والفطر البرّيّ. على مرمى حجرين من ذاك الجّذع، كانت البركة الميّتة، ملتحفة حتّى المنتصف بأوراق الشّجر. أمّا الرّقعة الشاطئيّة التي تاخمتها، فكانت تتلبّد بما تناثر في أرجائها الرّطبة من شظايا وكسور خشبيّة. هنا، كان سرب من الإوزّ الأبيض منشغلًا بنقب الأرض. كأنّ طيور السّرب استشعرت وجود الإنس، لهذا، ضربت أجنحتها وطارت إلى ناحية الغابة الأشدّ كثافة والتفافًا، لم يبق سوى إوزّة أمّ وفرخها وإوزّة أخرى كبيرة. قفزت الإوزّة الكبيرة بضع مرّات ثمّ حلّقت صوب المياه البعيدة حتّى بلغت الحاجز الصّخري، وهناك ابتلعها الغطاء الأخضر. راقب مُضيفي الإوزّة الأمّ بشغف شديد. كانت كثيفة الرّيش، ذات ذيل منساب إلى أسفل، واسعة العينين، وفوق منقارها البنّيّ فتحتا أنفها. لمّا تحرّكت، نشرت جناحين غزيرين بالرّيش. أمّا فرخها، فكان مختلفًا: رقبته أطول وقسمها العلويّ بلا ريش، كأنّما نُتف نتفًا. مشى بترنّح فوق قدميه الصّغيرتين محاولًا اللّحاق بأمّه التي بدأت بالتّحرّك بعيدًا عنه. رفع والد مُضيفي بندقيّته متأهّبًا، وكان على وشك إطلاق النّار، لو لم يتجلّ فجأة ذلك المشهد المربك.

كانت الإوزّة الأمّ واقفة الآن فوق بقعة طريّة من الأرض وقد غاصت قدماها في الوحل، تنتظر وقد فتحت منقارها إلى أقصى حدّ ممكن. وصل الفرخ بمشيته المترنّحة، ثمّ غاص برأسه داخل المنقار المشرّع حتّى غاب رأسه وجزء من رقبته عن الأنظار.

راقب مُضيفي ووالده بدهشة لدى تنقيب رأس ورقبة الفرخ داخل جوف أمّه. بينما الفرخ منهمك في تناول قوته، كانت أمّه تحاول السّيطرة على توازنها. غرست قدميها عميقًا في الوحل، وضربت جناحيها بعنف، ثمّ أخذت في التّقهقر على نحو مستعجل ومحكم، والمخالب تنقبض وتنفرج. ظنّ مُضيفي لوهلة أنّ رقبة الإوزّة الكبيرة قد تتمزّق من فرط نهم الفرخ. كانت حركة منقاره داخل حلق أمّه بادية للعيان عبر جلد رقبتها الباهت. بُغِت مُضيفي لمّا فصل الفرخ نفسه عن أمّه، ثمّ شرع في القفز بعيدًا عنها، ضاربًا الهواء بجناحيه، مترعًا بالحياة، كأنّه وُلد من جديد. أدارت أمّه رأسها، وأطلقت صرخة، بدت كأنّها سقطت فوق رجليها. بعد ذلك، انطلقت محلّقة، ونصفها السّفليّ مستور بإزار من الوحل، ثمّ أخذت تسابق الرّيح صوب البقعة التي كان مُضيفي ووالده يقرفصان فيها.

كانت الإوزّة على مسافة قريبة لمّا صوّب والده على الهدف. أصابتها الطّلقة وأردتها إلى الوراء، مخلّفة وراءها انفجار قنبلة من الرّيش. ضجّت الغابة بهستيريا الكائنات المسارعة إلى الفرار، وبكورس الأجنحة الجّماعيّة التي صفقت الهواء بصخب بالغ. لدى هبوط الرّيش واستقراره فوق الأرض، تبيّن مُضيفي الفرخ المهرول صوب جيفة أمّه.

«فعلتها، وأخيرًا اصطدت إوزّة من إوزّ «أوْغبوتي»، هتف والده لدى نهوضه وهو يركض نحو الإوزّة الميّتة. مضى مُضيفي خلفه بخطى متردّدة وقد أصيب بالخرَس. التقط والده الإوزّة المقتولة، بابتهاج، ثمّ بدأ في المشي صوب الاتّجاه الذي وفدا منه، ودماء الإوزّة النافقة تصبغ الدّرب من خلفه. لم ينتبه والده للفرخ المهرول وراءه، ولا للصّرخات الحادّة التي أطلقها، والتي سيكتشف مُضيفي، بعد سنوات كثيرة، بأنّها كانت صوت الطّائر حين ينوح. تجمّد في مكانه، ووقف

منصتًا لوالده الذي شرع في الحديث عن أنّه لطالما اشتهى اصطياد إوزّة من إوزّ غابة «أُغبوتي»: «كان جميع النّاس يردّدون دائمًا أنّ ما من أحد يعرف المكان الذي يعيش فيه الإوزّ. وكيف يمكن لأيّ أحد أن يعرف هذا؟ فما من أحد تجرّأ على الدخول في قلب 'أوْغبوتي' سوى بضعة أشخاص فقط. لم يرها النّاس إلّا في الجوّ. وكما تعلم، فإنّ اقتناص شيء في الجوّ أمر صعب للغاية»... التفت والده فجأة إلى الوراء، فرآه واقفًا بعيدًا. اعترته الدّهشة وقال: «تشنُنْسو؟».

عندئذ، رفع بصره ورنا إلى والده بفم ممطوط، وعينين على وشك البكاء. ثمّ ردّ بلسان الرّجل الأبيض: «سيّدي».

سأله والده بدهشة: «ما بك؟ ما الأمر؟».

أشار إلى الفرخ. فنظر والده إلى الأسفل ورأى الفرخ يضرب الأرض السّبخة برجليه، وعيناه لا تبارحان الكائنين البشريّين أثناء بكائه على أمّه النّافقة. قال والده: «هيه، لمَ لا تلتقطه وتأخذه معك إلى البيت؟».

مشى مُضيفي باتجّاه والده ثمّ توقّف خلف الطّائر. فقال والده من جديد: «لمَ لا تحتفظ به؟».

اختطف مُضيفي نظرة صوب الطّائر، وألحقها بأخرى صوب أبيه، ثمّ أشرق شيء ما في داخله. فسأل والده: «أيمكنني أن آخذه معي إلى أوماهيا؟».

تمتم والده «أه»، ثمّ استدار ثانية بالاتّجاه الذي وفدا منه مع الإوزّة النّافقة، أصبح نصفها السّفليّ الآن مستورًا بإزار قرمزيّ، وقال: «اقبض عليه الآن ودعنا نذهب».

تحرّك مُضيفي بتردّد، مجرجرًا رجليه، ثمّ انحنى بسرعة وقبض على الفرخ من رجليه الرّقيقتين. ناح الطّائر بلوعة، ضاربًا بجناحيه اليدين الحنونتين اللّتين حملتاه. لكنّ مُضيفي أحكم قبضتيه على

الرِّجلين لدى التقاط الفرخ من الأرض. رنا باتجاه والده، فأبصره واقفًا بانتظاره، والدّماء تقطر من الإوزة في كفّه. قال والده: «إنّه ملكك الآن. أنت أنقذته. خذه ولنذهب».

ثمّ بدأ الوالد في السّير نحو القرية، ومضى مُضيفي في إثره.

قصّ على مسامعها كيف أحبّ ذلك الطّائر الصّغير. كان الفرخ كثيرًا ما يهبّ ويندفع بالطّيران وقد اجتاحته نوبات من الغضب، ثمّ يعاوده الهدوء والانتعاش من جديد. أحيانًا، كان يفرّ بسرعة جنونيّة صوب لا شيء، ربّما عازمًا على العودة إلى الغابة التي جاء منها. وحين يرى ألّا مجال للفرار، يستدير ويعود مجرجرًا أذيال الخيبة. تعهّده مُضيفي بشكل لصيق، وبقدر من القلق أيضًا. كان يعيش في رعب دائم خوفًا من أن يصاب الطّائر بأذى، أو أن يهرب منه يومًا ما. كان هذا الرّعب يستولي عليه تمامًا حين يندفع الفرخ بغضب في أرجاء البيت، من حائط إلى حائط، محاولًا اختراق الحوائط والتحرّر من أسرها. لكنّه بعد كلّ محاولة من تلك المحاولات، كان يعود ويحطّ فوق طاولة أو كرسيّ، ورأسه مطأطئ مثل من تعرّض للتّوبيخ. ثمّ ينشر جناحيه ويبقيهما هكذا وهو يزعق إمّا غضبًا أو إحباطًا.

أجاب ردًّا على سؤال لها: «أجل، كانت هناك أحيان ركن فيها الفرخ إلى الهدوء». كان مُضيفي يعرف أنّ الكائنات الأرضيّة، بل وحتّى أشدّها ألمًا وفجيعة، فيها من الطّبع ما يحملها على المسالمة أحيانًا وهي رهن الأسر. في تلك الأحيان، كان الفرخ ينام في سريره، إلى جنبه، وكأنّهما رفيقان من جنس البشر. عندما رجع مُضيفي بفرخه من الغابة إلى «أوماهيا»، كان أطفال الحيّ قد هرعوا للتفرّج عليه. في أوّل الأمر، حرس مُضيفي فرخه بغيرة شديدة، ولم يسمح لأحد حتّى بلمس القفص المحبوك من ألياف نخيل الرّافيَة. بل كان يتشاجر مع أصدقائه الذين يلعب معهم الكرة في الحيّ لو حاولوا لمس القفص من دون

إذن منه. من بين هؤلاء، كان، إجْيكي، أعزّ أصدقائه في ذلك الحين، مغرمًا بالطائر على وجه الخصوص. جدّ إجْيكي في طلب اللّعب مع الفرخ أكثر من الآخرين، إلى أن سمح له مُضيفي، بعد برهة من الزّمن، بملاعبته. وذات يوم، طلب إجْيكي من مُضيفي أن يأخذ الفرخ إلى بيته كي يريه لجدّته، قائلًا: «لخمس دقائق، خمس دقائق فقط».

«أوزه بروَّه»، كنت قد لاحظت من قبل، تلك النّظرة في عيني هذا الطفل، وخفت حينذاك من أنّني رأيت، في أعماقهما، اتّقاد لهب حسد الصّغار. رأيت هذا مرّات ومرّات في أطفال البشر: ذلك الوجه السّلبيّ للإعجاب، الذي سبّب ويسبّب كثيرًا من جرائم القتل والمؤامرات المظلمة. لهذا، قدحت بسرعة في ذهن مُضيفي، ألّا يتخلّى عن فرخه. لكنّه لم يصغ إليّ، بل أعطى الطّائر لصديقه، (وكلّه ثقة بأنّ يد السّوء لن تطاله).

أخذَ إجْيكي الطّائر. ولمّا أوشكت الشّمس على المغيب ولم يعد صديقه بالطائر، انتاب مُضيفي القلق. ذهب إلى بيت إجْيكي، ثمّ طرق باب الشقّة التي كان صديقه يسكن فيها مع والدته، لكنّه لم يسمع شيئًا. نادى على إجْيكي مرّات ومرّات، لكنّه لم يتلقّ ردًّا. كان الباب موصدًا بإحكام من الدّاخل. أمّا من الخارج، فإنّ مُضيفي تمكّن من سماع زعيق الطّائر وخبط جناحيه هنا وهناك رغم الحبل المعقود حول رجليه. هرع إلى البيت طالبًا النّجدة من والده. ذهبا معًا إلى الشقّة، لكن رغم أن والدة إجْيكي استجابت للطرق على الباب في هذه المرّة، إلّا أنّها أنكرت وجود الطّائر لديها.

كانت تلك المرأة الأرملة قد استدرجت والده إلى بيتها ذات مرّة. لكن، لأنه لم يتقبّل أن تحلّ أيّ امرأة أخرى محلّ زوجته الحبيبة، التي سيتألّم على فقدانها حتّى الممات، رفض أن يستمرّ في العلاقة. وهذا بدوره دقّ إسفينًا بينه وبين تلك المرأة. رغم أنّ مُضيفي لم يكن على علم بكلّ ذلك، إلّا أنّني كنت أعلمه، إذ كنت قد سمعت والده وهو

يحدّث به نفسه أثناء نوم مُضيفي. ذات ليلة، رأيت القرين الحامي لوالده، قرينًا ظريفًا كان عندما يكمن في أطراف البيت يطفو إلى أعلى بوهج أثيريّ، وهو من أخبرني بترك جسد مُضيفه لأنّه على وشك الاختلاء بإحدى الجّارات. كنت أعرف هذا القرين الحامي جيّدًا، إذ عادة ما يتعرّف الواحد على القرناء الحماة لأفراد عائلة تقطن المسكن نفسه. هناك تجد القرناء الحماة، لذكور العائلة في العادة، يتبادلون الحديث أو يتجوّلون في أنحاء المسكن ببساطة، فتتطوّر بينهم رابطة على مدى حيوات مُضيفيهم. بهذه الطّريقة تمكّنت من معرفة عدد ضخم من القرناء الحماة لذكور وإناث البشر.

لذا، في هذا اليوم، وربّما لأنّها كانت ما تزال تشعر بالاستياء، صفقت المرأة الباب في وجه مُضيفي ووالده. أسقط في يد مُضيفي ولم يعد بوسعه فعل أيّ شيء تجاه إجْيكي ووالدته. ظلّ ذاهلًا لأيّام، ولمّا كان الحنق يستبدّ به أحيانًا، كان ينطلق كالسّهم نحو بيت الجّيران، لكنّ والده كان ينادي عليه ويهدّده بالجلد إن ذهب إلى هناك ثانية. استنكف عن فعل أيّ شيء سوى الإنصات على مدار الوقت لصوت فرخه، وعفّ عن الأكل أو النّوم. كان يشقّ عليّ، أنا قرينه الحامي، أن أراقبه خلال معاناته تلك. لكن ليس بمقدور القرين الحامي فعل أيّ شيء لمساعدة إنسان في مثل هذه الظّروف، فثمّة حدود لقدراتنا. يقول الآباء الأوّلون، بحكمتهم المعهودة: «أونيه كه انْمادو كه تشي يا»، وهم محقّون تمامًا. فالرّجل الأعظم من رجل آخر، هو أيضًا أعظم من القرين الحامي لذلك الرّجل الآخر. لهذا، يعدم القرين الحامي أيّ حيلة مع رجل كسير النّفس.

«إيْبونو»، تهدّجت مشاعر ندالي عند هذا المقطع من حكايته. ورغم مساهمتها في الحديث على مدار سرد القصّة، عبر طرح الأسئلة: «هل قال ذلك حقًّا؟»؛ «ماذا حصل بعد ذلك؟»؛ «هل رأيته؟». إلّا أنّني آثرت

عدم نقل كلامها، لاضطراري إلى التّركيز على حكاية هذا الطّائر الذي منحه مُضيفي قلبه ذات مرّة. لكن على ضوء ما حصل الآن، وبسبب وقوفي بين أيديكم وتقديم شهادتي الخاصّة بمُضيفي، يجب أن أنقل حديثها عند هذه النّقطة من القصّة الذي بلغت فيه رغبة مُضيفي في استرداد ما كان ملكًا له حدًّا دفعه إلى حافّة الجنون. قالت وقد هزّت رأسها بإرهاق: «لا بدّ من أنّ هذا كان مؤلمًا للغاية، أن يؤخذ منك طائر هو لك وعانيت طويلًا لأجله، أن يؤخذ منك هكذا وبكلّ هذه البساطة. لا بدّ من أنّ هذا كان مؤلمًا».

أومأ برأسه وواصل سرد القصّة. حدّثها كيف أنّ اليأس استبدّ به في اليوم الخامس. لذلك، تسلّق الشّجرة في الفناء الخلفيّ، وأطلّ من هناك على بيت الجّيران. رأى إجْيكي جالسًا على مقعد صغير داخل سور بيته وهو يمسّد ريش الفرخ بيده. في البداية، بدت الإوزّة ميّتة، ثمّ ضربت جناحيها وهمّت بالفرار من آسرها، لكنّه خبط قدمه بسرعة فوق الحبل الأحمر المربوط بقدمها. قاوم الفرخ، رافعًا قدمه المرّة تلو الأخرى مصفّقًا بجناحيه، لكنّ الحبل المضفور ثبّته في مكانه. كانت تلك هي اللّحظة، لدى مراقبة مُضيفي ما يجري، التي تفتّقت فيها تلك الفكرة القاسية في ذهنه.

«تشوكو»، لحظة أن لمحت المكيدة التي اعتملت في قلبه، طعنت فيها على الفور. بل استنهضت عقله للتّمعّن في عواقبها وما ستجرّه عليه من ضرر وألم بالغ. فكّر مُضيفي في الأمر لوهلة، حتّى أنّه تخيّل رأس الطّائر وهو ينزف من الجرح الغائر الذي سينزله به الحجر. لكنّه، مع ذلك، صرف تلك الفكرة من ذهنه. في هذه الحالة، مثلما تعلم، ليس لأيّ قرين حام أن يعاند إرادة المُضيف، أو أن يرغمه على فعل ضدّ إرادته. ومن هنا قال الآباء الأوّلون: «إنّ صمت الرّجل، صمت قرينه الحامي كذلك». هذا هو القانون العالمي لكافّة القرناء الحماة:

يجب أن يعقد الرّجل العزم أوّلًا كي يتمكّن قرينه الحامي من التحرّك. هكذا زُجّ بي في موقف لا أحسد عليه، وسأقف فيه متفرّجًا، بلا حول أو طول، ومُضيفي يجرّ الوبال على نفسه. عاد وقد جلب مقلاعه، ثمّ جلس فوق غصن منحنٍ، وتوارى بين الأوراق. أبصر من هناك الطّائر مربوطًا إلى قدم المقعد الصّغير الذي كان إجْيكي جالسًا فوقه قبل لحظة من رجوعه إلى داخل بيته.

عند هذا الحدّ من القصة، تفطّن مُضيفي إلى أنّه يوشك على إخبار ندالي أنّه كان إنسانًا قادرًا على اقتراف عمل عنف خطير، لذا، قطع السّرد ليكذب عليها قائلًا أنّه توقّف عن حبّ الفرخ لأنّه لم يعد ملكه. قال لها إنّه فكّر في قتل الفرخ بعد تعلّقه بإجْيكي انتقامًا من سيّده الجّديد. حين أومأت وقالت: «مفهوم، أكمل»، استأنف السّرد وروى لها كيف صوّب مقلاعه نحو الطّائر وأطلق حجره الذي لم يخطئ الهدف. أصاب الفرخ في قصبة ساقه، فسقط أرضًا وأطلق ما لا بدّ وأنّه كان صرخة ألم. هبط عن الشّجرة بسرعة، وقلبه ينبض مثل طبل يقرع، ثمّ هرول إلى غرفته. بعدئذ، جاء إجْيكي مسرعًا والطّائر ينزف بين يديه. كان يبكي ويقول إنّه سيموت إن لم يتلقّ العلاج اللّازم. فعلًا، بعد أيّام، وبعد تمكّن مُضيفي من استرداد طائره وإعادته إلى بيته، استيقظ في الصّباح، فوجد فرخه ممدّدًا على ظهره في وسط الغرفة. كان رأسه مطروحًا إلى جنب، وجناحاه الصّغيران منقبضين بشدّة، رجلاه متخشّبتين، والمخالب متقوّسة إلى أسفل.

«غاغان أَوغو»، أثار موت الطّائر الاضطراب في نفس مُضيفي. أخبر ندالي كيف تفجّع على فقدانه وبالغ في القسوة على نفسه حتّى اضطرّ والده إلى معاقبته. لكنّ ذلك لم يجدِ نفعًا. ثمّ بدأت الشّكاوى بالانهمار من المدرسة لعدم تركيزه وسرحانه الدّائم. بل إنّ التّمرّد بلغ به حدّ الإقبال على ارتكاب ما يستتبع إنزال عقوبات تلقّاها، تحديدًا

الجلد، من دون مبالاة مازوشيّة أثارت مخاوف معلّميه. بعثوا في طلب والده الذي أصبح يتهيّب من معاقبته لأنّه كان قد تحوّل من صبيّ سمين ملفوف إلى آخر ضامر كالرّمح. ذات يوم، في محاولة مستميتة لإنقاذ ابنه، أخذه والده إلى مزرعة طيور داجنة خارج المدينة. وصف مُضيفي المزرعة الضّخمة لندالي بالتّفصيل، كانت هناك مئات من الطّيور أمام عينيه، طيور مستأنسة بأشكال وألوان متعدّدة. هناك، وسط رائحة ألف ريشة، وزقزقة مئات الحناجر، استيقظ قلبه من مواته، ودبّت فيه الحياة من جديد. رجع هو ووالده بقفص ممتلئ بالدّجاج وديكين روميّين، ثمّ بدأت تجارتهما بالدّواجن.

«إيبوبديكي»، إثر انتهائه من سرد قصّته، لم ينطق كلاهما بشيء لبرهة من الوقت. تحت ستار الصّمت، قلّب في رأسه بسرعة ما قاله كي يرى إن كان فيه ما يمكن أن يُلقي عليه ضوء سلبيًّا. أمّا هي فاستغرقت في التّفكير، لعلّها كانت تزن كلامه في رأسها لتحكم عليه من خلاله. الحذر كان في صلب تقديره لذاته. وكان جلّ ما عليه الحفاظ عليه ليحمي نفسه. لهذا، كان حريصًا كلّ الحرص على أن يُبقي تفاصيل ماضيه طيّ الكتمان، ويحافظ لسانه على الاقتصاد في الكلام حتّى في وجه الضّغط. لمّا أصابه التململ من إحساسه بأنّه أطلعها على الكثير، صرف تفكيره إلى شتلات البندورة التي زرعها في الأسبوع الماضي ولم يسقها بعد. عندئذ قالت فجأة: «إنّه عمل شريف».

نطقت كلماتها تلك بعد ما بدا له فترة طويلة من التّأمّل والتّفكير. أومأ برأسه ثمّ سألها: «هل يعجبك يا مامي؟».

أجابت: «أجل، يعجبني. هل تفتقد عائلتك؟ في الحقيقة، ماذا عن شقيقتك؟».

على بساطة هذا السّؤال، إلّا أنّ صياغة جوابه استغرقت منه وقتًا

طويلًا. ولأنّني أقمت ردحًا طويلًا بين البشر، أدركت أنّهم لا يخزّنون المعلومات المتعلّقة بمن آذاهم مثلما يخزّنون المعلومات المتعلّقة بغيرهم. إنّهم يحفظون ذلك الصنف من المعلومات في قوارير محكمة الإغلاق، وإن اضطرّوا إلى تذكّر أصحابها فلا بدّ لهم من فكِّ أغطية تلك القوارير. بل، في الحالات الأبشع، كذكريات اغتصاب جدّته إبّان الحرب من قبل جنود الأعداء، لا بدّ من تهشيم القارورة إلى شظايا صغيرة. لهذا، كان كلّ ما قاله هو: «إنّها تعيش في... لاغوس. أنا وهي، في الواقع، لا اتّصال بيننا. اسمها نْكِرو».

«لماذا؟».

«مامي، تركت البيت قبل وفاة أبي. أعني... أقصد... كيف يمكنني أن أقول هذا؟ قامت... هجرتنا».

رفع بصره لتلتقي عيناه بعينيها المسلّطتين عليه، ثمّ استأنف قائلًا: «تركت البيت لأجل رجل رفض الجميع زواجها منه لتقدّمه في العمر، في عمر والدها تقريبًا. في الحقيقة، فرق العمر بينهما يربو على خمس عشرة سنة».

سألت باستنكار: «أهـ-ها! ولم فعلت ذلك؟».

أجابها: «لا أدري يا أختي».

رمقها بحدّة ليرى إن كان ثمّة ردّ فعل على ما ناداها به. ثمّ تابع: «لا أدري يا مامي».

«إيْبونو»، رغم أنّ ذلك كان كلّ ما أخبرها به عن شقيقته حينذاك، إلّا أنّ الرّجل حين يجهد في فتح قارورة كتلك، فإنّه يبصر ما يفوق حدود قدرته على التّفسير أو التّبرير. لا مفرّ من حصول ذلك في العادة. كان والده يسأله بحيرة: «لماذا تجحد طفلة والدها؟». فيجيب بلا أدري. عندئذ، كان يغشى عيني والده دمع رقيق. يطرق مفكّرًا في الأمر وهو يهزّ رأسه ويطقطق بإصبعه. يصرّ على أسنانه بشدّة، فيعلو

صوت اصطكاكها ته-ته-ته-ته-ته. ثمّ يقول بمرارة أنكى: «لا أستطيع تصوّر هذا... لا يستطيع أيّ رجل، حيًّا أو ميتًا، تصوّر أمر كهذا على الإطلاق. أوه، نْكِرو، ادا مو أوه!».

بسبب وطأة تلك الذّكريات، قرّر أن يغيّر الموضوع. نهض وقال: «سأجلب لك بعض الشّراب».

نهضت معه وسألته مستوضحة: «ماذا لديك؟».

ردّ: «لا، عودي إلى مكانك يا مامي. أنت كوني ضيفتي. يفترض بك أن تجلسي ولا تقدّمي ضيافتي أنا».

ضحكت، فرأى أسنانها الملساء المنظومة برقّة وعذوبة أسنان الأطفال. قالت: «أوكيه، لكن أنا أريد أنا أقف».

رماها بنظرة وقوّس حاجبه، ثمّ ضحك قائلًا: «لم أحسب أنّك تحسنين الكلام بالإنجليزيّة المهجّنة».

قلّبت عينيها ثمّ تنهّدت بالطّريقة التي تناقلتها الأجيال عن الأمّهات العظيمات.

رجع بزجاجَتي «فانتا» وناولها إحداهما. لم يكفّ عن شراء صناديق تلك المشاريب التي يسمّونها «فانتا» و«كولا»، لأنّ والده اعتاد على تقديمها للضّيوف، مع أنّه هو شخصيًّا كان مقلًّا في استقبال الضّيوف. كان يخزّن قسمًا منها في الثّلاجة، ويعيد القوارير الفارغة إلى الصّناديق.

أشار إلى طاولة الطّعام، المحاطة بأربعة كراس. كانت هناك شمعة ذائبة حتّى المنتصف متربّعة فوق غطاء قديم لعلبة «بورنفيتا». تغيّر شكل الشّمعة بعد ذوبان الشّمع وتكوّمه فوق الغطاء، فأصبحت مثل شجرة هرمة نتأت جذورها من باطن الأرض. دفعها إلى حافّة الطّاولة المقابلة للحائط ثمّ سحب لضيفته كرسيًّا على جنب. انتبه لأنّها كانت تتأمّل الرّوزنامة المعلّقة على الحائط والتي كانت تحمل صورة إله الرّجل الأبيض، «جيسوس كرايست»، وفوق رأسه تاج من الأشواك.

جرت الكلمات المكتوبة جنب إصبع «جيسوس» المرفوع فوق شفتيها، لكنّها لم تصبح مسموعة. فتح زجاجتي الشّراب لمّا جلست، وحين همّ بإرجاع فتّاحة العلب، جذبته من يده.

«إجانغو إجانغو»، رغم مرور كلّ هذه السّنين الطّويلة، إلّا أنّي ما زلت عاجزًا عن استيعاب كل ما تكشّف في تلك اللّحظة. يبدو أنّها تمكّنت، عبر حيلة سحريّة، من سبر أغوار قلبه واستقراء نواياه، نواياه التي لم تستنكف طوال حديثه عن استعراض نفسها فوق صفحة وجهه. توصّلت إلى فهم أنّ الابتسامة التي لم تفارق شفتيه، كانت تواري خلفها صراع جسده ضدّ عناد رغبته البركانيّة القاهرة. مارسا حبًّا صميمًا، عميقًا، متألقًا، بهيًّا، نحو ساعة من الوقت وبطاقةٍ منقطعة النظير. كان مدفوعا بمزيج عجيب من عدم التصديق وتنفّسَ الصعداء، أما هي فلا قدرة لي على وصف شعورها. أنت تعلم، «تشوكو»، بأنّك أرسلتني مرّات ومرّات لأسكن في النّاس، ولأعيش من خلالهم، ولأصبح هم أنفسهم. لكن، مع ذلك، أقلقتني ضراوة اشتباك هذين الاثنين. لعلّ ذلك كان لأنّ هذا اللّقاء كان أوّل لقاء حميم بينهما. ولأنّ كلاهما أدرك بأنّه كان بينهما ثمّة شيء عميق يفوق الوصف، هذا ما جال في ذهنه بالفعل، وهذا ما ذكّرني، أنا أيضًا، بكلمات قرينتها الحامية: «نصبت مُضيفتي في معبد قلبها تمثالًا صغيرًا». لا بدّ من أن يكون كلّ ذلك وراء تلك النّهاية التي آل إليها هذا الأمر. كان كلاهما يتصبّب عرقًا، ولمّا تمدّد جنبها، وأبصر الدّموع في عينيها، قال كلمات نحن فقط، هي وهو وأنا، من كان قادرًا على سماعها، لكنّها دوّت بعيدًا في عالم الغيب، وكأنّما قُصد منها إسماع البشر والأرواح، الأموات والأحياء، للحظة وللأبد: «وجدتها! وجدتها! وجدتها!».

5

أوركسترا المغلوبين

«**غاغان أَوغو**»، حال أن يقع اثنان في الحبّ، تبدأ حياتهما في اكتساب ملامح مشتركة تدريجيًّا، إلى أن تصبح سائر أيّامهما متشابهة ويتعذّر التّمييز بينها. وحين يفترق العاشقان، يحمل كلّ منهما كلمات الآخر في قلبه. وحين يلتقيان: يضحكان، يتكلّمان، يمارسان الحبّ، يتجادلان، يأكلان، يرعيان الدّواجن، يشاهدان التّلفاز ويحلمان بمستقبل يضمّهما معًا. هكذا، يطير الوقت، وتتراكم الذّكريات، ويصبح التقاء شملهما هو مجموع كلّ تلك الكلمات، والضّحكات، وممارسات الحبّ، والمجادلات، وتناول الطّعام، ورعاية الدّواجن، وكلّ ما فعلاه معًا. حين يفترق شملهما، يصبح اللّيل مقيتًا لا يُطاق. يعتريهما القنوط عند احتجاب الشّمس، وينتظران انقضاء اللّيل، السّتار الكونيّ الذي يفصل الحبيب عن حبيبه، على أحرّ من الجّمر.

بحلول الشّهر الثّالث، أدرك مُضيفي أنّ أعزّ اللّحظات التي تقضيها ندالي بصحبته، كانت حين تشاركه رعاية الدّواجن. رغم أنّها ظلّت منزعجة من كثير من الأمور المتعلّقة بتربية الدّواجن، كرائحة القنّ، وزرق الطّيور في كلّ مكان تقريبًا، وذبح ما يُباع منها لحومًا للمطاعم، إلّا أنّها كانت، أيضًا، مستمتعة برعايتها. ورغم عدم تبرّمها من العمل جنبًا إلى جنب مُضيفي، إلّا أنّه ظلّ قلقًا من نظرتها إلى مهنته. كان يستحضر، مرارًا، ذلك المحاضر الجّامعيّ الذي كان يتردّد على سوق

الدّواجن في «إنغو» ويشتكي بشدّة من عادة مربّي الدّواجن في حمل طيورهم من أجنحتها، واصفًا ذلك بأنه قاسٍ. ومع أنّ ندالي كانت تتدرّب لتصبح صيدلانيّة، وقد رآها بمعطف أبيض في بعض الصّور التي جلبتها له، إلّا أنّها لم تُبدِ أيّ شكل من أشكال الحساسيّة تجاه هذا الأمر. بل كانت تنتف ريش الطّيور عندما كان يستطيل بأريحيّة تامّة. وكانت تجمع البيض كلّما زارته في البكور أو بعد قضاء اللّيل في بيته. وعلاوة على رعاية الطيور، كانت تقوم على رعايته والاعتناء ببيته. تمكّنت من إقحام يدها داخل أشدّ المواضع الخفيّة في حياته ولمس كلّ شيء فيها. بمرور الوقت، أصبحت ذلك الشّيء الذي كانت روحه تتوق إليه وتبحث عنه بعين باكية.

خلال تلك الشّهور الثّلاثة، استطاعت هذه المرأة التي قابلها مصادفة عند الجّسر، والتي هي سبب مثولي أمامكم في هذه اللّيلة وتقديم شهادتي قبل أوانها، أن تقلب حياة مُضيفي رأسًا على عقب. من دون أيّ إنذار أو إشعار، جاءت ندالي عصر أحد الأيّام تحمل تلفازًا جديدًا بحجم أربع عشرة بوصة ومكواة. تندّرت عليه لأسابيع كونه الشّخص الوحيد الذي لا يتابع التّلفاز بين سائر معارفها. لم يخبرها بأنّه امتلك جهازًا ورثه عن أبيه حتّى عهد قريب، قبل أسابيع على لقائه بها ثانية، لكنّه حطّمه إثر نوبة غضب بسبب اختفاء موتو. حين أدرك آنذاك، ما صنعته يداه، حمله إلى مصلح الأجهزة الكهربائيّة في الحيّ. وبعدما فحص هذا الرّجل الجّهاز وحاول إصلاحه، قال له، بهزّات كثيرة من الرّأس، إنّ عليه شراء جهاز جديد. فثمن قطعة الغيار المطلوبة يفوق ثمن جهاز جديد. قرّر، وقتذاك، ترك التّلفاز مع المصلح، في محلّه الصّغير قرب الطّريق السّريع المزدحم، الذي يشتغل فيه وسط «زغورات»[1] مع الأجهزة الكهربائيّة المتفاوتة في درجات العطب.

---

(1) زغورات: كلمة بابلية قديمة تعني الأبراج العالية.

علاوة على جلب أشياء جديدة، كانت ندالي حريصة على بقاء بيته نظيفًا. واظبت على مسح أرضيّة الحمّام بانتظام، وبعدما قفز ضفدع من قناة الصرف إلى داخل الحمّام، إثر هطول أمطار غزيرة، أحضرت سبّاكًا لسدّها بشبك مناسب. قامت بفرك الوسخ عن البلاط الأبيض الذي أهمله لأشهر طويلة، واشترت مناشف جديدة، لم تعلّقها فوق حافّة الباب، **لأنّها قذرة من الغبار!** أو فوق المسمار الأعوج المثبّت في الباب، **لأنّ صدأ المسمار سيلطّخ المناشف**، بل علّقتها فوق مشجب بلاستيكيّ خاصّ. أضفت تحسينات يوميّة على جوانب حياته المختلفة، حتّى أنّ إلوتشوكو، الذي ما عاد يحظى بكثير اهتمام من مُضيفي، لم يكفّ عن التّعليق على ما طرأ على حياة صاحبه من تغيّرات هائلة.

رغم أنّ مُضيفي كان يقدّر كلّ تلك الأمور، إلّا أنّه لم يفكّر فيها مليًّا إلّا بعد انقضاء تلك الأشهر الثّلاثة، أثناء سفر ندالي مع والديها إلى بريطانيا، بلاد الرّجل الأبيض. وذلك لأنّ البشر لا يبصرون تمامًا ما هو نصب أعينهم، إلّا حين ينظرون إليه عن بعد. ولربما يبغض الرّجل رجلًا آخر بسبب إساءة ما، لكنّ قلبه، بعد حين، يعاوده الدّفء تجاه ذلك الرّجل المسيء. لهذا يقول الآباء الحكماء: «من يسمع ضربات «أودو»[1] وهو على مسافة، يلتقط رسالتها بشكل أوضح». رأيت هذا مرّات ومرّات. لهذا، فإنّ مُضيفي أبصر، خلال مدّة غيابها، ما فعلته لأجله بشكل أوضح. وخلال هذه المدّة أيضًا، أصبح سائر ما قالته له مسموعًا أكثر، فلاحظ كلّ التّحوّلات التي طرأت على حياته، وكيف أصبح ما انقضى من حياته قبل مجيئها، يبدو الآن وكأنّه حقبة تنتمي

(1) أودو: طبول تصنعها نساء الإيبو من الفخّار ويستخدمنها أيضا كقدور لجلب الماء وحفظه. معنى الكلمة الحرفيّ في لغة الإيبو هو «الطّبول القدور».

إلى زمن غابر. في تلك الأيّام فقط، وعبر التّفكير في هذه الأمور، زيّنت له رغباته، بكلّ ما للرّغائب من قدرة مذهلة على الإقناع، بأنّ ما كان يريده في الحقيقة هو الزّواج من ندالي. عندئذ هبّ على قدميه وهتف: «أريد أن أتزوّجك يا ندالي!».

«إجانغو إجانغو»، ليس بمقدوري وصف تلك الفرحة التي اعترت مُضيفي في ذلك المساء. إذ إنّها تفوق قدرة أيّ شعر أو لغة على الوصف. كنت قد لمست، قبل أجل طويل على مجيء عمّه وطلبه منه أن يعثر على زوجة له، بأنّ مُضيفي كان يسعى وراء مثل هذا الأمر، منذ وفاة أمّه. وأنا، بصفتي قرينه الحامي، أيّدت هذا تأييدًا تامًّا. إذ كنت قد عاينت تلك المرأة، وتأكّدت من حسن رعايتها له، بل وحصلت من قرينتها الحامية على شهادة بحبّ مُضيفتها لمُضيفي. كما كنت مقتنعًا بأنّ عثوره على زوجة من الممكن أن يعيد إليه شيئًا من الطّمأنينة الدّاخلية التي فقدها منذ وفاة أمّه. وكما يقول الآباء الأوّلون، بمنتهى علمهم وحكمتهم: «حالما ينتهي الرّجل من بناء بيت ومزرعة له، فإنّ الجميع، بل وحتّى الأرواح، يتوقّع منه أن يتّخذ لنفسه زوجًا».

بعد يومين على اتّخاذه هذا القرار، رجعت ندالي إلى نيجيريا. وفور وصولها مع عائلتها إلى أبوجا، اتّصلت به، همسًا عبر الهاتف. أثناء كلامها، التقطت أذنه صوت باب فُتح قربها، وعندئذ انتهت المكالمة في الحال. لمّا اتّصلت به، كان منهمكًا في جمع البيض ونثر أرضيّة قنّ الدّجاج بنشارة خشبيّة جديدة. عندما وصلت «أوماهيا»، لاحقًا، تكرّر الأمر نفسه. في هذه المرّة، كان قد فرغ من تناول الطعام في أحد المطاعم الذي يأكل فيه أحيانًا ويزوّده بالبيض ولحوم الدّجاج. كانا في مطلع الحديث حين أنهت ندالي فجأة مكالمتها والتقطت أذنه صوت باب فتح في الطّرف الآخر.

وضع مُضيفي الهاتف وغسل يديه في وعاء بلاستيكيّ، كان ممتلئًا

بعظام سمك الـ «بونغا» الذي قُدّم له مع حساء «إغوزي». سدّد الحساب لابنة صاحب المحلّ، التي كانت عادتها في ارتداء منديل مطويّ على هيئة ذيل الطّائر تذكّره بموتو. التقط نكّاشة أسنان من مزهريّة بلاستيكيّة ثمّ خرج تحت الشّمس. لوّح بيده لبائع متجوّل كان يبيع الماء في أكياس صغيرة محكمة الإغلاق، ويجول بين النّاس مناديًا على بضاعته بقول: «ماء بيور للبيع، ماء بيور للبيع!». «أَغوجِغبه»، لطالما أدهشني هذا البيع والشّراء للماء. فما كان ليخطر في بال الآباء الأوّلين أبدًا، حتّى في أقسى مواسم الجّفاف، أنّ الماء، هبة ربّة الأرض العظيمة، والأكثر وفرة من أيّ شيء آخر، من الممكن بيعه مثلما يبيع الصيّادون طرائد النيص! اشترى كيسًا من «ماء بيور»، ولمّا همّ بدسّ ما ردّه له البائع من بقيّة النّيرات العشر في جيبه، علا رنين هاتفه ثانية. تناوله، ثمّ فكّر في زلق غطائه واستقبال المكالمة، لكنّه عاد وردّه إلى جيبه. بصق نكّاشة الأسنان وقضم الكيس، ثمّ شرب ما فيه من ماء ورماه وسط الحشائش المجاورة.

كان مُضيفي غاضبًا. لكنّ الغضب في مثل هذه الحالة، غالبًا ما يتحوّل إلى قطّة ولود، تحمل عدّة جراء في البطن الواحد. وقد ولدت في حالة مُضيفي الغيرة والشكّ. طوال مشيه إلى باصه الصّغير، ظلّ يتساءل لماذا منح نفسه لامرأة لا يبدو أنّها تعبأ به. قدحت في ذهنه أنّه لم يكن هناك داعٍ للتّضايق منها، واقترحت عليه أن يتريّث حتّى يسمع منها تفسيرًا لما حدث.

لم يتقبّل اقتراحي، بل ركب باصه بكلّ بساطة وقاده متجاوزًا العامود الضّخم الذي يحمل اسم البلدة قرب شارع «بندي»، وهو ما زال يغلي من الغضب. مرّ بتقاطع وَعِر حيث عمد «تُكتُك» إلى مزاحمته وحشر نفسه كالإسفين بين باصه وسيّارة أخرى كان سيصطدم بها لو لم يلجأ مُضيفي إلى الضّغط على المكابح. شتم سائق الـ «تُكتُك» مُضيفي لمّا

انحرف إلى جانب الطّريق وأوقف باصه هناك. فصرخ على الرّجل بأعلى صوته قائلًا: «أيّها الشّيطان! هكذا يموت أمثالك. تسوق مجرّد تُكتُك عاديّ وتتصرّف كما لو كنت تقود شاحنة!».

رنَّ هاتفه وسط صراخه، لكنّه لم يمدّ يده إليه. شغّل الباص وانطلق، مرّ بكاثدرائية «ماتر داي»، التي لم يرتَدها منذ زمن بعيد، وانعطف إلى شارع صغير كان يختصر المسافة عليه. عندما وصل إلى مزرعته، أطفأ المحرّك ثمّ سحب الهاتف وطلب رقمها.

صاحت عبر الهاتف: «ماذا دهاك؟ لمَ تتصرّف هكذا؟».

أطلق نفسًا طويلًا عبر الهاتف ثمّ قال: «كلا أريد... كلا أريد أن أحدّثك عبر الهاتف».

قالت: «لا، عليك أن تفعل ذلك. ما الذي اقترفته بحقّك؟».

مسح حبّات العرق عن جبينه وأنزل زجاج النّافذة، ثمّ قال: «تضايقت لأنّك فعلتِها مرّة أخرى».

ردّت متسائلة: «ما الذي فعلته مرّة أخرى، هيه، نُنسو؟».

أجاب قائلًا: «إنّك تشعرين بالخزي منّي. لم تتّصلي لأنّ شخصًا آخر دخل عليك الغرفة».

شعر بأنّ صوته آخذ بالارتفاع، وبأنّ نبرته أصبحت حادّة شعواء، نبرة اشتكت منها مرارًا ووصفتها بالقاسية. لكنّه لم يستطع أن يكبح جماح نفسه، فواصل كلامه قائلًا: «أخبريني، هيه، من فتح الباب حين أنهيت مكالمتك معي؟».

ردّت: «ننسو»...

فألحّ قائلًا: «ردّي على سؤالي».

قالت: «أوكيه، كانت والدتي».

فقال: «هيه... هيه، أرأيتِ؟ إنك تُخفين أمري؟ لا تريدين أن تعرف عائلتك بوجودي في حياتك. لا تريدينهم أن يعرفوا بأنّي صديقك. أرأيتِ، أنت تُخفين أمري عن أهلك وناسك يا ندالي».

حاولت أن تتكلّم، لكنّه اندفع بالحديث وأرغمها على السّكوت. والآن، انتظرها كي تتكلّم ثانية وقد شعر بقلق مضاعف، لا بسبب ما أفشاه عبر نبرة صوته فقط، بل لأنّه خاطبها باسمها، أمر لم يكن يقدم عليه إلّا حين يكون غاضبًا منها.

قال: «أما زلتِ هناك؟».

ردّت بعد وهلة: «أجل».

قال: «إذًا، تكلّمي».

سألت: «أين أنت الآن؟».

ردّ: «في البيت».

قالت: «إذًا، سأتوجّه الآن إلى هناك».

وضع الهاتف في جيبه، وغمره فرح صامت. كان من الواضح أنّه لم يكن في نيّتها أن تأتي إليه إلّا بعد بضعة أيّام، لكنّه أراد منها أن تأتي إليه في أسرع وقت ممكن. فقد افتقدها، وكان هذا أحد بواعث غضبه. انزعج أيضًا من قلق انبثق في نفسه أثناء غيابها واستحوذ عليه أكثر فأكثر بعد توصّله إلى فكرة الزّواج. كما يحصل معه في العادة، ومع عموم البشر أيضًا، ولدت الرّغبة في ذهنه، بكلّ ما لها من سطوة في الاقناع، فكرة هي في الأصل موضع سؤال. في بادئ الأمر، يحمل البشر مثل هذه الأفكار على محمل الجدّ واليقين، لكنّ بصائرهم تصبح بعد مدّة أكثر حدّة ويبدأون في رؤية ما يشوب أفكارهم ومخطّطاتهم من خلل. لهذا، فإنّ مُضيفي بعد ساعات لاحقة على قراره، وكأنّ الأمر كان محجوبًا عنه طوال الوقت، فطن إلى أنّه ليس غنيًّا، ولا وسيمًا بشكل فارق، ولم ينل قسطًا من التّعليم يتجاوز الثّانويّة العامّة. أمّا هي، في المقابل، فكانت على وشك إتمام تعليمها الجّامعيّ لتصبح طبيبة (رغم أنّها قالت له مرارًا، «إيبونو»، بأنّها ستصبح صيدلانيّة لا طبيبة). كان بحاجة إلى مجيئها إليه، كي تطمئنه ثانية بطريقة ما إلى أنّه

كان مخطئًا، وأنّه لم يكن أدنى منها بل كان كفؤًا لها، وإلى أنّها كانت تحبّه. رغم أنّها لم تكن تدري بأيّ شيء من هذا، إلّا أنّ هذا هو ما كان متوقّعًا منها حين وافقت على المجيء إليه.

نزل من باصه الصّغير وتمشّى في مزرعته الصّغيرة، توقّف في وسطها، بين صفوف شتلات البندورة، ليمسح بنظره أكواز الذّرة على الجّانب المقابل. عندئذ، برز أرنب، لعلّه حين لمحه، فرّ هاربًا إلى حقل الذّرة بوثب عبقريّ متتابع، وذيله يهتزّ خلفه. كان يقفز بضع قفزات، ثمّ يتوقّف، ينصب رأسه ويختطف نظرات هنا وهناك، ثمّ يستأنف الهرب من جديد. لمح مُضيفي لباسًا داخليًا رجاليًا، لعلّ الرّيح حملته من أحد البيوت المجاورة، فوق شتلة ذرة محنيّة. مشى صوبه ورفعه عن الشّتلة، فوجده قذرًا وفوقه «أمّ أربع وأربعين» سوداء اللّون. نفضها بعيدًا ومشى صوب سور المزرعة كي يرمي اللّباس الدّاخلي خلفه، وحينذاك وصلت ندالي.

«إزِوَّه»، يقول الآباء الحكماء في وصاياهم التّحذيريّة الحكيمة: «مهما تلوّى الرّاقص وتثنّى، يظلّ عازف النّاي هو صاحب الأمر والنّهي». نال مُضيفي ما أراده في ذلك المساء: أن تأتي إليه. لكنّه فعل ذلك عبر نغمة احتجاج وأملى اللّحن على عازف النّاي. وهكذا، لمّا عبر باب البيت، وجدها واقفة، ووجهها المتجهّم قابع خلف أصابعها المنفرجة فوقه. أشاحت بوجهها عنه لدى دخوله، وقالت وقد غضّت بصرها عنه: «لم آتِ لأجل المناكفة، بل للحديث بهدوء يا نُنسو».

خوف انشغاله لمدّة طويلة بما ستقوله، طلب منها أن يطعم الدّجاج أوّلًا. ذهب إلى الفناء هرولة، رغبة في العودة إليها على جناح السّرعة. فتح باب القنّ المصنوع من الخشب والشّبك، فتدافعت الطّيور إلى الخارج وهي تصيح بحماسة. اندفعت بترقّب صوب شجرة الغوافة،

حيث فرد شوالين لكنّه لم ينثر فوقهما العلف بعد. ما إن هدأت قليلًا وبدأت في نقب الأرض، عاد إلى البيت وفتح الباب الرئيسّي على مصراعيه، فبقي باب المنخل موصدًا فقط. غرف قدحًا كبيرًا من العلف المتبقّي ثمّ ربط الكيس الفارغ تقريبًا وأعاده داخل خزانة المطبخ بعيدًا عن أعين الطّيور. عاد إلى الفناء ونثر العلف فوق الكيسين تحت الشّجرة. على الفور، اختفى الكيسان تحت حشد من الطّيور الجّائعة.

لمّا رجع إلى غرفة الجّلوس، وجد ندالي جالسة تتأمّل الكاميرا التي جلبتها له من بلاد الرّجل الأبيض، كانت تشير إليها بكاميرا «بولارويد». حقيبة يدها كانت ما تزال جنبها، وحذاؤها، الذي كانت تشير إليه بـ«الكعب»، كان ما يزال في قدميها، كما لو كانت متهيّأة للذهاب بعد أجل قصير. «إيبونو»، مع أنّ بمقدور الواحد أن يقرأ تعابير وجه الشّخص ليستشعر ما يعتمل في ذهنه، إلّا أنّ هذا لم يعد أمرًا سهلًا مع بنات الأمّهات العظيمات. ذلك أنّ بنات الأمّهات العظيمات تركن طرائق وعادات الأمّهات في التّجمّل والزّينة. هجرن زينة وأصباغ «أولي»، وتضفير الشّعر المتقن، والتّجمّل بالخرز والودع. صار بوسع المرأة الواحدة، بمفردها، أن تغطّي وجهها بألوان من شتّى الأصناف، وبفرشاة صبغ يتيمة. لو كانت الواحدة منهنّ تعيسة، فبوسعها أن تصبغ وجهها بكثير من الألوان لتبدو وكأنّها سعيدة. هكذا بدت ندالي في ذلك اليوم. قالت فور جلوس مُضيفي: «قل لي، إذًا، هل تودّ أن تقابل عائلتي؟».

كان يجلس على أكثر كنبة متهالكة في الغرفة، فهبط إلى الأسفل ولم يعد قادرًا على رؤيتها بالكامل مع أنّه كان جالسًا قبالتها. انتبه إلى نبرة الغضب في صوتها، فردّ قائلًا: «هذا صحيح، إن كنّا سنتزوّج»...

قاطعته على الفور: «إذًا أنت تريد الزّواج منّي يا نُنسو؟».

ردّ: «أجل يا مامي».

كانت أثناء ردّه قد أطبقت عينيها، ولمّا فتحتهما الآن، بان ما فيهما

من احمرار. عدّلت جلستها فوق الكنبة فامتدّت قدماها نحوه. ثمّ قالت: «أتعني ذلك؟».

رفع بصره نحوها وقال: «أجل».

ردّت: «إذًا إن كنت تقول بأنّك تريد الزّواج منّي، ستقابل عائلتي».

«إيبونو»، قالت هذا وكأنّه من صنف الكلام الذي يوجع صاحبه عند قوله. كان بمقدور الواحد أن يرى، من دون حاجة إلى عين عرّاف كاهن، أنّ ثمّة خطبًا شديد الوطأة كامن في قلبها، مستتر في تلافيف ذهنها، ولم تكن لديها الرّغبة في الإفصاح عنه. أبصر مُضيفي هذا، أيضًا، ولهذا سحبها لتجلس جنبه فوق الكنبة الكبيرة ثمّ سألها بصراحة لماذا لا تريده أن يقابل أهلها. ردًا على هذا السّؤال، سحبت نفسها بعيدًا عنه وأشاحت بوجهها إلى الجّانب الآخر. في تلك اللّحظة، رأى مُضيفي خوفها. رآه رغم أنّها نحّت وجهها عنه، ولم يكن بوسعه أن يرى سوى قرطها المتدلّي حتّى كتفها، مشكّلًا حلقة كبيرة تتّسع لإصبعين من أصابعه. ذلك أنّ الخوف هو العاطفة التي تستر العريّ الأزليّ لوجه الإنسان، وأينما تجلّى وقدّم نفسه، فإنّ أيّ عين بصيرة بمقدورها أن تتعرّف عليه، مهما كان الوجه مطمورًا تحت طبقات من الزّينة. قال متسائلًا: «لماذا يحملك هذا الأمر على الحزن يا مامي؟».

ردّت على الفور قبل فراغه من التفوّه بكلمته الأخيرة: «إنّه لا يحملني على الحزن».

قال: «لماذا أنت خائفة إذًا؟».

ردّت: «لأنّ الأمر لن يمضي على خير».

فسألها: «لماذا؟ لماذا لا يمكنني أن أتعرّف في الأقلّ على عائلة حبيبتي؟».

نظرت إليه. حدّقت إليه بصرامة، من دون أن ترمش. ثمّ استدارت ثانية وأشاحت بوجهها عنه، وقالت: «ستقابلهم. أعدك بهذا. لكنّي أعرف والديَّ وشقيقي. إنّني أعرفهم».

هزّت رأسها ثانية، وتابعت القول: «إنّهم أناس معتدّون بأنفسهم. لن يمرّ الأمر على خير. لكنّك ستلتقي بهم».

أربكه ما سمعه منها، لكنّه لم يعلّق بشيء. كان يتمنّى أن يعرف المزيد، لكنّه لم يكن شخصًا يطرح كثيرًا من الأسئلة.

ضربت الأرض بقدمها بصورة لا يمكن فهم سرّ ما تعكسه من عدم الارتياح، ثمّ قالت: «عندما أعود إلى البيت سأخبرهم بأمرك. هذه اللّيلة، سأخبرهم في هذه اللّيلة. ثمّ سنرى متى سيتسنّى لي أن أدعوك إلى البيت».

فور أن قالت ذلك، تنفّست الصّعداء، وكأنّ حملًا ثقيلًا انزاح عن عاتقها. ألقت ظهرها فوق مسند الكنبة ومالت نحوه ثمّ سحبت نفسًا عميقًا. لكنّ كلماتها ظلّت عالقة في رأسه. فالكلمات التي لها وقع قويّ مثل تلك التي قالتها، «لن يمرّ الأمر على خير»؛ «إذًا أنت تريد الزّواج منّي؟»؛ «ستقابلهم»؛ «سنرى متى سيتسنّى لي أن أدعوك إلى البيت»، لا تنسرب من الذهن بسهولة. بل لا بدّ من تفكيكها برويّة، عبر فسحة من الوقت. كان منشغلًا في هضم تلك الكلمات، حين علا من الفناء صوت مميّز بثّ فيه الرّعب.

وثب من مكانه وبلغ المطبخ في طرفة عين. اختطف مقلاعه من على حافّة النّافذة وفتح باب الشّبك. ولكن بعد فوات الأوان. كان الصّقر قد امتطى صهوة عامود هوائيّ صاعد لمّا وصل مُضيفي إلى الفناء، خفق جناحاه بعنف ضدّ التّيّار المتصاعد، وأحد الصّيصان الصّفراء بين مخالبه. حين أقلع، ضرب جناحاه حبل الغسيل، فاهتزّ الحبل وسقطت قطعتان من الغسيل كان قد نشرهما فوقه. صوّب مقلاعه وأطلق حجرًا، لكنّه مرَّ بعيدًا عن الطّائر. ألقم مقلاعه حجرًا آخر لكنّه أدرك عقم المحاولة. كان الصّقر قد حلّق إلى عامود هوائيّ بعيد المنال واكتسب زخمًا، لم تعد عيناه مصوّبتين إلى الأسفل بل إلى الأمام، صوب براح السّماء الشّاحبة.

«تشوكو»، الصّقر طائر خطير، فتّاك كالنّمر الأرقط. لا يشتهي غير اللحوم ويقضي حياته في مطاردتها. إنّه لغز مسكوت عنه بين طيور السّماء. إنّه إله محلّق، وُلد بأجنحة من عنف، ومخالب لا تعرف رحمة. رصده الآباء العظماء هو والحدأة، ابنة عمّه الأقرب، وضربوا في تفسير طبيعته الأمثال، أحدها يلتقط ما حصل مع دجاجات مُضيفي: «يقول الصّقر للدّجاجة قبل أيّ هجوم: ضمّي صيصانك إلى صدرك لأنّ مخالبي تقطر دمًا».

كان مُضيفي يحدّق إلى الصّقر الفارّ وهو يتميّز غضبًا، حين فتحت ندالي باب الشّبك وخرجت إلى الفناء. سألته: «ماذا جرى؟ لماذا خرجت مهرولًا؟».

قال من دون أن يلتفت إلى الخلف: «صقر».

أشار بإصبعه نحو السّماء، لكنّ الشّمس أرغمت عينيه على الانكماش. سترهما بكفّه ومضى في الاتّجاه الذي سلكه الصّقر. لكنّ الهجوم كان ما يزال ماثلًا بحدّة في ذهنه، حتّى أنّه لم يصدّق نهايته. لم يعد بوسعه الآن فعل أيّ شيء لإنقاذ طائر من طيوره وحمايته من شرّ التّمزيق والالتهام. دجاجاته التي ربّاها بعرق جبينه، تُختطف واحدة منها، ثانية، من بين يديه من دون قتال.

استدار مستطلعًا ما حوله، فرأى طيوره، عدا تلك التي سُرق منها صوصها، منكمشة داخل حِمى القنّ. أمّا الدّجاجة المفجوعة فراحت تقفز هنا وهناك بمشية متخبّطة، مولولة بصياح كان يعرف بأنّه لغة النّواح لدى الطّير.

سترت عينيها بكفّها واستدارت نحوه ثانية، ثمّ قالت: «لا أستطيع رؤية أيّ شيء. هل سرق دجاجة؟».

أومأ برأسه، فقالت: «آه، يا إلهي!».

حوّل ناظريه صوب الدّليل الدّامغ على الهجوم: الأرض الملطّخة بالدّم والرّيش. فقالت: «كم عدد ما اختطفه منها؟ كيف»...

قاطعها قائلًا: «أوفو».

ثمّ استدرك وقد ذكّر نفسه بأنّه يتكلّم مع شخص يفضّل ألّا يتحدّث بلسان الإيبو: «واحدة فقط».

وضع مقلاعه فوق المقعد الخشبي ولاحق الدّجاجة النّائحة في أرجاء الفناء. راوغته وفشل في القبض عليها من المحاولة الأولى. لكنّه اندفع إلى الأمام ويداه تسبقانه وحشرها في زاوية السّور. ثمّ رفعها من ساقها، ممرّرًا إبهامه برقّة فوق العقب. سكنت الدّجاجة، لكنّ ذيلها ظلّ مشدودًا إلى أعلى.

قالت ندالي وهي تلمّ قطع الغسيل التي سقطت أرضًا: «كيف حصل هذا؟».

أجابها: «جاء ببساطة»...

أمسك عن متابعة حديثه كي يربّت على أذن الدّجاجة. ثمّ تابع قائلًا: «أغار عليها وقنص صغيرًا هذه الدّجاجة الأمّ، أدا. صوص من صيصانها التي فقست مؤخّرًا».

حمل «أدا»، الدّجاجة، ووضعها في القنّ ثمّ أوصد الباب بهدوء.

قالت: «آسفة للغاية يا أبِم[1]».

ضرب كفّيه معًا لينفض عنهما الغبار ومضى إلى البيت. عندما رجع إلى غرفة الجّلوس بعد غسل يديه في الحمّام، سألته: «هل يحدث هذا دومًا؟».

ردّ: «لا، أوه لا، لا يحدث دومًا».

كان يريد لإجابته أن تنتهي عند هذا الحدّ، لكنّي يا «تشوكو» دفعته إلى إفراغ ما في جعبته. فأنا أعرفه جيّدًا. وأعرف أنّ من بين الأمور التي يمكن أن تشفي غليل رجل مهزوم هو قصّة انتصار سابق له. فهذا

---

(1) أُبِم: لفظة تعني في لغة الإيبو يا قلبي.

يخفّف من ألم الهزيمة ويملؤه بآمال تحقيق انتصار في المستقبل. قدحت في ذهنه فكرة أنّ الصّقور لا تأتي عادة إلى هنا. أوحيت إليه أن يقول لها إنّ الأمر لا يحدث دومًا. في لحظة انصياع نادرة، أنصت لي. قال: «لا، لا يحدث دومًا. لا يمكن أن يحدث دومًا. مبا نو!».

قالت: «ولكن...».

قاطعها وأكمل: «فأنا لا أسمح بذلك. في الحقيقة، منذ وقت ليس ببعيد، حاول صقر من الصّقور مهاجمة طيوري».

دُهش من انزلاق لسانه المفاجئ إلى الحديث بالتّوليفة المشوّهة للغة الرّجل الأبيض. لكنّه بهذه اللّغة الهجينة روى لها قصّة انتصاره الأخير التي أنصتت إليها وكأنّ على رأسها الطّير. قبل زمن ليس ببعيد، استهلّ الحديث، فتح القنّ وسمح لكافّة طيوره بالخروج عدا الفراريج، ثمّ انشغل بتقشير الـ«يام» في حوض الصّحون داخل المطبخ، ملقيًا نظرة على الفناء بين الفينة والأخرى، فلاحظ صقرًا يحوم في الجوّ فوق طيوره.

فتح كوّة التّهوئة، وجذب مقلاعه، ثمّ تناول حجرًا من حافّة النّافذة. نفخ عليه كي يتخلّص من النّمل الأحمر. فصل غطاء الكوّة كي يتيح ليده مجالًا للحركة. ثمّ انتظر لحظة انقضاض الصّقر.

لعلّ الصّقر أكثر طيور السّماء يقظة واحتراسًا، فبوسعه أن يحوم في الجوّ لساعات طويلة، متفحّصًا هدفه، ومتوخّيًا الانقضاض عليه بدقّة متناهية، حتّى يظفر به من المحاولة الأولى. ولأنّه كان يعرف طبع الصّقر، لبث هو الآخر منتظرًا لحظة الانقضاض. لم يحوِّل ناظريه للحظة عن النّقطة التي كان يحوم فيها الصّقر. لهذا تمكّن منه في تلك اللّحظة التي هوى فيها بجرأة نحو الفناء، واقتنص صوصًا، ثمّ حاول امتطاء تيّار هوائيّ صاعد. أصابت القذيفة الهدف، وارتطم الطّائر الجّارح بالسّور، فأسقط الصّوص من قبضته مرغمًا. انزلق الصّقر عن

جدار السّور وسقط مرتطمًا بالأرض. رفع نفسه، وتخبّط رأسه للحظة بين جناحيه المنشورين. لكنّه أصيب بارتجاج في الرّأس.

هرع إلى الفناء لدى محاولة الصّقر النّهوض من سقطته، حشره في زاوية السّور برباطة جأش، من دون أن يأبه بخبط جناحيه العنيف أو صفيره الصّاخب. ثمّ جرّ الطّائر من جناحيه إلى شجرة فستق الكاشاو عند نهاية المنزل، جنب سطل القمامة. لم يستطع، أكّد على ذلك، أن يصف قدر الغضب الذي اعتراه حينذاك. بهذا الغضب الجّامح شدّ وثاق الصّقر من جناحيه، ودماؤه النّازفة من رأسه تغرق ألياف الحبل المضفور. أثناء تقييد الصّقر إلى الشّجرة، خاطبه هو وكافّة أبناء جنسه، كافّة من يسرقون ما يربّيه أبناء البشر من أمثاله بعرق جبينهم، ووقتهم، وأموالهم. ذهب إلى البيت ورجع بعدد من المسامير، والعرق ينضح من ظهره وعنقه. لدى خروجه ثانية إلى الفناء، أطلق الصّقر عنان حنجرته بنداء عجيب، نبرته حادّة قميئة. التقط حجرًا كبيرًا من خلف الشّجرة وثبّت عنق الطّائر في الجّذع. ثمّ هوى بالحجر فوق المسمار الذي دقّه في حنجرة الصّقر إلى أن انبثق المسمار من الطّرف الآخر، لافظًا شظايا خشبيّة وبعضًا من لحاء الشّجرة العتيق. رفع أحد الجّناحين، وقد تلطّخت الآن يده والحجر بدماء الصّقر، ثمّ طرقه إلى أن التحم هو الآخر بجسد الشّجرة. رغم رؤيته أنّ ما فعله كان عنيفًا للغاية، إلّا أنّ سطوة غضبه حملته على إتمام العقوبة المستحقّة التي ابتدعها ذهنه بحقّ الطّائر، عقوبة الصّلب. لهذا، ضمّ رجلَي الطّائر الميّت معًا وثبّتهما في الشّجرة بالمسامير. ثمّ قُضي الأمر.

ألقى ظهره فوق مسند الكرسيّ الآن وقد أتمّ الحكاية، وهو غائب في سراديب مخيّلته نفسها. ومع أنّه كان ينظر إليها طوال الوقت، إلّا أنّه شعر بأنّه يراها للمرّة الأولى منذ أن بدأ في سرد الحكاية. ثمّ تفطّن إلى هول ما رواه لها، فأصابه الوجل من أنّها، ولا غرو، تنظر إليه الآن

كرجل عنيف. على الفور، نظر إليها، لكنّه لم يستطع أن يستشفّ ما كانت تفكّر فيه. قالت فجأة: «إنّني مذهولة».

سألها بنبض متسارع: «من ماذا؟».

ردّت: «من الحكاية».

هكذا إذًا؟ تساءل. هكذا ستنظر إليه من اليوم فصاعدًا؟ كرجل عنيف حتّى النخاع لا يعفّ حتّى عن صلب الطّيور؟ لكنّه قال عوض ذلك: «لماذا؟».

ردّت: «لا أدري. لكن... في الحقيقة... لا أدري. لعلّها طريقتك في سرد الحكاية. لكن... إنّني لا أراك سوى، سوى رجل يحبّ طيوره محبّة جمّة. محبّة لا حدود لها».

«إيبوبديكي»، تضعضع تفكير مُضيفي وأصبح كالدّوامة. حبّ، فكّر. كيف يمكن أن يكون الحبّ هو ما تفكّر فيه، وفي هذه اللّحظة بالذّات التي فضح فيها نفسه، وكشف بأنّه قادر على ارتكاب عمل وحشيّ عقيم.

قالت ثانية وقد أغمضت عينيها هذه المرّة: «إنّك تحبّ طيورك. لو كنت لا تحبّها، لما تصرّفت على النّحو الذي رويته لي. إنّك تحبّها اليوم مثلما أحببتها بالأمس. أنت تحبّها بالفعل يا ننسو».

أومأ برأسه من دون أن يعرف لماذا. وتابعت هي القول: «أعتقد أنّك راعٍ صالح».

نظر إليها مستفسرًا وقال: «ماذا؟».

ردّت: «وصَفتك بأنّك راعٍ صالح».

فسألها: «وماذا يكون هذا؟».

أجابته: «راعي الخراف. ألا تذكر آيات الإنجيل؟».

حيّره ما قالته لأنّه لم يكن قد أمعن التّفكير في عمله من قبل، حاله في ذلك حال معظم الرّجال الذين لا يبذلون التّفكير المعمّق تجاه أعمالهم اليوميّة، أعمال روتينيّة بالنّسبة لهم.

لم يفكّر بأنّه كان محطّمًا من قِبل العالم، وأنّ الطّيور كانت موقدًا احترق قلبه فوقه، وأنّها، في الوقت نفسه، كانت الرّماد المتراكم بعد احتراق الحطب. أحبّها، حتّى وإن كانت أصنافًا عديدة وهو رجل وحيد بسيط. لكنّه، مع ذلك، كان يتمنّى، مثل كلّ من يحبّ، ألّا يكون حبّه من طرف واحد، وأن تبادله طيوره الحبّ بحبّ. ولكن، لعجزه عن معرفة ذلك، بل لم يعرف حتّى إن كان فرخ الإوزّ قد أحبّه أم لا، أصبح حبّه مع الوقت شيئًا مسخًا، شيئًا لم يستطع لا هو ولا أنا، قرينه الحامي، فهم كنهه.

قال: «لكنّي أربّي الطّيور، لا الخراف».

ردّت: «لا يهمّ، حتّى وإن كنت تربّي الطّيور».

هزّ رأسه، فأردفت قائلة: «هذا صحيح تمامًا».

ثمّ سحبت نفسها واقتربت منه قائلة: «أنت راعي طيور، ولكنّك تحبّ رعيّتك وتدأب على رعايتها مثلما يحبّ المسيح خرافه ويقوم على رعايتها بمحبّة عظيمة».

رغم حيرته ممّا قالته، إلّا أنّه ردّ قائلًا: «هو كذلك يا مامي».

«أَغباتَّه آلومالو»، كان مُضيفي مرتبكًا للغاية ممّا قالته ندالي في ذلك اليوم، جلس في سريره منصتًا إلى صرير صراصير اللّيل المنبعث من المزرعة والفناء، فيما كان النّعاس قد داهم ندالي. لفّ ذهنه ودار بعناد حول الأمور الغامضة التي ذكرتها عن عائلتها وكأنّه عالق في فخّ، مثل طائر فوق عود من دبق. كان بصره مشدودًا إلى الحائط المقابل، غير محملق في شيء على وجه التّحديد، لمّا باغته صوتها قائلًا: «لماذا لم تنم يا ننسو؟».

قابلها وانزلق في السّرير قائلًا: «سأنام يا مامي. ما الذي أيقظكِ؟».

تزحزحت وأفسحت له. ثمّ قالت: «لا أدري أوه، استيقظت فحسب. لم أستغرق تمامًا في النّوم، أوه».

ثمّ استأنفت القول بالنّبرة الناعسة نفسها: «إيه... هو، ننسو، طوال اليوم وأنا أتساءل عن ذلك الصّوت الذي ظلّت الدّجاجات تردّده بعد خطف الصّقر للصّوص الصّغير؟ بينما تتدافع لتتجمّع معًا».

كحّت، ثمّ تابعت قائلة: «كأنّها كانت تردّد شيئًا واحدًا، بصوت واحد».

كان علي أهبة الكلام، لكنّها واصلت قائلة: «شيء غريب. هل لاحظته، يا أبِم؟».

ردّ: «أجل يا مامي».

فسألته: «قل لي ما هو إذًا؟ أهو بكاء؟ هل تبكي؟».

تنفّس بعمق. إذ كان الحديث عن هذه الظّاهرة أمرًا شاقًّا بالنّسبة لما تحرّكه دائمًا من مشاعر جيّاشة في نفسه. كانت من بين الأمور العزيزة التي يكنّها قلبه نحو الطّيور الأليفة؛ هشاشتها، اتّكالها التّامّ عليه في الحماية، وفي القوت، وفي كلّ شيء. وهذا ما كان يميّزها عن الطّيور البرّيّة. قال: «أجل يا مامي، إنّه بكاء».

«بالفعل؟».

«أجل يا مامي».

«آه، يا إلهي، ننسو! لا عجب! بسبب الصّوص الصّغير»...

«هو كذلك».

«الذي خطفه الصّقر؟».

«هو كذلك يا مامي».

قالت بعد لحظة صمت: «هذا محزن للغاية يا ننسو. لكن كيف تعرف بأنّها كانت تبكي؟».

«والدي أخبرني بذلك. كان يقول دائمًا إنّها كالأغنية الجّنائزيّة التي تُغنّى لأجل الفقيد. كان يسمّيها: إغُو أُمو أوبيري إهي. هل فهمتِ المقصود؟ لا أدري ما معنى 'أُمو أوبيري إهي' في الإنجليزيّة».

«الأشياء الصّغيرة. كلّا، بل المغلوبين».

«أجل، أجل، هذه هي الكلمة. هذه هي ترجمة الكلمة التي كان والدي يقولها. كان يقولها بالإنجليزيّة على هذا النّحو: مغلوبين. وكان يقول دائمًا إن الدّجاجات تؤدّي معًا أوكسترا خاصّة بها».

«أوركسترا. ألف، واو، راء، كاف، سين، تاء، راء، ألف».

«هذا صحيح، هكذا كان يلفظها يا مامي. كان يقول دائمًا إنّ الدّجاج يعرف ألّا حيلة له في فعل أيّ شيء سوى البكاء والصّياح كوووك كووك! كوووك!».

لاحقًا، بعد أن غلبها النّعاس واستغرقت في النّوم ثانية، تمدّد جنبها وهو يفكّر في هجوم الصّقر وما أبدته من ملاحظة حول الدّجاج. ثمّ، وبعدما توغّل اللّيل وآب فكره إلى ما قالته عن عائلتها، زحف الخوف ثانية كالأفعى، لكنّ وجهه هذه المرّة كان قابعًا خلف قناع روح شرّيرة.

«**إجانغو إجانغو**»، يقول الأسلاف: «إن كان الحائط بلا شقوق، فإنّ السّحالي لا تستطيع النّفاد إلى البيت». حتّى لو كان الرّجل مضطربًا، فإنّه ما لم يتصدّع، بمقدوره الحفاظ على نفسه. ورغم الاضطراب الذي اعترى سلام مُضيفي الدّاخلي، إلّا أنّه صرّف شؤون عمله بطمأنينة. فقام بإيصال تسع وعشرين بيضة إلى المطعم في نهاية الشّارع، ثمّ اتّجه بعدها إلى «إنوغو»، لبيع سبعة صيصان وشراء مزيد من الدّجاج البنّيّ وستّة أكياس من العلف. لم يكن قد اشترى سوى كيس من العلف عندما مرّ برجل كان يعزف الـ«أوجا»، ناي الأرواح، ويتهادى خلفه رجل لوّن جسده بأصباغ «نزو» البيضاء، و«أولي» النّيليّة وشجر الصّندل الأحمر، قابضًا بين أسنانه على سعفة نخيل. من خلف الرّجلين، كان يسير حفل تنكّريّ تقليديّ. يجسّد المشاركون فيه «إرو نموه»، السّلف الصّالح. كانوا يرتدون أقنعة تمثّل السّلف، لها قرون

طويلة كالوعول، وشقوق ضيّقة للعيون. رقص هؤلاء على أنغام النّاي القديمة ورنين النّاقوس المزدوج. ومثلما تعلم، «إيبونو»، حين يصادف الواحد روحًا من أرواح السّلف، التّجسّد الماديّ لأب أو أكثر من الآباء الأوّلين، فليس بمقدور الواحد مقاومة إغراء المشاركة. «غاغان أَوغو»، لم أستطع المقاومة! إذ إنّني عشت زمن الآباء الأوّلين حين كانت الاحتفالات التّنكّريّة الشّعبيّة رائجة وتنظّم على الدّوام. لم أستطع مقاومة إغراء الاستماع إلى اللّحن الغامض المنساب من «أوجو»، النّاي الذي أبدعت صنعه أمهر الأيادي في هذه الأرض. لذا، قفزت من مُضيفي إلى حشد مائج من الأرواح المتجمّعة من كلّ حدب وصوب. كانت ضوضاؤها مجلجلة، وأقدامها تقرع أرض «إزنمو» الطّريّة. لكنّ ما أذهلني أكثر من أيّ شيء آخر، كان ذاك الذي رأيته فوق الجّانب الآخر من السّوق المزدحم. كانت هناك مجموعة أرواح على هيئة صغار البشر، أطفال قُتلوا لحظة الولادة، أو التّلقيح، أو توائم قُتلت منذ أمد بعيد، كان هؤلاء الصّغار يلهون على علوّ أربعمئة متر تقريبًا، وهو الارتفاع الذي يعتبر «إِكِلي»[1]، نظام النّقل والمواصلات الغامض لمساقط النّجوم وطيران الطّيور، ممكنًا عبره. كانت مجموعة الأرواح هذه معلّقة فوق جمهور النّاس بقوّة لا تدركها أفهام البشر (عدا الكهنة ومن مرّوا بطقوس البلوغ)، تتحرّك وكأنّها فوق الأرض. كلّ منها يخبط بقدمه ثمّ يقفز ويفرقع بإصبعيه لدى انهماكه في لعبة «أوكويه آلا» القديمة. كان ضحكهم صاخبًا مرحًا، موشّحًا بنبر اللّغة العتيقة التي ضاعت من بين أبناء البشر منذ زمن بعيد.

(1) إِكلي: كان قدماء الإيبو يعتقدون أنّ الكاهن أو العرّاف يستطيع بقوّة الكلمة تحويل ما يريد نقله من مكان لآخر، شيئًا أو شخصًا، إلى شعاع من نور قادر على السفر إلى أيّ جهة كانت. وأنّ الكاهن قادر على استدعاء النجوم، فتأتيه في الغابة كي يستعين بقوّتها.

«تشوكو»، لم يكن هذا مشهدًا جديدًا بالنّسبة لي، لكنّني، مع ذلك، احترت ثانية من حقيقة أنّه وعلى الرغم من لهو زهاء عشرين روحًا طفوليّة في الأعلى، إلّا أنّ حركة السّوق لم تتعطّل في الأسفل. ظلّ السّوق مكتظًّا بنسوة مساوِمات، وبأناس يقودون سيّاراتهم، وبحفل تنكّريّ تقليديّ يرقص في المكان على أنغام ناي «أوجا» وطبل «إكوِه». لم يتفطّن أحد من هؤلاء لمن كان في الأعلى، مثلما لم يحفل من كان في الأعلى بمن كان في الأسفل، سواءً بسواء.

التهيت بمراقبة الأرواح المرحة، وانشغلت بها تمامًا، حتّى أنّني حين عدت إلى مُضيفي كان الحفل التّنكّريّ والموكب المرافق له قد اختفيا عن الأنظار. نظرًا لما يمتاز به الزّمن في عالم الأرواح من سيولة وانسياب، فإنّ ما قد يبدو للإنسان وقتًا طويلًا هو في الواقع مجرّد طرفة عين. لهذا، لمّا رجعت إلى مُضيفي وجدته في باصه متّجهًا صوب «أوماهيا». بسبب هذا الشّاغل، لم أتمكّن من معاينة كافّة ما فعله مُضيفي في السّوق، وعلى هذه الزلّة، «أوبا سيدي نيلو»، أطلب منكم الصّفح والغفران.

عندما اقترب مُضيفي من «أوماهيا»، استلم رسالة نصّيّة من ندالي أخبرته فيها أنّها ستأتي في زيارة خاطفة أثناء اللّيل لأنّ لديها امتحانًا في الصّباح ويجب أن تستعدّ له. لمّا جاءت في تلك اللّيلة وكانت في معطف المختبر الأبيض، كان هو يتابع برنامج «من سيربح المليون»، وهو برنامج تلفزيونيّ حاز على إعجابها فدلّته عليه.

خلعت المعطف، فظهرت في بلوزة خضراء وجينز أزرق أضفيا عليها مظهر فتاة مراهقة. قالت: «أتيت من المختبر مباشرة. أرجوك أن تغلق التّلفاز، فنحن بحاجة إلى الحديث عن مجيئك إلى بيت عائلتي».

سأل: «التّلفاز؟».

ردّت: «أجل، أغلقه!».

قال: «أوه؟ لا تنزعجي يا مامي».

نهض بتثاقل كي يغلقه، لكنّه توقّف لمّا ارتفع صوت مميّز في البرنامج، ثمّ واصل المتابعة واقفًا.

حينذاك قالت: «في الحقيقة، هيّا نخرج إلى الفناء، الجوّ خانق هنا».

مضى خلفها إلى الفناء، حيث كان الهواء عابقًا برائحة الدّجاج النّفّاذة. جلسا فوق المقعد، ولمّا همّت بالحديث، رأت على الجدار ريشة طويلة سوداء اللّون، وكأنّها ملصقة هناك بالصّمغ. قالت: «انظر يا ننسو!».

التقط الرّيشة وشمّها، ثمّ هزّ رأسه وقال: «ريشة ذلك الصّقر الأرعن».

قالت: «أه، كيف ظلّت معلّقة هكذا على الجّدار؟».

تمتم قائلًا: «لا أدري».

سحقها بيده ثمّ قذفها خلف الجّدار وقد تميّز غضبًا من ذكرى ما جرى بالأمس.

سحبت نفسًا عميقًا، ودفعت بنفسها إلى الأمام، ثمّ تكلّمت وكأنّها قد فكّرت مسبقًا في كلّ كلمة، وكأنّهما كانا قد تجهّزا للحديث منذ زمن. قالت: «تشِنُنْسو سولومون أوليسا، أنت إنسان عظيم، إنسان أرسله الربّ لي. انظر كيف تبدّلت أحوالي، رمتني المشاكل في هوّة الجّحيم، وعندما قابلتني، كنت في أحلك لحظة في حياتي. قابلتني فوق الجّسر. لماذا ذهبتُ إلى الجّسر؟ لأنّني... لأنّني تعبت من المعاملة السّيّئة، ولأنّني تعبت من الخداع والكذب. لكن يا لقدرة الربّ! أرسلك الربّ لي في تلك اللّحظة الحرجة. والآن، انظر كيف تبدّلت أحوالي».

فردت أصابعها أمامه كي يرى وتابعت القول: «انظر كيف تبدّلت أحوالي، انظر كم تغيّرت. لو قال أحدهم لي، بل لو قال لأمّي، إنّ ابنتك ستعمل في مزرعة للدّواجن، فمن كان سيصدّق ذلك؟ لا أحد. ننسو، أنت لا تعرف من أكون، لا تعرف أصلي وفصلي».

بدت وكأنّها تبتسم، لكنّه لم يستطع الجّزم بأنّ ما ارتسم فوق وجهها لم يكن كذلك. تصنّع وجهها تعبيرًا ما كي يساعدها على إخفاء ما يعتمل في داخلها. تابعت الكلام قائلة: «ما الذي أقوله إذًا؟ ولماذا أتحدّث بهذه الطّريقة؟ أقول إنّ عائلتي، أمّي وأبي بل وحتّى شقيقي، قد لا يقبلون بك. أدري أن فهم ذلك صعب، لكنّ أبي، يا ننسو، زعيم. أونيه نزي. إنّهم فقط، إنّهم سيقولون»...

«إيبونو»، أنصتَ مُضيفي لها وهي تعيد قول الشّيء ذاته مرارًا وتكرارًا لتخفّف من وقعه على الأذن. لكنّ ما قالته عصف به، لأنّه كان متخوّفًا من أمور كهذه ورصد نذرها من قبل. أحسّ بها في ذلك اليوم، لمّا كانا في محلّ السّاعات في شارع «فِنبار»، عندما أخبرته بأنّها وُلدت في الخارج، «في بريطانيا»، وأنّ والديها وشقيقها الأكبر تلقّوا تعليمهم هناك، وأنّها كانت الوحيدة التي اختارت أن تتعلّم في نيجيريا. أضافت حينذاك قائلة: «لكنّي سأتابع دراستي العليا لتحصيل الماجستير في الخارج». ثمّ تذكّر حادثة أخرى. كانا يسوقان في الجّزء القديم من المدينة، وسط ريح عاتية، عندما سألته إن كان قد درس في الجّامعة. كان سؤالها كاللّطمة، فتسارعت نبضات قلبه. ردّ قائلًا: «لا»، وكأنّ لسانه قد استلّت الحياة منه. لكنّ ندالي قالت حينذاك ببساطة: «أوه، حسنًا». ثمّ تذكّر كيف أشارت بإصبعها، لاحقًا، إلى بنايات كانت تصطفّ جنبًا إلى جنب قرب «أغواي إرونسي لاي أوت»، وكان يعلو فوق واحدة منها عامود نور حديث يعمل بالطّاقة الشّمسيّة، ثمّ قالت: «نحن نعيش في واحدة من تلك البنايات».

نظرت إليه الآن ثمّ قالت: «أنا لا أرمي إلى إثارة مخاوفك، فليس بمقدور أحد أن يتّخذ قرارًا بشأن من أرغب بالزّواج منه. هذا قرار أبتّ فيه أنا بنفسي. فأنا لم أعد طفلة صغيرة».

أومأ برأسه. فمالت برأسِها إلى جنب، وقسمات وجهها متعثّرة بين التبسّم والبكاء، ثمّ قالت: «أُبِم، إغو تا غو؟».

تفاجأ من تحوّلها إلى الحديث معه بلسان الآباء الأوّلين. فرغم أنّه سمعها وهي تستخدمه في الحديث مع والديها على الهاتف، إلّا أنّها كانت قلّما تستخدمه حين تتحدّث معه. قالت له ذات مرّة إنّها لا تحبّ استخدامه إلّا في الحديث مع والديها لأنّها، بعد العيش بضع سنوات في الخارج، لا تعتقد بأنّها تستخدمه بطلاقة. ردّ بلسان الرّجل الأبيض قائلًا: «أنا أفهم يا مامي».

قالت: «دالو[1]».

قبّلته على خدّه ثمّ نهضت وذهبت إلى المطبخ.

في وقت لاحق، أثناء تناول الطّعام، قالت: «ننسو، أتحبّني بالفعل؟».

كان على أهبة الردّ حين تابعت قائلة: «لا بدّ من أن يكون هذا هو سبب رغبتك في الزّواج منّي؟».

تمتم بشيء سرعان ما ذاب في فمه لأنّها أضافت على عجل: «لا بدّ من أن يكون هذا لأنّك تحبّني».

تمهّل للحظة، ثمّ قال: «هو كذلك بالفعل».

توقّع منها قول المزيد، لكنّها مضت إلى المطبخ لغسل الصّحون، حاملة معها قنديل الكاز الوحيد في البيت. خطر له أن يشحن المصباح الكهربائيّ، لكنّه عوض ذلك ظلّ جالسًا، يتأمّل ما قالته حين رجعت إلى غرفة الجّلوس. عندئذ سألته: «ننسو، إنّني أسألك ثانية، هل تحبّني؟».

وسط الجوّ المعتم، ومع أنّه لم يكن قد نظر إليها، إلّا أنّه اعتقد أنّها انتظرت إجابته بعينين مطبقتين. لأنّها كانت تطبق عينيها دائمًا حين كانت تتوقّع ردًّا على سؤال ما، كما لو أنّها كانت خائفة من أنّ ما قد يقوله قد يجرحها. ثمّ، وبعد أن يقول ما يقوله، تحاول استقبال كلامه بتؤدة. أردفت قائلة: «إنّك تردّ بأجل، يا ننسو، لكن هل هذا صحيح؟».

---

(1) دالو: شكرًا جزيلاً

أجاب: «هو كذلك يا مامي».

رجعت إلى الغرفة بالقنديل، وضعته فوق كرسيّ صغير، ثمّ خفّفت النّور، فتضخّم طيفاهما اللّذان رسمتهما يد العتمة. قالت: «إذًا أنت تحبّني بالفعل؟».

ردّ: «هو كذلك يا مامي».

فعقّبت قائلة: «تْشِنُنْسو، أنت تقول دائمًا إنّك تحبّني. لكن هل تعرف بأنّك يجب أن تحبّ الشّخص بحقّ قبل أن تتزوّج منه؟ هل تعرف معنى الحبّ؟».

همّ بالإجابة لكنّها قاطعته قائلة: «لا، قل لي أوّلًا، هل تعرف ما هو الحبّ؟».

ردّ: «أجل يا مامي».

قالت: «هل هذه هي الحقيقة؟ قل لي بحقّ، هل هذه هي الحقيقة؟».

ردّ: «هي كذلك يا مامي».

قالت: «ما هو الحبّ، إذًا، يا ننسو؟».

ردّ: «إنّني أعرف. إنّني أشعر به».

فتح فمه ليكمل، لكن لم يخرج منه سوى صوت: «إكـ». فعاد إلى الصّمت ثانية، خوفًا من عدم التّوفيق في الإجابة عن سؤالها بالشّكل الصّحيح.

قالت: «ننسو؟ هل تسمع ما أقوله؟».

ردّ: «أجل، أشعر بالحبّ، لكن ليس بمقدوري أن أكذب وأقول إنّني أعرف كلّ شيء عنه، كلّ كبيرة وصغيرة».

ردّت: «لا، لا يا ننسو. قلت إنّك تحبّني، لهذا يجب أن تعرف ما هو الحبّ. يجب أن تعرف ما الحبّ».

تنهّدت وأردفت بخيبة أمل: «يجب أن تعرف يا ننسو».

«غاغان أوغو»، شقّ هذا الأمر على مُضيفي. ورغم أنّني، مثل أيّ

قرين صالح، أترك له دائمًا حرّيّة استغلال الموهبة التي اخترتها له من ديوان المواهب عبر التّدخّل إلى الحدّ الأدنى في عمليّة صنع قراراته، إلّا أنّني كنت أودّ التّدخّل هنا. لكن حال بيني وبين ذلك ما لاذ به مُضيفي: سلاح الصّمت الفعّال. تعلّمت أنّ ذهن الرّجل عندما يتعرّض سلامه الدّاخلي للتّهديد، فإنّ ردّة فعله الأولى تقتصر على الصّمت الحميد، كما لو أنّه تلقّى ضربة قاسية أصابته بالذّهول، وعليه أن يتمهّل إلى أن ينحسر أثرها. لمّا اكتمل هذا الانحسار، غمغم مُضيفي قائلًا: «أوكيه».

رجع بظهره إلى مسند الكرسيّ، ثمّ استرجع ما قالته له ذات مرّة عن إحدى صديقاتها التي ضحكت من رجل قال لها إنّه يحبّها من اللّقاء الأوّل. تساءل حينذاك، لماذا اعتقدتا، هي وليديا، صديقتها، بأنّ الأمر كان سخيفًا ومدعاة للهزء والسّخرية. ذكّرته هذه الحادثة بالآنسة جاي، التي ضحكت منه لمّا قال لها إنّه يحبّها. في ذلك الوقت، اعترته الدّهشة، مثلما اعترته الآن. رفع عينيه صوب هيئتها الشّاحبة، وعنّ في باله، للمرّة الأولى، بأنّه لم يكن قد قدّر بالفعل ما يستتبعه الزّواج من مقتضيات وضرورات. فهي ستنتقل للعيش معه في بيته. وستركب معه في باصه لإيصال طلبيّات البيض إلى المخبز في شارع «فنبار»، وطلبات اللّحوم إلى المطاعم المختلفة. سيصبح كلّ ما كان يمتلكه الآن ملكًا لها أيضًا، كلّ شيء. هل سمع نفسه جيّدًا؟ كلّ شيء! ولو غرس بذرته فيها، فالطفل الذي سيولد، حتّى ذلك الطفل، سيكون ملكًا لهما معًا! مقتنياتها، سيّارتها، سينتفع من دراستها في الجّامعة، من عائلتها، من قلبها، منها كلّها، ومن كلّ ما لها. كلّ ما سيصبح ملكًا لها، سيصبح ملكًا له كذلك. هذا ما يضعه الزّواج على المحكّ. قال على ضوء هذا الفهم الجّديد: «في الواقع، أنا لا أعرف، بوسعي أن أقول»...

لا بدّ من أنّها حين قاطعته وقالت «أوكيه» كانت قد فتحت عينيها. ولمّا نطقت «لكنّك»... توقّفت وأمسكت عن الكلام.

عندئذ اندفع لحثّها على إكمال ما كانت تريد قوله: «ماذا؟ ماذا؟».

اندفع بالسّؤال في محاولة عصيبة لمنعها من كبت ما كانت على أهبة إطلاق سراحه من كلام، فهي كانت تفعل هذا دومًا: تحجم عن قول شيء ما وهي على شفير النّطق به، تتراجع ثمّ تخفيه داخل قارورة التّفكير، كي تطلق سراحه لاحقًا، وأحيانًا لا تفعل ذلك أبدًا.

قالت فيما يشبه الهمس: «لا عليك. ستأتي إلى بيتي، إذًا، يوم الأحد المقبل. ستقابل عائلتي».

«أُوزه بُروَّه»، أنت تعلم بأنّ القرين الحامي سيل جارٍ من الذّكريات، ذكريات متراكمة ومتدفّقة لدورات وجوديّة كثيرة. كلّ الأحداث، وكلّ التّفاصيل تنتصب مثل شجرة مشدودة إلى أوتاد العتمة المبهرة لخلوده. لكنّ القرين الحامي، مع ذلك، لا يتذكر كلّ حدث مرّ بمُضيفه، بل يتذكر، فقط، الحدث الذي يؤثّر عليه بشكل يستحقّ التذكّر. هنا، عليّ أن أخبرك بأنّ القرار الذي اتّخذه مُضيفي في تلك اللّيلة، كان قرارًا سأتذكره على الدّوام. في البداية، انتظر لتقول تلك الكلمات التي كان يرهبها: «الأمر لن يمرّ على خير». لكنّها لم تتكلّم. لهذا، ردّ بنبرة متلعثمة: «وهو كذلك يا مامي. سأقابل عائلتك يوم الأحد المقبل».

6

«الضّيف المحترم»

«**أُبا سيدي نلو**»، بعثتَ بي إلى الأرض، كي أعيش مع البشر عبر دورات وجوديّة كثيرة رأيت فيها الكثير الكثير. ورغم أنّي صرت خبيرًا بأحوال الرّجال وطبائعهم، إلّا أنّي لم أفهم تمامًا قلوب البشر. فكلّ شخص يعيش حياته وكأنّه يتخبّط بين عالمَيْن، عاجزًا عن تثبيت كلا قدميه في أيّ منهما. وهذا أمر عجيب. لنتأمّل، مثلًا، الاقتران الحاصل بين الخوف والقلق. فسبب وجود الخوف هو حضور القلق، وسبب وجود القلق هو عجز الرّجل عن رؤية المستقبل. لو كان بوسع الإنسان فقط أن يرى المستقبل، لعاش بسلام وطمأنينة أكبر، ولأصبح بمقدور رجل يتأهّب للسّفر في يوم متّفق عليه، أن يقول لصاحبه في السّفر: «إن سافرنا غدًا إلى 'أبا'، فإنّ جماعة من اللّصوص ستقوم باعتراض طريقنا، وستسطو على سيّارتنا وكل ما في حوزتنا». لعلّ صاحبه يردّ عليه قائلًا: «حتمًا، إذًا، لن نسافر إلى 'أبا' غدًا».

أو لنقل إنّ هناك شابّة على وشك الزّواج. لو كان بوسعها أن ترى المستقبل، لكان بمقدورها أن تقول لأبيها عشيّة الزّفاف: «أبي، لا نيّة لي في إحراج قبيلتنا وتلطيخ سمعتنا بالعار. لكنّني اكتشفت بأنّني لو تزوّجت من هذا الرّجل، فإنّه سيضربني صبح مساء، وسيعاملني مثل الكلاب». هل يمكنك أن تتخيّل مبلغ خوف والدها لو صدّقها فيما ذهبت إليه؟ لسوف يفرقع الوالد بإصبعيه فوق رأسه ويصيح قائلًا:

«توفيا! يا بورو أغو بيه إيري كوا له! ليخسأ من أعدّ هذه التّعويذة، وليذهب صنيعه أدراج الرّياح! يجب أن تتركي هذا الرّجل على الفور يا ابنتي. أين ثمَن العروس الذي دفعه؟ أين العنزة الصّغيرة؟ أين درنات الـ'يام' الثّلاث؟ أين زجاجة خمر 'شنابس' وصندوق المشروبات الغازيّة؟ ردّوها في الحال! لا قدّر الإله أن تتزوّج ابنتي من رجل كهذا!». لكنّهم، «تشوكو»، لن يقدموا على فعل ذلك، لأنّ أيًّا منهم ليس قادرًا على رؤية المستقبل. من دون معرفة ما يخبّئه المستقبل، سيسافر التّاجران في اليوم الموعود وسيتعرّضان للسّطو والقتل. وستتزوّج الشّابّة من الرّجل الذي سيعاملها أسوأ من معاملة الرّقيق. رأيت هذا مرّات ومرّات.

على هذا المنوال، ساق مُضيفي باصه إلى بيت ندالي يوم الأحد الموعود من دون أن يعرف ما كان مخبّأ له. ولمّا كان لا حيلة له في حمل هذا اليوم على أن يحلّ قبل موعده، أو في منعه من القدوم، انتظره بقلق وترقّب. فالزّمن ليس بالكائن الحيّ الذي بمقدوره أن يستجيب للتوسّل والتّضرّع، ولا هو بالرّجل الذي بوسعه أن يتأخّر. بل هو يتصرّف مثلما تصرّف منذ البدء، لا يحلّ أيّ يوم إلّا في موعده، وما على الإنسان سوى الانتظار. لكنّ الانتظار في حالة القلق التي كان عليها مُضيفي أمر شاقّ وعصيب. ورغم ما قد يلمسه المرء من طمأنينة في الانتظار، إلّا أنّها طمأنينة زائفة، من صنف الوهم الذي قد يحمل البعض على الاعتقاد بأنّ المياه الرّاكدة هي مياه هادئة.

لم يرها طوال اليومين السّابقين لذلك اليوم، فكان شديد الاشتياق إليها. دلف إلى شارعها، محاولًا تخيّل أفراد عائلتها وشكل بيتها. كانت أعمدة الكهرباء في الشّارع أقصر من سائر الأعمدة في معظم أنحاء «أوماهيا»، وبدت مصطفّة بجانب بعضها البعض، كحبال الغسيل. فوق حبل سميك مشدود إلى جهاز الإرسال على الجّانب الآخر من

الطّريق، ربضت عصافير الدّوري، وكأنّ بينها اتّفاقًا على المكوث فوق الحبل الكهربائيّ. **راعي**، خطرت له فجأة. أهي كلمة أكثر أناقة؟ راعي طيور؟ هل يقدّم نفسه بهذه الصّفة خلال زيارته لأهلها؟ هل هذا سيلطّف الزّيارة ويجعلها تمضي على خير؟

وصل ليكتشف أنّ بيتهم يطلّ على الطّريق بأبّهة وشموخ. اهتدى إلى هذا الجّزء المنعزل من الشّارع الذي يطلق عليه «لاي أوت» بموهبة اكتشاف الأشياء بمحض الصّدفة. كان الشّارع ممهّدًا بشكل حسن، وعلى جانبيه رصيفان للمشاة ومبان سكنيّة. أمّا البيت الذي يقصده، رقم 71، فكان يحتلّ آخر نقطة في مخطّط تصميم الشّارع، مشكّلًا طريقًا مسدودًا. كانت أسواره صفراء، ومع أنّها لم تكن بارتفاع بعض الأسوار المجاورة، إلّا أنّها كانت مطوّقة من الأعلى بحلقات من الأسلاك الشّائكة. وكما لو كان عبرة لأيّ لصّ قد تسوّل له نفسه السّطو على المنزل، كان هناك كيس بلاستيكيّ أسود عالق بين نتوءات السّلك الشّائك المدبّبة. صفقت رياح الظّهيرة الكيس بلا هوادة، مرغمة مقبضه على الالتصاق بالسّلك، فيما راح جوفه المنتفخ يواصل الأنين تحت ضربات الرّيح.

«أُوزه بروَّه»، لم يدر لمَ استحوذ عليه منظر ذلك الكيس. راقبه لبعض الوقت، شيئًا عالقًا في شيء لا فكاك له منه مهما حاول الهرب. أثار هذا المنظر حيرة واستغرابًا في نفسه. توقّف أمام البوّابة العملاقة وأطفأ المحرّك. نظر إلى نفسه في المرآة الأماميّة. وُفّق في مهمّة حلاقة شعره عصر اليوم السّابق. عدّل ربطة عنقه التي كانت بلون القميص الذي ارتداه. كواه بالمكواة التي اشترتها له ندالي، تقنيّة عجيبة تقوم على ضغط سطح آلة ساخنة فوق قطعة من القماش. تشمّم سترة البذلة وتساءل إن كان قراره بارتدائها موفّقًا. غسلها بالأمس وعلّقها على حبل الغسيل. لم يكن في نيّته أن يتركها إلّا لمدّة قصيرة لكنّه استغرق

في النّوم. فور سمعتُ صوت المطر، اندفعت إلى الفناء، لكن لم يكن بوسعي فعل أيّ شيء. فالقرين الحامي لا قدرة له على التأثير في مُضيفه إن لم يكن واعيًا. لهذا، مكثت أراقب، بلا حيلة، والمطر ينهمر فوق الغسيل، إلى أن أيقظه ضجيجه فوق سطح الـ«أسبست». بلمح البصر، قدحت في ذهنه أمر سترة البذلة، فركض إلى الخارج، لكنّها كانت تقطر من شدّة البلل. أدخلها وعلّقها فوق كرسيّ في غرفة الجّلوس. رغم أنّها كانت جافّة حين ارتداها، إلّا أنّ رائحتها كانت نتنة. خلع سترة البذلة وحملها بيده خشية أن تقلق ندالي من سبب عدم ارتدائه لها. قبل تشغيل المحرّك ثانية، نظر إلى الهيكل المعدنيّ المثبّت فوق البوّابة. كان لـ«جيسوس كرايست» وهو يحمل قطعة خشب بذراعين ممدودتين. كان بصره مشدودًا إلى هذا لما فُتحت البوّابة الصّغيرة الملحقة بالبوّابة الكبيرة. خرج منها رجل في زيّ أزرق كالح وقبّعة «بيريه» سوداء. رجلا سرواله مثنيّتان بشكل غير متواز، واحدة إلى الرّكبة والأخرى إلى ما دونها. خاطبه الرّجل قائلًا: «أوغا، ماذا تريد؟».

ردّ: «أنا ضيف ندالي».

قال الرّجل مقطّبًا حاجبيه: «ضيف، إيه».

مسح الرّجلُ الباصَ بنظره، متجاهلًا ردّه الحاسم، ثمّ سأله بلسان الرّجل الأبيض: «ومن أين أنت يعرف المدام من يا أوغا؟».

ردّ بدهشة: «ماذا؟».

مشى الرّجل إلى الباص، ثمّ وضع كفّيه فوق مقدّمته، وخفض رأسه ليستطلع راكبه الوحيد، ثمّ قال: «سأل أنا أنت كيف أنت تعرف سيّدتي؟».

ردّ: «أنا صديقها الحميم. اسمي تْشِنُنْسو».

قال الرّجل: «أوكيه سير. أنت تكون الرّجل الذي ينتظرونه؟».

ردّ: «أجل، إنه أنا».

فقال الرّجل: «آه، مرحبًا بك سير. مرحبًا».

هرول الرّجل وعبر فتحة البوّابة الصّغيرة، ثمّ سمع مُضيفي صوت صليل قضبان معدنيّة. أصدرت دفّة البوّابة الكبيرة صريرًا لدى انفراجها على مصراعيها. رغم معرفته أنّ والد ندالي يحمل لقب زعيم، ولهذا لا بدّ من أن يكون رجلًا ثريًّا، إلّا أنّه لم يتوقّع أن يكون ثراؤه بهذا المستوى الرّفيع. لم يتوقّع بتاتًا أن يرى تمثالًا بحجم أسد حقيقيّ في وضعيّة التّأهّب، إحدى قوائمه معلّقة في الهواء، وأخرى مغروسة في أرضيّة النّافورة، والماء يتدفّق من عينيه وفمه الفاغر إلى صحن إسمنتيّ في الأسفل. تذكّر على نحو خاطف أنّها قالت له شيئًا عن مجسّم صوّره والدها أثناء زيارة له إلى فرنسا، ثمّ أقسم على صنع نسخة مماثلة له في منزله الفخم في «أوماهيا». نقّب في ذهنه ليرى إن قيل له عن حامل لعبة كرة السّلّة وحلقته المعدنية البرّاقة. هل ذكرت له عدد ما لديهم من السّيّارات، كانت تقبع في الظلّ تحت مساحة مسقوفة بالزّنك؟ لم يسعفه التذكّر. عدَّ: 1- سيّارة جيب سوداء، 2- جيب أبيض، 3- سيّارة لا يعلم طرازها، 4- سيّارة ندالي، أودي سيدان، 5، 6. أوه، وتلك المتوارية خلف الإطارات الضّخمة، 7! والمرسيدس بينز التي ركن سيّاراته بجوارها، 8. متفحّصًا الأمر بعناية، كان بوسعه رؤية أنّ كلّ الموجود هو ثمان سيّارات.

ترجّل من الباص من دون أن ينتبه للحاق البوّاب به ووقوفه جنب الباص منتظرًا خروجه. قال الرّجل: «أوغا، يمكنني أن أساعدك في حمل أيّ شيء جلبته معك إلى الدّاخل».

حينذاك انتبه أنّه نسي الهديّة التي اشتراها لهذه المناسبة. توقّف ثمّ استدار وهرول صوب الباص. رغم أنّ مشهد وضعه كيس زجاجات النّبيذ فوق المقعد في الفناء انتصب في ذهنه مثل راية خفّاقة، إلّا أنّه فتّش الباص، والمقاعد الخلفيّة، والمقاعد الأماميّة كالمجنون.

«إيبونو»، يجب أن أنوّه هنا إلى أنّ هذه الحادثة كانت من المناسبات

التي وددت فيها أن أذكّره بأنّه على وشك نسيان الهديّة. لكنّي أحجمت عن ذلك بسبب توجيهاتك: «اتركوا الإنسان ليكون إنسانًا». الدّور المنوط بالقرين الحامي مقصور على التّصدّي للشّؤون الأهمّ، أمور، بحكم ما لها من وزن ثقيل، يمكن أن تؤثّر على المُضيف بصورة جسيمة. كما أنّ على القرين الحامي أن يتصدّى للشّؤون الخارقة للطبيعة التي لا يستطيع الإنسان، بحكم قصوره، أن يتعامل معها. لكنّ إحجامي عن التّدخّل في هذه المرّة، وأنا أستعيد الآن عواقب ما سينجم عن هذه الزّيارة، يجلدني بسوط النّدم، فأقول: يا ليتني ذكّرته.

قال البوّاب مرارًا وتكرارًا: «أوغا، أوغا، خيرًا، هل من مشكلة؟».

ردّ عليه بنبرة مهتزّة بعض الشّيء: «لا، لا مشكلة».

فكّر للحظة إن كان ينبغي عليه أن يهرول عائدًا إلى بيته، لكنّه استحضرها وهي ترجوه ألّا يصل متأخّرًا. توهّجت كلماتها في ذهنه مثل النّار: **دقّة الالتزام بالموعد.** تذكّر أنّها قالت له: «أبي يحبّ دقّة الالتزام بالموعد». تنفّست الصّعداء، «تشوكو»، حين عدل عن رأيه وهرع صوب بيت ندالي.

«**إتشِه تا أُوبِسيكي**»، ما بقي لديه من ثقة هشّة، مثل بيضة في «كالاباش»[1]، عند وصوله، تهشّم عند جلوسه إلى المائدة مع عائلتها. كانت ندالي قد استقبلته عند الباب، وقالت له، بنبرة هامسة مسعورة، إنّه وصل متأخّرًا. «خمس عشرة دقيقة!». ثمّ مدّت يدها وأزالت شيئًا ما كان ليتخيّل أنّه على ظهره، ريشة. حتّى أنا لم ألاحظها. كاد الدّمع يطفر من عينيه، لمّا أطبقت قبضها بسرعة على الرّيشة، وشدّت عليها بإحكام، ثمّ أومأت له بالتّقدّم صوب غرفة الطّعام. سألها: «أثمّة شيء ما؟»، فسألته همسًا عن سبب حمله سترة بذلته بيده، فرفعها نحو أنفها

(1) كالاباش: وعاء من القرع المجفّف.

لتشمّها. فقالت بارتياع: «بحقّ المسيح! لا ترتدِ هذه الرّائحة النّتنة. نْيامات! ناولني إيّاه».

ناولها السّترة فطوتها ثمّ أعادتها إليه ثانية، وقالت: «احملها في يدك طوال الزّيارة، مفهوم؟».

رفع الرّاية البيضاء وانهزم أمام فخامة غرفة الطّعام. لم يخطر له قطّ، ولا في الأحلام، أنّ مثل تلك الإنارة يمكن أن تكون موجودة في أيّ مكان. ولم يدرِ أنّ بوسع أيّ أحد أن ينصب تمثالًا للعذراء داخل بيته. أمّا الأرضيّة الرّخاميّة، وديكورات السّقف، فكانت جميلة بشكل خرافيّ. كانت هناك ثريّات وتحف فوق رفّ الموقد، مقتنيات رأيتها في البيوت حين كان مُضيفي السّابق ياغازي في فيرجينيا، بلاد الرّجل الأبيض الغاشم. إن كان البيت قد ألقى في روعه هذا القدر الهائل من الرّهبة والذّهول، فلا غرو إن كان أصحابه سيسدّدون لطمة أقسى وأشدّ إلى تماسكه المتزعزع. لذا، حين رأى والدها، بدا له الرّجل عظيمًا ضخمًا. كانت بشرته فاتحة منمنمة بنمش أحمر، ذكّره بالمغنّي «برايت تْشِمْزه». شعر بشيء من الارتياح تجاه والدتها، كان وجهها نسخة طبق الأصل عن وجه ندالي. لكن، لمّا هبط شقيقها عن الدّرج، تمنّى لو أنّه لم يأتِ. كان شكله يشبه المغنّين الأميركيّين السّود، شعره خفيف منساب بدقّة فائقة على جانبي وجهه، متتبّعًا حنكيه ليصل إلى فم عريض ذي شفتين ورديّتين ناتئتين من شارب ولحية غزيري الشّعر. ردّ الأخ على تحيّة «مساء الخير يا أخي» بابتسامة ممطوطة فقط.

اتّخذوا أماكنهم حول المائدة لدى انهماك الخادمات في تقديم أصناف عديدة من الأطعمة المحمولة في صوانٍ أنيقة. على مرّ كلّ لحظة من تلك اللّحظات، كان مُضيفي يلاحظ شيئًا جديدًا يعصف بثقته المتآكلة شيئًا فشيئًا، حتّى أنّه حال الانتهاء من تقديم كافّة أصناف الطّعام والبدء في تناوله، كان يشعر بأنّه مثل المغلوب على أمره. عند طرح أوّل

سؤال عليه، كابد الأمرّين في العثور على الكلمات المناسبة، واعتراه ارتباك وتردّد طويل حمل ندالي على التدخّل والإجابة بالنّيابة عنه. قالت: «نسو يعمل، وبمفرده، على إدارة مزرعة دواجن بحجم مجمّع بيتنا كلّه. إنّه يملك دجاجًا كثيرًا ويعمل على بيعه في الأسواق أيضًا».

كرّر والدها سؤاله ثانية، وكأنّ ندالي لم تتكلّم بتاتًا. قال: «عذرًا، أيّها السّيّد، ماذا قلت بشأن العمل الذي تمتهنه؟».

لما حُمل قسرًا على الإجابة، حاول أن يتكلّم، لكن لم يخرج من فمه غير التّلعثم والتّأتأة، إذ كان خائفًا بالفعل، ثمّ صمت. نظر إلى ندالي، فالتقت عيناها بعينيه. قالت: «أبي»...

قاطعها والدها، وقال بنبرة توبيخ لم تُخفِ غضبه: «دعيه يردّ على السّؤال. لم أطرحه عليك، بل عليه. ألديه فم أم لا؟».

داهمه القلق من المجابهة التي وقعت بين ندالي ووالدها، فلمسها برجله، من تحت الطّاولة، كي يحملها على السّكوت، لكنّها أبعدت رِجلها. وعبر الفسحة القصيرة التي ران فيها الصّمت، انطلق صوته من عقاله وقال: «أنا مزارع، مزارع دواجن. وأمتلك، أيضًا، أرضًا أزرعها ذرة وفلفلًا وبندورة وبامية».

ثمّ رفع ناظريه إليها، إذ قال ما كانت قد سلّحته هي به، وتابع كلامه قائلًا: «أنا، أيّها السّير، راعي طيور».

حدج والدها والدتها بما ظنّه مُضيفي نظرة محيّرة ألقت الرّعب في قلبه، خشية أن يكون ما قاله عثرة من عثرات اللّسان. أحسّ في تلك اللّحظة وكأنّه رجل كُبّلت أطرافه ثمّ دُفع به وسط حلبة قرية وهو عارٍ، من دون أيّ شيء يستتر به. التفت عفويًّا إلى شقيقها، فلاحظ ضحكةً مكبوتة فوق وجهه. ثارت ثائرته. هذه العبارة قالتها له ندالي، كيف يمكن أن تكون خاطئة؟ قالت إنّ وقعها على المسامع ألطف وأبهى، وهي كذلك بالفعل، بالنّسبة لأذنيه على الأقلّ.

قال الوالد: «حسنًا. إذًا، أيّها السّيّد، راعي الطّيور، ما حصيلتك من التّعليم؟».

اعترضت ندالي قائلة: «دادي»...

فقاطعها والدها بحدّة: «لا يا ندالي، لا!».

برز من جانب عنقه شريان محتقن وكأنّه ورم انتفخ إثر لكمة قويّة. ثمّ أكمل قائلًا: «دعيه وشأنه، دعيه ليتكلّم وإلّا فإن هذه الزيارة تكون قد انتهت. أتسمعين؟».

ردّت: «أجل يا دادي».

تابع الوالد القول: «عظيم. والآن، أيّها السّيّد، إنا آنو أُكوه إيبو؟».

فأومأ مُضيفي برأسه.

قال الوالد، وقد تدلّت قطعة خضار مفروم من شفته السّفلى: «أيجدر بي أن أتكلّم بلسان الإيبو إذًا؟».

ردّ مُضيفي: «لا ضرورة لذلك، سير. تحدّث بالإنجليزيّة».

ردّ الوالد: «حسنًا. ما تحصيلك العلمي؟».

أجاب: «أكملت الثّانويّة العامّة، سير».

قال الوالد وهو يلملم أطراف قطعة من لحم الدّجاج بطرف شوكته: «شهادة مدرسيّة إذًا».

ردّ مُضيفي: «هو كذلك، سير. أجل، سير».

رمى الرّجل زوجته ثانية بتلك النّظرة، ثمّ قال بنبرة انحدرت من العلوّ الذي كانت فيه: «أيّها السّيّد، لست بصدد إحراجك، فنحن لا نتقصّد إحراج النّاس؛ نحن عائلة مسيحيّة».

أشار صوب لوحات عديدة لـ«جيسوس كرايست» وحَواريه، معلّقة فوق رفّ زجاجيّ للكتب في طرف الغرفة. رفع مُضيفي بصره باتّجاه اللّوحات ثمّ أومأ قائلًا: «أجل، سير»...

قاطعه الوالد قائلًا: «لكن لا بدّ لي من طرح هذا السّؤال».

«أجل، سير».

«هل أخذت بالحسبان أنّ ابنتي هذه ستصبح صيدلانيّة عمّا قريب؟».

«أجل، سير».

«هل أخذت بالحسبان أنّها ستكمل الآن درجة البكالوريوس في الصّيدلة وستتابع الدّراسة في المملكة المتّحدة لنيل درجة الماجستير؟».

«أجل، سير».

«هل أخذت بالحسبان، أيّها الشّابّ، أيّ مستقبل سيجمعك بفتاة مثلها وأنت مزارع غير متعلّم؟».

تدخّلت ندالي: «دادي!».

ردّ والدها: «اصمتي يا ندالي. متشيه غي أونو! إنا نَم؟ آي سِم غي متشيه أونو!».

قالت والدتها: «نْدي، ما هذا؟ إغا إكويه كا دادي غي كو أوكو؟».

فردّت ندالي قائلة: «تركته يتكلّم كما يشاء يا مامي، لكن ألا تسمعين ما يقوله؟».

قالت والدتها: «بلى، لكن التزمي الصّمت، مفهوم؟».

تنهّدت ندالي وتمتمت: «حسنًا».

لمّا شرع والدها في الحديث ثانية، أصيب فم مُضيفي بالتّخمة، وتدافعت منه الرّدود ردًّا تلو الآخر.

«أيّها الشّابّ، هل قلّبت الأمر من كافّة جوانبه؟».

«أجل، سير».

«وهل فكّرت بعمق كيف ستكون حياتك معها؟».

«أجل، سير».

«فكّرت في كلّ ذلك إذًا، حسنًا فهمتك».

«أجل، سير».

«وأنت ترى أنّ الزّواج من هذه المرأة التي تعلوك مرتبة ومقامًا، والتي تريد أن تكون زوجًا لها، قرار صائب؟».

«أدري، سير».

«عليك أن تذهب، إذًا، وتعاود التّفكير في الأمر. اذهب وفكّر إن كنت تستحقّ ابنتي بالفعل أم لا».

«أجل، سير».

«هذا كلّ ما سأقوله لك».

«أجل، سير».

نهض والدها بصورة بطيئة ثقيلة، وترنّح جسده لدى تركه الطاولة وخروجه من الغرفة. لحقت به أمّها بعد لحظات قصيرة، وهي تهزّ رأسها بصورة سيدرك مُضيفي لاحقًا بأنّها كانت تعبيرًا عن الشّفقة عليه. اتّجهت أوّلًا نحو المطبخ، حاملة معها كومة صحون فارغة. شقيق ندالي، الذي لم يتفوّه بحرف لكنّه عبّر عن رفضه لمُضيفي عبر الضّحك على كلّ ردّ من ردوده، نهض فور خروج أمّه. تلكّأ بعض الشّيء بحجّة التقاط نكّاشة أسنان، محاولًا كبت ضحكة كانت ستفلت منه.

قالت ندالي بنبرة غشاها البكاء: «حتّى أنت يا تْشُكا؟».

ردّ تشُكا: «ماذا؟ إي... إي... إي... إيّاك أن تزجّي اسمي في هذا الموضوع، أوه. إيّاك أن توجّهي لي ولو كلمة واحدة! هل أنا من طلب منك جلب مزارع مسكين إلى البيت؟».

ضحك وهو يتمايل يمينًا ويسارًا ثمّ قال: «إيّاك أن تأتي على ذكر اسمي ثانية، هاكِ، أوه».

وفي الحال، مضى، هو الآخر، في إثر أبيه. اتّجه صوب الدّرج الدّاخلي والنّكّاشة بين أسنانه، وراح يصفّر بنغم أثناء خروجه.

«إجانغو إجانغو»، ظلّ مُضيفي متسمّرًا في مكانه وقد جلّله الخزي والعار. ثبّت ناظريه في صحن طعامه الذي بالكاد لمس شيئًا منه. تناهى إلى سمعه، من أعلى الدّرج الدّاخلي، صوت والدة ندالي وهي تقول لزوجها بلغة الآباء الأجلّاء: «دِم، قسوت بشدّة على ذلك الشّابّ، إر. كان بإمكانك أن تقول ما قلته له بنبرة غير قاسية».

رفع نظره باتّجاه حبيبته التي لم تبرح مكانها، فوجدها تفرك كفّها الأيسر براحتها اليمنى. كان يدري أنّ ما تعانيه من فرط الألم لا يقلّ عمّا يشعر به. تمنّى أن يخفّف عنها، لكن لم يكن بمقدوره أن يحرّك ساكنًا. ذلك أنّ الرّجل حين تنتهك كرامته يصاب بالشّلل والجّمود، كما لو أنّه حقن بمخدّر. رأيت هذا مرّات ومرّات.

سقطت عيناه على لوحة ضخمة، كانت تصوّر ارتقاء رجل برفق وسط السّماء، وفي الأسفل منه تجمّع قرويّون، وبدا له أنّهم كانوا جميعًا يشيرون إلى ذلك الرّجل بالأصابع وأبصارهم محدّقة صوبه. ولأنّ عقله كان ميّالًا أحيانًا نحو قناعات غريبة، لم يدر لَمَ ظنّ لوهلة أنّ هذا الرّجل الذي كان صاعدًا في السّماء لم يكن سوى هو نفسه.

لم ينهض إلّا بمشقّة عظيمة، لمس كتف ندالي وهمس لها في أذنها بالكفّ عن البكاء. جذبها إلى الأعلى برفق، لكنّها قاومته وقد امتزج دمعها المنسكب بلعابها المنساب من فمها وانهمر فوق فستانها. قالت: «دعني، دعني، دعني وشأني. يا لهم من أهل! كنت أحسبهم أهلي وعائلتي، إر! يا لهم من أهل!».

قال من دون أن تتحرّك شفتاه، فتعجّب كيف صدرت الكلمات منه: «لا عليك يا مامي».

وضع يديه بحنو فوق رأسها وهبط بهما إلى عنقها. ثمّ انحنى إلى الأمام، دفع برأسه نحو ثغرها، وطبع قبلة فوق شفتيها. قبل أن يغادر البيت، ألقى نظرة أخيرة على اللّوحة، فلاحظ أمرًا لم يتفطّن له في المرّة الأولى: كان أهل القرية في الجّزء السّفليّ من اللّوحة يهتفون ويهلّلون لذلك الرّجل الذي يرتقي السّماء.

«تشوكو»، لطالما رأيت ما يصنعه الخزي بالرّجل. وعلى نحو ما يصنعه دائمًا، ملأ مُضيفي بخوفٍ طاغ، الخوف من أنّه سوف يخسر ندالي مثل معظم ما كان ملك يمينه ذاتَ مرّة. تعاظم هذا الخوف على

مرّ الأيّام اللّاحقة، التي حاولت نِدالي فيها أن تحمل عائلتها على إعادة النّظر، لكنّها فشلت. تطاولت تلك الأيّام إلى أسابيع، وأصبح واضحًا في الأسبوع الثّالث، أنّ ما من شيء سيحملهم على تغيير رأيهم. عندما عادت نِدالي من شجار مع والديها، عقد العزم على تغيير الوضع بنفسه وفعل شيء ما. كانت الأمطار قد هطلت طوال ذلك الصّباح، لكنّ الشّمس سطعت بحلول الظّهيرة. جاءت نِدالي مباشرة من كلّيتها في «أوتورو» وهي ممتلئة بالمرارة. لمّا عبرت سيّارتها الممرّ المحفوف بالأرض الزّراعيّة، كان في طرف مزرعته الصّغيرة. نصب والده سورًا هناك، انهار جزء منه تحت الأمطار الغزيرة التي هطلت في العام الذي يشير إليه الرّجل الأبيض بعام 3002. على بُعد قدمين من السّور، كانت هناك قناة طويلة ممتدّة بمحاذاة الشّارع الرّئيس. انتبه خلال مراقبته لها لدى ترجّلها وتوجّهها صوب البيت إلى أنّها لم تره. رمى الفأس، ورأس الـ«يام»، الذي كان منهمكًا في حفر حفرة لغرسه، ثمّ ركض إلى البيت.

حين دخل إلى البيت، كانت القبّعة القذرة الواقية من الشّمس فوق رأسه، وقميصه وسرواله متّسخين، ونعله ملطّخًا بالطّين وبما اجتثّه من أعشاب ضارّة. وجدها جالسة في مواجهة الحائط وقد دفنت وجهها في كفّها. في تلك اللّحظة المشوبة بالتّوتّر، لجأ إلى استخدام اللّسان الذي كان متعوّدًا عليه أكثر. قال: «مامي، كِدي إهي ميري نو؟ علام البكاء، علام البكاء يا مامي؟ إر، ماذا جرى؟».

استدارت كي تعانقه، لكنّه تقهقر إلى الوراء بسبب ثيابه المتّسخة. توقّفت على بُعد خطوة منه، وعيناها حمراوان قانيتان، ثمّ قالت: «لماذا يفعلون هذا بي، إر، أُبِم؟ لماذا؟».

فسألها مستفسرًا: «ماذا جرى، إر؟ أخبريني بما جرى».

أخبرته كيف أنّ والدها سألها إن كانت ما تزال تراه ثمّ توعّدها

وتهدّدها. وأنّ والدتها تدخّلت، قائلة إنّ الرّجل يتصرّف بقسوة بالغة، لكنّ والدها لم يرتدع.

قال مُضيفي: «لا عليك، الأمور على ما يرام. سوف تسير الأمور في النّهاية على ما يرام».

لطمت الحائط براحة يدها، وقالت: «لا يا ننسو، لا! لن تسير الأمور على ما يرام. كيف يمكن أن تكون الأمور على ما يرام؟ لن أعود إلى ذلك البيت ثانية. لن أعود. لن أعود إلّا جثّة هامدة. يا لهم من أهل!».

هوى قلبه في دوّامة من ثورة غضبها، وما عاد يدري ماذا يقول أو كيف يتصرّف. يقول الآباء الأوّلون عبر حكمهم الرّصينة: «إنّ الرّجل ينقذ نفسه عبر إنقاذه للآخرين». لكن إن كان إنقاذها غير ممكن من هذا الوضع، الذي كبّلهما وكأنّه وثاق خفيّ، فإنّ إنقاذه كان غير ممكن أيضًا. لذا، لن تسير الأمور على ما يرام بالفعل. راقبها وقد خطت بضع خطوات صوب الباب، ثمّ توقّفت ووضعت يدها فوق صدرها. بعدئذ استدارت وواجهته قائلة: «جلبت... جلبت بعض حاجيّاتي معي، سأمكث هنا. سأمكث هنا».

فتحت الباب وخرجت. وقف بالباب وراقبها عندما فتحت صندوق سيّارتها وأخرجت حقيبة من نوع «غانا مَست غو». ثمّ سحبت، من المقعد الخلفيّ، زوجين من الأحذية وكيسًا بلاستيكيًّا. راقبها بغبطة معيّنة، سعيدًا من الدّاخل لأنّه أصبح لديه، وأخيرًا، رفيقة.

لكنّ هاتفها طوال ذلك الأسبوع، لم يتوقّف عن الرّنين، وأحيانًا لفترات طويلة. كانت في كلّ مرّة، تلقي نظرة على الشّاشة وتقول لمُضيفي: «أبي»، أو: «أمّي». في كلّ مرّة، كان يرجوها أن تردّ على المكالمة، لكنّها ترفض. فقد كانت، مثل معظم الأمّهات العظيمات، قويّة الإرادة. كانت تقابل توسّلات مُضيفي بهسهسة استهجان، ثمّ تصرف انتباهها لشيء آخر، مثل الشّخص الذي لم يعد التّأنيب أو

الخوف من التّأنيب مجدٍ معه. أكبر مُضيفي هذا فيها. وكانت كلّما فعلت ذلك، تذكّره بخصلة مشابهة في شخص أمّه.

في منتصف الأسبوع الثّاني، ذهب والداها إلى الكلّيّة وانتظراها خارج قاعة المحاضرات، لكنّها تجاهلتهما وابتعدت عنهما برفقة صديقتها ليديا. بعد أن أخبرته بذلك، بات يتخوّف من أنّها بدأت في مجافاة عائلتها لأجله. رغم مساعيه المتزايدة لرأب الصّدع، إلّا أنّه لم يستطع تجاهل أنّ حبّها له بدا أقوى وأصلب في تلك الفترة. أحسّ كما لو أنّها انتزعت كل ما تكنّه من حبّ للآخرين، ثمّ وهبته كلّه له. فخلال تلك الفترة، خبزت له كعكة، وكتبت له قصيدة، وغنّت له الأغاني. ذات مرّة، أثناء نومه، فكّت المقلاع المعلّق على الحائط وهرعت إلى الفناء لطرد حدأة متربّصة بطيوره. لهذا، كان جزء من نفسه متواطئًا في إطالة أمد تلك الأيّام، فرغم أنّهما لم يتزوّجا بعد، إلّا أنّه شعر كأنّهما كانا كذلك بالفعل. تمنّى أن يحتلّ مركز حياتها، ويعشعش في أطرافها، ويُطبق على ما بعدها من آفاق. فهذه المرأة، التي طالما تخوّف من أنّه لن يستطيع الفوز بقلبها وأصبحت من نصيبه الآن، لا طاقة له أبدًا على خسارتها. رغم ذلك، خوفه من عواقب معاملتها لأهلها، نما جنبًا إلى جنب مع إيناع محبّته لها ومحبّتها له.

خلال تلك الفترة، ذهبت معه إلى «إنوغو». استيقظ مبكرًا، في ذلك الصّباح الذي لا يُنسى، فوجدها في ثياب الخروج، ثوب «أنكارا» فضفاض بزخارف أفريقيّة صميمة ومنديل قطنيّ أبيض. كانت تحرّك الشّاي في قدح وتتفحّص سجلّ الدّواجن فوق الطّاولة. سألها مستفسرًا: «أتنوين الذّهاب إلى مكان ما يا مامي؟».

أجابت: «صباح الخير يا عزيزي».

ردّ التّحيّة: «صباح النّور».

قالت: «لا، بل سأذهب إلى 'إنوغو' أنا أيضًا».

«ماذا؟ مامي»...

قاطعته: «أريد الذّهاب يا ننسو. أنا لا أفعل أيّ شيء هنا. أرغب في معرفة كلّ شيء عنك وعن الطّيور الدّاجنة. أنا أحبّ ذلك».

باغته الطّلب ولم يسعفه الرّدّ. نظر إلى طاولة الطّعام، فرأى أحد صناديق البيض البلاستيكيّة، عبوته البالغة دزّينة من البيض مكتملة تقريبًا. سألها: «هل جمعت هذه من تحت الدّجاجات؟».

أومأت وقالت: «جمعتها في السّادسة صباحًا، لكنّها ما زالت تبيض حتّى الآن».

ابتسم، إذ كان جمع البيض من بين أحبّ المهمّات الخاصّة برعاية الدّجاج بالنّسبة لها. كانت مأخوذة بظاهرة وضع البيض، كيف تتكرّر بوتيرة متلاحقة في عالم الدّجاج. قال: «أوكيه يا مامي، لكنّ سوق أُغبتي»...

قاطعته قائلة: «لا عليك يا ننسو. لا عليك. لستُ بيضة هشّة. قلت لك من قبل، أنا لا أحبّ أن تعاملني كما لو كنت بيضة. أنا مثلك سواء بسواء. أريد أن أذهب».

حدّق إلى وجهها، فرأى في عينيها أنّها تعني ما تقول. أومأ قائلًا: «أوكيه، دعيني استحمّ إذًا».

انطلقا في وقت لاحق، أوصلا البيض إلى المطعم في نهاية الشّارع، ووعد المشتري بالمجيء لاستلام الثّمن حال عودته من «إنوغو». أثناء انطلاقهما فوق الطريق السّريع، أحسّ بأنّه لم يشعر أبدًا من قبل بمثل تلك المتعة في السّفر. عبر الجّسر فوق نهر «آماتو»، كشفت له كيف ظلّت بعد ليلة عثوره عليها فوق الجّسر محطمة الفؤاد. وأنّها ذهبت عند عمّها في لاغوس لقضاء شهرين، وخلال إقامتها هناك، كان كثيرًا ما يخطر في بالها. وكلّما تذكّرته، كانت تضحك من غرابة أطواره. أمّا هو فروى لها كيف رجع إلى النّهر للبحث عن ديكيه من دون جدوى،

وكيف ظلّ ساخطًا على نفسه جرّاء ما اقترفته يداه. قالت: «أتدري! منذ مدّة، ثار في ذهني التّساؤل حول قدرة رجل يحبّ طيوره محبّة عظيمة على الإقدام على تلك الفعلة. لمَ فعلت ذلك؟».

نظر إليها وقال: «لا أدري يا مامي».

بمجرّد أن نطق بتلك الكلمات، داهمه الشّعور بأنّه ربّما كان يعرف لماذا أحبّته: لأنّه أنقذها من خطب ما. ولأنّه ضمّها هي الأخرى، مثل فرخ الإوزّ، تحت جناحه. علا منطوق هذا الخاطر في ذهنه حتّى أنّه التفت إليها كي يتأكّد من أنّها لم تسمعه. لكنّ ناظريها كانا مسلّطين خارج النّافذة، يمسحان الجّانب الآخر من الطّريق، حيث أفسحت الغابة الكثيفة مطارح متفرّقة لبيوت إحدى القرى.

في سوق «إنوغو»، قدّمها إلى معارفه على أنّها خطيبته، فاستقبلوا النّبأ بابتهاج وطرب. إزكوبيا، بائع العلف، قدّم لهما قدحًا من خمر النّخيل، **شراب الآلهة**. بعضهم صافحوه مهنّئين وقابلوها بالعناق. أشرق وجه مُضيفي بوهج ابتسامة ظلّت متّقدة طوال الوقت، فجدار المستقبل غير المسطور، أصبح فجأة مزخرفًا بالألوان الدّافئة[1]. كان قرص الشّمس مكتملًا تقريبًا حين تركا السّوق، حاملين ما اشتروه من حاجيّات.

اشترى طبق فاصوليا «أوغبا» المخمّرة من بائع متجوّل على جانب الطريق، قرب باصهما الصّغير. واشترت ندالي، الغارقة في العرق، زجاجة مشروب «لاكاسيرا» الغازيّ. حملته على تذوّقه، طعمه كان حلوًا، لكنّه لم يستطع تمييز نكهته. ضحكت منه وقالت: «يا رجل الأدغال، إنّه بنكهة التّفّاح. إنّني على يقين بأنّك لم تذق تفّاحة أبدًا من قبل».

هزَّ رأسه. ثمّ أدخلا إلى الباص قفصًا جديدًا، وكيسين من علف الدّجاج، ونصف شوال من حبوب الدُخْن. جلسا بعدئذ استعدادًا

---

(1) من عادات الإيبو القديمة تزيين النّاس جدران بيوتهم الجّديدة بزخارف ورسومات فنّ «أولي» الأصيل.

للعودة إلى أوماهيا. قال لها: «أنا لست أويه بو[1]. سأتناول فاصوليا 'أوغبا' مثل رجل أفريقيّ صميم».

فكّ غلاف الطعام وشرع في التقام حفنات منه ومضغها على نحو حملها على الضّحك. فرقعت بإصبعيها في الهواء وقالت ضاحكة: «قلت لك أن تكفّ عن مضغ الطّعام كالعنز: نم، يم، يم. تُفيا!».

لكنّه لم يرتدع وواصل الأكل وهو يتمايل برأسه ويفرقع بلسانه. فأردفت: «حسنًا، ربّما سنسافر سويّة إلى الخارج في يوم ما».

ردّ متسائلًا: «إلى الخارج؟ لماذا؟».

أجابته: «حتّى ترى العالم وتكفّ عن التّصرّف وكأنّك تعيش في الأدغال».

قال: «هه، أوكيه، يا مامي».

أدار المفتاح وانطلق. حين تجاوز الباص حدود المدينة أصابه المغص. تقطعت أمعاؤه وانهار تماسكه أمام نوبة شرسة من الضّراط. صاحت ندالي: «بحقّ المسيح! نيامًا! ننسو؟».

أخرسته نوبة أخرى من الضّراط. فسارع إلى ركن الباص إلى جنب الطّريق، ثمّ شهق وقال: «معدتي يا مامي».

«ما بك؟».

«هل تحملين منديلًا ورقيًا؟».

«أجل، أجل».

مدّت يدها لتناول حقيبتها، لكن قبل أن تتمكّن من سحب المناديل، اختطف منديل قماش من جيب الباص وولّى مهرولًا صوب الأدغال. «تشوكو»، كاد أن يمزّق سرواله من فرط عجلته في سحبه إلى الأسفل بعد تواريه داخل الغابة، وفور نزول السّروال، هبط برازه بقوّة نفّاثة غير معهودة وارتطم بالعشب ارتطامًا. تخوّفتُ ممّا رأيته، فأنا لم أشهد

(1) أويه بو: تعبير يطلق على الرّجل الأبيض أو من يحاول التّشبّه به.

حصول أمر كهذا له مذ كان صبيًّا صغيرًا. حين نهض بشيء من الارتياح، كان جبينه قد تفصّد عرقًا وكأنّه كان تحت المطر.

في تلك الأثناء، كانت نندالي قد تركت الباص وأوشكت على عبور الأدغال وفي يدها المناديل الورقيّة. سألته: «ماذا جرى؟».

ردّ: «داهمني إحساس جارف بالتّبرّز».

انفجرت بالضّحك ثانية وقالت: «يا إلهي! ننسو؟».

«لم تضحكين؟».

ردّت بصعوبة وقد غلبها الضّحك: «انظر إلى وجهك... إنّك غارق بالعرق».

لم تنقضِ ربع ساعة على انطلاقهما ثانية إلّا وعاودته الكرّة من جديد. هرعَ إلى الأدغال هذه المرّة ومعه المناديل، لكنّ ما بذله من جهد في التّبرّز أجهز عليه. فركع على ركبتيه حال انتهائه وتشبّث بشجرة لبعض الوقت. لم أشهد من قبل حدوث أيّ شيء له من هذا القبيل. ومع أنّي كنت قد تعلّمت أن أتفحّص أحشاءه، إلّا أنّي لم أستطع تحديد مصدر علّته بالضّبط، رغم أنّه اقتناعه بأنّه يعاني من الإسهال. قال لنندالي حين رجع إلى الباص: «أنا مسهول في الواقع، أعاني من الإسهال».

انفجرت نندالي في نوبة ضحك أشدّ من سابقتها، فانخرط في الضّحك معها، وقال: «لا بدّ من أنّها فاصولياء 'أوغبا'، لست أدري ما الذي وضعوه فيها».

هاجت في الضّحك وقالت: «إنّك لا تدري بالفعل. ولهذا، فإنّي لا آكل كيفما اتّفق، ولا أينما أكون. لكنّك تريد أن تكون رجلًا إفريقيًّا صميمًا».

قال: «أشعر بالتّعب».

ردّت: «أجل أنت متعب. اشرب الماء ومشروبي الغازيّ وخذ قسطًا من الرّاحة. سأنوب عنك في القيادة».

«ستقودين باصي؟».

«أجل، ولمَ لا؟».

رغم دهشته من الأمر، إلّا أنّه ترك لها مقعد القيادة، ولوقت طويل بعد استئناف الرّحلة، لم يداهمه الإحساس بقضاء الحاجة. لكنّه حين ألمّ به، خبط لوح القيادة بيديه، وفور أن توقّفت، رمى بنفسه من الباب فتعثّر بنباتات زاحفة فوق الأرض. ثمّ، وبعد أن التقط نفسه، انطلق كالمجنون صوب الأدغال. رجع إلى الباص غارقًا بالعرق، أمّا هي فحاولت كبت الضّحك بجهد جهيد. أفرغ زجاجة ماء «راغوليز» الكبيرة في فمه وشدّ على الزّجاجة الفارغة. حكى لها قصّة رواها له والده عن رجل توقّف مثله في الطّريق السّريع كي يتغوّط في الأدغال، وأنّه لدى انهماكه في ذلك، ابتلعه ثعبان «بايثون». كان والده كثيرًا ما يضع تلك الأغنية التي غنّاها أحدهم حول هذه القصّة ويستمع لها، «إكي آ توا لام أُجو».

قالت: «أظنّ أنّي سمعت هذه الأغنية من قبل. لكنّني أرتعب من كافّة أصناف الأفاعي... بايثون، أوه؛ كوبرا؛ أوه؛ المجلجلة؛ أوه؛ كلّ الأفاعي».

«هو كذلك يا مامي».

«كيف تشعر الآن؟».

«أحسن».

لم تداهمه تلك الحالة طوال المدّة اللّازمة لتكسير خمس حبّات من جوز الكولا[1] في أربعة أماكن متفرّقة، ثمّ أصبحا على مشارف

(1) تلعب هذه الثّمرة الاستوائيّة دورًا مهمًّا في الطّقوس والتّقاليد الرّوحيّة والاجتماعيّة عند الإيبو. وتستخدم في تقديم القرابين المقدّسة خلال الصّلوات وتوقير الأسلاف وفي المناسبات الحياتيّة المهمّة مثل مراسيم تسمية الطّفل بعد الولادة والزّواج والجّنائز.

«أوماهيا». قال: «مرّت الآن ثلاثون دقيقة تقريبًا، ولم أذهب لقضاء الحاجة. أظنّ أنّ الأمر قد انتهى».

ردّت: «نعم، أظنّ ذلك. لكنّي لم أعد أقوى على الضّحك أيضًا».

سار الباص بهما فوق الطّريق المحفوف بالغابات الكثيفة، وقد خيّم عليهما الصّمت لبعض الوقت. ثمّ داهمه ذلك الإحساس كالإعصار، فانطلق كالسّهم نحو الأدغال.

«أُوزه بروَّه»، تعهّدتْ مُضيفي إلى أن استردّ عافيته، ثمّ ذهبتْ إلى جامعتها في اليوم التّالي. وعندما رجعت، شاركته الجّلوس فوق المقعد الخشبيّ في الفناء، حيث كان منهمكًا في نتف دجاجة مريضة حتّى يتمكّن الهواء من النّفاد إلى جلدها. كانت بينهما صينيّة قديمة، ممتلئة بالرّيش. ظلّ ممسكًا بالطّائر من أحد رجليه، تاركًا الأخرى لها. كانت تؤدّي هذا الواجب، الأشدّ غرابة بين سائر ما فعلته في حياتها قاطبة، بمزيج من رباطة الجأش والضّحك. خلال انهماكهما في النّتف، حمل نفسه على الحديث عن عائلته، وعن حنينه إليها، وعن حاجتها إلى التّصالح مع أهلها. تحدّث بحرص عظيم، كما لو كان لسانه كاهنًا رطبًا يلقي العظات داخل حرم فمه. إثر ذلك، أخبرته بأنّ والديها جاءا إلى الكلّيّة ثانية في ذلك اليوم بحثًا عنها. قالت: «لا أريد أن أراهما يا ننسو. لا أريد فحسب».

ردّ قائلًا: «هل فكّرت في الأمر جيّدًا؟ هل تعلمين أنّ هذا سيعقّد الوضع ويجعله أسوء ممّا هو عليه؟».

كانت تمسكِ بريشة في رجل الطّائر حين قال ذلك. رجعت إلى الوراء ثمّ ركعت على بساط نخيل الرّافية الممدود على الأرض. سألته: «كيف؟».

ردّ موضحًا: «لأنّني يا مامي أنا المسؤول عن ذلك. لأنّ كلّ هذا حصل بسببي».

رفعت الدّجاجة رجلها الطّليقة وشدّت، فسقطت لطخة من الفضلات فوق البساط. صاحت ندالي: «أوه، يا إلهي!».

انفجرا في الضّحك حتّى لم يعد يقوَ على الإمساك بالدّجاجة. أفلتها، فمضت قفزًا نحو القنّ وهي تزعق متألّمة.

«إيبونو»، ربّما كان الضّحك هو ما ليّن قلبها، إذ حين أوضح لها بأنّ تصرّفاتها قد تحمل عائلتها على احتقاره أكثر، لأنّ ما وقع بينهم من جفاء حدث بسببه هو، جلست ولاذت بالصّمت. وأثناء تمدّدهما لاحقًا في السّرير، قالت له، فجأة وعلى وقع جلجلة مروحة السّقف، إنّه قال الصواب، وإنّها سوف تعود إلى البيت.

مثل إناء الكالاباش الذي يُملأ بالماء ويُرسل مع رسول سلام إلى أرض عدوّ مستفزّ، ذهبت إلى بيتها في اليوم التّالي، لكنّها رجعت بعد ثلاثة أيّام مثل إناء الكالاباش المتأجّج بالنّار. كان والدها قد وزّع عددًا ضخمًا من بطاقات الدّعوة للاحتفال بعيد مولده السّتّين ولكنّه لم يدعُ مُضيفي. برّر والدها موقفه هذا بالقول إنّ مُضيفي غير مؤهّل لحضور الحفل. تركت بيت أهلها وقد عقدت العزم على عدم العودة إليه. قالت ذلك بغضب مستشيط ثمّ قرعت الأرض بقدمها وصرخت: «كيف؟ كيف يمكنه أن يفعل هذا؟ كيف؟ إذا ظلّوا مصرّين على عدم دعوتك فإنّي أقسم بمن خلقني»...

مسحت طرف لسانها بسبّابتها[1] وتابعت قسمها قائلة: «أقسم بمن خلقني، لن أحضر الحفل. لن أحضر الحفل».

لم يتفوّه بشيء، وانشغل ذهنه بهذا العبء النّاعم الذي ألقته على كاهله. كان جالسًا إلى طاولة الطّعام، منهمكًا في التقاط الحصى من طبق فاصولياء بيضاء. فرّ سوس الحبوب من الفاصولياء غير المغلّفة، وجثم بعضه فوق الطّاولة، وربض بعضه الآخر فوق الحائط المجاور.

---

(1) عرف من أعراف الإيبو في التّأكيد على القسم.

حين انتهى من تنظيف الفاصولياء، صبّها في قدر ووضعها فوق الموقد. ثمّ التقط بطاقة الدّعوة المبهرجة التي رمتها فوق الكرسيّ وشرع في إلقاء مضمونها على نفسه:

«هذه بطاقة دعوة السّيّد... والسّيّدة... وأفراد العائلة إلى حفل عيد مولد الزّعيم الدكتور لوك أوكُلي أُبيالور، ذا نماليت 1 أوف أوماهيا، مملكة إِبكو في ولاية آبيا النّيجيريّة. يُعقد الحفل في 14 تمّوز\يوليو في منزل عائلة أُبيالور الكائن في آغوييه إرونسي لاي أوت»...

كانت قد تركته وذهبت إلى غرفة نومه القديمة، حيث الحائط الممتلئ بخرابيش طفولته، رسومات معظمها لإله الرّجل الأبيض، وملائكته، وأخته، وفرخ الإوزّ. انتقت هذه الغرفة وخصّصتها للدّراسة وقراءة كتبها أثناء مكوثها في البيت، لكنّها كانت تنام معه في الغرفة التي كانت لوالديه فيما مضى. قرأ الدّعوة من غرفة الجّلوس بصوت عالٍ كي تتمكّن من سماعه. تابع القراءة قائلًا: «في الرّابع عشر، شارع لاغوس في 14 تموز\يوليو، 2007. ستقدّم أصناف وفيرة من الأطعمة مصحوبة بغناء وموسيقى صاحب الجلالة، ملك موسيقى أُغيني، الزّعيم أوليفر دي كوك. سيعقد الحفل في تمام الرّابعة مساء وحتّى التّاسعة ليلًا»...

هتفت من الدّاخل قائلة: «الكرة في ملعبي الآن، إن لم يحفلوا بدعوتك، فإنّني لن أحفل أيضًا بحضور الحفل».

فتابع القراءة قائلًا: «ضيف الحفل لن يكون سوى النّجم الكوميديّ نْكِم أُوها، أوسُفيا[1] بنفسه»...

---

(1) نْكِم أُوها أو «أوسُفيا»: ممثل كوميدي نيجيري أدى دور رجل يدعى «أوسُفيا» في فلم كوميدي شهير يدعى «أوسُفيا في لندن».

ردّت: «وإن يكن، لن أذهب».
اختتم القراءة بالقول: «الدّعوة مفتوحة للجّميع».

«**إجانغو، إجانغو**»، يقول الآباء الأوّلون، وهم العارفون بأحوال البشر وطبائعهم: «إنّ حياة الرّجل مثل القرص الدّوّار. قد تدور في هذا الاتّجاه أو في ذلك الاتّجاه، وقد تنقلب رأسًا على عقب في لحظة خاطفة». بلمح البصر، قد يتهاوى عالم شامخ ويسوّى بالأرض، وقد ينتصب عالم آخر كان قبل لحظة فقط منبطحًا أرضًا. رأيت هذا مرّات ومرّات. ورأيته ثانية بعد بضعة أيّام لاحقة، لدى رجوع مُضيفي إلى البيت ذات مساء بعد قضاء حاجة له. كان قد ذهب بعد تناولهما طعام الغذاء إلى وسط المدينة لتزويد أحد المطاعم بأربعة ديوك كبيرة، فيما مكثت ندالي في البيت لأجل الدّراسة. كانت سماء حياته الملبّدة بنذر العواصف قد باتت تؤرّقه على نحو متزايد، متخوّفًا ثانية من أنّ شيئًا ما كان يراقبه، متربّصًا به إلى حين اكتمال سعادته ليختطفها منه ويرميه بالأسى من جديد. غرس هذا الخوف نفسه في ذهن مُضيفي منذ موت فرخ الإوزّ. هذا الخوف بما له من قدرة جبّارة على الإقناع، وعلى غرار ما يفعله بالرّجل حين يستحوذ على عقله، أقنعه بأنّ ندالي ستتعرّض لضغط هائل سيحملها في نهاية المطاف على تركه. ورغم كل ما قدحته في ذهنه من أفكار متواصلة لمقارعة هذا الخوف، إلّا أنّه ظلّ مستحكمًا في ذهنه. ظلّ خائفًا من أنّها، في لحظة ما، ستتخلّى عنه عوض أن تخسر عائلتها. كانت سطوة هذا الخوف عظيمة إلى درجة حملته، في طريق العودة إلى البيت، إلى تشغيل شريط كاسيت «أوليفر دي كوك» لمنع نفسه من التّردّي في هوّة اليأس. لم تعمل سوى سمّاعة واحدة، وأحيانًا، كانت ضوضاء الشّارع تطغى عليها، فتنقطع الموسيقى. في تلك اللّحظات، حين كان صوت «أوليفر» الجَهْوريّ يخفت، كان العبء الذي يرزح ذهنه تحته يضغط عليه بشدّة.

لدى وصوله إلى البيت، كانت ندالي جالسة فوق المقعد في الفناء، ترقب الدّجاج أثناء التهام حبوب الذّرة التي نثرتها فوق شوال، وتقرأ أحد المقرّرات الدّراسيّة تحت ضوء المصباح الكهربائيّ القابل للشّحن. كانت قد استبدلت ثيابها وارتدت بلوزة وشورتًا. أمّا شعرها فملّسته بالزّيت وطوّقته بربطة زاهية. لمّا سمعت صوت باب الشّبك، هبّت واقفة على الفور، وقالت: «احزر، احزر، احزر يا أُبِم؟».

طوّقت عنقه بيديها، وكادت أن تدوس برجلها إحدى الدّجاجات، لكنّها فرّت بفزع بعد أن فردت جناحيها وشرعت في الزّعيق.

قال مُضيفي وقد دُهش مثلما دُهشت: «ما الذي جرى؟».

ضغطت على عنقه بيديها وقالت: «قالوا بوسعك أن تحضر الحفل. والدي. قالوا بوسعك أن تحضر الحفل».

لم يكن قد توقّع ذلك على الإطلاق، فصاح بارتياح وبقدر من عدم الاستيعاب: «أوه، يا له من نبأ حسنٍ!».

فسألته: «هل ستحضر الحفل يا أُبِم؟».

لم يقوَ على النّظر في عينيها، لهذا لم ينظر في عينيها. لكنّها اقتربت منه، بخطى وئيدة، ثمّ رفعت ذقنه ليقابل وجهه وجهها، وقالت: «ننسو، ننسو».

ردّ: «إيه يا مامي؟».

قالت: «أعلم أنّهم جرحوك، مسّوك في كرامتك وكبريائك. لكنّ هذه الأمور تحدث كلّ يوم هنا. فهذه نيجيريا، وهذه بلاد الإيبو، الفقير فيها فقير. أوني أوغبيني، لا يحظى باحترام في المجتمع. فماذا عن والدي وشقيقي؟ إنّهما في عداد النّاس الفخورة والمعتدّة بالنّفس. بل وحتّى أمي هي في عداد هؤلاء النّاس، مع أنّها لا تؤيّد والدي كثيرًا فيما يخصّ علاقتنا».

لم ينبس ببنت شفة، فواصلت الحديث قائلة: «لعلّهم يشعرون بالخزي منك، ولكنّي لست كذلك. لا يمكن لي أن أكون كذلك آه»...

أمسكت ذقنه وأمعنت النّظر في وجهه ثمّ قالت: «ننسو، ما الأمر؟ لماذا لم تقل شيئًا حتّى الآن؟».

ردّ: «لا شيء يا مامي. سأحضر الحفل».

احتضنته. وعبر الصّمت، سمع الحشرات اللّيليّة وهي تفرغ ما في جعبتها من أصوات في أذن اللّيل. ثمّ كرّر ما قاله ثانية: «سأذهب معك إلى الحفل، سأذهب لأجلك».

خلال نطقه بذلك، رأى أنّها أطبقت عينيها اللّتين لن تفتحهما إلّا بعد انتهائه من كلامه.

7

الذّليل

«إيبونو»، يقول الآباء الأوّلون: «لا يقع الفأر في مصيدة فارغة في وضح النّهار، إلّا إن استدرجه إليها أمر لا طاقة له على ردّه». «إيبونو»، لو رأت السّمكة خطّاف صنّارة متدلٍّ بلا طُعم تحت الماء، فهل تهرع إليه وتبتلعه؟ كيف ستفعل ذلك إلّا إن أغراها شيء معلّق بالخطّاف؟ ألا يشبه هذا إغراء الرّجل واستدراجه إلى وضعٍ ما كان ليحبّ أن يقع فيه؟ مضيفي، مثلًا، ما كان ليوافق على حضورٍ حفلة والد ندالي من دون أن يبدي أهلها النّدم ويوجّه والدها بطاقة دعوة خاصّة تحمل اسمه: السّيّد تشُنُنْسو أوليسا. رغم إقراري برضوخ جانب من مُضيفي لإغراء الرّغبة في إسعاد ندالي بأيّ ثمن وحضور حفل حيّ للمطرب «أوليفر دي كوك»، إلّا أنّه كان متوجّسًا حتّى النّهاية أيضًا. قرّر حضور الحفل بقبول من نِصفه الميّال إلى الحضور فقط، جارًّا نصفه الآخر المعاند جرًّا. أمّا أنا، قرينه الحامي، فلم أستطع اتّخاذ قرار حيال إن كان عليه الحضور أم لا. كنت متخوّفًا، استنادًا إلى معرفتي بالبشر، من أنّ ما أبداه أهلها من مشاعر نفور تجاه مُضيفي، أمر لا يتبدّد بسهولة. لكنّي كنت قد رأيت تأثير هذه المرأة عليه، وما أحدثته من شفاء وتوازن في حياته وودت استمرار ذلك. وقوف القرين الحامي في وجه مُضيفه عمل منكر. إذا قابل الإنسان أمرًا ما بالقبول، ولم يلقَ هذا رغبة لدى قرينه الحامي، فلن يكون في مقدور القرين فعل أيّ شيء سوى محاولة

إقناع مُضيفه بالعدول عنه. وإذا رفض مُضيفه ذلك، فلا يجوز للقرين أن يحاول قهر إرادة مُضيفه؛ بل على القرين أن يقابل الأمر بالقبول. وهذا، مجدّدًا، هو سبب قول الآباء الحكماء دومًا: «إذا وافق الرّجل على أمر، فعلى قرينه الحامي أن يوافق عليه أيضًا». أمّا السّبب الثّاني وراء البلبلة التي اعترتني إزاء هذا الأمر، فكان إيماني القويّ بحبّ نداللي لمُضيفي، تحديدًا بعد مقابلتي لقرينتها الحامية، واعتقادي بأنّه إن تزوّجها، سيصير رجلًا كاملًا، مثلما يقول الآباء الأوّلون دائمًا: «لا يكتمل الرّجل إلّا إن تزوّج بامرأة».

قبل الحفل بيوم، ذهبا معًا لشراء بطاقتَي تهنئة لوالدها من السّوبرماركت الضّخم قرب محطّة وقود «أواندو». من محلٍّ لبيع الثّياب على جانب الطّريق في شارع «كراوثْر»، اشترى قميص «إزي أغو»[1]. رغم أنّ نداللي استحسنت القمصان المزيّنة بصور رؤوس أسود سوداء، إلّا أنّ القمصان الحمراء استهوته لسبب لم يستطع فهمه. خرجا من المحلّ، ولدى توجّههما إلى مجمّع تسوّق، وسط لعلعة سمّاعات كنيسة في الطّابق العلويّ منه، أبصر موتو أمام ورشة لتصليح السّيّارات. كانت واقفة بين كوم من الإطارات، بينما تطاير شرر متوهّج من لهب أحمر متّقد كان ينصبّ من آلة بيد ميكانيكيّ. كانت في ثوب فضفاض سابغ، مزيّن بصور أوراق شجر حمراء فوق أرضيّة خضراء. انتهت من بيع الفستق لأحد الرّجال، وانشغلت في لفّ قطعة قماش كي تضعها على رأسها وتوازن صينيّة الفستق الكبيرة فوقها. في تلك اللّحظة، «إيبونو»، انزلق من بين كفّيّ عالمه الحاضر كما لو كان سمكة زيتيّة. وقف هناك، متردّدًا حيال ما كان يودّ فعله، متسائلًا عن سبب تركها له. لكنّ موتو لم تستدر. بل وضعت الصّينيّة

(1) قميص فضفاض طويل يحمل صورًا ونقوشًا إفريقيّة يُلبس عند الإيبو في المناسبات مثل الأفراح.

فوق رأسها ثمّ مضت في الاتّجاه المعاكس له، صوب سوق مزدحم. خطر له أن ينادي عليها، لكنّه خاف من أنّها قد لا تسمعه وسط ضجيج آلة اللّحام. بنبض متسارع، استدار نحو ندالي، كانت قد تابعت المشي من دون أن تشعر بتوقّفه. لم ينتبه لأنّ بصره عند مراقبة موتو، كان منصبًّا أيضًا على لهيب آلة اللّحام في يد الميكانيكيّ. لذا، لمّا حوّل بصره عنها، كان زائغ البصر، فبدا العالم وكلّ ما كان فيه لوهلة، وكأنّه متوارٍ خلف غلالة حريريّة صفراء.

«تشوكو»، لم ترجع ندالي إلى البيت بصحبته. بل ذهبت إلى بيتها لمساعدة والديها في التّحضير لذلك اليوم الكبير في الغد. عدا القيام على رعاية دجاجة مريضة، كانت حُبيبات مثل اللّؤلؤ قد بدأت بالتّبرعم حول منقارها، ومسح تلك الحبيبات بمنشفة نظيفة مبلّلة بالماء السّاخن، قضى بقيّة يومه يفكّر في موتو. تساءل عمّا حصل، ويد من التي امتدّت واختطفتها منه. كان سيكلّمها لو كان بمفرده. فكّر طويلًا فيما دعاها إلى تركه، بلا تنبيه، بلا استفزاز، وقت بدا عليها أنّها تحبّه وأنّه راسخ في صميم فؤادها. يا معشر البشر عليكم بالحذر، ليس بوسعكم وضع ثقتكم في أيّ إنسان. ليس من أحد عصيّ على الميل مع الرّيح. لا أحد! رأيت هذا مرّات ومرّات. كان ما زال غارقًا في التّفكير حين طنطن هاتفه. التقطه، ونقر صندوق الرّسائل النّصّيّة، ثمّ قرأ: «إنّهم بالفعل يودّون مجيئك يا أُبِم، حتّى شقيقي. أحبّك، طابت ليلتك».

وصل بيت عائلتها في اليوم التّالي ليكتشف بأنّه كان أوّل الحضور. جاءت ندالي لاستقباله وطلبت منه أن يتبعها إلى داخل البيت. لكنّه رفض ذلك تمامًا. جلس على كرسيّ بلاستيكيّ تحت السّقف المغطّى بقماش مشمّع في أحد السّرادقَيْن المنصوبَيْن لاستقبال الضّيوف. أمّا السّرادق الثّالث فكان منفصلًا ومختلفًا، أرضه مفروشة بالسّجّاد

الأحمر وفيه منصّة مرتفعة. كان هذا السّرادق مخصّصًا لأهل الحفل وعليّة القوم، وتلك هي طاولة الشّرف، حيث سيجلس أهل الحفل وكبار الشّخصيّات. المقاعد هناك مرتّبة خلف طاولة الشّرف الطّويلة قبالة المنصّة المجلّلة بقماش مطرّز. قرب الطّاولة، كان عدد من الرّجال الغارقين بالعرق يعملون على تجهيز السّمّاعات، فيما انهمكت امرأتان في بلوزتين وتنوّرتين متطابقتين في تزيين كعكات ضخمة بتماثيل صغيرة لوالد ندالي وقد أمسك بيده صولجانًا.

التقط نسخة من برنامج الحفل، كانت قد تُركت فوق كرسيّه، وشرع في القراءة حين شعر بخشخشة كرسيّ وراءه. قبل أن يتمكّن من معرفة سرّها، أو حتّى من الالتفات إلى الوراء، نقرت يد كتفه وانحنى رأس إلى أذنه. قال الرّأس: «جئت إذًا».

حدث هذه بشكل مباغت، فأقعدته المفاجأة. كرّر صوت الرّجل، الذي أدرك الآن بأنّه صوت تشكا، قائلًا: «جئت في نهاية المطاف إذًا».

كان تْشُكا مثل ندالي ينطق لسان الرّجل الأبيض بلهجة أجنبيّة. تابع قائلًا: «بعض النّاس، بعض النّاس لا يستحون. لا حياء لديهم ولا خجل. بعد كلّ ما قاله لك بوبمان في تلك الزّيارة، كيف طاوعتك نفسك على المجيء إلى هنا؟».

وضع تْشُكا يده فوق كتف مُضيفي وجذبه باتّجاهه أكثر. سمعت صوت رأس مُضيفي وقد صرخ: «ألم يكن قريبًا إلى حدّ كافٍ؟». دفعه صوت جاء من الأعلى إلى رفع رأسه ورؤية ندالي فوق ما يبدو أنّه شرفة غرفتها. عندئذ قال تشُكا: «لوّح لها بيدك، قل لها إنّك على ما يرام. لوّح لها!».

كانت تقول شيئًا لم يستطع سماعه ولكنّي تبيّنت أنّه كان سؤالًا عمّا إن كان على ما يرام. أطاع الأوامر التي أُصدرت له، فردّت عليه بالتلويح ورمي قبلة في الهواء. ظنّ بأنّ شقيقها مختبئ خلفه، لكنّ

تشُكا هتف الآن قائلًا: «أنا ورجلكِ نتجاذب أطراف حديث ظريف!».

عندئذ خال مُضيفي أنّه رأى انفراج ابتسامة في عرض وجهها، علامة دامغة على أنها صدَّقت ما قاله شقيقها. هتفت ردًا على تشُكا: «رائع. شكرًا يا تْشُكا».

كان هتاف تْشُكا لأخته بلسان الرّجل الأبيض، لكنّه الآن تابع هجومه الضّاري عليه بلغة الآباء قائلًا: «آي بو أُتوبو، أُتوبو كي إبو. أُتوبو بكلّ معنى الكلمة. كيف! كيف يمكن للمرء أن يلوي عنقه أو يثني شفتيه لتمرير رسالة إلى رأس أُتوبو مثلك؟».

اعتصر كتف مُضيفي بكلّ قوّته حتى تلوّى مُضيفي من الألم. ثمّ قال تْشُكا: «والآن، اصغِ جيّدًا، يا فأر الكنيسة،[1] طلب منّي والدي أن أبلغك بأنّنا لو سمعنا ولو 'فِم' واحدة منك، أو أيّ ضجّة على الإطلاق، فإنّك ستكون في ورطة حقيقيّة. هل تعلم بأنّك تلعب بالنّار؟ إنّك تحتضن نيرانًا حارقة. إنّك على علاقة رومانسيّة مع ابنة نمر، نْوا آغو».

سحب تْشُكا نفسًا عميقًا ثمّ أطلقه فوق عنق مُضيفي وقال: «آه، إنّك ترتدي حلّة محترمة يا فأر الكنيسة».

جذب تْشُكا الآن قميص «إزي آغو» عن كتف مُضيفي، ثمّ قال: «حلّة فاخرة، يا حضرة السّير. يا أُتوبو. إيه، دعني أبلغك الرّسالة: ممنوع أن تتكلّم، ممنوع أن تفعل أيّ شيء. أي 'فِم'. إيّاك أن تخطئ وترافق العائلة إلى حلبة الرّقص. إيّاك أن ترتكب أيّ حماقة مشابهة، مهما طلبت شقيقتي أو ترجّت. أكرّر، مهما طلبت شقيقتي وترّجت. مفهوم؟».

---

(1) في العديد من اللّغات الأوروبيّة يضرب المثل على الفقر المدقع والجوع بفأر الكنيسة. وذلك لأنّ الكهنة يحرصون على منع سقوط فتات خبز طقس التّناول، لأنه بالنّسبة لهم جسد المسيح نفسه، فوق المذبح أو الأرض. وهذا يعني أن فئران الكنيسة لا يبقى لها أي فتات تقتات به.

«غاغان أَوغو»، كان قد مرّ على معرفتي بمُضيفي في ذلك الوقت خمس وعشرون سنة وثلاثة شهور، لكنّي لم أره قطّ محرجًا إلى تلك الدّرجة. كان مثخنًا بالجّراح، كما لو أنّ تْشُكا لم يتلفّظ بكلمات بل جلَده بالسّياط. لكنّ أكثر ما آلمه هو عجزه عن الثّأر والرّدّ بالمثل. حين كان صبيًّا، لم يكن يتهيّب العراك: في الحقيقة، كان مرهوب الجّانب، ومع أنّه لم يكن من الصّبيان الأشقياء، إلّا أنّه كان إذا ما استُفزّ، يقاتل بقبضة من صخر. لكن في هذا الموقف، كان عاجزًا، مغلول اليدين. لذا، ورغم أنّه كان مُثخنًا، إلّا أنه وببساطة أومأ برأسه ردًّا على ما وُجِّه إليه. فعقّب تْشُكا قائلًا: «جميل يا فأر الكنيسة، أهلًا بك».

من دون سبب معيّن، سيتذكّر دومًا هذه الجملة الأخيرة، خليطًا من لسان الآباء ولسان الرّجل الأبيض: «أُدِنما، تشيرش رات، إِبْيا وو».

يقول الآباء الأوّلون دومًا إنّ الحرب المعدّة سلفًا لا تأخذ حتّى الكسيح على حين غرّة. لكنّ حربًا غير معدّة سلفًا، وغير مرتقبة، يمكنها أن تُنزل الهزيمة حتّى في ساحة أعتى الجيوش. هذا أيضًا سبب قولهم، في حكمهم التّحذيريّة: «إن استيقظ المرء في الصّباح، ووجد أنّه مطارد من قبل شيء عديم الأذى مثل الدّجاجة، فعليه أن يلوذ بالفرار، لأنّه لا يعلم إن كان نبت للدّجاجة خلال اللّيل أنياب ومخالب». مهزومًا بهذا الشّكل، جلس مُضيفي بذهول طوال الحفل.

بعد مدّة وجيزة من انصراف تْشُكا، بدأ الضّيوف بالتّوافد بأعداد كبيرة. كانت بطاقة الدّعوة تنصّ على أنّ الحفل سيبدأ في تمام الرّابعة عصرًا وينتهي في التّاسعة مساء. لكنّ طليعة الضّيوف وصلت في الخامسة والرّبع تقريبًا. كانت ندالي قد تبرّمت من حقيقة حصول ذلك بقولها: «سترى، الكلّ سيتقيّد بالمواعيد النّيجيريّة. لهذا، أنا أكره حضور مثل هذه الحفلات. لولا والدي، لقلت لك، اعتبرني في عداد الغائبين». انشغل في مراقبة مَنْ حوله أثناء امتلاء الكراسي بالضّيوف

الوافدين في حلل متنوّعة، يرتدي الرّجل في العادة ثوبًا ضافٍ تقليديًّا، وترتدي زوجته بلوزة تقليديّة لامعة، وتلفّ جزأها السفليّ بقماش من النّوع نفسه، وتحمل في يدها «جزدانًا» فاخرًا أو حقيبة يد. جلس الأطفال في الصّفّين الأخيرين فوق مقاعد بلاستيكيّة ذات مساند عالية. وبعد امتلاء معظم المقاعد، فاح الهواء بكوكتيل من العطور وروائح الأجساد.

راق للرّجل الذي جلس إلى يساره أن يدردش معه. قال الرّجل من تلقاء نفسه، دونما سؤال، إنّ زوجته واحدة ممّن الطّباخين «هناك داخل القصر»، مشيرًا إلى بيت آل «أُبيالور». ردّ مُضيفي باقتضاب: «وزوجتي كذلك»، محاولًا إخراس الرّجل. لكنّ الرّجل واصل الحديث عن عدد الضّيوف الضّخم، ثمّ عن حرارة الطّقس. استمع مُضيفي من دون إبداء الاهتمام، فلاحظ الرّجل ذلك بعد مدّة. عند جلوس ضيف وزوجته إلى جنبه الآخر، نسي الرّجل مُضيفي واستدار نحوهما.

سعيدًا بتركه، وأخيرًا، في حاله، عمد مُضيفي إلى تقييم ما حصل معه: أتت يد، سحبته بغلظة إلى الخلف حتّى كاد أن يسقط عن كرسيّه. ثمّ سأله فم عن سبب مجيئه، نعته بالغبيّ، نعته بفرس النّهر، سخر من ثيابه، هزء من حبّه لندالي، ثمّ سدّد ضربته القاضية: فأر كنيسة. لو كانت المقاعد ممتلئة كما هي الآن، لربّما ما حصل أيّ شيء من ذلك. لكنّ هؤلاء النّاس وصلوا متأخّرين للغاية. متأخّرين للغاية حتّى أنّ ظهور «أولِيفر دي كوك» المرتقب، مطربه المفضّل، عصفور «إيبولاند» الصدّاح، «أكو نا آتشا نا أبالي»، زعيم موسيقى الإيبو الرّاقية، لم يعنِ له أيّ شيء. جلس كالقعيد فيما هبّ الضّيوف وقوفًا لتحيّة المطرب. كان الدّم سيفور في عروقه لظهور عريف الحفل، والممثّل المشهور «أوسُفيا» وتقديم «أوليفر دي كوك». لكنّ الكلمات بدت مثل ثرثرة بلا نكهة أو طعم. كان سيضحك من نكات «أوسُفيا»، مثلًا، تلك التي

انتزعها من فيلمه الشّهير، «أوسُفيا في لندن»، كيف حرّف البِيض اسمه ونادوه بـ«أوسو-فاير». لكنّ النّكتة بدت له مثل بربرة طفل غير مفهومة، بل إنّه دُهش حتّى من ضحك الضّيوف. الرّجل البدين الذي يجلس أمامه، كيف له أن يضحك كلّ هذا الضّحك؟ والمرأة التي تجلس إلى جنب الرّجل، لمَ تهتزّ كلّ هذا الاهتزاز في مقعدها؟ لم يتفاعل مطلقًا مع جئير «أوسُفيا» المتواصل بـ«كوينو!» ردّ الحضور بـ«بيه!» بعد افتتاح الحفل ودعوة أشخاص محدّدين إلى طاولة الشّرف، وبعد اعتلاء «أوليفر دي كوك» خشبة المسرح على أنغام «بيبولز كلوب»، جلس بوجوم وكأنّه قطعة حطب. حتّى «دي كوك» وصل متأخّرًا للغاية.

ما فاقم انزعاجه، عدم كفّ الرّجل الجّالس إلى يساره عن الرّقص في مقعده وتفطّنه إلى وجوده من جديد. بين الفينة والأخرى، كان الرّجل ينحني نحوه للتّعليق على الحضور، والغناء، وعظمة «أوليفر دي كوك»، وما هبّ ودبّ. لكنّ «قطعة الحطب» اكتفت بالإيماء والتّمتمة. وحتّى هذه التّمتمة نُطقت بتردّد عظيم. ما كان الرّجل ليعرف أنّه أُمِر بألّا ينبس ببنت شفة، «فِم». أذهله الآن، لدى تفكيره في ذلك، أنّ الأمر صدر من صاحب الحفل نفسه، المُضيف بعينه، والد ندالي. في بحر هذه الأفكار، سمع طرقة على كرسيّه من الخلف. قفز قلبه من بين ضلوعه. لمّا استدار، اكتشف أنّ الفاعل لم يكن سوى صبيّ جالس خلفه مباشرة. كانت قدم الصّبيّ قد خبطت كرسيّه.

«إزوّه»، ثمّة أوقات يشعر فيها المرء وكأنّ الكون أصبح رجلًا يتهكّم عليه باقتضاب وقح. كما لو كان الإنسان مجرّد دمية، أو ألعوبة يتسلّى بها الكون على هواه. قعود، يشعر المرء وكأنّه يقول له تارة. وحين يقعد، يأمره بالقيام ثانية. يعطي الإنسان قوتًا بيد، ويرغمه أن يتقيّأه بالأخرى. عشت في العالم دورات حياتيّة كثيرة، ورأيت هذه الظّاهرة المحيّرة مرّات ومرّات. كيف يمكن أن يفسّر الواحد، مثلًا، أن مُضيفي

بعد لحظة من فزعه على يد ذلك الصّبيّ (مجرّد صبيّ!) ورجوعه ببصره إلى المطرب العظيم، تقوم يد بالنقر على كتفه من الخلف مرّة ثانية، وقبل أن تندى عنه أيّ حركة، يسمع صوتًا يقول له: «أُبِم، أُبِم، سينادون علينا قريبًا. هيّا، قُم وتعال. قُم وتعال؟». على أيّ حال، لا بدّ من أنّ ما بدر منه وقع بسرعة خاطفة، وكان الفعل أسبق من الفكر وإمعان النّظر في الإقدام على الفعل أم لا. لأنّها أعلت من قدره أمام الحضور حين نادته «أُبِم»، قام بما أسبغته عليه تلك اللّحظة من فخر، وتبعها. كان هو نفسه سيقع تحت سطوة جمالها، إذ أنّها كانت فاتنة فيما ارتدته من ثياب رائعة. تدلّى من جيدها طوق طويل من الخرز، وزيّنت معصميها بأساور مشابهة. هذه المرأة التي كان جميع من حوله ينادونها بابنة صاحب المقام العالي، «أدَيغو» و«أدَوره». أما كان ليجرّ على نفسه أسوء العار، بين جميع هؤلاء النّاس، لو ظلّ قاعدًا؟ هكذا تبعها وسط الهتافات الصّاخبة.

ما قالوه عند ذهابهما هبط عليه مثل نكتة ثقيلة من نكات القدر. قال أحدهم: «انظر إليه، رجل قدير جدير بامرأة كهذه يستحقّ مثل هذه المرأة!». وقال آخر ممتدحًا: «نْوه كيوما!». وصاحت امرأة: «إنياه كوه نوه!». أحد الرّجال المصطفّين بثياب عاديّة إلى جنب المراوح الموزّعة في نهاية كلّ صفّين من الكراسي حيّاه تحيّة الزّعماء بمدّ يده مصافحًا. بذهول، وبقدر مماثل من التردّد، طبطب على يد الرّجل ثلاثًا. همس الرّجل: «مبارك!». أومأ رأسه، أمّا يده، كما لو صار لها فجأة عقل خاصّ بها، فربّتت على كتف الرّجل. تبيّن له في تلك اللّحظة أنّ الأمور كانت تقع بسرعة أكبر من اللّازم، كما لو أنّ أعضاء جسده تمرّدت عليه وشكّلت كونفدراليّة مناهضة لسيطرته.

مع كلّ خطوة، ويده في يدها، قادته ندالي أكثر فأكثر نحو عصيان الأوامر وارتكاب المحظورات. لكنّه كان عاجزًا عن فعل أيّ شيء،

فجميع من في الحفل، الموزّعين في أرجاء الفناء الأماميّ الواسع، التفتوا إليهما الآن، و«أوليفر دي كوك» نفسه توقّف عن الغناء كي يحيّيهما تحيّة عابرة: «انظروا إلى 'أوْرياكو' المستقبل ورجلها، ها هما يسيران جنبًا إلى جنب بخطى عظيمة». ردّت ندالي على التّحيّة بالتّلويح بيدها، فلوّح هو الآخر بيده، لحشد من علية القوم، رجال ونساء أثرياء، وزعماء، وأطبّاء، ومحامين، وثلاثة رجال أحضروا بالطّائرات من بلدين من بلدان الرّجل الأبيض، ألمانيا والولايات المتّحدة (أحدهما أحضر معه امرأة بيضاء ذات شعر أصفر)، وتْشُمِكا إكي، سيناتور من أبوجا، وممثّل لحاكم الولاية، أُرجي كالو. وهو، فأر الكنيسة، والرّجل الذي يكسب رزقه من بيع الدّجاج وزراعة البندورة والذّرة والكسافا والفلفل، الذي يقتل النّمل الأحمر، وينقّب بالعود زرق الدّجاج في الفناء، لوّح هو بيده لكبار تلك الشّخصيّات.

مرّا في الطّريق إلى المنزل بأناس كثيرين. كان من بينهم امرأتان تنظران في مرآة وتدهنان بشرتيهما بالبودرة؛ رجل (أحد الضّيوف الذين وفدوا من الخارج) في «باريغا» بيضاء مذهلة وطاقيّة «أوزو» حمراء يدخّن غليونًا؛ شرطيّ وقف وفوّهة بندقيّته طراز «آي كاي 74» مصوّبة إلى أعلى؛ صبيّتان مراهقتان، في ثوبين طويلين، تنظران إلى شاشة هاتف تحت الشّرفة الضّخمة المحمولة فوق عامودين رومانيّين؛ صبيّ بربطة عنق «بابيون» وقميص منقوع بمشروب «فانتا».

فور عبورهما المنزل، ضغطت ندالي شفتيها فوق خدّه المتعرّق. كانت كلّما صبغت شفتيها بدرجة داكنة من الأحمر أو الورديّ تقبّل وجنته عوضًا عن فمه. قالت: «هل أنت مستمتع بالحفل؟».

قبل أن يتمكّن من الردّ تابعت قائلة: «إنّك تتعرّق ثانية! هل جلبت منديلًا معك؟».

ردّ بالنّفي. كان يريد قول المزيد، لكنّها استدارت صوب المنزل،

فلحق بها. فور دخولهما، وجد تْشُكا واقفًا في وسط الدّرج الدّاخلي، دهِشًا بوضوح من رؤيته هناك. ترنّحت الكلمات فوق شفتيه لدى مرورهما من جنب تْشُكا. بعد أن تجاوزاه وتوقّفا ثانية، هذه المرّة في غرفة صغيرة حيث قسّمت رفوف الكتب الغرفة إلى أربعة صفوف، سألته: «ما بك يا أُبِم؟ ننسو؟».

ردّ: «أبدًا، لا شيء. ماء، أيمكنك إحضار كأس من الماء؟».

ردّت: «ماء؟ أوكيه، دعني أحضر لك كأسًا من الماء».

حين وصلت العتبة، قالت: «شقيقي، هل ضايقك بشيء؟».

ردّ: «أنا؟ لا، أوه، لا، لم يضايقني».

حملقت فيه للحظة، كما لو كانت لا تصدّقه، ثمّ ذهبت. فور خروجها، كاد الدّمع أن يطفر من عينيه. جلس من دون انتباه فوق مقعد دوّار صغير لفّ بسرعة وقابل النّافذة. حظِي الآن بإطلالة صقر محلّق في السّماء على الحفل في الأسفل. كان «أُسُفيا» يرقص، مقاطعًا «أوليفر دي كوك» من حين لآخر. «تشوكو»، أحيانًا تجري الأمور مع بني البشر على النّحو التّالي: يصبح الإنسان خائفًا من أمر كهذا، من الإذلال وسط الملأ، وهذا الخوف يصبح، بدوره، آفة تفتك به. فحالة القلق مثل حالة النّبتة التي تترقّب التّخصيب لطرح البذار. أيّ سياق مؤاتٍ يلقّحها، ومع أيّ ردّ فعل مقابل، تُطرح بذرة. عند استخدام كلمة قد تستثير ردّ فعل غير سليم، وبحضور النّاس، قد يفقد الرّجل تماسكه وقد ترتعد أوصاله. هكذا، يقدِم الرّجل، بحكم حالته الذّهنية الهشّة، على فعل أشياء تُدهور وضعه وتُبعده عن طريق الخلاص. إنّه يُعاقب من تلقاء نفسه، كما لو كان عاكفًا بلا قصد على جلد ذاته. رأيت هذا مرّات ومرّات.

استولت عليه تمامًا حالة القلق هذه. كان مستغرقًا في التّفكير، حتّى أنّ وقع قدمَي ندالي أفزعه. تناول كأس الماء وأفرغه في جوفه

دفعة واحدة. قالت ندالي: «أوكيه أُبِم، دعنا نخرج الآن. سينادون علينا قريبًا».

علا صوت أقدام في غرفة الجّلوس وتناهى إلى سمعهما صوت أمّها مناديًا: «ندالي، يا ندالي».

هبط قلبه. شعرتُ بثقل اللّحظة وضرورة القيام بعمل ما، فقدحت في ذهنه أنّ عليه ألّا يخاف. «ابذل كافّة ما في وسعك للصّمود أمام هؤلاء النّاس». قابل ذلك بضرب الأرض، وقال الصّوت في رأسه: «لن أخاف».

أثناء انشغالي في التّواصل مع مُضيفي، ردّت ندالي على أمّها: «ما، ما، مامي! سآتي في الحال».

فردّت الأمّ بصوت كان بالكاد مسموعًا بسبب طغيان صوت «أُسُفيا» الملعلع من المكبّرات خارج البيت.

قالت ندالي وقد أمسكت بيده: «هيّا بنا، جاء دورنا للجّلوس إلى طاولة الشّرف».

أراد أن يتكلّم، لكنّ الكلام لم يسعفه إلّا بنطق «أوه» مكتومة. كما لو أنّ شيئًا ما ساقه فوق عجلات إلى هناك، وجد نفسه في غرفة الجّلوس وجهًا لوجه أمام الزّعيم «أُبيالور»، الذي كان في حلّة ملوكيّة فخمة، ثوبِ «إزياغو» أحمر ضافٍ، وفي يده ناب من العاج. فوق قلنسوته الحمراء ريشتا حدأة، مثبّتتين في جانبي القلنسوة، على نهج الآباء الأوّلين في اللّباس. إذ كانوا يؤمنون بأنّ الطّائر رمز للحياة، وأنّ الرّجل حين يحرز النّجاح في هذا العالم، فإنّه يظفر بالرّيش، ويصبح، وفق منطوق الأمثال، طائرًا. زوجته التي كانت تتقدّم بمشية عسكريّة إلى جنبه، ارتدت حلّة مشابهة وطوّقت جيدها بالخرز، مثل الأمّهات العظيمات تمامًا. كانت تحمل مروحة في يدها، والأساور حول معصمها لا تُعَدّ ولا تُحصى.

حين أقبل هو ونداليي على والديها، حيّاهما بالانحناء، ذلك أنّ نداليي ثنت ركبتها وهبطت قليلًا احترامًا لهما. «تشوكو»، بعد كلّ ما سيحصل لاحقًا، سيتذكّر مُضيفي دائمًا كيف أنّ والديها لم تظهر عليهما أيّ إمارة من إمارات الامتعاض لدى رؤيته في تلك اللّحظة.

مُضيفي، وهو في حالة داخليّة قصوى من البلبلة والتّشوّش، التحم فيما كان موكبًا، متقدّمًا بخطى بطيئة صوب باب البيت الرئيسيّ، كمن يُجَرّ بحبال خفيّة. مشى جنبًا إلى جنب الرّجل القادم من ألمانيا، بلد من بلدان البيض، وزوجته البيضاء، في ثيابها المماثلة لبنات الأمّهات العظيمات. كان إلى جنبهم عمّ نداليي، الطبيب المشهور الذي خاط جراح الأطراف المبتورة خلال حرب «بيافرا»، يسير ملوّحًا بصولجان في رأسه تمثال فيل صغير. في الخارج، كان «أُسُفيا» يصرخ في الميكروفون، يلعلع صوته عبر السّمّاعات قائلًا: «ها هم مقبلون، إنّهم مقبلون الآن، صاحب الحفل وعائلته!». سار مُضيفي معهم لاهثًا، مجرجرًا جسده وكأنّه جِرابُ قيح يدبّ على قدمين، لا يبقيه على قيد الحياة إلّا يد نداليي الممسكة بيده، إلى أن عبروا المنصّة وسط تهليل وتصفيق الحضور. رقص معهم بخفّة، رغم اقتراب تْشُكا منه، بوجه ممتلئ بالاحتقار، بين الفينة والأخرى. بوتيرة متصاعدة، تفاقم خوفه، وعزف عن مواصلة الرّقص. لذا، حال بدء أفراد الموكب في احتلال الصفّ الأوّل حول طاولة الشّرف، سحب يده من يد نداليي ثمّ همس في أذنها قائلًا: «لا، لا يمكنني، لا أستطيع». تشبّثت به، لكن لمّا ألحّ «أُسُفيا» في المناداة عليها، تركته وجلست في الصفّ الأوّل مع أفراد عائلتها وسائر ضيوف الشّرف. هرع صوب أوّل مقعد فارغ من خلفهم وارتمى عليه.

«إيبونو»، الرّجل المُهان، هو رجل يشعر بأنّ رجلًا آخر أقلّ شأنًا منه انتقص من ذاته. مثل هذا الرّجل يصيب، بضربة حظّ، أو بجدّ واجتهاد،

أو بقدرة تفاوضيّة فذّة من قرينه الحامي، يصيب ثروة عظيمة أو جاهًا. الآن، بعد أن يقارن ثروته أو نفوذه بثروة أو نفوذ الآخرين، يرى أنّ أيّ رفع للأيدي من قبل من هم دونه ثروة أو نفوذًا وكأنّه إهانة تستوجب الردّ. فأن يتحدّاه رجل دونه في الثروة أمر يخلّ بنقطة التّوازن في عقله ويخرجه عن طوعه. يشعر بأنّ عليه أن يصحّح هذا الوضع على الفور! عليه أن يوجّه ضربة قاصمة لمن كان وراء هذا الخلل. يجب أن يكون هذا ردّ فعله. رغم أنّ مثل هؤلاء الرّجال كانوا قلّة في جيل الآباء، لخوفهم من غضب «آلا» على الأغلب، إلّا أنّي رأيت أمثالهم بين جيل الأبناء مرّات كثيرة. كنت قد لاحظت إمارة هذه الحالة الذّهنيّة على تْشُكا. لذا، لم أُدهش حين أتى أحد المصوّرين إلى مُضيفي، فور جلوسه، وأسرّ له في أذنه بالقول: «أيّها الأخ، أوغا تْشُكا يقول أنا يجب أن أحملك على أن تتبعني».

قبل أن يتمكّن مُضيفي من استيعاب ما قيل له، كان الرّجل قد مشى مبتعدًا كما لو أنّ امتثاله لما قيل له أمر مفروغ منه. وهذا في ذاته لسع ظهره بسوط الخوف. إن كان الرّسول واثقًا كل هذه الثّقة من امتثاله للأمر الذي حمله له، فما بالك بجبروت سيّده؟ نهض ولحق بالرّجل على عجل، ظانًّا أنّ الجميع، ولا ريب، لاحظ بأنّه الرّجل الوحيد الذي لا يليق به الجّلوس إلى طاولة الشّرف، وأنه سيدفع الآن ثمن هذا التّطاول. لف الرّجل حول البيت، مارًّا بجمع من النّساء عاكفات على طهو يخنة اللّحم وقدر عظيم من الأرزّ. ثمّ تجاوزا بسرعة رجالًا غارقين في العرق يعملون على إنزال صناديق الشراب من باص صغير. ثمّ عبرا بوّابة صغيرة، كان إلى جنبها كوخ حراسة. استدار الرّجل ومال صوب نقطة الحراسة ثمّ قال: «ادخل هنا، أيّها الأخ».

في مثل هذا الموقف، أتمنّى دائمًا لو كان القرين الحامي يمتلك مزيدًا من القوّة، وبمقدوره الدّفاع عن مُضيفه بوسائل خارقة ما. في

مثل هذا الموقف، أتمنّى، أيضًا، لو كان مُضيفي ضليعًا بطرق «أغبارا وإِفا»، مثل العرّاف الذي كان مُضيفي قبل ثلاثمئة عام ونيّف. كانت قدرات ذلك الرّجل، إِسُرُونيه بن نْنوبي، قد بلغت ذروة القدرات البشريّة الخارقة. كان رجلًا قويًّا، فذًّا في فنون العرافة، حتّى عدّ «أُكالا مُمادو»، «أُكالا مْمُو». كان إِسُرُونيه قادرًا على تجريد نفسه من شحمه ولحمه ليصبح كينونة نجميّة متحرّرة من الجّسد المادّيّ. رأيته مرّتين يستحضر «إِكِلي» الغامض ويصعد إلى المستوى النّجميّ[1] وبهذا كان قادرًا على الذّهاب بلمح البصر إلى مكان يتطلّب الوصول إليه يومين سيرًا على الأقدام أو يومًا بالسّيّارة. لكن مُضيفي الرّاهن، مثل بقيّة أبناء جيله، بلا حول ولا طول، ضعيفًا مثل ديك وقع في أسر عين صقر جارح. لم يبدر منه شيء سوى الدّخول إلى كوخ الحراسة مع الرّجل الغامض الذي بلّغه التّعليمات.

كان في الدّاخل رجل آخر، بنيته متينة مثل المصارع، يقف وفوق وجهه تكشيرة رهيبة. تدلّت من فوق هامة الرّجل بلوزة زرقاء بلا أكمام، مزيّنة بصورة انفجار نافر، شرره المتطاير لطّخ البلوزة مثل بقع الدّهان الملوّن. قال ذو العضلات المفتولة، مستخدمًا النّسخة الرّكيكة للسان الرّجل الأبيض: «هؤلاء الرّجل التي يشاغب في حفلة الأوغا يكون هذا؟».

فأجابه المصوّر الواقف عند الباب: «هؤلاء هو، لكن أوغا يقول يجب نحن لا نلمس هو. كلّف هو فقط بعمل ما واجعل هو يفعله».

ردّ الرّجل الضّخم قائلًا: «مفهوم».

ثمّ أشار الرّجل الضّخم إلى قميص أزرق وسروال، الزّيّ الذي كان مُضيفي قد رآه على البوّاب، وقال: «ارتدِ هذا».

---

(1) وفق الاعتقادات القديمة للإيبو فإنّ الكون مؤلّف من أكوان عديدة أو عوالم متوازية والمستوى النّجميّ هو المستوى أو العالم الأقرب إلى العالم المادّيّ.

قال مُضيفي وقلبه على أهبة الانفجار من شدّة تسارع نبضه: «أنا؟».

فقال الرّجل الضّخم: «نعم، هو، هل يرى هو أحد آخر هنا؟ اسمع، إر، نْوكِم، لا وقت لأسئلة، أوه. بِكو، ارتدِ ذلك الشّيء كي نتمكّن هم من الذّهاب».

«إجانغو إجانغو»، في مثل هذه المواقف، يفشل ذهن مُضيفي دومًا في منحه ردًّا مناسبًا على الأسئلة. هل ينبغي له أن يجادل هذا الرّجل؟ قطعًا لا، إلّا إن أراد أن ينتهي من المحاجّة برأس مشجوج. أن يهرب؟ قطعًا لا. لا يمكن أن يبزّ هذا الرّجل في العدو. حتى إن كان قادرًا على ذلك، فإنّه لو هرب، سيواجه احتمال الرّجوع إلى الحفل ونيل مزيد من الإهانة. كان أفضل تصرّف ممكن هو الاستسلام لأوامر هذا الشّخص الغريب، الذي، من دون تحذير مسبق، نصَّب نفسه سيّدًا عليه. هكذا خلع ثوبه وسرواله الجّديد بخضوع واستسلام وارتدى زيّ بوّاب.

قال الرّجل ذو العضلات المفتولة برضى: «اتبعني».

لكنّ ما قصده كان: «سرْ أمامي». السّوط الذي حمله الرّجل معه حين ذهبا، ما الغرض منه؟ هل من الممكن أن يلسع ظهره في أيّ لحظة؟ كان خوفه من هذا الاحتمال طاغيًا. سار هو والرّجل على طول الطّريق الذي قطعه مع المصوِّر سابقًا، لكنّه كان الآن في حلّة مختلفة، جُرّد من حلّة علية القوم، وأُلبس ثياب أدنى الورى، أُحيل إلى مقامه الحقيقيّ. عبارة «إلى حيث تنتمي» طنّت في رأسه، حتّى خال في تلك اللّحظة، أنّ أحدًا ما همس بها في أذنه. أثناء مرورهما، رأى الطّعام قد سُكب في أكياس بلاستيكيّة، والباص الصّغير يسير مبتعدًا. سمع صوت والد ندالي، واضحًا من مكبّرات الصّوت، لدى مرورهما خلف السّرادق، إلى أن وصلا البوّابة. قال ذو العضلات المفتولة، مشيرًا بسوطه إلى البوّابة: «ساعد البوّاب، هذا مهمّتك».

«أَغوجِغبه»، هناك ستعثر عليه ندالي لاحقًا، غارقًا في العرق،

ومنهمكًا في تنظيم مرور سيل العربات الدّاخلة والخارجة من المنزل، والبحث عن مواضع لركن العربات، وتسوية الخلافات، والمساعدة في تنزيل وإيصال بعض ما جلبه الضّيوف من الهدايا إلى البيت (شوال أرزّ، درنات «يام»، صناديق نبيذ فاخر، جهاز تلفاز في صندوق...)، وفي إحدى المرّات، لمّا انقطعت الأشرطة المربوطة حول تمثال الأسد، قام مع زميل له بتزيين التّمثال بأشرطة جديدة.

لمّا وقع بصرها عليه، لم يكن لديه أيّ كلمات يقابلها بها، فوضع كهذا قمين باجتثاث الكلام من فم الرّجل، وتركه فارغًا أجوف. لذا، لم يتمكّن حتّى من الردّ على أسئلتها: «من الذي فعل هذا بك؟ أين ثيابك؟ أين... لماذا؟». بل قال ببساطة، بصوت بدا وكأنّه هرم خلال تلك المدّة التي قضاها في الخدمة لدى البوّابة: «أرجوكِ، خذيني إلى البيت، أتوسّل إليك باسم الربّ العظيم».

كان الحفل ما زال في أوجه، و«أوليفر دي كوك» يدندن بأصوات مبهمة، تحاكي دبيب جيش زاحف من النّمل الأبيض فوق حطب متيبّس، والجّمهور يصرخ ببله مثل قطيع من الغنم. كلّ هذا، كلّهم جميعًا طاروا بعيدًا، لدى اندفاع باصه بجنون من البوّابة. ذكريات عشوائيّة تمامًا، لحظات من الماضي، هبّت على ذهنه، مثل زوبعة أثارتها ريح متآمرة ما، وحلّت محلّها في ذهنه. لم يحفل بندالي التي بكت طول الطّريق أثناء سيره ببطء عبر شوارع أوماهيا المزدحمة. لكن حتى وهو في أعماق صمته المطبق، كان في قرارة نفسه، مثلما كان بمقدوري أن أرى، متيقّنًا من أنّها كانت، مثله، مثخنة بالجّراح.

«تشوكو»، ما صُنع به كان مؤلمًا للغاية، حتّى أنّه لم يفلح في طرد ولو تفصيل واحد من تفاصيله من ذهنه. لم تبارحه ذكريات ما حصل، بل ظلّت مستحوذة عليه بلا فكاك، مثل سرب من الحشرات فوق قطعة من قصب السكّر، متسلّلة إلى كافّة ثنايا ذهنه، فيمتلئ برائحتها السّوداويّة.

انتصف اللّيل الآن، وتمدّد إلى جنبها في السّرير. على ضوء قنديل الكاز الخافت، حدّق إلى وجهها، ورغم ستار النّوم، إلّا أنّه استطاع تمييز إمارات الغضب والرّثاء فوقه، إمارات كان من الصعب في العادة العثور عليها فوق وجهها. كان والده قد قال له ذات مرّة، إنّ سيماء الرّجل الفعليّة عبر لحظة معينة، هي ما يتبقى فوق وجهه وهو غائب عن الوعي.

في وقت سابق، أثناء انشغاله خلال الحفل في العمل عند البوّابة، فكّر في كيف يمكن له أن يردّ على ما صنعه شقيقها به. لكنّه أدرك بأنّ لا قدرة له على فعل ذلك. ما الذي كان بمقدوره أن يفعله؟ أن يضربه؟ كيف يمكن أن يضرب الرّجل شقيق امرأة يعشقها؟ تبيّن له، ثانية، أنّ الأمور لا يمكن أن تسير إلّا في اتّجاه واحد أينما قابل تْشُكا. من الممكن له أن يُضرَبَ فقط؛ ومن غير الممكن له أن يَضرِب. مثل حدّاد جبان، صنع أهل ندالي سلاحًا من رغبته، من قلبه، وأمام هذا السّلاح، لم تكن لديه قدرة على النّزال.

رغم ذلك، «إيبونو»، كان يعلم بأنّ الحلّ الوحيد الممكن، كان يقضي بوجوب تركها وإنهاء الموضوع برمّته. وكان هذا الحلّ، جاثمًا وسط حجرة أفكاره، محدّقًا إليه بوجهه القاتم وعينيه القاسيتين. لكنّه ظلّ يتفادى النّظر إليه، وكأنّه كان غير موجود هناك. وراح، عوض ذلك، يمعن النّظر في خوفه المتذبذب الذي عاده الآن، الخوف من أنّ ندالي سيصيبها الإحباط، وستتركه في نهاية المطاف. ندالي نفسها أثارت هذا التّساؤل قبيل أن تغفو. كانت قد قالت فجأة: «أنا خائفة يا ننسو».

فسألها: «ممّ يا مامي؟».

أجابت: «أنا خائفة من أن ينجحوا في حملك على تركي في نهاية المطاف. هل ستفعل ذلك يا ننسو؟».

ردّ بحدّة، وأعلى بكثير ممّا توخّاه: «لا، لن أتركك. محال».

قالت: «آمل ألّا تتركني بسببهم، لأنّي لن أسمح لأحد أن يختار لي الرّجل الذي سأتزوّجه».

حينذاك لم يردّ، لكنّه استحضر، عوض ذلك، تلك اللّحظة، أثناء عمله على تنظيم المرور لدى البوّابة، لمّا رآه ذلك الرّجل، الذي جلس إلى جنبه في السّرادق، أثناء مغادرته وكيف أصابه الذّهول. أنزل الرّجل زجاج نافذة سيّارته، طراز مرسيدس بينز، ومال برأسه قائلًا: «ألست أنت من كان جالسًا بقربي هناك؟».

لم يعثر على كلمات مناسبة للرّدّ. فاستأنف الرّجل القول: «أنت... من أنت؟ بوّاب؟».

هزّ رأسه، لكنّ الرّجل ضحك وقال شيئًا لم يتمكّن من التقاطه، ثمّ رفع زجاج نافذته ثانية وذهب.

سألته ندالي برهبة: «هل أنت متأكّد يا ننسو؟».

ردّ قائلًا: «هو كذلك يا مامي. لن يفلحوا في ذلك. لن يتمكّنوا من ذلك».

تسارع نبض قلبه من شدّة العنف الذي نطق به كلماته تلك. ما كان يدري، «إيبونو»، أنّ للقدَر لغة غريبة لا طاقة للرّجل وقرينه الحامي على فهمها أبدًا. رفع عينيه صوبها، فرأى دمعة منسابة فوق وجنتها. فأكّد على قوله مرّة ثانية: «ليس هناك من أحد قادر على حملي على تركِكِ. لا أحد».

8

المعين

«أُوزه بروَّه»، أقف الآن مقدِّمًا شهادتي لك، وأنا أعلم تمامًا بأنّك تعرف جبلّة البشر، خلقك، أكثر من قدرتهم على معرفة أنفسهم. لذا، أنت تعرف بأنّ الخزي البشريّ ذو طبع حربائيّ متلوّن. فهو يظهر، في البداية، متخفّيًا مستترًا، وكأنّه روح خيّرة، تسمح للمخزيّ بقدر من التّنفيس المؤقّت، طالما أنّه بعيد عن محضر من تعرّض أمامهم أو على يدهم للخزي، أولئك الذين لا بدّ له من مداراة وجهه بعيدًا عنهم. يستطيع الرّجل المخزيّ أن يتناسى خزيه، إلى أن يصادف المطّلعين على سرّه. في هذه الحالة فقط، يُجرّد الخزي نفسه من ذلك الخفاء المريب، ويستعرض حقيقته بكافّة ألوانها: كروح خبيثة. أجل، كان في استطاعة مُضيفي إخفاء سرّه عن الجميع، عن جميع أهل «أوماهيا»، بل عن جميع العالم، وبفعل ذلك، فإنّ كافّة ما لحق به يرقى إلى لا شيء. يستطيع الشّحاذ أن يتخفّى ويدّعي بأنّه ملك في مكان ما، طالما أنّ هويّته الحقيقيّة بقيت مجهولة فيه، وسيُستقبل هناك ويعامَل بهذه الصّفة. لكنّ معضلة مُضيفي كانت تتمثّل في أنّ ندالي كانت شاهدة على ما تعرّض له من خزي وإهانة. رأته في زيّ بوّاب، غارقًا في العرق، ومنهمكًا في تنظيم مرور العربات. هذه كانت الضّربة التي لم يستطع أن يتعافى منها. رجل على شاكلته، يعرف نقاط ضعفه، ويعي حدود قدراته، من السّهل أن ينكسر. فالكرامة تنصب جدارًا حول ذات الرّجل، أمّا الخزي، فيخترق هذا الجّدار ويطعن الذّات في الصّميم.

مع ذلك، عشت مع بني البشر ردحًا كافيًا من الزّمن لأعرف أنّ الرّجل حين يبدأ بالانكسار، فإنّه يسارع إلى فعل شيء لإنقاذ نفسه. هذا هو سبب قول الأسلاف الصّالحين، في حكَمِهم القديمة، إنّ من الأفضل البحث في وضح النّهار عن عنزة سوداء تائهة، قبل أن يسدل اللّيل أستاره، ويصبح العثور عليها صعبًا. لهذا، حتّى قبل أن يقسم لندالي بأنّه لن يتركها أبدًا، كان قد بدأ التّفكير في حلّ ما. لكنّه لم يتمكّن من الاهتداء إلى أيّ حلّ محكم، وظلّ يتخبّط مثل دودة جريحة في وحول اليأس لأيّام. في اليوم الرّابع من الأسبوع اللّاحق، اتّصل بعمّه ملتمسًا النّصح منه، لكنّ خطّ الهاتف كان رديئًا للغاية، ولم يتمكّن مُضيفي من سماع صوت عمّه بوضوح. بعد بذل مجهود عظيم، فهم، ما بين تأتأة الرّجل الكبير ورداءة الخطّ، أنّ من الأفضل له أن يترك ندالي. كرّر عمّه على مسامعه القول: «أنت ما تزال شا... شا... شابًا. فـ... فـ... في السّادسة والعشرين فقط، إر. اتـ... اتـ... اترك هذه المرأة في الحال. هنـ... هنـ... هناك كثير من النّساء. كـ... كثير كثير. هل... هل تفهمني؟ لا... لا يمكنك أن تقنعهم بـ... بـ... بأن يقـ... يقـ... يقبلوا بك».

«إجانغو إجانغو»، كنت سعيدًا بنصيحة عمّه هذه. إذ فكّرت بالطّريقة نفسها إثر المعاملة التي نالها في بيت عائلة ندالي. يقول الآباء الحكماء دومًا: «إنّ المرء حين يُهان، فإنّ الإهانة تلحق بقرينه الحامي كذلك». أنا، أيضًا، تعرّضت للإهانة على يد عائلة ندالي. لكن، مع ذلك، كنت أعلم بأنّ لا علاقة لها بما حصل، وكنت آمل أنّها ستعثر على طريقة لحلّ الأزمة. لهذا، لم أعمد إلى التّوكيد على موقف عمّه. خطر لي، أيضًا، أنّ مُضيفي كان من بين من أنعم عليهم في الأرض بهبة الحظ، وسيظفر دائمًا بأيّ شيء يريده. قبل ميلاده، ولمّا كان ما زال في «بيغوِه» على هيئة «أُنيه أُوى»، قمنا بالرّحلة التّقليديّة إلى حديقة «تشيه أُكيكه»

العظيمة. قطعنا الدّروب اللّامعة بين الأشجار المنيرة التي علاها ستار شفيف من الغمام الزّمرّديّ المنسّق في تشكيلات أخّاذة. بين الغمام، طارت طيور «بنمو» الصّفراء، صاعدة من نفق «إزِنمو» المفتوح، بسككه المتعرّجة الضّخمة. كانت باقات العشب تتوّج جانبي الطريق الصّاعد نحو بوّابة الخروج إلى «أُوى». هناك كانت الحديقة العظيمة التي يذهب إليها عادة كافّة «أنيه أُوى» للبحث عن هبة أُعيدت إلى هناك من أشخاص عاثري الحظّ، ماتوا أثناء الوضع أو الرّضاعة أو الإجهاض. رغم أنّنا حين وصلنا وجدنا الحديقة مكتظّة، بمئات القرناء الحامين ومُضيفيهم المحتمَلين العاكفين على التّنقيب بين النّباتات والأيكة الملتفّة، إلّا أنّ مُضيفي عثر على عظمة صغيرة. تقاطر عدد من الأرواح في الحال وكشفوا عن أنّها من عظام وحش يعيش في الأصل في الغابة العظيمة في «بنمو»، حيث عاش «أمانديوها» نفسه على هيئة كبش أبيض. أخبرونا أنّ معنى العثور على العظمة هو أنّ مُضيفي سيظفر دومًا بما يريده إن ثابر لنيل مراده. علّلوا ذلك بأنّ الوحش الذي عثر مُضيفي على عظمته، حيوان يعيش حصريًّا في «بغِويه»، لا يلقى مخمصة أو جوعًا ولا يعدم قوت يومه أبدًا طالما أنّه يعيش في الغابة.

«غاغان أَوغو»، بمقدوري أن أضرب أمثلة عديدة على أثر هبة الحظّ هذه في حياته، لكنّي لا أودّ الاستغراق في استطراد مخلّ بعيدًا عن صلب شهادتي. حينها، كنت واثقًا من أنّ العظمة البيضاء ستجلب له عونًا ما. لهذا كنت سعيدًا حين قرّر أنّ من الأفضل أن يحاول كسب تأييد عائلتها. ولأنّه كان قلقًا من أنّ مكوثها بعيدًا عن أهلها، بسبب ما فعلوه به، لن يؤدّي إلى شيء سوى مفاقمة الأزمة. توسّل إليها أن تعود إليهم. ردّت على توسّلاته قائلة: «إنّك لا تستوعب شيئًا يا ننسو. أتظنّ أنّ الأمر يقتصر على عدم إعجابهم بك؟ أوكيه، هل تستطيع أن تفسّر لي لماذا؟ هل تستطيع أن تذكر لي سببًا واحدًا وراء عدم إعجابهم

بك؟ هل تستطيع أن تقول لي لماذا عاملوك بتلك الطّريقة يوم الأحد الماضي؟ أم أنّك نسيت ما فعلوه بك؟ لم تمرّ سوى ستّة أيّام. هل نسيت يا ننسو؟».

لم ينطق بشيء فواصلت القول: «لماذا لا تردّ؟ هلّا قلت لي السّبب؟».

ردّ: «لأنّني فقير».

فقالت: «أجل، لكن ليس هذا هو السّبب الوحيد. بمقدور دادي أن يعطيك مالًا. بمقدوره أن يفتح لك مشروعًا تجاريًّا، أو أن يساعدك في تنمية وتطوير مشروع الدّواجن. لا، السّبب لا يقتصر على ذلك».

لم يكن قد فكّر في تلك الاحتمالات، يا «إيبونو». لذا، رفع ناظريه إليها وقد تجمّد من كلماتها. تابعت القول: «ليس لأنّك فقير. لا. بل لأنّك بلا درجة علمية مرموقة. أرأيت يا ننسو، أرأيت؟ إنّ رؤوسهم الكبيرة ترفض استيعاب أنّ بعض الأشخاص يتعرّض أحيانًا لليتم. ونيجيريا بلد قاس! كم عدد من يستطيع الالتحاق بالجّامعة من بين أولئك الذين فقدوا كلا الوالدَين؟ بل الالتحاق بالمدارس العامّة؟ أين ستعثر على نقود للرّشوة حتّى لو تفوّقت وبلغ مجموعك ثلاثمئة؟ إر، قل لي، كيف ستسدّد حتّى أقساط المدرسة، وليس الجامعة؟».

حملق فيها وقد أعترى لسانه الخدر. فتابعت: «رغم ذلك، هم لا يكفّون عن ترديد القول: 'ندالي، إنّك ستتزوّجين من رجل أمّيٍّ'؛ 'ندالي، إنّك تحرجيننا'؛ 'ندالي، أرجوكِ، أتمنّى ألّا يكون في بالك الزّواج من ذلك الحثالة'. أمر مزرٍ للغاية. ما يفعلونه بك مزرٍ للغاية».

بعد ذلك، حين انسحبت إلى غرفة نومه القديمة لأجل الدّراسة، جلس، منطويًا على نفسه مثل ورقة «يام كوكو» مبتلّة، وقلقًا من ذكرها لأمور كثيرة لم يفكّر فيها من قبل. لماذا لم يفكّر في أنّ العودة إلى الدّراسة قد تكون أمرًا ممكنًا بالنّسبة له، وأنّ هذه الفكرة يمكن أن تكون

هي الحلّ؟ جلد ذاته، «تشوكو»، على ما لم يكن قد فكّر فيه من قبل. لم يخطر له من قبل، أنّه نشأ وترعرع في ظلّ البلاء، وأنّه أصبح مستكينًا له. وأنّ هذا دفعه إلى عيش حياة لم تكن تشبه حياة معظم رفاقه، حياة قرويّة انطوائيّة، تزرع في نفس صاحبها ميلًا طبيعيًّا نحو الصّبر على البلاء، وعدم التطلّع إلى أيّ شيء، وعدم الإقدام على أيّ خطوة إلّا إن حسب لها ألف حساب. من دون أن ينخز بمهماز، فإنّه لا يُقدم على فعل أيّ شيء. إنجازاته، إن كان هناك أيّ منها، كانت جرّاء انبعاث داخليّ خامل، وأحلامه أُصيبت بالكساح منذ زمن بعيد. هذا هو سبب اضطرار عمّه إلى إثارة الرّغبة فيه تجاه النّساء، ووراء إلهام ندالي له الآن بالعودة إلى الدّراسة. بدأ في رؤية هذا الخمول كعلامة على الضّعف. لاحقًا، بعد ذهابها للنّوم، جلس وحيدًا في غرفة الجّلوس، مستغرقًا في التّفكير. بإمكانه أن يسجّل في جامعة ولاية «أبيا» وأن يحصل على درجة جامعيّة. أو لعلّ بإمكانه أن يسجّل في برنامج دراسيّ بدوام جزئيّ. الآن، وبعد أن اكتشف بأنّ حبّه للطّيور ابتلع حلمه الأوّل بالدّراسة في الجّامعة، لماذا لا يسجّل في الجّامعة ويتخصّص في الزّراعة.

انهالت هذه الأفكار عليه بقوّة حتّى فاضت نفسه بالفرح والحبور. كان معناها أنّ ثمّة سبيلًا أمامه للزّواج من ندالي. عبر المطبخ لجلب بعض الماء من برميل أزرق، فتبخّرت تلك الأفكار من رأسه حال تذكّر بأنّ مياه الشرب على وشك النّفاد. كان ذلك البرميل هو آخر براميله الثّلاثة التي كان قد تبقّى فيها شيء من الماء. فالعائلة التي كانت تملك صهريجين للماء وتقوم ببيعه في الشّوارع رحلت منذ أسبوعين، فاضطرّ كثير من أهل الشّارع إمّا إلى قيادة سيّاراتهم لشراء الماء من أماكن أخرى، أو شرب مياه المطر، التي كانوا يجمعونها في قدور وأحواض لدى سقوط المطر. كان مذاق الماء الذي غرفه بيده رديئًا، لكنّه شرب كأسًا ثانية منه.

الآن، في غرفة الجّلوس، ذكّرته فكرة التخلّي عن ندالي بجدّته، نْنه آغباسو، كيف كانت تجلس على الكرسي القديم في مكانه الدائم آخر الغرفة، حيث كان الآن جهاز فيديو وأشرطة كاسيت مرصوصة إلى الحائط نهبًا للغبار، وتقصّ عليه الحكايات. تخيّل أنّه قادر على رؤيتها الآن، تجلس وهي تزدرد ريقها وتطرف بعينيها أثناء الحديث، وكأنّ الكلمات أقراص مرّة تبتلعها أثناء الكلام. كانت هذه العادة قد أصابتها في الكبر، إبّان الوقت الوحيد الذي عرفها خلاله. بعد وقوعها وانكسار وركها وعدم قدرتها على مواصلة الفلاحة أو حتّى على المشي بلا عكاز، جاءت من القرية للعيش معهم. خلال تلك الفترة، قصّت عليه الحكاية نفسها مرارًا وتكرارًا. رغم ذلك، كان كلّما جلس قربها تقول له: «هل حدّثتك عن أسلافك العظماء أُمَنكارا ونْكبوتو؟». وكان بدوره يردّ عليها إمّا بأجل أو لا. لكن حتّى حين كان يردّ بأجل، كانت تتنهّد فقط، ثمّ تطرف عينيها، وتأخذ في سرد كيف رفض أُمَنكارا محاولة رجل أبيض الاستيلاء على زوجته، وكيف شنقه مفوّض الولاية وسط ميدان القرية. («تشوكو»، كنتُ شاهدًا على هذه الواقعة القاسية وما كان لها من أثر في نفوس عامّة النّاس في ذلك الوقت).

لاح له الآن أنّ جدّته ربّما استخدمت تلك الحكاية كي تقول له، مرارًا وتكرارًا، إنّ عليه ألّا يستسلم في مواجهة أيّ ظرف. ذهب تفكيره الآن إلى أنّ بإمكانه اختيار الانحناء في وجه القمع وأن يترك ندالي. لكنّه انتفض صائحًا: «لا». ارتعدت فرائصه من مجرّد اقتراب تلك الفكرة من تلافيف ذهنه. كان قد ترك المدرسة إثر سقوطه في امتحانات الشّهادة الثّانويّة، لم ينجح إلّا في ثلاث مواد غير أساسيّة، التّاريخ والتّربية الدّينية المسيحيّة والزّراعة. سقط في الحساب، وسقط في اللّغة الإنجليزيّة. أمّا امتحانات القبول في الجّامعة فكانت أسوأ. قدّم تلك الامتحانات في الوقت الذي ساءت فيه حالة والده،

واضطراره إلى تحمّل مسؤولية مشروع الدّواجن ومطالبه المتزايدة بمفرده. «أَغوجِغبه»، أنت تعلم أنّ سائر ما أتيت على وصفه هنا هو علوم حضارة الرّجل الأبيض. فمثل سائر أبناء جيله، لم يكن يعرف شيئًا عن علوم قومه، الإيبو، وحضارة آبائه الجّهابذة.

لذا، بعد تلك المحاولات الفاشلة والرّسوب المتكرّر، قال لوالده إنّه لن يحاول مرّة أخرى. فبمقدوره أن يعيل نفسه وعائلة المستقبل من خلال مشروع الدّواجن والمزرعة الصّغيرة، وإن حالفه الحظّ، سيطوّر المشروع أكثر ويحوّله إلى شركة تجاريّة كبيرة. لكنّ والده أصرّ على عودته إلى المدرسة. كان يقول وقد زمّ شفتيه على نحو ما صار يفعله في باكورة أيّامه الأخيرة: «الحياة في نيجيريا ستصبح أصعب من يوم لآخر. عمّا قريب، حمَلة البكالوريوس لن تنفعهم شهادتهم كثيرًا، لأنّ الجميع سيحصل عليها. ماذا ستفعل وقتذاك إن كنت لا تملك حتّى درجة البكالوريوس؟ المزارعون، الأسكافيون، صيّادو الأسماك، النّجّارون... الجميع، أؤكّد لك بأنّ الجّميع سيحتاجون إليها. هذا ما ستصبح عليه نيجيريا، أؤكّد لك».

كانت مثل هذه الأحاديث، وتأكيدي المتلاحق عليها، عبر قدح أفكار تدعوه الى ضرورة الإنصات إلى والده، والتي كنت أردفها دومًا بالمثل القائل: «ما يبصره عجوز مقرفص، ليس بمقدور طفل أن يراه ولو كان فوق شجرة»، وراء دفعه إلى تقديم امتحانات الثّانويّة العامّة من دون الالتحاق بالمدرسة. درس بنفسه وداوم على حضور دروس إضافيّة في البناية في شارع «كامرون»، حيث كان أربعة شباب جامعيّين يدرِّسون دروسًا تحضيريّة للامتحانات. خلال أسابيع الامتحانات، تحوّل مركز الدّروس الإضافيّة إلى مركز للمعجزات. الواحد تلو الآخر، قبيل أيّام على موعد امتحانات المادّة المقرّرة، أخذ المعلّمون يأتون إلى الصّفوف بنسخ مسرّبة عن أسئلة الامتحانات. وبعد انتهاء

الامتحانات، وإعلان النّتائج، نجح في ستّ من المواد الثّمانية، بل حصل على علامة كاملة في الأحياء، أقلّ مادّة حظيت بالدّراسة منه. أحد الامتحانات، الاقتصاد، أُلغي ولم تُصحّح الأوراق التّابعة لمعظم مراكز ولاية «أبيا»، بسبب ما وصفته لجنة الامتحانات بـ«سوء تصرّف مهنيّ متفشٍّ على نطاق واسع». كان هذا صحيحًا، إذ إنّ نسخة من ورقة ذلك الامتحان، كانت في يده قبل ثلاثة أسابيع على موعد الامتحان، ولو صحّحت الأوراق وأعلنت النّتائج، لكان قد حصل، أيضًا، على علامة كاملة. كان سيكمل دراسته الجّامعيّة آنذاك، لو أنّهم لم يستيقظوا في ذلك الشّهر ذات صباح، ليكتشفوا بأنّ شقيقته اختفت، وهو ما أطاح بوالده في هوّة اكتئاب استنزف قواه. تبدّدت في الحال الطّمأنينة التي عادت إلى حياتهم بعد انتهاء أبيه من الحداد على زوجته لسنوات طويلة. عاد الحزن، مثل جحافل نمل قديمة، إلى الزّحف داخل أنفاق معهودة في تربة حياة أبيه الرّخوة، وبعد أشهر لاحقة، سقط ميّتًا. مع جثمان أبيه، قبر أيّ تفكير في الدّراسة.

«أُبا سيدي نلو»، بمرور الأيّام وندالي ممعنة في تحدّي والدَيها، ورفضها حتّى الحديث معهم، تنامى خوف مُضيفي. لكن، لأنّه كان يخشى من أنّه لو فتح فمه، فإنّه سيعكّر صفوَها، ظلّ صامتًا، مفضّلًا أن يجنّبها عناء ما كان يضطرم في رأسه. وبما أنّ الخوف لا يبرح مكانه إلّا إن طُرد منه طردًا، فإنّه لفّ نفسه حول أغصان قلب مُضيفي المرتجفة مثل ثعبان قديم. لكنّ لسان مُضيفي خانه حين رافقها إلى موقف الباص صباح ذهابها إلى لاغوس لأجل حضور مؤتمر. عندما كان الباص على وشك الانطلاق، عانقها ثمّ وضع جبينه فوق جبينها، وقال: «آمل ألّا أختفي قبل رجوعك يا مامي».

«ما الذي تعنيه يا أُبِم؟».

«أهلك، آمل ألّا يختطفوني قبل رجوعك».

«ما هذا الكلام؟ لماذا تفكّر بهذه الطّريقة؟ كيف شطح بك التّفكير إلى أمر كهذا، إيه؟ أو جيني دي؟ إنّهم ليسوا أبالسة».

غضبها ممّا ألمح إليه، أطاح به أرضًا. حمله على التّنقيب في أعماقه، والتّساؤل عمّا إن كان قد بالغ في تقدير الوضع، ذاهلًا من أنّ ليل الخوف الطّويل لم يكن سوى رقصة هياكل عظميّة حرّكها القلق في كواليس الصّفاء والطمأنينة. ردّ قائلًا: «كنت أمزح في الواقع».

«أوكيه، لكنّي لا أحبّ هذا النّوع من المزاح، إيه. إنّهم ليسوا أبالسة. لن يمدّ أحد يده عليك، أوه؟».

«وهو كذلك يا مامي».

حاول أن يتجنّب التّفكير في تلك الأمور التي حملته على الخوف. عوض ذلك، اقتلع الأعشاب الضّارّة من مزرعته الصّغيرة ونظف غرفته. ثمّ عالج ديكًا كان قد تسبّب في إصابة قدمه بجرح. عثر عليه مساء اليوم السّابق في الجّانب الآخر من الطّريق، بعد أن قفز عن سور الفناء المرتفع، ووقع وسط الدّغل، ثمّ مشى فوق ما ظنّ مُضيفي بأنّه ربّما زجاجة مكسورة. ذكّره ذلك بفرخ الإوزّ، كيف أطلق سراحه داخل البيت ذات مرّة، فوجد طريقه إلى الخارج وحطّ فوق السّور. لمّا ركض مُضيفي إلى الخارج بحثًا عنه، عثر عليه فوق السّور، متلفّتًا بهياج في كلّ الاتّجاهات. وقف وقلبه يطنّ في أذنيه، خوفًا من أن يطير الفرخ ولا يعود أبدًا، وأطلق عنان صوته بالتّوسّل والتّضرّع وسط بكاء محموم. كان الوقت صباحًا، ووالده منهمكًا في تنظيف أسنانه (لا بعود للمضغ، مثل الآباء الأوّلين، بل بفرشاة) لمّا سمع صراخ ابنه الملتاع. هرع الرّجل إلى الخارج والرّغوة البيضاء تنقط فوق لحيته وفرشاته في يده بحثًا عن ابنه. حدّق إلى أعلى السّور وإلى الصّبي ثمّ هزّ رأسه وقال: «يا بنيّ، ليس في وسعك فعل شيء. إنّه خائف. لو اقتربت منه، فإنّه سيهرب».

ساورتني أنا، خلال مراقبتي الوضع، مخاوف والده، وكنت قد قدحت أيضًا الفكرة نفسها في ذهنه. لذا، توقّف عن البكاء، وراح، بنبرة رقيقة هامسة، يكلّم فرخ الإوزّ قائلًا: «أرجوك، أرجوك، لا تتركني أبدًا، لا تتركني أبدًا، أنا أنقذتك، أنا صقّارُكَ».

عندئذ حصلت المعجزة- أو لعلّ الطّائر رأى شيئًا آخر خلف السّور، ربما كلب الجّيران- نفش الفرخ ريشه ثمّ قرفص ونشر جناحيه. ثمّ حطّ عبر تيّار هوائيّ صاعد في الفناء، وعاد إليه ثانية.

فور وضع الدّيك الجريح في القنّ وصل إلوتشوكو. بعث إلى إلوتشوكو برسالة نصّيّة صباح ذلك اليوم، فردّ صديقه بأنّ نَيْل درجة علميّة هو الحلّ الأمثل. قال إلوتشوكو: «لو أكملت دراستك، فسوف يقبلون بك لا محالة». ترجّل إلوتشوكو عن درّاجته النّاريّة، ووقف مع مُضيفي في مدخل البيت المطلّ على المزرعة. قصّ مُضيفي على صديقه ما جرى خلال الحفل، وكيف تعرّض للإهانة على يد أهل ندالي. لمّا انتهى من حديثه، هزّ إلوتشوكو رأسه وقال: «لعلّه خير يا أخي». نظر مضيفي إلى صديقه وهزّ رأسه موافقًا على كلامه. «إيبونو»، هذا التّعبير، السّائد بين أبناء الآباء العظماء، والمنطوق بلسان الرّجل الأبيض في الغالب، لطالما استغلق عليّ فهمه. ينتهي رجل من سرد تفاصيل أزمة تعصف بحياته على مسامع صديق يلتمس منه العزاء والسّلوى فيردّ الصّديق ببساطة: «لعلّه خير». ثمّ لا ينجلي هذا التّعبير إلّا عن الصّمت بينهما. فهو عبارة عجيبة، جامعة مانعة. أمّ مات طفلها للتوّ، حين تسأل عن حالها، تردّ ببساطة: «لعلّه خير». تولد هذه الـ«لعلّه خير» من جماع ما بين الخوف والفضول. وهي تعبّر عن حالة عارضة، فرغم علم المنكوب بأنّه يختبر أمرًا مريرًا، إلّا أنّه يأمل في أنّ الوضع سيجبر عمّا قريب. معظم النّاس في بلد أبناء الآباء هم دائمًا في هذه الحالة. هل تأمل في التّعافي من مرض؟ لعلّه خير. هل سُرق شيء

منك؟ لعلّه خير! وحالما يخرج الرّجل من حالة الـ«لعلّه خير» هذه، إلى طريق جديد، نحو وضع أكثر إرضاء، سرعان ما يجد نفسه مباشرة في أسر حالة أخرى من حالات الـ«لعلّه خير» تلك.

هزَّ إلوتشوكو رأسه ثانية، وكرّر العبارة. طبطب على كتف مُضيفي، ثمّ ناوله كيس كتب وقال: «إنّني في عجلة من أمري، نحن ذاهبون إلى «بورت كورت» للمشاركة في مظاهرة أمام مجلس الولاية».

قبل ذهاب إلوتشوكو، تبرَّم مُضيفي من أنّه لن يتمكّن من نيل درجة جامعيّة قبل خمس سنوات على الأقلّ، وهذا إن لم يكن هناك إضرابات، أمّا في ظلّها فإنّ مخطّطاته قد تتعطّل وربّما لن يتمكّن من التخرّج قبل سبع سنوات. ردّ إلوتشوكو، ممتطيًا درّاجته النّاريّة: «حال إي تبدأ تيري، ها غا هَن نا إدي جديا».

إلوتشوكو- الذي مرّ بتجربة الدّراسة لنيل درجة في الكيمياء، لكنّه لم يتمكّن من إكمالها في سنة التخرّج، ولم يكن شخصًا يحسن الأخذ والردّ في الحديث- أنهى الموضوع بجملة واحدة: «وإن لم توفّق في خطّتك، فدعك من هذه الفتاة. كما يقولون: ليس هناك أيّ شيء تراه العين، بمقدوره أن يحملها على ذرف الدّم بدل الدّموع».

بعد قليل من ذهاب صديقه، جاء المطر. أمطرت طوال الصّباح وحتّى المساء. خلال انهمار المطر في أوماهيا، بنفَس متواصل ومزاج متقلّب، تمدّد في غرفة الجّلوس، وانكبَّ على دراسة أحد الكتب التحضيريّة لامتحانات القبول الجّامعيّ التي جلبها له إلوتشوكو.

كان قد قضى وقتًا طويلًا الآن في القراءة تحت الضّوء الباهت الآتي عبر الستائر المفتوحة من سماء ملبّدة بالغيوم إلى أن بدأ جفناه بالارتخاء. كان نائمًا تقريبًا، مترنّحًا مثل ورقة تعبث بها الرّيح فوق العتبة بين النّوم واليقظة، حين سمع طرقًا فوق الباب. ظنّ في البداية أنّ المطر قرع سطح الباب، لكنّه سمع على الفور صوتًا مألوفًا قال بنبرة عنيفة: «هل ستفتح الباب، الآن؟».

ثمّ بدأ الطّرق مجدّدًا. قفز من الكنبة، وعبر النّوافذ، رأى تْشُكا ورجلَيْن، في معاطف طويلة، واقفَيْن في مدخل البيت.

«غاغان أوغو»، ما أحدثه منظر هؤلاء الرّجال في نفسه، لا يمكن وصفه إلّا بالتّنويم المغناطيسيّ. على مرّ كلّ السّنوات التي قضيتها معه، لم أرَ قطّ شيئًا مشابهًا أو قريبًا لما داهمه في تلك اللّحظة. بدا الأمر في غاية الغرابة، فقبل مدّة وجيزة، مزح مزحة أغرب من الخيال، لكنّ مزحته الآن، وفي وضح النّهار، أصبحت حقيقة، وها هو شقيقها على عتبة بيته مع رجلين مجرمَيْن! فتح الباب وقد تملّكه الرّعب. شرع في القول لدى دخول الرّجلين: «تْشُكا»...

فصرخ فيه أحد الرّجلين مقاطعًا: «اخرس».

كان هذا الرّجل هو صاحب العضلات المفتولة الذي اقتاده خلال الحفل للخدمة عند البوّابة. حمل الآن، أيضًا، السّوط نفسه الذي كان معه في المرّة السّابقة. تقهقر مُضيفي لدى تقدّم الرّجال ووقف خلف الكنبة الكبيرة، ثمّ قال: «لا يمكن أن أخرس. لا. لا يمكنني أن أخرس. هذا بيتي».

اندفع الرّجل الممسك بالسَّوْط إلى الأمام، لكن تشُكا رفع يده قائلًا: «لا! قلت لك من قبل، يُمنع مسّ أيّ أحد بأذى».

ردّ الرّجل قائلًا: «آسف سيّدي».

ثمّ انسحب ووقف خلف تْشُكا الذي مشى الآن إلى وسط الغرفة. راقب مُضيفي تْشُكا وقد خلع قلنسوة معطفه، نافضًا رأسه أثناء ذلك. ثمّ لفَّ حول نفسه متفحّصًا الغرفة، وبعدئذ جلس هو ومعطفه فوق الكنبة، والماء ما زال ينزّ منه. وقف الرّجلان جنب الكنبة، محدِّقَيْن إلى مُضيفي بعبوس.

قال تْشُكا بالنّبرة الهادئة التي تحدَّثَ بها من قبل، وبلسان الرّجل الأبيض: «جئت كي أطلب منك أن تترك أختي لتعود إلى البيت. نحن لا نتوخّى فتح معركة معك. لا، على الإطلاق. والداها قلقان عليها».

أطرق تْشُكا برأسه إلى الأرض وكأنّه في حالة من التّأمّل، وعبر لحظة الصّمت الطارئة، سمع مُضيفي صوت سقوط حبّات المطر من معطف تْشُكا فوق السّجّادة. قال تْشُكا وعيناه في الأرض: «فور عودتها من لاغوس، عليك أن تعمل على عودتها إلى بيت أهلها خلال يومين. خلال يومين. يومين».

ذهبوا كما أتوا، صفقوا الباب وراءهم. رغم أنّ الوقت كان ما زال نهارًا، إلّا أنّ السّحب الممطرة عتّمت الأفق إلى حدّ حملهم على الانطلاق ومصابيحهم الأماميّة مشعلة. راقب سيّارتهم وقد تقهقرت ببطء إلى الوراء فوق ممرّ مزرعته. حال اختفائهم عن الأنظار، سقط على ركبتيه، ثمّ انفجر في نوبة طويلة من البكاء.

«إيبونو»، لو صُوِّب سهم إلى صدر رجل أعزل، فعلى هذا الرّجل أن ينصاع إلى كلّ ما يُطلب منه. فالعصيان في وجه خطر لا طاقة له على ردّه يُعَدّ حماقة. يقول الآباء الأشاوس: «نحن من بيت رجل جبان نطلّ على خرائب بيت رجل شجاع». لذا، على الرّجل الأعزل أن يتحدّث مع حامل السّهام بكلام واقعيّ وبنبرة ليّنة قائلًا: «هل تريد منّي أن أتنحّى جانبًا وأن أقف هناك؟». إن ردّ عليه الرّجل الذي يهدّد حياته بأنّ عليه فعل ذلك، فعليه أن يفعله إلى أن ينجو من الخطر المحدِق به. بعد ذهاب شقيق ندالي، عزم مُضيفي على فعل كلّ ما طلب منه. سيزيّن لها أمر الرّجوع إلى بيتها، وخلال تلك المدّة، سيجد حلًّا لعدم كونه كفؤًا لها، جذر كلّ المشاكل. سيعود إلى الدّراسة، وسينال تعليمًا ووظيفة تؤهّلانه لطلب يدها. «تشوكو»، فهمت من عشرتي لأبناء البشر، أنّ الرّجل إذا لحق به العار، فقد يتحكّم الخزي بأفعاله، وقد يشوب اليأس إرادته. ما كان يعني له الكثير في السّابق، قد يصبح بلا معنى. من الممكن، مثلًا، أن يقف في فنائه، ويرمق مزرعة دواجنه، ذلك المشروع الذي كوّنه بنفسه، وصار يضمّ زهاء سبعين طيرًا، وأن

يرى كم كان هذا العمل وضيعًا. منظر الرّيش، الذي طالما شمّه وفتله بين أصابعه باعتزاز ومحبّة، قد يبدو له الآن أشبه بالقمامة.

ما الذي دهاه الآن، قد يتساءل الواحد؟ حسنًا، إنّه في حالة من الاستجابة، «تشوكو». ذهنه يهيئ نفسه للتّغيّر المقبل. وزنَ كافّة الأمور في ذهنه، وخلص إلى أنّ العودة إلى الوحدة، تحديدًا بعد خسارة ندالي، ستكون أفدح من أيّ أمر آخر. كانت ندالي مثل قطعة فريدة لا تُقدّر بثمن في محلّ مليء بالتّحف النّفيسة. أمّا مزرعة الدّواجن، الطيور، فكانت ذات وزن أقلّ بالنّسبة له. لو تطلّب الأمر، فإنّ التّخلّي عن مزرعته وطيوره مقابل الحصول على ندالي أمر مقدور عليه. في النّهاية، ألم يرَ رجلًا يبيع أرضه لأجل إرسال ابنه إلى الخارج كي يتعلّم؟ ما الذي فعله هذا الرّجل بالضّبط؟ لقد قرّر أنّ من الأحسن له في المستقبل أن يكون ابنه طبيبًا على أن يكون مزارعًا. لعلّ هذا الرّجل قدّر بأنّه سيتمكّن من استرداد أرضه عبر ابن ثري، بل يمكن لمثل هذا الابن أن يشتري له قطعة أرض أكبر.

وهكذا، عندما انتهى من اجترار تلك الأفكار، طوال يومين بعد مجيء تْشُكا إلى بيته، نهض صباحًا، ومن دون أن يقوم بإطعام الدّجاج وجمع البيض الطازج، توجّه إلى فرع بنك الاتّحاد في نهاية الشّارع، لشراء طلبات تقديم امتحانات القبول الجّامعيّة. انتظر في طابور طويل أمام البنك القديم، طابور امتدّ إلى المدخل، واضطرّ إلى مناشدة المصطفّين كي يفسحوا له المجال كي يدفع نفسه وسط الحشود ويعبر إلى داخل المبنى. غادر البنك مرهقًا وغارقًا في العرق.

«إجانغو إجانغو»، لا بدّ من أن أروي، وبالتفصيل، ما جرى معه في طريق عودته مشيًا على الأقدام إلى بيته. فخلال رحلة العودة تلك، نمت بذور دماره السّوداء، وبدأت في مدِّ جذورها في حياته. حين سار في الطّريق إلى البيت، سار لبعض الوقت بمحاذاة باص مدرسة، كان

يسير على مهل وسط زحمة المرور. حدّق إلى الأطفال الجّالسين بزيّهم المدرسيّ داخل الباص، كان النّعاس قد غلبهم وهم في أوضاع متباينة. كان القليل منهم يسند رأسه إلى مقعده، والبعض يميل برأسه إلى جنب فوق المسند، والبعض الآخر حنى رأسه وحمله بين كفّيه، وآخرون أسندوا رؤوسهم إلى النّوافذ. كان هناك واحد أو اثنان بدت عليهما إمارات اليقظة، فتاة مهقاء ذات شعر بلون الرّمل وفوق شفتها القرمزيّة السّفلى بثرة ملتهبة، حدّقت إليها بشرود. أمّا الآخر، فكان ولدًا حليق الرّأس. مشى بتثاقل، وطلبات التّقديم الجّامعيّ تحت إبطه، ومرّ بأكشاك وبسطات لبيع الأشياء المستعملة، تبارى أصحابها في النّداء عليه لشراء بضائعهم. أحدهم، امرأة كانت تبيع ملابس مستخدمة مكوّمة فوق كيس من الخيش، نادت عليه قائلة: «أيّها الشّابّ الرّاقي، تعال واشتر قميصًا راقيًا أو جينزًا راقيًا. هيّا، أقبل وفتّش عن مقاسك». بعد أن تجاوز بسطة تلك المرأة شعر بشيء ينبض في جيب سرواله. مدّ يده وتناول هاتفه، فرأى أنّ المتّصل كان إلوتشوكو. ردّ قائلًا: «إر، إلو، إلو»...

فقاطعه إلوتشوكو وقال بخليط من لسان الآباء العظماء ولسان الرّجل الأبيض: «كاي، نوانّه. اتّصلت بك مرّات عديدة!».

«كنت في البنك، لذا أقفلت الهاتف».

«أوكيه، لا عليك. أين أنت الآن، أين أنت؟ نحن في بيتك، أوه. أنا وجامايك، جامايك نْواورجي».

«إر، تشوكو! إي سي جيني؟ جامايك؟ لا عجب إن كنت تتحدّث معي بالإنجليزيّة إذًا».

سمع صوتًا عبر السّمّاعة وسأل إلوتشوكو الشّخص بالنّسخة الرّكيكة للسان الرّجل الأبيض إن كان يودّ التّحدّث إليه.

قال الصّوت عبر الهاتف: «بوبو سولو!».

فردّ قائلًا: «جيسوس! جا... ما... يك!».

«أرجوك، تعال، تعال، نحن ننتظرك أوه. تعال، تعال».

«إنّني على مشارف الوصول، أنا آت، أوه».

أعاد الهاتف إلى جيبه وشرع في المشي بسرعة صوب بيته، وذهنه في سباق مع رجليه. لم يكن قد رأى أو سمع أيّ شيء عن هذا الرّجل لمدّة طويلة من الزّمن. والآن جامايك، ابن صفّه في مدرسة «إيْكو» الابتدائيّة، ينتظره في بيته. قطع الشّارع، ومرّ من بين البيوت الفقيرة في الشّارع السفليّ، حيث شقّت المجارير المكشوفة طريقها في الأرض، مبتلعة التّربة الخصبة في كثير من الأرجاء.

أطلق العنان لساقيه، والطّلبات في يده، إلى أن وصل مزرعته. رفع رأسه من بعيد، فرأى إلوتشوكو وزميلهما القديم في الدّراسة، واقفَيْن في مدخل البيت. بمحاذاة المدخل، كانت درّاجة إلوتشوكو النّاريّة من طراز «ياماها» متّكئة على مسندها الحديديّ. مشى صوبهما فوق الممرّ المرصوف بالحصى وسط مزرعته الصّغيرة. لدى اقترابه من الرّجلين، قمع رغبته الملحّة في الصّراخ. في البداية، لم يتعرّف على هذا الشّخص صاحب الوجه العريض المزيّن بشارب. لكنّه فقد فجأة رباطة جأشه وهتف مناديًا: «جامايك نْواورجي!».

الرّجل الذي كان فوق رأسه «كاب» أحمر مطرّز برأس ثور أبيض، ويرتدي قميصًا أبيض وسروالًا من الجينز، اقترب وضرب كفّه بكفّ مُضيفي المرفوعة. قال الرّجل: «أكاد لا أصدّق، يا مهن!».

ميّز مُضيفي على الفور نبرة اللّهجة الأجنبيّة في صوت الرّجل، النّبرة التي يتكلّم بها من عاش خارج عالم الرّجل الأسود، نبرة حبيبته وأفراد عائلتها. ردّ مُضيفي قائلًا: «إلو قال لي بأنّك تعيش في الخارج».

نطق مُضيفي جملته بلسان الرّجل الأبيض، مثلما كانوا يفعلون أيّام المدرسة، لمّا كان الحديث بـ«اللّسان الإفريقيّ» أمرًا يستوجب العقاب. لذا، باستثناء إلوتشوكو، كان لسان الرّجل الأبيض هو اللّغة

التي يتواصل بها مع الأصدقاء في المدرسة، رغم أنّ كلّ واحد منهم تقريبًا يتكلّم لسان الآباء الأجلّاء.

ردّ هذا الرّجل، جامايك، قائلًا: «نا سو، أوه، يا أخي. إنّني أعيش في الخارج منذ سنوات عديدة، عديدة، يا مهن».

دخل إلوتشوكو على الخطّ قائلًا: «إر، دعني أذهب الآن يا ننسو».

ثبّت قبّعته السّوداء فوق رأسه، تلك التي بدأ في ارتدائها منذ انضمامه إلى «حركة إقامة دولة بيافرا ذات السّيادة»، ثمّ صافح مُضيفي قائلًا: «مكثت هنا إلى حين مجيئك لأنّني لمّا رأيته، تذكّرت مشكلتك. جامايك يستطيع مساعدتك».

ردّ مُضيفي: «إر، ستذهب؟».

«أجل، سأقضي حاجة لـ'ماي بوبسي'».

راقب مُضيفي جامايك، وقد فاحت منه رائحة لا بدّ وأنها كانت تنبعث من عطر باهظ الثّمن، أثناء معانقته لإلوتشوكو، الذي قفز بعدئذ فوق درّاجته النّاريّة، وضغط على الدوّاسات مرّتين، فانبعث عامود من الدّخان في الهواء. قال: «أنا ذاهب اتّصل بأونا».

ثمّ انطلق مغادرًا. فهتف مُضيفي لصديقه: «باي باي».

ثمّ التفت إلى الرّجل الواقف أمامه وقال: «نا وا أوه، جامايك بذاته!».

ردّ جامايك: «أجل، أوه، بوبو سولو!».

ثمّ تصافحا ثانية وقال مُضيفي: «دعنا ندخل الآن. تعال، تعال».

قاد مُضيفي ضيفه إلى داخل البيت. وبعد دخولهما وجلوس جامايك فوق الكنبة، داهمه خاطر كيف جلس تْشُكا، قبل يومين، في البقعة نفسها، بمعطفه الذي أضفى عليه مظهر البطل الشّرّير في فيلم سينمائيّ، وبحضور حمل تهديدًا لمُضيفي لا يقلّ عمّا حمله تذكّره المفاجئ لذلك المشهد.

قال جامايك: «مهن، لديك مزرعة كبيرة جدًّا، أوه. هل تعيش فيها لوحدك؟».

ابتسم مُضيفي. جلس قبالة الزّائر بعد سحب السّتائر كي يعبر الضّوء إلى الغرفة. ثمّ ردّ قائلًا: «أجل، توفّي والداي، أمّا شقيقتي، هل تتذكّرها؟ كانت صغيرة في تلك الأيّام».

«إر، إر»...

«نكرو، تزوّجت. لذا، فإنّني الوحيد الذي يعيش هنا الآن. وصاحبتي أيضًا. إهن، أين تعيش الآن».

ابتسم جامايك وردّ قائلًا: «قبرص... هل تعرفها؟».

«لا».

«أعرف بأنّك لن تعرفها. إنّها جزيرة في أوروبا. بلد صغير للغاية. صغير للغاية، لكنّه جميل للغاية؛ جميل للغاية يا مهن».

أومأ مُضيفي قائلًا: «إنّه كذلك يا أخي».

«أوه هو، أتذكر زميلنا في الصفّ جوناثان أُبيورا؟ كان يعيش هناك».

أشار جامايك بإصبعه إلى بيت قديم على مسافة. خلع الكاب عن رأسه ووضعه في حِجره ثمّ قال: «بوبو، أتودّ الذّهاب لاحتساء البيرة والدّردشة؟».

ردّ مُضيفي: «أجل، أجل يا أخي».

«إيبونو»، حين يلتقي شخصان في مكان كهذا، ويكون كلاهما قد خرج من ماضي الآخر، فإنّهما يلجآن في العادة إلى تعليق الحاضر، ومحاولة جرّ كلّ ما حصل خلال تلك الفترة الزّمنيّة المنقضية إلى اللّحظة الزّمنيّة الرّاهنة. وذلك لكونهما مقيَّدَين، على نحو ما، بالمكان الذي كانا فيه قبل التقائهما بزمن طويل أو بالزّيّ المدرسيّ الذي كانا يرتديانه في ذلك الحين. سوف يتبيّن لهما أنّ من الصّعب أحيانًا معرفة كم انقضى من الوقت إلى أن يظهر من تلك النّقطة في الماضي شيء أو شخص ما، وعليه إمارات السّفر الطّويل. فيما خصّ مُضيفي، أشار

جامايك إلى أنّه كان أطول بكثير لكنّه ما زال ضامرًا. في المقابل، أعرب مُضيفي، بدوره، عن دهشته، كيف أنّ جامايك، الذي كان صغير الجّسم حليق الرّأس، أصبح الآن ذا قامة فارعة لا تقصر عن قامته إلّا بنصف إنش فقط، ولحية كثّة على جانبَيّ الوجه. بعد الإشارة إلى هذه الاختلافات، سيستأنفان الحديث عن الوجهة التي نشدها كلّ منهما منذ لقائهما لآخر مرّة، وعن أيّ طريق سلكاه، وكيف وصلا الآن إلى النّقطة التي عثر فيها كلّ منهما على الآخر. أحيانًا، قد يبني هذان الاثنان علاقة جديدة ويصبحان من الأصدقاء. رأيت هذا مرّات ومرّات.

انطلقا خارج المزرعة، وتوجّها مشيًا صوب مطعم «بيبر سوب» في الشّارع المجاور، ثمّ جلسا فوق المقاعد الخشبيّة المصفوفة فوق الأرضيّة التّرابيّة. كانت حرارة الشّمس قد اشتدّت وكانا متعرّقَيْن حين دلفا إلى المطعم. قعدا تحت مروحة في السّقف، بجانب جهاز ستيريو كان يعلو منه لحن هادئ. كان يتحرّق للجّلوس والحديث، فخلال مشيتهما القصيرة، كان جامايك قد رسم صورة للمكان الذي كان يعيش فيه، قبرص، كمكان كلّ شيء كان فيه منظمًا ومرتّبًا. كانت الكهرباء متوفّرة من دون انقطاع؛ الطّعام رخيص؛ المشافي كثيرة ومجّانيّة إن كنت طالبًا؛ وفرص العمل «بوفرة الماء». بمقدور الطالب اقتناء سيّارة «جيب» أو «مرسيدس بينز طراز إي كلاس». في الواقع، قال جامايك إنّه رجع إلى نيجيريا بسيّارة «سبورت» أعطاها لوالديه الآن. في الطريق إلى المطعم، لاحظ أنّ جامايك كان يسير بمشية احتفاليّة معيّنة، موظّفًا ثقل جسده بالكامل أثناء سيره، كما لو أنّ حركاته كانت استعراضًا، وجمهوره كلّ ما كان في النّطاق المحيط -الشّاحنة المركونة، البار القديم، شجرة الكاشو، ورشة الميكانيكيّ، الميكانيكيّ الممدّد تحت سيّارة بيك أب على الجّانب الآخر من الطّريق، بل وحتى السّماء الشّاسعة. تحدّث جامايك بنبرة إيقاعية مضبوطة، فيها مسحة من الخيلاء، حتّى لمست كلّ كلمة قالها وترًا عميقًا في نفس مُضيفي.

مرَّ بعض الوقت من دون أن يتكلّما، فترك ما قاله جامايك يقرّ في ذهنه، لدى انشغال الأخير في الردّ على رسالة نصّيّة وصلته على الهاتف. ترك عيناه تحومان فوق روزنامة دعائيّة لبيرة «ستار» كانت فوق الحائط المجاور، وملصق جداريّ حمل صور عدد من الملاكمين الأميركيين الذين كان يعرفهم والذين تواردت أسماؤهم الآن على ذهنه: «هوغان» العملاق، المحارب الأوّل، الصّخرة، قابض الأرواح، سيّد الأدغال.

قال جامايك فجأة: «إذًا، أنت، كما قال إلو، تودّ إكمال الدّراسة؟ قال لي إنّ لديك بعض المشاكل، وإنّ بمقدوري أن أساعدك».

كان فكر مُضيفي معلّقًا في الأعلى، وكأنّ يد جبّار متوحّش انتشلته من عقله. ردّ قائلًا: «أجل يا جامايك، أجل يا أخي. لديّ مشكلة».

«تكلّم يا بوبو سولو».

كان يريد الكلام، لكنّ استعادته لهذا الاسم، الذي اعتادت أمّه على مناداته به، حملته على التوقّف للحظة، وفي نقطة ما عبر السّنين الدّوّارة التي طواها النّسيان منذ أمد بعيد، أبصر نفسه واقفًا في غرفة، كان يضحك وهي تضحك، تصفّق وتغنّي مردّدة: «بوبو، بوبو، سولو. بوبو، بوبو، سولو».

تناول زجاجة البيرة وشرب كي يستعيد تماسكه. رغم أنّ مذاقها كان غريبًا، فهوكان مقلًّا في الشّراب، إلّا أنّه كان ملزَمًا باحتسائها. فحين يستقبل الرّجل زائرًا، يأكل ويشرب ممّا يأكل الزّائر ويشرب. ثمّ انبثق منه الكلام مثل انبثاق الخمر من زجاجة لحظة نزع السّدّادة وانهماره بدفق من المشاعر المختلطة -الخوف، القلق، الخزي، الأسى، اليأس. عبر وابل من الكلمات، قصّ على مسامع جامايك كلّ ما حصل معه وصولًا إلى ما جرى قبل يومين، حين تعرّض للتّهديد في عقر داره. ثمّ قال: «ولهذا قلت لإلوتشوكو إنّ عليَّ العودة إلى الدّراسة على جناح السّرعة. في الحقيقة، ليس لديّ خيار آخر. فأنا أحبّ ندالي حبًّا جمًّا

يا أخي. أنا حقًّا، حقًّا، حقًّا أحبّها. منذ ظهورها في حياتي، لم أعد كما كنت في السّابق. كلّ شيء تغيّر يا جامايك، أوكّد لك، كلّ شيء. كلّ التّفاصيل الكبيرة والصّغيرة تغيّرت، من الألف إلى الياء».

ردّ جامايك وقد اعتدل في مقعده: «آه، هذه مشكلة جدّيّة، أوه، يا مهن».

أومأ برأسه واحتسى جرعة ثانية من مشروبه. فقال جامايك: «مهن، لم لا تتركها؟ أليس أهون من كلّ هذا القلق؟».

«إيبونو»، ظلّ مُضيفي صامتًا أمام هذا الاقتراح. ففي هذه اللّحظة، استعاد مشورة عمّه بل وحتّى مشورة إلوتشوكو المقتضبة. كان يدري لأنّه سمع ذات مرّة بأنّ على المرء مراجعة موقفه إن قال سائر الآخرين شيئًا يناقض موقفه. بعض منه، بعض بدا مثل خيال واهٍ، كان يريد الاستسلام، يريد الإقرار بأنّ تركها كان هو الحلّ الوحيد. لكنّ بعضه الآخر كان مصمّمًا بتحدٍّ على عكس ذلك، وهذا هو البعض الذي كان وراء حثّ مُضيفي بشراسة لا قبل له على كبحها. أمّا أنا، قرينه الحامي، فكنت ما بين بين، أرغب في أن يظفر بها ولكنّي خائف من الكلفة التي قد يضطرّ إلى دفعها. خلصت إلى فهم أنّ القرين الحامي حين يعجز عن اتّخاذ قرار بشأن أيّ الطرق هي الأمثل لاقتياد مُضيفه إليه، فمن الأفضل للقرين الحامي أن يلتزم الصّمت. فعبر التزام الصّمت يُسلِّم القرين الحامي تمامًا لإرادة مُضيفه الكاملة. إنّه يدع الرّجل ليكون رجلًا. وهذا أفضل، أفضل بكثير، من القرين الحامي الذي يقود مُضيفه إلى طريق مدمّر. النّدم هو السمّ الزّعاف بالنّسبة للقرين الحامي.

بسط مُضيفي كفّيه فوق الطّاولة وقال: «هذا ليس بحلٍّ يا أخي. يمكنني أن أمضي في حال سبيلي لو شئت، لكنّي أحبّها حبًّا جمًّا. جامايك، إنّني على استعداد لفعل أيّ شيء كي أتزوّجها».

«غاغان أوغو»، في غمرة المصائب التي ستقع على رأس مُضيفي

لاحقًا، سأنظر مرارًا إلى الوراء وأتساءل إن كان كلّ ما سيحصل مخبّأ منذ البداية في هذه الكلمات. بدت رعشة على وجه جامايك بعد قول مُضيفي تلك الكلمات، ولم يردّ مباشرة. بل جال ببصره في أرجاء المطعم، ثمّ أومأ برأسه وازدرد جرعة من البيرة قبل أن يقول: «آه، الحبّ! ألم تسمع أغنية 'ديبانج' التي يقول فيها: لا تجعلني أقع في حبّك؟».

«لا، لم أسمعها قطّ». ردّ مُضيفي على جامايك وواصل كلامه بسرعة لمنعه من الاستطراد في مناقشة الأغنية التي ما كان لها داع، فقد كان يروم الإفصاح عن همومه والتّخفيف عن ذهنه المثقل. لذا، كرّر القول ثانية، بتماسك أكبر هذه المرّة، كما لو أنّه سدّد كلفة باهظة مقابل قوله: «أحبّها كثيرًا وسأفعل أيّ شيء لأجلها. أريد أن أعود إلى الدّراسة الآن لأنّ والدي قبل موته، سقط مريضًا، فاضطررت إلى ترك المدرسة لمساعدته في مشروعه التّجاريّ. لهذا لم أذهب إلى الجامعة».

ردّ جامايك: «فهمتك. أعلم بأنّك لم تترك المدرسة لأنّك لم تكن تلميذًا نجيبًا. لقد كنت نجيبًا، يا مهن. ألم تكن في المرتبة الثّانية أو الثّالثة في الصفّ بعد تشيوما أُنونيلي؟».

ردّ وقد تذكّر أيّامًا انقضت منذ أمد بعيد: «هو كذلك».

لكنّه ما كان يعبأ بالماضي بل كان عليه أن يواجه الحاضر والمستقبل. لذا استأنف قوله: «حصلت على شهادة الثّانويّة العامّة. ولو عدت إلى مقاعد الدّراسة، إر، يا أخي، فإنّني متأكّد من أنّهم لحظة الاعتقاد بأنّي لست أمّيًّا، سيقبلون بي. إنّني على إيمان شديد بهذا».

ردّ جامايك وقد ابتلّت عيناه وومضتا ببريق ما: «هذ... هذا صحيح للغاية، يا بوبو سولو. صحيح للغاية».

«هو كذلك يا أخي».

شعر مُضيفي، بقدر من الارتياح، لأوّل مرّة منذ أسابيع، وكأنّ جميع مشاكله حلّت ببساطة عبر البوح بها. استأنف الحديث وقد تنفّس

الصّعداء، إذ لاح له بأنّه قال كلّ ما قاله، لأنّه كان يريد الوصول إلى قول التّالي لـ جامايك: «بما أنّك تقول إنّ طريق الدّراسة في قبرص ميسور وسريع، وإنّ بمقدوري الحصول على درجة علميّة خلال ثلاث سنوات، فإنّني أريد الذّهاب إلى هناك».

ردّ جامايك: «عظيم، يا بوبو سولو! عظيم للغاية، يا مهن!».

ثمّ رفع نفسه قليلًا من مقعده وضرب كفّه بكفّ مُضيفي قائلًا: «أحسنت، نواكِم!».

هبط في مقعده وحدّق إلى راحته متفحّصًا خطوطها وكأنّها كانت يد أجنبيّة عنه. ثمّ قال مستغربًا: «هل هذا عرق؟».

ردّ مُضيفي: «هو كذلك».

فقال جامايك: «واو، واو، واو، بوبو! أما زلت تتعرّق مثل أضاحي عيد الميلاد؟».

ضحك وقال: «أجل، يا أخي جامايك. ما زالت راحتا كفّيّ تتعرقان حتّى الآن».

«بوبو نوه».

«إررر».

ثمّ قال جامايك: «عثرت على الحلّ، مهن!».

هزّ جامايك إصبعه متابعًا القول: «عثرت عليه. بإمكانك أن تذهب الآن وأن تخلد إلى النّوم».

ضحك مُضيفي. فأكمل جامايك القول: «قبرص هي الحلّ».

«**إجانغو إجانغو**»، صدق الحكماء المنجّمون العظماء من بين الآباء لمّا قالوا: في هذا العالم الذي خلقته أنت، إذا أراد الرّجل الحصول على شيء بشدّة، وإذ لم تكفّ يداه عن مطاردته، فإنّه سيحصل عليه في نهاية المطاف. في ذلك الوقت، ومثل مُضيفي، ظننت أنا، أيضًا، أنّ مصادفة ابن صفّه القديم كانت مساعدة من الكون ليحصل على

ما كان يتوق إليه. إذ إنّه عاد إلى بيته لاحقًا في ذلك المساء بترنّح طفيف جرّاء ما تقاسمه من شراب مع صديقه وبخليّة طافحة بالعسل في قلبه. حين خلد إلى النّوم، وزعيق الدّجاج في أذنه، بدأ في هضم كلّ شيء: الجّزيرة في البحر الأبيض المتوسّط، بحلاوة ما قرأه من كتب في الصّغر عن بلاد الإغريق القديمة. سهولة إجراءات الالتحاق بالجّامعات. «ليست هناك امتحانات جامعيّة خاصّة بالقبول!» كرّر جامايك القول على مسامعه المرّة تلو الأخرى، «لست بحاجة إلّا إلى شهادة الثّانويّة العامّة، الثّانويّة العامّة فقط». روعة التّوقيت: كيف تزامن اكتشافه لذلك مع اللحظة التي كان فيها بأمسّ الحاجة إلى شيء من هذا القبيل. بإمكانه أن يبدأ في سبتمبر، بعد أربعة أو خمسة أسابيع من الآن. بدا كلّ شيء في ظلّ غرابة هذه الإمكانية وكأنّه لا معقول. كم كانت متاحة ماديًّا: «إنّها أرخص من كلّ تلك الجّامعات النّيجيريّة الخاصّة»، قال له جامايك متباهيًا، «تلك الجّامعات التّافهة التي لدينا هنا: جامعة 'مادونا'، جامعة 'كوفينانت'، إنّها أفضل منها جميعًا». وزيادة على هذا؟ لن يحتاج إلّا إلى دفع أقساط وكلفة السّكن للسّنة الدراسيّة الأولى، وبحلول السّنة الثّانية -في الواقع، بل بحلول الفصل الثّاني- سيكون قد جنى من فرص العمل بدوام جزئيّ ما يكفي لدفع أقساط وكلفة السّنة الدّراسيّة الثّانية.

حتّى الآن، لدى انزلاقه بهدوء في أسر النّوم، رأى جامايك يراقص كلماته، رقصة طقوسيّة كان لها وقع التّنويم المغناطيسيّ. ترك أفكاره تحلّق حول اقتراح جامايك الميمون، سيكون أمرًا عظيمًا وصحّيًّا لعلاقته بندالي إن ذهب إلى الخارج للعيش خلال سنوات زواجهما الأولى. كان جامايك قد ألحّ، وبصورة مقنعة للغاية، على أنّ ذلك سيدفع والديها إلى احترامه أكثر. ثمّ تأمّل في آخر ما قاله جامايك عن ذلك البلد، والذي لم يقصد منه سوى أن يزيد من أمله: «بإمكانك أن

تذهب إلى أيّ بلد أوروبيّ آخر، أو إلى الولايات المتّحدة. بواسطة السّفينة، سفر رخيص للغاية. خلال ساعتين! تركيا، إسبانيا، العديد، العديد من الدّول. لن يكون هذا أفضل فرصة لإرضاء نْدِما»... فساعده في نطق الاسم الصحيح، «أوه، آسف، ندالي. بل سيكون أيضًا فرصة لك لتجرّب الحياة الجيّدة. في الحقيقة، اسمع، لو كنت أنا أنت، لقمت بكلّ التّرتيبات من دون أن أخبرها بشيء. انظر إلى تلك الأرض الكبيرة، وذلك البيت الكبير الذي تركه لك والدك. تستطيع أن تفعلها، يا مهن. فاجئها!»، قال جامايك ذلك بحاجبين شبه مقطّبين، كما لو أنّ كلماته ذاتها أغضبته. «فاجئها، يا مهن، وسترى. سترى أنّك لن تحظى باحترامها فقط، بل، أؤكّد لك» -لعق جامايك إبهامه بلسانه عدّة مرّات- «أقسم بالرّبّ العظيم، ندالي ستحبّك حتّى الممات!».

هذه الكلمات الأخيرة صدرت من جامايك بنبرة جازمة حتّى أنّ مُضيفي أطلق ضحكة نمّت عن الارتياح. ضحك ثانية وقد تذكّرها الآن ثمّ نهض من فراشه. تناول سرواله الجينز، من فوق الكرسيّ إلى جانب السّرير، وأخرج ورقة الـ«فلوسكاب» التي سجّل جامايك عليها بعض الملاحظات. أخرج قلمًا ودفترًا من جيبه الخلفيّ، كان الدفتر مثنيًّا من وسطه بسبب قعوده فوقه. بابتسامة عفويّة، انتزع ورقة من الدّفتر وقال: «أنا رجل عمليّ، لنتكلّم في التّفاصيل العمليّة». ثمّ أخذ في تسجيل كافّة ما قاله.

فصلان جامعيّان أقساطهما	= 3000
كلفة سكن لسنة	= 1500
وديعة مصرفيّة	= 1500
كلفة معيشة	= 2000
	= 8000 يورو

«غاغان أَوغو»، الطمأنينة التي خيّمت عليه في تلك اللّيلة كانت مثل نقاء نهر «أومامبالا» الذي لا تشوب مياهه شائبة. بعد أن أطال النّظر في الورقة، قام بطيّها. أطفأ النّور ومشى إلى النّافذة، وقلبه ينبض بعنف. لم يتمكّن من رؤية الكثير في الخارج مع أنّ القمر كان منيرًا. لوهلة، بدا البيت عبر الجّانب الآخر من الشّارع وكأنّه مشتعل، سطحه قرمزيّ صارخ والدّخان يتصاعد منه. لكن سرعان ما اتّضح له بأنّ ما ظنّه نيرانًا مشتعلة لم يكن سوى انعكاس مصابيح الشّارع فوق البيت، وأنّ الدّخان كان يتصاعد من موقد حجريّ ما.

9

اجتياز العتبة

«**أَغْبيريه دايك**»، يقول الآباء العظماء عبر حكمهم الدّاعية إلى الاستعانة على قضاء الحاجات بالسّرّ والكتمان: «البذور التي تبذر في الخفاء، تغلُّ دائمًا خير الثّمار». لهذا، فإنّ مضيفي، في الأيّام التي تلت لقاءه بابن صفّه القديم، حجب عن العالم أزهار الفرح المتفتّحة حول أطراف قلبه. بالسّرّ، نمت خططه، المجهولة بالنّسبة لندالي، التي رجعت من رحلتها إلى لاغوس بعد ثلاثة أيّام على لقائه جامايك. أخفى حقيبة والده القديمة، التي خبّأ فيها ما جمعه من وثائق، تحت السّرير. كان قلبه معلّقًا في تلك الحقيبة كما لو كانت تحتوي على كلّ ما يملكه، على حياته نفسها.

فيما أخذت محتويات الحقيبة بالتّزايد، زادت أيضًا التّطوّرات المفرحة الأخرى. لم يضطرّ إلى إقناع ندالي بالعودة إلى بيتها بعد رجوعها. ذهبت من تلقاء نفسها، منخدعة بأكاذيب تْشُكا عن مرض ألمّ بأمّها. بدّد هذا خوفه من وقوع شيء آخر في حال فشله في إقناعها بالعودة مثلما كان تْشُكا قد توعّده، خلال تلك الزّيارة التي أخفاها عن ندالي خوفًا من تصعيد الوضع مع عائلتها. عندما جاءت لرؤيته بعد أسبوعين بالضّبط على بدء تنفيذ خططه مع جامايك، كانت في مزاج مختلف تمامًا. أتت من الكنيسة في ذلك اليوم ببال خال من الهموم. جلست فوق رجليه ثمّ قالت وهي تصفّق بمرح: «أكاد لا أصدّق يا أُبِم. احزر ماذا قال دادي؟».

«ماذا قال يا مامي؟».

«أخبرتهم عن شرائك طلبات تقديم امتحانات القبول الجّامعيّة وعن نيّتك في العودة إلى الدّراسة. فقالوا إنّك أن سجّلت في الجّامعة، فسيكون ذلك بمثابة خطوة أوّليّة إيجابيّة. سيكشف عن مدى جدّيّتك في أن تصبح رجلًا ذا شأن».

«إيبونو»، أذهله سماع ذلك. بدا له وكأنّ شيئًا، من دون علمه، تلصّص عليه من فوق كتفه وتمكّن من الاطّلاع على مستودع أسراره. ولأنّه ظلّ مصمّمًا طوال الوقت على عدم إطلاعها على مخطّطاته، مثلما نصحه جامايك، وتفاديًا لوقوفها في وجهه، لم يخبرها إلّا عن شرائه لتلك الطّلبات. لكنّه، مع ذلك، كان يعلم أنّه لا يستطيع إخفاء الأمر عنها لمدّة طويلة. هكذا، كان كلّما اتّخذ يوميًّا مزيدًا من الخطوات بهذا الاتّجاه، يطمئن نفسه بأنّه سيخبرها بكلّ شيء. في نهاية اليوم، كان يدفع ذلك مثل شيء ذي عجلات إلى المستقبل ويقول: «ليس اليوم بل في الغد». لكن إذا جاء **الغد** ورجعت ندالي بعد يوم دراسيّ طويل وهي محمومة إلى البيت، كان يقول: «**غدًا، ستمكث في البيت طوال اليوم وسيكون الأمر حينذاك أسهل**». لكن للأسف، ذلك الغد سيأتي وسيجلب معه في الصّباح الباكر مكالمة هاتفيّة عن إصابة عمّها بسكتة دماغيّة. **في عطلة نهاية الأسبوع**، كان الصّوت في عقله يصمّم على إبلاغها بالأمر، ربّما يوم الأحد بعد عودتها من الكنيسة. وكما لو بسحر ساحر، اليوم كان يوم الأحد ذاك. الآن وقد قالت شيئًا مسَّ جوهر صلب الموضوع الذي أبقاه سرًّا عنها، عزم على كشف ما لديه. قال لها: «مامي، اعتبري الأمر منتهيًا!».

«إر، أبِم؟».

ردّ بنبرة أعلى: «قلت، اعتبري الأمر منتهيًا».

حملها ما قاله على الوقوف، فنهض هو، أيضًا، بشيء من الزهوّ، وقال: «دخلت الجّامعة، أكملت الدّراسة، ثمّ تخرّجت».

ضحكت وقالت: «كيف؟ آبي في عالم الأرواح أم في عالم أحلامك؟».

«سترين، انتظري قليلا، إر».

ذهب وأخرج الحقيبة من تحت السّرير. نفخ على عنكبوت كان قد استقرّ فوق الشّعار المحفور في جلد الحقيبة وحملها معه إلى غرفة الجّلوس. وضع الحقيبة وسط الطّاولة. فسألته قائلة: «ماذا في الحقيبة؟».

حرّك يديه فوق الحقيبة بحركات استعراضيّة قائلًا: «أبره كادابره... سترين».

انفجرت في الضّحك، ففتح الحقيبة وناولها الوثائق. كان قد رتّب الوثائق بحسب كلفتها الأقلّ، لذا، حين بدأت بتصفّح الوثيقة الأخيرة، قال لها: «لا، لا يا مامي، من هنا، من هنا أوّلًا».

«من هنا؟».

«أجل، من هنا».

جلس لمراقبتها أثناء التّمعّن في الوثائق، على وقع نبض قلبه القلق. قرأت ترويسة الورقة بصوت عالٍ: «رسالة قبول».

انتصبت وقوفًا وقد رفعت حاجبيها إلى أعلى، ثمّ قالت بدهشة: «واو، ننسو، حصلت على ردّ بالقبول!».

أومأ قائلًا: «تابعي، تابعي القراءة فقط».

عادت بعينيها إلى الورقة واستأنفت القراءة: «جامعة قبرص الدّوليّة، لف... لف... كو...سا؟».

«لِفكوسا».

«لِفكوسا. واو. أين يقع هذا المكان؟ كيف حصلت على هذه الورقة؟».

«مفاجأة يا مامي. تابعي القراءة فحسب، تابعي».

تابعت قراءة الوثيقة ثمّ قالت: «أوه، يا إلهي! إدارة أعمال؟ ممتاز جدًّا!».

«شكرا لكِ».

«لا أصدّق هذا!».

رمت ذراعيها في الهواء، دارت نصف دورة حول نفسها وقابلته ثانية، ثمّ قبّلته. تملّص منها، وقال: «أكملي القراءة أوّلًا يا مامي. ثمّ قبّليني. تابعي».

«أوكيه».

حين رأت الدّفتر بين الأوراق سألته: «جواز سفرك؟».

أومأ برأسه، فتصفّحته بوجه طافح بالبِشر، وقالت: «أين تأشيرة الإقامة؟».

«الأسبوع المقبل».

«ستذهب إلى أين... أبوجا؟».

«أبوجا».

أبصر ظلًّا بدأ يغزو ملامحها، فأحسّ بتيبّس في أوصاله. قال برجاء: «اقرأيها كلّها يا مامي، أرجوك».

«أوكيه. رسالة قبول في السّكن الجّامعيّ».

رمته بنظرة خاطفة وقالت: «لديك سكن جامعيّ أيضًا؟».

«أجل. هو كذلك. هلّا تابعت القراءة يا مامي؟».

لكنّها ألقت الوثائق فوق الطّاولة وقالت: «ننسو، أنت تخطّط لترك نيجيريا وتخبرني الآن فقط؟».

«كنت أقصد أن يكون ذلك مفاجأة لكِ. دعيني أخبرك بما حصل يا مامي، شقيقك أتى إلى هنا بعد ذهابك إلى لاغوس. لا، لا، أنصتي إليّ أوّلًا. أتى مع مجرمين كي يتوعّدني. في الواقع، ليس لديّ أيّ خيار. يجب أن أفعل شيئًا ما. أنصتي غودونو أوّلًا. دعيني أكمل.

صادفت، لحسن الحظّ، زميلًا قديمًا من أيّام المدرسة، إنّه يدرس في الجّامعة، في قبرص، هذا البلد الجميل. وهو من أخبرني بكلّ شيء. كيف أنّ كلّ الأمور رخيصة، الأقساط الجّامعيّة، وفرص العمل متاحة وميسورة. الشّهادة الجّامعيّة، بمقدوري أن أحصل عليها في غضون ثلاث سنوات، إن قمت بدراسة ما سمّاه بالفصول الصّيفيّة. هذا هو السّبب وراء قيامي بكلّ ذلك».

«من هو هذا الشّخص الذي صادفته؟».

«اسمه؟ جامايك نْواورجي. عاد للتوّ إلى قبرص، قبل أربعة أيّام في الواقع. كان زميلي في الصفّ أيّام الابتدائيّة والثّانويّة أيضًا».

تناولت الوثائق ثانية، وتفحّصت مقرّر التّخصّص، ثمّ عادت بناظريها إلى الخربشة فوق ورقة الـ«فولسكاب». عندئذ قالت: «مهلًا أوه، ما زلت عاجزة عن الاستيعاب».

«أوكيه يا مامي».

«ستترك نيجيريا في الوقت الذي قلت فيه إنّك تريد أن تتزوّجني؟».

«ليس كذلك يا مامي».

فتح فمه كي يقول المزيد، لكنّه عجز عن الإتيان ولو بحرف، فالثّقة التي كانت قد تشكّلت بجهد بالغ على مرّ الأيّام والأسابيع السّابقة، الثّقة التي تمخّضت عن وزن كافّة الأمور وانتهائه إلى أنّ بمقدوره التخلّي عن كلّ شيء لأجلها، تهاوت فجأة. كي يدعم تلك الثّقة ويسندها، اقترب منها وجلس فوق مسند الكنبة. فسألته قائلة: «كيف لا؟ هذه الجّامعة في الخارج».

تناول يدها وأمسكها بين يديه ثمّ قال: «أجل، أعلم أنّها في الخارج، لكنّ هذا، في الواقع، أفضل حلّ ممكن. تخيّلي بعد عامين ونصف، سأنال درجة جامعيّة حقيقيّة وأصليّة؟ تخيّلي يا مامي؟ بل بإمكانك أن تزوريني دائمًا. ستتخرّجين في يونيو من العام المقبل، وحينئذ سأكون

أنا أيضًا قد أنهيت السّنة الأولى وأصبحت في السّنة الثّانية. بمقدورك أن تأتي وتمكثي معي».

قالت باستنكار: «بحقّ المسيح! ننسو، أنت تقول بأنّ»...

أمسكت عن إنهاء جملتها، ثمّ شبكت أصابعها فوق رأسها، وقالت: «انسَ الأمر، انسَ الأمر فحسب».

«لا يا مامي، لا. لم لا تخبريني بما كنت تودّين قوله، لم؟».

«انسَ الأمر».

«نْنِه، اصغِ إليّ، إنّني أفعل ذلك لأجلك، لأجلك فقط. في الواقع، أنا لم أرغب قطّ في العودة إلى الدّراسة، لكنّ هذه هي الطّريقة الوحيدة التي تمكّنني من أن أكون معك. الطّريقة الوحيدة يا مامي؟».

بسط ذراعه فوق كتفها وسحبها برفق نحوه، ثمّ قال: «تعلمين بأنّني أحبّك. أحبّك حبًّا جمًّا، لكن انظري إلى ما يفعلونه بي. انظري كيف أذلّوني. إنّهم يعملون على إذلالي حقًّا يا مامي. ومن يدري، لعلّ تلك هي البداية فقط. البداية فقط، وأنت لا تدرين مثلما أنا لا أدري. إنّني ذاهب يا مامي»...

طوال العصر، لم تنقطع أصوات الزّعيق والصّياح عن الوصول إلى مسامعهما، لكن الآن، باتت مصدر تشويش لا يطاق بالنّسبة له. توجّه إلى المطبخ، وجلب المقلاع وحجرًا من طاقة النّافذة، ثمّ هرع إلى الخارج. كان كلّ الدّجاج داخل الأقفاص، لكن، لحظة اقترب من أحدها، قفز ديك ذو لون ضارب إلى الحمرة نحو القضبان بضجيج عالٍ، وأطلق زعيقًا نمّ عن غضبه. كان في عراك مع أحد الدّيوك الجّديدة، ذي العرف المسنّن واللُّغدين العريضين. كان هذا الدّيك قد أظهر عدوانيّة غير معهودة حتّى منذ اليوم الذي اشتراه فيه. فتح باب القفص الشّبكيّ وحاول القبض عليه. لكنّ الدّيك وثب على الحائط وحاول العثور على شيء للتّشبّث به، لكنّه لم يفلح. تعثّر مُضيفي

وهوى فوق يديه فيما قفزت الدّيوك إلى أعلى وهربت من القفص. قام بمطاردة الدّيك اللّعين الذي وثب فوق المقعد تحت شجرة الغوافة، ولمّا حاول القبض عليه، قفز فوق برميل الماء وسط صياح عنيف. تفاقم حنق مُضيفي. لفّ حول البرميل، ثمّ اندفع بأقصى سرعة وجذب الدّيك من خناقه.

كان يشدّ وثاق الطّائر إلى الشّجرة بحبل من القنّب حين خرجت ندالي إلى الفناء. ألقت شمس العصر الواطئة بظلّها فوق الحائط، ظلّ ضخم للغاية مهول، حتّى أنّ نصفًا منه فقط كان بالإمكان أن يُرى. قالت: «ننسو».

ردّ وقد جفل من صوتها: «نعم يا مامي».

«ما الذي تفعله؟».

«لا شيء».

استدار وضمّها إليه، وصدره ما زال ينبض بعنف، لكن عبر جسده المضموم إلى صدرها، أحسّ بأنّ حدّة نبضاتها كانت أسوء بكثير.

«**أَغباتَّه آلومالو**»، لا يتمكّن الإنسان أحيانًا من فهم ما فعله حقّ الفهم إلّا بعد أن يخبر إنسانًا آخر عنه. عندئذ تصبح تصرّفاته نفسها أوضح حتّى بالنّسبة له. رأيت هذا مرّات ومرّات. رغم أنّ مُضيفي قضى السّاعة الفائتة في إيضاح المنطق الذي دعاه إلى بيع البيت ومزرعة الدّواجن، إلّا أنّه لمّا فرغ من ذلك، بدأ في رؤية جوانب القصور في القرارات التي اتّخذها. وهنا أعود مجدّدًا، «تشوكو»، للتّنويه إلى أنّك قضيت بأنّ دور القرين الحامي الرّئيس، يتمثّل في حفظ مُضيفه، ومنعه من الوقوع في المصائب التي يمكن الاحتراز منها، وذلك كي يتمكّن الإنسان من تحقيق قدَره بسهولة أكبر، وهذا الأمر هو سبب خلقك له. يجب ألّا نحاول أبدًا إرغام مُضيفينا على عمل يتصادم مع إراداتهم. لذا، رغم

أنّني كنت قلقًا من قرار بيعه معظم ما كان يملكه، إلّا أنّني تركته يفعل ذلك من دون أيّ تدخّل منّي. كما أنّني أقدمت على ذلك أيضًا، لأنّني اعتقدت أنّ الرّجل الذي جاء إليه كي يساعده، إنما فعل ذلك بتأثير هبة الحظّ الخاصّة بمُضيفي، العظمة من حديقة «تشكوكي».

لكن الآن، لما سمع شهقات ندالي ورأى الفزع في وجهها، بات خائفًا من أنّه أقدم على قرارات متسرّعة. خيّمت برودة في أكناف قلبه الذي كان، خلال الأسابيع الماضية، عامرًا بالدّفء والفرح المتولّد من الأمل. إثر انتهائه من البوح بكلّ ما كان قد فعله سرًّا، قالت ندالي:

«ليس لديّ ما أقوله يا ننسو. إنّني عاجزة عن الكلام».

ذهبت إلى غرفته القديمة ثمّ أوصدت الباب خلفها، فيما بقي هو في غرفة الجّلوس، محدّقًا إلى الوثائق. أعاد قراءة الاتّفاق الخاصّ ببيع البيت من جديد، فطفح الخوف في عقله. عندما اشترى والده البيت، لم يكن قد بلغ العاشرة من العمر، وكانت أمّه حبلى. كان والده قد قال إنّهم بمجيء مزيد من الأطفال، سيحتاجون إلى بيت أكبر. ظنّ أنّه نسي هذه الذّكرى، لكنّه شعر الآن كأنّها حدثت بالأمس. كانت أمّه ممسكة بيده لدى وقوفه في الغرفة الفارغة خلال تجوال والده والبائع في أرجاء المكان. أفلت من قبضة أمّه ثمّ ركض إلى الفناء ووقف تحت شجرة الغوافة، مأخوذًا بها إلى حدّ بالغ. حاول تسلّقها، لكن أمّه، رغم حملها الثّقيل، جاءت ركضًا ونادت عليه طالبة منه النّزول. سمع صوتها بوضوح مفزع، كما لو كانت خلف ظهره في الغرفة: «لا يا بوبو، لا. لا تفعل ذلك، أنا لا أحبّ من يتسلّق الأشجار». فسألها، وقد أولاها ظهره، مثلما كان يفعل حين كان يروم عصيانها: «لماذا؟». ردّت قائلة: «لا لشيء»، ثمّ سمعها تتنهّد، مثلما بدأت تفعل منذ انتفاخ بطنها على مدار الأيّام. ثمّ قالت بنبرة مستسلمة كان يفهم مغزاها كعلامة على نفاد صبرها وإطلاق آخر السّهام في جعبتها: «إن فعلت، فلن أحبّك».

كان يفكّر في ذلك لدى خروج ندالي من الغرفة وقولها: «ننسو، دعنا نذهب إلى 'تانتاليزرز'، أنا جائعة».

لأوّل وهلة، لم يستطع التميز بين صوتي المرأتين، لكنّ ندالي اقتربت منه وضربت رجلها بالأرض قائلة: «ننسو، أنا أكلّمك!».

«إر، مامي، أجل، أجل، لنذهب».

سارا بتؤدة، وحلّ الصّمت بينهما، كما لو أنّ سلطة فوق إرادة الإنسان كانت قد أمرت بعدم التفوّه بحرف. مضيا في الشّارع الضّيّق، بين الأسوار الرّماديّة العفنة، ومجارير الشّارع المسدودة بالفضلات. على الجّانب الآخر، المفصول بطريق ممتلئ بالحفر، ربضت طيور في حجرات مبنى غير مكتمل من عدّة طوابق، كان مشدودًا إلى سِقالة خشبيّة. كان يحدّق إلى تلك الطّيور، لمّا أخبرته ندالي، بصوت أقرب إلى الهمس، إنّها لو كانت تعلم بأنّ الأمور ستصل إلى هذه النّقطة، لتركته. فردّ منزعجًا: «لماذا تقولين هذا يا مامي؟».

«لأنّني لا أستحقّ مثل هذه التّضحية. كلّ هذا... هذا باهظ للغاية».

لم يتكلّم إلّا بعد وصولهما إلى المطعم، إذ إنّ ما قالته أثار الضّيق في نفسه. كانت أجواء المطعم مفعمة بالحياة وثرثرة الرّوّاد. ثلّة من الرّجال في قمصان عاديّة، وبعض الموظّفين، وامرأتين، وأغنية انسكبت بهدوء من السّمّاعات. أراد أن يفنِّد ما قالته جملة وتفصيلًا، وأن يؤكّد على أنّها تستحقّ كلّ ما فعله. لكنّه لم يفعل. فرغم ندمه الآن على ما فعله وإقراره بأنّه تصرّف بتسرّع، إلّا أنّه كان يعلم، أيضًا، بأنّه ورّط نفسه للغاية ولم يعد الآن أمامه مجال للتّراجع. كان قد باع البيت الذي ورثه عن أبيه، وسدّد أقساط فصلين جامعيّيْن وكلفة السّكن لمدّة عام. وأعطى جامايك، الموجود الآن في قبرص، ألفي يورو لإيداعها في حساب مصرفيّ مخصّص لـ«نفقات المعيشة»، وذلك كي يتجنّب حمل مبلغ كبير من المال خلال السّفر. كانت هناك ستّة آلاف يورو

أخرى في الحقيبة، آخر ما بقي بحوزته من العملة الصّعبة. لن يترك وراءه سوى اثنتين وأربعين ألف نيرة التي كانت في المصرف، إضافة إلى ما سيجنيه من بيع كلّ الدّواجن.

عندما جلسا في زاوية المطعم، كرّرت ما قالته سابقًا. فقال لها: «لماذا تقولين هذا الكلام؟».

ردّت عليه بنبرة ظنّها مُضيفي غاضبة: «لأنّك دمّرت نفسك بسببي يا ننسو!».

إثر ذلك، تلفّتت في أرجاء المكان، كما لو أنّها أدركت أنّ في كلامها انفعالًا عاطفيًا، وأنّ كلماتها كانت عالية النّبرة، لذا همست قائلة: «دمّرت نفسك يا ننسو».

«تشوكو»، كان تأثير هذا الإعلان غير المتوقّع على مُضيفي بليغًا. أحسّ وكأنّ شيئًا صدّع تضاريس روحه وشرخها نصفين. في محاولة لرأب الصّدوع في نفسه، ردّ قائلًا: «لم أدمّر نفسي بتاتًا، لم أدمّر نفسي».

قالت: «بل فعلت ذلك، إيبو أو له أونويه غي».

متفاجئًا بانقلاب لسانها إلى لغة الإيبو، لم يتفوّه بشيء.

«كيف يمكنك أن تبيع كلّ شيء يا ننسو؟».

«فعلت ذلك لأنّني لا أريدهم أن يفرّقوا بيننا».

فقالت ثانية: «نعم، ولكنّك بعت كلّ ما تملكه يا نننسو».

ثمّ استأنفت كلامها وقد التفتت إليه، فرأى بأنّها كانت استأنفت البكاء: «لأجلي، لأجلي، لماذا يا ننسو؟».

ازدرد ريقه بصعوبة، إذ رأى أنّ الواقع الملموس لما فعله، حين يُعبّر عنه بالكلام، كان يحمل طابعًا جسيمًا. ثمّ قال: «لا، سأستردّه كلّه»...

لكنّه لم يكمل لمّا رآها تهزّ رأسها وعيناها تفيضان بالدّموع. تلفّت حوله، خوفًا من انتباه النّاس لبكائها. ثمّ تابع قائلًا: «بعت ما بعته لأجل الالتحاق بالجّامعة، وللسّفر إلى الخارج حيث بمقدوري أن أكوّن نفسي. سأستردّه كلّه أضعافًا مضاعفة. سأحصل على عمل هناك»...

وصل الطّعام: طبق أرزّ «جولوف» له، وطبق أرزّ مقليّ لها، وشطيرة لحم على جنب. خلال انقطاع الحديث، قدحتُ في ذهنه أن يعمل على طمأنتها بكلام أقوى. ذكّرته بكافّة الأمور التي نظر فيها بعين الاعتبار حين توصّل إلى قراره. ذكّرتُه بالرّجل الذي باع أرضه كي يرسل ابنه إلى الجّامعة. ذكّرته، «إِزوّه»، بتفكيره في أنّه إذا تخرّج من الجّامعة، ورجع وتزوّجها، فبإمكانه الحصول على عمل من خلال نفوذ والدها، وبإمكانه شراء دواجن جديدة. والبيت؟ كم كان يساوي أصلًا في أحسن الأحوال؟ لم يكن قد أخذ بعين الاعتبار أنّه ربّما كان كبيرًا، لكنّ منطقة «آمازُنكو» من أسوء بقاع «أوماهيا». لذا، انتظر ذهاب النّادل على أحرّ من الجمر، ليقول: «بعت ما بعته لأجل تحسين حياتي أيضًا، ولأجل المرأة التي أحبّها. إن حصلت على درجة علميّة وعلى عمل جيّد، فسأتمكّن من شراء بيت أفضل من بيتي الراهن بعشر مرّات يا مامي. أنظري إلى هذا الشّارع القذر. لعلّنا نتمكّن من الانتقال إلى مكان آخر، أو حتّى، في الحقيقة، ربما إلى «إنوغو». هذا أفضل يا مامي. في الواقع، هذا أفضل. إنّه أفضل من أن أتركهم يفرّقون بيننا».

لكنّ ندالي هزّت رأسها ببساطة على نحو سوف يتذكّره لفترة طويلة من الزّمن. لم تقل شيئًا زيادة على ذلك. تناولت قليلًا من الطّعام ومسحت دموعها التي لم تكفّ عن الانحدار فوق وجنتيها. حزنها شغل باله، فهو لم يتوقّع أن تكون ردّة فعلها بتلك الحدّة. أمسك يدها لدى سيرهما، لكن لمّا اقتربا من البيت، سحبت يدها من يده ثمّ قالت: «يدك تتعرّق من جديد».

مسح راحتيه بسرواله ثمّ بصق في قناة تصريف المياه على جانب الطّريق.

شرعت في السّير بمفردها، على مسافة منه. ولمّا مرّ رجل فوق درّاجة ناريّة مسرعة، نادى عليها قائلًا: «آسا نوا، كيف حالك؟». فزمجرت في

وجه الرّجل الذي مضى ضاحكًا وسط أنين درّاجته المسرعة. هرول إليها مُضيفي الذي انفطر قلبه الآن. استدارت ونظرت إليه، لكنّها لم تنبس بحرف. ألقى نظرة خاطفة صوب الرّجل الذي غاب عن البصر، وأخرى صوب الشّارع الخالي من النّاس خلفه، وكأنّ العالم أصبح فجأة خاليًا من البشر. ففي تلك اللّحظة، لاح له بأنّ هذا ربّما كان أسوأ ما تخشاه: إن تركها وسافر، فإنّ الرّجال الآخرين سيسعون خلفها. تمنّى، عندها، لو أنّ هذا حصل قبل بضعة أيّام، قبل أن يبيع بيته.

عندما مد يده نحو ثيابها في تلك الليلة، بعد رجوعهما إلى البيت، دسَّت الكاميرا في يده، ثم تعرَّت وطلبت منه التقاط صور لها. ارتعشت يده لمّا التقط الصورة الأولى، خرجت مطبوعة على الفور من أعلى الكاميرا. كانت قد التقطت صورة كاملة لجسدها المنتصب، بنهديها البضين المحدقين في الكاميرا، وحلمتَيْها المشدودتَيْن كالوتر. كانت تلك الصور لأجله، قالت: «حين تداهمك الرغبة في أي وقت وتود أن تفعلها، بمقدورك أن تنظر إلى هذه الصور». بعد أن تمدد إلى جنبها، تساءل في نفسه إن كانت قد فعلت ذلك بسبب الرجل الذي تحرش بها في الطريق. وعندها خيَّم عليه خوف غريب، واستحوذ عليه طوال الليل.

«تشوكو»، يقول الآباء الأوّلون: «إنّ الإله الذي خلق الحكّة، وهب الرّجل كذلك إصبعًا لحكّها». رغم أنّ فرحه تآكل جرّاء حزن ندالي، إلّا أنّه فور عودتهما إلى البيت في ذلك المساء، شعر بأنّه في حال أحسن. أخبرته بأنّها كانت حزينة على الأغلب لأنّها سوف تفتقده، فطمأنها بأنّه سوف يعود مرارًا إلى أن تتمكّن من الانضمام إليه. قال إنّ فترة الدّراسة ستنقضي سريعًا، وإنّه سيعود فور انتهائه. وقال هذه الأمور بحرارة وحماس بالغ لأنّه كان خائفًا الآن من تركها لوحدها خلال تلك الفترة المؤقّتة، مكشوفة أمام أعين كافّة الرّجال المتطفّلين.

ولما حان موعد سفره إلى «أبوجا» في الأسبوع التّالي، كانت كلماته قد فعلت فعلها، ولم تعد غارقة في أسر الحزن. أوصلته في السّيّارة إلى موقف الحافلات، ثمّ رجعت إلى والديها.

هطلت الأمطار بغزارة ليلة سفره إلى «أبوجا» لأجل الحصول على التّأشيرة، وفي الصّباح كانت العاصفة الممطرة قد تسبّبت في إغلاق الشّارع الرّئيس. الحفرة الضّخمة التي كانت قد تشكّلت في وسط الشّارع، كان بمقدورها ابتلاع أيّ مركبة كبيرة بحجم حافلة «خطّ أبيا». لذا، سلك السّائق طريقًا أطول، ولمّا وصل إلى «أبوجا»، كان اللّيل على وشك الهبوط. استقلّ مُضيفي سيارة تاكسي حملته إلى الفندق الرّخيص الذي كان جامايك قد اقترح عليه المكوث فيه، قرب «كوبوا». كانوا يعرفون جامايك، أيضًا. وكانوا يلقّبونه بـ« **تركي مان**». «إنّه رجل طيّب، شابّ لطيف»، قال له المحاسب، الذي كانت رائحة فمه أشبه بالقيء. أثّرت فيه كلمات الرّجل حتّى أنّه أثناء حمله حقيبة سفره إلى الغرفة، تفطّن إلى أنّه لم يقدّم أيّ شيء بعد لجامايك تعبيرًا عن تقديره لشهامته. لم يقّدم له سوى البيرة التي اشتراها له في المرّات الأربع التي لفّا فيها ودارا على مقاهي الـ«سايبر»، ودائرة الهجرة والجّوازات، والمحكمة العليا لحلف اليمين وإصدار شهادة تقدير سنّ بدل شهادة ميلاد، وللعثور على مشترٍ للبيت.

أقلقه هذا الأمر. لعن نفسه في سرّه على هذا التّقصير، الذي لعلّه قد فُسّر بعدم الامتنان، وقرّر الاتّصال بجامايك مباشرة. خدش بطاقة «غلوباكوم» الهاتفيّة التي اشتراها من خيمة بائع متجوّل خارج الفندق وضرب الرّقم. لم يردّ جامايك، ثمّ صدر صوت أجنبيّ، مشفوعًا بترجمة إنجليزيّة. أضحكته تلك الكلمات وطريقة نطقها. ثمّ حاول مرّة أخرى، فردّ جامايك هذه المرّة قائلًا: «نا من يكون الأبله الذي يتّصل بي في هذا الوقت من اللّيل؟».

كأنّما صُعق بقضيب كهربائيّ. عنَّ له أن يظلّ صامتًا كي لا يكتشف جامايك من كان ذلك الأبله الذي لم يخطر في باله فرق التّوقيت، لكنّ إحراجه الشّديد منعه من السّيطرة على نفسه بالصّورة التي كان يودّها. علا صوت جامايك ثانية: «من المتّصل؟».

ردّ مُضيفي قائلًا: «عذرًا يا أخي. أنا المتّصل».

«أه، ها، بوبو سولو!».

«أجل، أنا. إنّني آسف على»...

«لا، لا، لا يا مهن. نا يفترض بي أنا أن أعتذر. وصلت اليوم للتوّ. كنت في»...

اختفى صوت جامايك خلف جدار من الأصوات المبهمة، ثمّ عاد ثانية بصدى من المقاطع الصّوتيّة المتقطّعة «إبي» ثمّ «أومم»، ثمّ تلاشى من جديد. فقال مُضيفي: «جامي؟ أتسمعني؟ أما زلت معي؟».

«أجل، بوبو سولو، هل تسمعني؟».

قطع حديثهما تحذير صوتيّ مسجّل بأنّ المكالمة ستُفصل عمّا قريب. لمّا انتهت، قال جامايك:

«لهذا السّبب لم أتّصل بك قطّ. لكن ألم تحصل على التّأشيرة يا سولو؟».

«أنا في أبوجا الآن. وصلت اليوم».

«يا لك من رجل! ولا كلّ الرّجال يا بوبو سولو!».

«هذا هو»...

انقطع أزيز الخطّ وفصلت المكالمة. وضع الهاتف فوق الطّاولة الوحيدة في الغرفة التي كان فوقها تلفاز، إنجيل، بطاقة من الورق المقوّى طبعت عليها قائمة بالقنوات المتلفزة، وعلى قفاها، قائمة الطّعام الخاصّ بمطعم الفندق. في زاوية من الغرفة، قرب السّتارة المغلقة، كان صرصور صغير متشبّث بالحائط، شارباه معقوفان إلى

الخلف. أثناء خلع ثيابه، رنّ الهاتف. ألقى نظرة على شاشته، فكانت المتّصلة نداليِ. قالت: «أردت أن أطمئنّ أنّك وصلت بالسّلامة».

«أجل يا أبِم. لكنّ الطّريق كان سيّئًا للغاية. سيّئًا للغاية».

«عليك أن تنحى باللّائمة على أورجي كالو، حاكم ولايتك».

«إنّه رجل معتوه».

ضحكت، وتناهى إلى أذنه عبر الهاتف صوت ديك. فسألها: «أين أنتِ؟».

«في بيتك».

تململ قليلًا ثمّ قال بنبرة متردّدة: «لماذا يا مامي؟ ماذا تفعلين هناك؟ قلت لك إنّ عليك أن تذهبي إلى بيت أهلك بعد أن تقومي بعلف الدّواجن».

«ننسو، لا يمكن أن أتركها لوحدها هنا لأنّك سافرت. ماذا تظنّني، أويبو أم بيضة؟».

حزّت قلبه بتلك الكلمات، فردّ قائلًا: «أحبّك يا مامي».

تجمّعت الكلمات في ذهنه، لكنّه تردّد، غلبته على أمره حين فاجأته بما فعلته. قال: «أنت تقومين على إطعامها بنفسك ولوحدك؟».

«أجل، وقمت بجمع البيض أيضًا».

«كم بيضة؟».

«سبع بيضات».

«مامي»...

«إيه؟».

خيّم عليه الصّمت لأنّه لم يدرِ لمَ أصبح فجأة على وشك البكاء. ثمّ قال: «إن كنتِ لا تريدينني أنَ أسافر إلى الخارج، فسأعود غدًا. وسأعيد ثمن البيت إلى المشتري ولن أبيعه ثانية. سأطلب من جامايك أن يرسل لي أقساطي الجّامعيّة. كلّ شيء يا مامي. ففي النّهاية، أنا لم أبدأ الدّراسة فعليًّا، أرأيتِ؟».

انهمرت الكلمات من فمه على عجل حتّى أنّه تعجّب من أن يكون هو من نطقها بالفعل. فحتّى أثناء كلامه، كان صمت غريب يشكّل جزءًا صميمًا من كلامه المنطوق. كان يعلم، فور قوله كلّ ذلك، بأنّه كان ببساطة يتكلّم لأجلها. انتظرها لتردّ، وذهنه أخفّ من ريشة عصفور الجُشْنَة. قالت بعد مدّة:

«لا أدري ماذا أقول يا أُبم. إنّك رجل طيّب، طيّب للغاية. أحبّك أنا أيضًا. إنّني أدعم قرارك لأنَّ الله رزقني رجلًا طيّبًا».

سمعها وقد تنهّدت بعمق ثمّ قالت: «اذهب».

«هل ينبغي لي أن أذهب يا مامي؟ إن قلتِ لا، فأقسم بالذي خلقني، أنّني لن أذهب».

«أجل. اذهب».

«أوكيه يا مامي».

«هل تعلم أنّ الدّجاجة البيّاضة باضت ثانية بيضة ورديّة؟».

«آه، أبياغِلي؟».

«أجل. قليت البيضة وأكلتها. طعمها لذيذ للغاية».

ضحكا، وتمنّى لاحقًا، لمدّة طويلة بعد انتهاء المكالمة، لو أنّه لم يتّخذ قرار السّفر والرّحيل. طوال بقيّة اليوم، ظلّ الفرح الذي عمّ قلب مُضيفي محجوبًا عنه خلف ستار من النّدم. أمّا أنا، قرينه الحامي، فشعرت بأنّه اتّخذ قرارًا سليمًا، وكنت مقتنعًا بأنّ من شأن هذه التّضحية أن تعمّق محبّة ندالي له عوض أن تدمّرها. «تشوكو»، لو كنت قادرًا أنا، أيضًا، على رؤية المستقبل؛ لو كنت قادرًا على رؤية ما سيأتي، لما فكّرت على هذا النّحو الأبله!

في مساء اليوم التّالي، بعد ذهابه إلى السّفارة، عاد الفرح ثانية وغمر قلبه إلى درجة، أنّه وهو في التّاكسي الذي أقلّه إلى الفندق، بكى لمّا نظر إلى التّأشيرة في جواز سفره وتذكرة «الخطوط الجوّيّة التّركيّة» التي

اشتراها من المكان الذي اقترحه جامايك. لدى عودته إلى الفندق، بدا له أنّ شيئًا إلهيًا قد حصل له. قبل وفاته، قال والده ذات مرّة بأنّه على يقين من أنّ زوجته، أمّ مُضيفي، كانت تقوم على حراسة ابنيها. تذكّر الآن أنّ والده قال ذلك إثر نجاة مُضيفي ممّا كان سيكون حادثًا بشعًا. حدث هذا قبل أربع سنوات، حين ركب مُضيفي حافلة متّجهة إلى «أبا» لزيارة عمّه، لكنّه أخرج نفسه منها في اللّحظة الأخيرة. لمّا اقترب موعد انطلاق الحافلة، دخل راكب ومعه لحوم حيوانات برّيّة في كيس من الخيش. كان مُضيفي قد اشتكى من أنّه لن يستطيع أن يتحمّل الرّائحة طوال مدّة الرّحلة. ترك الحافلة وذهب إلى أخرى. سيشاهد تلك الحافلة لاحقًا، مساء ذلك النّهار، في نشرة الأخبار، وستكون محطّمة بشكل يتعذّر معه التّعرّف عليها. لم ينجُ من الحادث غير اثنين من ركّاب الحافلة التّسعة. شيء ما لم يكن على علم به، وحتّى أنا لم أتمكّن من تبيّنه، ساق الرّجل صاحب اللّحم وأرغم مُضيفي على ترك الحافلة والنّجاة من براثن موت قبل موعده. قرّ قراره الآن على أنّ لعلّ الشّيء نفسه هو الذي ساق جامايك إليه، يد إله رؤوف، ليساعده في وقت شدّته تلك. مثلما ذكرت سابقًا، أنا، قرينه الحامي، ظننت بأنّه كان جرّاء هبة الحظّ التي حصل عليها في جنّة «تشكوكي».

رحلة العودة إلى الفندق كانت طويلة، مسدودة بزحام السّير في مواضع عديدة. أطبق جفنيه وتخيّل المستقبل. كانا هناك هو وندالي، جنبًا إلى جنب، أمام بيت جميل. بكثير من الجهد، تخيّل أنّهما برفقة طفل، صبيّ، كان يحمل كرة ضخمة. ومع أنّ تلك التّخيّلات كانت مجزّأة وغير واضحة المعالم، إلّا أنّها أنعشت روحه. فبعد أن ظلّ لوقت طويل رجلًا تائهًا يقلّب نظره في زحام الحياة، عثر الآن على أمل خصب، بمقدور أيّ شيء أن ينبت فيه. في الفندق، اتّصل بندالي، لكنّها لم تردّ. وأثناء تمدّده في انتظار ردّ مكالمته، استغرق في النّوم.

«أُنيَكروُّا»، بعد عودته إلى أوماهيا بالتّأشيرة، أصبح سفره أكيدًا أكثر، وكذلك، أيضًا، ما انطوى عليه من قلق وخوف. مضى الأسبوع الأخير قبل سفره بسرعة مطاردة نمر أرقط لفريسة. في اللّيلة الأخيرة قبل توجّهه إلى لاغوس، حيث كان سيستقلّ المركبة الطائرة، بذل مجهودًا ضخمًا في التّخفيف عن ندالي. إذ كان حزنها قد تنامى خلال تلك الأيّام الأخيرة بوفرة أدهشته، مثل نبتة كوكويامٍ في الموسم المطير. بحلول ذلك الوقت، كانا قد حمَّلا كافّة ما لم يتمكّن من بيعه في باصه الصّغير. كانت معظمها حاجيّات تخصّ والديه. أخذ إلوتشوكو، الذي قام بمساعدتهما، قنديل «بِناتون» الأحمر القابل لإعادة الشّحن. أعطاه مُضيفي القنديل من دون مقابل. أمّا ندالي فرفضت أخذ أيّ شيء. بل إنّها عارضت بيع أغراضه بشدّة. وبما أنّه كان سيترك باصه في مرآب كراج عمّه في «أبا»، سألته، لم لا يحتفظ بحاجياته عند عمّه؟ الآن، أثناء نقل محتويات الغرفة الأخيرة، غرفة الجّلوس، إلى باصه، انهارت تمامًا. قال إلوتشوكو: «الأمر ليس سهلًا بالنّسبة لها. عليك أن تدرك ذلك. لهذا، هي في هذه الحالة».

ردّ مُضيفي قائلًا: «أدرك ذلك، لكنّني لن أذهب إلى 'إلويغوه'. لن أرحل عن هذا العالم».

ضمّها إلى صدره وقبّلها. فقالت وسط بكاء مرير: «لم أقل ذلك. الأمر ليس كذلك. إنّها فقط تلك الأحلام التي داهمتني على مرّ الأيّام القليلة الماضية. لقد بعت كلّ شيء بسببي وبسبب عائلتي».

«هل غيّرت رأيك ثانية يا مامي؟ هل تودّين أن أبقى؟».

«لا، لا. قلت إنّ عليك الذّهاب».

قال إلوتشوكو، باسطًا كفَّيْه أمامه: «أرأيت؟».

فقال مُضيفي: «سأرجع عمّا قريب، وسنكون ثانية معًا يا مامي».

ردّت على ذلك بإيماءة من رأسها وابتسامة مفتعلة.

أشار إلوتشوكو إلى وجهها، وقال: «وأخيرا! إنّها سعيدة الآن».

ضحك مُضيفي ثمّ أطبق شفتيه على شفتيها وهي لمّا تزل في أحضانه.

في مثل هذه اللّحظات، «إيبونو»، حين يهمّ شخص بالرّحيل، وترك رفيق وراءه لمدّة معتبرة من الوقت، يقوم هذان الاثنان بفعل كلّ شيء بعجلة وبحدّة عالية. يهضم الذّهن هذه الأشياء ثمّ يعمل على تخزينها في قارورة خاصّة، لأنّ هذه هي اللّحظات التي سيتذكّرها على الدّوام. لهذا السّبب، كانت الطّريقة التي حملت بها رأسه بين يديها والتي كلّمته بها وجهًا لوجه، فور الانتهاء من حزم الأغراض وتحميلها، من بين الأشياء الخاصّة التي سوف يستحضرها مرارًا وتكرارًا.

بعد تملّصه من بين يديها، ركض صوب البيت مجهشًا بالبكاء. لم يبقَ فيه شيء سوى الحوائط. لوهلة، كاد أن يعجز عن التعرّف على أيّ غرفة من غرفه. حتّى الفناء بدا الآن لا يشبه أيّ شيء كان عليه في السّابق. كانت سحلية برأس أحمر واقفة حيث كانت دجاجاته قبل خمسة أيّام فقط، ريشة مسحوقة ملتصقة بأصابعها. أدرك، أثناء تحميلهم أولى الأغراض في الباص، أنّ حياة الرّجل، بصورة ما، من الممكن أن تقاس بما في حوزته من موجودات. فتوقّف وقام بجردة حساب. كان هناك البيت الكبير، بعمره وتاريخه، ومزرعة الدّواجن فيه، التي كانت كلّها في عداد ملكه إلى ذلك الحين. المزرعة الصّغيرة، بكافّة محاصيلها وثمارها، التي كانت ملكًا له. الأثاث أيضًا، الصّور الشّمسية القديمة، «داغيرو تايب» بالأبيض والأسود. كافّة ألبومات الصّور التي كانت ملك والده، والتي كانت حمولة كيس من الخيش تقريبًا، أجهزة المذياع العتيقة، الحقائب، الطّائرات الورقيّة، وكثير من الأشياء. بل كان قد ورث أشياء عجيبة مثل الباب الصدئ لأوّل سيّارة اقتناها والده (التي تعرّضت لحادث صدم قرب نهر «أوجي»)، في عام 1978. كانت هناك

بندقيّة صيد والده، التي أطلق بها النّار على أمّ فرخ الإوزّ؛ موقد كاز؛ الثّلّاجة؛ رفّ الكتب الصّغير قرب طاولة الطّعام؛ معجم «أوكسفورد» الضّخم فوق الطّاولة الخشبيّة الصّغيرة قرب سرير والده؛ طبل «إكُرو» التّقليديّ المعلّق فوق حائط غرفة نوم أبيه؛ حقيبة جدّه المعدنيّة التي تضمّ حلّته العسكريّة البيفاريّة الملطّخة بالدّماء، مع رقعها العديدة وأزرارها المقطّعة؛ السّكاكين المعقوفة؛ صندوق أدوات أبيه؛ ما تبقّى من ثياب أخته، ما زالت مرتّبة في خزانتها؛ عشرات القطع من الأواني القيشاني الصينيّة؛ الملاعق الخشبيّة؛ جرن الطّبخ والمدقّة؛ أباريق الماء البلاستيكيّة؛ علب القهوة الفارغة الممتلئة بالعناكب وبيوضها؛ بل وحتّى الباص الذي حمل اسم المزرعة والذي كان، لسنوات طويلة، سيّارة والده الوحيدة. الأرض التي ترعرع فيها، بطولها وبعرضها، كانت ملكًا له. لكنّه امتلك أشياء غير مادّيّة أيضًا: كيف كانت أوراق شجرة الغوافة تشكّل حمّامًا عند نزول المطر، عبر تساقط القَطْر منها في مئات المواضع؛ ذكرى اللّصّ الذي تسلّق سورهم ذات مرّة ولاذ ببيتهم للنّجاة من الموت على يد حشد غاضب من الغوغاء؛ الخوف من الفوضى وأعمال الشّغب؛ أحلام والده الخاصّة به؛ احتفالات أعياد الميلاد الكثيرة؛ ذكرى الرّحلات العديدة في موسم الإجازة عبر أرجاء البلاد؛ الأمل الأخرس الذي لن يتكلّم؛ الحنق الذي لن يحرّر نفسه من طوقه؛ تراكم الوقت؛ غبطة فرح العيشٍ؛ وحزن الموت -كل هذه الأمور كانت، لزمن طويل، كلّها كانت ملكًا له.

قلّب بصره في الأرجاء حوله، في السّور، في البئر، في شجرة الغوافة، وفي كلّ شيء، فلاح له أنّ هذا البيت كان جزءًا منه. سيعيش أيّامه من هذه اللّحظة فصاعدًا مثل حيوان يعيش في الحاضر لكنّ ذيله مشدود إلى الماضي على الدّوام. كان هذا الخاطر هو الذي أجهز عليه وحمله على البكاء لدى إيصاد إلوتشوكو، الذي كان سيسّلم مفاتيح البيت إلى المالك الجّديد، الباب على كلّ ذلك.

«غاغان أَوغو»، بكى مُضيفي أيضًا لأنّ ابن الانسان يولد من دون أن يعرف ما كان عليه ذات مرّة في حياته السّابقة. إنّه يُولد -أو بالأحرى، يُولد من جديد- على بياض، كبياض صفحة البحر. لكن حال أن يأخذ في النّموّ، فإنّه يبدأ في تحصيل الذّكريات. إنّ المرء يعيش بسبب تراكم ما يتعلّمه في الحياة. لهذا السّبب، حين يكون وحيدًا، حين ينسلخ عن كلّ شيء، ينكفئ الإنسان على عالمه الجوّاني ويتكاتف معه ليؤلّف هذا الكلّ المتكامل. إنّ الحالة الحقيقة للإنسان، هي الحالة التي يكون عليها حينما يكون وحيدًا. حين يكون وحيدًا، فإن بعض ما أصبح يشكّل كينونته- عواطفه الدّفينة، وبواعث قلبه الدّفينة- يطفو من أعماقه إلى سطح كينونته. لهذا، حين يكون الإنسان وحيدًا، تغشى وجهه ملامح فارقة لا مثيل لها. فهذا الوجه لن يراه أو يصادفه أيّ أحد قطّ أبدًا. أمّا حين يهلّ عليه شخص آخر، فإنّ هذا الوجه، ينكمش مثل انكماش مجسّات قنديل البحر، ويطلّ على الوجه المقبل بسحنة أخرى، سحنة أشبه بوجه جديد. وهكذا، وحيدًا، طوال رحلته اللّيليّة في الحافلة إلى لاغوس، استغرق مُضيفي في الذّكريات، بملامح لن يراها أحد آخر قطّ.

رغم انزعاجه طوال اللّيل من رائحة الرّجل الذي كان على يمينه، إلّا أنّه غرق في السّبات عدّة مرّات، ورأسه مستند إلى إحدى الحقائب الممتدّة إلى ظهر المقعد. اعترته أحلام شديدة الوضوح. رأى في أحدها، أنّه يمشي هو وندالي في ممرّ كنيسة. ثمّة أنوار في كلّ مكان، حتّى فوق صور القدّيسين، وعيسى المسيح ومريم العذراء المعلّقة على الحائط خلف المذبح. كانت هذه كنيستها التي حدّثته عنها دومًا. يقف الخوري، الأب سامسون، ويداه مضمومتان إلى صدره، ومسبحة متدلّية منهما. الطّبول النّحاسيّة ذات الإيقاعات العميقة، التي يقرعها خادم المذبح، الصّبيّ ذو النّدبة الكبيرة فوق الرّأس، تتعالى قرب مكتب

الكاهن الصّغير. إنّه يستطع رؤيتهم لدى مرورهم من أمامه، مبتسمين وراقصين. والدتها، في حلّة فاخرة. هناك، أيضًا، أبوها، وتْشُكا، لحيته أطول الآن، بارز من بين الجّميع، ببشرته الفاتحة. كلاهما مبتسم، أيضًا، وكلاهما في بذلتَيْن أنيقتين. إنّه يلقي الآن نظرة على نفسه بجذل: البذلة التي يرتديها كبذلتيهما! ثلاثتها كلّها، إضافة إلى تلك التي يرتديها إلوتشوكو. لكن من يكون الرّجل الثّالث، خدّاه سمينان، ورأسه مكوّر، وشعره على هيئة جزيرة -بشرة جرداء في كلّ الأنحاء، وشعر موزّع في أرجائها بشكل مخروطيّ؟ جامايك، إنّه جامايك، الرّجل الذي جاء لإغاثته! هو، أيضًا، يرتدي البذلة الزرقاء الداكنة نفسها وربطة عنق سوداء. إنّه يرقص، آخر المتقدّمين في الموكب المتهادي خلف ظهر مُضيفي، متصبّبًا عرقًا على وقع أغنية الزّفاف.

زوجتي نعمة، وهبني إيّاها الرّبّ
زوجي نعمة، وهبني إيّاه الرّبّ
ولأنّ الرّبّ هو مَنْ أنعم عليَّ،
فإنّ نعمته ستدوم إلى نهاية الزّمان

انتبه من نومه فرأى أنّ الحافلة كانت في جزء من الطّريق السّريع محفوف بالغابات، المصابيح الأماميّة وأضواء السّيّارات ومركبات النّقل والشّاحنات المسرعة من حولهم مصدر الإنارة الوحيدة وسط الظّلام. اعتدل في مقعده وراح يفكّر في اللّيلة الماضية، ليلة كانت صعبة على ندالي بليلها الذي لم يمرّ إلّا ببطء شديد، مثل سقوط حبّات المطر ببطء في عنق زجاجة. لاحظ كم عانت خلال النّهار، محاولة إخفاء حزنها بمشقّة، وكيف اضطرّ أن يطلب منها مرارًا الكفّ عن البكاء.

حين غرق في السّبات من جديد، خرجتُ منه، مثلما كنت أفعل

دومًا حين يغشاه الكرى. لكنّني رأيت أنّ الحافلة كانت مكتظّة بالقُرَناء الحُماة والمخلوقات المتشرّدة، وكان الصّخب يصمّ الآذان. أحدها، شبح، «أكاليُغولي»، الذي ظهر على هيئة غلالة ضبابيّة رقيقة للغاية فبدا مثل لطخة صغيرة في جبّة الظّلام، كان جالسًا جنب صبيّة نائمة في المقعد الأماميّ، ورأسها فوق كتف رجل آخر إلى جوارها. وقف الشّبح هناك بين يديها، مجهِشًا بالبكاء، وقال: «لا تتزوّجي أُوكُولي، أرجوكِ، لا تتزوّجيه. إنّه شرّير، هو من قتلني. إنّه يكذب. إياكِ يا نغوزي، إيّاكِ، وإلّا فإنّ روحي لن تعرف طعم الرّاحة أبدًا. قتلني ليتمكّن منك. أتوسّل إليكِ يا نغوزي، لا تفعلي ذلك». بعد أن ينطق تلك الكلمات، سيولول بأعلى حنجرته مطلقًا نواحًا يمزّق نياط القلوب. ثمّ سيعيد الكرّة مرّة تلو الأخرى. راقبت هذا المخلوق لمدّة، ثمّ خطر لي بأنّه ربّما لبث يفعل ذلك منذ أجل طويل، على مدار كثير من الأقمار على الأرجح. شعرت بالحزن عليه -«أنيه أوى» هُجِر من قِبل جسده وقرينه الحامي، ليس بمقدوره أن يرتقي إلى «آلانده تشِه» (موئل الأسلاف)، ولا أن يتجسّد من جديد. يا له من أمر رهيب!

ظلّ مُضيفي نائمًا خلال بقيّة الرّحلة، ولمّا انتبه من نومه، كان ذلك لأنّ الحافلة عبرت إلى موقف «أوجوتا»، وأصبحت فجأة الفوضى وأرضيّة الموقف الممتلئة بالحفر كابوسًا في وضح النّهار. كان المطر يتساقط، والباعة المتجوّلون للخبز والبرتقال وساعات المعصم والماء، يهرعون للاحتماء تحت هيكل مسقوف بألواح الزّنك. غطّت بعض النّساء رؤوسهنّ بأكياس نايلون سوداء. تجرّأ على المطر بائع علب عصير، ركض إلى الحافلة لدى توقّفها، وقد زمّ عينيه. ترجّل مُضيفي من الحافلة على عجل، قلقًا من رائحة فمه بعد النّوم. تذكّر ما قالته له ندالي عن ضرورة غسله في المطار قبل توجّهه إلى الطّائرة، وإلّا فإنّه سيصل إلى قبرص برائحة فم كريهة.

قبل أن يتمكّن من سحب حقيبتَي سفره الضّخمتين من الحافلة، اندفع صوبه رجلان، سائقا تاكسي، لحملهما عنه. ترك الأوّل، رجلًا قصيرًا نحيلًا ذا عينين جاحظتين، يحمل واحدة منهما. كان الرّجل، الذي حمل الحقيبة بخفّة أذهلته، قد سار بعزم وقطع شوطًا معتبرًا على طريق الخروج من الموقف، وعندئذ تفطّن مُضيفي إلى ما كان الرّجل قد فعله. تبع الرّجل، جاذبًا حقيبته الأخرى بكلتا يديه إلى بطنه. تساقطت حبّات المطر فوقه لدى لحاقه بالرّجل وسط الاختناق المروريّ، سار على غير هدى وسط السّيّارات والحافلات التي أطلقت أبواقها، فاحتدم الجوّ بضجيج عارم. من بعيد، برز جسر، ومن بعده، ماء جارٍ. ثمّة طيور في كلّ مكان، الكثير منها. توقّف الرّجل أمام بناء غير مكتملٍ، حجارته ممتلئة بالحفر وفي الشّرفة المطلّة منه جلس بعض الرّجال. كانت واحدة من سيّارتَي التّاكسي، المتهالكتين تمامًا، من نصيبه. كانت مؤخّرتها مبعوجة بشكل بليغ، وإحدى المرآتين الجّانبيّتين غير موجودة، لم يبق منها سوى نصف حاملها البلاستيكيّ. قذف الرّجل حقيبته إلى سطح السّيّارة، ثمّ تناول تلك التي كانت في يد مُضيفي ورماها، أيضًا، فوق الإطار الاحتياطيّ في صندوق السّيّارة المغبّر. ثمّ، وأثناء خبطه غطاء السّيّارة حتّى انطبق، أشار إلى مُضيفي بالرّكوب. «المطار!»، سمع هتاف السّائق لأحد الرّجال الجّالسين فوق الشّرفة. ثمّ عبر، هو أيضًا، إلى السّيّارة.

الجّزء الثّاني

التّعويذة الثّانية

«دايكَنايغا، إِكوميه»-

أسألك أن تقبل تعويذتي الثّانية، لغة «إِلوِغويه»، وأن تعتبرها قربانًا- تقبّلها مثلما تتقبّل «انْغبُرُغه أُجي»، جوزة الكولا ذات الأربع فلقْات-

الحمد لك على ما أسبغته علينا من فضل، نحن معشر القرناء الحماة لبني البشر، بالمثول بين يديك في بلاط «بتشوكو» الدرّيّ، وتقديم شهاداتنا بالنّيابة عن مُضيفينا-

يقول الآباء إنّ الطّفل الذي يغسل يديه غسلًا نظيفًا سوف يتناول الطّعام مع الشّيوخ-

«إيبونو»، يدا مُضيفي نظيفة، قيِّض له تناول الطّعام مع الشّيوخ-

«إِزوَّه»، قيِّض للنّسر أن يربض، وقيّض للصّقر أن يربض، وأيًّا كان من يقول لا ينبغي للآخر أن يربض، فلينقصف جناحاه!-

الآن، لدى ترك مُضيفي أرض آبائه، ستتغيّر تفاصيل قصّته، لأنّ ما يحصل على ضفّة نهر لن يكون أبدًا ما يرشح داخل غرفة-

الجّمرة التي تُوضع في كفَّيّ طفل من قِبل والدته لن تؤذيه-

الشّجرة التي تودّ الزّواج من امرأة عليها أوّلًا أن تُنبت صَفْني خصيتين-

الأفعى لا بدّ من أن تلد ما يماثلها طولًا-

أدعو أن تظلّ مسامعك معي عبر تقديم شهادتي بالنّيابة عن مُضيفي، وعبر مناشدتي لك بمنع الرّبّة «آلا» من معاقبته-

«غاغان أَوغو»، إن كان ما حصل في الواقع هو ما أخشى أن يكون قد حصل بالفعل، فإنّني أدعوك إلى اعتباره جريمة عن غير عمد، تستأهل الرّحمة-

أدعو بأنّ ما سأسوقه من تفاصيل، سيقنعك بعدم إضمار مُضيفي أيّ نوايا سيّئة تجاه المرأة التي سبّب لها الأذى-

«إيبونو»، إنّ اللّيل يلفّ الآن عالم الرّجال، ومُضيفي نائم، دليل إضافيّ على أنّ هذا، إن كان قد حصل بالفعل، جريمة ارتكبت ببراءة-

إذ ليس هناك من أحد يصطاد في بحيرة جافّة أو يغتسل بالنّار-

لذلك، «أَغوجِغبه»، أتابع طرح تفاصيل ما جرى بجرأة!

10

الطّائر المنتوف

«**أُكا أومي**»، سمعت آباء في «آلاندِه تشِه»، ماتوا منذ زمن بعيد، يتساءلون بِحيرة لماذا تخلّى أبناؤهم عن نهج الآباء الأوّلين في الحياة. رأيتهم يتفجّعون على ما آلت إليه الأوضاع الرّاهنة. سمعت «نديتشه نني»، الأمّهات العظيمات، يتأفّفن من حقيقة أنّ بناتهنّ لم يعدن يقتدين بنهج أمّهاتهنّ في الهيئة والسّلوك. تتساءل الأمّهات العظيمات الموقّرات لماذا لم تعد أصباغ «أولي»، التي لطالما زيّنت بها الأمّهات أجسادهنّ بكلّ فخر واعتزاز، تُرى الآن أبدًا على أجساد بناتهنّ؟ لماذا «نْزو»، طبشور الأرض النّقيّ، لم يعد يُرى على الأجساد؟ لماذا يتكاثر الودع ويُدفن في مياه «أُزِميري[1]» من دون أن يُمَسّ؟ يولولن ويتساءلن لماذا كفّ أبناء الآباء عن تعبّد الـ «إكَنغا»[2] الخاصّ بهم وهكذا، من مستقرِّهم الموغل في البُعد عن الأرض، يُقلِّب الآباء المخلصون أبصارهم في طول البلاد وعرضها التي قطنوها ذات مرّة، من «امْبوسي» إلى «انْكبا»،

---

(1) أُزِميري: المحيطات بوصفها خزّانًا مائيًا واحدًا ومتّصلاً ومحيطًا بالأرض.

(2) إكَنغا: يعتقد الإيبو أنّ يد الرّجل اليمنى هي موضع قوّته وبراعته الجّسديّة ونجاحه المادّيّ لأنّه يحمل فأسه وأدوات حرفته بها. ومن هنا، نصب كلّ رجل منهم صنمًا خشبيًا يجسّد روح يده اليمنى «إكَنغا» داخل حرم شخصيّ، وتقرّب إليه بالعبادة والقرابين قبل إنجاز أيّ هدف ما. وكان الرّجال يأملون من ذلك أن تمكّنهم أرواح أيديهم اليمنى، «إِكَنغا»، من النجاح فيما يصبون إليه.

من «انْكانو» إلى «إِغبَرِّي»، ويعُدُّون ما نصبه الرّجال من أحرام لما لهم من قَرَناء حماة و«إكنغا»، فلا يجدون عددها يتجاوز أصابع اليدين. لماذا أصبح الآن مذبح القرين الحامي، حرم حقيقة المرء، في عداد الأشياء المنسيّة؟ لماذا اعتنق الأبناء نهج أولئك الذين لا يعرفون نهجهم؟ لماذا سمّموا الدّماء التي تربطهم بأسلافهم وأوصدوا الأبواب في وجه آلهة آبائهم؟ لماذا تُجوَّع الرّبّة «ألا» وهي من وهبت الدّيوك ريشًا وفيرًا؟ يتساءل الآباء الصّابرون بحيرة عبر تعبيرهم عن سخطهم المهيب، لماذا جفّت مذابح «أماديوها»[1] كجفاف حلوق الهياكل العظميّة فيما يسرح الماعز ويمرح في المراعي؟ ما لا يستوعبونه، فيما يبدو، هو أنّ الرّجل الأبيض سحر أبناءهم بمنتجات سحره. وعلى ما يبدو، نسي الآباء والأمّهات الأفاضل أنّ هذا بدأ في زمنهم.

سكنت في مُضيف قبل زهاء ثلاثمئة عام، عندما جلب الرّجل الأبيض مرايا إلى «نّنُوبِه»، أرض رجال في مثل بسالة وحكمة آلهة الأماكن الأخرى. لكنّهم وقعوا تحت إغواء فتنة هذا، وأُولعت نساؤهم به، فأصابهم هذا الشّيء بغمٍّ وكرب عظيم. رغم ذلك، عليّ قول إنّ النّاس في ذلك الوقت، وعلى مدار أكثر من مئة سنة، لم يهجّروا نهج أسلافهم. أخذوا تلك الأشياء -المرايا، وبنادق «داين»، والتّبغ- لكن لم يدمّروا أحرام قَرَنائهم الحماة. لكنّ أبناءهم أصبحوا مقتنعين بأنّ مفعول سحر الرّجل الأبيض كان أقوى، وسعوا وراء قواه وحكمته. بدأوا يرغبون في الحصول على ما كان لديه، مثل المركبة الطّائرة التي ركب مُضيفي فيها ليلة وصوله إلى لاغوس. حين يراها أبناء الآباء تتملّكهم الدّهشة دائمًا. يتساءلون: ما هذا الذي صنعته أيدي بشر؟ لماذا يتمتّع الرّجل الأبيض بكلّ هذه القوّة؟ كيف يمكن أن يتفوّق البشر على الطّير في التحليق عاليًا وسط السّماء؟ هذه أمور لا أفهمها. قبل

(1) أماديوها: إله البرق والرّعد، وهو من بين أهمّ آلهة الإيبو.

دورات وجوديّة كثيرة، سكنت جسد رجل عظيم شُدّ وثاقه مثل حيوان الأضاحي وحُمل إلى بلاد الرّجل الأبيض. ثمّ امتطى، هو، وآسروه، والمأسورون الآخرون من أمثاله ظهر «أُزِميري» العظيم، ذاك الذي نراه ممتدًّا حول العالم بلا توقّف، حتّى من هنا في بلاط «بتشوكو». امتدّت الرّحلة عبر هذا المحيط إلى أسابيع، لمدّة طويلة للغاية حتّى تعبت من مراقبة المياه. لكن حتّى في ذلك الحين اعترتني دهشة عظيمة حيال كيف كانت السّفينة قادرة على الحركة وعدم الغرق، بينما لا يقدر الشّخص الواحد على الوقوف فوق الماء.

تخيّل، «إيبونو»، كيف شعر أبناء الآباء حين قابلوا هذا المثل من أمثال الآباء الحكماء: «مهما وثب الرّجل عاليًا في الهواء، فلن يستطيع التّحليق في السّماء». ينبغي لهم إمعان النّظر في سبب قول الآباء هذا قبل أن يهزّوا رؤوسهم ويظنّوا الجهل بالآباء الحكماء. لماذا؟ لأنّ الرّجل ليس طائرًا. لكنّ الأبناء يرون شيئًا كالطّائرة فيُذهلون من سحر الرّجل الأبيض وكيف قلب هذه الحكمة رأسًا على عقب. يطير البشر يوميًّا بأوجه عديدة. نحن نراهم في طريقنا إلى «إلوِغويه»، يملأون الأجواء بمركبات فضّيّة. بل إنّ البشر يشنّون الحروب من السّماء! في إحدى دوراتي الحياتيّة الكثيرة في الأرض، كاد مُضيفي، إجِنكيونيه إزيغادي، أن يهلك بسلاح أُطلق من الجوّ على أوماهيا في العام الذي يشير إليه الرّجل الأبيض بعام 1969. علاوة على ذلك، يقول الآباء الأوّلون: «ليس بمقدور الرّجل تجاذب أطراف الحديث مع الغائب في بلد بعيد». هراء! لا بدّ من أن يصرخ أبناؤهم بهذه الكلمة حين يسمعون ذلك، لأنّ الأبناء يتجاذبون أطراف الحديث عن بُعد، كما لو كانوا ممدّدين جنبًا إلى جنب في السّرير نفسه. على أنّ الأمر لا يقتصر على هذه الأمور، بل يتعدّاها إلى الكثير.

حين تضيف إلى ما سبق، إغواء دين الرّجل الأبيض، واختراعاته،

وأسلحته (قدرته، مثلًا، على إحداث حُفر مثل فوّهات البراكين في سطح الأرض وتفجير الشّجر والبشر وتحويلهم إلى شظايا)، ستفهم عندئذ لماذا ترك الأبناء نهج الآباء الأجلّاء. لا يستوعب الأبناء أنّ نهج الآباء الموقّرين كان ببساطة مختلفًا عن نهج الرّجل الأبيض. كان الآباء الأوّلون يلتفتون إلى الماضي لأجل المضيّ قدمًا. لم يعوّلوا على ما كان بوسعهم أن يروه، بل على ما كان آباؤهم قد رأوه. ركنوا إلى أنّ كلّ ما كان يعوز البشر من معارف عن الكون، كانت قد اكتشفت منذ زمن بعيد. لذلك، لم يتصوّروا أنّ في استطاعة رجل يعيش في اللّحظة الماثلة أن يقول إنّه اهتدى إلى هذا أو اكتشف ذاك. لأنّ زعم رجل ما بهذا، وبأنّ هذا المرء حصل واتّفق أن يرى هذا **الآن**، كان يعني أنّ سائر من أتى قبله كانوا إمّا مقصّرين أو مستهترين، وهذا أمر في منتهى الكبر. لذا لو سألت أحد الآباء الأعلام، لماذا تزرع «اليام» في أكوام ترابيّة بدل أن تبذره مثل البذار؟ فسيردّ قائلًا، لأنّ والدي علّمني أن أفعل هذا. لو قال لك رجل إنّه لا يستطيع مصافحة شيخ باليد اليسرى، وسألته لماذا، فسيقول، لأنّ هذا ليس من «أومينالا»[1]. كانت حضارة الآباء متوقّفة على صيانة ما كان موجودًا، لا على اكتشاف أشياء جديدة.

يا شيوخ «ألانْدِه تْشِه»، آباء «آلا إيبو» الأوّل، وشيوخ الأقوام السّود وأهل الغابة المطيرة، أيّها الأوصياء على حكمة الرّجل الأسود ومعارفه، أنصتوا لي: منتجات سحر الرّجل الأبيض تلك هي السّبب في تذمّركم وبكائكم وعويلكم الآن على أبنائكم مثل الطّيور الدّاجنة بعد هجوم صقر عليها. إنّ الرّجل الأبيض هو من داس سننكم وأعرافكم طولًا وعرضًا. هو من أغوى أرواح أسلافكم. هو من سلّمت له آلهة أرضكم رؤوسها، فجزّ شعرها وحلقه حتّى الجماجم. هو من جلد السّدَنة والكهنة وشنق حكّامكم. هو من روّض حيوانات طواطمكم وسجن

(1) «أومينالا»: العرف والعادات والتقاليد.

أرواح قبائلكم. هو من بصق في وجه معارفكم وحكمتكم، فيما وقفت أساطيركم المغوارة في مواجهته وقد أصيبت بالخرس.

«إجانغو إجانغو»، لماذا تكلّمت بهذا اللّسان اللّاذع عن الأسلاف؟ لأنّ هذا الشّيء الذي حمل مُضيفي وآخرين في الجوّ كان بديعًا إلى حدّ يفوق الوصف. على مدار الرّحلة، تعجّب حتّى مُضيفي -المولع بالطّير- عن كيفية طيران هذا الشّيء. بدا له أنّ اندفاع الطّائرة كان يجري بواسطة جناحَيْه. حلّق عبر الغيم، وفوق امتداد الماء الشّاسع، الذي كان بلون السّماء في نهاية الموسم المطير. كان هذا «أُزِميري»، خزّان الماء العظيم الممتدّ على طول محيط العالم. وكان هذا الماء هو الماء المحتوي على الملح، «أُزِميري نْنُو». دمعك المقدّس، «تشوكو».

بدافع الفضول، خرجتُ من جسد مُضيفي وحلّقت خارج الطّائرة. فعبرت في الحال هذا الخلاء المقفر إلّا من الضّوضاء والأجسام الرّوحية. على مدى الأفق، رأيت مخلوقات غير متجسّدة -«أونيه أوى» وقرناء حماة وغيرهم- تسعى إلى مقاصدها، إمّا هبوطًا أو صعودًا بسرعة فائقة. على مسافة بعيدة، زحفت كتلة رماديّة من المخلوقات فوق الجرم المنير الذي كان الشّمس. حاولت أن أتجنّب النّظر إليهم وأن أركّز، عوض ذلك، على الطّائرة، التي لم يكن جناحاها يخفقان مثل الطّير. حوّمت فوقها، منطلقًا بسرعة خارقة غريبة لدى اندفاع الطّائرة بقوّة إلى الأمام. لم أكن قد توقّفت من قبل لمراقبة مثل هذا الشّيء، وأصابني بالذّعر. فعدت مباشرة إلى جسد مُضيفي. كان ما زال منشغلًا في تفحّص الطّائرة بانبهار، إذ إنّها كانت تحمل في جوفها أناسًا، وأجهزة تلفاز، وحمّامات، وأطعمة، ومقاعد، وكلّ ذاك الذي يمكن العثور عليه في بيوت النّاس على الأرض. لكنّ قسطًا كبيرًا من تفكيره كان يحوم حول ندالي.

سرعان ما داهمه النّوم، وعندما استيقظ، كانت كثير من الأشياء تدور

في آن واحد. كان النّاس يصفّقون ويهلّلون حتّى لدى عودة صوت إلى الحديث عبر صناديق الصّوت. أمّا الطّائرة نفسها، فكانت قد ارتطمت وانطلقت بتسارع الآن فوق مكان أدرك بأنّه لم يعد الجوّ، إذ كان قادرًا على الإحساس بالارتجاجات فوق سطح الأرض. كما كانت الطّائرة الآن ممتلئة بالضّوء، ضوء النّهار من الخارج والضّوء الصّناعي من الدّاخل. رفع غطاء النّافذة، ففهم سبب الهرج والمرج. انفجر الفرح في أعماقه هو أيضًا. فكّر في أن والده ووالدته لو كانا على قيد الحياة الآن، فكم كانا سيكونان فخورَيْن به. فكّر في «نكرو» في لاغوس. تساءل في نفسه عمّا كانت الحياة قد شغلتها به الآن. تساءل، بشيء من الأسى، إن كان لديها الآن طفل من ذلك الرّجل الذي كان يكبرها بكثير. عندما يفكّر أبناء البشر في أمور غير سارّة، فإنّ نمط تفكيرهم لا يتوافق مع نمط تأمّلهم في الأمور السّارّة. هذا هو السّبب في أنّ ذهن مُضيفي استحضر وأكّد على عمر زوج أخته. سوف يتّصل بها من هنا، إستنبول: لعلّ هذا سيغيّر الوضع بينه وبينها. لعلّه يجدّد إيمانها بأنّه شقيقها، الفرد الوحيد الذي بقي لها من عائلتها. لكن كيف يمكن له أن يفعل ذلك؟ لم يكن لديه رقم هاتفها ولا رقم هاتف زوجها. كانت هي من يقوم بالاتّصال به من هاتف عموميّ في المناسبات الخاصّة مثل عيد الميلاد، ورأس السّنة، وأحيانًا في عيد الفصح، وذات مرّة في ذكرى وفاة أبيهما. في ذلك اليوم، بكت على الهاتف بصورة صدمته، ومنحته الأمل في أنّ علاقتهما قد تتجدّد فيما بعد. لكن حين أنهت المكالمة بجملتها المعهودة: «اتّصلت كي أطمئنّ عليك فقط»، عرف بأنّ الغياب سيبتلعها ثانية.

انتشلته من أفكاره تلك، موجة تصفيق وجلبة اندلعت فجأة. بوجوه غاصّة بالفرح، شرع النّاس في إنزال حقائبهم عن الرّفوف، وتثبيت ما يُحمل منها فوق الظّهر، ورفع مقابض ما يُجرّ منها على الأرض. أسباب فرحهم كانت متباينة، لكنّ موجة التّصفيق والصّياح بعبارات «الحمد

للرّبّ» و«هلَلُويا» التي كانت قد اندلعت من خلفه، حملته على معرفة أنّ سعادة النّاس كانت بسبب هبوط الطّائرة بسلام. اعتقد أنّ سلسلة الحوادث الأخيرة الخاصّة بالطّائرات في نيجيريا وراء ذلك. فقبل مدّة، تحطّمت طائرة تقلّ بعض الأعيان، من بينهم سلطان «سُكوتو» وابن رئيس سابق، وأدّت إلى مقتل كافّة الرّكّاب تقريبًا. وقبل أقلّ من سنة على ذلك، تحطّمت طائرة أخرى، وتسبّبت في مقتل راعي أبرشيّة معروفة، «بِمبو أُدُكويا». لكنّه رجّح بأنّ فرح هؤلاء كان أكبر بسفرهم إلى هذا البلد الجّديد بعيدًا عن ذلك المكان الذي عانوا فيه الكثير. كانت الطّائرة قد أقلعت بهؤلاء النّاس بعيدًا عن أرض الفاقة والعوز، عن أرض يتجبّر فيها الرّجل على أخيه الرّجل، عن أرض يُعدّ فيها ألدّ أعداء الرّجل هم آل بيته؛ أرض خاطفين، وجرائم قتل طقوسيّ، وشرطة يتنمّر أفرادها على من يصادفونه في الطّريق ويطلقون النّار على من لا يدفع الرّشوة، وزعماء يعاملون رعيّتهم باحتقار ويسلبونهم ثروتهم العامّة، أرض الأزمات وأعمال الشّغب المتواصل، أرض الإضرابات، والبطالة، وأزمات الوقود، وانقطاع الكهرباء، وشبكات المجاري المسدودة، والطّرق المحفّرة، والجّسور المتداعية، والشّوارع القذرة، والأحياء المكتظّة بالقمامة.

«أُليسا بنِغْوه»، يقول الآباء العظماء: «حين يعبر الرّجل إلى أرض مجهولة، يصبح كالطّفل من جديد». إذ لا بدّ للرجل من الاعتماد على الآخرين وعلى السّؤال والبحث والتّفتيش عن الاتّجاهات. لهذا، أيضًا، لم يعرف مُضيفي، حال خروجه من الطّائرة، ما يتوجّب عليه فعله. فالمكان الذي دلفوا إليه، مطار، كان ضخمًا للغاية وغاصًّا بأناس من كافّة الأجناس. فكّر أوّلًا في حقائبه الكبيرة، حيث وضع معظم المتاع الذي احتفظ به ولم يبع أو يحرق أو يترك في عهدة عمّه، لكنّه تذكّر ما رُدّد على مسامعه المرّة تلو الأخرى، سيستلمها حال وصوله إلى

قبرص. لم يكن بحوزته الآن سوى تلك الحقيبة الصّغيرة التي أعطتها ندالي له، والتي احتفظ فيها بأوراق القبول، وبرسالتها، وصوَرها، وكافّة ما كان بحاجة إلى تقديمه من وثائق مهمّة إلى الجّامعة في البلد الجّديد. دلف أبناء بلده السّود، أيضًا، إلى الزّحام وتفرّقوا وسط طوفان النّاس المتحرّك. وسواء ظهروا من اليسار أم اليمين أو من الخلف، فإنّ ظهورهم هذا كان وميضًا خاطفًا وسط الحشود الغفيرة. توجّه إلى وسط القاعة الفسيحة، حيث السّاعة الضّخمة المتدلّية من السّقف. وقف خلف زوجين عجوزين من أصحاب البشرة الصّفراء، كانا واقفين هناك وقد حدّقا إلى السّاعة وكأنها جثّة رجل مشنوق من شجرة. علا نفير عربة صغيرة من خلفه. تنحّى جانبًا، فتابعت العربة السّير وإطلاق النّفير لشقّ الطّريق وسط الجموع المتجمهرة في أروقة القاعة. ذكّرته القاعة المكتظّة بالنّاس التي كان يتردّد في جنباتها الإعلان عن الرّحلات القادمة والمغادرة بأسواق «أوماهيا». استدار ومشى في الاتّجاه الذي لاحظ أنّ أكثر أبناء بلده مضوا فيه.

حين قطع مسافة نصف كيلومتر تقريبًا، مارًّا عن كثير من الأمور المثيرة للفضول، صادف أحد أبناء بلده، كانت لحيته طويلة وفوق عينيه نظّارة سوداء. سأل ابن البلد عمّا ينبغي أن يفعله. فسأله ابن البلد عن بطاقة الصّعود إلى الطّائرة. فأخرج قصاصة كانوا قد ناولوه إيّاها في المطار وناولها لابن البلد الذي نظر فيها بدوره وقال: «ستغادر طائرتك إلى قبرص في السّابعة مساءً. أمّا الآن فالسّاعة تشير إلى تمام الثّالثة عصرًا. لذا، ليس أمامك سوى الانتظار. إنّني ذاهب إلى هناك، سيف. لا تقلق ولا تتوتّر، استرخِ فحسب، إر؟».

شكر الرّجل، فمضى ابن البَلد في حال سبيله، ماشيًا وكأنّه كان يرقص رقصًا خفيفًا. «استرخِ»، قال له ذلك الرّجل. كان معنى هذه الكلمة: «انتظر». وكان معناها، أيضًا، أنّ ثمّة أمورًا كثيرة لا يستطيع

المرء أن يتحكّم بها. ثمّة قوى يجب أن تجتمع، أمور يجب أن تتضافر معًا، مقدار مقرّر من الوقت، ورمز سرّي مقبول يجب أن يُترجم، في النّهاية، إلى شيء ماديّ يستتبع الحركة. كي يغادر هذا المكان، يجب أن يتجمّع مع غيره ممّن سدّدوا ثمن الذّهاب إلى الوجهة نفسها. عندما يتجمّعون، سيركبون الطائرة. سيكون هناك أشخاص في انتظارهم لتشغيل الطائرة والإقلاع بها. لكن علينا ألّا ننسى، «إيبونو»، بأنّ هذا لن يحصل قبل أن تدقّ السّاعة مؤذّنة تمام السّابعة. لا بدّ من أنّ هذه الدقّة هي ما سيستدعيه -هو وسائر هؤلاء النّاس- إلى التجمّع. في زمن الآباء، كان منادي القرية ودقّات طبله النّحاسيّ هو ما يستدعي النّاس إلى الحضور في ساحة القرية والتجمّع فيها. أما حضارة الرّجل الأبيض فهي معتمدة تمامًا على دقّات السّاعة. ولو جرّدته من هذا، لما أصبح أيّ شيء ممكنًا في عالمه.

ما الذي يجب أن يفعله أثناء انتظار السّاعة ريثما تدقّ وتعلن تمام السّابعة؟ الاسترخاء. لكن أنا، قرينه الحامي، لم أستطع الاسترخاء. شعرت أنّ ثمّة شيئًا في عالم الأرواح لم يكن يسير على ما يرام، لكنّي لم أكن قادرًا على تحديد ما هو بالضّبط. عثر مُضيفي على مقعد قرب محلّ تجمّع فيه البعض لاحتساء الشّراب وتدخين السّجائر. جلس وانشغل في مراقبة تلك المقصورة الزّجاجيّة، تابع انعكاس صورة شفّافة فوق سطح الزّجاج لرجل ملتح يتحرّك هنا وهناك وكأنّه ممسوس. ذكّرته كيف أنّ لحيته استطالت بعد وفاة والده، وكيف أنّه لم يحلقها طوال أسابيع، وكيف نظر ذات يوم إلى نفسه في المرآة، فضحك طويلًا طويلًا، حتّى تساءل فيما بعد إن كان قد جنّ.

إلى جنبه، كانت امرأة بيضاء غافية، جفناها يرتعشان كجفنَي طفل. راقبها لبضع دقائق، وتتبّعت عيناه وريدًا ضاربًا إلى الخضرة فوق رقبتها، ثمّ تأمّل أظافرها الطّويلة المصبوغة بالأزرق. ذكّرته بالآنسة جاي، فتساءل إن كانت ما زالت من بنات الهوى.

أثناء جلوسه هناك، «تشوكو»، خرجت منه لفترة وجيزة. كنت أتحرّق شوقًا لمعرفة شكل عالم الأرواح في هذا المكان، لكنّي لم أتمكّن من تركه بسبب حالته الذّهنيّة القلقة. الآن، فور خروجي منه، رأيت أنّ المكان كان زاخرًا بالأرواح، شكل وقوام البعض منها في غاية القبح والشّناعة، حتّى أنّ صورتها انطبعت في ذهني إلى الأبد. كان واحد منها مهندمًا في الزّيّ الضّبابيّ للأشباح الغابرة والكائنات غير المتجسّدة، ما رأيت قطّ شيئًا بمثل لونه الباهت الشّاحب. كان واقفًا خلف رجل أبيض ذابل جالس في كرسيّ ذي عجلات، محدّقًا إلى الأمام بنظرات فارغة. فوق أرضيّة المطار، جلس شبح بمفرده، غير آبه بمن كانوا يسيرون ذهابًا وإيابًا عبره. ركل طفل كرة عبر جذعه غير المادّيّ الملموس، لكنّه لم يحرّك ساكنًا. بل تابع هز الرّأس، والإيماء، والتحدّث بكلام سريع مدرار بلسان أعجميّ.

نهض مُضيفي من مقعده لدى رجوعي إليه، ثمّ مشى طويلًا قبل مصادفة رجلين نيجيريّين جلس خلفهما مباشرة في الطّائرة. كانا قد خرجا في تلك اللّحظة من محلّ شديد الإضاءة، وفي أيديهما أكياس متشابهة مزدانة بألوان عديدة مثل كثير من النّاس في المطار. اهتدى، ممّا التقطته أذناه من مقاطع قليلة من حديث الرّجلين خلال جلوسهما في الطّائرة، ومن هيئة أحدهما، إلى أنّ أحدهما عاش في قبرص لبعض الوقت. كان هذا الرّجل، الذي ظنّه مُضيفي قد عاش في قبرص، يرتدي سترة عاديّة وسروالًا من الجينز، وفي أذنيه سدّادتان. أمّا الآخر، رجل بطول مُضيفي، فكان يرتدي سترة من الصّوف المحبوك. كان رديء المظهر وثمّة كسل ونعاس في إحدى عينيه، وملامحه ملامح شخص معذّب من الدّاخل. خفّ مُضيفي الخطى صوبهما، متوخّيًا معرفة ما يتوجّب عليه فعله. نادى عليهما صائحًا: «عذرًا أيّها الأخوان».

عندما أقبل عليهما، نقل صاحب السّترة العاديّة حقيبته من كتف

لآخر، ثمّ مدّ يده مصافحًا، وكأنّه كان يتوقّع قدوم مُضيفي. قال مُضيفي: «عذرًا، هل أنتما من نيجيريا؟».

ردّ الرّجل قائلًا: «أجل، أجل».

فسأله مُضيفي: «وهل أنتما ذاهبان إلى قبرص؟».

ردّ الرّجل: «أجل».

أمّا الآخر، فأومأ وقال: «أنت لا ذهبت إلى هناك من قبل؟».

ردّ مُضيفي: «لا، أنا أبدًا ذهبت إلى هناك من قبل».

نظر الآخر إلى الرّجل، الذي حملق فيه بنظرة مشبعة بالفضول لدى مرور بعض من كانوا معهم في الطّائرة نفسها، ثمّ قال: «أنا، أيضًا، أبدًا ذهبت إلى هناك. في الحقيقة، يا أخي، أتمنّى لو كان أحدهم قد حذّرني قبل أن أترك نيجيريا».

فسأله مُضيفي: «لماذا؟».

قال الآخر وقد أشار بإصبعه صوب صاحب السّترة العاديّة: «لماذا؟ تي تي كان هناك من قبل، هو يقول إنّه لا مكان حسن».

نظر مُضيفي إلى تي تي، الذي كان يومئ برأسه. ثمّ قال: «أنا كلّا أستوعب. ماذا تعني بأنّه مكان غير حسن؟».

غمغم الآخر بضحكة واهية، متابعًا هزّ رأسه وكأنّه نطق بحقيقة كونيّة معروفة واكتشف بأنّ من يحدّثه لم يكن على علم بها. ثمّ قال: «دع تي تي يخبرك بنفسه. أنا أبدًا ذهبت إلى هناك، أنا فقط جلست معه في الطّائرة من لاغوس وهو أخبرني بأمور كثيرة».

أخبر تي تي مُضيفي عن قبرص. وكان ما قاله محبطًا. لم ينقطع تي تي عن الكلام إلّا حين كان مُضيفي يطرح سؤالًا: «تعني ليست هناك فرص عمل على الإطلاق؟»؛ «لا، هل أنت جديّ فيما تقوله؟»؛ «لكن أليست هي من أوروبا؟»؛ «ليست هناك سفارة بريطانيّة أو أميركيّة؟»؛ «وضعوك في السّجن؟»؛ «كيف ولماذا؟»، لكن حتّى بعد انتهاء تي تي من رواية قصّته، لم يستطع مُضيفي أن يصدّق معظم التّفاصيل.

قام الرّجل الآخر، الذي كان تي تي قد عرّفه باسم لاينَس أثناء الحديث، بوضع يديه فوق رأسه ثمّ قال: «يا للمصيبة! يا لخراب بيتي! آي مي، أوه!».

في تلك اللّحظة، أصاب مُضيفي اضطراب عظيم، وشرد بذهنه بعيدًا عن هذين الرّجلين، وراح يتمتم في سرّه بأنّ هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا. تساءل في نفسه، كيف يمكن ألّا يكون هناك فرص عمل في الخارج، حيث يعيش البيض؟ لعلّ من ذهب إلى هناك من الطّلبة النّيجيريّين كانوا كسالى. لو كان المكان حقًّا بمثل ذلك السوء الذي يتحدّث عنه تي تي، فلماذا سيرغب تي تي نفسه بالذّهاب إلى هناك؟ كلّ تلك الأخبار تتناقض تمامًا مع كافّة ما أخبره به صديقه جامايك عن المكان. أكّد له جامايك بأنّ حياته ستتغيّر إلى الأفضل حال وصوله إلى قبرص. أكّد له جامايك بأنّه سيتمكّن من امتلاك بيت بسهولة بعد مدّة من وصوله إلى هناك، وبأنّ الهجرة من هناك إلى أوروبا أو إلى أيّ وجهة أخرى ستكون سهلة.

فيما واصل الرّجل، تي تي، الحديث عن كثير ممّن كانوا قد خُدعوا ووقعوا في شرك الذّهاب إلى قبرص، أنصت مُضيفي له بنصف سمعه، أمّا النصف الآخر، فكان منصرفًا إلى مقارعة صوت رأسه.

«تشوكو»، قدحتُ في ذهنه أنّ قراره كان القرار السّليم. فقرّر في سرّه بأنّ من الأفضل مهاتفة جامايك والاستفسار منه عن تلك الأمور، عوض التّريّث إلى حين مجيء جامايك لاستقباله في المطار في قبرص. فعلًا، فور تلاشي هذه الفكرة الأخيرة من ذهنه، تذّكر بأنّ جامايك كان قد طلب منه على وجه التّحديد أن يتّصل به فور وصوله إلى إستنبول. رغم أنّ تي تي كان يواصل الحديث -الآن عن رجل اكتشف، لدى وصوله إلى قبرص، بأنّه قد غُرّر به، وهو يمشي الآن بثياب ممزّقة مثل المجنون- إلّا أنّ مُضيفي تململ وحرّك قدميه في إشارة إلى عزمه على

الذّهاب. حال أن توقّف تي تي عن استرساله في الكلام، قال مُضيفي: «أودّ أن أذهب للاتصال بصديقي. يقوم أنا اتصال بنفسي، إر».

هزّ الثّنائيّ رأسيهما، وارتسمت ابتسامة حائرة قليلًا فوق وجه تي تي. ذهب مُضيفي إلى هاتف عموميّ وقد صمّم على التأكّد من جامايك بأنّ كافّة ما قاله تي تي إمّا أن يكون غير صحيح أو أن يكون محاولة لإلقاء الذّعر في قلب الرّجل الآخر. ربّما كان تي تي يحاول الاحتيال على الرّجل الآخر، واستخدم هذه المعلومات الكاذبة كجزء من عملية الاحتيال. عليه توخّي الحذر في التّعامل مع هذين الرّجلين. كنت مأخوذًا بهذا المنطق. فقد عشت دهرًا بين البشر، وتعلّمت أنّ الرّجل حين يقابل رجلًا آخر لا يعرفه، تسود لقاءهما الرّيبة دائمًا، وبدرجة أقلّ، سوء الظّنّ. فإن قابل الرّجل رجلًا آخر في السّوق، وجرت بينهما عملية مقايضة، فعندئذ يطلّ الخوف برأسه. هل سيخدعني؟ هل هذه الحبوب، أو كأس الحليب، أو السّاعة، تستحقّ هذا المبلغ الباهظ؟ وإن قابل الرّجل امرأة أعجبته، فإنّه يتساءل في سرّه قائلًا: «هل سأنال إعجابها؟ هل ستوافق على الخروج واحتساء كأس بصحبتي؟».

سار مُضيفي مترنّحًا، وقد اعترته حالة من البلبلة والتّشوّش الدّاخلي، وأصيب ذهنه بنزيف من الأسئلة. سار باتّجاه الطّرف الآخر من المطار صوب الهواتف العموميّة. وقف خلف رجلين في ثوبين أبيضين أمام الهاتف الثّاني من بين الهواتف الثّلاثة. فاحت منهما رائحة عطر باهظ الثّمن. كلاهما كان يحمل كيسين من الأكياس التي كان يحملها جميع من كانوا في المطار تقريبًا، أكياس كُتب عليها **«ديوتي فري»**، عبارة لم يعرف ما تعنيه. لمّا فرغ صاحبا الثوبين الأبيضين من مكالمتهما، حلّ الدّور عليه. أخرج ورقة الفولسكاب التي سجّل رقم جامايك فيها، ثمّ ضرب الرّقم مستعينًا بالتّوجيهات المعلّقة إلى جانب الهاتف. لكنّ أذنيه لم تستقبلا سوى خطّ رديء، علا صوت منه أعلن عن عدم

صحّة الرّقم، ثمّ تحوّل إلى الحديث بلسان غير مألوف. أعاد المحاولة، ضرب الرّقم من جديد، لكنّه لم يحصل إلّا على النتيجة نفسها.

«إزوّه»، منذ أن رافقته في هذه الحياة، لم أره، ولو مرّة واحدة، في مثل تلك الحالة من الصّدمة. أنزل الحقيبة عن كتفه ووضعها على الأرض، ثمّ ضرب الرّقم ثانية، الرّقم نفسه الذي هاتفه جامايك منه في الأسبوع الماضي فقط. كان على وشك ضرب الرّقم ثانية، لكن بعد أن التفت إلى الوراء، رأى الطّابور قد امتدّ من خلفه، وأبصر علامات التّرقّب ونفاد الصّبر فوق الوجوه المصطفّة فيه. عندئذ، أعاد السّمّاعة إلى مكانها، ثمّ شقّ طريقه، وعيناه ما زالتا فوق الورقة، وسط المطار المزدحم. لمّا وصل إلى البقعة التي كان فيها الرّجلان، لم يعثر لهما على أثر. في مكانهما، كان يقف رجل أبيض، لحيته كثّة وعيناه مصابتان بالرّمد، محدّقًا إلى العالم حوله بجَلَد وكأنّ أحدهم قد أشعله بالنّيران.

«إيبوبديكي»، التقطت هنا أوّل نظرة خاطفة لكلّ ما سيأتي.

«أُبا سيدي نلو»، في ذلك الوقت، لم أفقه تمامًا حقيقة ما رأيته، لا أنا ولا مُضيفي. ما فهمته، وما فهمه هو كذلك، أنّ هناك شيئًا ما سار على نحو خاطئ، لكن هذا لم يكن بالسّبب الذي يدعو إلى القلق. فهذا العالم لم يكن عالمًا مثاليًّا لا تسير فيه الأشياء على نحو خاطئ. وحقيقة أن الأشياء كانت قد سارت على نحو خاطئ لم تكن تعني دائمًا أنّ ثمّة كارثة تلوح في الأفق. لهذا يقول الآباء الأوّلون: «حقيقة أنّ أمّ أربعة وأربعين لديها ما يربو على مئة قدم، لا تعني بأنّها عدّاءة ماهرة». من الممكن للأشياء أن تكون معوجّة؛ من الممكن للعتمة أن تتغوّل وأن تعتدي على ضوء النّهار؛ لكنّ ذلك لا يعني دائمًا أن اللّيل قد خيّم. لهذا، لم أقرع ناقوس الخطر. بل تركت مُضيفي يتابع البحث عن الرّجلين إلى أن عثر عليهما، قبل ساعة على موعد الرّحلة. كانا

جالسين قرب نافورة وهما محدّقين إلى شاشة حاسوب. ركض إليهما بسرعة من يفرّ من نمر أرقط. لما وصل، كان قد انقطع نفسه.

أشار تي تي إلى المكان الذي علت في مدخله يافطة كُتب عليها بلسان الرّجل الأبيض: «ردهة الطّعام»، وقال: «ذهبنا لتناول الطّعام. هل اتّصلت بصديقك؟».

هزّ مُضيفي رأسه وقال: «حاولت ثمّ حاولت، لكن لا جدوى. لا جدوى على الإطلاق».

«لماذا؟ أرني الرّقم. هل هو صحيح، مفتاح الخطّ الدّولي؟ يجب أن يكون مؤلّفًا من أحد عشر رقمًا.

ناوله الرّقم، فحدّق تي تي إليه مليًّا ثمّ قال: «أهذا هو الرّقم؟».

«أجل، هو كذلك يا أخي».

هزّ تي تي رأسه ولوّح بالورقة قائلًا: «لكن هذا كلّا يمكن أن يكون رقم قبرص. هذا ليس رقم قبرص على الإطلاق، على الإطلاق، صدّقني».

«إنني كلّا أفهم».

اقترب منه تي تي وأشار إلى الأرقام في الورقة بإصبعه، ثمّ قال: «قبرص تستخدم المفتاح التّركيّ. جمهوريّة شمال قبرص التّركيّة. مفتاحها صفران تسعة صفر. أمّا مفتاح هذا الرّقم فهو صفران ثلاثة أربعة. هذا ليس رقم قبرص على الإطلاق».

تجمّد مُضيفي في مكانه، مثل طائر أصابه الوجوم في كبد السّماء. ثمّ نطق أخيرًا وقال: «لكنّه اتّصل بي عدّة مرّات».

ردّ تي تي: «عبر هذا الرّقم؟ صدّقني، إنّه كلّا رقم قبرص. هل أعطاك أيّ عنوان لتقابله فيه».

هزّ مُضيفي رأسه. فقال تي تي: «كلّا عنوان. أه، أوكيه. هل أعطاك أيّ رسالة؟ كيف أنت حصلت على التّأشيرة؟».

ردّ مُضيفي: «أرسل هو إلى أنا رسالة قبول. أنا أخذت هي إلى السّفارة».

فتح حقيبته الصّغيرة على عجل، وناول تي تي ورقة. وفيما عكف تي تي على دراستها، استرق مُضيفي ولاينَس النّظر إليها. ثمّ قال مُضيفي: «إرهن، جامايك تواصل مع الجّامعة. هذه رسالة قبول أصليّة».

لكنّ تي تي تجاهل ذلك وقال: «سدّد أقساط الجّامعة، أيضًا، كون هذه الرّسالة هي رسالة قبول غير مشروط. طلبت منك هذه الورقة لأنّني قابلت الكثيرين ممّن احتال عليهم صبية محتالون وطوّقوا رؤوسهم بالأسلاك الشّائكة. يتظاهر هؤلاء الصّبية بأنّهم وكلاء للجّامعة ويسرقون نقود هؤلاء الأشخاص. لكن لا يقوم هؤلاء الصّبية بتسديد الأقساط أبدًا، بل يلهفونها فقط».

«إجانغو إجانغو»، ذُهل مُضيفي. حاول أن يقول شيئًا، أن يذيب قطعة أفكار تجلّطت في ذهنه وتحوّلت إلى ورم، لكنّ الورم استعصى على الذّوبان. بصمت، استردّ الورقة من تي تي الذي هزّ رأسه وقال: «أعتقد أن جامايك هذا هو أحد صبية ياهو، نصّابي الانترنت، وأظنّ أنّه أوقعك في حبائله».

ردّ مُضيفي متسائلًا: «كيف؟».

فأجابه تي تي: «هل اتّصلت بالجّامعة مباشرة؟».

كان يهمّ بقول إنّه لم يفعل، لكن، عوض ذلك، اهتزّ رأسه بالنّفي. وردًّا على ذلك، أطلّت ابتسامة من وجه تي تي مرفقة بسؤال آخر: «لم تفعل إذًا؟».

ردّ مُضيفي: «هو كذلك. لكن لديّ رسالة قبول ممهورة بختم الجّامعة. بل أنا رأيت هويّته الجّامعيّة. وتصفّحنا معًا موقع الجّامعة في مقهى الانترنت. جامايك طالب يدرس هناك».

ردّ تي تي بالصّمت، وإلى جنبه، وقف لاينَس متفرّجًا، وقد فغر فمه

بعض الشّيء. حملق مُضيفي في كلا الرّجلين، وقد ارتجفت أوصاله. ثمّ قال تي تي: «إممم»...

فعقّب مُضيفي قائلًا: «جامايك سدّد أقساط الجّامعة لأنّ الجّامعة لا تقبل إلّا شيكّات مصارف تركيّة أو تحويلات دوليّة. لا يقبلون تحويلات مصرفيّة من مصارف نيجيريّة».

أبصر المرأة التي كانت غافية إلى جنبه في السّابق وقد مرّت من قربهم، جارّة حقيبة من خلفها. ثمّ تابع كلامه قائلًا: «ولأنّه كان سيعود إلى هناك، قمت بتصريف نيراتي وأعطيته كلّ نقودي».

كان سيتابع الكلام لولا أنّه رأى فم تي تي وقد فغر على اتّساعه من الدّهشة، بل حتى الرّجل الآخر هزّ رأسه وقال: «أنت ما كان يجب أن تعطي هو كلّ تلك النقود».

أشار تي تي إلى بوّابة على مسافة، حيث كان كثير من ركّاب الطّائرة النّيجيريّة قد بدأوا بالاصطفاف، وقال: «أه، يجب أن نذهب الآن لركوب الطّائرة».

تناول تي تي حقيبته وألقاها فوق ظهره. فيما راقب مُضيفي لاينَس لدى التقاط حاجيّاته من الأرض. من دون سبب واضح، تذكّر فرخ الإوزّ. كيف كان، في الأوقات التي بدا عليه فيها أنّه تذكّر أمّه وموطنه، يندفع بقوّة صوب النّافذة، أو الباب، أو أيّ مخرج متاح. وكيف كان يظنّ، أثناء فراره، أنّ الشّجرة التي كان يراها عبر النّافذة، كانت تعني أنّ بمقدوره النفاذ إلى الخارج. فيندفع بعنف نحو النّافذة، ويرتطم رأسه بها، ثمّ ينطرح أرضًا كما لو كان ميتًا.

قال تي تي: «ألن تأتي أنت أيضًا؟».

رفع مُضيفي بصره، فرأى فرخ الإوزّ ممدّدًا هناك، أسفل الحائط، رأسه منحنٍ فوق رقبته وجناحاه يضربان سطح الأرض. رَمش، أغلق عينيه، ولماَ فتحهما، رأى تي تي محاطًا بأضواء وشاشات لا تُعدّ ولا تُحصى. أومأ برأسه ثمّ لحق بهما قائلًا: «أنا آت أيضًا».

قال تي تي: «لعلّك تلقى جامايك بانتظارك في مطار إركان. هوّن عليك، إر؟ لا خوف».

أومأ الرّجل الآخر برأسه أيضًا وقال: «كلّا تخف، لن حصل شيء. كلّا خوف، خوف اذهب خوف كّلا خوف!».

أومأ ثانية وقال، كما لو كان مؤمنًا بما نطق به: «أنا ذاهب كلّا خوف».

«**أَكوا أكُورو**»، غالبًا ما يقول الآباء العظماء: «العُلجوم الذي يمتلئ فمه بالماء، لا يستطيع ابتلاع ولو نملة». رأيتهم يضربون هذا مثلًا على حالة يمرّ بها ذهن الرّجل حينما يستولي عليه أمر يهدّد سلامه الدّاخلي ويستنزف طاقته بالكامل. هذه هي الحالة التي اعترت ذهن مُضيفي. فطوال الرّحلة، ظلّ ذهنه متشبّثًا بكلمات الرّجلين اللّذَين جلسا الآن في مؤخّرة الطّائرة. أمّا هو، فجلس في المقدّمة، محاطًا بأعداد من البِيض فاقت ما كانت عليه في الطّائرة السّابقة الأضخم حجمًا. كان معظمهم من الشّباب والشّابّات الذين، حسبما اعتقد، كانوا طلبة كذلك. حتّى المرأة التي جلست إلى جنبه، شعرها بنّي طويل، كان يبدو عليها أنّها طالبة أيضًا. كانت قد تجنّبت طوال الرّحلة أيّ التقاء عفويّ لعينها بعينه، محدّقة إلى شاشة هاتفها أو إلى صفحات مجلّة مصقولة الأوراق. لكن أثناء جلوسه هناك، راح الخوف، الذي تحوّل إلى فأر اتّخذ من ذهنه جحرًا له، ينبش في دهاليز رأسه، قاضمًا في طريقه كافّة التّفاصيل. ولمّا اقتربت الطّائرة من البلد الجّديد، وتأمّله عبر النّافذة، أكّدت له مشاهداته على كلمات الثّنائيّ المقيتة. فعوض المباني العالية والجّسور الضّخمة التي رآها عند هبوطه في إستنبول، رأى الآن أرضًا صحراويّة قاحلة، وجبالًا، وبحرًا. في لحظة نزوله من سلّم الطّائرة إلى غبش المغيب، مع المسافرين الآخرين، كانت تفاصيل ما رآه قد تضخّمت وتحوّلت إلى رعب مغلّف بالكياسة والتّهذيب.

كان المطار، من منظور عينيه، صغيرًا. بدا، من نواحٍ عديدة، مثل نظيره في نيجيريا عدا عن أنّه كان أنظف وأكثر ترتيبًا. لكنّه يفتقر إلى جمال ورُقيّ مطار إستنبول. كان رخيصًا، بلا ألق أو بهجة، متماثلًا في الشّكل والمضمون مع وصف تي تي له. فور أن رأى الرّجلين اللّذَين عذّبته كلماتهما طول الرّحلة، ذهب إليهما. وجدهما برفقة رجل آخر، عرّف على نفسه باسم جاي، وتحدّث عن فترة قضاها في ألمانيا. وقفوا حيث كان معظم النّاس قد تجمّعوا، مترقّبين أن تتقيّأ فتحة سوداء حقائبهم. خرجت حقيبتاه بقفلين سليمين غير مهشّمَيْن، أمّا وزنهما فكان كما يتذكّره عندما حملهما لآخر مرّة. كان قد سمع بأنّ عمّال المطار في نيجيريا يفتحون الحقائب أحيانًا، ويسرقون الحاجيّات منها قبل تحميلها في الطّائرات. هذا لم يحصل له. جرّ الحقيبة ذات العجلات، وحمل الأخرى في يده، ثمّ مضى خلف الرّجلين. كانا منهمكين في الحديث مع «جاي»، هذه المرّة حول سلوك النّساء في كلا البلدين –هذا البلد، الذي أشار إليه تي تي مرارًا بـ«جمهوريّة شمال قبرص التّركيّة» أو «هذه الجّزيرة»، وألمانيا التي عرفها جاي. أنصت إلى الحديث، وذهنه ما زال معلّقًا بالهاتف العموميّ في مطار إستنبول.

لمّا خرجوا من المطار، كان الظلام قد هبط برشاقة، وعمّت الهواء رائحة غير مألوفة. استقبلهم لفيف من السّيّارات المتجمّعة أمام المطار. رجال ناطقون بالتّركيّة، مشيرين بأيديهم إلى سيّارات سوداء من طراز مرسيدس «بينز» أو «في بوث»، أومأوا له بالقدوم.

قال تي تي: «إنّهم سائقو تاكسي».

كان تي تي قد ارتدى فوق رأسه قبّعة، وارتسمت فوق وجهه نشوة شخص عاد إلى أرض الوطن. لم يكن في قسماته أيّ شيء يدلّ على ذلك الوضع المريع فوق الجّزيرة الذي بذل مجهودًا جمًّا في وصفه. وتلك الابتسامة المحيّرة ما زالت مرتسمة فوق وجهه. تحدّث تي تي

مع أحد هؤلاء الرّجال، رجل أبيض غير اعتياديّ، لا يشبه أيّ رجل أبيض كان مُضيفي قد رآه في حياته، حتّى على شاشة التّلفاز. كان وجهه مغضّنًا بشكل غير طبيعي، وبشرته، رغم بياض لونها، إلّا أنّها كانت ذات مسحة داكنة غير اعتياديّة. كان نصف رأسه ممتلئًا بالشّعر الأسود، مع أنّ جذور شعره على جانبَي وجهه كانت شائبة. قطع تي تي حديثه مع الرّجل وهتف قائلًا: «حافلتنا، هناك!».

أشار إلى حافلة كبيرة كانت متوهّجة بالضّوء من الدّاخل، كُتب عليها «جامعة الشّرق الأدنى»، وفي الأسفل ما قابلها باللّغة التّركيّة. أقبلت الحافلة صوبهم، فاستدار تي تي نحوه ثمّ قال: «نحن نذهب داي نذهب، هذه حافلتنا هناك».

أومأ مُضيفي برأسه وقد رنا ببصره إلى الحافلة.

قال تي تي: «لا تقلق يا أخي. انتظر صديقك هنا. إنّني متأكّد هو يروح يأتي».

ردّ مُضيفي: «هو كذلك. سيأتي. شكرًا لك، وباركك الربّ».

«لا عليك. انتظر هنا، إيه. ولو هو كلّا يأتي، خذ حافلة جامعة قبرص الدّوليّة واي تأتي. حافلة جامعتك. إي تروح تأتي أخرى إلى هنا، ربما لاحقًا. جامعة قبرص الدّوليّة. اتبع لي فقط. أرِهم رسالة القبول، أين هي؟».

وذهنه يدور على عجل، أخرج الورقة من حقيبته الصّغيرة، لكن أثناء ذلك، وقعت ورقة «الفولسكاب» التي كان جامايك قد سجّل فيها نفقات الدّراسة وتكاليفها، ورقم هاتفه كذلك. التقط تي تي الورقة عن الأرض وقال: «عظيم. حظًا طيّبًا يا أخي. ربّما نحن نروح نأتي لزيارتك. سجّل رقمي».

تناول مُضيفي هاتفه من جيبه لتسجيل الرّقم، لكن حين سحب غطاءه لم يدر. قال: «نفدت البطّاريّة».

«لا عليك. نحن نذهب. نذهب الآن. باي».

«غاغان أَوغو»، بحلول هذا الوقت، بدأ مُضيفي في الاعتقاد بأنّ الأشياء التي سمعها من تي تي صحيحة. ورغم شروعه في الانتظار، لكنّه اعتقد بأنّ مجيء جامايك كان مستبعَدًا. ومع أنّ أيّ قرين حام بمقدوره أن ينظر إلى ذهن مُضيفه من الدّاخل، إلّا أنّ تحديد من أينَ تأتي فكرة ما يظلّ أمرًا صعبًا في بعض الأحيان. كانت هذا الحالة تنطبق على تلك الفكرة. كان مصدر هذه الفكرة، على ما أعتقد، مجموعة من الأمور التي رآها: نوعيّة المطار هنا، سلوك السّائقين، خلاء الأرض، ومشكلة التّواصل والتّفاهم مع الآخرين. عزّزت هذه الأمور من مخاوفه. فعمدت إلى إقناعه أنّ فقدان الأمل أمر سابق لأوانه. ثمّ ألقيتُ في ذهنه شعار والده -**إلى الأمام، دائمًا. إلى الخلف، أبدًا**- لكنّه ارتطم بالباب الذي كان ذهنه قد نصبه حول مخاوفه وارتدّ بعيدًا إلى الوراء. أخذ يفكّر، عوض ذلك، في موطنه، في ندالي، وما الذي لا بدّ من أنّها كانت تفعله في ذلك الوقت. تذكّر اللّوعة التي أصابته لدى بيع دجاجاته، وكيف أوشك على الاختناق، لدى إيصاله قفص الفراريج البنّية إلى أحد الباعة. رنا ببصره الآن إلى الحقيبتين الثّقيلتين في يديه اللّتين حملتا كلّ ما بقي له من متاع -ما لم يقم ببيعه أو إهدائه إلى ندالي أو إلوتشوكو، أو التبرّع به، أو رميه. وعزّزت هذه الأمور مخاوفه من أنّ أمرًا ما كان قد سار على نحو خاطئ.

صدّ سائقي التّاكسي وتحرّشهم به المرّة تلو الأخرى. كانوا يُقبلون عليه، متحدّثين بلسان أعوج لا يفقهه، إيقاع كلماتهم كان يعلو ويهبط ويستقرّ على نبر مقلقل مفرقع. خلال هبوط اللّيل، واصل الرّجال تهافتهم عليه، إلى أن خلا الموقف من السّيّارات. مع ذلك، لم يكن هناك من أثر لجامايك. بعد انتظار زهاء ساعتين تذكّر أنّ جامايك قال له إنّ الجّامعة ستوفّر له مبيتًا مجّانيًّا لمدّة ليلتين كي يتسنّى له اختيار

شقّة جامعيّة. هذه كلمات جامايك، التي قيلت في وقت كانت فيه المياه هادئة، والتي حضرت إليه الآن في هذه اللّحظة المتلاطمة الأمواج، في هذه اللّحظة من الخوف العصيب، والأمل المتضائل.

«تشوكو»، الطّريق من المطار إلى المدينة، بدا مثل الرّحلة من «أوماهيا» إلى «أبا»، عدا عن أنّه كان ممهّدًا، لا متهالكًا ومليئًا بالحُفر. خلال الرّحلة، حدّق إلى البلد وتضاريسه الأجنبيّة الغريبة. أثناء التقاطه ما كان باديًا وسط العتمة، عكفت كلّ التّفاصيل التي كان الرّجلان قد حدّثاه عنها، وكأنّ لها يدَي صائد طيور بريّة، على انتزاع ريشه، الرّيشة تلو الأخرى. وهكذا، لما أطلّت الصّحراء عليه، كان قد نُتف بالكامل. فراح، وقد أصبح الآن عاريًا واهنًا، ينطّ هنا وهناك فوق بطحاء الخوف. كان التّاكسي يلف حول دوّار لمّا استحضر شيئًا كان جامايك قد قاله عن غياب الأشجار، فأذهله عدم رؤية ولو شجرة واحدة على طول الطّريق. أبصر قمم سلسلة الجّبال الممتدّة، كان يزيّن واحدة منها علم مضيء. أحسّ بأنّه رأى هذا العلَم من قبل، لكنّه لم يستحضر أنّ ذلك ربما حصل أثناء زيارته السّفارة التّركيّة في أبوجا.

عندما وصلا إلى موضع أمامه جدار قصير ولكنّه طويل طويل وفوقه اسم الجّامعة، قال السّائق: «أُوكُل، بُوردا. الجّامعة. الجّامعة».

رأى الجّامعة، كانت مؤلّفة من مجموعة مبانٍ غير اعتياديّة متّصلة ببعضها البعض، والظّلام من حولها مثل النّهر السّاكن. طغت في الجوّ تلك الرّائحة الغريبة التي كان أنفه قد التقطها في المطار. توقّف الرّجل أمام أحد المباني المؤلّف من أربعة طوابق، وأمامه طاولة جلس إليها ثلاثة أشخاص. كان وراءهم لوح عليه خارطة للعالم يُظهر معرفة الرّجل الأبيض بالعالم. دفع عشرين يورو للسّائق. فردّ له الرّجل بضع ليرات تركيّة وفكّة ثمّ أخرج الحقائب. أقبل عليه أحد الجّالسين إلى الطّاولة، رجل ذو شعر كثّ أشيب. كان يشبه أهل مكان بعيد عن

أرض الآباء، مكان يُسمّى الهند. مُضيفي السّابق، إزيكي انكيوي، تعرّف ذات مرّة على معلّم من هؤلاء القوم. مدّ الرّجل الهنديّ يده وعرّف عن نفسه قائلًا: «عاطف».

صافحه مُضيفي قائلًا: «تشنُنْسو».

«تشيه... نُنْ...سو؟ هل لديك اسم إنجليزيّ؟».

«سُلُمُن، نادني سُلُمُن».

«هذا أسهل بالنّسبة لي».

ابتسم الرّجل بطريقة لم يكن مُضيفي قد رأى مثلها من قبل، إذ بدت عيناه وكأنّهما مقفلتان بالكامل. ثمّ أردف سائلًا: «هل طلبت أن تُجلَب من المطار؟».

«لا، لم أفعل. بل انتظرت صديقي، جامايك نْواورجي، طالب من طلبتكم، هنا، في جامعة قبرص الدّوليّة، كي يجلبني من المطار».

«أوه، أوكيه. أين هو إذًا؟».

«لم يأتِ».

«لمَ؟».

«لا أدري، في الواقع، لا أدري. هل تعرف أين يكون؟ هل يمكنك أن تعثر لي عليه؟».

«أعثر عليه؟».

لم يكمل الرّجل حديثه، إذ استدار للردّ على إحدى الجّالسات إلى الطّاولة، فتاة بيضاء نحيلة، قالت له شيئًا بلسان أهل البلد. ولمّا استدار ثانية صوبه، قال: «عذرا، سُلُمُن. ما اسم صديقك ثانية؟ إن كان طالبًا هنا، فقد أتعرّف عليه. هناك تسعة طلّاب من أفريقيا في هذه الجّامعة، وثمانية منهم من نيجيريا».

«جامايك نْواورجي. يدرس إدارة أعمال في كلّيّة التّجارة».

«جامايك؟ هل لديه اسم آخر؟».

«لا. ألا تعرفه؟ جامايك. جيم، ألف، ميم، ألف، ياء، كاف. اسم العائلة هو نْواورجي: نون، واو، ألف، راء... كلا، آسف. نون، واو، ألف، واو، راء، جيم، ياء».

هزّ عاطف رأسه ثمّ استدار ثانية نحو الطّاولة. أسقط مُضيفي حقيبته الكبيرة على الأرض، وعلت ضربات قلبه لدى انتظاره أن تنهي الفتاة التّركيّة كلامها مع الرّجل للمرّة الثّانية. الشّخص الثّالث، رجل بدين ذو لحية كبيرة، انتزع سدّادة شراب غازي، ففار وتدفّق من العلبة فوق يد الرّجل ومنها إلى الأرض. صاح الرّجل بشيء مثل «أُولاه» ثمّ انفجر بالضّحك. لوهلة من الوقت، بدا عليهم أنّهم انشغلوا عن مُضيفي ونسوا أمره تمامًا. فقال مُضيفي برقّة، متوخّيًا نطق اسم العائلة بأوضح صورة ممكنة: «اسمه جامايك نْواورجي».

ردّت الفتاة عليه الآن وقالت: «أوكيه، نحن نفتّش في القائمة، لكن كلا نعثر على هذا الرّجل، صديقك. لا وجود لاسم هذا الشّخص هنا».

والآن، بعد أن بحثت في كلّيّة التّجارة، الطّالب النّيجيريّ الوحيد هناك هو پِشَنص، پِشَنص أُوتِما.

فقال مُضيفي: «لا أحد باسم جامايك نْواورجي؟».

ثمّ رفع ناظريه إلى الشّخصين اللّذين شعر في تلك اللّحظة بأن حياته ربّما كانت معتمدة عليهما. لكنّه أدرك من ملامحهما، من طريقة تحديقهما إلى السّجلّات، أنّه لن يلقَ عونًا هناك. قال من جديد:

«جامايك نْواورجي، لا أحد بهذا الاسم؟».

سحب الكلمات من فمه سحبًا هذه المرّة، جرّاء مغصٍ حادٍّ ألمّ بأمعائه. وضع يده فوق بطنه.

ردّ الرّجل قائلًا: «لا. هل أستطيع إلقاء نظرة على رسالة القبول الخاصّة بك؟».

«إيبونو»، ارتجفت يداه لدى إخراج الورقة من الحقيبة التي حملها

منذ رحيله عن «أوماهيا»، طوال يومين كاملين تقريبًا. راقب الرّجل لدى تمعّنه في الورقة المخشوشنة، بانتباه لأيّ طرفة عين منه، وبحساب لأيّ تغيير طارئ على ملامحه، وبرعب من أيّ حركة من حركاته.

نظر الرّجل في عيني مُضيفي ثمّ حكّ رأسه وقال: «هذه الورقة أصليّة، يمكنني أن أرى بأنّك دفعت أقساطك الجّامعيّة. دعني أسألك سؤالًا: هل دفعت كلفة سكن في الحرم الجّامعيّ؟».

ردّ مُضيفي باقتضاب، وقد شعر الآن بشيء من الارتياح: «أجل».

ثمّ أوضح للرّجل كيف أنّه أرسل لجامايك نقودًا لدفع كلفة السّكن لمدّة فصلين. ثمّ أخرج ورقة «الفلوسكاب» التي كان جامايك قد سجّل فيها تفاصيل المبالغ المطلوبة، وراح يشير إلى الأرقام ويقول: «دفعت ألفًا وخمسمئة يورو مقابل السّكن لعام دراسيّ. ثمّ دفعت ثلاثة آلاف هي كلفة الأقساط الجّامعيّة لمدّة عام، وألفي يورو تكاليف معيشة».

فاجأ شيء ما فيما قاله الرّجل، عاطف. ففتح ملفًّا آخر وقلّب صفحاته بشكل محموم، وأخذ يبحث عن اسمه في قائمة من الأسماء. انضمّت إليه الفتاة، أيضًا، وحتّى الرّجل الآخر صاحب الشّراب. كلّهم أمعنوا النّظر معًا في القائمة من خلف كتفَي عاطف. أقبل تاكسيّ مماثل للّذي أوصله، ثمّ اقترب ببطء منهم. لدّى توقّفه، رفع عاطف رأسه ليخبره بأنّه لم يكن هناك حتّى في هذه القائمة اسم مشابه لاسمه. في الملفّ التّالي -المخصّص للشّقق الجّامعيّة، حيث كان معظم الطّلبة الإفريقيين يسكنون لعدم رضاهم دومًا عن وجبات السّكن الدّاخلي المقصورة على المآكل التّركيّة- اسمه لم يكن هناك. في قائمة الشّقق المعتمدة والمدعومة من قبل الجّامعة، اسمه لم يكن هناك.

بعد أن بحث في كلّ مكان ولم يعثر على اسم مُضيفي، استدار عاطف نحوه وقال إنّ الأمر سيسير على ما يرام. «إيبونو»، قال هذا الرّجل لشخص نُتف، مثل طائر برّيّ، ووقف عاريًا على مرأى من

العالم. واصل عاطف ترديد هذا لدى اصطحابه عبر الحرم الجّامعيّ، ووصولًا إلى مبنى من أربعة طوابق مشابه لذلك الذي نصبوا طاولتهم أمام واجهته، وصعودًا إلى إحدى حجرات السّكن المؤقّت، حيث سُمح له بالمكوث لخمسة أيّام. ثمّ صافح عاطف يد الرّجل الذي تلقّى ضربة قاصمة وقال، بلا أيّ ذرّة من الشّكّ، إنّ كلّ الأمور ستسير على ما يرام. على غرار ما يحصل غالبًا بين أبناء البشر في أيّ مكان، أومأ هذا الرّجل -المنتوف، والموجوع، واليائس- ثمّ شكر الرّجل الذي قال له تلك الأشياء، تمامًا مثلما رأيت الرّجال يفعلون مرّات ومرّات. وعندئذ قال له الرّجل: «استرخِ فقط ونم. تصبح على خير».

أومأ مُضيفي، المعتقد بأنّ عليه القيام بما طُلب منه، وقال: «تصبح على خير. أراك في الصّباح».

11

عابر سبيل في أرض أجنبيّة

«**إِزِه تشي تاوك**»، يقول الآباء الأوّلون في حِكمهم عن الضّرب في الأرض: «لغة المرء نفسه لا تستغلق عليه أبدًا». لذا، وبسبب وصول مُضيفي إلى مكان كنت أجهله، فلا بدّ لي من ذكر تفاصيل كلّ شيء هنا، كلّ كبيرة وصغيرة جرت خلال الأيّام القليلة المقبلة، كلّ شاردة وواردة، كيما يكون لشهادتي في هذه اللّيلة وزن معتبر. أسألكم أن تتحلّوا بالصّبر أثناء إنصاتكم إليّ.

«**أَغوجِغبه**»، كنت قد تحدّثت سالفًا عن هشاشة القدرة على الاستشراف والأمل الفارغ في المستقبل. أودّ الآن أن أطرح هذا التّساؤل: ما الغد بالنّسبة للرّجل؟ ألا يحاكي حال الرّجل مع الغد حال حيوان في خطر داهم، وصل، خلال هروبه من مُطارِده، إلى فم كهف لا يعرف شيئًا عن عمقه أو ارتفاعه ولا قدرة له على رؤية أيّ شيء في داخله؟ لا يعرف إن كانت أرضيّته ممتلئة بالأشواك أم لا. لا يعرف، ولا يستطيع أن يرى، إن كان في الكهف كائن مفترس أكثر فتكًا وضراوة. لكن، ومع ذلك، يجب أن يعبر إليه؛ لا خيار لديه. فعدم العبور يعني عدم البقاء على قيد الوجود، وعدم عبور الرّجل باب الغد يعني الموت. ما احتمالات العبور إلى المجهول الذي يخبّئه الغد؟ احتمالات شتّى، «تشوكو»، أكثر من أن تعدّ أو تحصى! يستيقظ رجل ما في الصّباح بسعادة لأنّه أُبلغ في اليوم السّابق بأنّه سيرقى في ذلك

الصّباح. يعانق زوجته ويمضي إلى عمله. يستقلّ سيّارته ولا يرى تلميذ المدرسة الرّاكض بخوف إلى وسط الشّارع. في ثانية، في طرفة عين، يكون الرّجل قد قتل طفلًا واعدًا! وعلى الفور، يلقي العالم على كاهل هذا الرّجل عبئًا عظيمًا. هذا العبء ليس بالعبء العاديّ، فهو أمر لا قِبل للرّجل على تحرير نفسه منه. بل سيلازمه إلى آخر يوم في حياته. رأيت هذا مرّات ومرّات. لكن أليس هذا، أيضًا، هو الغد الذي عبر إليه هذا الرّجل؟

استيقظ مُضيفي في أوّل صباح له في هذا البلد الجّديد، وهو لا يعرف سوى أنّ الأشياء كانت مختلفة هنا، غافلًا عمّا كان ينتظره في هذا اليوم الجّديد. كان يعرف أنّ الكهرباء لم تنقطع، وأنّه شبك هاتفه لشحن البطّاريّة على مدار اللّيل. وأنّه طوال اللّيل، لم يسمع صياح ولو ديك واحد، مع أنّه كان مستيقظًا في القسط الأعظم منه. بدا له أنّ البلد الذي أتى منه، كان بلدًا يعمّه الضّجيج -هدير متواصل لآلات ما، زعيق متواصل للأطفال أثناء لهوهم أو بكائهم، أبواق السّيّارات والدّرّاجات النّاريّة، تهليل وتصفيق، أناشيد الكنائس وقرع طبولها، نداء المؤذّنين من مكبّرات المساجد، موسيقى تلعلع من حفل صاخب- ومصدر الصّوت المتحرّك والمتواصل بلا حدود، لا يُعدّ ولا يُحصى. بدا له كما لو أنّ عالَم بلده يمقت الهدوء. أمّا هنا، فكان هدوء. بل سكون. كما لو كانت هناك في كلّ مكان، في كلّ بيت، في كلّ لحظة، مراسم جنائزيّة لا تتيح للمرء أن ينطق شيئًا إلّا بنَفَس مكتوم. رغم هذا الهدوء، لم يحظَ بغير قسط يسير من النّوم، يسير للغاية حتّى أنّه الآن، بعد طلوع الفجر، ما زال يشعر بحاجة إلى النّوم. أثناء اللّيل، بات ذهنه مهرجانًا رقصت فيه أفكار مرغوبة وأخرى غير مرغوبة. بتواصل المهرجان، لم يستطع إغماض عينيه.

عندما خرج من الغرفة، ألقى اليومُ في طريقه رجلًا من السّود. كان

واقفًا في المطبخ، يغسل يديه وهو عاري الصّدر. ابتعد الرّجل عن وهج ضوء الشّمس المتدفّق عبر النّوافذ العارية من السّتائر، ثمّ قال: «اسمي توبو. أنا من إنُغُو. هندسة كمبيوتر، دكتوراه».

صافح مُضيفي يد الرّجل قائلًا: «تشننسو سولومن أوليسا. إدارة أعمال».

«رأيت عاطف حين أحضرك إلى هنا ليلة أمس، لكنّي لم أرغب في إزعاجك. كنت في الشّقّة الأخرى مع بعض الطّلبة الأقدم. رقم خمسة».

أشار الرّجل بإصبعه إلى مبنى عبر النّافذة. كان مدهونًا بالأصفر ويحيطه إطار من الطّوب الأحمر وتطلّ من طوابقه الأربعة شرفات عريضة. فوق الشّرفة الحديديّة الحمراء التي أشار إليها الرّجل، كان رجل أسود كثّ الشّعر، ترك مشطًا كبيرًا عالقًا في شعره، ووقف متّكئًا إلى الجّدار وفي فمه سيجارة.

ثمّ أردف الرّجل قائلًا: «يعيش ثلاثة نيجيريّين هناك، جاءوا جميعًا في الفصل الماضي. إنّهم الطّلبة الأقدم».

نظر مُضيفي إلى ذلك الاتّجاه باهتمام بالغ، والتمع بريق من الأمل في نفسه. ثمّ قال: «هل تعرف أسماءهم، كافّة أسمائهم؟».

«أجل، ماذا هناك؟».

«هل تستطيع أن»...

«الأوّل... ذاك هو، بِنجي. بنجامين. والثّاني دِمجي: دي. جاء قبلهم على ما أعتقد. أمّا الثّالث فجون. وهو من الإيبو، كذلك».

«لا أحد يُدعى جامايك. جامايك نْواورجي؟».

«أه، لا، لا جامايك. ما هذا الاسم، سِف؟».

قال بهدوء: «لا أدري».

رجع إليه قلبه خائب الرجاء من باب الشّرفة التي تركه يتعلّق بها

في تلك اللّحظة الخاطفة. لكنّه أبقى عينيه على ذلك المكان ولاحظ دخول الرّجل، بنجي، وخروج رجل آخر برفقة امرأة سوداء. وعندئذ قال: «هل تأتي معي وتعرفّني عليهم؟ أريد أن أتأكّد إن كان أحد منهم يعرف جامايك».

«ماذا حصل؟ ما الحكاية؟ بإمكانك أن تخبرني».

تفرّس في الرّجل الواقف أمامه بصدر عارٍ غزير الشّعر، وعينين غائرتين خلف إطار نظّارة عريضة، محاولًا أن يقرّر إن كان من الأفضل له أن يتحلّى بالكتمان. لكنّ الصّوت في رأسه، حتّى قبل أن أتمكّن من التّململ، لكزه كي يحكي حكايته؛ لعلّ بوسع هذا الرّجل أن يساعده. بعناية كبيرة، قصّ على الرّجل تفاصيل حكايته وصولًا إلى تلك النّقطة. استخدم في البداية لسان الرّجل الأبيض، لكن في منتصف كلامه، سأل الرّجل إن كان يتكلّم لسان الإيبو، فردّ سريعًا بالإيجاب، كما لو أنّ السّؤال كان فاصلًا مزعجًا. الآن، بعد أن عرض عليه الرّجل سريرًا مريحًا للجّلوس، استطرد في سرد التّفاصيل الموجعة، ولمّا أنهى ما في جعبته، ذهب الرّجل إلى أنّ مُضيفي تعرّض للاحتيال. قال توبي: «أنا متأكّد»، ثمّ سرد تفاصيل كثير من حالات الاحتيال التي سمع بها، مقارنًا أوجه الشّبه بينها وبين حالته. ثمّ سأله على عجل: «مهلًا، عندما حاولت أن تتّصل به، ألم تكتشف بأنّ الرّقم غير صحيح؟».

«هو كذلك».

«وعندما انتظرته في المطار، ألم تجد أنّه لم يأت لاستقبالك، مثلما أنا متأكّد؟».

«هو كذلك يا أخي».

«هل تستوعب ما أحاول قوله؟ لا بدّ من أن يكون محتالًا؟ لكن دعنا نتمهّل، ولنحاول العثور عليه أوّلًا. فمن الجائز ألّا يكون الأمر على ما نظنّ. لعلّه ثمل ونسي أمر الذّهاب إلى المطار، فما أكثر الحفلات في

هذه الجّزيرة! هذا أمر وارد. دعنا نذهب لشراء بطاقة هاتف كي تتمكّن من الاتّصال به إلى أن يردّ. هيّا، دعنا نذهب».

قدّم البلد الجّديد نفسه إلى مُضيفي خارج الشّقة بصورة صادمة. كانت الأرض مرصوفة بما يشبه الطّوب المطروق بالأرض. وكانت هناك زهور في مزهريّات، وتشكيلات أخرى نُسّقت ووُضعت لا داخل البيوت، بل خارجها، على شرفاتها. بدت المباني مختلفة عن نظيرتها في نيجيريا، بل في أبوجا نفسها. كانت مشيّدة بحرفيّة فائقة لم يشهد لها مثيلًا من قبل. جذب انتباهه أحد المباني على مسافة منهما، مبنى طويل مستطيل الشّكل، مبني بالكامل تقريبًا من الزّجاج. قال توبي: «مبنى اللّغة الإنجليزيّة. هناك يذهب الجّميع لتلقّي الدّروس المقرّرة في اللّغة التّركيّة».

أثناء كلام توبي، نادى عليهما شابّان أبيضان، كانا يجرجران حقائب وفي فم أحدهما سيجارة، قالا: «أيّها الأصدقاء! أركاداس».

ردّ توبي عليهما قائلًا: «أركاداس. كيف الحال؟».

ثمّ اقترب منهما وصافحهما. فقال الشّابّ الأبيض: «لا، إنجليزيّة فقط. لا أعرف التّركيّة».

«أوكيه، إنجليزيّة، إنجليزيّة... إنجليزيّة».

نطق توبي كلماته بلهجة متكلّفة، وتغيّرت نبرته لمحاكاة لهجة هذين الشّخصين. أثناء مراقبة مُضيفي لهم وهم يتحدّثون، تساءل في نفسه إن كان هذا هو الأسلوب الذي على المرء أن يتّبعه خلال مدّة عيشه هنا. أيتصنّع المرء صوتًا جديدًا في كلّ مرّة يتحدّث فيها مع أحد هؤلاء النّاس؟ لمّا انضمّ إليه توبي من جديد، حسبت أنّ مُضيفي سيطرح أسئلة عليه، محاولًا العثور على أجوبة لتلك الأسئلة المزدحمة في ذهنه، لكنّه لم يفعل. «أغوجِغبه»، كانت هذه إحدى الخصال الغريبة في هذا المُضيف، خصلة كنت قد لمستها في عدد ضئيل من المُضيفين الآخرين عبر دورات الحياة الكثيرة على هذه الأرض.

أثناء الطّريق إلى المكان الذي كانوا سيشترون منه بطاقات هاتفيّة، قال توبي إنّ الدّراسة ستبدأ يوم الإثنين، وإنّ بعض الطّلبة بدأوا في الوصول. وقال إنّ الحرم الجّامعيّ سيصبح ممتلئًا بالطّلبة بحلول ليلة الأحد، بعد أربعة أيّام.

وصلا إلى مبنى يتألف بابه من لوحين زجاجيّين، وفيه تشكيلة واسعة من الأشياء، وهو ما ظنّه مُضيفي نسخة موسّعة من السّوبرماركت. لدى عبورهما إلى الدّاخل، استدار توبي وقال: «هذا 'ليمار'، حيث سنشتري بطاقة الهاتف كي تتّصل ثانية بجامايك».

«إجانغو إجانغو»، نبرة توبي عكست قدرًا كبيرًا من السّلطة تجاه مُضيفي، وكأنّه كان طفلًا عُهد به إلى توبي كي يتولّاه بالنّصح والتّوجيه. رأيت هذا الرّجل وكأنّه يد العناية الإلهيّة التي امتدّت لإغاثة مُضيفي في هذه اللّحظة العصيبة. فعلى هذا النّحو يسير الكون: حين يبلغ رجل حافّة الانهيار، يمدّ له الكون يد المساعدة، عبر شخص آخر في العادة. هذا هو سبب قول الآباء المستنيرين دومًا إنّ من الممكن للرّجل أن يصبح قرينًا حاميًا لرجل آخر. أخذه توبي، قرينه الحامي البشريّ الآن، إلى حيث كانت بطاقات الهاتف. مزّق توبي بنفسه غلاف البطاقة وتفحّصها بعناية، كما لو كانت أمامه سلّة تفّاح ويريد التأكّد من انتقاء تفّاحة جيّدة قبل مناولتها إلى الطّفل الذي كان يتعهّده بالرّعاية. ثمّ قال: «أوكيه، هذه جيّدة، جيّدة. والآن، حكّ بطاقة 'تورِكزِم' مثلما تحكّ في العادة بطاقة 'أم تي أن' أو 'غلو'».

خارج السّوبرماركت، قرب بقعة مفتوحة من الأرض مغطّاة بتربةٍ كالصّلصال دفعت توبي على ترديد كلمة «صحراء»، قام مُضيفي بحكٍّ البطاقة. ثمّ ضرب رقم جامايك. لمّا دبّت الحياة في الهاتف، أغلق عينيه إلى أن علا في أذنه ذلك اللّسان ذو النبر المقلقل والوتيرة السّريعة، ثمّ ذيّل بعبارة: «هذا الرّقم غير مُستخدم. يرجى إعادة ضرب الرّقم

والمحاولة من جديد». أنزل الهاتف عن أذنه، ثمّ رمق توبي، فمال بأذنه وأنصت بنفسه إلى الصّوت الغريب. الآن، أومأ مُضيفي برأسه، تاركًا لتوبي أمر اتّخاذ قرار بشأن الخطوات اللّاحقة، فقال توبي إنّ عليهما التّوجّه إلى المكتب الدّوليّ. فسأله مُضيفي: «ماذا يوجد هناك؟».

«امرأة تُدعى دِهان».

«ما الذي ستفعله؟».

«قد تساعدنا في العثور على جامايك».

«كيف ستفعل ذلك؟ رقمه غير صحيح؟».

«ربما كانت تعرفه، فهي مسؤولة عن شؤون الطّلبة الأجانب. إن كان جامايك طالبًا هنا، فيجب أن تعرفه».

«أوكيه، هيا لنذهب إذًا».

«تشوكو»، بتعاظم يأس مُضيفي وبتزايد قناعتي، أنا نفسي، بأنّ ما كان يتخوّف منه حصل له بالفعل، تبع توبي إلى المكتب. سارا في درب طويل محفوف بأزهار منسّقة، وتجلّى لناظريه الغطاء النّباتيّ لهذه الأرض الجّديدة والغريبة فيما كان قلبه يبكي بصمت. عبر الطّريق، مرّ شباب بيض ماضون في طريقهم بسرعة، كثير منهم كنّ إناثًا، لكنّه لم ينظر إليهنّ. ففي تلك الحالة التي زُجّ به فيها، حامت ندالي كطيف غير عاديّ، طيف توهّج في آفاق ذهنه المظلم كشيء مصنوع من الصُّلب. في المكتب، الذي كان في الطّابق السّفليّ لمبنى من ثلاثة طوابق حمل لوحة كُتب عليها «مبنى الإدارة»، استقبلتهم دِهان، المسؤولة عن شؤون الطّلبة الأجانب، بابتسامة عذبة. صوتها كان يشبه صوت مغنّية لم يستطع استحضار اسمها على الفور. في حضورها، بدا على توبي الارتباك وقد عاد لسانه إلى الحديث بتلك اللّهجة المتكلّفة. جلسا على كرسيّين مواجهَيْن لها. تحرّكت دِهان في مقعدها الدّوّار

أثناء حديثه وشرعت في تقليب بعض الأوراق فوق مكتبها. لمّا عثرت على الورقة التي كانت تبحث عنها، قالت إنّ إجراءات التّقديم والقبول الخاصّة بمُضيفي جرت بالفعل على يد شخص في الجّزيرة. لكنّها لم تتواصل مع هذا الشّخص إلّا عبر بريده الإلكترونيّ. ثمّ كتبت عنوان البريد الإلكتروني، العنوان الذي كان لدى مُضيفي: Jamike200@yahoo.com. جلبت دِهان ملفًا فيه الوثائق الخاصّة به ووضعتها على الطّاولة. بدأ توبي، الذي بدا متأكّدًا من أنّه سيكتشف حقيقة الأمر، في فحص الأوراق ورصد الاكتشافات الجّديدة لدى عثوره عليها: الأقساط التي ظنّ بأنّها سُدّدت، لم يُسدّد إلّا جزء منها فقط. فصل واحد فقط، لا فصلين. ألف وخمسمئة يورو، لا ثلاثة آلاف. كلفة السّكن التي ظنّ بأنّه سدّد قيمتها، لم يُسدّد، مثلما رصدها عاطف، أيّ شيء منها. لا شيء. «كلفة المعيشة» التي قال جامايك إنّ الجّامعة تطالبك بإيداعها في حساب مصرفي معتمد كي تضمن بأنّ لديك مصروفًا كافيًا خلال دراستك في الجّامعة، وكي لا تضطرّ إلى العمل بشكل يخالف القانون، هذه أيضًا، لم يكن لها من أثر.

بدت على هذه المرأة، دِهان، إمارات التّشوّش من كلمة «المعيشة». قالت، وقد حدّقت إليهما بحيرة: «لم أسمع بهذا من قبل. ليس داخل أروقة هذه الجّامعة. لقد كذب عليك يا سُلومن. كذب عليك حقًّا. إنّني في غاية الأسف».

«إيبونو»، استقبل مُضيفي خبر أنّ الجّامعة ليس لديها أيّ نقود مودعة في حساب مصرفيّ خاصّ به بنوع من الارتياح، نوع غامض محيّر. ثمّ غادرا المكتب بعد ذلك رافعين كلمات دِهان المطمئنة، «لا تقلق»، كما لو كانت راية سلام. إنّ من شأن هذه الكلمات، التي تُقال عادة لرجل في ورطة بشعة، أن تخفّف، ولو للحظة، عن هذا الرّجل. وفي هذه الحالة، سيشكر هذا الرّجل من قام بالتّخفيف عنه، مثلما فعل

مُضيفي وصديقه. ثمّ سيغادر بملامح تعبّر للشّخص المقابل عن أنّ كلماته خفّفت عنه وأشعرته بالرّاحة. هكذا، خرج مُضيفي وقد حمل معه الملفّ الذي ضمّ نسخة أصليّة عن رسالة القبول ورسائل القبول غير المشروط الخاصّة به والإيصال الخاصّ بأقساطه الجّامعيّة، هذا الإيصال كان الوثيقة الوحيدة التي تحمل اسم جامايك والتّاريخ: 6 أغسطس 2007.

خلال وقوفهما للاستراحة تحت رواق أحد المباني، تذكّر ما جرى في اليوم الذي سبق ذلك التّاريخ، في الخامس من أغسطس. لم يدر لمَ تذكّر هذا، إذ إنّ ذهنه لا ينصرف في العادة إلى التّفكير في التّواريخ على طريقة الرّجل الأبيض، بل كان ينصرف إلى التّفكير في الأيّام والحقب الزّمنيّة، على طريقة الآباء الأوّلين. رغم ذلك، كان هذا التّاريخ، بطريقة ما، محفورًا في ذهنه كالوشم. ففي هذا اليوم، استلم ثمن بيته ومزرعته: مليونين ومئتي ألف نيرة. جلبها المشتري له في كيس نايلون أسود. لمّا عدّها، هو وإلوتشوكو، فعل ذلك بعينين جاحظتين ويدين مرتجفتين وصوت مبحوح، لهول ما فعله للتوّ. تذكّر، أيضًا، بأنّ جامايك، فور ذهاب إلوتشوكو والمشتري، اتّصل به وأخبره بأنّه قام بتسديد أقساطه الجّامعيّة من جيبه، وأنّه لا يحتاج الآن إلّا لدفع أقساط السّكن، وطلب منه أن يرسل له تلك النقود على وجه السّرعة.

«أوزه بروَّه»، بصفتي قرينه الحامي، والمكلّف بحمايته وحفظه على الدّوام، فإنّني كلّما فكّرت في تعاملاته الماليّة مع هذا الرّجل وكافّة ما جرّه ذلك عليه من وبال، اعتراني على الفور ندم عظيم. بل إنّ ما يحيّرني أكثر هو أنّني لم أشكّ على الإطلاق في أيّ شيء. في الحقيقة، لو كان لديَّ أيّ شكّ في جامايك، لكان قد تبدّد مباشرة بسبب فعل الكرم العظيم الذي قام به. لأن مُضيفي، وأنا أيضًا، لم نعتقد بأنّ جامايك كان جادًّا حين وعد بدفع الأقساط الجّامعيّة من جيبه الخاصّ

كي يجنّب مُضيفي مغبّة بيع البيت والمزرعة على عجل ويتيح له فرصة التمهّل والعثور على صفقة بيع معقولة. هذا الاعتقاد هو ما كان يدور في رأسه عند توجّهه إلى مقهى الإنترنت في «جوس ستريت»، ورؤيته أنّ الوثيقة التي قال جامايك إنّه سيحتاج إليها لأجل الحصول على التّأشيرة، «رسالة قبول غير مشروط»، كانت قد أرسلت إليه عبر هذه الواسطة التي يمكن وصفها على خير وجه بكلمات مصفوفة ومرسومة بخطّ جميل فوق شاشة. هذه الرّسالة، التي رآها، وصلت إليه من تلك المرأة التي قابلها للتوّ، دِهان.

استحضر في ذهنه الآن، لدى مروره بطالبات يلعبن في حقل ورجال بيض يدخّنون السّجائر، كيف توجّه مباشرة، إثر قيام المشرف على القهوة بطباعة الرّسالة له، إلى المصرف ومعه النّقود، ثمّ طلب تحويل ما يعادل ستّة آلاف يورو إلى جامايك نْواورجي، جامايك نْواورجي في قبرص. انتظر، ولمّا أنجزت المعاملة، رجع إلى البيت بإيصال يُظهر أنّ المصرف حوّل نيراته إلى عملة اليورو بسعر صرف قيمته 127 نيرة لليورو الواحد. تمعّن في الرّقم الذي رسمت امرأة المصرف خطًّا أعوج أسفله على أنّه مجموع المبلغ: 901,700 نيرة، وبما كان قد تبقّى من المبلغ الذي جناه من بيع البيت، 198,300 نيرة. استحضر كيف كان ذهنه في ذلك الوقت، أثناء رجوعه من المصرف إلى البيت، مشطورًا بين الإحساس بالامتنان تجاه جامايك من جهة، والإحساس بالقلق تجاه فراق ندالي من ناحية أخرى، والإحساس بالفزع من احتمال خيانة والديه من جهة ثالثة.

رغم أنّ مُضيفي كان حذرًا الآن ونزّاعًا إلى الشكّ في نوايا الآخرين، إلّا أنّه لمس في توبي رغبة صادقة في مساعدته. لذا، «تشوكو»، أحبّ أن يُكافئ هذا الرّجل ثانية عبر ترك زمام القيادة له. فمن كان على شاكلة توبي يحب أن ينال لقاء أتعابه ما يجنيه من لذّة احتلال موقع القيادة،

قيادة سلاح مشاة مؤلّف من رجل واحد، مثخن بالجراح ومجرّد من السّلاح ومثبط الهمّة، إلى الأمام.

والآن، قال توبي إنّ عليهما الذهاب إلى «تي سي زِرات بانكاسي». كان يعرف العنوان–وسط البلد في «لفكوسا»، قرب الجّامع القديم. سأله مُضيفي: «ما الذي سنفعله هناك؟».

«سنسأل عن النّقود».

«أيّ نقود؟».

«النقود الخاصّة بكلفة المعيشة التي كان من المفترض أن يقوم جامايك، هذا اللّصّ الأرعن، بإيداعها في حساب مصرفي باسمك».

«أوكيه، يجب أن نذهب إذًا. شكرًا لك يا أخي».

هكذا ركبا في الحافلة المتّجهة إلى وسط البلد، حافلة مثل تلك التي جاءت في اليوم السّابق إلى المطار لجمع الطّلبة أثناء انتظاره جامايك. كان هناك الكثير من الرّكّاب الأتراك أو الأتراك القبارصة، مثلما أصبح يعتقد أنّ معظم النّاس هناك كانوا كذلك. جلست امرأة في حضنها كيس ورديّ إلى جنب امرأة أخرى، فتاة ذات شعر أصفر ونظّارة، لو كان ظرفه مختلفًا، لحدّق إليها بلا ملل. كان ثمّة رجلان في شورتين قصيرين، وبلوزتين، وشحّاطتي حمّام واقفين خلف السّائق، تجاذبا معه أطراف الحديث. جلس من خلفه هو وتوبي رجل وامرأة أسودان. كان توبي يعرفهما؛ سافرا معه على الطّائرة نفسها. جادل كلّ من الرّجل، وكان يُدعى بودي، والمرأة، هنَّه، بأنّ لاغوس كانت أفضل من «لفكوسا» بعشرات المرّات. لكنّ توبي، صاحب الصّوت العالي، خالفهما الرّأي، مجادلًا بأنّ قبرص الشّماليّة لو لم تكن لها أيّ حسنة سوى عدم انقطاع الكهرباء والطّرق الجّيّدة لكان ذلك كافيًا. بل حتّى عملتهم كانت أفضل. حاججهما قائلًا: «ما سعر صرف عملتهم إلى الدّولار؟ واحد فاصلة اثنان ليرة تركيّة مقابل الدّولار الواحد. ماذا عن

عملتنا؟ واحد فاصلة عشرين! أتتخيّلون؟ مئة وعشرون وبضعة كسور من النّيرة النّيجيريّة! واليورو نكو، إنّه واحد فاصلة سبعون! وأنتم تقولون إنّها أفضل؟».

ردّ الرّجل الآخر قائلًا: «ولكن أنت تقول إنّ عملتهم كعملتنا نفسها؟ إنها تخفض من سعر التّحويل فقط آي آم ني. إن أمعنت النّظر، سِف، سترى أنّك إن صرفت مئة نيرة مثلًا، وذهبت إلى السّوق هنا فستشتري بقيمتها جهاز تلفاز واحد، في نايجه لا تدفع مئة نيرة. عملتنا لديها أصفار أكثر. نا ولهذا فإن الـ'تُركا' ما زالوا يقولون عن الألف مليونًا».

«أجل، إنّه الشّيء نفسه. أنا موافق. غانا فعلت الأمر نفسه»...

«إهن!».

فتابع توبي القول: «شطبوا الأصفار وأصدروا عملتهم من جديد».

«تشوكو»، أنصت مُضيفي بنصف ذهنه إلى الحديث المفتوح، عازمًا على عدم إدلاء دلوه فيه. كان يرى أنّ هذه الثّرثرة التّافهة لا يملك ترف المشاركة فيها إلّا أولئك الذين كانوا في بحبوحة وأوضاعهم تسير على ما يرام. أمّا هو، فكان وضعه بعيدًا كل البعد عن ذلك. حُشر الآن داخل عالم جديد ضيّق عليه الخناق وكأنّه كان حشرة داخل حطبة رطبة. لذا، ترك عينيه تسبحان في أرجاء الحافلة، وتحطّان كالذّبابة المنهكة فوق كلّ شيء، من الصّور المعلّقة على الجّوانب إلى السّقف ثم إلى الكتابة الأجنبيّة على طول الباب. لهذا، كان هو أوّل من لاحظ الفتاتين التّركيّتين اللّتين استقلّتا الحافلة لدى توقّفها في آخر موقف. لاحظ، أيضًا، أنّ الفتاتين كانتا بلا ريب تتحدّثان عنه وعن أبناء بلده، لأنّ بصرهما كان مشدودًا صوبهم، مع أبصار آخرين في الحافلة ممّن يفقهون لسانهما. ثمّ لوّحت له إحداهما بيدها، واندفعت الأخرى نحوه. لعن مُضيفي في سرّه، لأنّه لا يرغب في الحديث مع أحد؛ لا يريد من أيّ أحد أن يتحرّش به ويحمله على الخروج من الحطبة الرّطبة. لكنّه عرف أنّ أوان ذلك قد فات. حسبت الفتاتان أنّه سيرغب في الحديث إليهما،

فأقبلتا عليه، ووقفتا في الممرّ بين المقاعد الخالية. قالت له إحداهما، وهي تلوّح بأظافرها الملوّنة، شيئًا بالتّركيّة. فردّ قائلًا: «لا تركيّة».

دُهش من صوته المبحوح رغم قلّة كلامه. أشار لهما بعينيه نحو توبي، الذي استدار في الحال. وعندئذ قالت الفتاة: «أنت تتكلّم التّركيّة؟».

«قليل من التّركيّة».

ضحكت الفتاة ثمّ قالت شيئًا لم يفهم توبي منه ولو كلمة واحدة، فقال: «أوكيه، لا تركيّة. إنغلزِجه؟».

ردّت الفتاة: «أوه، عذرًا، صديقتي فقط، الإنجليزيّة».

ثمّ استدارت وقالت للأخرى التي كانت مختبئة خلفها: «هل من الممكن أن... إمم... ساك ندر مك يا؟».

فردّت عليها الأخرى قائلة: «شعر».

قالت الفتاة الأولى: «إفيت! هل من الممكن شعر؟».

فقال توبي: «لمس؟».

ردّت: «إفيت! أجل، أجل، لمس. هيه. هل من الممكن لمس شعرك؟ إنّه ملفت للنّظر بالنّسبة لنحن».

«تريدين لمس شعرنا؟».

«أجل!».

«أجل!».

التفت توبي إليه. كان من الواضح أنّ توبي لم يكن لديه مانع في أن تلمس الفتاتان شعره. كان ذا بشرة قاتمة وبشعرٍ حاكى الغطاء النّباتيّ الشّحيح في الصّحراء، شعرٍ كانت الفتاتان تودّان لمسه. لم يكن بأمر ذي بال بالنّسبة لتوبي. فكّر مُضيفي في أنّه لا ينبغي أن يكون ذا بال بالنّسبة له أيضًا. بل لا ينبغي أن يكون أمرًا ذا بال أنّه ما زال غير قادر على معرفة مصير المليون وخمسمئة ألف نيرة التي كانت ثمن بيته

ومزرعة الدّواجن. لم يكن أمرًا ذا بال، كذلك، أنّه عبر محاولة حلّ مشكلة، زجّ بنفسه في ورطة أعظم، بل ورطة أعظم من كلّ ما سبقها. والآن، هاتان المرأتان، الغريبتان، البيضاوان، الناطقتان بلسان لا يفقهه، وبنسخة مسخ عن لسان الرّجل الأبيض، تودّان أن تلمسا شعره لأنّه «**ملفت للنظر بالنّسبة لهما**». «أَغوجِغبه»، حين خفض توبي رأسه أمام الفتاتين كيما تسرّحا أيديهما في شعره الأشعث، وغير الممشّط، وضع مُضيفي، أيضًا، رأسه تحت تصرّف أيديهما. والأيدي البيضاء، بأناملها النّحيلة وأظافرها المصبوغة بشتّى الألوان، مسحت رأسَي اثنين من أبناء الآباء الأوّلين. وسط قهقهتهما والتماع عيونهما، طرحتا أثناء اللّمس أسئلة، ردّ عليها توبي في الحال. قال: «أجل، يمكن أن يكون الشّعر أطول. لو تركناه ولم نقصّه».

«لماذا هو أجعد؟».

«إنه أجعد لأنّنا نمشّطه، ونحن ندهنه بالكريم أيضًا».

«مثل بوب مارلي؟».

«أجل، من الممكن أن يكون شعرنا مثل بوب مارلي. دادا. راستا. إن لم نقصّه».

والآن، بعد أن التفتت الفتاتان إلى هنَّه، الفتاة من بلد الآباء. سألن: «تلك الفتاة، هل هذا شعرها؟».

التفت توبي إلى هنَّه وردّ قائلًا: «لا، إنّه موصول بشعر مستعار. برازيليان هاير».

عندئذ قالت هنَّة بتبرّم: «هؤلاء الـ'تُركا' سِف، كلّا هم يتورّع عن أيّ شيء أوه. أخبر إنّي أقول نه لمس شعر».

«هل شعر المرأة السّوداء، إيه... إيه... طويل؟».

ضحك توبي وردّ قائلًا: «أجل، إنّه طويل».

«لماذا يضعن إذًا شعرًا آخر؟».

«للزّينة فقط. ولأنّهنّ لا يرغبن في تضفير شعورهنّ على الطّريقة الإفريقيّة».

«أوكيه، شكرًا لك. إنّه ملفت للنّظر بالنّسبة لنحن».

«**أُنْوانا إتريوها**»، كنت أسكن في مُضيف مات قبل أن يكمل عامه الثّالث عشر عندما جاء أوّل الرّجال البيض إلى «إهمبوسي». كان الآباء يضحكون عليهم، ويقضون الأيّام الطّوال في التّندّر على حماقة الرّجل الأبيض. «إجانغو إجانغو»، إنّني أستحضر الآن وبشكل واضح تمامًا، بحكم أنّ ذاكرتي لا تشبه ذاكرة البشر، أنّ أحد أسباب ضحك الآباء واعتقادهم بجنون هؤلاء النّاس كان فكرة «التّعامل المصرفيّ». كانوا قد تساءلوا بعجب كيف يمكن لرجل سويّ العقل أن يحمل ماله وكافّة رزقه أحيانًا ويقوم بإيداعه لدى الآخرين. كان الآباء يعتقدون أنّ هذا أمر يفوق الحماقة. لكنّ أبناء الآباء الآن يقومون بفعل ذلك طواعيّة. حين يذهبون إلى المكان الذي أودعوا فيه أموالهم، فإنّهم يستردّونها، وعلى نحو ما زال عصيًّا على فهمي، بقيمة تفوق أحيانًا ما كانوا قد أودعوه بالأساس!

هذا المكان حيث وصل مُضيفي وصديقه كان أحد تلك الأماكن -مصرف. على عتبة الباب، وقبل أن يخطو إلى الدّاخل، تذكّر فرخ الإوزّ؛ ذات يوم عاد من المدرسة ووجده داخل قفصه، كانت عيناه مقفلتين، كما لو أنّهما منتفختان. كان والده قد سافر لبضعة أيّام وتركه وحيدًا. في البداية، أصابه خوف شديد، لأنّ الطّائر كان قلّما ينام على ذلك النّحو، قبل أن يتناول على الأقلّ شيئًا من كيس الحبوب والنّمل الأبيض الذي اشتراه له. لكن حتّى قبل أن يهمّ بنقر القفص، استيقظ الطّائر، رفع رأسه، وأطلق نداء عاليًا. في ذلك الوقت، وبّخ نفسه على تسرّعها الشّديد في الاحساس بالخوف.

لذا، جلس بهدوء في هذا المصرف، الذي يشبه مصارف نيجيريا

في الأبّهة ورقيّ الدّيكورات. أوصى نفسه بالتّريّث إلى حين انجلاء الأمر، بألّا تسارع إلى الإحساس بالخوف. انتظر مع توبي قرب حوض ماء تسبح فيه أسماك ذهبيّة وصفراء وورديّة فوق حصاة ملساء وشعب مرجانيّة اصطناعيّة. عندما جاء دورهما، نهض توبي وتحدّث إلى الرّجل خلف شبّاك المراجعة. عبر كلمات ما كان مُضيفي ليتمكّن من الاهتداء إليها، شرح توبي الوضع. ردّ الرّجل بطلاقة وبلهجة مشابهة لتلك التي كانت ندالي وشقيقها يتقنانها: «إن كنت قد فهمت تمامًا ما قلته، فأنت تريد معرفة إن كان لدى صديقك حساب مصرفيّ عندنا؟».

أجابه توبي: «أجل، سير. ونريدك أن ترى، أيضًا، إن كان لدى جامايك نْواورجي حسابًا مصرفيًا، إنّه من أعطاه صديقي نقوده. أترى هذا الإيصال؟ جامايك نْواورجي قام بتسديد أقساط الجّامعة بالنّيابة عنه».

«آسف، يا رجل، لكن من غير المسموح فحص حساب أيّ شخص آخر سوى حساب صديقك. جواز سفره لو سمحت؟».

ناوله توبي جواز سفر مُضيفي. أدخل الرّجل بعض التّفاصيل عبر نقر أزرار الحاسوب، متوقّفًا أثناء ذلك للحديث والضّحك مع امرأة أطلّت برأسها داخل مقصورته. «غاغان أَوغو»، كانت تلك المرأة تشبه تمامًا ماري بَكْلِس، وهي امرأة في بلد الرّجل الأبيض الغاشم أحبّت مُضيفي، ياغازي، قبل مئتين وثلاث وثلاثين سنة. عاشت عائلة ماري بَكْلِس في جوار مزرعة عاش فيها ياغازي عبدًا لسيّد كان يمتلك عبيدًا آخرين. بعد بضع سنوات على مقتل والد هذه المرأة، أصبحت منجذبة بشكل غريب نحو مُضيفي، ياغازي. حاولت أن تستدرجه لفترة طويلة من الوقت، متحبّبة إليه بالهدايا. لكنّه كان يهاب الذّهاب معها، لأنّ الموت كان معلّقًا فوق رأسه لو فعل ذلك، في أرض الرّجل الأبيض الغاشم تلك. ذات ليلة، جاءت وقد قطعت الجّبال المتعبة، التي كانت تزخر إبّان النّهار بطيور مقزّزة غريبة يسمّونها الغربان. أصرّت هذه المرأة البيضاء الغريبة، على قتل نفسها إن لم تنل مرادها منه.

الآن، بعد دهر، بدا لي وكأنّني أرى عيني ماري بَكْلِس الرّماديّتين مطلّتين من محجري تلك المرأة المحملقة في زميلها أثناء قضم حبّة تفّاح في يدها. قال الرّجل: «سير، ليس هناك حساب مصرفيّ باسم صديقك هنا في مصرف تي سي زِرات».

مدّ جواز السّفر عبر الحاجز الزّجاجيّ والتفت إلى شبيهة ماري بَكْلِس لقول شيء ما. فقال توبي:

«عفوًا، لو سمحت، هلّا قمت بفحص اسم الرّجل الآخر؟».

ردّ الرّجل مزمجرًا: «لا، آسف. نحن هنا في مصرف لا في قسم للشّرطة».

ثمّ ضرب رأسه بضربة خفيفة من يده بعد أن قضمت المرأة التّفّاحة من جديد واختفت عن النّظر. استأنف الرّجل بعد ذلك ردّه على توبي: «أتفهمني؟ هذا مصرف وليس قسمًا للشّرطة».

لمّا همّ توبي بالرّدّ، استدار الرّجل ومضى خلف المرأة.

انصرف مُضيفي وصديقه بصمت، خرجا من المصرف إلى وسط البلد، كانا مثل رجلين استلما إخطارًا محبطًا حيال البلد الجّديد الذي وفدا إليه. كالعانس المستميتة التي استبدّ بها اليأس، رمت البلاد الجديدة نفسها عليه، متغاوية بمباهجها الجوفاء. راقبها بعيني السّائر وهو نائم، البنايات الفارهة، الشّوارع القديمة، أسراب الحمام في الشّوارع، المباني الزّجاجيّة المتلألئة، كلّها لاحت له كالسّراب، مجرّد أخيلة غائمة متراقصة تحت زخّات المطر. راقبهما أهل البلد لدى سيرهما في الأنحاء: الأطفال عبر إشارات الأصابع، كبار السّنّ الجالسين فوق الكراسي عبر التّظاهر بالتدخين، النّساء عبر تصنّع اللّامبالاة. كان رفيقه، توبي، مأخوذًا بالحمام المتقافز هنا وهناك في أرجاء الميادين العامّة. مرّوا بمتاجر، ومصارف، ومحلّات بيع الهواتف، وصيدليّات، وآثار قديمة، ومبانٍ كولونياليّة قديمة نصبت فوقها تلك الرّايات التي كانت

منصوبة فوق مباني الرّجل الأبيض حين جاء إلى أرض الآباء العظماء. شعر مُضيفي كما لو أنّ جزءًا عُطب بمسمار، وأنّه كان يسير الآن ودمه النّازف يخطّ الدّرب من خلفه. أمام كلّ بناية تقريبًا، كان ثمّة شخص واقفًا وسيجارة بين إصبعيه، نافثًا الدّخان في الهواء. توقّفا في مكان ما، وطلب توبي طعامًا لهما، ملفوفًا فيما قال إنّه كان خبزًا، وعلبتي كوكا كولا. كانا غارقين في العرق، وكان جائعًا. لم ينطق بحرف. «إيبونو»، الصّمت حصن يلوذ به الرّجل المحطّم دائمًا، ذاك أنّه يتوحّد داخل هذا الحصن مع عقله وروحه وقرينه الحامي ليصبح وحدة واحدة.

لكن، مع ذلك، كان يلهج بالدّعاء في قرارة نفسه؛ دعا صوت رأسه أن يتمّ العثور على جامايك. صرف فكره نحو التّفكير في ندالي. ما كان ينبغي له أن يفارقها. وصل وتوبي، في تلك اللّحظة، إلى مكان فيه أحذية معروضة فوق أطباق الطّعام وسطوح الطّاولات، والتقطت عيناه ما كُتب فوق باب المحلّ الزّجاجي: «مطعم إندِرِم». تسلّل إلى ذهنه ثانية الرّجل الذي صار الآن مالكًا لبيته ومزرعته. تخيّل الرّجل وعائلته لدى انتقالهم إلى بيته، لدى إنزال متاعهم، وسحب حقائبهم، ونقل عفشهم إلى ذلك الحيّز الفارغ الآن الذي كان بيته ذات مرّة. كان قد ألقى نظرة أخيرة على غرفة أبيه قبل مغادرة البيت: كانت فارغة تمامًا، وأحد حوائطها مليء بالنّدوب والشّقوق الصّغيرة. كانت الشّمس قد استقرّت فوق الحائط الشّرقيّ، حيث كان رأس السّرير قائمًا من قبل، ولمّا رنا ببصره عبر أباجور النّافذة، وقع على بئر الماء والفناء. تلك الغرفة حيث تلصّص، ذات مرّة، على والديه وقد غفلا عن إيصاد بابها، كانت الآن خالية على عروشها، حتّى أنّ تقليب بصره فيها أصابه بذلك الإحساس المرعب الذي كان قد داهمه عند وفاة والديه.

«غاغان أوغو»، وصل الطّعام لدى استغراقه في التّفكير في آخر ليلة قضاها مع ندالي. كيف شرعت في النّشيج، وقالت كم كان قاسيًا في عزمه على فراقها الآن، «الآن وقد أصبحتَ جزءًا مني». في هذه

اللّحظة، انصرف ذهنه إلى الطّعام. لكن، «تشوكو»، أنا سأكمل وصف ما جرى إثر ذلك، إثر ذلك اللّقاء الجّنسيّ. فأنا لم أستحضر ذلك من قبل، لأنّني لم أعتقد بأنّه كان مهمًّا. كما تعلم، إنّنا لو استحضرنا في شهادة واحدة كلّ كبيرة وصغيرة ممّا يقوم مُضيفونا بفعله، لما كانت هذه الشّهادة لتنتهي أبدًا. لذا، على مقدّم الشّهادة أن يكون انتقائيًّا، وأن يستعرض عليك ما له صلة بالموضوع، ما يمنح العظم واللّحم والدّم لذلك المخلوق الذي يعمل على خلقه: قصّة حياة مُضيفه. لكن الآن، في هذه النّقطة، أعتقد أنّ عليّ استحضار تفاصيل ذلك اللّقاء. في تلك اللّيلة، وفي الحجرة الفارغة الآن والتي كانت حجرة نومه، أسند ظهره إلى الحائط، ودموعها تنحدر من فوق كتفه إلى صدره، ثمّ قال لها إنّ سفره كان لأجل الأفضل: «مامي، ثقي بي. ثقي بأنّ الأمور ستسير على ما يرام. أنا لا أريد أن أخسرك».

«لكنّك لست مضطرًّا إلى فعل ذلك يا ننسو. لست مضطرًّا أبدًا. ما الذي بمقدورهم أن يفعلوه بي؟ أولئك المزهوّون بأنفسهم؟».

«أغوجِغبه»، الطّعام الذي يتناوله الآن –والذي كان توبي قد سمّاه كبابًا– قدّمه لهما شابّ أبيض طويل نحيف. لدى حمله الطّعام في صوانٍ صغيرة، وقد نتأت منها قرون الفلفل الأخضر، قال لهما شيئًا تضمّن كلمة «أُوكُتشا». فردّ توبي بحماس قائلًا إنّه كان يعرف «جاي جاي أُوكُتشا»، لاعب كرة القدم النّيجيريّ. خاف مُضيفي، رغم صمته، أن يجتذب هذا الردّ مزيدًا من الرّجال، رجال كانوا كلّهم شبه هذا الرّجل. بشرتهم بيضاء لكنّها بدت وكأنّها اسودّت بفعل الشّمس الحارقة، فالجوّ هنا كان حارًّا، أشدّ حرًّا من أيّ يوم مرّ عليه في «أوماهيا»، على ما يذكر. تحاشى نظراتهم وتناول طعامه، كان طيّب المذاق، لكنّه، مع ذلك، كان غريبًا بالنّسبة له. إذ رأى أنّ أهل هذا البلد لا يقومون بطهو معظم طعامهم. وأنهم كانوا، مثلما عنّ له بشيء

من التهكّم، يولون قيمة عظيمة لتناول الأشياء في حالتها النّيئة، فور غسلها بالماء. بصل؟ أجل، افرمه وأضفه إلى طعامك ببساطة. بندورة؟ بالتّأكيد، اقطفها من حديقتك، انفض عنها الغبار، اغسلها بالماء، ثم قطّعها وضعها في طبق الطّعام. ملح؟ الأمر ذاته، بل وحتّى التّوابل والفلفل. الطّبخ مضيعة للوقت، والوقت يجب الحفاظ عليه للقيام بشيء آخر-التّدخين، ارتشاف الشّاي من أكواب متناهية في الصّغر، ومشاهدة مباريات كرة القدم.

رغم الحديث الدّائر بين الرّجال وتوبي، إلّا أنّ مُضيفي اكتفى بمراقبة السّير عبر النّافذة. تحرّكت السّيّارات بهدوء، توقّفت بقصد كي يعبر النّاس الشّارع. لم ينطلق بوق أيّ سيّارة. مشي النّاس كان سريعًا، وكلّ المارّات من النّساء تقريبًا كنّ ممسكات بأيدي رجال ساروا إلى جنبهنّ. عاد ذهنه إلى التّفكير بندالي. لم يتّصل بها منذ سفره من لاغوس. مرّ الآن يومان كاملان ونصف اليوم الثّالث. حنث بالوعد الذي قطعه، مثلما فكّر بمرارة، وهو ما زال في بداية مشوار الإغواء الذي وقع في حبائله. راح يتخيّل أين يجب أن تكون الآن، وما الذي قد تكون منهمكة فيه، فرآها في غرفة الكتب حيث جلس قبيل تعرّضه للإهانة في حفل عيد مولد والدها. ثمّ صُعق لمّا بدا له أنّ ذاك الحلم الجّديد الذي استولى عليه فجأة، كان هنا، في قبرص، في الخارج. حلم وطموح أشبه بما يستولي على طفل صغير-نزوانيّ، غريزيّ، لحظيّ، من دون تبصّر أو تدبّر. فالطّفل الصّغير قد يرى، أثناء مشيه مع والده، ساحرًا يستعرض مهاراته أمام حشد من النّاس في شارع جانبيّ، وقد يرى رجلًا واقفًا فوق منصّة، ملوّحًا بقبضته في الهواء، وصارخًا عبر سمّاعات ضخمة بوعود كاذبة، وحشود النّاس تصفّق وتهتف له بحماس، حشود ترفع لافتات عريضة. فيسأل الطّفل والده: «بابا، من هذا؟».

«هذا سياسيّ».

«ما الذي يفعله؟».

«إنّه رجل عاديّ يريد أن يصبح حاكم ولاية أبيا».

«بابا، أريد أن أكون سياسيًّا في المستقبل!».

لاح له الآن أنّ ما وقع في حبائله كان مجرّد إغواء، إغواء لا بدّ من أن يراود أيّ رجل في سعيه نحو الأفضل. وقد راوده الآن، لأجل مأرَبٍ وحيد تمثّل في إغراقه من جديد. لكنّه صمّم على أنّ الإغواء لن يفلحً في مأربه هذا. أعلن هذا لنفسه على نحو حادّ كان له أثر جسديّ فوريّ عليه. تناثرت قطع اللّحم من فمه فوق الطّاولة. فقال لصرف الانتباه عن هذا الأمر المُحرِج: «ما الوقت الآن في نيجيريا؟».

ردّ توبي، وعيناه على ساعة الحائط خلف مُضيفي: «الثّالثة والرّبع هنا، إذًا لا بدّ من أن تكون الخامسة والرّبع الآن في نيجيريا. هم يسبقوننا بساعتين».

فكّر مُضيفي بأنّ توبي نفسه لا بدّ من أنّه كان دهِشًا. ساعتان فقط؟ الوقت في نيجيريا؟ لم يعرف توبي أنّ الكلام بات مؤلمًا بالنّسبة لمضيفي الآن لدى محاولته هضم ما جرى له بالفعل. كان ما زال يصعب عليه تصديق أنّ جامايك دبّر له هذه الورطة. كيف كان ذلك ممكنًا؟ ألم يكن بمفرده حين قال له إلوتشوكو إنّ بمقدوره الاعتماد على مساعدة هذا الرّجل الذي قام بإعطائه كافّة ما يملكه؟ كيف حاك جامايك كلّ شيء بتلك السّرعة؟ من أين كان له أن يعرف أنّه سيقبل ببيع بيته ومزرعته؟ لماذا دبّر جامايك تلك الأمور مع أنّه لم يتعرّض له بأيّ إساءة -وفق ما يتذكّره على الأقلّ؟

ما إن وصل إلى التّفكير في هذه النّقطة، نبش الصّوت في رأسه مثلًا على إساءة كان قد ألحقها بجامايك. كان واقفًا في الصّفّ، في عام 1992، هناك أمام الأدراج والمقاعد، وفوق الحوائط غير المطليّة روزنامات قديمة. كان عمره عشر سنوات فقط، ويتقاسم المقعد مع

رومِلاس وتشنوبه. انهمك ثلاثتهم في الحديث عن مباراة كرة القدم لأبناء الحيّ ضدّ فريق حيّ آخر. فجأة، ضرب تشنوبه الأرض بقدميه، وصفّق بيديه، ثمّ أشار عبر النّافذة إلى صبيّ مقبل نحو المبنى، حاملًا شيئًا بين يديه مثل قميص مطويّ، وحقيبته فوق ظهره. صرخ تشنوبه قائلًا: «نواغبو، أوه، نواغبو آتية!». انضمّ إليه هو والآخرون، ناعتين الصّبيّ المقبل بالبنت لدى تفحّصهم بنظرات ثاقبة المظاهر الأنثويّة البادية على جسد زميلهم: وركيه المكتنزين باللّحم، مؤخّرته الكبيرة، الفلج بين أسنانه، صدره المنتفخ، وجسمه الممتلئ. بعد لحظات، وصل الصّبيّ إلى الصفّ، فصرخ ثلاثتهم بصوت واحد: «أهلًا وسهلًا، نواغبو!». تذكّر الآن، كيف صُعق الصّبيّ ذو النّظّارة الطبّيّة من تهجّمهم عليه، وكيف اتّجه إلى مقعده بخطى متعثّرة وأنفاس متقطّعة، واضعًا كفّه فوق وجهه، وكأنّه كان يحاول ستر دموعه الواهية.

أنعم النّظر الآن في صورة جامايك-الصّبيّ المرتسمة في ذهنه، كان يبكي جرّاء تنمّره عليه، ثمّ تساءل إن كان ما فعله جامايك به الآن انتقامًا لتلك الحادثة التي جرت في الماضي. هل كان هذا حجرًا رُمي من ماضيه لأجل تحطيمه في الحاضر؟

قال توبي فجأة: «سلومون».

«إر؟».

«ألم تقل لي إنّ أحد أصدقائك هو من جلب جامايك نْواورجي لك؟».

«أَغباتَّه آلومالو»، لسبب لم يكن واضحًا على الفور، تسارع نبض مُضيفي لدى سماعه هذا السّؤال. انحنى فوق الطّاولة وقال: «هو كذلك، لماذا؟».

ردّ توبي قائلًا: «لا شيء، لا شيء، خطرت لي فكرة فقط. هل اتّصلت بصديقك؟ هل تعلم إن كان جامايك في نيجيريا؟ هل يعرف صديقك عنوان أهل جامايك؟ هل»...

نزلت هذه الفكرة على مُضيفي كالصّاعقة. فسارع إلى إخراج هاتفه من جيبه قبل أن يكمل توبي كلامه وبدأ برفع غطائه بهياج. كان توبي قد توقّف عن الحديث، لكنّه لمّا رأى تأثير حكمته، استأنف كلامه وقال: «أجل، دعنا نتّصل به، دعنا نعرف منه إن كان جامايك هنا. أنت أخي، وأنا لا أعرفك، لكنّنا لسنا في بلادنا. نحن في بلاد الغربة. لا أستطيع أن أترك أخي مكبّل اليدين وبلا حول ولا قوّة. دعنا نتّصل به».

ردّ مُضيفي: «شكرًا لك يا توبي. ليباركك الرّبّ لقاء ما فعلته لأجلي. هلّا أعدت على مسامعي ثانية ما عليّ القيام به لضرب رقم نيجيريا؟».

«اضرب صفر، صفر، ثمّ إشارة الجّمع، ثمّ اثنين، ثلاثة، أربعة، اشطب الصّفر، ثمّ اضرب بقيّة الرّقم».

«أوكيه».

«أوه، آسف، لا تضرب إشارة الجمع. فقط صفر، صفر».

«أوكيه».

«تشوكو»، اتّصل بـإلوتشوكو، فصُعق صديقه من سماع كلّ ما جرى له. كان إلوتشوكو قرب مبنى فيه مولّد كهرباء، لذا، كان مُضيفي بالكاد قادرًا على سماعه. لكن عبر القليل الذي تمكّنت أذناه من التقاطه، أكّد إلوتشوكو على أنّ جامايك كان قد رجع، بالفعل، إلى الخارج، وأنّه يعرف متجرًا لشقيقة جامايك تبيع فيه الحقائب المدرسيّة والصّنادل. وأنّه سيذهب إلى هناك وسيعرف منها مكان جامايك.

ألقى الهاتف من يده مرتاحًا بعض الشّيء، ولكن متفاجئًا، أيضًا، من أنّ الاتّصال بإلوتشوكو لم يخطر في باله إلّا حين ذكر توبي ذلك. لم يكن يعرف تمامًا كيف يعمل ذهن الرّجل اليائس. لم يكن يعرف أنّ من الأحسن لهذا الرّجل ألّا يفكّر أحيانًا. إذ إنّ ذهن الرّجل اليائس من الممكن أن ينتج ثمرة، قد تبدو لامعة من الخارج، لكنّها ممتلئة بالدّيدان من الدّاخل. ذلك لأنّ هذا الذّهن، المعطوب إلى درجة

تفوق القدرة على تصفية الحساب، ينحو دائمًا نحو عدم مبارحة نتائج الحدث والاستقرار فيه.

«إيبونو»، نتائج الحدث -إنّه مكان غير مريح بالمرّة. داخل نتائج الحدث هناك قليل من الحركة، لكن كثير من الاجترار. فالحدث، بحدوثه وانقضائه، يصبح مفتقرًا الآن إلى القدرة والفاعليّة. ما يقصفه ذهن الرّجل اليائس لا يترك أيّ انبعاج في سطح الزّمن. هذا هو المكان الذي يستقرّ فيه ذهن الرّجل اليائس طوال معظم الوقت، عاجزًا عن المضيّ قُدمًا.

أومأ توبي، الذي بدا عليه الارتياح من مكالمة مُضيفي مع صديقه، ثمّ قال: «سنعرف؛ سنكتشف مكانه بهذه الطريقة. لعلّه ما زال في نيجيريا ولعلّه كذب عليك».

أومأ مُضيفي وأضاف توبي: «أثناء اتّصالك، فكّرت في أنّه يجدر بنا أن نذهب أيضًا إلى قسم الشّرطة قبل رجوعنا إلى الجّامعة. دعنا نبلغ عن جامايك كي تتمكّن الشّرطة من اقتفاء أثره والقبض عليه. لعلّه في هذا البلد، ولكن في مدينة أخرى. إنّهم يعرفون كلّ شخص موجود هنا، وليس من العسير عليهم أن يعثروا عليه».

رفع مُضيفي ناظريه إلى هذا الرّجل الذي هبّ لنجدته، وقال بتأثّر شديد: «هو كذلك يا توبي، هيّا، دعنا نذهب».

12

أطياف مخاتلة

«**أُزِميري أتاتا**»، صدق الآباء الأوّلون حين قالوا إنّ السّمكة الفاسدة تُعرَف من رائحة رأسها. كنت بحلول هذا الوقت قد بدأت في الارتياب من أنّ ما مُنيَ به مُضيفي لم يكن سوى أبشع ما كنّا، أنا وهو، نتخوّف منه. لكنّ التّيقّن من ذلك في هذه النّقطة كان أمرًا محالًا، فنحن، مثل مُضيفينا، لا نستطيع رؤية المستقبل. لا ينبغي لنا، نحن القرناء الحماة، أن نحمي مُضيفينا وأن نحرسهم، حتّى من مواجهة الإخفاق والفشل، بل ينبغي لنا، في مثل هذه الحالات، أن نطمئنهم إلى أنّ الأمور ستسير على ما يرام. علينا أن نطمئنهم، «إيبونو»، بأنّ ما كُسِر سوف يُجبَر. لذا، كان ما أقدمت على فعله هو مساعدته على التّماسك، ففي هذا الوقت، كان مُضيفي محطّمًا تمامًا. أمّا القشّة التي قصمت ظهر البعير، فكانت تلك المكالمة التي تلقّاها من إلوتشوكو بعد ذهابه إلى متجر شقيقة جامايك. أخفى إلوتشوكو عن تلك المرأة حقيقة ما حصل، وكذب عليها قائلًا إّن جامايك كلّفه بصفقة ما، وإنّه كان يودّ إطلاعه على آخر المستجدّات. لكنّ المرأة أخبرته أنّ جامايك مسافر. عندئذ، طلب منها إلوتشوكو رقم هاتف شقيقها. قال إلوتشوكو لمُضيفي عبر الهاتف: «فوجئتُ حين قالت لي إنّ جامايك طلب منها ألّا تعطي رقمه الجّديد لأيّ أحد، ولا لأيّ شخص. لم أصدّق أذناي يا نسو. لذا، طلبت منها أن تتّصل به. وما أدهشني، أنّه ردّ، وقال لها شيئًا ما. عندئذ رمتني بنظرات متشكّكة ثمّ قالت إنّه مشغول».

أمسك إلوتشوكو عن الكلام لمّا أطلق مُضيفي زفرة طويلة عبر السّمّاعة التي كان يحملها بيد مرتجفة. ثمّ تابع إلوتشوكو: «إنّني آسف للغايةِ يا ننسو، الوضع مؤلم للغاية. لكن يبدو أنّ جامايك احتال علينا».

«أَغباتَّه آلومالو»، إثر سماع مكالمة إلوتشوكو، هزّ توبي رأسه بضع مرّات، ثمّ طلب من مُضيفي أن يذهبا، قبل التّوجّه إلى قسم الشّرطة، إلى محلّ صرافة لتحويل ما بقي بحوزة مُضيفي من عملة اليورو إلى اللّيرة التّركيّة. ليس كلّ المبلغ، بل قسمًا معقولًا منه، سيحتاجون إليه لأجل استئجار شقّة في المدينة. ممّا بقي لديه من الـ 587 يورو، ناول توبي 400. عبر توبي مبنى زجاجيًا كتب على بابه بأحرف مضيئة «دوفِز» ثمّ رجع بحفنة من اللّيرات التّركيّة. قرب قسم الشّرطة، صادفا طالبتين إفريقيّتين، كانت إحداهما غارقة في الدّموع. ماذا جرى؟ كانت الفتاة الباكية تبحث عن رجل تظاهر بأنّه وكيل الجّامعة الأخرى في «لفكوسا»، رجل يُدعى جيمس من المفترض أن يستقبلها في المطار لكنّه لم يأتِ. رفيقتها، ذات البشرة الفاتحة التي ذكّرته كثيرًا بوالدة ندالي، أكّدت على صحّة كلامها. أراد أن يسألهما إن كان جيمس هذا هو جامايك نفسه، إن كان له اسم أجنبي أو إن كان هذا الاسم اسمًا مزيّفًا، لكنّ الفتاتين سارعتا إلى الذّهاب، وهما في حالة مريعة من اليأس. بعد انصرافهما، رمقه توبي بنظرة عميقة مهذّبة، لكنّه لم يقل شيئًا.

عبر مُضيفي قسم الشّرطة بمشية مستعجلة ومَعِدة مضطربة. لم يكن هذا مثل أيّ قسم للشّرطة في نيجيريا، حيث تلقى رجالًا عنيفين وجائعين، عركت الشّمس وجوههم وعذّبت الفاقة أجسادهم، يعاملون النّاس بغلظة وبلا رحمة. هنا، وجد ثلاثة شبابيك للمراجعة، مثل شبابيك المصرف، وجلس النّاس في مقاعد ينتظرون دورهم بشكل منظّم. وكان رجال الشّرطة، اثنان خلف كلّ شبّاك، يقومون على

تلبية حاجات النّاس. فوق الحائط من خلفهم، تمامًا مثلما رأى في المصرف، لوحتان ضخمتان لرجلين، أحدهما رأسه أصلع ومحفوف بالشّعر من الجانبين، أمّا الآخر فوجهه صارم القسمات. انتبه توبي فجأة إلى مرمى بصره فقال: «هذا طلعت، رئيس وزراء جمهوريّة شمال قبرص التّركيّة، وأردوغان، رئيس الوزراء التّركيّ». فأومأ برأسه.

لمّا حلّ عليهما الدور، استلم توبي دفّة الحديث. ولأنّ توبي كان صاحب حضور معلن، حضور يؤكّد سلفًا على أمر لم يكن فمه قد تفوّه به بعد أو يتحدّث بعالي الصّوت عندما لم يكن صاحبه قد صدر منه شيء سوى الهمس، كان هذا سببًا آخر وراء ترك مُضيفي زمام القيادة له. شرح توبي كلّ شيء، وبالتّفصيل. ثمّ ناولهما الشّرطيّ قلمًا وورقة، فسجّل عليها توبي كلّ شيء. بعدئذ، قال الشّرطي: «انتظرا هنا».

أثناء الانتظار، خفق قلب مُضيفي بعنف، وضجّت معدته بقرقعة عجيبة. هزّ توبي رأسه وقال: «إنّني متأكّد من أنّ هذا الشّيطان موجود في هذه الجّزيرة، وأنّهم سيعثرون عليه لا محالة. لا يمكن أن يمرّ الأمر بهذه البساطة، بكلّ هذه البساطة. أرأيت تلك الفتاة البريئة، أيضًا، إيه؟ إنّ صِبيَة ياهو هؤلاء في منتهى الشرّ. هذه هي الطّريقة التي يحتالون فيها وينصبون على النّاس. كنّا نظنّ أنّهم لا يستهدفون عبر الانترنت إلّا البيض فقط، الـ'مَغَس'، لكن افتح عينيك جيّدًا وانظر كيف يدمّرون أهلهم وناسهم، إخوانهم وأخواتهم؟ لن تكون عاقبتهم حسنة أبدًا!».

لسبب ما، أراد من توبي أن يتابع الحديث، إذ كان في حديثه ما قد يخفّف عنه غلواء ما يشعر به. لكنّ توبي تنهّد وتأفّف ثمّ نهض وذهب إلى برّاد الماء، انتزع كأسًا بلاستيكيّة، ملأها بالماء البارد، ثمّ كرعه. غبطه مُضيفي على الوضع الذي كان فيه. رجل لم يخسر شيئًا، بل آلت نقوده إلى حيث أراد لها أن تؤول، وسيدرس هندسة الحاسوب في جامعة أوروبيّة. كان توبي محظوظًا؛ جديرًا بالغبطة لأنّه لم يكن

لديه ما يحمله على الحزن أو الغضب. أمّا الصّليب الذي كان يحمله الآن، فهو صليب حمله عنه وسوف يطرحه عن عاتقه بلا شكّ في القريب العاجل، ربّما عند مغيب الشّمس، أو في الغد على الأكثر. ذكّره توبي بسمعان القيروانيّ[1] المذكور في الكتاب الدّيني الغامض للرّجل الأبيض. رجل بريء لا ذنب له سوى المرور مصادفة بطريق المحكوم عليه بالصّلب نفسها. مثل سمعان القيروانيّ، كان توبي قد حُملَ إلى الشّقّة الخالية نفسها بمحض الصّدفة. وكان ضميره، لا جنود الرّومان، قد أرغمه على حمل صليب مُضيفي. عمّا قريب سيرتاح من حمله، وسيحمله هو على كاهله، بمفرده. لكنّ أوان ذلك لم يحِن بعد.

قال توبي لدى عودته من عند برّاد الماء: «انظر إلى حالنا، إلى ما أصابتنا به مثل هذه التّصرّفات من وبال. انظر إلى اقتصادنا؛ ومدننا. كلّا كهرباء. كلّا فرص عمل. كلّا ماء نظيفة. كلّا أمن أو أمان. لا شيء. كل شيء، سعر كلّ شيء ضعف الضّعف. كلّا شيء يسير كما يجب. تذهب إلى الجّامعة، افرض أنّ الدّراسة يجب أن تكون أربع سنوات، لن تكملها إلّا في ستّ أو سبع سنوات، حتّى لو كان الرّبّ في عونك. ثمّ حين تتخرّج تكتشف أنّ فرص العمل لا موجودة وأنّ شعرك سيشيب وأنت ابحث ابحث، وحتى لو عثرت بعد كل هذا الانتظار على وظيفة، فستعمل وستعمل ثمّ ستظلّ تعمل لكنّك مع ذلك ستجد أنّك لم تقبض ولو ملّيمًا واحدًا».

أمسك توبي ثانية عن الكلام، فالشّرطي الذي كان يتابع قضيّتهما

---

(1) رجل يُقال إنّه كان مارًّا من الطريق الذي سلكه المسيح وهو يحمل الصليب فوق ظهره، وأنّ جنود الرّومان أمروا سمعان بحمله عن المسيح لفرط آلامه. ويقال إنّ هذا الرّجل من مدينة القيروان أو «قورينه» وهي مدينة أنشأها اليونان في ليبيا في القرن السّابع قبل الميلاد وليست مدينة القيروان التي أنشأها عقبة بن نافع في تونس في القرن الأوّل الهجري.

ظهر عبر الشّبّاك وبيده قصاصة ورقيّة، لكنّه عاد إلى الاختفاء بمثل السّرعة التي ظهر فيها. فكّر مُضيفي في أنّ كلّ ما قاله توبي كان صحيحًا. كان يريده أن يقول المزيد. وعندئذ استأنف توبي كلامه متسائلًا: «أتدري ما يزعجني أكثر من كلّ ذلك؟».

هزّ مُضيفي رأسه، إذ كان توبي بالفعل قد رماه بنظرة خاطفة وطالبه، من دون كلام، بإبداء ردّ ما. ثمّ فرقع توبي بإصبعيه وأردف قائلًا: «كلّ ما يجنيه هؤلاء، صِبية ياهو الحمقى، يذهب سدى. فأعمالهم لا تجرّ عليهم إلّا الوبال. إنّه قانون 'كرما'. ألم ترَ عاقبة ذلك الرّجل الذي طافوا به شوارع لاغوس بعد أن قتل زوجته وباع أعضاءها للمشعوذين من أجل استخدامها في طقوسهم؟ مات ميتة شنيعة. وهذا الجامايك، سيعاني كذلك».

حدّق مُضيفي ثانية إلى عينَي توبي وأبصر فيهما اتّقاد نوبة من الغضب تحاكي انتفاضة روح كسيرة. تابع توبي قائلًا: «انتظر وراقب فقط، سترى أيّ مآل سيؤول إليه، لن يجرّ على نفسه سوى الوبال».

كفّ توبي عن الكلام لأنّه قام وذهب ثانية إلى برّاد الماء. أحسّ مُضيفي بدبيب الحياة في أوصاله عقب كلّ ما قاله توبي. ثمّة أحيان يبقى الكلام، بعد توقّف المرء عن الكلام، معلّقًا في الهواء، ملموسًا ومسموعًا، كما لو أنّ جنّيًا خفيًّا ظلّ يردّده على المسامع. «**هذا الجامايك سيعاني كذلك. انتظر وراقب فقط، سترى أي مآل سيؤول إليه، لن يجرّ على نفسه سوى الوبال**». عبر الصّمت المخيّم عليه، تأمّل مُضيفي تلك الكلمات. هل سيكون هو الشّاهد على معاناة جامايك؟ كيف سيحدث هذا وهو لا يعرف مكان جامايك أو حتّى كيف يصل إليه؟ هل هذا يعني أنّه سيكون ذات لحظة معيّنة في المستقبل في مكان ما ليشهد هذا الجامايك وهو يعاني جزاء الورطة التي زجّه بها؟ تمنّى حدوث ذلك من أعماقه. سيعتبر أنّ ما قاله توبي كان صلاة، فهذا

التوبي، في النّهاية، كانت في عنقه مسبحة تحت قميصه، وقال إنّه كان سيصير قسّيسًا لولا أنّ والديه ألحّا على زواجه وإنجابه، لأنّه كان الذّكر الوحيد في العائلة. هذا القسّيس الذي لم يصبح قسّيسا في الواقع كان في الحقيقة قد صلّى لأجله، هو الذي لم يستطع أن يصلّي لأجل نفسه. لذا، ردّد في سرّه بصوت عالٍ، آمين.

عندما تركا قسم الشّرطة، كانت الشّمس آخذة في المَيلان نحو الجّبل الذي كانت رؤية قممه المتعرّجة ممكنة من أيّ مكان في المدينة. قال توبي: «أرأيت؟ ثمّة أمل. إنّهم ما زالوا قادرين على العثور عليه. عثروا الآن، على الأقلّ، على سجلّاته، وعرفوا من يكون. سيلاحقونه. وما إن يعود هذا الأحمق إلى الجّزيرة، سيقبضون عليه. أقسم بمن خلقني، سوف يُردّ مالك إليك. كلّه».

أومأ مُضيفي. على الأقلّ، جرى توثيق وربط اسم جامايك بما تعرّض له من نصب واحتيال. جرت الإجابة عن سؤال، حتّى ولو بغمغمة غير مفهومة. هذا كان كافيًا الآن. فالبِركة الآسنة، زمن الجّفاف، تصبح كالماء الجّاري.

حدّق إلى قصاصة الورق التي كان توبي قد سجّل فيها المعلومات التي تلقّاها من الشّرطة، ستّ ملاحظات:

1- جامايك نْواورجي.
2- 27 عامًا.
3- طالب في جامعة الشّرق الأدنى منذ 2006.
4- غير مسجّل للدّراسة في هذا الفصل.
5- آخر عبور له إلى جمهورية شمال قبرص التّركيّة كان في الثّالث من أغسطس.
6- غادر جمهوريّة شمال قبرص التّركيّة في التّاسع من أغسطس.

هذه الملاحظات السّتّ، كما أكّد له توبي، ستكون كافية في الوقت

الرّاهن. مصدر هذه الملاحظات موثوق وأكيد. راقب توبي لدى طرحه الأسئلة وإجابة الشّرطيّ عنها.

- أين ذهب؟

- ليس لدى الشّرطة، الدّولة، أيّ معلومات مسجّلة بهذا الخصوص.

- متى سيعود؟

- ليس لديهم معلومات بهذا الخصوص أيضًا.

- هل تعرف الشّرطة أيّ أحد، صديق أو ما شابه، يعرف أين ذهب بالضّبط؟

- الشّرطة لم تحتفظ بسجلّ لمثل هذا الأمر.

- ما الذي ستفعله الشّرطة في حال عودته؟

- ستعتقله وستحقّق معه.

- في حال عدم عودته، هل ستبحث الشّرطة عنه؟

- لا، إنّها شرطة شمال قبرص فقط لا شرطة العالم بأسره.

ثمّ لم يعد لديه أو لدى توبي أيّ أسئلة. لذا، في الوقت الحاضر، ستفي هذه المعلومات، التي سجّلها توبي في ورقة بيضاء على عجل وناولها له، بالغرض. ترك توبي يقرّر ما سيفعلانه لاحقًا. فاقترح توبي أنّ عليهما أن يعودا إلى محلّ إقامته المؤقت، لأنّ السّاعة كانت قد تجاوزت الآن الخامسة ببضع دقائق. وأنّ عليهما أن يذهبا إلى جامعة الشّرق الأدنى في الغد، بعد انتهائه من تسجيل مواده وتعرّفه على المسؤول عن الطّلبة في تخصّصه. كانا قد أبصرا الجّامعة في الصّباح من بعيد وهما في طريقهما إلى وسط المدينة. سيسألان في الجّامعة إن كان أحد يعرف جامايك ولديه معلومات عن مكان وجوده. ثمّ، بعد جولة جمع المعلومات تلك، سيذهبان سويّة للتّفتيش عن شقّة في البلد، فرغم أنّ مُضيفي لم يمكث في السّكن الجّامعيّ المؤقّت سوى ليلة واحدة، إلّا أنّ توبي مكث هناك أربع ليالٍ، ولم يكن مسموحًا للطّلبة

الجدد بالمكوث في شقق الإقامة المؤقّتة إلّا لأسبوع واحد فقط. ينبغي لهما، توبي اقترح، أن يقتسما أجرة غرفة إلى حين العثور على حلّ لمشاكله الماليّة لأنّه -حسبما أكّد توبي- سوف يبذل كافّة ما بوسعه كي لا ينتصر الشرّ، وكي لا يصبح أخوه مكبّل اليدين في بلاد الغربة.

أحسّ مُضيفي أنّه لم يكن أمامه أيّ خيار تجاه هذا التّرتيب سوى القبول. وفوق هذا، فإنّ اقتسامه كلفة الإقامة مع توبي، الذي ذكر بأنّ استئجار طالب لشقّة كاملة بمفرده أمر مكلف، سيكون شكلًا من أشكال ردّ المعروف. أحسّ بأنّه كان ممتنًّا وملزمًا تجاه هذا الرّجل الذي فعل الكثير لأجله. وافق على اقتسام الأجرة وشكر توبي. ردّ عليه قائلًا: «لا داعي للشّكر، نحن أخوان».

«إيبونو»، يقول الآباء الأوّلون: «حقيقة أن يرى الرّجل طيف عنزته المفقودة في الجوار، لا تعني أنّه سيقبض عليها ويعود بها حيّة». حقيقة أن يُمنح الرّجل قسطًا من الأمل، لا تعني أنّ ما كُسر قد تمّ جبره. لذا، كان أمرًا مفهومًا، قبل ركوبهما الباص، أن تنتاب مُضيفي رغبة الدّخول إلى محلّ لبيع المشروبات قرب الموقف. اشترى زجاجتين من المشروبات القويّة ووضعهما في كيس. ثمّ أشعرته الدّهشة الشّديدة التي اعترت وجه توبي بضرورة تبرير ما فعله، فقال: «لست مدمنًا على الخمر، لكنّني أودّ أن أريح دماغي قليلًا. بسبب ما حصل».

أومأ توبي برأسه أكثر من اللّازم، ثمّ قال: «أتفهّم ذلك يا سلومن».

«شكرًا لك يا أخي».

«**أُوزه بروّه**»، يمكنني ببساطة أن أروي ما قاله مُضيفي وفعله بعد عودتهما في ذلك اليوم، لكنّ المشهد المذهل الذي شاهداه في طريق العودة، وما كان له من تأثير عليه فيما بعد، يستحقّ هذا الاستطراد. إذ كان مُضيفي، في بداية شعوره باليأس، قد انشغل في التّفكير ببيته،

ومزرعته الصّغيرة، والبامية التي زرعتها ندالي قبل أسبوعين، والتي يجب أن تتفتّح عمّا قريب، وطيوره الدّاجنة. كان يفكّر كيف كانت نائمة في سريره القديم، وكيف راقبها ذات مساء وقد أحاطت بها كتبها الدّراسيّة من كلّ جانب. عاد إلى التّفكير ثانية في كيفيّة وقوع اختيارها عليه ببساطة ومنح نفسها له. شطح به التّفكير نحو هذه المروج العذبة، عندما هزّ توبي كتفه وقال: «سلومن، انظر، انظر».

عندما نظر من نافذة الباص، رأى رجلًا أسود، بشرته داكنة على نحو غير طبيعيّ، وكأنّه تمثال مطليّ بالقار دبّت فيه الحياة فراح يتحرّك هنا وهناك. قال الطّالب الذي تكلّم توبي معه إنّ الرّجل العجيب مقيم في الجّزيرة منذ أمد طويل، وإنّه أصبح مشهورًا للغاية، حتّى أنّ صحيفة «أفريكا» القبرصيّة التّركيّة، التي كان شعارها، وفق ما شدّد عليه الطّالب، وجه قرد، نشرت تحقيقًا صحفيًّا عنه. لم يعرف أيّ أحد الاسم الحقيقيّ لهذا الرّجل. لكنّ الجّميع اعتقدوا أنّه من نيجيريا. وكما لو كان رحّالة عظيمًا، كان يذرع المدينة طولًا وعرضًا، وبيده حقيبة وحيدة فيها على ما يبدو كافّة ما يملكه، والتي اهترأت وأصبحت بالية مع مرور الوقت. لم يكن الرّجل يكلّم أحدًا. ولم يعرف أحد كيف يأكل أو يعيش من يوم لآخر. خطر في بال مُضيفي فجأة أنّ هذا الرّجل ربّما كان الرّجل نفسه الذي كان تي تي قد أخبره عنه في المطار. «إيبونو»، راقب هذا الرّجل العجيب إلى أن طوته المسافات، وهزّه هذا المشهد المدهش بشدّة. كان يخشى من أن يكون هذا الرّجل العجيب قد وقع في ورطة مشابهة لورطته، وأن يكون ذلك قد أفقده عقله. فخاف أن ينتهي به المطاف إلى مصير مشابه.

عندما وصلا إلى الشّقّة الجّامعيّة، توجّه إلى غرفته. كانت الغرفة فارغة إلّا من حقائبه المرميّة فوق الأرض، والقميص الذي سافر فيه معلّقًا على أحد الكرسيّين الوحيدين، والمنشفة التي استخدمها في

الصّباح متدلّية من أحد السّريرين الخشبيّين المزدوجين. قدّر أنّ الغرفة مصمَّمة لسكن شخصين. جلس على الكرسيّ الآخر وفتح إحدى زجاجتَي الشّراب. خطر له فجأة أنّه لم يكن يعرف لماذا اشترى هذا الشّراب بالذّات، كلّ ما كان يعرفه هو أنّه لمّا وقعت عينه عليه شعر بأنّ عليه أن يتناوله، شراب لونه أبيض بدا مثل نبيذ النّخيل-شراب الآباء التّقاة. كان ثمن الزّجاجتين خمسين ليرة، أي ألفًا وخمسمئة نيرة. اعتلى الكرسيّ وتطلّع فوق سطح الخزانة، حيث كان بإمكانه أن يضع حقائبه. لم يكن هناك شيء سوى الغبار وفرشاة أسنان قديمة عالقة في شباك عنكبوت واهية. عنّ له الآن أنّه كان يُقدِم على فعل أشياء لم يعُد لها معنى. ذات مرّة، قيل له -بصوت رجل لم يستطع استحضار صاحبه- إنّ أبشع ما يمكن أن تنزله المصيبة بصاحبها هو دفعه نحو التّحوّل إلى شخص آخر، شخص لا علاقة له بحقيقة من يكونه. وهذا، وفق ما حذّره من قال له هذا، هو الهزيمة المطلقة.

على ضوء هذه النّصيحة وما حملته من تحذير تلقّاه منذ أمد بعيد، وضع الزّجاجتين البيضاوين على الأرض واعتلى السّرير المزدوج. كانت الفرشة بلا ملاءة. حاول أن يشقّ طريقه وسط حشود الأفكار العظيمة في رأسه، لكنّه لم يستطع. فتلك الحشود كانت تتكلّم معًا وفي آن واحد، وأصواتها المدوّية كانت تصمّ الآذان. نزل عن السّرير والتقط إحدى الزّجاجتين. «فودكا»، همس في سرّه ومسح العلامة الرّطبة بيده. كرع جرعة ثانية، أتبعها بثالثة، إلى أن ثارت ثائرة عينيه وطفر منهما دمع حارق، ثمّ تجشّأ. وضع الزّجاجة فوق الأرض وجلس فوق الكرسيّ. أنصت إلى حركة توبي هنا وهناك في أرجاء الشّقّة الفارغة. تدفّق الماء من الصّنبور. وقع خطى. تدفّقُ الماء ثانية من الصّنبور. تدفّق البول في مقعد الحمّام. بصقٌ في المغسلة. كحكحة. دندنة بلحن كنسيّ. وقع خطى من جديد. انفتاح باب غرفة؛ صرير السّرير. لمّا تلاشت أصوات

توبي، جنح مُضيفي بتفكيره إلى حيث كان يريده أن ينصبّ: على ذاك الرّجل، جامايك.

«إيبوبديكي»، طال تفكيره في هذا الرّجل وتطاول، وفي نهاية المساء، لمّا أطبق ظلام البلد على الأفق، كان قد اكتمل ذلك التّحوّل الذي حذّره منه صاحب صوت لم يعد يتذكّره. عندئذ تمدّد على الأرضيّة العارية، وقد أُصيب ذهنه بالاعوجاج، وتحوّل إلى شخص آخر لم يكنه قطّ. رأى نفسه وقد تحوّل إلى أسد، متجوّلًا في أرجاء غابة متوحّشة، باحثًا عن حمار وحشيّ يُدعى جامايك -حيوان اختفى ومعه كافّة ما كان هو ووالده وعائلته يمتلكونه. بجهد كبير، التقط صورة لجامايك في ذهنه، ثمّ حدّق إليها بفضول وقد اشتعل بالغيرة. علقت كحّة في حلقه، فتطايرت حبيبات الشّراب من جوفه رذاذًا عبر الغرفة.

استحضر الحادثة التي تذكّرها سابقًا، تلك التي وقعت في العام الذي يسمّيه الرّجل الأبيض 1992، وكيف انتقم جامايك من مُضيفي ورفيقيه على الإساءة التي ألحقوها به خلال الأسبوع نفسه. قام جامايك بتسجيل أسمائهم في «قائمة المشاغبين»، مع أنّ مُضيفي في الحقيقة لم يكن قد تكلّم على الإطلاق. لكن، اعتمادًا على رواية جامايك الكاذبة، تعرّض مُضيفي ورفيقيه إلى الجّلد على يد الأستاذ المسؤول عن الانضباط. تأذّى مُضيفي من تلك العقوبة إلى حدّ عظيم. كان ساخطًا للغاية حتّى أنّه كمِن لجامايك بعد المدرسة، وحاول الاشتباك معه في عراك. لكنّ جامايك رفض أن يشتبك معه. كان العُرف السّائد بين الصّبية يقضي بمنع الاشتباك مع شخص يرفض العراك ومقابلة الضّربة بضربة. لذا، لم يستطع مُضيفي فعل أيّ شيء أكثر من زعم الانتصار في عراك لم يحصل فيه أيّ عراك. صرخ في جامايك قائلًا: «أيّتها البنت، أنتِ ترفضين العراك لعلمك بأنّني سأغلبكِ». في ذلك

الوقت، أجمع كلّ من كان حاضرًا على أنّه الرّابح. لكن الآن، وهو ممدّد فوق أرضيّة الغرفة في هذا البلد الغريب، تمنّى بشدّة لو أنّهما اشتبكا في ذاك العراك، وحتّى لو كان قد أنزل حينذاك بجامايك جرحًا طفيفًا فقط، لكان في ذلك شيء من العزاء، مهما صغر. لو أشبع جامايك ضربًا، ثمّ طرحه أرضًا ومرّغ أنفه بالتّراب.

«إيبونو»، ثارت ثائرته، فتمنّى أن يحدث العراك الآن، هنا في هذا البلد، وأن يكسر زجاجتَيّ الفودكا فوق رأس جامايك، ويراقب انسياب الكحول داخل جراحه. أطبق عينيه لكبح نبضه المتسارع، وكما لو أنّ إلهًا بغيضًا استجاب لطلبه، تجلّى له جامايك، وقف هناك وهو غارق في دمائه. قِطع الزّجاجتين المهشّمتين مغروزة في جبينه، وعنقه، وصدره، بل وحتّى في بطنه، حيث التصقت كتلة سميكة من الدّماء مثل رقعة جلد إضافيّة. طرف بعينيه، لكنّ الطيف لم يتبدّد، بل ظلّ واقفًا بثبات. كان طيف جامايك غارقًا في الدّمع من فرط الألم الواضح، والكلام يسيل من شفتيه المرتجفتين.

تجلّت هذه الرؤية له بشكل شديد الوضوح، فاعتراه الارتجاف والتّشنّج. هوت الزّجاجة من يده واندلقت فوق البساط. عندئذ، استولت عليه أمنية فجائيّة شديدة بألّا ينزف جامايك حتّى الموت. مدّ يديه متضرّعًا إلى الرّجل المُدمّى، وكأنّه كان هناك بالفعل، كي يتوقّف عن النّزف. ثمّ قال وقد ستر عينيه من المنظر المروّع للرّجل الملطّخ بالدّماء: «اسمع، أنا لا أودّ في الواقع أن أجرحك بهذه الطّريقة، إر. كلّ ما أريده هو المليون والخمسمئة نيرة. أرجوك، جامايك، أرجوك. ردّها لي فقط وسأعود إلى الوطن، أقسم بمن خلقني. ردّها لي فقط!».

نظر ثانية إلى مستمعه الوحيد، وكما لو أنّه استجاب لما قاله، انتفض الطّيف المتلألئ مرتجفًا بشدّة أكبر. نظر برعب إلى أسفل، فرأى بركة الدّماء المتجمّعة عند قدَمَيّ الرّجل الجّريح. اعتدل وتقهقر

إلى الوراء، بعيدًا عن المشهد، الذي، مع أنّه كان يدور في خياله، إلّا أنّه كان يحسبه حقيقيًّا ويجري داخل الغرفة بالفعل. ثمّ قال: «اسمع، أنا لا أتمنّى لك الموت. أنا لا»...

«سلومن، هل أنت بخير؟».

كان هذا توبي، في العالم والزّمن الحقيقيّين للأشياء، طارقًا الباب.

ردّ مُضيفي، دهشًا من أنّ صوته كان عاليًا إلى درجة بلغت مسامع توبي: «أجل يا توبي».

«هل أنت على الهاتف؟».

«أجل، أجل، على الهاتف».

«أوكيه. سمعت صوتك، فشُغل بالي عليك. أرجوك، حاول أن تأخذ قسطًا من النّوم لتريح دماغك قليلًا».

«شكرًا، شكرًا لك يا أخي».

لمّا توجّه توبي إلى غرفته، قال مُضيفي بصوت عالٍ، متظاهرًا بأنّه يتكلّم على الهاتف: «أجل، سأعاود الاتّصال بك في الغد».

ثمّ توقّف، متظاهرًا بالاستماع إلى الطّرف الآخر، وبعدئذ قال: «أجل، وأنت أيضًا، تصبح على خير».

ثمّ التفت هنا وهناك، فلم يعثر لجامايك على أيّ أثر. فرك عينيه اللّتين كانتا قد امتلأتا بالدّموع حين تضرّع إلى الشّبح. «إجانغو إجانغو»، في تلك اللّحظة المشهودة، التي لا يمكن أن أنساها، راح مُضيفي يبحث في أرجاء الغرفة، فوق السّرير، خلف السّتارة الحمراء، في السّقف، طارقًا الأرض، هامسًا ومفتّشًا عن طيف جامايك المخاتل. أين ذهب الرّجل الذي كان ينزف؟ أين ذهب الرّجل الذي سدّد له طعنة نجلاء؟ لكنّه لم يعثر له على أثر.

هبط عليه الآن طيف الرّجل الأسود المجنون، فاعتلى السّرير برعب وتمدّد فيه. لكنّه لم يستطع النّوم. كان كلّما أغمض عينيه، يثب على

الفور مثل قطّ مذعور إلى خرائب هذا اليوم العصيب، الذي لم ينجز فيه شيئًا سوى جمع مزيد من البراهين القاطعة على خراب بيته بالفعل. نبش أكوام القمامة في تلك الخرائب، قافزًا هنا وهناك من رائحتها الفظيعة، منقّبًا، مستقصيًا المعلومة إثر المعلومة -المصرف، الفتاتين اللّتين تحسّستا شعره، الاستفسار لدى قسم الشّرطة، لقاء دِهان، تذكُّر ما فعله بجامايك قبل سنوات طويلة، والذي اعتقد بأنّه ربما كان سبب هذه الكراهيّة الفظيعة، هذه الضّغينة الحقيقيّة التي ظلّ أوارها مستعرًا طوال الوقت. ظلّ يقفز، وينبش، ويستجدي إلى أن استخرج كلّ شيء، إلى أن أصبح ذهنه ركامًا. عندئذ فقط كانت عيناه تنزلقان إلى النّوم. لكن ليس لمدّة طويلة. إذ سرعان ما كان يصحو ثانية، لتعيد الكرّة نفسها بلا رحمة من جديد، المرّة تلو الأخرى.

«أكاتاكا»، حالة مُضيفي وخوفي ممّا كان يخبّئه المستقبل، أصابتني بفزع عظيم، حتّى أنّني في البرهة القصيرة أثناء نومه، قرب منتصف اللّيل، اندفعت خارج جسده. تمهّلت، ولمّا تأكّدت من عدم وجود أرواح في الغرفة، توجّهت إلى الأثير وطرت صوب سهول «إزِنمو»، عبر مسلك الأرواح. ثمّ وصلت إلى كهف «إنْغودو»، إلى مأوى عشرات الآلاف من القرَناء الحماة. ولمّا لمست قدماي الأرضيّة المضيئة، أبصرت قرينًا حاميًا كنت أعرفه قبل سنوات طويلة. كان قرينًا حاميًا لوالد من كان مُضيفي آنذاك. سألته إن كان يعرف قرينًا حاميًا لشخص حيّ يُدعى جامايك نْواورجي، لكن لم يكن لديه علم بذلك. تركت هذا القرين الذي كان يجلس وحيدًا، لاهيًا بقارورة فضّيّة قرب نافورة الماء. سألت ثلّة من القرناء الحماة، كان أحدهم قد لبث بلا مُضيف زهاء عشرين سنة بشريّة، فردّ عليّ وأخبرني بأنّ من الصّعب العثور على قرين حامٍ قد يعرف المكان الرّاهن لمُضيف حيّ أو قرينه

الحامي. بالفعل، نظرت من حولي إلى جموع القرناء الحماة، الذين كانوا مجرّد جزء يسير من الأعداد التي لا تُعدّ ولا تُحصى للقرناء الحماة في الأرض، فأدركت عقم المحاولة. عرفت بأنّني لن أستطيع العثور على جامايك أو قرينه الحامي إن كنت لا أعرف أين يكونا. بعد أن أُسقط بيدي، ارتقيت بفعل القوّة الخارقة في السّماء وسرعان ما وجدت نفسي في ذلك الممرّ الباطنيّ الوحيد للهبوط والذي لا يعلم أحد به سوانا، أنا وأنت، يا «تشوكو». فهو الممرّ الوحيد الذي يتيح لي العودة إلى مُضيفي الحيّ، وكأنّ قوّة مغناطيسيّة تجرّني إليه، من أيّ مكان في أرجاء الكون.

13

التّحوّل

«أُبا سيدي نلو»، يقول الآباء العظماء انطلاقًا من حكمتهم المستلهَمة من الطّبيعة لا يمكن لفأر أن يقع عامدًا متعمّدًا في مصيدة نُصبت له. ولا يمكن لكلب يعرف معرفة أكيدة بأنّ ثمّة بركة عميقة موحلة في آخر الطّريق أن يتابع سيره ويسقط فيها عامدًا متعمّدًا كي يغرق. لا أحد يرى النّار ويُلقي نفسه فيها. لكن قد يقع مثل هذا الرّجل في حفرة من النّار إن لم يرَ أنّها هناك. لماذا؟ لأنّ الكائن البشريّ محدود البصر؛ لا يملك رؤية ما يتجاوز نطاق ما تستطيع عينه الوصول إليه. هَبْ أنّ أحدهم وفد على رجل في بيته، وتقاسم معه الطّعام، ثمّ قال له: «ديانيه، عدت للتوّ من الشّمال العظيم، أغو هوسا، وجلبت معي بقرتين تساويان الكثير». وهب أنّه نمّق حديثه بالقول: «طرقت بابك لأنّ ماشيتي من سلالة أصيلة، لبنها مدرار، ولحمها بطيب مذاق نْتشِه، طرائد غابة أوْغبوتي». قد يُحسن صاحب البيت الظّنّ بهذا الرّجل، فيعتقد بأنّه حسن النّيّة ويصدّق كافّة ما يقوله له، مع أنّه لم يتحقّق بنفسه من صحّة هذا الكلام. يصدّق ذلك من دون أن يعرف أنّ البقرتين لا تُعلفان إلّا بالرديء والقليل من الطّعام، وأنّهما عليلتان، أو هما من سلالة وضيعة. ولأنّه لا يعرف ذلك، فإنّه يشتري البقرتين بمبلغ عظيم من المال. رأيت هذا مرّات ومرّات.

«تشوكو»، لماذا يحدث مثل هذا الأمر؟ لأنّ الرّجل لا يستطيع أن يرى ما لم يُكشف له، ولا يستطيع أن يرى ما هو محجوب عنه.

الكلمة المحكيّة تنوب عن الحقيقة، طالما لم يكشف عن كونها كذبة في الواقع.

أمّا الحقيقة فهي حالة ثابتة غير قابلة للتّغيير. هي ذاك الذي يستعصي على التّحريف أو التّبديل. لا يمكن أن تُنمّق، ولا يمكن أن تُبهرَج. لا يمكن أن تُلوى، أو أن تُقلَب، أو أن تُبعثَر. لا يستطيع الرّجل أن يقول: «هل بمقدوري أن أجعل هذه الرّواية أوضح بإضافة كذا وكذا عليها، قد يساعد ذلك المستمع على الفهم بصورة أفضل». لا! فاللجوء إلى هذا من شأنه تشويه الحقيقة وإفسادها. لا يستطيع الرّجل أن يقول: «يا صديقي، إذا سألوني في المحكمة إن كان والدي قد ارتكب الجّريمة، وأنا لا أريد لوالدي أن يُسجن، فهل أقول إنّه لم يرتكب الجّريمة؟». لا، أيّها الأحمق! ردّك هذا سيكون كاذبًا. قل ما تعرفه فقط. إن كانت الحقيقة هزيلة في معطياتها، فلا تغذّها لتجعلها سمينة. وإن كانت ثريّة، فلا تأخذ منها لتجعلها وضيعة. وإن كانت قصيرة، فلا تمطّها لتجعلها طويلة. فالحقيقة تقاوم اليد التي صنعتها، ولا تذعن لإملاءاتها. لأنّها يجب أن تظلّ في الحالة التي كانت عليها لحظة صُنعت لأوّل مرّة. لهذا، فإنّ الرّجل حين يسوق الكذب على رجل آخر، يعمد إلى تغطية الحقيقة وحجبها عن الأعين. قد يقدّم له طبقًا مغطّى من القرع وبداخله ثعبان. قد يكسو الهلاك أثواب المجد إلى أن يقع المستهدَف في المصيدة، إلى أن تنطلي عليه الحيلة، إلى أن يجرّد من كلّ ما يملك، إلى أن يجد نفسه في براثين الهلاك! رأيت هذا مرّات ومرّات.

«أُوزه بروَّه»، لم أذكر كلّ هذا بسبب ما حصل لمُضيفي فقط، بل لأنّه، أيضًا، حين استيقظ في جوف اللّيل، بعد رجوعي من كهف القرَناء الحماة، كان أوّل ما خطر له هو عدم اتّصاله بندالي مثلما وعدها. كانت قد حملته على قطع وعد لها بأنّه لن يكذب عليها أبدًا. حدث ذلك قبل سفره إلى لاغوس بأيّام قليلة، أثناء جلوسهما في الفناء

ومراقبتهما لدجاجة فقست صيصانها للتّوّ. في ذلك الحين، التفتت إليه وكأنّها تذكّرت شيئًا فجأة، وقالت: «ننسو، هل تعدني؟».

«أجل، أعدك».

«أنت تعلم بأنّ الكذب فعل شرّير. فلو كنت أجهل شيئًا كيف سأعرف عنه إن لم يخبرني أحد به، أو لو أخبرني بشيء آخر عوضًا عنه؟».

«هو كذلك يا مامي».

«أُبِم، هذا يعني إذًا، أنّك لن تكذب عليَّ بتاتًا وإلى الأبد؟».

«أجـ»...

«بتاتًا وإلى الأبد. أعني، مهما كان الوضع وبغضّ النّظر عن أيّ شيء؟ بتاتًا؟».

«لن أفعل يا مامي».

«أتعدني؟».

«أعدك من صميم القلب».

إثر ذلك، فتحت عينيها، لكن لمّا رأت عينيه، سارعت إلى إطباقهما ثانية، وقالت: «لا، لا يا ننسو. اصغِ جيّدًا».

انتظرها لتتكلّم، لكنّها لم تتكلّم لفترة طويلة من الوقت. إلى الآن، لم يستطع تخمين ما كان قد داهمها وحملها على الإمساك عن الكلام. لعلّه خاطر جسيم استولى على انتباهها طوال تلك المدّة؟ أو خوف مهول حملها على وزن كلماتها بحذر، مثل من سيُرفع له الغطاء عن جثّة منكّلٍ بها وعليه التّعرّف إن كان صاحبها أحد أعزّائه أم لا؟

وأخيرًا، قالت: «لن تكذب عليَّ أبدًا يا ننسو؟».

ردّ قائلًا: «لن أكذب عليك أبدًا يا مامي».

«أُنْايكه رُوُّه»، انتبه مُضيفي من نومه في ذلك الصّباح، وكأنّ صيحة

من شخص غير مرئيّ قد أيقظته. لمّا فتح عينيه، سمع صوت مركبة من بعيد، صرير ونش أو شاحنة ثقيلة. أنصت إلى صوت هذه المركبة لوهلة من الوقت، محاولًا منع الخوف الذي افترش سطح ذهنه كبقعة الزّيت من الاستيلاء على تفكيره. عزّز محاولته تلك عبر التّفكير فيما يمكنه القيام به لأجل العثور على جامايك. ملتحفًا بالنّور المتسلّل عبر السّتائر، قعد وحاول تحديد مكان جامايك وسط غابة أفكاره الملتفّة. حال أن تُكنس بقايا اللّيل جانبًا، سينهض وسيخرج إلى البلد الجديد. سيذهب إلى أيّ مكان يمكنه أن يعثر فيه على أيّ أحد قد يعرف أين ذهب جامايك، أو كيف يمكن الاتّصال به. يجب أن يكون هناك صديق ما لديه معلومات حول مكان جامايك. لن يدع توبي يحمل صليبه عنه بعد الآن؛ عليه الآن أن يحمله بمفرده.

هيّأ نفسه للخروج، ثمّ تناول حقيبة الوثائق وتسلّل من الغرفة قبل استيقاظ توبي. مشى إلى الجّامعة لدى شروق الشّمس، مارًّا بالمواضع التي مشاها برفقة توبي. جلس على مقعد جنب بركة اسودّ جوفها من الطّمي وربض تمثال ضفدعة في مائها الأسن. على حافّة المقعد، كان شابّ وصبيّة بشرتهما فاتحة اللّون يتجاذبان الحديث بالتّركيّة. ما إن جلس فوق المقعد، حتى نهضا وابتعدا، اختلسا النّظرات إلى الخلف مرّة تلو المرّة بصورة أقنعته بأنّهما كانا يتكلّمان عنه.

ظلّ جالسًا هناك إلى أن أعلنت شاشة هاتفه المشحون أنّ الوقت كان 8:14. نهض، ومن ورائه، كان باص 8:15 على أهبة التّوقّف. عبر المسافة الفاصلة بينه وبين الباص، كانت ثمّة نافورة -أدوات غير معهودة مزروعة في الأرض مثل النبات العجيب- تنفث الماء رذاذًا في الأرجاء. وقف مُضيفي أمام الرّشّاشات كي يحدّد اتّجاه نفث الماء، ثمّ لمّا استدارت بعيدًا عنه، هرول إلى الباص وقد نجا من البلل.

لمّا صعد إلى الباص، قال السّائق له شيئًا. فردّ: «لا تركيّة».

«لا تركيّة؟».

«أجل، إنجليزيّة ولكن كلّا تركيّة».

«أنت نايجيريه؟».

«أجل. أنا من نيجيريا».

نطق جملته الأخيرة بشرود قبل الجّلوس في مقعده. سار الباص بين رصيفين، كان عند أحدهما نيجيريّان يحملان أكياس نايلون من «ليمار»، السّوبرماركت الذي اشترى منه بطاقات الهاتف مع توبي. لم يدرِ لمَ رفع نفسه من المقعد حين رأى أحدهما، ثمّ انتبه لما فعله وارتمى في مقعده ثانية. كان ثمّة شيء لم يتمكّن من تفسيره حمله لثانية خاطفة على الظّنّ بأنّ ذلك الرّجل كان جامايك. جلس، متفطّنًا إلى أعين النّاس المحدّقة إليه والتي جفلت من حركته، لعلّهم ظنّوا أنّ مسًّا من الجّنون قد أصابه.

حين رأى اقتراب الباص من الموقف الذي كان يتوخّى النّزول فيه، خطا إلى الأمام، تاركًا النّقطة التي كان واقفًا فيها وسط أدغال أفكاره الملتفّة. مشى مترنّحا إلى مقدّمة الباص ثمّ تشبّث بأحد الأعمدة. رآه السّائق في المرآة الأماميّة فارتسمت فوق وجهه ابتسامة عريضة وقال: «نايجيريه، فطبول ممتازه. ممتازه كثير كثير. جاي جاي أُكوتشه، آمو كاتشي- ممتازه كثير، نايجيريه، واللهِ!».

فور نزوله من الباص، وقع ثانية في أسر ذكرى تلك اللّيلة في الفناء، وكأنّها كرة مرتدّة قذفها مضرب خفيّ إلى هناك. كانت ندالي قد أرخت ظهرها فوق المقعد فربضت الدّجاجة فوق بطنها وراحت تحدّق إليهما بصمت. عندئذ ضحكت ندالي وقالت: «مامي. يا لك من رجل عجيب يا ننسو. أستظلّ تناديني بهذا الشّيء على الدّوام؟».

ردّ قائلًا: «هو كذلك يا مامي».

ضحكت مرّة أخرى وقالت: «أتحبّ ذلك؟».

أومأ برأسه. فتابعت قائلة: «أجل، لكنّ هذا أمر غريب. لم أسمع من قبل أيّ أحد يدعو حبيبته «مامي». إنّهم يقولون «بيبي» أو «حبيبتي» أو «قلبي». لكن «مامي»؟ مختلفة للغاية».

«إنّني أدر»...

«إهِن، آه، تذكّرت يا ننسو! اليوم، إبّان الصّلاة في الكنيسة، أنشدنا ترتيلة ذكّرتني بك كثيرًا يا ننسو. لا أدري لماذا، لا أدري لماذا، لكن لا، أعتقد بأنّي أعرف لماذا. أعتقد بأنّها طريقة صياغة كلمات التّرتيلة، تلك الكلمات التي تتحدّث عن الإتيان إليّ. 'وأنت تأتي إليّ'. ذكّرَتني كثيرًا بك، كيف ظهرت فجأة، وكأنّ الأرض انشقّت وخرجت منها، ثمّ أتيت إليّ».

«ينبغي أن تغنّيها لي يا مامي».

لطمته على ذراعه وقالت: «ماذا؟ يا إلهي، ننسو!».

«آه! آه! ستقتلينني، أوه».

قهقهت وقالت: «لطماتي خفيفة كالرّيشة بالنّسبة لك. لكنّك تقول إنّها ستقتلك؟ آه، هذه كذبة. على أيّ حال، لا أستطيع أن أغنّي هذه التّرتيلة لك لأنّها من تراتيل الرّبّ. لا أحبّ أن أغنّيها لك كما لو كانت أغنية من أغاني الحبّ».

«آسف يا مامي. أدرك ذلك. لكنّي أودّ سماعها، وأن أعرف أيضًا لماذا تَذَكّرتها بي أنا».

فتحت عينيها بعد أن توقّف عن الحديث وقالت: «ذَكّرَتْ، لا تَذَكّرتْ. ذكّرتني بك».

«أوه يا مامي، هذا صحيح. آسف».

«أوكيه، لكنّني أشعر بالخجل. أما إِم كا إي سي غو إغْوه».

ضحك قائلًا: «أحسنتِ، إنّك تجيدين الحديث بلسان الإيبو».

لطمته مرّة أخرى وقالت: «أحمق!».

تلوّى وغضّن وجهه متظاهرًا بالألم. فمدّت لسانها وجذبت حدقتيها إلى الأسفل، فانكشفت كرتا عينيها بالكامل وصولًا إلى شبكة الشّعيرات المعشعشة في بطانة اللّحم الورديّة. ثمّ قالت: «هذا ما تستحقّه لأنّك ضحكت عليّ».

«هلّا غنّيتها الآن؟».

«أوكيه يا أُبِم».

راقبها وقد رفعت بصرها صوب السّقف، ثمّ شبكت أصابعها، وبدأت في نشيد التّرتيلة. تهدّج صوتها وتمايل، برقّة وعذوبة لدى خروج الكلمات من فمها. «إيبونو»، كم للموسيقى من سطوة على وعي الرّجل! أمر لا يمكن الاستخفاف به. كان الآباء الأوّلون يعرفون ذلك. لهذا، كانوا يقولون دومًا إنّ صوت المغنّي الفذّ يمكن أن تلتقطه آذان الصمّ، بل وحتّى آذان الموتى. يا له من كلام سليم، «أُوزه بُروَّه»! إذ من الممكن للرّجل أن يكون في حالة من الحزن العظيم، تلك الحالة التي يكون فيها وكأنّه في الرّحم أو في القبر. طوال أيّام، قد يلبث ساكنًا جامدًا، والدّمع جارٍ من مآقيه، بل وقد يعزف أيضًا عن تناول الطّعام. سيأتيه الجّيران وسيذهبون؛ سيتوافد الأقارب على بيته وسينصرفون، سيقول له الجّميع: «تماسك! لعلّه خير يا أخي». لكن، مع ذلك، ورغم كلّ ما سيُقال له، سيعود ثانية إلى داخل الموضع المظلم. عندئذ، دعه يستمع إلى موسيقى فذّة، عبر غناء صوت موهوب أو عبر المذياع. وسترى أنّ روحه ستنهض، ببطء، من داخل الموضع المظلم وستخرج من العتمة إلى النّور. رأيت هذا مرّات ومرّات.

انتشلت مُضيفي، الذي كان يتردّى تلك الأيّام في هوّة الخوف من فقدان ندالي، اليدان القويّتان للأبيات الأخيرة:

أنت سيّدي وملكي

أنت سيّدي وملكي، وأنت تأتي إليّ
يا يسوع، أنت تأتي إليّ، وأنت تأتي إليّ، وأنت تأتي إليّ

لمّا انتهت ندالي من الغناء، اختطف يدها وأغرقها بقُبل حارّة. وعندما طارحها الغرام لاحقًا، سألته إن كانت الأغنية وراء حلاوة لقائهما في تلك المرّة.

كانت الأغنية حاضرة في ذهنه لدى ترجّله من الباص إلى طريق مرصوف متفرّع إلى طريق طويل آخر يقود إلى جامعة الشّرق الأدنى. وظلّت تتردّد في ذهنه، كما لو كانت طنينًا متواصلًا في أُذن الكون. «**وأنت تأتي إليّ**». عثر من أمامه وحوله، وحيثما وقعت عيناه، على شواهد لما كان الرّجل الذي قابله في المطار، تي تي، قد قاله عن البلد. كيف كان يتألّف من صحراء وجبال وبحر، حيث لم يكن ينمو أيّ شيء قابل للاستهلاك. كان الشّيء الوحيد الذي يحيط به رقعة شاسعة من الأرض الجّرداء. وأحيانًا، كانت تتبعثر في أرجائها حزم ضخمة من الزؤان الجّافّ، التي كانت تشبه ما يسمّيه النّاس عبر المحيط العظيم بالتّبن. على جانب الطّريق، كانت ثمّة يافطات ضخمة. وقبل موقف الباص مباشرة، كان قد رأى حقلًا رُميت فيه مركبات متآكلة وخردوات معدنيّة مختلفة. في وسط العشب، كانت ثمّة شاحنة قد جُرّدت من كلّ شيء وأصبحت مجرّد هيكل حديديّ يحدّق بمحجرين فارغين بعد نزع المصابيح الأماميّة. وعلى مقربة منه، كانت سيّارة رياضيّة بيضاء، مقلوبة على ظهرها وقد جثم فوقها ركام عربة نقل متفحّمة. وعلى بُعد بضعة أمتار، تمدّدت شاحنة كبيرة فوق الأرض على جنبها، بشكل دائريّ ملتوٍ، وهيكلها الجّانبيّ مسحوق تمامًا.

فكّر في مهاتفة تي تي، إذ إنّه كان في طريقه إلى جامعته، الجّامعة التي كان توبي قد سجّل في ملاحظاته بأنّها جامعة جامايك. طفق في

البحث عن رقم تي تي حين ألقيتُ في ذهنه أنّه لم يسجّل الرّقم. كان هاتفه حين التقيا في المطار بحاجة إلى الشّحن. حدّق إلى الهاتف بغيظ، وفرك أطرافه بحنق. عنَّ له أن يرميه في مكان ما وألّا يراه ثانية. لكنّ يده تحرّكت ودسّته في جيبه. وصل الآن إلى مكان بدا مثل حلبة سباق. كان عدد من الأشخاص أمام بوّابته، بينهم فتاة سوداء. ذكَّره ثوبها الإفريقيّ بثوب اعتادت شقيقته على ارتدائه. كان في أذنَي المرأة سدّادتان، مثلما لاحظ، وكانت تهزّ رأسها بين الفينة والأخرى على أنغام موسيقى منسابة عبر السّدّادتين، اللّتين أشار إليهما مُضيفي في ذهنه بـ«سمّاعتين». ذهب إليها وسألها مستفسرًا: «معذرة يا أختي، هل هذه جامعة الشّرق الأدنى؟».

«لا. جامعة الشّرق الأدنى ما زالت بعيدة».

«إرر، أوه بعيدة؟».

«أجل، لكنّ الباص المقبل سيحملنا إلى هناك. أوه، ها قد وصل. بعد أن تستقلّه تنزل أينما أردت الذّهاب في الحرم الجّامعيّ».

«شكرًا يا أختي».

كان الباص جديدًا ومرتّبًا وممتلئًا أكثر من باص جامعته، فيه كثير من الشبّان الأتراك الذين كانوا يتجاذبون أطراف الحديث بلسانهم. مضت الفتاة السّوداء إلى آخر الباص، ولمّا لم تعثر على مكان للجّلوس، وقفت وأمسكت بمسكة مطّاطيّة متدلّية من عامود فوق الرّأس. كانت جوانب الباص مغطّاة بلوحات إعلانية متعدّدة، لم يكن أيّ منها يحمل كتابة بلسان يفقهه. أطلّ من أحدها طالب أسود إلى جانب طالب أبيض، كان الاثنان يشيران إلى بناية عالية مثل بعض البنايات التي كان قد رآها بالأمس وسط البلد. جال في خاطره الآن كم كانت الأشياء مختلفة في هذا البلد. في أرض الآباء العظماء، كان الشّحّاذون والباعة المتجوّلون يهجمون على الباصات، مدلّلين على بضائعهم ومحاولين

اجتذاب انتباه الرّكّاب قسرًا. استحضر في ذهنه الاختناق المروري في موقف حافلات لاغوس، وكيف حاول أن يساوم بائعًا ما كان ليتركه في حاله على زجاجة عطر رخيص. ثمّ خطر له لو أنّ ظروف وصوله إلى هذا البلد كانت أفضل، فلربّما كان سيحبّ هذا المكان-على الأقلّ لما يتحلّى به من نظام وترتيب.

نزل في أوّل موقف داخل الجّامعة. ونزل كذلك طالبان يحملان كتبًا. ثمّ مضى الباص في طريقه وسط أنين عال، هابطًا بين حقلين بدا العشب فيهما اصطناعيًّا، لم يكن يشبه أيّ شيء في أرض الآباء العظماء. أبصر مبنى قرب شارع ضخم معبّد، مقابل تلّ صغير. لم يكن قد أمعن التّفكير في أين سيتّجه وإلى أين سيذهب بالضّبط. وأنا لم أستطع مساعدته، فكلّ شيء كان مختلفًا هنا عن أيّ شيء كنت أعرفه. بل لم يكن هذا البلد يشبه في أيّ شيء ذلك البلد الذي حُمل إليه مُضيفي المُسْترَق عبر المحيط الجبّار، حيث تغطّي مياهك الشّاسعة معظم سطح الأرض. في ذلك البلد، فيرجينيا، لقي مُضيفي الأسبق، ياغازي، نفسه مقيمًا بين آخرين ممّن قُبض عليهم من أمم الرّجل الأسود، لم يكن كثير منهم يتكلّم لسان الآباء العظماء. لم يكن ذلك البلد مأهولًا، وكان عدد القاطنين فيه شحيحًا للغاية. كانت هناك مبانٍ عظيمة، اثنتان منها شارك مُضيفي في تشييدها، حول المكان الذي عاش آسروه فيه. أمّا بقيّة المكان فكان حقولًا وجبالًا، حقولًا ملتفّة مثل غابات «أُغْبُتي أُوكو». لم يكن هناك أيّ مظهر من مظاهر الفخامة التي كانت أمام ناظريه الآن، لا مصابيح ساطعة في الشّوارع أثناء اللّيل، ولا معدّات تصدر أصواتًا شتّى. هكذا، كنت صامتًا أثناء تفكيره فيما عليه أن يفعله. «إيبونو»، في هذه اللّحظة التي كان ذهن مُضيفي عاجزًا فيها عن الاهتداء إلى فكرة لحلّ المشكلة، وكنت أنا، قرينه الحامي، أيضًا، عاجزًا عن مساعدته، قام الكون بمدّ يد المساعدة له. ذلك أنّه

لمّا شرع في السّير من جديد صوب أقرب بناية إليه، رنّ جرس هاتفه. فتحه على عجل واستقبل المكالمة.

جاءه صوت توبي عبر الهاتف منزعجًا، فردّ مُضيفي قائلًا: «إنّني في جامعة الشّرق الأدنى يا أخي. لم أرغب في مواصلة إزعاجك بمشاكلي».

«فهمت. هل عثرت عليه؟».

«لا. وصلت الآن إلى الجّامعة. لا أعرف حتّى ما ينبغي لي فعله».

«هل ذهبت إلى مكتب شؤون الطّلبة الأجانب، مثل مكتب دِهان هنا في جامعة قبرص الدّوليّة؟».

«يا إلهي! هو كذلك يا أخي. هذا هو المكان الذي ينبغي أن أذهب إليه».

«أجل، أجل. اذهب إلى هناك أوّلًا».

«تشيه، دا آلو نو». نطق مُضيفي هذه الكلمات وهو على وشك البكاء، فقد تعجّب ثانية كيف فاتته هذه الفكرة المهمّة.

قال توبي: «هل سترجع لنذهب سويّة إلى مكتب تأجير البيوت؟ دي أعطاني عنوان أحد المكاتب. اليوم هو خامس يوم لي في الشّقّة، لم يتبقّ أمامي سوى يومين فقط».

«هو كذلك، نوانّم. سأرجع حال انتهائي من هذا الأمر هنا».

حتّى تلك اللّحظة، كان مُضيفي قد سار بشجاعة، مدفوعًا بعزمه على حمل صليبه بمفرده. لكنّ شجاعته تخلّت عنه الآن. لم أعرف حينذاك إن كان سبب ذلك هو سماع صوت توبي، أم وصوله إلى مكان كان متأكّدًا من أنّه سيعثر على جامايك فيه لكنّه لم يعرف كيف سيتصرّف معه. ما كنت أعرفه حينذاك وبشكل جليّ هو أنّ ثمّة تغيّرًا طرأ عليه إثر تلك المكالمة. بدأ يمشي مشية صرصور أرغم على الخروج من جُحره إلى أن صادف رجلًا ذا وجه مستدير -على شاكلة من اعتاد قومه

الإشارة إليه برجل «صينيّ». ردًّا على استفسار مُضيفي، زفر الرّجل قائلًا: «آه!»، ثمّ أخبر مُضيفي بأنّه هو نفسه كان للتوّ في مكتب شؤون الطّلبة. أخذه هذا الرّجل إلى المبنى الذي كانت واجهته لا تشبه أيّ شيء رآه من قبل. رفعت أمام المبنى أعلام كثيرة فوق قضبان معدنيّة، عثر بينها على العلم المسطّر رأسيًّا بالأخضر ثمّ الأبيض ثمّ الأخضر، علم البلد الذي جاء منه.

«إيبونو»، قبل دخوله عبر الباب، التمس مُضيفي، بخوف، عونًا روحيًّا. وبهذا، فإنّه تصرّف مثل الآباء الصّالحين. لكن بينما كان الآباء سيرفعون دعاءهم إلى «إكْنغا»، أو القرين الحامي، أو «أغو»، أو حتّى أيّ معبود آخر، رفع مُضيفي دعاءه إلى «ألوسي» الرّجل الأبيض كي يساعده في العثور على جامايك هنا. فهو، كما تخوّف، قد يكون آخر أمل له. كان هذا أوّل دعاء له منذ سنوات طويلة، فتمتم في سرّه قائلًا: «إلهي يسوع، تداركني برحمتك. سامحني واغفر لي خطاياي مثلما أسامح كل من أخطأ بحقّي. إن أعنتني على استرجاع جميع أموالي، وإن لم تسمح بحصول هذا لي، فسأخدمك حتّى الممات. باسم يسوع المسيح أصلّي. آمين. آمين».

«**أكاتاكا**»، يجب أن تعذرني. أنت خلقتنا على نحو نكون فيه في وحدة واحدة مع مُضيفينا. وهكذا، نبدأ مع الوقت بالمعاناة من آلامهم. ما يوجعهم يوجعنا. وهذا هو سبب نفوري من وصف تجربته داخل ذلك المكتب. لكن، عوض ذلك، سأستعرض لك ما كان لتلك التّجربة من تأثير عليه فيما بعد. إذ إنّني لا أودّ المكوث هنا لمدّة أطول ممّا ينبغي، وأنا أرى جموع هؤلاء القرناء الحماة الذين ينتظرون المثول بين يديك أيضًا. لذلك، سأعدّد ما توصّل إليه مُضيفي من معلومات هنا، كان جامايك، مثلما قال الشّرطيّ، طالبًا في تلك الجّامعة، وكان

معروفًا بين الطّلبة الأجانب. كما اكتشف، أيضًا، بأنّ جامايك كان طالبًا لفصل واحد فقط، رغم مكوثه لعامين داخل البلد. توقّف عن حضور محاضراته بعد ثلاثة أسابيع من تسجّله. أحد العاملين في مكتب شؤون الطّلبة الأجانب الذي قدّم نفسه باسم آييتورو، والذي كان من بلد مُضيفي، سحبه جانبًا إلى قاعة فارغة إثر انتهائه من مقابلة رئيس المكتب. ثمّ قال له: «أومو، قد تكون في ورطة حقيقيّة، أوه».

ردّ مُضيفي: «أدري».

«تدري؟ مهلًا، هل كنت تعرف جامي من قبل، في نيجيريا؟».

أومأ مُضيفي وقال: «كنّا في الصّفّ نفسه خلال المرحلة الابتدائيّة، يا أخي».

«ماذا، في أوماهيا؟».

«هو كذلك».

«هل كنت على علاقة به بعد ذلك؟ هل تعلم بأنّه أحد صبية ياهو المحترفين؟».

هزّ مُضيفي رأسه وقال: «لا».

«أه. إنّه محتال خطير، أوه، صبيّ من صبية ياهو الماهرين. كم مقدار ما أخذه منك؟».

حدَّق مُضيفي إلى هذا الرّجل، وللحظة، جنح به التّفكير إلى فرخ الإوزّ، الطائر الذي أحبّه حبًّا عظيمًا، أوّل شيء كان قلبه قد تعلّق به. الصّورة التي ارتسمت في ذهنه كانت جامدة، لكنّها، «إيبونو»، أكبر بكثير من مجرّد صورة. كانت حادثة. وقعت بعد أن قرأ كتبًا عن مربّي الصّقور وأطلق على نفسه لقب مربّي صقور وفكّر في أن يطيِّر طيره في أرجاء البلدة. كان قد قرّر شراء حبل طويل للغاية من القنّب، متين لكن طويل. ثمّ حمل والده على شراء مربط، شيء كان يربطه في رِجل الطّائر كالخلخال قبل إطلاقه في الجوّ. في البداية، رفض فرخ

الإوزّ أن يطير في الهواء. بل ظلّ يفضّل، على ذلك، إطلاق صيحات الاستغاثة والعويل. لكن ذات يوم، طار عاليًا للغاية، حلّق بعيدًا وتجاوز قمّة شجرة الغوافة، إلى أن بلغ الحدّ الذي سمح له طول حبل القنّب ببلوغه، رغم رفع مُضيفي يده عاليًا في الهواء ولفّ حبل القنّب لفّة واحدة حول معصمه. في تلك اللّحظة، حملته فرحته الطّاغية بطيران فرخ الإوزّ على البكاء.

سأله الرّجل: «أنت كلّا تريد أن تخبرني؟ كيف سأساعدك إن لم تخبرني، إر؟».

«المبلغ كبير للغاية يا أخي. سبعة آلاف يورو تقريبًا».

«يا باريبا! جيسوس! أوكيه، أتدري؟ كلّا ترتعد، إيه؟ استرخ فقط. أنا سوف يساعد أنت. هذا الولد نصب على الكثيرين. أنا لم أره منذ العام الماضي، لكنّي أعرف شبابًا يسكن معهم في الشّقّة نفسها، وهؤلاء لا بدّ يعرفوا هو أين».

«غاغان أَوغو»، ما مدّه هذا الرّجل لمُضيفي كان حبل الأمل. والرّجل ساعة الشدّة، يتشبّث بأيّ شيء تقع عليه يداه سعيًا وراء النّجاة. فالغريق لن يطلب حبلًا لو مُدّ له غصن شجرة عوضًا عن عوّامة. ما يقع في متناول يده هو ما يتشبّث به. وهكذا، في ضواحي الجّامعة، وفي الموضع نفسه الذي صادف فيه الفتاة السّوداء سابقًا، أوقف آيوتورو سيّارة أجرة وأعطى السّائق عنوان مكان يسمّى «غِرنَّه». شكر مُضيفي آيوتورو وصافحه بيده المعرورقة، فقال له الرّجل: «لنأمل خيرًا يا أخي».

ترك مُضيفي الجّامعة وهو محطّم تمامًا وانطلق صوب «غِرنَّه». لفترة طويلة، مضى به السّائق عبر سهول صحراويّة جرداء محاطة بالجّبال. أبصر عن قرب العلم المرسوم فوق قمم الجّبال، الذي كان قد رآه مضاء بالأنوار في اللّيلة الأولى. كان شديد الشّبه، مثلما ظنّ،

بالعلم التّركيّ: هلال أبيض وسط بحر قرمزيّ. في جوّ السّيّارة الهادئ، تسلّلت ندالي إلى ذهنه عبر الأغنية التي كان قد تذكّرها سابقًا. دفعته إلى شفير البكاء. كان يعرف بأنّ رقمه الجّديد لو كان لديها، لحاولت الاتّصال به أو إرسال رسالة نصّيّة. ضرب رقمها بلهفة وارتعاد، لكنّ نفسه لم تطاوعه على إتمام المكالمة. مع ذلك، كان خائفًا من أنّ قلقها عليه كان عظيمًا، لا بدّ من أنّها كانت تتساءل عمّا جرى معه. ضرب الرّقم ثانية وانتظر، كاد قلبه أن ينفجر، إلى أن ردّت بعد الرنّة الثّالثة. «إيبونو»، أعجز عن وصف ما انتابه حين سمع صوتها. تململ ومسح يده بسطح المقعد لمّا قالت: «هالو، هالو، من هناك؟ هل تسمعني؟ هالو؟ هالو، هل تسمعني؟».

حبس أنفاسه، وحرص على ألّا يفلت منه أيّ صوت مألوف. سمعها وقد تنهّدت وقالت: «لعلّها شبكة الاتّصالات».

ثمّ تنهّدت ثانية وقالت: «بل لعله ننسو، إر».

ثمّ أنهت المكالمة.

حدَّق إلى الهاتف، وصوتها ما زال يتردّد في رأسه وكأنّه عالق داخله. ثمّ بدأ في قول: «ما كان ينبغي»...

لكنّه توقّف كي ينظر إلى الهاتف من جديد. ثمّ استأنف كلامه بلسان الآباء، وقال: «ما كان ينبغي لي المجيء إلى هنا. ما كان ينبغي لي المجيء. ما كان ينبغي لي المجيء».

فسأله السّائق مستفسرًا: «عفوًا؟».

عندئذ أدرك مُضيفي، ودُهش، بأنّه لم يكن يفكّر في هذا بل نطقه بصوت عالٍ. فقال معتذرًا: «آسف، ليس أنت».

لوّح السّائق بيده وقال: «ما مشكلة، ما مشكلة عندي، أركاداس».

تفاقمت مخاوفي من جديد، فعدم تمييز الواقع من الخيال من أوّل نُذُر سقوط الرّجل في براثن اليأس. خلال بقيّة الرّحلة، تماسك

بصعوبة بالغة. وبعد قطع مسافة معتبرة، وعبر برهة قصيرة من التّنفيس المؤقّت، جذبه جمال الطّبيعة في الجّزيرة. حال اقترابهما من «غِرنَّه»، أصبحت التّضاريس مختلفة عن أيّ شيء كان قد رآه من قبل -مختلفة تمامًا عن أرض الآباء الموسرين. كانت هناك قلاع وبيوت، فوق بعضها أعلام تركيّة، تربض فوق الجبال والنّتوءات الصّخريّة. صدمته حقيقة أنّ بمقدور النّاس تشييد بيوت فوق الجبال والتّلال. شارف الجزء الأخير من الطريق السّريع على الانتهاء، تاركًا وراءه موضعًا بدا مثل الوادي-سلسلة صخريّة طويلة إلى جانب، وحقلًا شحيح النّبت تناثرت الحجارة والصّخور في أرجائه إلى الجانب الآخر. وشيئًا فشيئًا، اقتربت السّيّارة من الطّريق الصّاعد إلى أعلى حيث انكشفت المدينة برمّتها أمام ناظريه: بيوت كبيرة وصغيرة، بعضها متطاول في البنيان، وبعضها الآخر سطوحه مائلة وقممه مدبّبة. في الأفق البعيد، وراء كلّ تلك البيوت، رأى المتوسّط طاسة ماء زرقاء. أثناء اقتراب السّيّارة، بدأ البحر في التّمدّد أكثر فأكثر، ولمّا وصلا الجّسر العظيم في مدخل «غِرنَّه»، بدت المدينة برمّتها وكأنّها مشدودة إلى الوراء بأسوار خفيّة، لو دمّرت، لسقطت المدينة بأسرها في البحر.

لاحقًا، أمام بناية من ثلاثة طوابق، أشار السّائق بيده وقال: «وصلنا، أركاداس».

دسَّ مُضيفي يده في جيبه وناول الرّجل اثنتين وثلاثين ليرة. ثمّ عبر البوّابة المعدنيّة، محاولًا استحضار اسم الرّجل الذي كان قد أرسله إلى هنا، «آيوتو، آيتوو».

طرق باب الشّقّة الأولى التي كانت تحمل رقم 1. فوق الباب، علّق ملصق بكتابة تركيّة، وتحته نسخة مترجمة لعبارة: «أهلًا وسهلًا». فتحت الباب امرأة تركيّة، ومن ورائها فتاة صغيرة، بيدها دمية منفوشة الشّعر. قال: «معذرة».

دُهش حين ردّت عليه المرأة بإنجليزيّة واضحة: «لا حرج عليك. هل تبحث عن النّيجيريّين؟».

«أجل، النّيجيريّين. أين يسكنون؟».

أشارت المرأة بإصبعها إلى أعلى وقالت: «شقّة رقم خمسة».

«شكرًا جزيلًا».

فيما أخذت الأفكار بالانتعاش في ذهنه، هرول بنبض متسارع إلى الأعلى، وأطلقت حبّة أمل وحيدة جذورًا في ذهنه مثل فطر رآه ذات مرّة متفتّحًا فوق مقعد سيّارة قديمة مهجورة. ربّما سيعثر على جامايك هنا، مختبئًا، ربّما تسلّل سرًّا عبر الحدود وتملّص من قبضة رجال الأمن. ربّما لهذا السّبب كشفت سجلّات الدّولة عن أنّه ترك البلد. هذا الأمل، على احتمالاته الضّئيلة وتفتّحه بلا تربة أو ماء فوق بقايا تلك السّيّارة المتآكلة، ظلّ حيًّا لدى وصوله إلى طابق فاحت منه روائح الطّعام النّيجيريّ وعلت فيه أصوات ذكوريّة بلسان الرّجل الأبيض ونسخته الرّكيكة. وقف متمهّلًا خلف الباب، ويده فوق صدره، إذ بدا له أنّه التقط صوت جامايك المميّز، هاتفًا بنبرة متبجّحة بالكلمة الأثيرة لديه، «مِهن». ثمّ طرق الباب.

«**أكوا أكورو**»، مهمّة القرين الحامي غالبًا ما تصبح أكثر صعوبة عندما تنكسر روح المُضيف، «أُنيه أوى» الخالدة الخاصّة به، التي توجد في جسد المُضيف كتعبير عن عقله فقط. عندما تنكسر، ينزلق المُضيف إلى اليأس. واليأس موت الرّوح. وعندئذ من الصّعب للغاية التّشبّث بالمُضيف، ومنعه، طالما أمكن، من الانزلاق والتّردّي في هوّة اليأس. لذا، لمّا ترك مُضيفي شقّة الأشخاص الذين كانوا على علم بمكان جامايك، قدحت الخَواطر في ذهنه كي أسرّي عنه وأشغله عمّا حدث هناك. ذكّرته بيوم تناوله فاصولياء «أوغبا» وانطلاق معدته

وتغوّطه بلا انقطاع. حضره مشهد نفث مؤخّرته الخراء في وجه العشب تحت قدميه. كان ينبغي أن يحمله هذا على الضّحك، لكنّه لم يضحك. دفعته إلى تذكّر أكثر ما كان يثير شغفه في الماضي، طريقة تثاؤب فرخ الإوزّ. كيف كان يفتح فمه ويختلج لسانه الرّمادي وسط سائل لزج شبيه بعرق اللّؤلؤ، فينساب على هيئة قطرة متلألئة أسفل لسانه. كان فمه، الأعرض مرّتين من فم أيّ بشر، ينفرج على اتّساعه بمجهود كبير، فتتغضّن صفحة وجهه. في أيّ وقت عاديّ، كان سيضحك. لكنّه الآن لم يفعل ذلك؛ لم يستطع. لماذا؟ لأنّ العالم بكلّ ما فيه يبدو ميّتًا بالنّسبة للرّجل حين يمرّ بمثل هذه اللّحظة العصيبة. وتصبح كلّ الذّكريات المفرحة، كلّ الصّور التي يفترض أن تبثّ السّعادة في نفسه، بلا أيّ معنى. بل لو اجتمعت بقضّها وقضيضها في ذهنه، فلن يكون من أمرها شيء سوى التّكدّس في كوم عقيم، ككوم من الذّهب في فم رجل ميت.

وهكذا خرج ثانية إلى المدينة، حاملًا خلاصة حديثه مع الرّجال، كالهديّة فوق طبق، وما ولدته من قناعة في نفسه: قُضي الأمر؛ ما حصل، حصل. قالوا له بكلام واضح إنّ الخطّة كانت مُحكمَة. كان جامايك قد أطلع أصدقاءه على تفاصيلها الدّقيقة. قال لهم إنّه على وشك إتمام صفقة كبرى، وفور أن ينجزها سيقطع الحدود إلى الجنوب.

ما الذي يقصدونه بذلك؟ سألهم مُضيفي بصوت مرتعش.

ردّوا عليه قائلين إنّ المسألة بسيطة. قبرص الشّمالية وقبرص الجّنوبية كانتا في السّابق بلدًا واحدًا، إلى أن خاضتا حربًا وشقّت تركيا الجّزيرة إلى شطرين في عام 1974. هذا الشطر التّركيّ هو دولة مارقة، أمّا الشّطر اليوناني فهو قبرص الحقيقيّة. البلدان مفصولان بواسطة الأسلاك الشّائكة. إذا ذهبت إلى «غِرنَّه كابِسي»، وسط البلد في «لفكوسا»، سترى الخطّ الحدوديّ وسترى الأوروبيّين يفدون إلى

هذا الشّطر من الجّانب الآخر. إنّهم في الاتّحاد الأوروبيّ. يدفع كثير من النّيجيريّين مبالغ ماليّة مقابل تهريبهم إلى هناك، ويحاول البعض التّسلّل بنفسه عبر الحدود بالقفز على الأسلاك الشّائكة ثمّ طلب اللّجوء. كان جامايك، أيضًا، قد دفع ثمن العبور إلى هناك.

سألهم بعد ذلك: «ألن يرجع أبدًا إلى هنا؟». ورغم أنّ نبرته المذعورة كانت كفيلة بإثارة شفقة أيّ جلّاد، إلّا أنّ أحدهم ردّ ببساطة: «كلّا يعود أبدًا. هو طوى صفحة هنا».

«إيبونو»، تقبّل مُضيفي هذا الكشف بجلد مقيت، مثل رجل عبر من دون أن يدري إلى حيّز مغلق ثمّ انسدّ من خلفه، فلا مهرب ولا منجى منه. إن استدار يسارًا، واجهه حائط صخريّ لا يمكن النّفاذ منه. وإن استدار يمينًا، قابل بوّابة حجريّة تخور أمامها عزيمة مئة رجل مفتول العضلات. إلى الأمام؟ الأمر نفسه. إلى الوراء؟ مسدود تمامًا، كذلك.

وهكذا، سأل الرّجالَ، ما الذي بإمكانه أن يفعله؟

ردّ الرّجل الذي عرّف على نفسه بأنّه «أعزّ صديق» لدى جامايك: «لا أدري يا أخي. نحن نقول للنّاس من أجل نيجيريا لعلّهم يلمّعون أعينهم جيّدًا، كي ينتبهوا، لأنّ النّاس، إر، أخويه، سيّئة. لكن بعضكم كلّا يسمع. انظر كيف ذاك الصّبي ضحك عليك».

ثمّ قال آخر: «ابقَ هنا وحاول، مِهن، أنت رجل. تحمل البلوى. حصل ما حصل. كثيرون هنا حالهم حالك. لكنّهم تمكّنوا من تدبير أمورهم. حتّى أنا، كذب أحدهم عليّ، أحد الوكلاء، ضحك عليَّ بأنّ هذه أميركا. أنا دفعت، ودفعت، ودفعت للمجيء إلى هنا ثمّ ماذا اكتشفت؟ أفريقيا في أوروبا».

ضحكوا جميعًا.

قال الرّجل الأوّل: «لا أو، ولا روبا. ماذا فعلت؟ هل قتلت نفسي؟ عثرت على عمل وضيع. أنا أشتغل في ورش البناء». مدّ كفّيه أمام

ناظرَي مُضيفي. كانتا صلبتين كالإسمنت، وباطنهما خشنًا كالخشب. ثمّ استأنف كلامه قائلًا: «أنا كلّا أشتغل أشغال الأشخاص التّركيّا، لكن انظر لي، ما زلت في الجّامعة. في الحقيقة، ما يجعل الوضع أسوء ممّا عليه، هو نسائهم، إنّهنّ لا يحبّوننا!».

ضحك الرّجال حتّى بانت نواجذهم، في محضر رجل كان يغلي مثل البركان وينظر إليهم بعيون فارغة. قال أحد الرّجال الذين تكلّموا من قبل ووجّه كلامه الآن إلى مُضيفي: «أو بإمكانك أن ترجع إلى نيجيريا وحسب. البعض فعل ذلك. يمكن أن يكون هذا أفضل بالنّسبة لك. اشترِ تذكرة بما بقي معك، ثمّ عُد إلى الوطن».

«تشوكو»، لو لم أكن قرينه الحامي الذي رافقه حتّى قبل مجيئه إلى هذا العالم، بل حتّى قبل أن تحمل أمّه به، لما صدّقت بأنّ من ترك ذلك المكان وخرج تحت شمس الظّهيرة كان هو ذاته. فقد تحوّل إلى شيء آخر، كما لو أنّه خرج من شرنقة وأصبح كائنًا مغايرًا تمامًا لما كان عليه، تحوّل بغمضة عين من شيء صلب إلى كتلة رخوة من الصّلصال. عشت ورأيت الكثير: رأيت مُضيفًا يقع في أسر الرّقّ، يُكبَّل بالسّلاسل، يجوع، ويُجلَد بالسّياط. رأيت مُضيفين يموتون ميتة عنيفة فجائيّة. رأيت مُضيفين يصارعون المرض: نناندي أتشِروم، قبل سنوات كثيرة، كثيرة جدًّا، كان كلّما ذهب لقضاء الحاجة ينزف دمًا، آلام تورّم فتحة الشّرج كانت لا تطاق، حتّى أنّه كان لا يستطيع المشي أحيانًا. لكني لا أذكر قطّ أنّني شهدت مثل هذا الانكسار الرّهيب في روح الرّجل. وأنا أعرفه جيّدًا. كما تعلم، «إيبونو»، إنّ أيّ رجل في الحقيقة هو لغز بالنّسبة إلى العالم. فحتّى في لحظة انفتاحه القصوى على الآخرين، يظلّ الرّجل محجوبًا عنهم. إذ إنّه لا يمكن أن يكون مدركًا بالكامل. لا يمكن أن يكون مرئيًا بالكامل لأولئك الذين ينظرون إليه، أو أن يكون ملموسًا بالكامل لأولئك الذين يعانقونه. فكينونة الإنسان

الحقيقيّة متوارية خلف جدار اللّحم والدّم عن كافّة الأعين، بما فيها عينيه. لا يمكن لأحد أن يعرفه بحقّ سوى «أُنيه أوى» الخاصّة به وقرينه الحامِي، إن كان قرينًا صالحًا وليس مجرّد «إفُلِفو».

«غاغان أَوغو»، هذا الرّجل الذي تحوّل إليه في طرفة عين، ترك الشّقّة، عبر الشّارع، ثمّ دلف إلى محلّ مماثل لذاك الذي اشترى منه الشّراب القويّ. تناول الزّجاجة نفسها من البرّاد ثمّ دفع ثمنها إلى رجل يجلس بهدوء وعيناه المصابتان بالرّمد تلاحقانه بفضول بالغ، كما لو كان كائنًا من خارج الكوكب خرج من حفرة في بطن الأرض وقد لطّخه الوحل والتّراب. أحسّ أنّ العالم من حوله، هذا البلد الغريب، هذه اليقظة المفزعة، كان حيًّا صلدًا، كالفولاذ المصقول. فهناك على جانب الطّريق، كان ذلك الرّجل الأبيض الذي يمشي مع ابنه الصّغير. وعلى الجّانب الآخر، تلك المرأة التي تدفع فوق عجلات شيئًا ممتلئًا بالمشتريات، وفوق الرّصيف تلك الحمامة تنقب التّراب. ثمّ فكّر في نفسه، وفي أنّه كان جائعًا. كان الوقت ظهرًا، ولم يكن قد تناول أيّ شيء. أدهشته حقيقة أنّه لم يكن قد تصوَّر ذلك، لم يكن قد فكّر في كيفيّة تبدّل أحوال الرّجل بسرعة.

ترك البقعة التي كان واقفًا فيها، ومشى مترنّحًا أثناء ارتشاف الشّراب. ضرب الأرض بقدميه وشدّهما فوقها، وكأنّ هذا كان سيبقيهما ثابتتين ويمنعهما من طرحه أرضًا. ثمّ دسّ الشّراب في حقيبته الصّغيرة ولوّح لسيّارة تاكسي. لمّا هبط على المقعد، لاحظ أنّه لم يكن قد رفع سحّاب سرواله بعد استخدام الحمّام في شقّة الطّلبة النّيجيريّين. رفعه، ولدى بدء السّيّارة في نهب طريق العودة إلى «لفكوسا»، أغلق عينيه. في رأسه، تنافست الخواطر على احتلال موقع الصّدارة. تجادلت فيما بينها بأصوات صاخبة مبحوحة، ثمّ تحوّل ما يدور في رأسه إلى مباراة للصّياح. شقّ طريقه بصعوبة وخرج من بينها، ركن إلى حيّز

معزول لا يسكنه سوى جامايك، ثمّ راح يفكّر في اليوم الذي قابل فيه جامايك. حتّى ذلك اللّقاء، كان يعيش حياة منعزلة، منكبًّا على شؤونه من دون التّدخّل في أيّ شأن آخر. كان قد قضى معظم حياته رجلًا منطويًا على نفسه، رجلًا لم يكن يحدّق إلى العالم محاولًا سبر غوره، بل كان يسترق النّظر إليه كما لو كان شيئًا لا ينبغي له أن ينعم النّظر فيه. لم يكن قد طلب شيئًا كثيرًا من العالم. ما طلبه مؤخّرًا كان أمرًا بسيطًا: جمع شمله بالمرأة التي أحبّها فقط. لم يكن هذا قطعًا بالشّيء الكثير. أجل، كان أهلها قد وضعوا العراقيل في وجهه، لكن ألم يكن هذا ما لُقّن له في الحياة؟ ألم يُلقّن بأنّ العراقيل ما هي إلّا فرصة لإحراز التّقدّم والنّجاح؟ ألم يذهب لشراء طلبات امتحانات القبول في الجّامعات النّيجيريّة قبل أن يلتقي جامايك بالصّدفة؟ ما الذّنب الذي اقترفه ليستحقّ هذا المصير؟

كرع الشّراب ثمّ تجشّأ بصوت عالٍ. تململ في مقعده وحنى رأسه إلى جنب لدى عودة السّيّارة إلى الشّارع الذي أتى منه، وكأنّها كانت تقتفي أثر خطواتها السّابقة، عدا عن أنّ حركة السّير في هذه المرّة كانت أبطأ في الشّارع ذي المسرب الواحد بسبب شاحنة محمّلة بمواد البناء. ثمّ تجاوز التّاكسي الشّاحنة، لكنّه ظلّ يزحف خلف «بيك أب» أحمر أطلّ من شبّاكه رأس كلب أبيض. راقب. حدّق إلى الكلب بشدّة، في طريقة اهتزاز رأسه بشكل آليّ، كما لو أنّ رأسه كان تحت سيطرة الرّيح، دهِشًا من كيف يمكن لمشهد تافه مثل مدّ كلب لرأسه من شبّاك أن يساعد الرّجل على نسيان احتراقه الدّاخليّ.

على مشارف «لفكوسا»، مرورًا بمقطع من الصّخور المصبوغة على جانب الشّارع، اختفى الكلب ورجع جامايك إليه، كأنّه حمل على ذلك من قِبل قوّة دفع السّيّارة. ارتشف الشّراب ثانية ثمّ تجشّأ. عندئذ قال السّائق بإنجليزيّة ركيكة: «ماذا، لا، لا، يا صديق! ماذا تفعلل؟ ماذا

تفعلل، يعني؟».
لم يتمكّن من فهم المقصود وتابع السّائق قائلًا: «كحول، لا كحول في سيّارتي، صديق. هرام! أنادِ مي؟».
ردّ مُضيفي مستفسرًا: «أنت تقول أنا لا يستطيع الشّرب؟ أنا لا يستطيع الشّرب؟ لماذا؟».
ضرب السّائق كفّه فوق لوحة القيادة ثمّ فرقع بإصبعيه وقال: «نعم، نعم، كحول لا. لأنّه هرام، صديق. مشكلة. كوك مشكلة».
قال مُضيفي وقد اعتراه غضب لم يعهده في نفسه: «لماذا؟ من حقّي أن أفعل ما يحلو لي. عليك أن تقود سيّارتك فحسب».
«لا، صديق. نحن مسلم. أوكيه؟ أنت اشرب كحول، مشكل. مشكل كبير. نحن لا أخذك إلى لفكوسا».
أوقف الرّجل سيّارته إلى جانب الطّريق في الشّارع السّريع قرب لفكوسا. ثمّ قال له: «يجب أن تنزل من سيّارتنا الآن، أركاداس».
«ماذا؟ ستنزلني هنا؟».
«نعم، عليك أن تترك سيّارتنا الآن. أنا أقول أنت لا كحول، أنت تقول أنا لا. يجب أن تنزل».
«أوكيه، لكنّي لن أدفع الأجرة!».
«نعم، لا دفع لي أنا. لا دفع!».
لدى نزول مُضيفي، أمطره الرّجل برشقات من الكلمات التّركيّة. ثمّ انطلق بسرعة صوب المدينة، تاركًا مُضيفي وراءه في السّهل البرّيّ المحاط بالصّحراء والطّريق والهواء واللّاشيء، مثل رأس قُطع عن جسده، فتدحرج وسط حقل مفتوح-مثلما شهدت ذات مرّة من قبل.

«**أكاتاكا**»، سار مُضيفي وهو في هذه الحالة العصيبة صوب المدينة. امتداد الأرض، عالمها، انفتح أمامه مثل سرّ كونيّ عظيم. صحراء،

صحراء، سمع هذه الكلمة مرارًا من تي تي، لاينَس، توبي، وحتّى من جامايك، بصفتها الكلمة الوحيدة القادرة على وصف هذه التّضاريس. لكن ما الصّحراء؟ إنّها مكان موفور بالتّربة ولكنّها تربة رخوة. في أرض الآباء، من الصّعب قحف التّربة من الأرض. شيء ما رصّها في حضن الأرض، ربّما المطر الدّائم، وجعلها عصيّة على الانخلاع من هذا الحضن بسهولة. لا بدّ للمرء أن يكشط أو يحفر كي يقحف التّربة. لكن هنا، الأمر على خلاف ذلك. مجرّد خطوات المرء كفيلة بإقلاق الأرض وزوبعة التّراب. وقبل أن يقطع المرء مسافة تُذكر يصبح حذاؤه مغطّى بهذا الصّلصال المعتم. هذه التّربة منتشرة في كلّ مكان، وهي لا تسمح إلّا لنبات قليل بالنّموّ، وتقاوم معظم ما يسعى إلى مدّ جذوره هنا، كي يصبح نباتًا، كي يتكاثر. لذلك، فإنّ ما ينمو فيها نبات حرون صعب المراس. شجرة الزّيتون، مثلًا، شجرة لا تحتاج إلى ماء كي تنمو وتترعرع، عدا ما تمتصّه من الأعماق السّحيقة في الأرض، فالبلد متربّع فوق الماء. أيّ شيء آخر يتّخذ من هذه الأرض موطنًا عليه أن يقهرها أوّلًا. لا بدّ أنّ صراعًا جرى هنا، معركة في هذا النّصف من الكرة الأرضيّة مكّنت الحجارة الضّخمة (التّلال، والجّبال، والصّخور) من الوصول إلى هنا أو الخروج من امتداد شاسع لا تدركه الأفهام وسحق أعداء الأرض والتّراب والإصرار على أنّ هنا، في هذا المكان، يجب أن أقف. وهذا ما كان. لا بدّ من أن أقول، مع ذلك، إنّها تشبه في هذا أرض الآباء العظماء، حيث التّربة -عبر خصوبتها- تبدي وفرة تهزأ بالصّحراء.

سار قرابة نصف ساعة، بخطى ثملة بعض الشّيء، إلى أن وصل إلى زقاق. كانت لهفته للوصول إلى المدينة كلهفة من يتحرّق إلى الماء في الصّحراء. أراد أن يصل إلى هناك كي يرتمي في أقرب موقف وينتظر الباص ليحمله إلى وجهته. في اللّحظة الحاليّة، دلف

إلى الزّقاق الملتفّ على نفسه بعيدًا عن الشّارع الرئيسيّ الطّويل. بدا له المكان حيًّا فقيرًا، فالبيوت كانت ذات أسطح واطئة وقديمة، وواجهاتها متدثّرة بنباتات مزهرة مرصوصة في التّربة الصّلصاليّة. اتّكأت على بوّابة مخلوعة فوق جدار أمام أحد البيوت. وقف رجل فوق سلّم ممتدّ على طول الجّدران، مثبّتًا شيئًا ما بالمسامير. في الجّهة المقابلة، على الجّانب الآخر من الطّريق، المطلّ على جسر، امتدّت حفرة عميقة مثل فوّهة البركان على طول كيلومترات. بعد ذلك، كانت الأرض ترتفع بالتّدريج صوب جزء من المدينة بدا متطوّرًا أكثر.

لاحق الدّرب وهو مرهق ويكاد يجنّ، مشى رغمًا عن إرادة قلبه، مرّ ببيوت فارغة كانت رابضة مثل الأخيلة تحت الشّمس، وقميصه الغارق في العرق ملتصق ببدنه. سمع وقع خطوات بشر لم يستطع رؤيتهم. هوت طيور لم يكن قد رأى مثلها من قبل وحطّت في السّهول ثمّ حلّقت على غير عجل. «إيبونو»، حال أن قطع زاوية كان الدّرب بعدها يلتوي ويتّجه ثانية صوب الطّريق الرّئيس، صعق لدى سماعه صرخة ووقع خطى مهرولة من خلفه، ثمّ تلت ذلك أصوات مندفعة صوبه. لمّا استدار، رأى مجموعة أطفال مهرولة صوبه، بعد أن اندفعت من بوّابة مجمّع ما -إذ لاحظ تأرجح البوّابة الصّغيرة- وقد فتحت جوقتها بهتاف شيء بدا له وكأنه «أهبي! أهبي!» ثم «رونالدينيو! رونالدينيو!». «تشوكو»، بلمح البصر، وجد نفسه وسط حشد غوغائيّ حافل بالتّدافع والضّجيج والكلام بلسان غير مفهوم. تشبّثت يد بقميصه الرياضيّ الباهت من الخلف، وقبل أن يتمكّن من الاستدارة، كانت يد أخرى قد جذبت طرف قميصه. ثمّ صرخ أحدهم في أذنه، وقبل أن يتمكّن من استيعاب ما قاله هذا الصّوت، غرق في بئر من الكلام.

«أَغوجِغبه»، ضرب قدميه بالأرض، ثمّ طوّح ذراعيه في الهواء كي يحرّر نفسه من أسر الأيدي المتنازعة عليه، وفي تلك اللّحظة

الخاطفة، أدرك بأنّه كان وسط حشد غوغائيّ من الصّبية الفضوليّين. صدمه تهافتهم عليه، فصاح فيهم كي يدَعوه في حاله. شدّ على حقيبته بيد ورفع الأخرى، ثمّ طوّح نفسه من قبضة أحدهم، وتمايل مترنّحًا. تقهقر الصّبية من ورائه إلى الخلف مثل ذباب خائف. صكّ على أسنانه، ثمّ رفع يده وهوى بها فوق أقرب رأس إليه. خطا إلى الوراء بأقصى سرعته، وفي لحظة خاطفة، أصبح حرًّا طليقًا.

ما الذي دهى هؤلاء الأطفال؟ من أين جاؤوا؟ ألا يرون أنّه لا يحمل أيّ شبه برونالدينيو؟ ألا يفقهون كذلك أنّ من المحال أن يكون رونالدّينيو هنا وأن يمشي مثلما هو يمشي الآن وقد انتزعت أحشاؤه منه، وقد أصبح مجرّد قوقعة جوفاء عمّا كان عليه قبل أسبوع فقط؟ تقدّم أحد الأطفال إلى الأمام وأشار إلى الآخرين بالتّراجع. كان يرتدي شورتًا وقميصًا بلا أكمام، أطول من البقيّة. بدأ هذا الصّبيّ في قول شيء وأشار إلى صبيّ صغير كان يحمل كرة. ثمّ أوضح بالإشارات إلى أنّهم كانوا يريدون الحصول على توقيعه. جلب صبيّ آخر دفترًا وقلمًا. أشاروا جميعًا بالإشارات نفسها، فأصبح واضحًا له بأنّ عربدتهم ستنتهي بسرعة إن نفّذ لهم طلبهم.

لمّا تناول الكرة للتّوقيع عليها، ارتسم في ذهنه ما رآه ذات مرّة خلف بيت عائلة والده في القرية، حضره الآن ذلك المشهد كي يهينه. كان ثمّة قوقعة جوفاء، متيبّسة، متكلّسة، ولكنّها كانت تتحرّك ببطء. في البداية، بدا الأمر كمعجزة، ولكنّه حين تفحّص القوقعة، التي لا بدّ وأنّها كانت لحلزون ضخم، رأى أنّها لم تكن تتحرّك من تلقاء نفسها، بل كانت محمولة فوق ظهور جحفل من النمل. شعر الآن بأنّ الأمر نفسه يحدث معه، في هذا الحيّ الفقير، في هذا البلد الغريب، حيث ظنّه هؤلاء الصّغار أفضل لاعب كرة قدم في العالم. لم يعرفوا بأنّه رجل شديد الفقر، رجل يتجاوز فقره محيط الزّمن. في الماضي،

ما كان يمتلكه ضاع منه. في الحاضر، يمتلك لا شيء. في المستقبل المنظور، لا شيء. وها هو هنا، يخطّ بقلم قُدّم له، توقيعه على كرة، دفاتر، قمصان، بل وحتّى راحات الأيدي. في ذلك الوقت، مشهد القوقعة المتحرّكة بأرجل مستعارة من جيش من النّمل، حمله على الصّراخ. نادى على أمّه من فرط دهشته كي تأتي وترى المشهد. لكن الآن، خلال تحامله على نفسه أمام أعين هؤلاء الصّبية الغرباء، انهار وبكى.

كان تأثير دموعه مباشرًا. لمّا لاحظ الأطفال أنّ رونالدينيو، يبكي، تجمّدوا كالأموات. فها هو لاعب كرة القدم العظيم يقدم على شيء كان يفعله الصّغار. كانت هداياه الموزّعة عليهم بالمجّان، ميّتة، جوفاء، بلا معنى. واحدة تلو الأخرى، انسحبت الأيادي الصّغيرة، وخمدت الأصوات، وأطلّت من العيون الفرحة نظرات الحيرة، وانسحبت الأقدام التي طوّقته مثل جيش من النّمل. أولاهم ظهره ومضى في طريقه، مجشهًا بالبكاء خلال سيره.

14

القوقعة الجّوفاء

«**أَغباتَّه آلومالو**»، في أرض الآباء، لو بكى الرّجل هكذا في وضح النّهار وأمام الملأ، لهرع النّاس إليه واحتضنوه. لتطلّعوا ورأوا أنّ بصيص النّور في عينيه كان لرجل رقص عبر مسرح الحياة المشتعل، وأنّه الآن يحمل ندوب احتراقه الجزئيّ كالوسام. لسألوه عمّا جرى له. هل فقد عزيزًا، أبًا أو شقيقًا أو خليلًا؟ ولو ردّ عليهم بأجل، لهزّوا رؤوسهم بإشفاق، ووضعوا أيديهم فوق كتفيه وقالوا: «**تماسك، الإله أعطى، والإله أخذ. يجب أن تُقلع عن البكاء**». ولو فقد شيئًا آخر، مالًا أو عقارًا، فلربما قالوا له: «**الإله الذي أنعم هو الذي سيعوّض. لا تحزن**». فمجتمع الإيبو ليس بمجتمع يتهاون مع وجود الأسى وتفشّيه. بل يعامله معاملة اللّصّ الخطير الذي يستدعي وجوده تجمّع كافّة أبناء المجتمع الأهليّ لملاحقته ومطاردته بالمضارب والعصيّ والسّواطير. لهذا، حال أن يتجشّم الشّخص خسارة ما، فإنّ أصدقاءه وأهله وجيرانه يتجمّعون وهم مجمعون على هدف أوحد، وقايته من الوقوع في براثن الأسى. يناشدونه أوّلًا ثمّ يوبّخونه. وإن لم ينفع هذا، واستحكم به الأسى، سيقف أحد المواسين، الذين سيهزّون رؤوسهم جميعًا ويصكّون على أسنانهم، وسيأمره، وهو يصطنع الغضب، بأن يضع حدًّا لحزنه على الفور. وقد ينشقّ الحزن عن المحزون في تلك اللّحظة مثلما تنفلق فلقة جوزة كولا قديمة. عندئذ، قد يبدأ المواسون

في الحديث عن الطّقس، أو محاصيل ذلك الموسم، أو الأمطار. وهذا قد يستمرّ لأطول فترة ممكنة، لكن في النّهاية، حين يسود الصّمت، فإنّ المكلوم غالبًا ما ينهار مرّة أخرى، لتبدأ الكرة من جديد.

رأيت هذا مرّات ومرّات.

لكن هنا، «أُوزه بروَّه»، في هذا البلد الغريب، بلد الصّحراء والجّبال وأصحاب البشرة البيضاء، لم يحفل به أحد. فالنّسوة اللّواتي مررن به لدى اقترابه من منطقة مزدحمة، تجنّبن النّظر إليه ونظرن أمامهنّ وكأنّه كان غير مرئيّ. والرّجال الجالسين فوق كراسٍ مصفوفة تحت مظلّات المطاعم، أو فوق الشّرفات وفي أفواههم الغلّايين، أو الواقفين خارج بعض البنايات للتّدخين، نظروا إليه من دون مبالاة، وكأنّه مجرّد متسوّل في الطّريق. الأطفال الذين رأوه، رجلًا بالغًا وجهه كان غارقًا بالدّموع، حملقوا فيه بذهول أجوف. وهكذا تابع السّير، حاملًا فوق ظهره همّه الثّقيل كشوال ممتلئ بالعفونة. كان محطّمًا إلى أبعد الحدود، «إيبونو»، حتّى أنا، قرينه الحامي، لم يكن بمقدوري التعرّف إليه. كان هائمًا على وجهه، لا يقود خطاه سوى اليأس. مثل ذلك الرّجل الذي كان توبي قد لفت نظره إليه، أصبح العالم فجأة بالنّسبة له مجرّد حقل عليه أن يمشي فيه، وخارج نطاق هذا الحقل لا وجود لأيّ شيء.

- ما المكان الذي يستحقّ أن يُذهب إليه؟

- لا مكان.

- ما الشّيء الذي يستحقّ أن يُفعل؟

- لا شيء.

أينما استدار، أبصر مشاكله. أجل، بالفعل، كان يسير بمحاذاة متاجر فاخرة ومبان جميلة، لكنّها كانت بلا أيّ معنى بالنّسبة له. هل كان الحشد المتحلّق هناك حول الشّاحنة الصّادحة بالموسيقى يتابع حفلًا غنائيًّا؟ هل كان أولئك الشّباب البيض المرتدين أزياء برتقاليّة وحمراء

يرقصون؟ كانوا بلا أيّ معنى. ماذا عن هذا الرّجل، الذي يمرّ من أمامه الآن؟ هل هؤلاء من الجّنود الأتراك الذين كان تي تي قد قال إنّهم يشكّلون 30 في المئة من سكّان البلد؟ أكياس الرّمل مكدّسة أمامهم، والدبّابات والمركبات الضّخمة من خلفهم. أجل، إنّهم كذلك، لكنّه لا يهتمّ. ماذا عن الطّيور الصّغيرة التي يطير كلّ منها في ذيل الآخر وتهبط صوب تلك الشّجرة المحمّلة بغبار الشّارع؟ في يوم آخر، كان هذا المشهد سيستحوذ عليه، هو المولع بكلّ ذي جناح، وسيحاول تحديد صنف تلك الطّيور. هل هي موجودة هنا في قبرص فقط؟ أهي من الكواسر أم من الطّيور المسالمة؟ لكن الآن، وهو الغارق في أسى عميق، فإنّه لا يهتمّ. في ظرف آخر، كان سيحبّ هذا البلد، مثلما اعتراه الأمل لمّا أخبره جامايك في البداية عن إمكانيّة ذلك. كان الفرح قد انفجر في داخله وأضاء المواضع المظلمة في نفسه. لكنه الآن صُعق عندما جال في خاطره أنّ ذلك الانفجار المتسرّع للفرح نثر بذور هلاكه.

«غاغان أَوغو»، راقبت كلّ ذلك بذهول، وقد ألجم العجز لساني عن مساعدته. كان يسير في شارع لمح اسمه، «دِرِبويو»، مكتوبًا فوق لوحة زرقاء، ولدى مروره بالمتاجر المبنيّة من الزّجاج، تذكّر طيوره الدّاجنة. تذكّر يوم باع آخر دفعة منها، آخر تسع دجاجات من أثمن قِنّ بالنّسبة له والذي كان يحتفظ فيه بالدّجاج الأصفر. كانت تلك الدّجاجات قد شهدت صمت الصّباحات، غياب صياح الدّيكة، الذي أثّر في ندالي. قالت إنّه جعل المكان يبدو كموضع مهجور، وجعلها تتخوّف أكثر من عدم قدرتها على تحمّل غيابه. لم يبق سوى تلك الدّجاجات. قاما سويّة بإخراجها ووضعها برفق في سلّة محبوكة من خيوط الرّافية. كان بمقدوره أن يشعر بما عمّ القنّ من قلق ملموس. فكلّما كان يمدّ يده لسحب دجاجة، كان زعيقها يعلو بحدّة، حتّى أنّه

أمسك عن فعل ذلك بضع مرّات. بل حتّى ندالي شعرت بأنّ ثمّة شيئًا غير عاديّ. سألته قائلة: «ما هذا، ماذا يفعلن؟».

«إنّهنّ يعرفن يا مامي. يعرفن بما يجري لهنّ».

«آه يا إلهي! هل هذا صحيح يا ننسو؟».

أومأ وقال: «شاهدن من قبل إخراج الكثيرات منهنّ ووضعهنّ في هذه السّلّة. لذا، بمقدورهنّ أن يعرفن».

هزّت كتفيها بإشفاق وقالت: «يا إلهي! لا بدّ من أنّ هذا الزّعيق هو صوت بكائهنّ».

ثمّ أغلقت عينيها، ورأى الدّمع يتجمّع في زاويتيهما. قالت: «إنّه يقطّع نياط القلوب يا ننسو. إنّني أشعر بما يشعرن به».

أومأ وعضّ على شفته.

فتابعت بحنق: «نحن نحبسهنّ ثمّ نذبحهنّ ساعة نشاء لأنّهنّ بلا حول أو قوّة».

الغضب العارم في نبرة صوتها جرحه في الصّميم.

أردفت قائلة: «إنّهنّ يزعقن بذلك الصّوت نفسه يا ننسو. أنْصِت، أنْصِت، إنّه الصّوت الذي أطلقنه حين هاجمهنّ الصّقر».

رفع ناظريه إليها لدى إحكامه سدّ القفص. ثمّ حرّك رأسه على نحو تصنّع فيه الإنصات. فقالت بنبرة أعلى: «هل سمعته؟».

أومأ وقال: «هو كذلك يا مامي».

«حتّى حين تسرق الصّقور صغارهنّ منهنّ، ما الذي يفعلنه؟ لا شيء يا ننسو. لا شيء. كيف يدافعن عن أنفسهنّ؟ ليس لديهنّ أظافر حادّة، أو لسان سامّ مثل الأفاعي، أو أنياب قاطعة، أو مخالب!».

عندئذ نهضت وابتعدت قليلًا بهدوء ثمّ قالت: «حين تهجم الصّقور عليهنّ، ما الذي يفعلنه؟ يلجأن إلى البكاء والعويل فقط، يا ننسو. بكاء وعويل، وقُضيَ الأمر».

ثمّ ضربت راحتيها ببعضهما البعض وزلقت إحداهما عن الأخرى، كما لو كانت تنفض طحينًا عالقًا بهما.

رفع رأسه ثانية فرأى أنّ عينيها كانتا مقفلَتْين.

تابعت قائلة: «بلِ ها هنّ تفعلن ذلك الآن. أرأيت؟ لماذا؟ لأنّهنّ أومو أوبيري إهي، أقلّـيّات. أترى ما فعله بنا أصحاب النّفوذ والقوّة في هذا البلد؟ أترى ما فعلوه بك، بسائر الكائنات الضّعيفة؟».

تنهّدت بعمق، وأراد أن يقول شيئًا لكنّ الكلام لم يسعفه. كان قادرًا على التقاط صوت تنفّسها، ومع أنّ الجوّ كان لطيفًا، إلّا أنّه بدا خانقًا. تمكّن من ملاحظة أنّ ما قالته أتى من موضع عميق في داخلها، وكأنها كانت تنتشل الماء من بئر جافّ، ساحبة إلى الأعلى حثالة، وخردة، وطحالب ميّتة، وأيّ شيء مستقرّ في القعر. خطت إلى الوراء وكأنّها على أهبة الانصراف، ثمّ استدارت نحوه ثانية وقالت: «أرأيت ما فعله بنا أصحاب القوّة والنّفوذ، يا ننسو؟ لماذا؟ لأنّك لست ثريًّا مثلهم. أليست هذه هي الحقيقة؟».

قال، كما لو كان يشعر بالخزي: «هو كذلك يا مامي».

لكن لم يظهر أنّها سمعت أيّ شيء من ذلك، إذ بدأت أثناء كلامه بالقول: «أنْصِت، أنصِت يا ننسو. هل تلاحظ بأنّ صيحاتهنّ تعلو وفق نمط معيّن، كما لو كنّ يتكلّمن فيما بينهنّ؟».

بالفعل، وكأنّ الدّجاجات كنّ قادرات على سماعها، بادرن إلى رفع أصواتهنّ. نظر إلى القفص، ثمّ نظر إليها وقال: «هو كذلك يا مامي».

رجعت من جديد، لكزته برفق إلى جنب، ثمّ انحنت فوق القفص وأصخت السّمع لأصوات الدّجاجات. لمّا التفتت إليه ثانية، كانت الدّموع عالقة بأهدابها. قالت: «آه، يا إلهي! ننسو، إنّهنّ يفعلن ذلك حقًّا! إنّ أصواتهنّ مثل الأغنية التي تتوزّع فيها الأصوات بتناسق، نحو ما يُغنّى خلال مراسيم الدّفن في الجّنائز. مثل جوقة الإنشاد في الكنيسة. إنّهنّ يغنّين أغنية مليئة بالحزن والأسى. أنصِتْ فقط، يا ننسو».

ظلّت صامتة لبرهة، ثمّ خطت إلى الوراء قليلًا وفرقعت بإصبعيها وقالت: «ما قاله والدك صحيح. إنّها أوركسترا المغلوبين».

ثمّ فرقعت ثانية بإصبعيها وقالت: «أشعر بالحزن عليهنّ يا ننسو، على ما نصنعه بهنّ، والأغنية التي يغنّينها هي أغنية طافحة بالأسى».

«إيبونو»، في ذلك الوقت، كان قد أنصَت، أنْصَت على نحو ما يُنصت شخص إلى لحن سمعه عشرات المرّات، لكنّ اللّحن في كلّ مرّة، يحرّك مشاعره ويفتح عينيه على أفق جديد من المعنى. كان تركيزه منصبًّا تمامًا على القفص لمّا سمع صوت شهيق بالبكاء. مضى إليها ثمّ ضمّها إلى صدره وقال: «أُبِم، علام البكاء؟».

احتضنته ورمت رأسها في صدره، ثمّ قالت: «لأنّني حزينة عليهنّ يا ننسو. ولأنّني حزينة علينا، كذلك. إنّني مثلهنّ، أبكي في داخلي لأنّ لا حول لنا ولا قوّة في وجه أولئك الذين يقفون ضدّنا. ضدّك في المقام الأوّل. إنّك لا شيء بالنّسبة لهم. ولا يكفي أنّك ستتركني الآن وحسب، بل ستذهب أيضًا إلى مكان لا أعرف عنه شيئًا. بل ولا أعرف ما الذي يمكن أن يحصل لك فيه. أرأيت؟ أنا حزينة، يا ننسو، حزينة للغاية».

«تشوكو»، صُعق الآن، في هذا البلد البعيد بسمائه وترابه وأهله الغريبين، لأنّ ما تخوّفت منه في ذلك اليوم حصل له الآن. كان محبوسًا الآن في قفص من قبل مزارع دجاج يُدعى جامايك نْواورجي، بعد أن قام على رعايته لبعض الوقت، ونتف له الرّيش الزّائد عن جسمه، وعلفه حنطة ودخنًا، وتركه يسرح بحرّيّة وينقب الأرض بسعادة، وضمّد له رِجلًا ربّما جُرحت بمسمار زاغ من مكانه. والآن، وهو حبيس القفص، لم يعد بإمكانه فعل أيّ شيء سوى البكاء والعويل. انضمّ الآن إلى صفوف كثير من الآخرين، كافّة من ذكرهم توبي ممّن سُلبت أموالهم عبر النّصب والاحتيال، الفتاة النّيجيريّة قرب

قسم الشّرطة، الرّجل في المطار، كافّة من قُبض عليهم رغمًا عنهم، سواء في الماضي أو في الحاضر، كي يفعلوا ما لم يودّوا فعله، كافّة من أُرغموا على الانضمام إلى كيان لا يتمنّون الانتماء إليه، وآخرون لا يُعَدّون ولا يُحصون. كافّة أولئك الذين كُبّلوا بالحديد وجُلدوا. من نُهبت بلدانهم، ودُمّرت حضاراتهم، ومن أُخرِسوا، واغتُصبوا، وأُذِلّوا، ثمّ قُتلوا. مع كافّة هؤلاء النّاس، أصبح يتقاسم مصيرًا مشتركًا الآن. لقد كانوا أقلّـيّات هذا العالم المغلوبة على أمرها، التي لا مندوحة لها عن الانضمام إلى هذه الأوركسترا الكونيّة التي لم يعد بمقدورها فعل شيء سوى البكاء والعويل.

«**أكوا أكورو**»، يقول الآباء إنّ النّار الخامدة من السّهل أن يحسبها النّاس نارًا هامدة. كان مُضيفي قد لبث هائمًا على وجهه، وهو جائع عطشان وغارق في العرق والدّمع، قرابة ساعة أخرى، عندما أشرف على مفترق طرق. كان أوّلها يتّجه شمالًا وبدا طويّلا بلا نهاية، وثانيها يتفرّع إلى شارع مسدود، وثالثها يقود إلى الطّريق الذي أقبل منه، وكلّها متفرّعة من دوار كان يراه عن مسافة كيلومتر تقريبًا. كانت شراسة شمس هذا البلد أمرًا لم يصادف مثله أبدًا من قبل. كان أهل بلاده يتحدّثون عن شدّة الحرّ في «أوغوه هاوسا»، شمال نيجيريا، وذكر له والده، الذي عاش ذات مرّة في «زاريا»، أنّ الشّمس في المناطق الشّماليّة، في الصّحراء الكبرى، تجعل الأحياء مثل الأموات.

سار على قدميه نحو ساعتين منذ نزوله من التّاكسي، غارقًا في العرق وثملًا بعض الشّيء. بعد لحظات على نزوله من التّاكسي، وضع زجاجة الشّراب برفق إلى جانب الطّريق، وسط رقعة من العشب اليابس، كمن يأمل في أن يعثر عليها وينهي ما فيها شخص في مثل حالته. وصل الآن إلى قطعة واسعة من الأرض المكسوّة بعشب قصير

فوقه بيت قيد الإنشاء. اثنان من الرّجال السّود كانا بين عمّال البناء الملطّخين بالغبار والعرق تحت الشّمس الكاوية. تابع السّير بعد أن جفّت دموعه، ومنحته حرّيّة التبطّل. عدم المعرفة بما سيقوم به لاحقًا أو بما سيحصل لاحقًا، منحه شعورًا براحة غير معهودة. كان ذهنه قد انصرف ثانية إلى التّفكير في ندالي وطيوره الدّاجنة ويومه الأخير في «أوماهيا»، وفي صوتها لمّا اتّصل بها سابقًا، حين علا دويّ كالانفجار في الطّريق قرب الدوّار. قلّب نظره هنا وهناك لكنّه لم يُبصر شيئًا. تابع السّير بين بنايتين عاليتين إلى أن بلغ فسحة من الأرض، وعندئذ رأى مصدر الصّوت الذي سمعه. على مرمى حجرين، كانت ثمّة سيّارة مقلوبة على ظهرها ومغطّاة بالدّخان. ثمّ سمع أصواتًا مهرولة من خلفه ورأى عمّال ورشة البناء الذين مرّ بهم يركضون باتجاهه.

عاد بنظره الآن إلى الحقل، ووجهه ملّطخ بالغبار مثل وجوه الكهنة الملطّخة بأصباغ الـ«أولي» زمن الآباء الأوّلين، فرأى أنّ زوبعة الغبار قد انقشعت. كان حول السّيّارة المحطّمة أناس في حالات متباينة من الهلع. بالنّظر عن قرب الآن، رأى مصير السّيّارة الأخرى. كانت من نوع «ميني فان»، ممدّدة في مواجهة الدوّار وكأنّها قطعة حديد مضغوط. لمّا وصل إلى السّيّارة المحطّمة في الحقل، استدار نحوه أحد عمال البناء من السّود، الذي حسبه مُضيفي أحد أبناء الآباء الأجلّاء بسبب لهجته، ثمّ قال: «مريع، مريع. في السّيّارة الأخرى، لم ينجُ أحد. في هذه، بنتان في المقعد الخلفيّ، إيه. تشاي! إنّهما من يعلو صراخهما الآن».

سمع مُضيفي أيضًا الصّراخ. ثمّ بدأ ابن بلده بالتّراجع إلى الوراء، مثلما فعل آخرون من أمامه. كانت سيّارة الشّرطة قد وصلت، وكان ثمّة شرطيّ يأمر الجميع بالابتعاد. على مسافة، هرعت سيّارة إسعاف نحو موقع الحادث. أحجم مُضيفي عن بلوغ الموقع نفسه لخوفه من وجود الشّرطة في المكان. ففي «آلا إيبو»، كانت هذه الزّمرة المحيّرة

من الرّجال الذين يملكون سلطة معاقبة الآخرين مرهوبة الجّانب. دسّ يده في جيبه ليُخرج هاتفه ويرى كم كان الوقت، لكنّ جيبه كان فارغًا. تحسّس سرواله في مواضع عدّة، ثمّ اقتفى آثار خطواته على عجل، وعثر عليه على بُعد بضعة أمتار. نفخ الغبار عن شاشته، فرأى أنّ توبي اتّصل به ثلاث مرّات. عندئذ تذكّر بأنّه كان عليهما الذهاب معًا للبحث عن شقّة جديدة، لكنّ الوقت الآن تجاوز الظّهيرة بكثير، 2:15. «إيبونو»، ثمّة أشياء كثيرة حصلت منذ آخر مكالمة بينهما: اتّصل بندالي لكن لم يكلّمها. طُرد من تاكسي بسبب غضب سائقه. احتسى الشّراب ورمى بقيّة الزّجاجة. وفوق هذا، كانت أمور أخرى قد حصلت. تعرّض لهجوم غوغائيّ من قِبل الأطفال. بكى. كاد يصير أحد ضحايا ذلك الحادث المروّع.

تعاظم بؤسه. الأمل الذي بقي في اللّيلة الماضية قادرًا على الزّحف، رغم إصاباته البليغة ودمائه النّازفة، تلقّى الآن ضربة قاضية، وبسقوطه أرضًا، انتهى وتبدّد. كانت هذه كلها أعذارٌ كافية لتبرير عدم رجوعه إلى توبي. في الحقيقة، كانت أعذارًا وجيهة للغاية.

استطاع أن يرى، أثناء سيره، أنّ أحد أبواب السّيّارة المقلوبة قد فُتح، وأنّ الصّراخ والصّياح قد اشتدّا. حركة السّير تعطّلت في كلّ مكان، واصطفّت السّيّارات في طوابير طويلة. وددت الخروج من مُضيفي لأرى إن كان كلّ الركّاب قد لقوا حتفهم، وكي أجتمع بقرنائهم الحماة وأعرف إن كان من الممكن وقاية مُضيفي من هذا المصير المأسويّ الذي مُني به أصحابهم. ماذا اقترف هؤلاء كي يموتوا بهذه الطّريقة؟ ما الإجابات التي يمكن أن يقدّمها قرناؤهم الحماة؟ نحن، أيضًا، نتساءل دومًا عن مثل هذه الأمور، بعد حدوث ما يحدث. هل كانت هناك، مثلًا، طريقة أتمّكن بواسطتها من الوصول إلى قرين جامايك الحامي ومعرفة نوايا قلب مُضيفه منه؟ لكن حتّى لو تمكّنت من معرفة

مكانه وذهبت إليه، فلربما لن أتمكّن من حمله على الخروج، إذ إنّ إقناع القرين الحامي على الخروج من مُضيفه أمر صعب للغاية. وأنا لن أترك مُضيفي، لأنّني كنت خائفًا من تركه وهو في تلك الحالة من الانكسار. أثناء اقترابه من موقع الحادث، بدافع الفضول فقط، كي يشهد مأساة في هذا البلد الغريب، هبطت عليه وسط الدّخان لحظة كشف مرعبة: ما كان ينبغي له المجيء إلى هذا البلد، ولو مكث هنا لمدّة أطول، فإنّه قد يموت.

عندما وصل، رأى رجالًا في أثواب بيضاء يضعون رَجلًا مثخنًا بالجّراح في سيّارة إسعاف. أمّا فوق الأرض، فكانت ثمّة فتاة ممدّدة والدّماء تسيل من جرح عميق في جنبها، شعرها الأشقر ملطّخ بالدّماء. تجمهر النّاس حولها فيما حاول أحدهم إبعادهم إلى الوراء. رأى في أنحاء المكان غشاء لحميًّا مرميًّا فوق العشب الذي وطأته أرجل رجال المستشفى إثر نقلهم رَجُلًا أطاح به الحادث من إحدى السّيّارتين إلى تلك البقعة. كان العشب ملطّخًا بدماء لزجة، فبدا وكأنّه مغطّى بمخاط أحمر. أثناء متابعته لما كان يجري، تركت إحدى الممرّضات بقيّة زملائها، وراحت تتّجه من شخص إلى آخر. كانت تقول شيئًا ما بلسان أهل البلد. وفيما بدا وكأنّه استجابة لكلمات تلك المرأة، تقدّم رجل فوق رأسه قناع واقٍ من الشّمس، ثمّ لحقت به امرأة عجوز. هزّت الممرّضة رأسها، ثمّ إصبعها وكأنّها تقول إنّ العجوز لا يمكن لها فعل ذلك. أثناء حديث الممرّضة البيضاء، قرقعت معدته، فاستدار كي ينصرف، كي يعثر على شربة ماء على الأقلّ. لكنّ الممرّضة نادته: «أيها السّيّد، أيّها السّيّد».

لمّا همّت بالكلام، ناداها شخص باللّسان الأعجمي. استدارت وردّت على الرّجل. ثمّ عادت والتفتت إلى مُضيفي ثانية، قالت بإمارات وجلة: «معذرة، هل بمقدورك أن تتبرّع بالدّم؟ الضّحايا بحاجة إلى الدّم. أرجوك!».

قال: «إر؟».

ثمّ لطم رجله بيده لمنعها من الارتعاش، إذ اعتراه ارتجاف طفيف في تلك اللّحظة.

ردّت الممرّضة قائلة: «دم. هل بمقدورك أن تتبرّع بالدّم؟ نحتاج إلى الدّم لمساعدة ضحايا الحادث، أرجوك».

التفت إلى الوراء كما لو كان يطلب الجواب من شخص خلفه، ثمّ نظر مرّة أخرى إلى المرأة وقال: «أجل».

قالت: «أوكيه، شكرًا لك أيّها السّيّد. تعال معي».

«أَغوجِغبه»، بين الآباء الأوّلين، قيل إنّه كان من النّادر، في حلبة المصارعة، أن يُطرح الرّجل أرضًا لأنّ قوّته البدنيّة وضيعة. وإن لم يكن أصحاب البنية الضّعيفة أو الصّغيرة قد لجأوا إلى «إغْوه انْغبه»، فكيف تمكّنوا من طرح رجال مثل مصارع «انْكبه» العظيم، «إمِكُها املَنوِتشه»، الثّعبان الأملس؛ «نُسيكي»، القطّ؛ «أوكادِغبو»، شجرة الـ«إروكو»؟ لقد تمّ لهم ذلك إمّا عبر الحيلة أو المراوغة والقدرة على الصّمود. في حالة المراوغة، يناور الخصم على إطالة أمد التملّص من المصارع العظيم، إلى أن يدبّ الوهن في عضلات المصارع، وترتخي أطرافه. وحين ترتخي قبضته ويبدأ في التّداعي، يحمله الخصم بسرعة البرق، ويلقيه كالطّبل الأجوف في حضن الهزيمة.

يمكن تطبيق هذا على أيّ وضع خارج نطاق المصارعة. فلو خاض الرّجل قتالًا لفترة أطول من اللّازم ضدّ عدوّ عنيد لا يلين، فلربّما تداعى واستسلم قائلًا للبلوى: «هاكِ، هل طلبتِ ثوبي؟ خُذي لفتتي أيضًا». ولو طُلب من مثل هذا الرّجل السّير لميل، فلربّما قال: «هل قلت إنّك تريد منّي أن أمشي معك ميلًا على الأقدام؟ أوكيه، هاك، دعنا نمشي ميلَيْن». ولو طُلب من مثل هذا الرّجل، إثر إفلاته من قبضة الموت، أن

يتبرّع بالدّم، فإنّه لن يرفض هذا الطّلب. بل سيتبع الممرّضة التي طلبت هذا منه، من رجل غريب ذي بشرة سوداء أجنبيّة، إلى المستشفى، وسيفعل ما طُلب منه بالضّبط. وبعد أن يتبرّع مثل هذا الرّجل بالدّم لضحيّة واحدة، سوف يقول إنّه يريد التّبرّع لضحيّة ثانية. سيقول هذا للممرّضة التي سحبت منه الدّم وتناولت قطنة، ألياف كانت الأمّهات القديمات يغزلن منها الأقمشة، وسدّت بها الثّقب المساميّ النّازف. عندئذ سوف تردّ الممرّضة قائلة: «لا أيّها السّيّد، مرّة تكفي. صدّقني».

لكنّ الرّجل سيلحّ قائلًا: «لا، خذي المزيد لأجل الضّحايا. خذي المزيد، أرجوك».

سيصرّ على ذلك رغم أنّ قرينه الحامي سيقول عبر ذهنه إنّ عليه ألّا يفعل هذا الأمر، فالدّم هو الحياة نفسها، وهو الشّيء الذي يخرج من الجّسد احتجاجًا على ما لحق به من جروح وإصابات. سيظلّ مصرًّا رغم قول قرينه الحامي إنّ الانتحار من الموبقات بالنّسبة للرّبّة «آلا»، وإنّ كلّ ما كُسر في ذلك الوقت لم يكن عصيًّا على الإصلاح، وإنّ كلّ ما كانت العين قد رأته لم يكن قادرًا على حملها على ذرف الدّم بدل الدّموع. لكنّ المُضيف الكسير، المهزوم، المستحوَذ عليه من قبل يأس طاغٍ صامت، لن يحفل بأيّ نصح أو مشورة. عندئذ، ستستدير الممرّضةً، الدهِشة بوضوح، وستقول: «هل أنت واثق من أنّك تريد ذلك بالفعل؟».

وسيردّ عليها قائلًا: «هو كذلك أيّتها الوالدة. أنا واثق للغاية. أريد أن أعطيهم دمًا. لديّ دم كافٍ. كافٍ».

بعد سحب الدّم منه للمرّة الثّانية، نهض، واهنًا ومتعَبًا، جائعًا وعطِشًا، وفي ذهنه السّؤال التّالي: وماذا بعد؟ ماذا كان هناك ليفعله لاحقًا؟ ما جرى خلال الأيّام الثّلاثة الماضية قلب أيّ فلسفة كانت لديه إزاء الحياة، فصمّم الآن على أنّ من الأفضل عدم التّخطيط لأيّ شيء.

لا، يا لحماقة من يعتقد أنّ الرّجل الذي يترك بيته ويقول لأصحابه، أو حتّى لنفسه: «أنا ذاهب إلى الجّامعة،» أنّ مثل هذا الأحمق سيصل إلى وجهته في الواقع. فلربّما وجد هذا الرّجل الأحمق نفسه في مستشفى، عوض ذلك، مانحًا الدّم لأشخاص لا يعرفهم. يا لحماقة من يعتقد أنّ الرّجل إن ركب تاكسي وأعطى العنوان الصّحيح للسّائق، فإنّ هذا الرّجل سيصل في النّهاية إلى الوجهة الصّحيحة. فلربّما وجد هذا الأحمق نفسه بعد لحظات سائرًا على قدميه صوب وجهة غريبة بعيدة كلّ البعد عن الجّامعة، ثمّ سيتعرّض لإرهاب جمع غوغائيّ من الصّبية الأشقياء.

لذا، لا حاجة إلى أيّ تخطيط. ما كان بمقدوره أن يفعله هو شكر المرأة التي سحبت منه الدّم، ثمّ الذّهاب في حال سبيله. عليه أن يخرج تحت الشّمس، وأن يذهب، ربّما إلى مقرّ إقامته المؤقّتة. وهذا، يا «ايبونو»، هو ما فعله. فبعد أن قال: «شكرًا لك أيّتها الوالدة»، انصرف ويداه متكوّرتان إلى أعلى للضّغط على قطعتي القطن الرّطب فوق ثقبي الإبرة. مشى وتخطّى طابورًا طويلًا من النّاس، وتجاوز المكاتب، ثمّ خرج إلى موقف السّيّارات عندما سمع صوتًا كان يناديه: «سيّد سلومون».

استدار صوب الصّوت الذي قال: «نسيت حقيبتك».

فردّ قائلًا: «أوه».

أقبلت المرأة عليه قائلة: «سيّد سلومون، إنّني قلقة عليك. هل أنت على ما يرام؟ إنّك رجل طيّب».

قبل أن يتمكّن من التّفكير، نطق فمه قائلًا: «لا، لست على ما يرام أيّتها الوالدة».

فقالت: «بمقدوري أن ألاحظ ذلك. هل بوسعك أن تتكلّم؟ إنّني ممرّضة، يمكنني أن أساعدك».

رفع بصره عنها ورنا به إلى الشّمس المحدّقة إليه من وسط السّماء.

قالت: «دعك من الشّمس».

ثمّ سحبته تحت المظلّة المثبّتة في واجهة المستشفى وقالت: «حدّثني بأمرك، بمقدوري أن أساعدك».

15

بلاد بلا أشجار

«بآبَدودو»، تناولت بالتّفصيل أطول يوم في حياة مُضيفي، يوم عاصف مطير أهوج كالطّاعون. لكن عليّ أن أخبرك أيضًا بأنّه انتهى بقطرة من الأمل. لذلك، عليّ الآن أن أسرع وأقول إنّه عاد إلى الشّقّة الجّامعيّة المؤقّتة التي تقاسمها مع الرّجل الذي بات رفيقه في اليوم السّابق. أثناء صعوده سلّم الشّقّة، ومعه زجاجة الشّراب التي اشترتها الممرّضة له، داهمه خاطر الاتّصال بندالي ثانية. كان لهذا الخاطر وقع السّوط في ذهنه. وبدهشة حقيقيّة، تساءل عن سبب تردّده الذي طال كثيرًا. بدأ في ضرب الرّقم، ثمّ تذكّر بأنّه نسي إضافة إشارة الجّمع للاتّصال الدّولي. لذا، مسح الرّقم وبدأ من جديد. وحين علا رنين الهاتف، سارع إلى إغلاقه بارتباك شديد. حدّث نفسه بأنّ عليه التّحلّي بأكبر قدر من الكياسة والتحدّث بانتباه كبير. عليه أن يفتتح الكلام بالتّعبير عن مدى اشتياقه إليها ومدى حبّه لها، وهذا كفيل بتجريدها من السّلاح.

ضرب الرّقم ثانية، واقفًا بقدمٍ فوق الدّرج وبيد ممسكة بالدّرابزين، ثمّ صرخ في الهاتف قائلًا: «مامي، مامي. نوانيه أوما».

«أوه، يا إلهي! ننسو أُبِم، أكاد أجنّ من القلق عليك».

«أوه، شبكة الاتّصالات. شبكة الاتّصالات سيّئة للغاية. إنّها»...

قاطعته قائلة: «لكن يا ننسو ولا حتّى مكالمة واحدة، ولا حتّى

رسالة نصّيّة سريعة؟ إر؟ إنّني في غاية القلق عليك. في الحقيقة، اتّصل بي شخص ما، فتكلّمت، وصرخت هالو، هالو، لكنّه لم يتمكّن من سماعي، وروحي أخبرتني بأنّ المتّصل كان أنت. هل اتّصلت بي اليوم؟».

«إيبونو»، كان عالقًا للحظة بين الصّدق والكذب، إذ كان خائفًا من أنّها ستشكّ في أنّ ثمّة شيء ما حصل له. وسط تردّده، علا صوتها ثانية: «ننسو، أما زلت هناك؟ هل تسمعني»...

«أجل، أجل يا مامي، أسمعك».

«هل اتّصلت بي؟».

«أوه، لا، لا. أردت أن أتّصل بك بعد أن أرتّب أموري كي أطمئنك بأنّ كلّ شيء يسير على ما يرام».

«هم مم مم، حسنًا»...

أثناء كلامها علا فوق صوتها صوت تركيّ تلاه صوت بلسان الرّجل الأبيض، مبلغًا إيّاه بنفاد رصيد بطاقته الهاتفيّة، ثمّ انقطع الخطّ. فقال بحنق: «أوه ووه! ما هذا الهراء؟ إر؟ البطاقة جديدة واشتريتها بالأمس فقط».

شعر بالدّهشة، بعد أن نطق هذه الكلمات، لأنّه انزعج من شيء تافه كبطاقة الهاتف. فلأوّل مرّة منذ أيّام، لم يكن محدّقًا في الصّورة الرّثّة لنفسه المنعكسة عن المرآة في رأسه وأنفاسه متقطّعة من منظر الجّروح البليغة، والعينين المتورّمتين، والدّمّل الممتلئ بالصّديد فوق شفتيه، وأقنعة هزيمته العظمى.

قرع جرس الشّقّة وسمع صوت قدمين في الدّاخل. فتح توبي الباب وقال: «سولومن، وا!».

«أخي، أخي».

ثمّ عانق مُضيفي توبي الذي قال: «ماذا، أين كنت»...

قاطعه مُضيفي وقال لدى ارتمائه فوق أحد المقاعد في غرفة الجّلوس: «مِهن، شكرًا لك على كلّ ما فعلته لي بالأمس».

ردّ توبي: «ماذا حصل؟».

«أشياء كثيرة يا أخي. أشياء كثيرة».

بالمزاج الفرح نفسه، أخبر توبي عن كلّ ما قام به في ذلك اليوم، عن الحادث، والممرّضة، وصولًا إلى آخر ما رويته للتوّ من تفاصيل شهادتي لكم ولضيوف «إلوِغويه» ولما بعدهم.

«إيبونو»، كان سيكون هباءً، بل غباءً لو أنّه خطّط لفعل أيّ شيء بعد سحب الدّم منه. لو خطّط للرّجوع إلى الجّامعة، مثلًا، لكان الواقع قد أسفر عن وجهه المغضّن ثانية فوق شاشة وعيه، ضاحكًا عليه بفم بلا أسنان، مثلما فعل بلا هوادة على مرّ الأيّام الأربعة الماضية. لذا، عمد إلى فعل الأمر المتّسم بالحكمة وترك نفسه تطفو، ترك للوقت أن يحملها حسبما يشتهي، وينقلها إلى حيث يريد. طوال ساعة بعد سحب الدّم منه، ظلّ برفقة الممرّضة، ساردًا عليها قصّته بحذافيرها، ثمّ أجلس في مقعد أماميّ لسيّارة رماديّة صغيرة، وحملته من جديد إلى «غرنه»! أجل، «غرنه»، حيث كان هؤلاء الذين كانوا يسكنون مع جامايك قالوا له قبل بضع ساعات إنّه لن يعثر عليه أبدًا. لكن كيف كان من الممكن له أن يعرف بأنّه سيعود إلى هنا، إلى المكان الذي كانت آماله قد تلقّت فيه ضربة قاضية وفي اليوم نفسه؟ قالت له الممرّضة حينذاك: «ستستغرق الطّريق نحو أربعين دقيقة، بمقدورك أن تغفو قليلًا، أوكيه، تمدّد ونم، إن أحببت».

«شكرًا أيّتها الوالدة».

شعر بارتياح كبير حتّى أنّه كان يودّ أن يبكي. رمى رأسه فوق مسند المقعد وأغلق عينيه، ضامًّا حقيبته إلى صدره. كانت بقايا الخضروات من الكباب الذي اشترته له ما زالت عالقة بين أسنانه. نكشها بلسانه

ثمّ لفظها بلا ضجيج. قالت الممرّضة: «أشعر بأنّ عليَّ أنا، أيضًا، أن أخبرك عن متاعبي يا سلومون».

«أوكيه أيّتها الوالدة».

«قلت لك من قبل، نادني فيونا، أرجوك».

«أوكيه».

سمعها تضحك ضحكة بين مقاطع حديثها. قالت: «لمّا انتقلت من ألمانيا إلى هنا، وتزوّجت من زوجي، تخلّيت، أنا أيضًا، عن كلّ شيء، عدا جنسيّتي الألمانيّة. قالت الحكومة إنّ بمقدوري حمل الجنسيّتين لأنّ قبرص ليست بلدًا حقيقيًّا. سنة، سنتان، كانت الأمور جيّدة. ما علينا. ثمّ بدأ كلّ شيء، كلّ شيء، بدأ بالانفجار. والآن، نحن نعيش معًا كالغرباء. أحدنا غريب عن الآخر».

سمع ضحكة، ثمّ تهدّج صوتها قليلًا وقالت: «إنّني لا أراه؛ وهو لا يراني. لكنّنا مع ذلك زوج وزوجة. وضع عجيب للغاية، أليس كذلك؟».

لم يعرف بماذا يردّ عليها، ولم يعرف ما معنى كلمة «عجيب». ورغم أنني كنت أنا، قرينه الحامي، أعرف ما تعنيه، إلّا أنّ تعريفه بها في تلك اللّحظة كان سيكون أمرًا غير واقعيّ من طرفي، ولهذا لم أفعل. كان كلّ ما جال في خاطره هو أنّ النّاس هنا، مثله ومثل أهل بلده في نيجيريا، لديهم مشاكل، أيضًا.

استأنفت الممرّضة حديثها بالقول: «هل تتخيّل! لم أره منذ ثلاثة أيّام. سمعت صوته ليلة أمس لدى دخوله البيت في منتصف اللّيل. ثمّ سمعت صوت خطواته متّجهة إلى الحمّام ثمّ إلى السّرير. ثمّ انتهى الأمر! اغْناو».

سألها: «لماذا يتصرّف على هذا النّحو؟».

«لا أدري؛ لا أدري على الإطلاق. الأمر معقّد للغاية».

اتّجها إلى محلّ قالت إنّها ستساعده في الحصول على عمل فيه، «عمل من تحت الطّاولة»، وبأجر مغرٍ. بإمكانه أن يكسب ألفًا وخمسمائة ليرة شهريًّا، ما يكفي لمساعدته في تعويض كلّ ما خسره، بل وفي تسديد ما يحتاج إليه للدّراسة في الجّامعة. كان صاحب العمل، ذكرت اسمه، أحد أصدقائها المقرّبين. كان المحلّ كازينو ملتصقًا بفندق مملوك أيضًا من قبل هذا الصّديق.

استفسرا داخل الكازينو، لكنّ الرّجل لم يكن هناك. قالت السّكرتيرة التي كانت ترتدي بلوزة بيضاء وتنوّرة سوداء: «ذهب إلى 'غُزَليورت'، ولا يمكنني الاتّصال به على رقمه».

ثمّ أكملت السّكرتيرة حديثها الطّويل بلسان أهل البلد.

قالت فيونا: «تمام، فهمت. سآتي معه في وقت آخر إذًا».

قالت لها إنّهما سيعودان في اليوم التّالي لرؤية إسماعيل. لذا، رجعا إلى «لفكوسا»، ولم يتكلّما طوال معظم الوقت. فتحت المذياع، لتعلو موسيقى لم يسمع مثلها من قبل. ذكّرته بالأفلام الهنديّة–وإيقاع الطّبول النّحاسيّة المتقطّع الذي ما إن يخبو حتّى يعلو ثانية بحماسة أكبر، مثل موسيقى فيلم «جَماينا». ثمّ قالت فيونا: «لا بأس. إنّه كازينو. أبوابه مفتوحة دائمًا».

مرّت بالموضع الذي كان الحادث قد وقع فيه. لم يكن هناك الآن، بعد نحو ثلاث ساعات فقط، أيّ أثر له، باستثناء الطّوب المهشّم فوق سطح الدّوّار والشّظايا الزّجاجيّة في الحقل الذي كانت السّيّارة قد انقلبت فيه، هزّت رأسها لدى مرورهما من هناك وتكلّمت عن كيف كان النّاس في قبرص يسوقون سيّاراتهم بتهوّر ويتسبّبون في وقوع كثير من الحوادث. لمّا ركنت سيّارتها في مدخل الجّامعة، كان النّعاس قد داهمه. قالت: «سأتّصل بك غدًا قرب الظّهر، بعد أن أتكلّم معه في الأمر. سنذهب إلى بيتي، وسأعدّ طبخة وطعامًا بيتيًّا لك».

«شكرًا جزيلًا يا فيونا. شكرًا لك».

قالت: «غْناو، اعتنِ بنفسك وسنتحدّث في الغد».

قال لتوبي كيف وقف وراقب هذه المرأة لدى ابتعادها بسيّارتها، وكيف كانت كلّ كلمة قالتها حيّة في داخله. تلك المرأة الغريبة التي لم تكن تعرف شيئًا عنه، كيف أبدت تجاهه عطفًا كبيرًا إلى حَدّ أنّها خلال سرده لقصّة هزيمته العظمى، اغرورقت عيناها بالدّموع-ربما بسبب الطّريقة التي رواها بها، الطّريقة التي وصف بها ما سُلب منه، وسجلّ الخسارات الذي كان حياته بذاتها. طرحت سؤالًا تلو الآخر -«ألم يكن هذا الرّجل، جامايك، صديقًا لك؟»؛ «هل فعل هذا بالفعل؟»؛ «حتّى المبلغ الذي كان يفترض أن يكون مودعًا في المصرف كان مجرّد كذبة؟»- حتّى أنّ عينيها، بحلول الوقت الذي مرّا فيه بموقع الحادث، كانتا حمراوين من البكاء، ووجهها كان متورّدًا من شدّة الحرقة والانفعال، وكانت تتمخّط في محرّمة انتزعتها من كيس نايلون. كان تعاطفها صادقًا وحقيقيًّا. حين انتهى مُضيفي من حديثه، هّز توبي رأسه بطرب ثمّ فرقع بإصبعيه وقال: «غير معقول! أرأيت؟ أرأيت صنيع ربّك؟».

ردّ مُضيفي بسعادة وامتنان من كرَم هذا الرّجل وطيبته: «هو كذلك يا أخي».

ثمّ أراد أن يطلعه على المزيد، ففرد يديه وقال: «انظر إليّ. في هذا الصّباح، كنت أظنّ أنّ حياتي انتهت، وأنّني وقعت في هوّة بلا قرار. إتشرم ما نْداييري نا أولولو».

ضحك كلاهما. ثمّ قال توبي وقد أشار إلى السّقف: «إنّه الرّبّ. ربّك. هذه المرأة ملاك أرسله الرّبّ. ألم تسمع المثل الذي يقول إنّ الرّبّ هو من يهشّ الذّباب عن مؤخّرة بقرة بلا ذَنَب وعن طعام رجل ضرير؟».

ردّ مُضيفي قائلًا: «هو كذلك! وهو من يعبّر عن الحشرات،

والطّيور، والبكم، والفقراء، والدّجاج، وسائر الكائنات التي تعجز عن الغناء، وأوركسترا المغلوبين! وهو من يمنح القدرة على التّعبير للحشرات... وهو من يتولّى التّعبير عن»...

أومأ توبي برأسه ثمّ قرع الأرض بقدميه وقال: «حتّى على صعيد السّكن، عدت للتوّ من مكتب الإيجار بعد عثوري على مكان جيّد ورخيص. إيجار الغرفة الواحدة مئتي يورو».

«ها، عظيم، يا أخي. عظيم».

«أجل، إنّهم يتقاضون عربونًا هنا. لذا، قمت أيضًا بدفع العربون».

«آه، يا أخي، دالو».

أثناء الحديث، رنّ جرس الهاتف. فانتفض واقفًا على رجليه كي يرى من المتّصل. ثمّ قال: «خطيبتي. أرجوك أن تعذرني يا توبي».

«أغوجغبه»، هرع إلى غرفته بتشوّق ثمِل وأوصد الباب. كان بوسعي أن ألاحظ أنّ تأثير الكحول لم يكن قد تبدّد بعد وأنّه ما زال بعد في حالة من الذّهول والترنّح الطّفيف. لمّا ضغط على مفتاح قبول المكالمة، انساب صوتها العذب في أذنه، كان واضحًا وكأنّ خطّ الهاتف قد جرى تعقيمه بمطهّر.

«ننسو، ننسو؟»

«أجل يا مامي!».

«أوه، إنّها شبكة الاتّصالات إذًا؟».

«أجل يا مامي. أجل. إنّني مشتاق لك. مامي. أحبّك جدًّا».

«ها، أنت تقول هذا لكن لماذا لم تتّصل بي؟ قلت إنّك لست من اتّصل بي أوّل النّهار؟ لقد مرّت خمسة أيّام تقريبًا».

«مامي، هذا بسبب القلق، فلم نصل إلى هنا على الوقت، ولمّا وصلنا اكتشفت بأنّ كثيرًا من الأمور، كالتّسجيل في الجّامعة، والعثور على مكان للسّكن، اكتشفت أنّ كلّ هذه الأمور استولت على وقتي».

«لا يعجبني ذلك يا ننسو. لا يعجبني على الإطلاق».

تخيّل أنّها أطبقت جفنيها، وجمال تلك الحركة على ما فيها من غرابة أشعل لهيب رغبته. قال معتذرًا: «آسف يا مامي. لن أفعلها ثانية أبدًا. أقسم بربّي الذي خلقني».

ضحكت وقالت: «رجل أحمق. أوكيه. وأنا مشتاقة لك أيضًا».

«غوو غوو؟».

ضحكت مجدّدًا وقالت: «أجل، يا رجل الإيبو، غوو غوو. بالفعل، إلى درجة كبيرة جدًّا. قل لي، كيف يبدو المكان؟».

الآن وهو مسترخٍ وفي مزاج رائق، ترك لعينيه حرّيّة تأمّل الغرفة، فأبصر شيئًا لم يلاحِظه من قبل. فوق النّافذة، قرب السّقف، كان ثمّة ستارة قصيرة خشبيّة ألصقت فوقها صورة شخص ما، لكنّ نصفها كان مكشوطًا ولم يبق منها غير صورة قدمَي شخص أبيض ممدّدتين فوق كنبة. انتبه لصوت ندالي قائلًا: «أما زلت على الخطّ، ننسو؟».

ردّ قائلًا: «أوه، أجل يا مامي، ماذا قلتِ؟».

«إنّك لا تنصت إليّ؟ قلت لك أخبرني عن قبرص، كيف تبدو؟».

ردّ عليها: «أنا منصت، أنا منصت».

قال هذا رغم أنّه كان قد توجّه صوب النّافذة، متسائلًا بينه وبين نفسه كيف كانت الصّورة الكاملة من قبل. ثمّ تابع الحديث قائلًا: «مامي، إنّها جزيرة حمقاء جرداء تافهة. ليس فيها أيّ نوع من الأشجار، مجرّد صحراء، صحراء».

قالت بضحك مكتوم: «أوه، يا إلهي، ننسو! من أين تعلم ذلك؟ هل تجوّلت في أرجائها؟».

«إر، مامي، إنّني أقول لك الحقيقة. البلد يبدو وكأنّه بلا أشجار، كأنّ كلّ الأشجار أزيلت منه. إنّني أقول لك، كلّ الأشجار عن بكرة أبيها. بل حتّى ولا شجرة واحدة. إنّني أقول لك».

«ماذا، لا أشجار على الإطلاق؟».

«ولا شجرة يا مامي. والنّاس هنا لا يعرفون الإنجليزيّة».

«يا إلهي!».

«أجل يا مامي. معظمهم لا يفقه الإنجليزيّة على الإطلاق. حتّى تعال واذهب لا يفقهونهما. كما أقول لك، إنّه ليس مكانًا جيّدًا، أمّا شعب التُركا»... هزّ رأسه، «إيبونو»، كما لو أنّها كانت تراه، وقد تذكّر ما فعله السّائق به قبل بضع ساعات، والأطفال الصّغار، وعموم النّاس الذين وقفوا متفرّجين عليه لدى سيره وبكائه تحت الشّمس الحارقة. ثمّ تابع قائلًا: «أناس سيّئون. لا أحبّهم، تشا تشا».

«أه، ننسو! ماذا عن صديقك جامايك؟ هل هو سعيد هناك؟».

«إِزوَّه»، لمّا ذكرتْ اسمه، غاص قلبه بين الضّلوع. أمسك عن الكلام كي يتماسك، إذ لم يكن يودّ أن تعرف ندالي بما مرّ به. فقد عقد العزم على عدم إخبارها بما حصل له إلّا بعد حلّ جميع مشاكله. وأنا يا «إيبونو» شجّعته على ذلك بقدح أفكار مؤكّدة على أنّ هذا كان هو الفعل السّديد. لذا، حاول الالتفاف على سؤالها بقوله: «هل قدّمتِ امتحانك الثّاني؟».

«أجل، البارحة. كانت الأسئلة سهلة».

«وهل قمت بالـ»...

«أُبِم، يقولون لي إنّ رصيدي سينتهي قريبًا. وأنا اشتريت بطاقة بمئتي نيرة. لذا، أرجوك، تكلّم بسرعة، إنّني مشتاقة يا قلبي».

«أوكيه، مامي. سأتّصل بك غدًا».

«أتعدني؟».

«إنّه كذلك».

«هل قرأت رسالتي؟ في حقيبتك؟».

«إر، مامي، رسالة».

قالت على عجل: «اقرأها على أيّ حال، ثمّة شيء أودّ أن أخبرك

به، لكنّي أريدك أن تستقرّ أوّلًا. إنّه خبر عظيم، خبر عظيم، حتّى أنا متفاجئة. لكنّي في غاية السّعادة!».

ردّ قائلًا: «إنّك سوف»...

لكنّ الخطّ انقطع.

«أَغباتَّه آلومالو»، لأنّه تحدّث معها أخيرًا، لأنّه سمع الصّوت الوحيد القادر على تسكين أوجاع روحه المحطّمة، شعر بطمأنينة وسلام أعمق بكثير ممّا كان الأمل قد ولّده من راحة في نفسه. ضحك، ضحكة رضى من أنّ الأمور كانت تُصلّح بسرعة، بالوتيرة نفسها التي تحطّمت فيها. فحتّى ندالي، التي ظنّ أنّه أثار سخطها إلى حدّ كبير، ها هي قد سامحته. كانت سعادته غامرة حتّى أنّ عينيه اغرورقتا بالدّموع. تمدّد في السّرير، فغشاه النّوم سريعًا وداهم جسده المتعب، المروَّع، لكن الذي تنزّلت عليه السّكينة أخيرًا.

راودتني رغبة الخروج من جسده كي أرى كيف كان عالم الأرواح في بلد هؤلاء النّاس الغريبين، لكن بسبب الجزع الذي أصابه، لم أتمكّن من ذلك، عدا المرّة التي ذهبت فيها للبحث عن قرين جامايك الحامي في «نغودو». فعندما تقع مصيبة على رأس المُضيف، يجب أن نراقب، يجب أن نظلّ متأهّبين، نفتح أعيننا على اتّساعها مثل الأسماك، إلى أن تأتي لحظة الفرج. بعد أن استغرق في نوم عميق، خرجت من جسده واندفعت محلّقًا إلى نطاق عالم الأرواح. ما رأيته -«إيبونو» أدهشني. لم أرَ أيّ شيء ممّا يراه الواحد عندما يُزاح ستار الوعي: عتمة اللّيل المزخرفة، ضجيج الأطياف والأرواح المختلفة، الوقع الصّامت لخطى القرناء الحماة. عوض ذلك، هنا، في طبقة السّحاب المتراكم الذي تشكّل خلال اللّيل، رأيت كائنات ذات أشكال حُلْميَّة تتهادى متسرنمة في الأرجاء. لكنّ أكثر ما صدمني هو ندرة تلك الكائنات هنا. فالمكان بدا لي خاليًا من الأرواح. لكنّي

سرعان ما تبيّنت السّبب: حال أن تطلّعت في الأرجاء، رأيت في كلّ زاوية تقريبًا معابد سماويّة، ذات جلال مغرق في القدم وطراز مهيب. ظهر لي أنّ تلك الأرواح توخّت في «إزِنمو» الخاصّ بها العيش في مساكن شبيهة بمساكن البشر، ومعظمها كان داخل تلك المساكن. بل إنّ بعض الأنحاء كانت خالية تمامًا ولم تكن ممتلئة إلّا بالأوراق الذّهبيّة للأشجار الدرّيّة وآثار الخطوات اللّامعة لكلّ من طرقها أثناء اللّيل. ثمّة أيضًا لحن رقيق عميق كما لو أنّه صُنع من آلة غير معروفة للآباء، والتي عَرفتُ فيما بعد بأنّها تُسمّى بيانو. كان صوتها مختلفًا عن صوت «أُجا»، ناي الآباء الأجلّاء والأرواح القاطنة في أرضهم. طفت في طول هذا المكان وعرضه في حجّ بطيء خلافًا لذلك الذي كان مُضيفي قد قام به في أرض البشر إلى أن، وخوفًا من أنّ حلمًا ما قد يوقظ مُضيفي، رجعت ووجدته ما زال مستغرقًا في نوم عميق.

«تشوكو»، يقول الآباء الأجلّاء: «الغد حامل لا يعلم أحد ما سيلد». فكما كان ما في رحم المرأة محجوبًا عن أعين الآباء الأوّلين (عدا العارفين بالأسرار ومن رفع عنهم الحجاب)، كان حمل المستقبل كذلك. لا يستطيع أيّ أحد أن يعرف ما سينجبه المستقبل. إنّ الرّجل يهجع في اللّيل وذهنه يعجّ بخطط وأفكار بشأن الغد، لكن قد لا يتحقّق أيّ شيء من خططه تلك. فهم الآباء العظماء لغزًا ضيّعه أبناء الآباء الآن: في كلّ يوم جديد، تتجدّد «تْشِه»[1] الرّجل. ولهذا تصوّر الآباء كلّ يوم جديد على أنّه ولادة جديدة، انبثاق شيء جديد من شيء آخر -«تْشِه أوفوفو». بمعنى أنّ ما كان «تْشِه» قد تداوله أو تفاوض بشأنه نيابة عن مُضيفه في اليوم السّابق يكون قد انقضى وانتهى، وأنّ اليوم الجّديد يقتضي عملًا جديدًا. «إيبونو»، هذا هو لغز الغد.

(1) تْشِه: القرين الحامي أو الإله الشّخصي.

مُضيفي، مع ذلك، وكونه مجرّد إنسان، استيقظ فرِحًا بالأمل الذي مُنح له بالأمس وبتواصله من جديد مع حبيبته. عندما خرج من غرفته، كان توبي يحدّق عبر نظّارته إلى شاشة حاسوبه. ألقى تحيّة الصّباح على مُضيفي قائلًا: «صباح الخير يا أخي. هل تعرف أنّ يوم السّبت مخصّص لتنظيم الرّحلات التّعريفيّة؟».

هزّ مُضيفي رأسه، لم يكن يعرف ما يعنيه ذلك. فقال توبي: «أقترح عليك أن تذهب لأنّها رحلات مفيدة للغاية. يقولون إنّها تمكّن الشّخص من فهم الجّزيرة، ورؤية الكثير الكثير من الأماكن الجّميلة والتّاريخيّة».

ردّ مُضيفي: «إحم، هل ذهبت من قبل؟».

«لا، إنّها تنظّم كلّ سبت. أنا وصلت يوم الأحد وأنت وصلت يوم الأربعاء».

«لا، أنا وصلت يوم الثّلاثاء. نْغوانو، سأذهب».

«ممتاز، ممتاز. فور رجوعنا إلى هنا، سنحزم أمتعتنا ونتّصل بتاكسي كي ينقلنا إلى شقّتنا الجّديدة». سيكون هذا أمرًا عظيمًا حين تبدأ عملك، بمشيئة الرّبّ، إذ سيتوفّر لك مطرح للسّكن. هذا أمر عظيم للغاية».

وافقه مُضيفي وشكره ثانية على كلّ المساعدة التي قدّمها له وقال: «لن أنسى ما فعلته لأجلي ما حييت، وأنا مجرّد شخص لم تكن تعرفه من قبل».

«لا، لا تقل ذلك. أنت أخي. لو رأيت أحد الأخوة من الإيبو في بلد رجل آخر مثل هذا البلد، فهل ستقف مكتوف اليدين وتتركه يعاني؟».

هزّ مُضيفي رأسه وقال: «هو كذلك يا أخي».

انتعشت روحه، وقام بغسل جوربَيْه، كان قد استخدمهما طوال مدّة سفره إلى قبرص، ثمّ نشرهما فوق كرسيّ خشبيّ قرب السّتائر المفتوحة لتجفّفهما أشعّة الشّمس. عزف عن ارتداء هذا الشّيء

المسمّى بالجّورب منذ المرحلة الثّانويّة. لكنّ ندالي اشترت زوجًا وألحّت عليه قائلة إنّ قدميه ستبردان في الطّائرة إن لم يلبسهما. خارج النّافذة، في الشّرفة، أبصر حمامًا رابضًا على السّور، وتناهى إلى سمعه صوت الهديل. كان قد رآه يوم أمس لكنّه لم يولّه أيّ انتباه، لأنّ الرّجل حين يقع في براثن البؤس، يصبح شخصًا آخر لا علاقة له بنفسه. على سبيل المثال، أثناء مشيه الطّويل في اليوم السّابق، تذكّر حادثة كانت تضحكه كلّما خطرت في باله. ذات مرّة، قام أحد أصدقاء أبيه بزيارته مصطحبًا زوجته. وأثناء الزّيارة ذهبت المرأة إلى الحمّام، مع أنّ الوقت كان ليلًا والكهرباء مقطوعة، لم يكن أحد يدري أنّ أحد الصّيصان شقّ طريقه إلى هناك. عندما دخلت المرأة الحمّام، ومن دون أن تلاحظ الصّوص القابع خلف برميل الماء، رفعت ثيابها وأنزلت سروالها الدّاخلي، ولمّا كانت على وشك التّبوّل، وثب الصّوص إلى المغسلة. عندئذ صرخت المرأة وفرّت إلى غرفة الجّلوس، حيث كان والده وزوج المرأة جالسَين. خجلًا مما حصل، سينهي الرّجل علاقة الصّداقة التي جمعتهما. كان مُضيفي كلّما استحضر هذه الحادثة، ضحك من الأعماق. لكن في ذلك اليوم، وفي ذلك الوقت، اكتفى ذهنه بلطم ذكرى تلك الحادثة وإبعادها عنه وكأنّها ذبابة مزعجة.

في هذا اليوم الجّديد، وأثناء تناوله الخبز والـ«كسترد» مع توبي، ضحك ونكّت على أهل هذا البلد، وعلى سذاجته، وعلى كيف أنّه، بحكم عدم ركوبه في طائرة من قبل، لا بدّ وأنّه بدا مثل الأبله في الطّائرة. ثمّ، بعد ذهاب توبي إلى الجّامعة للقاء معلّميه، تمدّد واستغرق في نوم عميق، طويل، حتّى أنّه لم يستيقظ إلّا عند الغروب. لمّا نهض من سريره، رأى أنّ ندالي حاولت الاتّصال به. ضرب رقمها، لكنّ الرّسالة الصّوتيّة ذكّرته بأنّ رصيده قد نفد. مضى برفقة توبي إلى مطعم الجّامعة، حيث جلسا وتناولا الطّعام وراقبا أهل البلد. أخذ ذهنه

بالامتلاء، وأخذت روحه بالتّعافي. رأيت في تلك اللّيلة، أثناء نوم مُضيفي، قرين توبي الحامي متسكّعًا في أرجاء المكان. شكرته على المساعدة التي قدّمها مُضيفه لمُضيفي، ثمّ جلسنا نتحدّث عن «إزِنمو» هذا البلد الغريب وعن كلّ ما مرّ به مُضيفنا، ومع اقتراب الفجر، أصرّ على ضرورة العودة إلى مُضيفه.

بكّرا في الخروج صباح السّبت إلى موقف الباص. وأثناء مرورهما بمباني السّكن الجّامعيّ، أشار توبي إلى شقّة كان يرفرف من شبّاكها العلم التّركيّ ثمّ قال: «إنّهم يعلّقون أعلامهم في واجهات بيوتهم وشبابيكهم بسبب الجنديّ الذي قتلوه». ثمّ نظر إلى مُضيفي ليتفحّص إن كان قد أثار شيئًا من الفضول لديه، كعادته في مثل هذه الأحيان. وإن رأى معالم الفضول بادية على رفيقه، فحينذاك سيواصل الحديث ويمدّه بالمزيد. وهكذا فعل قائلًا: «تركيا تخوض قتالًا مع الأكراد. ’بي كاي كاي‘. في اليوم الأوّل الذي وصلت فيه إلى هنا، قُتل عدد من جنودهم».

أومأ مُضيفي، جاهلًا بما كان صديقه يتكلّم عنه.

لمّا وصلا إلى موقف الباص، كان عدد كبير من الطّلبة الأجانب قد سبقهم إلى هناك، وكان معظمهم، مثل مُضيفي وتوبي، قد جاء من شعوب الأمّة السّوداء. أثناء انتظار ركوب الباص، لاحظ مُضيفي، الذي كان يراقب عن كثب، الفرق بين أهل هذا البلد الغريب وأولئك الذين وفدوا من بلده. بدت أصوات الوافدين عالية صاخبة في حين أنّ أصوات السّابقين بدت مكتومة، أو رزينة هادئة. في تلك اللّحظة، مثلًا، عند مؤخّرة الباص، كان ثلاثة رجال وامرأة من شعوب الأمّة السّوداء يتجاذبون أطراف الحديث بأعلى أصواتهم، وبالإشارات وضرب الأرض بالأقدام. بينما كان كلّ اثنين أو ثلاثة من أهل البلد البيض يقفون إمّا صامتين أو هامسين وكأنّهم كانوا في جنازة.

المرأة،دِهان، من مكتب شؤون الطّلبة الأجانب، ومعها رجل أبيض، رحَّبا بالجميع. ثمّ قال الرّجل بلهجة إنجليزيّة مشابهة للهجة ندالي: «أنتم على موعد مع مشاهدة روائع هذه الجّزيرة الجّميلة. سنزور مواقع كثيرة، سنعرّج أوّلًا على أحد المتاحف، ثّم سننطلق إلى البحر، وبعدئذ سنزور متحفًا ثانيًا، ثمّ نصل إلى بقعتي المفضّلة، 'فيروشا': المدينة الخاوية على عروشها. مع أنّي عشت في هذه الجّزيرة ردحًا طويلًا من الزّمن، إلّا أنّني كلّما قمت بزيارتها تملّكتني الدّهشة والانبهار. أعجوبة من عجائب العالم».

قال أحد الطّلبة السّود من أبناء أرض الآباء: «لا أحد يعيش هناك إذًا؟».

ردّ الرّجل: «أجل، أجل أيّها الأصدقاء. لا أحد. طبعًا، الجنود الأتراك يعيشون حول المكان، لكن هم فقط. الجنود فقط. نحن لا يمكننا العبور، أيّها الأصدقاء».

شرع الطّلبة في الحديث فيما بينهم، وقد أثارت فضولهم فكرة زيارة مدينة أشباح لم يسكنها أحد طوال أكثر من ثلاثين سنة.

قالت دِهان، وقد رفعت يدها وابتسمت في مواجهة ثرثرة الطّلبة: «أوكيه، أرجو من الجميع الاستماع. يجب أن ننطلق الآن. سنأكل لاحقًا عندما نصل إلى البحر ونتجمّع فوق الشّاطئ. والآن، دعونا ننطلق».

لدى دخول الطّلبة إلى الباصات، أقبلت المرأة على مُضيفي وصديقه وسألت عمّا حصل معه، وإن عثر على جامايك أم لا؟

ردّ مُضيفي: «ليس بعد أيّتها الوالدة. شكَوْنا عليه في قسم الشّرطة، وهم يبحثون عنه الآن».

لاحظ أنّ المرأة كانت تطالع ما حولها، قلقة على الانطلاق في الموعد المحدّد، وكي ينهي الحديث ويطمئنها، قال: «أنا متأكّد من أنّني سأعثر عليه».

فقالت قبل ذهابها: «عظيم، لننتظر ونرَ».

«إيبونو»، كنتُ سعيدًا بعثور مُضيفي على مهرب من مصائبه. فخلال بضعة أيّام فقط، كان حلمه قد أشرف على التبخّر في الهواء. راقب ما حوله بتأمّل، وكان ذهنه قادرًا على أن يترك له حرّيّة فعل ذلك. في الباص، جلس مع توبي إلى جانب اثنين كانت بشرتهما تبدو كالبيض، وقال له توبي إنّهما إيرانيّان. أمّا عن الآخرين، أصحاب البشرة الدّاكنة الذين كانوا يرتدون أقمشة خفيفة، فقال إنّهم باكستانيّون. أومأ مُضيفي وأضاف توبي: «أو لعلّهم هنود».

فيما انهمك توبي في سرد تاريخ الهند والباكستان على مسامعه، لاحظ مُضيفي في مقدّمة الباص مقعدين مرتفعين فوق مصطبة، كلّ منهما على جنب، احتلّ السّائق أحدهما وجلست دِهان فوق الآخر. راقب مرور الصّحراء أمام عينيه وكأنّها في سباق. لاحظ أنّ الأرض هنا، رغم جفاف تربتها الرّمليّة، كانت مكسوّة بغطاء نباتيّ هزيل. نباتات غريبة الشّكل، بنّيّة اللّون، واهنة، عارية.

رأى جلد الأرض القاحلة وقد رمّمته أشجار كأنّها عناصر جاءت من عالم آخر. أشجار، همس في نفسه، مثلما اعتاد أن يفعل في صغره. ثمّ تلفّت من حوله خشية أن يكون قد نطق بما قاله في رأسه وسمعه المحيطون به. تفطّن بذهول إلى أنّه رأى، عبر سير الباص، قليلًا من الأشجار، لكنّ أغلبها كان على جوانب الطّرقات. فكّر كم كانت الطّرق السّريعة في نيجيريا مختلفة للغاية عن هذا الطّريق. لم تكن معظم الأراضي بين المدن في نيجيريا مأهولة. في المقابل، كانت الأراضي بين المدن هنا تعجُّ بالكازينوهات والفنادق والبيوت وأحيانًا بالجبال والتّلال. حين استوت الأرض وصار بوسع المرء أن يرمي ببصره لكيلومترات، أشارت دِهان بإصبعها وقالت: «تلك قبرص الجّنوبيّة. الشّطر اليونانيّ من الجّزيرة».

حدّق إلى الأفق، فتمكّن، بالفعل، من رؤية بنايات عالية كتلك التي في الأفلام الأميركيّة. من قام بزيارتهم في اليوم السّابق في المدينة المسمّاة «غرنه» قالوا له إنّ هذا المكان هو أوروبا الحقيقيّة، وإنّ جامايك كان هناك. تمنّى لو كان قادرًا بقدرة خارقة على أن يجد نفسه في ذلك المكان، بين تلك البنايات العملاقة، قاطعًا الطّريق ليرى جامايك. تمنّى لو أنّه قُبض عليه في بيته واستردّ نقوده ثمّ سلّمه إلى الشّرطة ليُسجن. فكّر في السّيّدة الألمانيّة وفي وعد الخلاص. وكالعادة، حين يكون شيء ما مجرّد أمل، يكون ترقّبه محفوفًا بظلال الخوف. ثمّ قاده تفكيره إلى تمنّي العثور على عمل. هنا تدخّلتُ وقدحت في ذهنه أنّ تلك المرأة الطّيّبة كانت متعاطفة معه بحقّ. «**لعلها لم ترَ في حياتها قطّ رجلًا بلغ به الانكسار حدّ التّبرّع بدمه مرّتين. ستبذل كافّة ما في وسعها لمساعدتك**».

«تشوكو»، أصبت النّجاح ثانية. إذ إنّ مُضيفي أنصت إليّ، وهدّأت كلماتي من روعه. تحوّلت أفكاره على الفور صوب تصميمه على عدم قول أيّ شيء لندالي إلّا بعد أن تسير أموره على ما يرام. سوف يجنّبها ألم معرفة ما حصل له، لكن بعد الحصول على عمل واسترداد نقوده وسير أموره في الجّامعة على ما يرام، سيخبرها بكلّ شيء، كيف أوشكت هذه الخطوة الجّديدة في حياته على دفعه صوب الدّمار الشّامل. فكّر في بكائها وتوقه الكبير إلى أن يكون بصحبتها لمّا عبروا المدينة. علا صوت دِهان قائلًا إنّ «غازي ماغوسا»، أكبر بكثير من «لافكوسا». وأضافت: «لكنّنا سنتوجّه إلى الجّزء القديم المحاط بالأسوار. إنّني أعيش هنا». ثمّ مدّت لسانها بمباهاة وتفاخر فضحك الطّلبة. قالت شيئًا للسّائق، فتحمّس الرّجل وأيّدها بصوت عالٍ، وردّ الطّلبة بصيحات الفرح.

من تلك النّقطة فصاعدًا، تغيّرت المناظر. أسوار عملاقة وحصن

شاهق من الحجارة والإسمنت وطوبٍ لم يرَ مثيلًا له من قبل. بدا كّل شيء وكأنّه لم يكن مشيّدًا بالماء والإسمنت، مادّة يستخدمها أبناء الآباء الأوّلين الآن في البناء، بل من شيء صلب وترابيّ في آن واحد. رغم أنّني عشت دورات حياتيّة كثيرة، ورافقت عددًا كبيرًا من المُضيفين عبر الزّمن، واكتسبت معارف كثيرة، إلّا أنّني لم أكن قد رأيت أيّ شيء مثل هذا من قبل. كانت الحجارة مستندة إلى دعامات حديد ضخمة، وكأنّ الأيدي التي سبكتها هي أيدي تابعي الإله «أمانديوها»[1].

سار الباص تحت قوس من تلك الحجارة التي كانت ممتلئة بالثّقوب والحُفر الصّغيرة، كما لو كان ألف رجل قد وقفوا تحتها ورجموها بالحصى طوال مئة عام. «إيبونو»، يمكنني أن أطنب في الحديث عن هذا إلى ما لا نهاية، لشدّة عجبي من تلك الأبنية. لكنّي هنا لأجل تقديم شهادتي الخاصّة بمُضيفي وأفعاله ولكي أوضح بأنّ ما ارتكبه -لو صحّ في الحقيقة- إنّما ارتكبه عن طريق الخطأ وعن غير عمد.

توقّف الباص بعد مروره من تحت القوس، وأشارت دِهان للجّميع بالنّزول. كان الباص الآخر قد وصل قبلهم، والدّليل معهم. وبعد نزول الجميع من باص مُضيفي، قال الرّجل بصوت عالٍ: «أيّها السّيّدات والسّادة، مرحبًا بكم في بلدة 'غازي ماغوسا'، المسوّرة، كما نقول بالتّركيّة، أو بلدة 'فاماغوستا'، كما نقول بالإنجليزيّة. ما ترونه حولكم الآن، هي الأسوار التي بناها البنادقة في القرن الخامس عشر».

مثل الآخرين، تلفّت مُضيفي من حوله وطالع البناء الضّخم. كان عظيمًا هائلًا حتّى أنّني رغبت في الخروج من جسد مُضيفي والتّجوّل بين حجارته الضّخمة. ورغم أنّي فعلت هذا مرّة من قبل، إلّا أنّني

(1) «أماديوها»: إله العدل عند الإيبو وهو ينطق عبر الرعد ويضرب عبر البرق. يخلقهما عبر إثارة العواصف الرّعديّة في الأرض.

خفت من أنّ الأرواح خارج بلاد «آلا أيبو»، حيث يوقّر النّاس الرّبّة العظيمة، يتّصفون على العموم بالعنف والعدوانيّة. كنت قد سمعت بأنّ في تلك البلدان تهيم أعداد عظيمة من الـ«أكاليُغوليس»، شتّى أصناف الـ«آغو»، وأرواح نصف الكرة الأرضيّة الشّماليّ، وكائنات منقرضة منذ زمن بعيد، وعفاريت. بل سمعت من الأرواح الحارسة في كهوف «أوغبونايك» و«نْغودو» قصصًا حتّى عن طرد الأرواح العنيفة لقرين حام من جسد مُضيفه واستحواذها على جسده بالقوّة. أمر لم يُسمع به حتّى بين أضعف القرناء الحماة! لهذا، أحجمت عن الخروج من مُضيفي. لكن لجأت، عوض ذلك، إلى رؤية كلّ شيء عبر عينَي الرّجل الذي جعلتَني، يا «تشوكو»، وإيّاه واحدًا.

فيما بدا اهتمام الجميع منصرفًا إلى البنيان، رصد مُضيفي الشّجر المتناثر بين الأبنية. فكّر في تشابهه مع شجر النّخيل في أرض الآباء، وإن كان هذا الشّجر بلا ثمر. كانت هناك أصناف أخرى أيضًا، صنف كانت أوراقه مثل شعر متشابك فوق رأس شخص غير مهندم. كلّما خطا الدّليل خطوة، روى معلومات تاريخيّة، وفي أعقابه، مضى جمع الطّلبة بأعين نهمة وآذان مصغية. توقّفوا ثانية وسط بنيان كانت تتوزّع بين جدرانه البيضاء المتداعية خمسة أعمدة. كانت كتلة حجريّة ضخمة، لا بدّ وأنّها كانت جزءًا من البناء، متناثرة فوق أرضيّته المغرقة في القدم. قال الدّليل وقد شخص ببصره صوب قمّة الآثار الضّخمة: «كنيسة القدّيس جورج. شيّدت إبّان المرحلة المبكرة من عمر الكنيسة، ربّما بعد مئة عام فقط على موت المسيح».

«تشوكو»، أثناء سيرهم بين تلك الأطلال، استحضرَ فجأة كيف كان، ذات مرّة، قد نام في النّهار واستيقظ ليجد فرخ الإوزّ واقفًا فوق عتبة باب غرفة الجّلوس. في الخارج، كان النّهار قد شاخ وألقى الضّوء الخافت بظلّه على الفرخ وجعله مجرّد خيال فوق الأرض.

آنذاك، لم يستوقفه هذا الأمر لأنّه لم يعنِ له الكثير، لكنّه تذكّره في الأيّام التي سبقت سفره إلى لاغوس. كان قد نام قرب ندالي، ولمّا استيقظ وجدها واقفة في المكان نفسه مثل الفرخ، وقد حوّلها الغسق إلى مجرّد خيال فوق الأرض.

كان مستغرقًا تمامًا في التّفكير عندما رنّ هاتفه. لمّا تناوله من جيبه رأى أنّ الممرّضة كانت تحاول الاتّصال به. انفصل عن المجموعة، لكن، لخوفه من جذب الانتباه إليه والتّشويش على الدّليل، قرّر ألّا يستلم المكالمة. كان بالكاد قد عاد وانضمّ إلى الجميع لمّا رنّ الهاتف ثانية. تلقّى رسالة نصّيّة، ففتحها على عجل. كانت تقول:

«صديقي، أرجو أن تكون بخير؟ وأتمنّى أن تكون أوقاتك سعيدة، أيّها الرّجل الطّيّب. لا تقلق. صديقي يقول إنّ بمقدورنا أن نقابله يوم الإثنين. لا تقلق. فيونا».

«إزوّه»، تابع رحلته بذهن حاضر، كأنّه لا يمتّ بصلة للشّخص الذي كان عليه في اليوم السّابق. كان مأخوذًا بما رآه مع بقيّة الطّلبة قرب شواطئ البحر الأبيض المتوسّط العظيم، حيث قاومتُ الرّغبة في الخروج منه ورصد هذا المكان المثير للفضول الذي كان الدّليل قد أشار إليه بقوله: «فيروشا، مدينة الأشباح». أنصت باهتمام شديد لحديث هذا الرّجل: «نجوم هوليوود، رؤساء دول كثيرة جدًا، أعداد ضخمة جدًّا جدًّا من النّاس، زاروا هذا المكان». شعر بالانبهار من تلك المباني المعطوبة المتعدّدة الأدوار، واجهاتها وجوانبها ممتلئة بالثّقوب، حجارتها سقطت من مواضعها، بعضها ممتلئ بآثار الرّصاص، صور ذكّرتني ببلدات وقرى أرض الآباء إبّان حرب «بيافرا». حدّق بشدّة في بناء لا بدّ من أنّه كان فندقًا عظيمًا ذا ردهات وممرّات ضخمة، لكنّه الآن كان خاويًا على عروشه. كانت بقربه بناية رماديّة داكنة، تآكل دهانها وتساقط فوق الأرض كقطع السّخام. حاول

قراءة اسم الفندق، لكنّ جزءًا واحدًا منه كان ما زال في موضعه، أمّا معظم الحروف المتّصلة فقد انفصلت عن الجّدار. زخرفات الثّقوب والحفر منحت هذه البناية منظرًا متفرّدًا. تخلّف عن المجموعة بعد أن استولت عليه مطالعة البيوت في الجّزء الدّاخلي من البلدة، المعزول بمتاريس وأسلاك شائكة. كانت أبواب البيوت قد سقطت من مواضعها وانطرحت أرضًا. لكنّ أحد الأبواب بقي منحنيًا بتضرّع وقد أسند بقيّة جسده إلى شرفة البيت. في الطّرقات، اتّشحت الشّوارع بنباتات صلبة العود، نباتات عنيدة استطالت وامتدّت وعربدت فوق الواجهات القديمة والجّدران.

فتحت البلدة في ذهنه كوّة لم يستطع إغلاقها طوال بقيّة الرّحلة. أثّر فيه «البيت الأزرق»، الذي كان القائد اليونانيّ صاحب الاسم الغريب، والذي قال الدّليل إنّه كان وراء اندلاع الحرب بين الأتراك والقبارصة اليونانيّين، قد بناه لأولاده. لكنّه ظلّ يفكّر في الأماكن الأخرى التي أخبرهم الدّليل عنها، المطار بطائراته، والمطاعم، والمدارس، وكيف أصبحت الآن مهجورة. وصلوا إلى مكان قال الدّليل إنّه متحف الحرب. فتذكّر على الفور متحف حرب «بيافرا» في «أوماهيا» الذي زاره في صغره برفقة والده. في خصوص تلك الزّيارة، «إيبونو»، أنا لا أعلم تفاصيلها لأنّني لم أكن شاهدًا حيًّا عليها. أمّا سبب ذلك، فهو تلك الدبّابة التي وقع بصر مُضيفي عليها حال دخوله مع والده إلى المتحف. ذلك أنّ تلك الدّبّابة نفسها كان أحد مُضيفيّ السّابقين، إجِنكيوني، قد قادها خلال حرب «بيافرا». وعلى الفور، غمرني حنين طاغٍ إلى الماضي من صنف ما يستولي على القرين الحامي لدى مصادفته نصبًا أو قبرًا لمُضيف سابق. ولهذا، خرجت من مُضيفي الصّغير ودخلت إلى الدّبّابة التي كنت قد ركبتُ فيها مرّات كثيرة إبّان عام 1968، أثناء قيادة إجنكيوني لها. إنّ الماضي شيء غريب بالنّسبة لنا، نحن معشر

القرناء الحماة، فنحن لسنا بشرًا. فور أن جلستُ في الدّبّابة، تجسّدتْ أمامي مشاهد المعارك الدّمويّة، وكيف سارعت الدّبّابة ذات مرّة إلى الفرار من قصف جوّيّ فبترت الشّجر وداست الجثث، ومُضيفي بداخلها يبكي بكاء مريرًا. كانت تلك الزّيارة لحظة مهولة، وكنت قد قضيتها داخل الدّبّابة أثناء قيام مُضيفي الصّغير وبقيّة الزّوّار بتفحّصها، مقلّبين أنظارهم فيها، لكن من دون أن يبصروا المخلوق الجّالس في مقعدها المهترئ، مخلوقًا ما زال، حتّى بعد عقود طويلة، يميّز رائحة الدّم الجّافّ داخلها.

بعد متحف الحرب في هذا البلد الجّديد، توجّهوا إلى منطقة «الخطّ الأخضر»، رجوعًا إلى «لافكوسا»، فرأى حينذاك قبرص الأخرى، بلدًا مختلفًا، مفصولًا بأسلاك شائكة فقط. ذكّره هذا بالقصص التي رواها والده له عن «بيافرا». تأثّر بمنظر «متحف الهمجيّة»، الذي قال الدّليل عنه: «لا تدخل معنا إن كنت تكره أفلام الرّعب». ثمّ مضوا إلى داخل المتحف، الكلّ تقريبًا. في المدخل المزدحم، رأى حوض الاستحمام الذي قُتلت فيه امرأة مع أطفالها رميًا بالرّصاص، دماؤهم تُركت على حالها فوق الحوض والحائط، على نحو ما كانت عليه في العام الذي يسمّيه الرّجل الأبيض عام 1963. قال الدّليل أثناء تحديقهم إلى المشهد البشع: «الدّماء فوق الحائط أطول عمرًا من كافّة الحاضرين هنا».

تذكّر هذا، ولازمَته تلك الكلمات لفترة طويلة بعد انتهاء الرّحلة وعودته مع توبي إلى الحرم الجّامعيّ. لكنّ أيًّا من ذلك لم يؤثّر فيه مثل مدينة الأشباح. أرهقته كثيرًا، حتّى أنّه حين غفا فوق الكنبة في ذلك العصر، حلم بـ«فيروشا».

رأى في المنام أنّه يلاحق فرخ الإوزّ المهرول صوب البيوت المهجورة. طارده متجاوزًا طوق الجّنود الأتراك الذين كانوا يراقبون من فوق أسطح البنايات. ركض الطّائر، لكنّ الحبل المعقود في رِجله

اليسرى أعاقه. عبر إلى بناية كان بابها متّكئًا على شرفتها. لحق بالطّائر، وقد تسارعت نبضات قلبه. فاحت من أرجاء البيت رائحة العفونة، وكانت طبقات الغبار والتّراب متقيّحة على الأرضيّة. أبصر الفرخ قافزًا على الدّرج، الذي تغيّر لونه من الوسخ والخمج المنتشر في أرجاء البيت. تصدّع الدّرابزين ونمت كُتل من الفطريّات في الشّقوق. ثمّة قميص فوق باب مكسور، استرق نظرة إلى الدّاخل، رأى قطع الأثاث المقلوب رأسًا على عقب مكبّلًا بشِباك عنكبوتيّة هائلة. كان يلهث وقد تصبّب عرقًا، أمّا الفرخ، فتابع التّسلّق، بهمّة ونشاط، ملتفًّا مع التفاف الدّرج، وكأنّ خارطة طريقه كانت واضحة ووجهته معلومة. أخيرًا، وجد نفسه على السّطح. لم يدرِ لماذا، لكنّه صرخ على الفرخ طالبًا منه أن يتوقّف، ألّا يذهب، فالتفت إليه. لكنّ الطّائر وثب في الهواء وهبط صوب الشّاطئ. قفز خلفه بذعر وطيش، غافلًا في هول تلك اللّحظة عمّا في ذلك من خطر وتهوّر. كان يتردّى ويصرخ، متّجهًا صوب هلاك محتوم، لمّا أفاق من النّوم. كانت الشّمس قد غربت تقريبًا، وكانت أطيافها الضّخمة التي لا نهاية لها قد أصبحت معتمة. فتح عينيه فرأى توبي واقفًا في الغرفة، وعيناه فوق ساعة يده. كان سيواصل التّفكير في حلمه البشع، لولا أنّ توبي قال: «لم أرغب في إيقاظك. لكن حريّ بنا أن نذهب إلى شقّتنا قبل أن يأتي عاطف ويحضر الطّلبة الجدد إلى هنا».

أومأ ثمّ التقط هاتفه. كانت هناك ثلاث محاولات اتّصال من ندالي، لكنّه لم يسمع رنين أيّ منها لأنّ هاتفه كان مغلقًا. ثمّ انتبه إلى رسالة نصّيّة فتحها على الفور: «أُبِم، هل أنت بخير؟ أرجوك، اتّصل بي، أوكيه؟». أراد الاستفسار من توبي عن كيفيّة إرسال رسائل نصّيّة إلى نيجيريا. المرء بحاجة إلى إضافة رموز وأرقام إضافيّة لأجل الاتّصال، لكن ماذا عن إرسال الرسائل؟ عوض ذلك، هرع إلى غرفته كي يستعدّ

للخروج. أثناء حزم حقائبه، تنبّه لأنّه لم يقرأ رسالتها بعد. قرّر إرجاء قراءتها إلى حين الوصول إلى شقّته الجّديدة.

«أَغوجِغبه»، بعد وصولهما إلى شقّتهما الجّديدة ونقل أمتعتهما إلى غرفتَيْهما، تناول حقيبته وفتّش عن الرّسالة حتّى عثر عليها مخفيّة داخل أحد الجّيوب الصّغيرة، ومطويّة عدّة طيّات. ثار في نفسه التّساؤل عن الوقت الذي كتبتها فيه. أكان ذلك في اللّيلة الأخيرة، عندما بكت طوال الوقت وأصرّت على جلوسهما فوق المقعد تحت الشّجرة في الفناء؟ كانا قد جلسا هناك، وسط النّسيم العليل، منصتَين إلى الأصوات الصّادرة من الشّوارع المحيطة.

ارتعشت يداه حال فرد قطعة الورق المطويّة، كانت من أحد دفاترها المخطّطة بسطور زرقاء. وضعها على السّرير، ثمّ استلقى على ظهره، تناولها ثانية كي يقرأ كما قالت له إنّها الطّريقة المثلى للقراءة، أن يتلو على نفسه ما هو مكتوب بصوت عالٍ:

عندما تقرأ، تحديدًا الإنجيل، قله لنفسك. احكِه بصوت عالٍ، لأنّ الكلمات يا ننسو كائنات حيّة. لا أعرف كيف أفسّر هذا لكنّه أمرٌ أعرفه وحسب. أعرف أنّ كافّة ما نقوله، كافّة ما نقوله، حيّ. إنّني على يقين من ذلك وحسب.

رفع بصره إلى أعلى ثمّ جال به فوق حقائبه قبل أن يقرأ الجّملة اللّاحقة التي كانت واقفة بمفردها فوق السّطر.

أُبِم، إنّني حزينة. إنّني حزينة للغاية.

«إيبونو»، نحّى الرّسالة جانبًا، إذ كانت دقّات قلبه قد تسارعت. سمع صوت موسيقى بدأ يعلو، ربّما من حاسوب توبي. شعر بأنّ خاطرًا ما ومض في ذهنه، لكنّه لم يستطع سبر كنهه. كان متأكّدا من أنّه لم يكن قد نسيه ببساطة، إذ أنّ ذلك الشّيء لم يكن قد تشكّل تمامًا في ذهنه، بل ومض ثمّ تلاشى.

أعترف بأنّني أردت أن أتركك في كثير من المرّات. وعندما كنت في لاغوس، قرّرت أن أرسل لك رسالة نصّيّة أخبرك فيها بأنّي سأنهي علاقتي بك. في الحقيقة، قمت بطباعة كلّ شيء لكنّ قلبي لم يطاوعني. وهذا لأنّني أحبّك. أحسّ أحيانًا أنّي أريد أن أتركك بسبب عائلتي، لكنّني أشعر كما لو أنّ شيئًا ما منعني من ذلك. أشعر كما لو أنّك قبضت عليّ، مثل دجاجاتنا. أشعر كما لو كنت لا أستطيع الفرار. لا أستطيع الفرار، يا ننسو، على الإطلاق. بل إنّهم سألوني ذات ليلة لماذا أحبّك...

«إجانغو إجانغو»، كما يقود القلب رجلًا مضطربًا غالبًا إلى الظّلال، في مثل هذه اللّحظة (ولحظات كثيرة عشتها)، ركّزت عيناه على مشحة حبر انتشرت في الصّفحة انطلاقًا من تلك الكلمة، «أحبّك»، وجعلتها تبدو كلمة أخرى، «أحيك».

وهو سؤال لم أعرف له جوابًا لوقت طويل يا ننسو. أجل، كنت أريد العثور على الرّجل الطّيّب الذي ساعدني فوق الجّسر في تلك اللّيلة، لكنّي لم أتمكّن من تفسير كيف أصبحت على علاقة حميمة بك بعد أن التقينا ثانية. كنتُ معجبة بك لكنّي كنتُ أجهل السّبب. لكن يوم وقفت في وجه الصّقر، عرفت في ذلك اليوم أنّك على استعداد لفعل أيّ شيء لحماية من تحبّه. عرفت أنّني لو منحت قلبي لهذا الرّجل، فإنّه لن يخذلني أبدًا. عندما أرى الحبّ الذي تمنحه للحيوانات العاديّة، أعرف بأنّك ستمنحني حبًّا أعظم، رعاية أعظم، مساعدة أعظم، كلّ شيء أعظم. هذا هو السّبب الذي أحبّك لأجله يا ننسو. أترى الآن لماذا أحبّك؟ ألستُ على حقّ؟ من بمقدوره أن يفعل هذا؟ كم رجلًا في نيجيريا، بل في العالم كلّه، بمقدوره أن يبيع كلّ ما يملكه لأجل امرأة؟ هل أنا محقّة الآن أم لا؟

نبرة سؤالها الأخير الذي أكّدت عليه برسم خطّ تحته، أسقطت الورقة من يده، إذ كان قلبه ينبض بسرعة الآن. في البداية، لم يعرف لماذا، لكن من الفراغ داخل ذهنه، رأى أمّه وأباه ونفسه خلال يوم النّظافة البيئيّة في العام الذي يسمّيه الرّجل الأبيض عام 1988. كانوا ينظّفون أمام بيتهم. كان والداه يراقبانه ويصفّقان له بعد أن كانت أمّه قد تهكّمت على أبيه لعجزه عن كنس المكان جيّدًا. وكان والده قد اشتكى من أنّ المكنسة رديئة. أثناء كنسه، تساقط منها كثير من عيدان الخيزران. قامت أمّه، بعد انتزاع المكنسة من والده، بإعطائها له وهي تقول لوالده: «سترى أنّه سيكنس الأرض أحسن منك». بعد تناول المكنسة، قام، وهو ابن ستّ سنوات فحسب، بكنس الأرض وهو يتلقّى تهليل وتشجيع والديه.

صعق الآن حين خطر له بأنّ ذلك المكان لم يكن غير المكان الذي أقدم على بيعه. أعاد قراءة الفقرة التي أشارت فيها إلى أنه الرّجل الوحيد في العالم الذي بمقدوره أن يفعل أمرًا كهذا. ثمّ خطرت له فكرة. ماذا لو اتّصل بالرّجل الذي اشترى منه المكان وأخبره بتعليق صفقة البيع لأجل، وبأنّه سيسدّد له ثمنه بالإضافة إلى فائدة؟ يمكنه أن يدفع قسطًا كلّ شهر، كلّ شهر، إلى أن يسدّد المبلغ كاملًا بالإضافة إلى عشرة في المئة. كان يكاد يقفز من مكانه حين داهمه ذلك الخاطر. سيتّصل بإلوتشوكو في اليوم التالي، ثمّ بندالي، وسيطلب منهما أن يذهبا إلى الرّجل ويطلبا منه تجميد صفقة بيع البيت.

«إجانغو إجانغو»، شعرتُ أنا أيضًا بفرحة عارمة جرّاء هذه الفكرة. فبيع الأرض لم يكن من عادات وتقاليد الآباء الأوّلين. كانت الأرض مقدّسة عندهم، أعطية من الرّبّة «آلا» نفسها، ولم يكن الرّجل يملك هذه الأعطيّة، بل كانت ملكًا لنسله من بعده. ومع أنّ الرّبّة «آلا» لا تعاقب من يبيع أرضه، إلّا أنّ فعل هذا الأمر يُغضبها. في غمرة هذا

الارتياح العظيم الذي ولّده فيه هذا القرار، التقط الرّسالة ثانية، حوافّها رطبة الآن من عرق راحتيه، وتابع قراءة ما فيها.

إنّني أعرف نفسي جيّدًا. منذ اليوم الأوّل، عرفت بأنّك كنت رجلًا أصيلًا. عرفت بأنّك كنت الرّجل الذي هيّأه الرّبّ لي. وأريدك أن تعرف بأنّني أحبّك وبأنّني سأنتظرك. لذا، كن سعيدًا، أرجوك.

حبيبتك،

ندالي

16

طيور بيضاء

«إيبوبديكي»، يتحدّث الآباء العظماء عن الرّجل القلق الخائف وكأنّه أسير مصفّد بالأغلال. وهم يقولون هذا لأنّ القلق والخوف يسلبان الرّجل سلامه وطمأنينته. وما الرّجل بلا سلام؟ إنّه، كما يقولون، رجل ميت من الدّاخل. لكنّ هذا الرّجل حين ينتفض ويخلّص نفسه من القيود، وتهتزّ السّلاسل وتتهاوى بعيدًا في الظّلمة الخارجية، يصبح حرًّا مرّة ثانية، وكأنّه وُلد من جديد. وكي يتّقي مغبّة الوقوع ثانية في أسر العبوديّة، يعمد إلى نصب متاريس دفاعيّة حول نفسه. ماذا يفعل إذًا؟ يسمح بتسلّل خوف آخر إلى نفسه. هذه المرّة، ليس الخوف من الهلاك بسبب ظروف راهنة معلومة، بل الخوف ممّا قد يحصل في زمن لم يُخلق ولم يُعلم بعد، خوف من شيء آخر سيجري على نحو خاطئ وسيحطّمه من جديد. بالنتيجة، يعيش في حلقة تدور حول الماضي، المرّة تلو الأخرى. فيصبح مُستعبَدًا من قِبل شيء لم يأتِ بعد. رأيت هذا مرّات ومرّات.

رغم أنّ وعد مُضيفي بالخلاص بقي راسخًا في مكانه، فالممرّضة منذ لقائهما الأخير بعثت رسالتين نصّيّتين، وفي المرّة الثّانية أضافت صورة وجه أصفر ضاحك، ونعتته ثانية بـ«الرّجل الطّيّب»، إلّا أنّ الخوف تسلّل إلى نفسه بعد قراءة رسالة ندالي. كبّله الخوف حتّى النّزع الأخير من اللّيل، قادحًا في ذهنه مشاهد حميمة جمعت ندالي

برجال آخرين. لم ينعتق من أسره إلّا في السّاعات الأولى من الفجر حين قرع توبي بابه، وسأله إن كان يودّ الذّهاب معه إلى الكنيسة. قال توبي من خلف الباب: «إن أتيت، فسوف تلتقي بكثير من النّيجيريّين. أوكّد لك بأنّك ستقضي وقتًا طيّبًا. ستتمكّن من شكر الرّبّ على كلّ شيء، كما يمكننا، أيضًا، شراء بعض اللّوازم من السّوق. علينا أن نبدأ في طهو الطّعام قبل البدء في الدّراسة الجّامعيّة غدًا». ووافق مُضيفي على الانضمام إلى صديقه.

في وقت لاحق، سارا في شارع بدا له مثل ذاك الذي قطعه سيرًا على قدميه يوم الخميس، فور طرد صاحب التّاكسي له. كانت الشّوارع ضيّقة، وبدت البنايات كأنّها ملتصقة. صالون حلاقة مبنيّ من الزّجاج كان على قارعة الطّريق. رجل كان يدخّن أمامه، نافثًا سُحبًا من الدّخان في الهواء، صاح فيهما لدى مرورهما به: «أراب!».

فصاح توبي فيه: «أبوك أراب!».

قال مُضيفي: «أبوك وأمّك والجميع أراب!».

كان توبي قد نبّهه إلى أنّ هذه الكلمة إنْ وُجّهت له، فإنّ المقصود منها هو نعته بالعبد.

«لا تكترث لهم، إنّهم بلهاء. أرأيت ثياب ذلك الرّجل؟ أرأيت قذارتها؟ ومع ذلك، ينعتنا نحن بالعبيد! إنّهم في منتهى الغباء».

دلفا إلى شارع منعزل كانت بوّابات بيوته تشبه تلك التي في نيجيريا. وفي كلّ زاوية، كان يقبع صندوق معدنيّ ضخم أخضر اللّون. لكن في أحد الشّوارع التي مرّوا فيها، أشار توبي إلى مبنى وقال له إنّ البيض يحبّون القدوم من أوروبا لرؤيته. كانت حجارته منحوتة من صخر الأرض، ولم يكن مثل أيّ شيء رآه مُضيفي أو أنا من قبل. بعث الموقع حبورًا في نفسه. معبد إله إغريقيّ أو رومانيّ، رجّح توبي بصوت عالٍ، ولعلّه فعل ذلك لإسماع العجوز الأوروبيّ الذي كان يلتقط صورًا

للموقع. معبد قديم أكل الدّهر عليه وشرب، جماله العتيق عالق تحت جلد أطلاله. رغم ذلك، ظلّ محتفظًا بسحرٍ حوّله إلى فرجة للنّاظرين. جمال وسط الخرائب: كان هذا شيئًا غريبًا.

عندما انعطفا إلى شارع قال توبي إنه قرب الكنيسة، أبصرا أشخاصًا آخرين من لون الآباء العظماء، كانوا أربعة رجال متّجهين إلى الكنيسة. مع هؤلاء، دخلا إلى الكنيسة. كانت ممتلئة بالنّاس، وثمّة رجل رآه في شقّة النّيجيريّين في الحرم الجّامعيّ، جون، يرشد الوافدين إلى مقاعدهم. كان المكان غاصًّا بالطّلبة السّود وبعض البيض كذلك. رجل أبيض مختلف، لم يكن على شاكلة الأتراك، بل يشبه أولئك الذين حكموا أرض الآباء لسنوات طويلة، كان واقفًا في صدر الكنيسة داخل المذبح، متكلّمًا بلهجة تطابق لهجة ندالي، فعرف على الفور بأنّ الرّجل كان بريطانيًّا. تحدّث الرّجل عن ضرورة التّرتيل من أعماق القلب. قعد مع توبي في الصّفّ الأخير، خلف رجلين شعر بأنّهما مألوفين بالنّسبة له.

فكّر في كنيسة طفولته، تلك التي توقّف عن ارتيادها. فقد توقّف والده عن الذّهاب بعد وفاة والدته، غاضبًا من الرّبّ لسماحه بوفاة زوجته أثناء الولادة. لكنّ مُضيفي ظلّ يتردّد على الكنيسة، ولو بشكل مقتصد، إلى أن أثّرت فيه حادثة تتعلّق بفرخ الإوزّ وحملته على تغيير رأيه. بعد إصابة الفرخ بمرض منعه من تناول الطّعام وحتّى المشي، خطر له أن يحمل فرخه إلى أحد الكنائس التي سمع أنّ رجلًا ضريرًا استعاد بصره فيها بقوّة الإيمان. هكذا، حمل فرخه إلى تلك الكنيسة وهو يضمّه إلى صدره. لكنّ حاجب الكنيسة منعه من الدّخول بعد أن ظنّه معتوهًا لأنّه جلب حيوانًا إلى الكنيسة. أجهزت تلك الحادثة على إيمانه بدين الرّجل الأبيض. لماذا لا يُعنى الرّبّ بحيوان مريض إن كان يُعنى بالبشر؟ في ذلك الوقت، كان من العسير عليه أن يفهم لماذا لا

يمكن للمرء أن يحبّ طائرًا مثلما يحبّ عموم النّاس. أملًا في لجوئه إلى دين الآباء الأتقياء، شجّعته على هذا القِرار، وأضفت إلى جملة أفكاره أنّه إن حمل حيوانه وقصد مقامًا لـ«أدِناني»، فلن تطرده الرّبّة «آلا» أو «انْجوكو» أو أيّ من الآلهة. لكن مثل الكثيرين من أبناء جيله، كان التّفكير في مثل هذه الأمور أمرًا ممنوعًا.

أصغى باهتمام لمّا بدأ الواعظ في الحديث عن القيامة والحياة. تحدّث الرّجل عن «جيسوس كرايست» وكيف مات وبُعث إلى الحياة من جديد. لكنّ النّعاس تسلل إلى جفنيه لدى حديث الرّجل، بصوت يعلوتارة وينخفض تارة أخرى، عن أنّ المسيحيّة الحقّة هي السّبيل الوحيد الذي يتيح للمؤمن حياة من الانبعاث والنّهوض ثانية بعد السّقوط. وعندئذ فتح عينيه، إذ إنّ كلام الرّجل وقع في نفسه. شهد بنفسه كيف يمكن أن يتردّى الإنسان، في لحظة ضياع، داخل هوّة بلا قرار ثمّ يقوم ويُبعث من جديد. بعد انتهاء الرّجل من عظته، قاموا بالتّرتيل والإنشاد، ثمّ اختتمت الصّلاة وبدأوا بالانصراف. بينما النّاس يتركون مقاعدهم، طبطب رجل على كتفه. فقال مُضيفي بدهشة:

«يا إلهي، تي تي!».

«أوه! إنّني سعيد برؤيتك هنا».

«أجل يا أخي».

«كيف الحال، هل قابلت صديقك بعد أن تركتك في المطار؟».

«لا».

ثمّ روى مُضيفي لـتي تي كلّ ما جرى معه. ولمّا انتهى، كانا يقفان خارج بوّابة الكنيسة، وكان توبي، الذي ذهب لإلقاء التّحيّة على بعض الأشخاص، قد جاء للوقوف إلى جانبه. عندئذ قال تي تي: «أجور الكازينو جيّدة جدًّا هنا. فعلًا، الرّبّ أرسل هذه المرأة في طريقك، أوه. بعض التُركا أناس طيّبون. هناك امرأة أخرى مثل هذه تمدّ يد

المساعدة إلى كثير من النّاس. منحت شابًّا نيجيريًّا منحة دراسيّة، سيف. كان الشّابّ يشتغل عندها، وعوض أن تدفع أجره فقط، طلب منها أن تسدّد أقساطه الدّراسيّة».

«همم، أناس طيّبون حقًّا».

«أجل، أجل، لكن عليك بالحذر، إه. فالنّاس أحيانًا تصبح كانجي».

ضحك تي تي ثمّ قال: «سجّل رقم هاتفي».

«**أُنوان إتْرِوها**»، لمّا رجع مع توبي إلى الشّقّة، كان قد حلّ الظّلام. تناول هاتفه، فعثر على رسالة نصّيّة من ندالي تقول فيها: «ننسو، هاتفني رجاء في الغد». هزّ رأسه. ثمّ ضرب رقمها، لكنّه لم يسمع سوى ضجيج صوت مشوّش طويل. عقد النّيّة على الإتّصال بها بعد أن يكون قد ضمن عمله، وبعد التأكّد من أنّه سيستردّ ما خسره. حين يتّصل بها، سيخبرها بكلّ شيء، كلّ شيء من عتبة المطار وحتّى لقاء فيونا.

ارتمى على الكرسي داخل غرفته، وأخذ يفكر في كل أيامه التي قضاها في هذا البلد الجديد. ثم تناول حقيبته وأخرج صور «ندالي» العارية. خلال تحديقه فيها، اشتعلت النيران في جسده. ففك سرواله. ثم هرول وأحكم إيصاد الباب كي لا يتمكن «توبي» من الدخول ساعة يشاء. وضع أذنه فوق الباب لالتقاط أي صوت لـ«توبي»، وحين لم يسمع أي شيء، تطلع في صور «ندالي» العارية وبدأ في ملامسة نفسه، لهث، تأوّه إلى أن أصابه الذبول والارتخاء.

«**أكاتاكا**»، بين أهل هذا العالم، أينما وجدوا، ثمّة خيط مشترك من التّعاطف نحو الإنسان الجّريح، أو الفقير، أو المُعدم. إن رجلًا كهذا يستحقّ بالنّسبة لهم العطف والشّفقة. ولو اعتقد هؤلاء بأنّ رجلًا كهذا تعرّض للغبن والظّلم، فسيودّ كثير منهم مدّ يد العون له. رأيت هذا

مرّات ومرّات. لهذا السّبب، فإنّ بوسع امرأة بيضاء في بلد أجنبي أن ترى رجلًا من أرض الآباء، محطّمًا ممزّقًا، وأن تقوم بعرض المساعدة عليه، وعبر هذا العرض، تحيي في نفسه ترقّبًا مفرحًا.

استيقظ صباح اليوم اللّاحق، بعد أن حظي بليلة ثانية من النّوم العميق منذ وصوله إلى البلد الغريب. كان التّرقّب قد طغى على مشاعره حتّى أنّه اتّصل بإلوتشوكو وأخبره أن يذهب على الفور إلى الرّجل الذي باع له الأرض ويطلب منه ألّا يفعل أيّ شيء، ويقول له إنّه سيردّ له ماله. فسأله إلوتشوكو بحيرة: «كيف سيقبل بذلك إن لم تردّ له ماله في الحال؟».

«قل له إنّي سأردّ له ضعف ما دفعه لي. يجب أن نوقّع على اتّفاق بهذا الشّأن؛ سأسدّد له ضعف القيمة خلال ستّة أشهر. وبعدئذ سأتمكّن من استرداد بيتي».

وعده إلوتشوكو بالذّهاب إلى الرّجل والحديث معه. بعد أن اطمأنّ، اغتسل مُضيفي وانضمّ إلى توبي الذي جهّز طبَقًا من البيض المقليّ. تحدّث توبي عن صعوبة العثور على خبز شهيّ في ذلك الصّباح، قال: «الخبز لديهم مثل الحجارة».

ضحك مُضيفي. وتابع توبي قائلًا: «لا أفهم هؤلاء النّاس على الإطلاق. ولا حتّى رغيف خبز واحد في المتجر برمّته».

ردّ مُضيفي قائلًا: «هل رأيت فيلم ’أوسوفيا في لندن‘؟ هيه، ذلك المشهد الذي ذهب فيه إلى مكان وطلب خبز إيجيجي فبدت إمارات الدّهشة على وجوه البِيض وكأنّهم مومو؟».

جلسا يأكلان وقد داهمهما صمت مفاجئ. فكّر في أنّ الصّباحات مختلفة هنا. لم يكن قد سمع صياح أيّ ديك، ولا النّداء إلى الصّلاة من أيّ مؤذّن. حضرته الصّورة التي تذكّرها في اليوم السّابق ورأى ندالي وهي شبه عارية، واقفة فوق عتبة باب غرفة الجّلوس. كانت

واقفة هناك وقد نأت ببصرها عنه، تدير ظهرها له، وكأنّه شيء مرهوب الجّانب. لم يتذكّر ماذا فعل-هل ناداها؟ هل أعرض عنها؟ لم يستطع أن يحزر بالضّبط.

قال توبي من جديد: «هؤلاء النّاس يلتزمون بالوقت. إن قالوا لك في العاشرة، ففي العاشرة إذًا. لو قالوا لك في الواحدة، ففي الواحدة إذًا. لذا علينا أن نسرع بالذّهاب إلى مكتب تأجير البيوت كي تستلم مفاتيحك وبعد ذلك بمقدورك أن تنتظر تلك المرأة».

أومأ وقال: «وهو كذلك يا صديقي».

«اتّصلت أمس بعاطف، وأخبرته بأنّنا عثرنا على سكن جديد. سألني عنك. سأذهب إلى مكتبه بعد إجراءات التّسجيل وحضور محاضرتي».

لكنّ مُضيفي ردّ قائلًا: «شكرًا لك يا أخي».

لم يركّز في كلام صاحبه، إذ كان تركيزه منصبًّا على المهمّة التي أوكلها إلى إلوتشوكو وفرصة العمل التي كانت فيونا ستأخذه لمقابلة صاحبها بعد قليل. قاما بتنظيف الطّاولة ثمّ تركا البيت. حمل توبي حقيبة فيها حاسوبه وكتبه. كانت الحقيبة تشبه الحقائب المدرسيّة التي يحملها الأطفال على ظهورهم، مثلما كان توبي نفسه يحمل حقيبته. كان مُضيفي يحمل الحقيبة التي أعطته ندالي إيّاها، وبداخلها وثائقه، ورسالتها، وصورها، كما دأب منذ سفره إلى هذا البلد.

عثرا على مكتب التّأجير داخل وسط البلد، محشورًا داخل منطقة مليئة بمتاجر بيع الثّياب والمجوهرات. رُصّ الشّارع الضّيّق بالمتاجر والمطاعم ومقاهي الإنترنت ومسجد صغير. كان الحمام يقفز هنا وهنا، منقّبًا في الأرض عن شيء من الطّعام. وجدا هنا كثيرًا من البِيض المختلفين عن الأتراك. قال توبي إنّهم أوروبيّون أو أميركيّون. ثمّ كرّر القول بإصرار: «إنّهم مختلفون. هؤلاء الأتراك ليسوا بيضًا حقيقيّين. إنّهم يشبهون العرب أكثر. أتدري كيف... هل رأيت أهل السّودان

من قبل؟ سواد بشرتهم مختلف عن سوادنا. هذا هو الاختلاف الذي أعنيه».

كانت مجموعة من البِيض المختلفين الذين تحدّثا عنهم تمشي في الشّارع. مرّت عنهما صبيّتان، عاريتان تقريبًا، كلّ منهما في نصف شورت وصدريّة وشحّاطة، وفي يد إحداهما منشفة. قال توبي: «يا إلهي، أرأيت أومو!».

فضحك مُضيفي وقال: «ظننتك قد ولدت من جديد».

«أجل. لكن أتدري؟ هاتان الفتاتان لا بأس بهما. لكنّ الفتيات التّركيّات يتفوّقن عليهنّ. أمّا النّيجيريّات فما يزلن في الصّدارة».

«إيبونو»، لمّا دخلا إلى المكتب، كان الهواء ممتلئًا بدخان السّجائر، وثمّة امرأة سمينة بيضاء جالسة في مقعد وهي تدخّن. لاحظتُ فوق الباب تعويذة دائريّة، لونها من لون «أُزميري»، وفي وسطها دائرة بيضاء داخلها شيء يشبه العين البشريّة. ولأنّها بدت إلى حدّ بعيد مثل التّعويذة، خرجت من مُضيفي كي أرى إن كانت تمثّل خطرًا عليه. على الفور رأيتُ روحًا غريبة على هيئة ثعبان ملتفّ حول ذلك الشّيء. كان منظر هذا المخلوق مرعبًا حتّى بالنّسبة لي أنا، قرين حامٍ حيّ يسافر بانتظام عبر سهول الأثير. هربت على الفور ولجأت إلى جسد مُضيفي. لمّا عدت إلى مُضيفي، كانت المرأة تعدّ النّقود التي دفعها توبي. عندما خرجا من المكتب ومعهما المفاتيح، انتاب مُضيفي شعور طاغٍ بالارتياح. كانت السّاعة في تمام العاشرة تقريبًا، فمشيا باتّجاه موقف الباص. وما إن وصلا إلى هناك حتّى وصلت فيونا بسيّارتها، كانت في فستان أبيض وحول عنقها عقد لامع. صافح توبي مودّعًا وركض نحو السّيّارة. قالت فيونا فور ركوبه: «تبدو سعيدًا».

«أجل، فيونا. شكرًا لك. هذا بفضلك».

«أوه، لا، أرجوك. لم أفعل أيّ شيء. لقد كنتَ في ورطة كبيرة».

أومأ قائلًا: «استأجرت شقّة مع صديقي».

«آه، عظيم. عظيم جدًّا. سيساعدك هذا نفسيًّا، أعني، قليلًا من الشعور بالاستقرار».

ردّ بالإيجاب. فقالت: «صديقي إسماعيل في المكتب. إنّه بانتظارك».

لاحظتُ تعويذة حول معصم المرأة تشبه تلك التي كنت قد رأيتها في مكتب تأجير الشّقق. فقدحت المشهد في ذهن مُضيفي وحوّلت انتباهه لمعصم المرأة، كان قد انتابني الفضول لمعرفة المغزى منها. وعلى نحو لم أتوقّعه، «تشوكو»، تكلّل مسعاي هذا بالنجاح. إذ قال مُضيفي: «إز ما».

«نعم؟».

«هذا الشّيء الأزرق الذي يشبه العين، أراه في كلّ مكان هنا، ما الذي يعنيه؟».

رفعت المرأة يدها في الهواء وقالت: «أوه، أوه. عين الحسود. إنّها، أعني، مثل تعويذة لجلب الحظّ. لها شأن عظيم بين الأتراك».

أومأ مُضيفي برأسه، مع أنّه لم يفهم تمامًا معنى هذا الشّيء. لكنّي شعرت بالارتياح لمعرفة أنّه لم يكن سوى أمر طقوسيّ شخصيّ، وليس شيئًا يمكنه إلحاق الضّرر بمُضيفي.

سارت بهما السّيّارة على أنغام موسيقى منسابة من السّمّاعات. سألته عن أصناف الموسيقى التي يحبّها، لكنّه حين عدّدها، لم تتعرّف على أيّ منها. ذُهل، حال انتهائه من الكلام، لأنّه لم يذكر المغنّي «أوليفر دي كوك». بل إنّ مجرّد تذكّر اسمه أزعجه، كما لو أنّ «دي كوك» اقترف فعلًا منكرًا بحقّه. ثمّ أدرك أنّه بات يربط في ذهنه بين ذكرى ما تعرّض له من إهانة في بيت أهل ندالي و«دي كوك» نفسه، الذي أحيا الحفل في ذلك اليوم. وأنّ استياءه الآن من هذا المغنّي يعود

لهذا السّبب. قالت المرأة: «هذا 'إمري آيدِن'، مغنٍّ تركيّ ماهر بالغناء. يعجبني للغاية». ضحكتْ واختطفتْ نظرة صوب مُضيفي، ثمّ قالت: «لقد شغلتني حكايتك يا سولومن وفكّرت فيها. حكاية مؤلمة جدًّا».

أومأ مُضيفي، وتابعت المرأة قائلة: «ذكّرتني بكتاب قرأته مؤخّرًا حول رجل طلبتْ منه زوجته أن يلتحق بالجّيش خلال الحرب، ولمّا فعل، انتابتْ زوجته الظّنون والشّكوك حيال تصرّفات وأفعال الجّيش. أعني، جيش هتلر النّازي. لهذا تركت زوجها. كتاب صعب للغاية. فأنت تُقدم على فعل أمر عظيم بسبب المرأة التي تحبّها، ولكنّك تخسرها في النّهاية. لا أعني أن هذا سيحصل معك، لا تسئْ فهمي».

هزّت يدها يمينًا وشمالًا وتابعت القول: «ستكون بخير وخطيبتك ستكون هناك في انتظارك... أنا متأكّدة من ذلك. لكنّني أتحدّث عن التّضحية. غناو؟».

رفع بصره إليها، إذ إنّ كلماتها استقرّت مثل الرّصاص في قلبه. ثمّ قال: «أجل، أيّتها الوالـ»... استدرك قائلًا: «أجل يا فيونا».

عبرت السّيّارة بهما الشّارع الغريب ثانية وصعدت جسرًا كبيرًا، ثمّ هبطت فوق رصيف صغير مائل مبنيّ من الطّوب. لدى اقتراب السّيّارة من حدود قرية مفتوحة على أراضٍ زراعيّة خضراء، بدت الشّمس وكأنّها هبطت في السّماء، وشدّة وهجها الخادع جعل السّيّارة تبدو وكأنّها سقطت فجأة في نهر. ثمّ سرعان ما تبدّد ذلك، وعبرا إلى شوارع بلدة صغيرة. صدرت من السّيّارة أصوات جعجعة لدى تجاوزها بسرعة السّيّارات الأخرى. تأرجحت بشدّة حتّى أنّ التّفكير المتمدّد في ذهنه كرضيع في المهد حول ندالي نفسها، فارقه وهو يتقلّب بعنف من جهة إلى أخرى.

«**أُزمِري تاتا**»، إنّ الطّمأنينة التي يولّدها أمل صلد في نفس رجل عانى هزيمة قاسية أمر يستعصي على الوصف. إنّها أرفع تعويذات

الرّوح. وهي اليد الخفيّة التي تنتشل الرّجل من حافّة جرف مطلّ على وادٍ سحيق من النّار وتعيده إلى الجّادة التي انحرف عنها. وهي الحبل الذي يسحب غريقًا من أعماق البحر ويطرحه فوق مركب ليستنشق الهواء العذب. هذا هو ما كانت الممرّضة قد قدّمته له. لكن وكما رأيت مرّات ومرّات من قبل، فإنّ اليدين اللّتين تطعمان الدّجاجة هما اليدان اللتان تقومان بذبحها. وهذا أحد ألغاز العالم، وهو اللّغز الذي سيعترض طريقنا، أنا ومُضيفي، في هذا البلد الغريب. لكن لا بدّ لي من استعادة كافّة التّفاصيل، يا «إيبونو»، فهذا ما تنتظره منّا حين نأتي للوقوف بين يديك هنا في ردهة «بيغويه» النيّرة.

عندما وصلا إلى المدينة التي خرج منها قبل أربعة أيّام بروح نازفة، كان قلبه مغمورًا بالدفء، وسعادته لا حدود لها، حتّى أنّه أراد التقاط صورة للمكان. قبل دخولهما، سأل فيونا إن كان لديها هاتف بكاميرا لالتقاط الصّور. فردّت قائلة: «أجل، أجل. لديّ بلاك بيري».

«أوكيه»، قال.

«تريد التقاط صورة؟».

أومأ لها وابتسم. قالت وقد نفثت الهواء من فمها: «هه! لا تستطيع أن تطلب مني التقاط صورة لك؟ يا لك من رجل خجول».

التقطت صورة له وقد طوى ذراعيه فوق صدره، ثمّ أخرى وقد أشار بإصبعه نحو اللّافتة الضّوئيّة المرفوعة فوق واجهة البناية الرّخاميّة البيضاء، ثمّ ويداه مرفوعتان إلى أعلى. تأمّل تلك الصّور التي بدا فيها سعيدًا، وشعر بالرّضى والإعجاب. قالت فيونا: «سأرسلها لك عبر بريدك الإلكتروني».

شكرها ثمّ اتّجها نحو باب المحلّ. كان جزء من ذهنه منصرفًا إلى التّفكير في ندالي، وكيف ستثير تلك الصّور إعجابها. أمّا الجّزء الآخر فكان مشدوهًا من أبّهة المبنى، السّجّادة الحمراء المزخرفة بصور

التّمور، مصابيح الزّينة، الأجهزة وشاشات التّلفاز. توقّف عن التّفكير في كلّ هذه الأشياء لمّا بدأ في المشي وراء فيونا عبر ممرّ ضيّق. لا بدّ من أنّ ذاك الصّنف من الأحذية التي كانت ندالي تسمّيها «كعوب» كان هو السبب، كان ردفاها يتحركان صعودا وهبوطا. وعبر ثوبها الأبيض، لاحظ خطوط لباسها الداخلي.

«إيبوبديكي»، ما جرى له أصابه بالدهشة، نبض قلبه الغريب والفجائي واللطمة الخاطفة التي سددتها الشهوة لعقله. حدث هذا مثل اندلاع نيران معربدة، بصورة غير طبيعية وبسرعة خارقة حتى أنه أخذ على حين غرة. أصيب بالذعر. وكما لو أنّها شكّت فيما حصل، استدارت نحوه وقالت: «سلومون، ذكرت لك من قبل كم سيدفع لك من أجر، أليس كذلك؟».

«هو كذلك يا فيونا».

«أوكيه، اقبل به الآن، لكن بإمكاننا لاحقًا أن نطالب بزيادة. غناو؟».

أومأ لها برأسه. سار إلى جنبها لدى وصولهما إلى مدخل مكتب المدير. لكنّ الرّغبة لم تبرحه، بقيت رغمًا عن إرادته. تساءل في نفسه عن عمرها. جسدها بدا يافعًا، مثل امرأة في الثّلاثينات، لكنّ ترهّل عنقها كان يشي بخلاف ذلك. لكن، مع ذلك، لم يكن بوسعه أن يحدّد أمرًا كهذا لجهله بالبيض وما يتعلّق بأجسادهم.

عبر باب زجاجيّ، دلفا إلى غرفة كان يجلس فيها رجل خلف مكتب، مستغرقًا تمامًا في مطالعة شاشة حاسوب. الحاسوب، يا «تشوكو»، هو آلة يمكنها فعل الكثير. يمكنها أن تجمع المعلومات، وأن تتحوّل إلى جهاز اتّصال بالآخرين عن بُعد، والكثير الكثير! عندما سيصبح استخدامه شائعًا بين أبناء الآباء العظماء، سيساهم في اغترابهم أكثر عن أسلافهم. يا آباء التّلال والأرض، يا أهل «آلانِدِه تشِه»، هل تذرفون الدّمع لأنّ مذابح «إِكنغا» هُجرت وجفّت؟ إنّكم لم تروا شيئًا

بعد. هل تُجزعون من عدم التزام أبنائكم بـ «أُمِنالا»؟ هذا الشّيء، صندوق الضّوء الذي يحدّق إليه هذا الرّجل الأبيض، سيصيبكم بفجيعة أعظم عندما يحين الأجل.

نهض الرّجل فور دخول مُضيفي ورفيقته إلى الغرفة. صافح مضيفي الرّجل لكن لم يفهم شيئًا ممّا قاله. فكّر في أنّ الرّجل كان يتقن الحديث بلسان الرّجل الأبيض، لكن كان يبدو أنّه يفضّل الحديث بلسان أهل البلد. ما شدّ انتباهه أكثر هو كيف عانق الرّجل فيونا ولمس كتفها وطبطب على ذراعها. تحدّثا بتلك اللّغة لفترة من الوقت، انصرف مُضيفي خلالها إلى مطالعة الصّور الملوّنة المعلّقة على حوائط الغرفة الأربعة، صور البحر العظيم، وسلحفاة عائمة في الماء، وبعض الآثار التي شاهدها خلال الرّحلة الجّامعيّة، رافعًا الدعاء أن يعطيه الرّجل فرصة العمل. كان ذهنه قد شرد بعيدًا حتّى أنّه ارتعد عندما مدّ الرّجل يده وقال: «بإمكانك إذًا أن تبدأ العمل غدًا، الثّلاثاء، إن أحببت».

ردّ قائلًا وقد شدّ على يد الرّجل وانحنى قليلًا: «شكرًا جزيلًا أيّها السّيّد».

«أبدًا، لا داعي للشّكر. أوكيه، سنراك قريبًا أيّها الصّديق. تهانينا».

سار الرّجل نحو الممرّ، لكنّه استدرك ورجع على عجل. عانق فيونا وقبّل وجنتيها، على نحو ما كانت ندالي تطلب منه أن يقبّلها أحيانًا. كان هذا أمرًا غريبًا يا «تشوكو». رجل يُقبّل امرأة ليست زوجته وفي وضح النّهار وعلى مرأى من الجميع؟ أشعل الرّجل سيجارة وقال لفيونا بضع كلمات بلسان أهل البلد.

عندما خرجا من البناية، قالت فيونا إنّها خبزت له كعكة، وإنّها ستتناولها من الفرن وستغلّفها له ثمّ سيمضيان إلى أحد المطاعم. أثناء ذلك، ستريه حديقتها، لأنّها كانت، أيضًا، مزارعة، مثله. وافق وشكرها. عندما انطلقا في طريقهما ثانية، كانت شهوته قد تبدّدت، قمعها غضبٌ طارئ أطلّ وسط فرحته مثل الغريب بين حشد من الأصدقاء. من

قام بخديعته رجل من أبناء جلدته، رجلٌ مثله، من الإيبو، بمقدوره أن يناديه أخي. أحد رفاق صفّه القدامى، كاد أن يقضي عليه. لكن، هنا، بين أناس غرباء لم يكن يعرفهم، أهل بلد وعرق آخر، هبّت امرأة لنجدته. بل إنّ هذه المرأة وصديقها ذهبا في مساعدته إلى حدّ أبعد من توبي، الذي حمل عنه صليبه لأجل ليس بالقصير. فيونا وصديقها أخذا صليبه منه وأشعلا النّار فيه. حين وصلا إلى بيتها، كان صليبه، بكلّ ما يمثّله، قد أصبح رمادًا.

«**إيبونو**»، تحدّثت عن نقطة ضعف الإنسان وقرينه الحامي الأزليّة: عدم قدرتهما على رؤية المستقبل. لو كانا يمتلكان هذه القدرة، لتمكّنا من اتّقاء شرّ كثير من المصائب العظيمة! الكثير، الكثير. لكنّي أعلم بأنّك تريد منّي شهادة متطابقة مع التّسلسل الزّمنيّ لما حصل. وأن أقدّم سجلًّا وافيًا بأفعال مُضيفي. عليّ، إذًا، ألّا أحيد عن مسار قصّتي. عليّ إذًا أن أستأنف بالقول إنّ مُضيفي لحق بالمرأة إلى داخل بيتها.

كان البيت كبيرًا. في خارجه حديقة، وخراطيم ماء، وزهور منسّقة في أحواض أنيقة. قالت إنّ أمّها، التي تأتي من ألمانيا أحيانًا لزيارتها، كانت مزارعة. قرب الجّدار المنخفض كانت هناك بركة جافّة ممتلئة بأوراق الشّجر وبقربها مجرفة وعربة لنقل التّراب. لم تزرع أيّ شيء ممّا يؤكل. وهي لم تكن قد زرعت شيئًا منذ أجل طويل. كانت الحديقة، مثلما أدرك، مساحة لتخزين ما أرادت الاحتفاظ به من الأشياء. قالت إنّ مصباح الكاز العتيق الذي يتدلّى من غصن إحدى الشّجيرات كان لقطّها، ميغيل. لم يسمع من قبل بأنّ النّاس يحتفظون بالقطط كحيوانات أليفة في بيوتهم، فضلًا عن إطلاق الأسماء عليها.

هذا الشّيء الذي كان متربّعًا فوق الأرض وبدا مثل موتور سيّارة كان للشّاحنة الصّغيرة التي لقي فيها والد زوجها حتفه. تنهّدتْ عند رؤية هذا الشّيء وأنزلت يديها إلى جنبيها. ثمّ، من دون أن تلتفت إليه، قالت: «كان ذلك بداية المتاعب. منذ ذلك الحين وهو لا يكفّ

عن القول: 'لماذا تركتِه يقود تلك السّيّارة؟ لو لم ينطلق بسرعة اثنين وسبعين، لكان ما زال هنا اليوم'. وهذا هو السّبب وراء إسرافه في السّكر إلى حدّ فقدان الوعي وإيلاء ظهره للعالم». ثمّ حصل شيء غير متوقّع. فهذه المرأة التي كانت تفيض بالحياة طوال الوقت، لمّا استدارت وقابلته بوجهها، كانت على وشك البكاء. وقالت ثانية: «أدار ظهره للعالم. للعالم بأسره».

منشغلًا بالتّفكير في فرصة العمل في الكازينو، والمهمّة التي أوكلها إلى إلوتشوكو، وما ستؤول إليه، بالكاد سمع ما كانت تتحدّث عنه فيونا. ذلك المسير الطّويل الذي نظر إليه على أنّه كان أكثر وقت عصيب في حياته، أصبح في النّهاية الأمر الذي جلب له أملًا عظيمًا. دخل معها إلى البيت، ممتلئًا بالفضول لرؤية كيف كانت تبدو بيوت البِيض من الدّاخل. دلفا من الباب الخلفيّ إلى مطبخ لم يكن مُضيفي قد رأى أيّ شيء مثله من قبل. كان مغطّى بالرّخام (مع أنّه لم يكن يعرف هذه الكلمة يا «إيبونو») وجدرانه ممتلئة باللّوحات. قالت فيونا: «رسمت هذه اللّوحات بنفسي».

ذكرت ذلك بعد أن لاحظت تحديقه إلى إحدى اللّوحات التي كانت مختلفة عن البقيّة. لم تكن صورة قطّ، أو كلب، أو زهور، بل صورة طائر. ردّ قائلًا: «إنّها لوحات جميلة جدًّا».

«شكرًا يا عزيزي».

عندما رأى غرفة الجلوس، صُعق من شدّة ثراء والد ندالي. كان بيته أفخم بكثير من بيت عائلة من البِيض. جال ببصره في أرجاء الغرفة، فرأى بيانو قرب الحائط الأصفر، وتلفازًا ضخمًا، ومكبّر صوت. كانت هناك كنبة واحدة، طويلة سوداء اللّون، مصنوعة من جلد. الحوائط، من بدايتها إلى نهايتها، مغطّاة باللّوحات والصّور الفوتوغرافيّة. قرب التّلفاز وبجانب رفّ الكتب وقف تمثال أبيض جافّ لهيكل عظميّ

بشريّ. كان حول عنقه عقد توسّطت حبّاته عين الحسود. قالت فيونا: «سأبّدل ملابسي. الجوّ حارّ. سأرتدي سروالًا وقميصًا قطنيًّا، ثمّ سنحمل الكعكة ونذهب. غناو؟».

أومأ برأسه. راقبها أثناء صعود السّلّم، كان وركاها مرئيين من تحت ثوبها. اشتعلت شهوته من جديد. حاول إطفاءها بصرف انتباهه إلى صورة معلّقة على الحائط فوق البيانو، يظهر فيها رجل اعتقد بأنّه زوجها. كانت السّعادة مطلّة من عينيه في الصّورة. لكن كان فيهما صرامة أيضًا أضفت عليه مظهر رجل حادّ المزاج، يشبه ما وصفته فيونا بـ«أدار ظهره للعالم». إلى جنب تلك الصّورة الشّخصيّة، كانت هناك صورة للرّجل مع فيونا، بدت فيها أصغر بكثير، شعرها كثيف ومعقود على هيئة ذيل الفرس. كانا جالسين، فيونا في الأمام، وهو من خلفها، لم يظهر منه سوى نصفه العلويّ، أمّا السّفليّ فكان غائبًا عن البصر. كانت الصّورة قد التقطت خلال فعاليّة ما، فثمّة أناس في الخلفيّة، معالم البعض واضحة، والبعض الآخر غيّبته المسافة. صندوق سيّارة خضراء التقطته الكاميرا، أمّا نصفها الآخر فطواه النّسيان.

«إيبونو»، في هذه النّقطة، أستطيع إخبارك بأنّه لم يكن هناك أيّ شيء في ذهنه تجاه هذا الرّجل سوى الإحساس بالفضول حيال ما صنعه الحزن والفجيعة به. تفحّص صورة الرّجل ليرى إن كان بمقدوره العثور على أيّ علامة من علامات الظّلام الذي وصفته فيونا من قبل. لاحظ أيضًا أنّ فيونا اعتراها شكل من أشكال الخوف الصّامت منذ وصولهما إلى البيت، كما لو أنّها كانت خائفة من شيء لم تكن على استعداد لمواجهته. «تشوكو»، أعلم بأنّ استحضارنا لما حدث في الماضي من الممكن ألّا يتّسم بالدّقّة لأنّ الإدراك المتأخّر لما حصل يمكن أن يؤثّر على تلك الدّقّة. لكنّي أقدّم لك رواية من دون أيّ تحريف أو تبديل حين أقول إنّ مُضيفي حدّق إلى صورة هذا الرّجل

عن كتب وتفحّصها مليًا، وكأنّه يدرك، ولو بشكل واهٍ، ما سيحصل لاحقًا. ثمّ استدار وقابل حيّزًا صغيرًا ناتئًا من الحائط فيه خشب ورماد، وهو ما ظنّه مُضيفي حطبًا داخل غرفة جلوس، لكنّه ما كنت أعرف من زمن ياغازي بأنّه مدفأة، حيث كان البِيض يشمّسون أنفسهم أيّام البرد. كان هناك مثل هذا الشّيء داخل كلّ بيت دخله مُضيفي في فيرجينيا، في بلد الرّجل الأبيض الغاشم. من دون هذا الشّيء، كانوا سيهلكون من البرد، البرد الذي كان أمرًا لا يخطر على البال في بلد الآباء العظماء. كان منهمكًا في فحص هذا الشّيء حين شرعت فيونا في هبوط السلّم، وقد استبدلت ثيابها بشورت قصير وبلوزة مزيّنة بصورة نصف تفّاحة. قالت: «أوكيه، هيّا، دعنا نأخذ الكعكة ونذهب».

«أوكيه، فيونا».

راقبها لدى فتح الفرن وإخراج شيء مغلّف بمادّة بيضاء شبيهة بالورق؛ لم نكن لا أنا ولا مُضيفي نعرف ما هي. وضعت هذا الشّيء في كيس بلاستيكيّ وقالت: «ما صنف الطّعام الذي يروق لك؟».

حين شرع في الردّ قاطعته بحركة من يدها. استدار صوب مرمى بصرها وأدرك السّبب. كان الباب الرئيسي قد فُتح، ودخلت نسخة أخرى للرّجل صاحب الصّورة، عمرها أكبر، ومنظرها متعب أكثر. كان قميصه محلول الأزرار، مجعَّد أزرق اللّون مرفوع الأكمام. بدت يداه البيضاوان سوداوان من كثافة الشّعر. خطى بضع خطوات داخل غرفة الجّلوس ثمّ تسمّر في مكانه وحدجهما بالنّظرات. قالت فيونا بنبرة وشت بالقلق والخوف: «أحمد، واو، أهلًا بك. أين كنت؟».

لم يردّ الرّجل. بل تسمّر في مكانه وراح يقلّب بصره بنظرات مرعبة بين مُضيفي وزوجته وعلى نحو كان معهودًا بالنّسبة لي. كانت نظراتٌ يُتوقّع من فحواها عاقبة لا تدبّر، كتوقّع فداحة الحياة لحظة الموت. فتح الرّجل فمه ليتكلّم، لكن، عوض ذلك، وضع برفق الكيس الذي

كان في يده فوق الأرض. تحرّكت فيونا نحوه وهي تناديه باسمه، لكنّ الرّجل مشى صوب رفّ الكتب. قالت فيونا ثانية: «أحمد». ثمّ تابعت الكلام باللّسان الأجنبيّ.

ردّ الرّجل بسحنة أرعبت مُضيفي. وأثناء كلامه، تناثر البصاق من فمه. أشار إلى فيونا، ثمّ لطم قبضته المكوّرة براحة يده الأخرى. شهقت فيونا ووضعت يدها فوق فمها، ثمّ تكلمت باندفاع واحتجاج عارم لم يحفل به الرّجل. علا صوته أكثر، بنبرة حادّة للغاية. ثمّ فرقع بإصبعيه، وأشار بإصبعه إلى صدره، وضرب قدميه بالأرض. تململت فيونا بعصبيّة أثناء كلام الرّجل وتقهقرت إلى الوراء، ثمّ راحت تتلفّت صوب زوجها تارة وصوب مُضيفي تارة أخرى، وعيناها طافحتان بالدّموع. أثناء ردّها التفت الرّجل إلى مُضيفي وسأله قائلًا: «من أنت؟ هل تسمعني؟ من تكون بحقّ الجّحيم؟».

قالت فيونا: «أحمد، أحمد، لطفًا».

ثمّ حاولت أن تجذبه إليها. لكنّ الرّجل انتزع نفسه بقوّة ولطمها في عرض وجهها، فسقطت أرضًا وأطلقت صرخة مدوّية. انحنى زوجها فوقها وأشبعها ضربًا بقبضتيه.

«غاغان أَوغو»، أصيب مُضيفي بالهلع ممّا كان يجري أمام ناظريه، وأنا، قرينه الحامي، كنتُ كذلك. ظلّ واقفًا حيث كان وقال بصوت مرتعد: «آسف أيّها السّيّد، آسف أيّها السّيّد!».

اختطف نظرة صوب الباب، الذي كان الوصول إليه متاحًا لو سارع إلى ذلك، لكنّه ظلّ متجمّدًا في مكانه. اذهب! صرختُ في أذنَيْ عقله، لكنّه تحرّك خطوةً إلى الأمام. بعد ذلك، استدار نحو فيونا ثمّ وثب وسدّد لكمة لظهر الرّجل ودفعه بعيدًا عنها. نهض الرّجل، والتقط الكيس وهرع نحو مُضيفي وقذف الكيس بقوة ضارية، فأصاب مُضيفي في وجهه وأوقعه أرضًا. ارتدّ الكيس عن وجه مُضيفي وسقط فوق

الأرض، ومن الصّوت الذي علا، ورغوة السائل الذي انسكب منه، أدركت على الفور بأنّه كان يحتوي على زجاجة.

كان مُضيفي الآن ممَدّدًا حيث سقط وقد اعتراه الدّوار والخدر، وغشيه شيء من السّلام. عندما فتح عينيه، اندفعت هيئة متحرّكة بسرعة البرق إلى مجال بصره، وقبل أن يتمكّن من تمييز ماهيّتها، كانت عيناه قد انطبقتا ثانية. ببطء ودونما انقطاع، أحسّ بسائل بارد ينهمر فوق كتفيه وصدره وذراعيه. «إيبوبديكي»، مع أنّ كلّ هذا قد روّعني إلى حدّ بعيد، إلا أنّني تنفّست الصّعداء لأنّ مُضيفي كان ما يزال على قيد الحياة. فلو قتله هذا الرّجل، ما الذي كان أسلافه سيقولون عنّي؟ هل كانوا سيقولون إنّني، أنا قرينه الحامي، كنت غارقًا في نوم عميق؟ أم إنّني كنت «أغو تْشِه» أو «إفُولِفو»؟ فحياة الرّجل قد تنتهي، أحيانًا، هكذا، على حين غرّة. رأيت هذا مرّات ومرّات. في لحظة، قد يكون المرء جذلًا طربًا، وفي اللّحظة التّالية، قد يقع مفارقًا الدّنيا. في لحظة، قد يقول لصاحبه أو قريبه، سأذهب لشراء الخبز من الدّكان المجاور، ثمّ سأعود. سأعود خلال خمس دقائق. لكنّه لا يعود حيًّا أبدًا. وقد تتجاذب امرأة وهي في المطبخ أطراف الحديث مع زوجها وهو في غرفة الجّلوس، فيطرح سؤالًا، وأثناء إجابتها، أثناء إجابتها، يا «إيبونو»! يكون قد فارق الحياة. وحين يطول انتظارها لسماع شيء منه، تنادي عليه قائلة: «يا زوجي، هل تصغي إليّ؟ هل أنت هناك؟». وعندما لا يردّ، تذهب إليه فتجده مرميًّا على الأرض ويده مطبقة على صدره. هذا، أيضًا، شهدته مرّات ومرّات.

كان مُضيفي مرميًّا على الأرض، حيًّا ولكنّه يعاني من ألم عظيم، ووجهه وفمه مغطّيان بالدّم. كان يودّ الإبقاء على عينيه مقفلتين، لكنّ صرخات فيونا وتوسّلاتها حالت دون ذلك. لمّا فتحهما من جديد،

رأى الرّجل، ورأى في يده، ما كان قد ضربه به: زجاجة مكسورة والدم يقطر من حوافّها المهشّمة. رآها بيد الرّجل الواقف فوق فيونا. ثمّ رأى الرّجل وقد انحنى فوقها وراح يصرخ ويحرّك ما في يده بغضب، فتناثر الدّم والنّبيذ فوق وجهها. عبر الرؤية المعتمة لعينيه المرتخيتين، شاهد الرّجل وقد رمى الزّجاجة ثمّ هبط فوق فيونا محاولًا الإطباق على خناقها، من دون أيّ تأثّر بصرخاتها وتوسّلاتها. بهدوء، زحف صوبهما، متوقّفا لالتقاط أنفاسه لدى ارتفاع صرخات فيونا أكثر فأكثر مع كلّ خطوة، إذ كان الرّجل قد نجح الآن في الإطباق على خناقها. في هذه اللّحظة التي لا تُنسى، «إيبونو»، مدَّ مُضيفي نفسه، وهو ينزف بشدّة، ثمّ جذب كرسيًّا، محاولًا الإبقاء على عينيه مفتوحتين لمنع الدّم من حجب مجال رؤيته.

أحسّ بثقل الكرسي في يده. كان الوهَن قد أصابه جرّاء ما خسره من دماء، الآن، وفي الأيّام القليلة الماضية، حين تبرّع به. لكنّ صرخات فيونا، مع ذلك، استنهضت همّته. نهض ودفع قدمًا تلو الأخرى إلى أن وصل إلى حيث كانا. استجمع قوّته، ثمّ قذف نفسه وكأنّه كيس طحين وهوى بالكرسيّ فوق رأس الرّجل.

سقط الرّجل إلى الوراء وتمدّد بلا حراك. تشكّلت فوق رأسه هالة من الدّماء. ترنّح مُضيفي، ثمّ مسح وجهه، وفرك جفنيه. وبعدئذ، هوى فوق الأرضيّة المبلّلة، ممدّدًا في الشّرفة المعتمة بين الوعي واللّاوعي. في هذا الحيّز الخالي من المعنى الذي كان العالم قد صار عليه فجأة، رأى فيونا تتحوّل إلى كائن عجيب، طائر في آن وامرأة بيضاء مرتدية الأبيض في آن. من أطراف بصره الكليل، رآها تستطيل وتنهض ببطء مثل حيّة انفردت بعد تلولب ثمّ راحت تصرخ بكل عزم. رآها تحطّ في زاوية الغرفة قرب زوجها، ريشها غزير ناصع البياض. ثمّ تحوّلت

ثانية إلى بشر، محاولة إيقاظ زوجها المرتخي، لكنّه لم يحرّك ساكنًا. سمعها تقول: «إنّه لا يتنفّس! إنّه لا يتنفّس! يا إلهي! يا إلهي!». ثم فُرد جناحاها، وطارت بعيدًا عن مرمى بصره.

كان ممدّدًا هناك وفي ذهنه صورة جامدة لندالي وهي فوق المقعد تحت الشّجرة في بيته، شاخصة ببصرها إلى الأمام. لم يستطع رؤية ما كانت تنظر إليه. أمّا إن كان هذا من وحي ذاكرته أم من وحي خياله، فهو أمر لم يستطع تحديده، ولا أنا، قرينه الحامي. لكنّ هذه الصّورة ظلّت ماثلة في ذهنه أثناء رؤيته فيونا، بجناحَيْها المفرودَيْن، وقد رجعت إلى المكان بخطى مهيبة. رأى قفصها الصّدريّ المتضخّم، العقد اللّامع فوقه، ومنقارًا بدا يحمل شيئًا غير واضح المعالم. ثمّ تحرّكت ثانية، بقدميها البشريّتين الآن، وسمع صوت قدميها فوق الأرضيّة. سمع صوت صيحاتها الخافتة.

سمع المرأة البيضاء تتحدث عبر الهاتف، صوتها مذعور، بائس. فتح عينيه كي يراها، لكنّه كان يرمش على نحو شديد متلاحق إلى أن دبّ الألم في العضلات أسفل عينيه. وسط الظّلام المطبق الذي رُمي جسده فيه، انتابته قشعريرة فجائية واستشعر حضورًا ما. «تشوكو»، همد تمامًا إذ استطاع أن يعرف بأنّه من جديد، كان قد جاء. من كواليس الحياة، كان قد جاء. ذاك الكائن الذي لديه أمّ حمراء وبشرة بلون الدّم. **من جديد، كان قد جاء**. جاء من جديد، كي يسطو على كلّ ما قد أعطي له ويدمّر الفرح الذي عثر عليه. تساءل، ما هذا الشّيء؟ أهو بشر أم وحش؟ روح أم إله؟ «إجانغو إجانغو»، لم يعرف. وأنا، قرينه الحامي، لم أعرف أيضًا. يقول الآباء العظماء لا يستطيع الرّجل، من خلال تفحّص كرش الشّاة، أن يعرف ما العشب الذي تناولته.

سمع فيونا تبكي، لكنّه لم يفتح عينيه. قالت له شيئًا لم يتمكّن من التقاطه في البداية، ثمّ لزوجها، الممدّد بلا حراك، مثل لوح الخشب.

عندئذ سمع ما كانت قد قالته، عاليًا واضحًا: «قتلته. قتلته». ثمّ انهارت وأطلقت صيحة عالية. كانت بالكاد قد بدأت في البكاء لما بدأ بوق بالدويّ من بعيد. لكنّه ظلّ هامدًا هناك، ذهنه منصبّ على تلك الصّورة المحيّرة لندالي وهي جالسة تحدّق إلى المجهول، كما لو كانت قد تمكّنت بقدرة غامضة من تحطيم حاجز آلاف الكيلومترات ثمّ جلست ترنو إليه.

17

«آلانـدِه تشِـه»

«**إيبوبديكي**»، يقول الآباء الأوّلون في حِكمهم التّحذيريّة إنّ المكان الذي يزوره المرء ثمّ يعود إليه هو غالبًا المكان نفسه الذي يذهب المرء إليه ويصبح عالقًا داخله. كان مُضيفي قد عثر على العون لدى المرأة البيضاء، لكنّ هذا المكان الذي عثر فيه على العون هو المكان الذي يتمدّد فيه الآن، جريحًا، نازفًا، مصابًا بالعمى من دمائه نفسها. تركت جسده وقد استولى عليّ الذّعر والشّعور بالعجز والقلق من كيفيّة تفسير هذه النّهاية المأسويّة لك، «تشوكو»، ولأسلافه، وقرّرت التماس المساعدة من عالم الأرواح. فور خروجي منه، رأيت أنّ أرواحًا من شتّى الأصناف قد احتشدت في الغرفة مثل مدد سوداويّ زاحف على جيش البشريّة برمّته. كانوا معلّقين في كلّ مكان، قرب السّقف المقوَّس، فوق جسد مُضيفي وجسد الرّجل الآخر، بعضهم مثل ستائر مصنوعة من الأطياف. كان بينهم كائن شنيع حدّق إليّ وقد ارتسمت فوق وجهه تكشيرة قبيحة. لاحظت أنّه كان نسخة لا جسديّة وطبق الأصل عن الرّجل الممدّد فوق الأرض. أشار بإصبعه نحوي وتكلّم بلسان أهل البلد الغريب. خلال كلامه، فُتح الباب واندفع ضبّاط الشّرطة إلى الدّاخل ومعهم أشخاص في معاطف بيضاء مثل الذي كانت ندالي ترتديه، والمرأة البيضاء أيضًا. كانت تتحدّث إليهم وهي تبكي، مشيرة إلى زوجها ثمّ إلى مُضيفي، الذي كان ممدّدًا هناك، منزلقًا ببطء إلى حالة من الغيبوبة بسبب فقدان الدّم.

حمل ثلاثة رجال من الشّرطة وممرّضون الرّجل الذي هاجم مُضيفي وأخرجوه، ومضت فيونا خلفهم. ثمّ رجعوا وأخذو مضيفي، أحذيتهم الغارقة في دمائه، تركت خلفهم آثار خطاهم الحمراء. «تشوكو»، لمّا أدخلوه في المركبة التي تشبه باص مُضيفي الصّغير (يسمّيها أبناء الآباء العظماء «سيّارة إسعاف»)، غاب تمامًا عن الوعي.

لحقتُ بهم عبر شوارع البلد الغريب، ورأيت ما لم يتمكّن مُضيفي من رؤيته: سيّارة محمّلة بالبطّيخ، من الصّنف الموجود في أرض الآباء، وصبيًّا فوق حصان سار خلفه موكب من النّاس، كانوا يقرعون الطّبول، وينفخون المزامير، ويرقصون. أفسح كلّ هؤلاء الطّريق أمام سيّارة الإسعاف التي كان بوقها يدوّي في الأرجاء. كنت قد فقدتُ صوابي من شدّة الهلع والنّدم العظيم، لأنّي سمحت له بالقدوم إلى هذا المكان، وإلى هذا البلد، بسبب امرأة فقط، بينما كان من الممكن أن يعثر على أخرى ببساطة. «إيبونو»، عليّ أن أقول من جديد، إنّ النّدم هو آفة القرين الحامي.

تمزّق الآن حجاب الوعي الذي يجلّل بصري، فرأيت للمرّة الثّانية مشاهد متتابعة للخيالات الحيّة في عالم الأرواح هنا. رأيت ألف روح معشعشة في طول البلاد وعرضها، متعلّقة بالشّجر، طافية في الهواء، متجمّعة فوق الجّبال، وفي أماكن أكثر بكثير من أن تُعَد. قرب «متحف الهمجيّة»، حيث كان مُضيفي قبل يومين فقط، رأيت الطّفلين اللّذين كانت دماؤهما في حوض الاستحمام المعروض داخل البيت. كانا واقفين أمام البيت، في القميصين اللّذين كانا يلبسانهما لحظة الهجوم، ممزّقَيْن، مثقوبين بالرّصاص، ملطّخين بدماء مسودّة. ولأنّهما كانا واقفين بمفردهما، من دون مرافقة أرواح أخرى، بدا لي أنّ وقوفهما هناك يجب أن يكون إلى الأبد، ربّما بسبب بقاء دمائهما -حياتهما- فوق الحائط وحوض الاستحمام، معروضة كي يراها العالم.

في المستشفى، جرّوا مُضيفي فوق فراش على عجلات إلى غرفة، وعندما رأيت أنّه بين أيدٍ أمينة، صعدت مباشرة إلى «آلانِدِه تشِه»، تلال الأسلاف، كي أقابل من يمتّون له بصلة بين الآباء العظماء وأبلغهم بما حصل -وبعدئذ، إن كان قد قتل الرّجل بالفعل، فسآتي إليك، «تشوكو»، كي أشهد على هذا، وفق ما كلّفتنا بفعله في حالة قضاء مُضيفنا على حياة شخص آخر.

«إجانغو إجانغو»، الطّريق إلى «آلانِدِه تشِه» طريق أعرفه جيّدًا، لكن في هذه اللّيلة، كان متعرّجًا أكثر من العادة. التّلال المحيطة به كانت مظلمة إلى أبعد حدّ، مرقّطة هنا وهناك بوهج وحشيّ منبعث من نيران غامضة. مياه نهر «أُمامبالا أُكوه»، الذي له نهر شقيق في الأرض، تدفّقت بهدير مكتوم من بعيد. قطعتُ الجّسر المضيء الذي يعلوه، والذي تعبره جموع البشر من أقطاب الأرض الأربعة بتدافع عنيف أثناء رحيلها إلى أرض أرواح الأسلاف. سمعت من النّهر سيلًا من الأصوات المنخرطة في الغناء. ومع أنّ الأصوات كانت متناغمة فيما بينها، إلّا أنّ ثمّة صوتًا كان متمايزًا عنها. كان هذا الصّوت عاليًا لكنّه رفيع مرن، رشيق النّبر، وحادّ كنصل ساطور جديد. ترنّمت الأصوات بتهويدة مألوفة، تهويدة بقِدم العالم منذ لحظة انبثاقه إلى الوجود. لم يمضِ وقت طويل حتّى أدركت بأنّه صوت «أونميري إزنواني»[1]، مصحوبًا بأصوات وصيفاتها العديدات اللّواتي لا يباريهنّ في الجمال أحد. غنّين معًا بلغة قديمة غامضة، مهما سمعتها، أظلّ عاجزًا عن

(1) وفق معتقدات الإيبو إن أغضب الرّجل ربّة الماء، «مامي واتا»، فإنّها قد تصيبه بالعقم أو موت أطفاله قبل الولادة أو إجهاض زوجته، وعندئذ من المفترض أن يلتمس المرء النّصيحة من «أونميري إزنواني»، كاهنة روح الماء، التي تشير عليه بتقديم القرابين لاسترضاء ربّة الماء.

فهمها. غنّين للأطفال الذين ماتوا أثناء الوضع والذين تجوب أرواحهم سهول السّماوات على غير هدى -فالطّفل، حتّى في الموت، لا يعرف يمينه من شماله. يجب أن يُدلّ على طريقه إلى ممالك السّكينة، حيث تقطن الأمّهات، أثداؤهنّ ممتلئة بحليب صافٍ لا يخضع لحكم الزّمن، وأذرعهنّ برفقٍ أدفأ الأنهار.

إنّهنّ يُطَلِقن علينا: «نوا نا إنويغي نكو»-»ذوات اللاجناح» لأنّنا أرواح بوسعها السّفر عبر الهواء بلا جناح و«أطفال» لأنّنا نقطن في أجساد البشر الأحياء. لذا، عرفت بأنّهنّ كُنّ يُغنّين لي. فتوقّفت كي ألوّح بيدي وأعرب عن امتناني لهنّ. لكن، «تشوكو»، وأنا منصت لهنّ، تساءلت بحيرة كيف خلقت أصواتًا بكلّ تلك العذوبة والسّحر. كيف زوّدت تلك المخلوقات بمثل هذه القوى؟ ألا يغوي هذا الغناء من يسمعه ويحمله على التّوقّف في الطّريق؟ بل ألا يغويه ويحمله على العدول تمامًا عن مواصلة رحلته إلى «آلاندِه تشِه»؟ أليس هذا هو سبب بقاء كثير من الموتى معلّقين بين السّماوات والأرض؟ أرواح الموتى الجّالسين قرب الشّاطئ الدّافئ، أليسوا هم أولئك الذين، رغم أنّهم موتى، لم يعثروا على الرّاحة، والذين تهيم أطيافهم على وجهها في الأرض؟ رأيت كثيرًا منها تمشي في الأرجاء وهي غير مرئيّة، عاجزة على أن تكون مرئيّة، لا تنتمي إلى هنا أو هناك، في حالة دائمة من الـ «أدِندو أُنوكاناما». أليس بعضها على هذه الحالة بسبب الوقوع في مصيدة سحر موسيقى «أونميري» وجوقتها الغنائيّة؟

يقول الآباء الأوّلون إنّ من يحترق بيته لا يشغل نفسه بمطاردة الفئران. لذا، رغم افتتاني بذلك اللّحن، إلّا أنّني لم أُسحر به. بل واصلت السّير إلى أن تبدّد صوت الموسيقى واختفى أيّ أثر لموطن الإنسان. لم أعد قادرًا على رؤية «كْباكباندو»[1] اللّامعة التي لضخامة

(1) كْباكباندو: النّجوم.

عددها نُسبت لها ثنائيّة في لغة الآباء. ثنائيّة قرَنَتها برمال الأرض لتكوين كلمة منفردة: نجوم-و-أرض. أثناء سيري، انطوت النّجوم وكافّة ما كان على صلة بالأرض كطيّ لحاف من الظّلام داخل لجّة عميقة بلا قرار. كان عبر التّلال درب طويل متعرّج تنير زواياه مشاعل متّقدة، لهيبها بوهج نور الشّمس. في هذه النّقطة، يبدأ الواحد في مصادفة «نديتشه نِنَّه» و«نديتشه نِنِّه» من كافّة أرجاء «آلا ايبو» وما بعدها، متجمّعين في جيوب أثناء سيرهم نحو التّلال العظيمة في الأفق البعيد. كان الدّرب مزيّنًا بسعف «أُمو»[1] المقدّسة، المربوطة بالأشجار مثل أشرطة الزّينة. وزُيّن سعف النّخيل الغضّ أيضًا بالأصداف والودع وقواقع السّلاحف والحجارة الكريمة من شتّى الأصناف.

من هنا، أثناء صعود الواحد للتّلال، تتزايد أعداد المسافرين. أفواج من ماتوا مؤخّرًا تنثال على التّلال من كلّ حدب وصوب، وإمارات الجّزع من الموت وعلامات الحياة ما تزال بادية عليهم-رجالًا، ونساء، وأطفالًا؛ الشّابّ والعجوز، الضّعيف والقويّ، الغنيّ والفقير، الطّويل والقصير. أقدامهم تطأ ما تحتها، لكن لا وقع لخطاهم فوق تراب الأرض النّاعم المتلألئ تحت الأضواء السّاطعة. لكنّ التّلال، «إيبونو»، ممتلئة بالضّوء -توزيعات مشعشعة تبدو وكأنّها نهر مرئيّ يتدفّق في العين النّاظرة ثمّ يتبدّد ويصبح وهجًا على هيئة زوبعة ضبابيّة. كلّما سمعت أغنية «ضوء القمر» التي غنّتها الأمّهات القديمات (وبناتهنّ الحيّات)، أفكّر في كم وُفِّق الأحياء في رسم صورة «آلانِدِه تشِه»:

«آلانِدِه تشِه»
مكان فيه الموتى أحياء

(1) أمو: شجرة نخيل الزيت وهي ذات دلالات عظيمة عند الإيبو منها الحرب والسّلام والشّرف والتّحذير والفرح وتسوية الخصومات في جلسات الحكم عند القدماء.

مكان لا مكان فيه للدّمع
مكان لا مكان فيه للجّوع
مكان سأذهب إليه في نهاية المطاف.

فعلًا، «آلانذِه تشِه» كرنفال، عالم حيّ بعيد عن الأرض. مثل سوق «آرياريا» العظيم في «أبا»، أو «أورأورجي» في «نْكبا» قبل مجيء الرّجل الأبيض. أصوات! أصوات! أناس، في شالات ناصعة، ماشية في الأنحاء أو جالسة في «أومو» -حلقات حول نار موقد كبير محفور في الأرض. اهتديت إلى حلقة عشيرة «أُكيوها». ولم يكن العثور عليها صعبًا. كان الآباء الأجلّاء هناك. أولئك الذين ماتوا بعد عمر مديد، ومنذ وقت طويل، طويل، طويل. لا يمكن ذكر أسمائهم لضخامة عددهم. كان هناك، مثلًا، «تشوكوميرُجي»، وأخوه الشّقيق، «مْميريولي»، «أونينكه» العظيم، نحّات وجه أرواح الأسلاف. منحوتاته وأقنعته الخاصّة بالآلهة؛ وجوه كثير من الـ«أرُنسي»، الـ«إِكنغا»، والـ«آغو»؛ وأعماله الفخّاريّة لقيت حفاوة وجرى عرضها كشواهد على الفنون العظيمة لشعب الإيبو. هذا الرّجل غادر الأرض قبل أكثر من ستّمائة عام.

الأمّهات العظيمات مقيمات هنا أيضًا. لا يمكن ذكر أسمائهنّ لضخامة عددهنّ. أبرزهنّ، مثلًا، «أُيادِنمه أُيرِديه»، الرّاقصة العظيمة، التي كان اسمها مرادفًا للمثل القائل: «احتفاء بمتعة النّظر إلى خصرها، نحن نذبح شاة». من بين كثير من الأخريات، كانت هناك «يلواكو» و«أُبيانُجو»، زعيمتا واحدة من أعظم الـ«أمواده»[1] في التّاريخ، واحدة

(1) نساء العشيرة وبناتها اللّواتي كنّ زمن السّلم يردفن الرّجال بالعمل داخل البيوت وفي الحقول، أمّا زمن الحرب فكنّ يحملن على عاتقهنّ مهمّة إنهاء الحرب وتسوية الخلافات وعودة الأمن والسّلام.

دهنتها «آلا»، الرّبّة الكبرى، نفسها بمرهمها المغلّف بالعسل والتي سمّمت مياه قبيلة «نْغوه» قبل قرون طويلة.

كلّ من ينظر إلى هذه العشيرة سيدرك على الفور أنّ مُضيفي ينتمي إلى عائلة مرموقة. سيدرك بأنّه ينتمي إلى نسب يردّه إلى أناس كانوا في هذا العالم منذ أن وُجد الإنسان على وجه البسيطة. إنّه ليس في مرتبة أولئك الذين تطرحهم الأشجار كمجرّد حبّات من الثّمر! لهذا، وقفت بمنتهى التّوقير والتّواضع بين أيديهم، صوتي كصوت الطّفل لكنّ ذهني كذهن الحكماء: «نديه بي نا آلاندِه تشِه، إِكيني إم أُنو». فردّوا عليّ بصوت واحد: «إِبيا وو!».

فقلت: «نديه نا إتشيه إزي ناولو أُكيوهان ا أُمِنكارا، إكيني مو أُنو».

فقالوا: «إبيا وو!».

ثمّ أسكتني صوت «ننه أغباسو» المهيب، الذي كان بحدّة صوت طائر في قفص. شرعت في غناء أغنية التّرحيب المعهودة، «لي أو بيا وو»، صوتها بسحر وعذوبة صوت «أونميري إِزنواني» وجوقتها الغنائيّة. ارتفعت أغنيتها وانتشرت عبر الهواء بمهابة وأَحاطت بالحلقة، لفّت وطوّقت كلّ رجل فيها. فأصبحوا في غاية السّكون حتّى أنّني استشعرت ثانية ذلك الفارق المطلق بين الأحياء والأموات. بعد انتهائها من الغناء، هزّت وَدَعًا منظومًا في خيط وأدّت طقس التّحقّق من الهويّة للتّأكّد من أنّني لم أكن روحًا شرّيرة تتظاهر بأنّها قرين حامٍ ثمّ قالت: «ما هي مفاتيح عرش 'تشوكو' السّبعة؟».

قلت: «سبع قواقع من الحلزون الصّغير، سبع قطع من وَدَع نهر 'أُمامبالا'، سبع ريشات من نسر أقرع، سبع ورقات من شجرة 'أنونوبي'، قوقعة من سلحفاة ذات سبع سنوات، سبع فلقات من جوز الكولا، وسبع دجاجات بيضاء».

ردّت قائلة: «أهلًا بك أيّها الرّوح. نأذن لك الآن بالحديث».

شكرتها وانحنيت احترامًا ثمّ قلت:

- إنّني القرين الحامي لسليل قبيلتكم تشننسو سلومون أُليسا. ألازمه منذ انبثاقه إلى حيّز الوجود، بعد أن استدعاني «تشوكو» من كهف «أُغبُنايك»، حيث يمكث القرناء الحماة بانتظار استدعائهم إلى الخدمة، وأمرني بتسديد خطاه آناء النّهار وإنارة دربه آناء اللّيل. في ذلك اليوم، كنت قد وصلت للتّوّ إلى «أُغبُنايك» من مشرحة مستشفى «إِزولو» العامّ في لاغوس، أرض بعيدة عن «آلايبو» لكنّه مكان يعيش فيه الآن كثير من أبناء الآباء. كان إِزيكي نْكيوي، الذي يجلس الآن في حلقة أقارب والدة مُضيفي، قد مات للتّوّ، وهو في الثّانية والعشرين، وأنا كنت قرينه الحامي. في اليوم السّابق، كان هذا الطّالب النّجيب ضمن النّظام التّعليمي للرّجل الأبيض قد أوى إلى فراشه بعد انتهائه من الدّراسة. كنت قد مكثت في داخله، قيامًا على حراسته خلال نومه، امتثالًا لما كُلّف به سائر القرناء الحماة. لكنّه استيقظ فجأة، وقبض على صدره، ثمّ هوى من السّرير ودُقّ عنقه بالأرض. كان الاتّفاق مع «أونوه»، روح الموت، حاسمًا وسريعًا، لأنّ مُضيفي، مثل سائر أبنائكم، لم يكن لديه «إِكنغا». بعد لحظة من وقوعه أرضًا، كان قد مات.

- رغم أنّي عشت بين الرّجال الفانين مرّات كثيرة من قبل، إلّا أنّ موت هذا الرّجل صدمني. إذ حصل بسرعة فائقة وبشكل مذهل، أفقدني القدرة على النّطق. كان الموت قد انقضّ على عجل، وكأنّه فهد أرقط في عنفوان شبابه. في اليوم السّابق فقط، كان هذا الرّجل يقبّل ثغر امرأة، لكنه الآن فارق الحياة. كان الأمر في منتهى الغرابة حتّى أنّني لم أذهب فورًا إلى «بِغويه» لإبلاغ «تشوكو»، امتثالًا لما هو مطلوب منّا نحن معشر القرناء الحماة. كما لم أقم بمرافقة روحه مباشرة إلى «آلانده تشِه». بل، في ذلك الوقت، ذهبت مع جسده في سيّارة الإسعاف إلى المشرحة. حينئذ، اقتنعت بأنّه مات بالفعل،

فأحضرت «أُنيه أُوى» الخاصّة به إلى هنا، إلى مجمّع عشيرة «إكيميزي» أهل قرية «أماورجي». وبعد أن مضيت من هنا، سارعت بالذّهاب إلى «أُغبُنايك»، كي أستريح وأغتسل في شلّاله، في مياه دافئة قديمة ما تزال تحمل الرّائحة المميّزة للعالم لحظة خلقه. كنت مستلقيًا وسط الماء الجّاري عندما سمعت صوت «أُزيبروه» يستدعيني ويطلب منّي الارتقاء إلى «آلاندِه تشِه» فورًا، إذ إنّ ييه نْكبوتو، السّلف الذي سيتجسّد مُضيفي من خلاله، كان مستعدًّا كي يُولد من جديد. وكما تعلمون، فإنّ الرجال والنساء قد يتزاوجون إلى الأبد، لكن إن لم يقرّر أيّ أحد منكم هنا أن يعود إلى الأرض، فإنّ حدوث الحمل أمر مستحيل. لذا، فور أن علمت بأنّ ثمّة حمل كان على وشك الحدوث، قمت بتلبية النّداء على عجل.

– وهكذا، في ليلة مولد مُضيفي، أتيت إلى هنا، إلى «آلاندِه تشِه»، لجلب روح السّلف الخاصّة به، وكنتم جميعًا شهودًا على اصطحابي «أُنيه أُوى» الخاصّة به إلى «إِلوِغويه»، حيث استُقبلت باحتفال باهر عجيب. ثمّ قدتها من «إِلوِغويه» وسط أصوات المزامير والأبواق إلى «أوبي تشيوكيكي»، حيث يجري الالتحام العظيم بين الرّوح والجّسد لتشكيل «مْمادو»-التّعبير الجّسديّ المطلق لفعل الخلق. كان ذلك اليوم يومًا مجيدًا أغرّ. الأرض التي مشينا فوقها كانت رمال «إِلوِغويه» البيضاء، المتلألئة بحصى ضمّ جوهر النّقاء ذاته. سارت خلفنا مجموعة من وصيفات «أدايغويه» الطّاهرات صاحبات الجّمال السّاطع اللّواتي غنّين الأغنيات عن غبطة العيش في الأرض، وشهوات الإنسان التي لا تحصى ولا تعد، وواجبات العقل، ورغائب العين، وفضائل العيش، وحرقة الفقدان، وألم العنف، وكثير من الأمور التي تشكّل قوام حياة الكائن البشريّ.

– يا عشيرة وذرّيّة «أوكيوها» و«أُمينكارا»، أنتم عن بكرة أبيكم

كنتم هناك وتعلمون أنّ الرّحلة إلى الأرض رحلة طويلة ولكنّها ليست مضنية. في حِكمكم النّبوئيّة، شبَّهتم هذه الرّحلة بالبيضة المتينة التي تسقط من عشّ الغراب، وتتدحرج عبر أغصان شجرة الـ«أُغيريزي»، ثمّ تستقرّ فوق الأرض من دون أن تتحطّم. طريق الرّحلة جميل بشكل يفوق الوصف. الأشجار الواقفة على مسافة وتحفّ جانبي الطّريق لا توفّر غطاء نباتيًا نضرًا فحسب، بل هو شفّاف كذلك مثل الأوشحة الفضّيّة التي تغزلها نسوة «أوكا». تحمل الأشجار ثمارًا ذهبيّة تصدح فوقها، وبداخلها، وخارجها، عصافير زمرّديّة. ترفرف بأجنحتها فوق الموكب، تعلو وتهبط وتتشقلب بمرح كما لو كانت هي، أيضًا، ترقص على أنغام الموكب. أثناء سيري، كانت تلمع وسط النّور النّقيّ الذي عمّ الطّريق. لم أعرف متى بلغنا الجّسر العظيم الذي يمثّل المعبر بين «بغويه» والأرض. لكن قبيل أن نبلغه، توقّفت الوصيفات ورفعن عقيرتهنّ بأغنية شبحيّة غريبة. تحوّلت ألحانهنّ العذبة، فجأة، إلى رثاء وندب، وغنّين بأصوات مرتعدة. علا صياحهنّ لدى غنائهنّ عن المعاناة في الدّنيا، وشرّ اضطهاد الإنسان لأخيه الإنسان، ومحنة الابتلاء بالمرض، ومرارة الخديعة، وهول الفقدان، وفجيعة الموت. كانت «أُنيه أُوى» قد انضمّت إليهنّ، أمّا أنا فشعرت بآصرة ربطتني بهنّ وبأهل «إلوِغويه»، الذين كلّما مررنا بأحد منهم قال: «دعواتنا للذاهب إلى 'آوى' بالسّلام والحبور!» بل حتّى بسرب طيور البوقير البيضاء، طيور «إلوِغوسه» المقدّسة، التي حوّمت حولنا، ضاربة أجنحتها بإجلال واحترام.

– بعد ذلك، انفضّ جَمع الوصيفات المغنّيات، وكأنّهنّ تلقّين إشارة غير مرئيّة، ثمّ ابتعدن عنّا وهنّ يلوّحن بأيديهنّ من بعيد. لوّحن لنا. ولوّحت الطّيور لنا، أيضًا، وهي معلّقة فوق الجّسر، وكأنّ ثمّة حدًّا لم يكن بمقدورها أن تتخطّاه ولم يكن بمقدورنا، أنا والرّوح

التي ستتجسّد عمّا قريب، أن نراه. ردّينا على التّلويح بالتّلويح، وفور أن خطونا فوق الجّسر، وجدت نفسي في مكان بدا لي أنّي كنت فيه من قبل. كان المكان مغمورًا بضوء ساطع مماثل لذاك الذي كان في «إلوغويه»، لكنّ هذا الضّوء كان من صنع الإنسان. كان مصدر الضّوء مكتظًّا بالحشرات. وثمّة سحليّة واقفة قرب مصباح الضّوء فوق الجّدار، وفمها ممتلئ بالحشرات. فوق سرير أسفل المصباح. عبرت «أُنيه أوى» إلى داخل المرأة. لم تعرف المرأة ولم تدرك أنّ كيمياء الحمل العظيمة كانت قد فعلت فعلها في داخلها. قمت بالانضمام إلى «أُنيه أوى» وأصبحنا واحدًا مع بذرة الرّجل، وبهذا الاتّحاد أصبحنا جميعًا واحدًا **لا يقبل القسمة**. نديتشه نا نديوكبو، أونو غا دي.

ردّدت الأجساد الخالدة بصوت واحد: «إِسيه!».

– من تلك اللّحظة فصاعدًا، حرسته بعينين واسعتين كعينَي البقرة، لا تعرفان طعم النّوم كعينَي السّمكة. في الحقيقة، لولا تدخّلي، أو لو كنت قرينًا حاميًا سيّئًا، لما كان قد وُلد أصلًا.

ردًّا على هذا، سرى تململ بارد في جنبات جمع هذا الفوج الذي لا يعرف الموت طريقًا إليه. فقلت:

– هذا صحيح، أيّها المباركون. حدث ذلك خلال شهره الثّامن، وهو بعدُ في رحم والدته. كانت أمّه جالسة فوق كرسيّ خشبيّ صغير محشور بين سطلين، أحدهما فيه ماء نظيف شفّاف، غطّت سطحه طبقة رقيقة من الرّغوة، والآخر فيه ماء عكر، بداخله ثياب منقوعة. فوق كومة الثّياب المتّسخة، كانت علبة مسحوق «أومو» للغسيل. لم تكن هي قد لاحظت، ولا كان قرينها الحامي قد حذّرها، من الأفعى السّامّة التي تسلّلت تحت كوم الثّياب وبدأت في الاختناق. لكن أنا، وقد كنت واقفًا خارج مُضيفي ووالدته، مثلما أفعل دائمًا إلى حين يتمكّن مُضيفِيّ من الاستحواذ الكامل على أجسادهم، كنت قادرًا على رؤيتها

-فحّت الحيّة السّوداء من داخل رِجل أحد السّراويل، ولدى التقاط والدته لذلك السّروال، لدغتها الأفعى.

– كان للضّربة أثر مباشر. ومن بصر والدته الزّائغ، عرفت بأنّ اللّدغة كانت رهيبة. في موضعها، انبثقت نقطة دم داكنة. صرخت من أعماقها حتّى سارعت الدّنيا إلى نجدتها. فور أن لدغَتها الأفعى، أدركت أنّ بمقدور السّمّ أن يسري في جسد الوالدة وأن يقتل مُضيفي في ملاذه داخل رحمها. لذا، قمت بالتّدخّل. رأيت السّمّ وقد بدأ في السّريان نحو مُضيفي، الذي لم يكن سوى جنين غافٍ داخل جراب الرّحم. كان سمًّا زعافًا حارقًا زاحفًا بعنف عبر دمائها. عندئذ، طلبت من قرينها الحامي أن يحملها على الصّراخ بأعلى الصّوت كي يلتمّ الجّيران على الفور. شدّ رجل بسرعة عصبة حول ساعدها، فوق المرفق بقليل، موقِفًا سريان السّمّ ومسبّبًا انتفاخًا في الذّراع. هجم جيرانها على الأفعى ودقّوها بالحجارة دقًّا إلى أن أصبحت لحمًا مهروسًا، وآذانهم البشريّة صمّاء أمام توسّلات الحيّة والتماسها الرّحمة منهم.

– جميعكم تعرفون بأنّ من واجبي معرفة ورصد الألغاز المحيطة بوجود مُضيفي. بالفعل، حتّى الشّاة أو الدّجاجة بوسعها أن تؤكّد على أنّني شاهدت وسمعت الكثير. لكنّني لم آتِ إلى هنا إلّا لأنّ مُضيفي وقع في مصيبة عظيمة. مصيبة من شاكلة ما يحمل العين على ذرف الدّم بدل الدّموع.

قالوا: «تكلّمت فأجدت!».

فقلت:

– يقول أبناء جلدتكم إنّه حتّى الرّجل الواقف فوق أعلى تلّة، لا يستطيع رؤية العالم بأسره.

فغمغموا بالإيجاب وردّوا بالقول: «إزي أُكوه».

فقلت:

- يقول أبناء جلدتكم إنّه إذا أراد الرّجل حكّ يديه ومعظم أجزاء بدنه، فإنّه لن يحتاج إلى مساعدة. لكن إن كان لا بدّ له من حكّ ظهره، فلا بدّ له من طلب المساعدة.

ردّوا قائلين: «تكلّمت فأجدت!».

فقلت:

- هذا هو سبب مجيئي: إنّني ألتمس جوابًا على سؤال، إنّني ألتمس مساعدة منكم. يا سكّان أرض الموتى الأحياء، أخشى أنّ عاصفة هوجاء تقدّمت بالتماس لإغلاق الطّريق الوحيد إلى قرية «أُوكوسيسي» الطوباويّة، وأنّ طلبها قد استجيب.

ردّوا ببصقة واحدة وقالوا: «تُفيا!».

ردًّا على ذلك، وقف من بينهم واحد، إزي أُومِنكارا نفسه، الصّيّاد العظيم الذي بلغ في أسفاره إبّان حياته «أُدُنجي» البعيدة وجلب معه صيدًا وفيرًا. ثمّ قال: «ندي آبِم، أحيّيكم. نحن لا نستطيع أن نمدّ أيدينا لضرب أفعى تهدّدنا باللّدغ مثلما نفعل مع النّاموس. فليس الأمران سيّان».

قالوا: «تكلّمت فأجدت!».

ردّ: «ندي آبِم، كوينو».

فقالوا: «آيّاه!».

فقال: «كو زُينو».

فردّدوا: «آيّاه!».

خاطبني: «أيّها القرين الحامي، تحدّثت مثلما يتحدّث الواحد منّا. تحدّثت مثلما يتحدّث الواحد الذي نضج لسانه، وفعلًا، كلماتك استوت في نضوج، لا بل هي مستوية على سوقها بيننا الآن. مع ذلك، حريٌّ بنا ألّا نغفل عن أنّ الواحد إن بدأ بالاغتسال من الرّكبتين فصاعدًا، فلربما نفد الماء قبل أن يصل إلى الرّأس».

هتفوا قائلين: «تكلّمت فأجدت!».
تابع: «لذا، أخبرنا عن هذه العاصفة التي تتهدّد ابننا تشننسو».

«أَغباتَّه آلومالو»، قلت لهم كلّ شيء مثلما رأته عيناي، ومثلما سمعته أذناي، ومثلما قمت باستعراضه الآن بين أيديكم. أخبرتهم عن ندالي، ولقائه بها فوق الجّسر، وحبّه لها. وأخبرتهم عن تضحياته، وكيف باع بيته. أخبرتهم عن جامايك، وكيف احتال على مُضيفي، وكيف أنّ مُضيفي، إثر اعتقاده بأنّ المرأة البيضاء أنقذته، بات الآن يرقد في غيبوبة، ومن المحتمل أن يكون قد قتل رجلًا آخر.
قالوا بصوت واحد: «تكلّمت فأجدت!».

ثمّ خيّم صمت عليهم، صمت مستحيل فوق الأرض. بل حتى آتشيي أوليسا، الملتاع من قيام ابنه ببيع الأرض، خفض بصره إلى موقد النّار وحدّق إليه بعينين خاويتين، صامتًا مثل حطبة ميّتة. ثمّ نهض فريق منهم، حوالي خمسة أشخاص، ومضوا إلى ركن للتّباحث. ولمّا رجعوا، قالت آتشيي ننه، آدا أُمينكارا، جدّة مُضيفي: «هل تعرف أيّ شيء عن قوانين أهل هذا البلد الجديد؟».
- لا أعرف أيّتها الأمّ العظيمة.
سأل آتشيي إزا أُمينكارا، الجدّ الثّالث لمُضيفي: «هل قتل رجلًا من قبل؟».
- لا، لم يقتل أحدًا يا آتشيي.
فقال آتشيي إزا أُمينكارا الآن: «أيّها القرين الحامي، ربما سينجو الرّجل الذي ضربه ابننا بالكرسيّ. نأمرك أن تعود وتستأنف حراستك له. لا تقم بمتابعة السّير إلى «بِغويه» كي تُعلم «تشوكو» بالأمر إلّا بعد أن تتيقّن من أنّ مُضيفك قتل هذا الرّجل بالفعل. وما دام لم يُضرب بغير كرسيّ فقط، فنحن نأمل أن يبقى على قيد الحياة. لتكن عيناك مثل عينَي السّمكة وعُدْ إلى هنا حين يصبح في جعبتك كلام آخر لنا».

ثمّ استدار صوب الآخرين وقال: «ندي آبِم، هل نطقت بما يعتمل في أذهانكم؟».

فردّوا بصوت واحد: «غْبام!».

فقال مواصلًا الحديث: «إنّ القرين الحامي الذي يقع أسير النّوم أو يترك مُضيفه لأجل الذّهاب في رحلات -إلّا حينما تستدعي الضّرورة، مثلما فعل هذا الواحد- فهو إِفُلِفو، قرين حامٍ ضعيف، مُضيفه مجرّد حمل مربوط بحبال مفتولة إلى عامود للذّبح».

قالوا: «تكلّمت فأجدت!».

فقلت:

- بلغتني كلماتكم، يا أهل «آلاندِه تشِه». سأرجع الآن من حيث أتيت إذًا.

فهتفوا قائلين: «أجل، الإذن لك. ولتصحبك السّلامة في الطّريق الذي أتيت منه».

فقلت مؤمّنًا:

- إِسيه!

«وليَظلّ دربك مضيئًا بنور لا ينطفئ».

- إِسيه!

استدرت كي أرحل عنهم، أولئك الذين لم تعد يد الموت تطالهم، شاعرًا بالرّاحة لأنّي كنت قد وجدت على الأقلّ متنفّسًا ما بعيدًا عن ذعري وقلقي. لدى رحيلي، من دون التفات إلى الوراء، تساءلت: ما ذاك الصّوت الجّميل الذي علا ثانية وصدح بأغنية تحثّني على المضيّ قدمًا؟

وهكذا، «تشوكو»، كانت رحلتي قد اكتملت. فطرت عبر رقعة شاسعة من اللّيل الملتهب، وتجاوزت جبالًا بيضاء في أقصى أطراف «بَنمو»، حيث كانت ثمّة أرواح ذات أجنحة سوداء تقف فوقها،

متحدّثة بأصوات كئيبة. لما اقتربت من التّخوم المهيبة للأرض، رأيت «إكوَنسو»، المعبود المخاتل، الذي لا تخطئه العين، واقفًا في ثوبه ذي الألوان المتعدّدة، ورأسه فوق عنقه الطّويل، الممتدّ في الأرجاء مثل ذراع الأخطبوط. وقف على أحد أطرافه فوق قرص القمر، محدّقًا إلى الأرض بعينيه الوحشيّتين وضاحكًا بينه وبين نفسه، لعلّه كان منهمكًا في رسم حيلة شرّيرة ما. كنت قد أبصرته في البقعة نفسها مرّتين من قبل، كانت آخرها قبل أربع وسبعين سنة. ومثلما فعلت في الماضي، تجنّبته وواصلت المضيّ نحو الأرض. وبعد ذلك، بتلك القدرة العجيبة التي تمنح أيّ قرين حام قدرة العثور على مُضيفه أينما كان في أرجاء الكون، وصلت إلى المكان الذي كان مُضيفي ممدّدًا فيه والتحمت به. رأيت على الفور بواسطة السّاعة المعلّقة فوق الحائط أنّني كنت قد غبت زهاء ثلاث ساعات، بحسب مقياس الرّجل الأبيض للوقت. تمّ إسعافه، «إيبونو». كانت الغرز قد شكّلت سلّمًا هابطًا من رأسه إلى وجهه، وقطعة قطن ضخمة مبلّلة بالدّم محشوّة في فمه حيث كانت أسنانه قد تكسّرت. لم يكن أيّ أحد آخر في الغرفة، لكن كان جنب سريره شيء له شاشة مثل شاشة الحاسوب، وكأنّما وُضع هناك كي لا يبقى وحيدًا، ومن ذراعه امتدّ كيس صغير عُلّق فوق مشجب معدنيّ، وكان فيه دم. كانت عيناه مقفلتين، وداخل بصره الضّبابيّ، تجمّدت صورة لندالي وهي تنظر إليه، كما لو كانت مشدودة إلى ذهنه بحبل لا ينفصم.

الجّزء الثّالث

التّعويذة الثّالثة

«غاغان أَوغو»، أسألك ألّا تكلّ آذانك-

حتّى وأنا واقف هنا، بمقدوري أن أسمع صوت التّراتيل، والغبطة، وألحان المزامير الشّجيّة العذبة. قمت بزيارة هذا القصر الذي تقطنه مرّات ومرّات. وأعلم أنّ القرناء الحماة ومُضيفيهم سيأتون إليك هنا لأجل نيل موافقتك النّهائيّة على مولدهم من جديد، تجسّدهم في جسد جديد، والحياة في الأرض ثانية مثل الطّفل الوليد-

يقول الآباء إنّ الرّجل لا يقف بقدمين عاريتين فوق الجمر لأنّ قدميه مبتلّتان بالماء-

إنّ المرء لا يرقص قرب جحر للأفاعي السّامّة لأنّ «أُبي»[1] المرء صغير جدًّا-

قال طائر بلا جناحين لإناء «كالاباش»[2] مثقوب: «حريٌّ بي أن أبصق عليك، لكنّ لعابي أثمن من أن يُهدَرَ عليك»-

من يثير عشّ الدبابير، عليه أن يتحمّل لسعاتها-

ثعبان العار الأعور يلوذ بملجأ قرب بابي. يسألني: «أتأذن لي؟» فأقول: «لا. لا أريد أن تستقرّ أهوالك في مرابعي»-

الخراب يقول لي: «أتسمح لي بالإقامة تحت سقفك ونصب

---

(1) «أُبي»: الكوخ.

(2) «كالاباش»: وعاء مجوّف مصنوع من القرع المجفّف، يستخدم كأناء للشّرب أو الطّعام. ولو كان مثقوبًا لفقد وظيفته الأساسيّة، ولما كان لائقًا به أن يعيب على طائر لأنّ لا جناح له.

خيمتي في بيتك؟». فأقول: «لا. انصرف وقل لمن أرسلك إنّني لست في البيت. قل لِهم إنّك لم ترني»-

«إيبو بيرو، أُغو إِبيكوارو، أونيه سي إِبِي يا إِبيلاا نْكو كوا آيا»-

أسألك ألّا يتعثّر الكلام في فمي، وأن ينطلقَ لساني بسرعة إلى أن أبلغ نهاية شهادتي-

أسألك أن يظلّ لسانًا رطبًا مثل كرم الـ«مانغروف»، وألّا تجفّ الكلمات منه-

وأسألك ألّا تكلّ آذانك من سماع صوتي-

أسألك أن تتكلّل هذه التّعويذة بنهاية مثمرة لشهادتي في هذه اللّيلة، التي سأغادر بعدها ردهات «بِغويه» وأعود إلى جسد مُضيفي الذي ينتظرني-

إسيه!

18

العودة

«**أكاناغباجِغوه**»، إنّ الكون لا يتّخذ الماضي دار مقام ولا محلّ قرار، متحلّقًا، مثل سرب من الغربان، حول جيفة تفسّخت وراحت تطلق أبخرة عفنة في الهواء. بل إنّه يسير قدمًا، ماضيًا دومًا فوق درب المستقبل المتعرّج، ولا يتوقّف في الحاضر إلّا برهةً لأجل إراحة قدميه مثل رحّالة أضناه طول السّفر. ثمّ، حالما يرتاح، ينطلق إلى الأمام، من دون أن يلتفت إلى الوراء. إنّ عينيه هما عينا الزّمن، مشدودتان على الدّوام إلى الأمام ولا تنظران أبدًا إلى الخلف. لا يلقي الكون عصا التّرحال مهما يحصل للقاطنين فيه. إنّه يواصل، يقطع الجّسور، ويتخطّى البرك والمستنقعات، ويدور حول فوّهات البراكين، ويتابع. هل دمّر حريق مهول أمّة ما؟ لا بأس ما من مشكلة. إن حصل مثل هذا الأمر في الفجر، فلا بأس، لأنّ الشّمس ستشرق، مثلما فعلت منذ بدء الكون، وفي تلك المدينة بالذّات، ستغرب الشّمس وسيهبط اللّيل. هل عصف زلزال بأرض ما. لا بأس؛ مطلقًا لن يعطّل دورة الفصول الأربعة. وحياة الكون منعكسة على حيوات أولئك الذين يعيشون فيه. هل قُتل ربّ أسرة؟ لا بدّ للأطفال من النّوم في هذه اللّيلة ومن الاستيقاظ في الغد. الكلّ يواصل ويتابع السّير، محمولين إلى الأمام مثل أوراق قديمة فوق سطح نهر الزّمن.

لكن رغم مواصلة الكون رحلته، حاملًا معه كلّ الأحياء، ثمّة مكان

يستطيع الرّجل أن يظلّ فيه ساكنًا، كما لو أنّ كونه الشّخصيّ قد توقّف عن الانطلاق إلى الأمام. هو أحد الأمكنة التي يهابها البشر لأنّه مكان لا يقومون فيه بفعل أيّ شيء. لا يحرّكون فيه ساكنًا. يُحبَسون فيه كالحيوانات التي تمّ اصطيادها ويقبعون داخل حيّزه الضّيّق بلا حركة. كأنّما ثمّة رسم بحبر غير مرئيّ يحدّد أبعاد الحيّز الضيّق بالقول: «من هذا الحائط إلى ذاك الحائط، ومن هذا المدى إلى ذاك المدى، هذا كلّ ما هو متاح لك من رقعة العالم بأسره». لكن لا بدّ لي من الإشارة، «أغوجِغبه»، إلى أنّ الرّجل الذي ضُرب طوق حول نطاق حركته ليس رجلًا حيًّا بكلّ معنى الكلمة. فالوقت يتهكّم عليه كلّما مرّ. وهذا ما يحدث داخل الحبس.

ففي هذا المكان، لا يمكن أن تتشكّل أيّ ذكرى جديدة تقريبًا. فالرّجل يستيقظ في الصّباح، يأكل، يتغوّط في حفرة صغيرة، يحكم سدّها بغطاء بعد أن يلقي فيها ماءً جلبه في سطل صغير من صنبور في غرفته. ثمّ ينام. عندما يستيقظ ثانية، إن كان الوقت ليلًا، فهو ليل؛ وإن كان الوقت فجرًا، فهو فجر. فالزّنزانة لا يدخلها سوى طيف واهٍ من الضّوء الذي يرفع رأسه الباهت ويطلّ عليها وكأنّه رأس صغير الأفعى. إن كان الوقت نهارًا، يعبر الضّوء على هيئة شعاع منفرد عبر الكوّة في قمّة الحائط المرتفع قرب السّقف العتيق. أمّا الكوّة فمسدودة بقضبان حديد صلبة.

يقعد الرّجل هنا طوال اليوم، وهو أشبه بالميّت من الحيّ، تذبل مادّة الحياة منه وتتقشر ثمّ تتساقط شظايا صغيرة بين قدميه. يحجب العالم نفسه عن مثل هذا الرّجل. يحجب أسراره الدّفينة والعميقة والسّطحيّة بل وحتّى ما لا يعَدّ من قبيل الأسرار. لا يعرف هذا الرّجل أيّ شيء ممّا يدور، لا يرى أيّ شيء، ولا يسمع أيّ شيء. فالجسر الذي كان قد عبَرَه للوصول إلى هنا، مثل الجسر الذي نصبه جيش منسحب، نُسف

بعد المرور عليه، ونُسفت معه كافّة أشكال الاتّصال بالعالم المعروف. والآن بات رهين هذا الحيّز -مهما طال به أمد البقاء. وهذا ليس مهمًّا. أمّا الأمر المهمّ فهو أنّ حياته راكدة. إنّه يقضي سحابة يومه محدّقًا إلى الحوائط أو القضبان المطلّة على الزّنازين الأخرى إلى أن يغشى الوهن عينيه. من حين لآخر، يرى شيئًا يتحرّك في مجال نظره، لكنّه سرعان ما يفلت من عينيه. فلا تتشكّل لهذا الشّيء ذكرى جديدة في ذهنه، فمثل هذه الأشياء، وعبر الطّريقة التي تحصل فيها، تبدو مثل الحيوانات الضّعيفة التي تقرع بعنف الباب الموصد على إنسانيّته المغلّفة بالصّمت ثمّ تفرّ هاربة. أو مثل تلك الحشرات التي تهرع نحو مصباح لتؤدّي رقصة طقوسيّة للهلاك لا ينجم عنها سوى موتها هي وليس أيّ شيء آخر. رأيت هذا مرّات ومرّات، «إيبونو».

حال أن حُمل مُضيفي من المستشفى، حيث مكث مدّة أسبوعين، إلى الزّنزانة حيث سيمكث في حبس انفراديّ، لم يعد بوسعه تشكيل أيّ ذكريات جديدة. ولو استطاع الرّجل، في حالات نادرة، تشكيل ذكريات جديدة خلال المكوث في السّجن، فغالبًا ما تكون تلك الذّكريات أمورًا لم يرغب فيها، وإنّما فُعلت به. بهذا، فهي ليست تاريخًا طوعيًّا للمرء. ولأنّ الإنسان مسلوب الإرادة ولا قدرة له على التّحكّم في مثل هذا الأمر، فإنّ ذكرياته تُقحم نفسها فيه رغمًا عنه. فور أن يشهد الرّجل شيئًا ما، فإنّ هذا الشّيء ينسرب إلى ذهنه وكأنّ ثمّة شقًّا فيه، ثمّ يبقى هناك. إنّه لا يتبدّد ولا يبرح مطرحه.

ظلّ مُضيفي في هذه الحالة طوال أربع سنوات. سِجلّ تلك السّنوات الأربع، وما كابده فيها من نكَد العيش الرّتيب، وشقاء الحياة الرّاكدة، ما لا يمكن أن يُقارن إلّا بعذاب عبد رقيق، مثلما رأيته في مُضيفي الأسبق، ياغازي. فالسّجين، أيضًا، عبد، أسير في قبضة حكومة هذا البلد الغريب. على مرّ دورات وجوديّة كثيرة، تعرّفت على ظلام القلوب الفتيّة، متمرّغًا

في وحل مطامح كثير من الرّجال، ومتلصّصًا مختلسًا النّظرات على قبور إخفاقاتهم. لكنّي لم أرَ قطّ أيّ شيء مثل هذا.

رجع الآن إلى أرض الأحياء وإلى أرضه نفسها. أمّا عمليّة رجوعه إلى أرض الآباء، فقد جرت بسرعة فائقة. ففي باكورة متاعبه، حاولت إنقاذه. وفور أن أخذته الشّرطة إلى المستشفى وكان وحيدًا في غرفة، غائبًا عن الوعي، لم يكن أمامي أيّ خيار سوى ذاك الذي يجب أن يلجأ إليه القرين الحامي بصفته القرار الأخير، حينما تتبدّد قوّة الإنسان بالكامل: ذهبت إلى «آلاندِ تْشِه» ملتمسًا تدخّل أسلافه، وقد عرّجت آنفًا على تفاصيل ذلك.

خلال الصّباح، وفي الشّهر الخامس من سنته الرّابعة في السّجن، جرى إطلاق سراحه فجأة، من دون سابق إنذار. لم يكن أيّ شيء قد هيّأه لذلك. كان جالسًا، مسنِدًا ظهره إلى حائط تقشّر طلاؤه من طول الاستناد إليه، يفكّر تلك اللّحظة في أمور غير مترابطة -دبيب النّمل فوق تلّ ما، ديدان داخل علبة حليب عفن، طيور صغيرة متجمّعة فوق شجرة برّيّة- حين بدأت قضبان زنزانته بالاصطكاك ثمّ أزيحت جانبًا. عند العتبة، وقف رجل في زيّ رسميّ هو حارس، وأبلغه بلسان الرّجل الأبيض أنّ إجراءات إطلاق سراحه قد بدأت.

تبعهما إلى غرفة التّحقيق، ولاحقًا، سيخبره المترجم بأنّ قضيّته خضعت للمراجعة. اعترفت الشّاهدة الأساسيّة في القضيّة أنّها زوّرت تفاصيل شهادتها السّابقة. لم يكن قد ذهب إلى بيتها لسرقتها أو اغتصابها، بحسب شهادتها الأولى، بل هي أخذته إلى بيتها بمطلق حرّيّتها، وقد اشتعلت غيرة زوجها منه واحتدم غضبه فهجم عليها وعليه. أمّا مُضيفي فلم يتوخّ من وراء التّصدّي للزّوج والهجوم عليه سوى إنقاذها منه. وهذا، بحسب شهادة المرأة الآن، كان ما قد جرى في الحقيقة. «غاغان أَوغو»، هذا لم يكن ما قيل للشّرطة على الإطلاق!

بالعكس. كانت المرأة وزوجها قد تآمرا على مُضيفي، الرّجل البريء، وكانا قد قالا إنّه حاول اغتصابها. قالا إنّ زوجها لمّا دخل إلى البيت وجدها تحاول الفكاك من قبضة مُضيفي أثناء محاولة اغتصابه لها فتدخّل على الفور وأسقط، المعتدي، مغشيًّا عليه.

إثر سماع مُضيفي تلك الأمور، لم يقل شيئًا للحارس أو للمترجم. بل اكتفى بالجّلوس هناك وحدّق إلى الرّجل الأنيق صاحب الملفّات والمترجم، لكن من دون أن يراهما. كانت عيناه قد تعوّدتا الآن على التقاط صورة ما، ثمّ تجاهلها مباشرة، وتخطّيها إلى شيء آخر. ثبّت ناظريه دونما انقطاع على حائط ضخم فارغ، مساحة عظيمة من اللّاشيء التي كانت، مع ذلك، قد استولت على بصره وذهنه. قال المترجم: «سيد غنوسو، أتودّ قول شيء؟».

لمّا لم يردّ، حنى المترجم رأسه واقترب بفمه من أذن الآخر كما لو كان سيقبّله، ثمّ التفت إليه الاثنان وهما يومئان برأسيهما. كان تصرّفهما غريبًا، حتّى بالنّسبة لمُضيفي. تكلّم أحدهما على عجل، وأفرط الآخر في الإيماء برأسه: «تودّ صديقتي السّيّدة فيونا الدّين أوغلو الاعتذار منك. إنّها آسفة للغاية بسبب ما حصل. مرّة أخرى، هذا محاميها. وقد طلبت منّا أن نعطيك هذه النّقود. وهي تريدنا أن نبذل أقصى ما في وسعنا لمساعدتك في استرداد حياتك».

لم يقل شيئًا، ظلّ بصره مسلّطًا حيث رماه -فوق ذبابة كانت تلفّ وتدور بين النّافذة والشّبك الكائن خلف الطّاولة حيث كان الرّجلان جالسين.

«سيّد غنوسو».

كان المتحدّث الآن هو المحامي الذي لا يجيد الإنجليزيّة، ولعلّه تخوّف من أنّ مترجمه لم يوصل رسالته بوضوح كافٍ، وأنّه من الأحسن لصاحب الرّسالة أن يوصلها بنفسه، بصرف النّظر عن مدى رداءة لغته.

قطعًا، سيكون أثرها أوقع في النّفس. قطعًا، ستحظى بالاحترام. واصل المحامي الحديث قائلًا: «أنا أقول الحقيقة الآن، موكلتي الحقيقة فقط. نحن آسف جدًّا جدًّا، على معاناة أنت. آسف جدًّا. على مدار»...

قطع كلامه والتفت إلى صديقه ثمّ سأله شيئًا واستأنف قائلًا: «سنوات، يعني، سنوات. على مدار سنوات فيونا ظلّت حزينة بسبب هذا. هي آسفة، آسفة جدًّا، يا صديقي. أرجوك، سيّد غنوسو، يجب أن تقبل اعتذار هي».

لم يقل شيئا لهذا الرّجل أيضًا. على مدار أربع سنوات، كلّ ما كان يجب أن يُقال ويناقش مع أولئك النّاس قد قيل. بعد ذلك، فقدت الكلمات قيمتها وتحوّلت إلى شيء آخر، شيء هلاميّ، عديم الشّكل والقوام، تافه. في محلّ الكلمات، كان الاحتقار قد ضرب جذوره وتفتّح. ومع أنّه كان رجلًا لا يضمر في نفسه الكثير من الغضب، إلّا أنّه وقع في أسر شيء باطنيّ شرّير جنّده رغمًا عن إرادته. والآن أحسّ أنّ هذا الاحتقار قد بلغ ذروته واستحضر صورًا حادّة للعنف في ذهنه خلال حديث الرّجلين. الرّجل الذي كان في زيّ الشّرطة رآه ممدّدًا فوق الأرض، عنقه مشطور بنصل في يد مُضيفي يقطر دمًا فوق الجثّة الهامدة. المحامي رآه وقد انقطعت أنفاسه، لسان الرّجل متدلّ من فمه ومُضيفي ممسك بخناقه.

حتّى ولو بشكل طفيف، أدرك مُضيفي بأنّه أصبح جنديًّا من جنود الغضب. من دون أن يعلم حقيقته بالضّبط، ثمّة شيء تغيّر في داخل نفسه. فروح الرّجل قد تتحمّل لوقت طويل ظروفًا تخلو من الرّحمة والشّفقة، لكنّها، في النّهاية، ستنتفض، عاجزة عن تحمّل المزيد. رأيت هذا مرّات ومرّات. سيحلّ التّمرّد محلّ الخنوع. وستحلّ المقاومة محلّ التحمّل. وسيثور مثل أسد أسود يتطلّع إلى الانتقام بقبضة مشدودة. أمّا ما سيفعله، أو ما لن يفعله، فلن يتوقّعه حتّى هو نفسه.

«إيبونو»، جنديّ الغضب، هو رجل سدّدت له الحياة لطمة شديدة. رجل، مثل سائر الرّجال، عثر ببساطة على امرأة أحبّها. صاحبها مثلما يفعل الآخرون، ورعاها، ثمّ اكتشف بأنّ كلّ ما بذله في هذا السّبيل ذهب أدراج الرّياح. يفيق ذات يوم فيجد نفسه في السّجن. أخطأ التّاريخ والبشر بحقّه، والوعي بهذا الخطأ هو الذي يولِّد التّغيّر في نفسه. وفي لحظة بدء التّغيّر، يعبر ظلام عظيم إلى داخله عبر الصّدع في روحه. بالنّسبة لمُضيفي، كان زحف ذلك الظّلام متعدّد الأرجل على هيئة أمّ أربع وأربعين ولّادة حفرت جحورًا لها في حياته منذ العام الأوّل من سجنه. ثمّ أنجبت ذرّيّة لها، وسرعان ما بدأ نسلها في التهامه من الدّاخل، وبحلول العام الثّالث، كان الظّلام قد أخمد شعلة النّور في حياته. وأينما ساد الظّلام، انتفى النّور.

طوال معظم الوقت، لا يتحرّق جنديّ الغضب إلّا لتحقيق شيء واحد: العدالة. فإن كان أسيرًا مكبّل اليدين، فكلّ ما يشتهيه هو التحرّر من قيده والضّرب على يدَي من كبّله. وإن خسر شخصًا أو شيئًا، فكلّ ما يبتغيه هو أن يستردّه من الأيدي الغاصبة. وهذا في غاية الأهمّيّة، لأنّ استرداده لتلك الأمور هو الطّريقة الوحيدة التي تمكّنه من استعادة نفسه من جديد.

في حالة مُضيفي، كان لقاؤه مع المحامي والمترجم بمثابة المرّة الأولى التي وجد فيها نفسه مضطرًّا إلى فعل شيء وفقًا لما تمليه عليه عواطفه منذ أمد بعيد. في الحبس، لم يكن ثمّة معنى لما انتابه من أحاسيس، لأنّه لم يكن قادرًا على التّصرّف وفقًا لما تمليه عليه. أيّ نفع، مثلًا، كان من وراء الإحساس بالغضب؟ لا شيء، لأنّه كان يعدم الحيلة في فعل أيّ شيء بصدده. الإحساس بالحبّ؟ لا شيء. كافّة ما أحس به كان يبتلعه ثانية ليستقرّ في بطن عجزه.

سوف يدرك أنّ السّيّدة فيونا، التي لم يرها قطّ إثر شهادتها الأخيرة في المحكمة، أصرّت على أن تُوضع النقود في حقائبه، إذا رفض

أخذها، وأن تُرسل معه إلى نيجيريا في الطّائرة. «ليس ترحيلًا»، كانت فتاة سوداء قد قدّمت نفسها له على أنّها نيجيرية، واحدة من بين أشخاص كثيرين تكلّموا معه، وقالت له: «لقد سألوك... أعني، جامعتك عرضت عليك منحة دراسيّة مجّانيّة من باب التّعويض إن كنت ما زلت تودّ إكمال الدّراسة والبقاء هنا، لكنّك رفضت قول أيّ شيء على الإطلاق لأيّ أحد منهم. وبسبب رفضك للتّحدّث معهم، بل حتّى معي أنا، سيرجعونك إلى نيجيريا، وسيرسلون معك كافّة ما جلبته إلى هنا».

حتّى مع تلك المرأة، مع أنّه كان قد أولاها عين الانتباه، لم يتكّلم. لذا، كفّ أولئك الذين سعوا إلى فعل شيء ما تجاهه أو لأجله عن المحاولة. لجأوا إلى استنباط ما كان يريده من حركاته القليلة -والنّظرات الجّانبيّة الخاطفة، هزّات الرّأس، بل وحتّى الانفعالات البدنيّة الطّبيعيّة التي لا علاقة لها بالتّواصل مع الآخرين مثل العطس. استنتجوا، أو قرّروا، بأنّ ما يُفهم من امتناعه عن الكلام هو أنّه لا يريد أيّ شيء سوى العودة إلى أرض الوطن. بحثوا في طلبات القبول الجّامعيّة الخاصّة به، واتّصلوا بأقرب الأقرباء، عمّه. ثمّ بعد يومين على إطلاق سراحه، حملوه إلى المطار. ناولوه تذاكر السّفر ووضعوه في الطّائرة وأبلغوه بأنّهم اتّصلوا بعمّه وأنّه سيكون بانتظاره في مطار أبوجا. ثمّ، وبعد أن تمنّوا له الحظّ السّعيد، قام المحامون، ومسؤولو الحكومة القبرصيّة التّركيّة، ومسؤول في جامعته، والفتاة النّيجيريّة بتوديعه تلويحًا بالأيدي. حتّى هذا لم يعبأ بالردّ عليه.

لم ينبس ببنت شفة إلى أن أقلعت الطّائرة. وعلى الفور، فتحت الوقائع الميّتة عيونها، وبدأت الخيالات المنسيّة منذ أمد طويل بالقيام من قبور الزّمن. تحوّل البلد الذي أعيدت فيه كتابة قصّة حياته إلى مجرّد نقطة صغيرة، وخلال هذا التحوّل وجد نفسه تعاني الأمرّين

في تتبّع مسار رحلته. ما الذي أتى به إلى هذا المكان حيث فُعلت به الأفاعيل؟ انتظر برهة وقد تململ الجّواب واندفع أمواجًا من تحت السّهول الجّرداء، ثمّ طفا إلى سطح ذهنه: أتى لكي يتمكّن من أن يكون مع ندالي. ندالي التي كان التّفكير فيها قد استولى عليه طوال معظم تلك السّنوات، لكن لشدّة ما أصابه من جزع وكوابيس وهواجس متواصلة جرّاء الخوف من تركها له، منع نفسه من التّفكير فيها. استحضر الحفل في بيت والدها وما لحقه فيه من إهانة. تذكّر تشُكا، الذي أنزل به العذاب الشّديد. كانت الطّائرة على أهبة الهبوط في إستنبول عندما طفت ذكريات مزرعة الدّواجن، مبلّلة ومتلألئة. تابع شريط الذّكريات، وشاهد أقنان الدّجاج وأبصر نفسه وهو يعلفها. حدّق إلى نفسه لدى تسجيله فوق جدار القنّ موعد آخر تنظيف عامّ، وهو ما يقوم به كلّ أسبوعين. رأى نفسه أثناء جمع البيض من الأقنان، نافخًا عنها التّراب والرّيش قبل وضعها في كيس. ثمّ رأى، في نقطة زمنيّة غير محدّدة من الماضي، نفسه وهو يسجّل تاريخ فقس الكتاكيت في دفتر «الفولسكاب» الضّخم. كان الدّفتر مؤلّفًا من ستمائة ورقة، وكان غلافه قد تمزّق وسقط، وكانت صفحاته السّبعون الأولى ما زالت تضمّ أسطرًا خطّتها يد أبيه. بعد ذلك، رأى نفسه في سوق «آرياريا» الكبير، لدى بيعه قفصًا ممتلئًا بالفراريج الصّفراء وديك أبيض كان عُرفه قد انشطر شطرين أثناء عراكه مع ديك آخر. «تشوكو»، ذكريات كلّ تلك الأمور، وحتّى بعد مضيّ كلّ تلك السنوات، حطّمت قلبه من جديد.

«أغوجِغبه»، لدى اقتراب الطّائرة من أرض أبناء الآباء العظماء، تركت جسد مُضيفي، شوقًا لرؤية غابات «آلا إيبو» المطيرة والجميلة من جديد، حيث ظلال الصّبح المخمليّة الخضراء تتحوّل إلى حجاب مثير للقشعريرة في اللّيل. تنتصب جموع الأشجار، التي لا يقف في وجه زحفها أيّ شيء، وتعبّ من مياه المطر الذي يهطل بلا هوادة.

عندما يطير الواحد فوقها، ملقيًا بصره فوق الغابات مثل طائر محلّق، تبدو الغابات بكثافة أحشاء ظبي. داخل الغابات أنهار وجداول وبرك ومياه الآلهة المقدّسة (أومامبالا، وآي أُتشه، وأُزالا، وغيرها من الآلهة). لا يسير المرء طويلًا خارج نطاق الغابات قبل أن يبلغ حدود قرية ما. أوّل ما يستقبله هو المزيد من الأشجار المثمرة–الموز، والـ«باو باو»، والمانغا الخضراء، وأصناف نادرة الوجود في قلب الغابات. في زمن الآباء، كانت الأكواخ تتعانق في حضن عشّ يجمعها. وكان كلّ تجمّع من تلك الأكواخ، التي يقع كلّ منها على مرمى حجر من الآخر، يشكّل قرية. في هذا الزّمن، توسّعت القرى وأصبحت بلدات ممتدّة، وتطاولت الغابات على مواطن سكن الإنسان. لكنّ جمال الأرض بقي ماثلًا للعيان؛ السّكينة التي تعمّ قمم التّلال والوديان، تخطف أبصار من يسيرون لأجل رؤيتها. هذا ما افتقدته خلال الوقت الذي قضاه مُضيفي في الخارج، وكان هذا أوّل ما هرعت لرؤيته عند وصول مُضيفي، وعمّه الذي استقبله في المطار، إلى أرض الآباء العظماء.

لم يتطرّق لا هو ولا عمّه إلى الحديث عن أيّ شيء بخصوص وضعه إلى أن وصلا «أبا»، حيث كان عمّه قد تقاعد من وظيفته في القطاع العامّ قبل سنتين فقط. على مدار الرّحلة، سواء في التّاكسي الذي جلبهما من المطار، أو في الباص الذي أقلّهما ثماني ساعات من «أبوجا» إلى «أبا»، كانا محاطين بالغرباء. لكن الآن، على مشارف «أبا»، وقد توقّف الباص على قارعة الطّريق السّريع لأجل قضاء المسافرين حاجتهم داخل الأدغال، سأله عمّه، أثناء التبوّل، إن كان قد حصل له أيّ شيء سيّئ داخل السّجن. في البداية، لم يتكلّم. كان على بُعد خطوات من عمه، يتبوّل فوق علبة بيرة قديمة كانت قاعدتها مستقرّة فوق الأعشاب الزّاحفة، نصف ممتلئة بمياه المطر لا محالة. صَوّبَ وأطلق بوله فيها إلى أن امتلأت ثمّ انقلبت وأفرغت ما

في جعبتها في الخلاء. تابع العجوز الحديث، قائلًا إنّه سمع روايات وأقاويل حول ما يلقاه الأفارقة من معاملة في السّجون في الخارج: «مثـ... مثل الكلاب.» عندئذ استدار وحملق في عمّه، الذي كان قد فرغ من قضاء حاجته، ووقف منتظرًا منه رفع سحّاب سرواله. يبدو أنّ عينيه وشتا بما لم يتمكّن لسانه من التلفّظ به، والتقط عمّه نظرة عينيه، وهزّ رأسه بإشفاق موجع ثمّ قال: «أنت يـ... يجب أن تشـ... تشكر الرّبّ على نـ... نجاتـ... نجاتك بـ... بحياتـ... بحياتك. طبـ... طبعًا أنت ارتـ... ارتكبت خـ... خطأ عظيـ... عظيمًا بـ... بذهابـ... بك إلى هناك. خـ... خطأ عظيـ... عظيمًا. لكن أنت يـ... يجب أن تشـ... تشكر الرّبّ».

عندما وصلا إلى بيت عمّه، ولدى رؤيته زوجة عمّه، التي لم يكن قد رآها منذ جنازة والده، والتي كان العمر الآن قد تقدّم بها وخطّ الشّيب شعرها، انهار تمامًا. لاحقًا، لمّا رجع عمّه إلى الغرفة التي كانا قد منحاها له، وكانت لإبنهما الذي ذهب إلى «إبدان» للالتحاق في سلك الخدمة الشّبابيّة العامّة، ظلّ عاجزًا عن الإفصاح عن تلك الأمور التي كان العجوز قد سأله عنها.

«غاغان أَوغو»، أنت صنعت كلّ شيء، وأنت تعلم أنّ ما يعجز مُضيفونا عن الإفصاح عنه، نحن قرنائهم الحماة، نعجز عن الإفصاح عنه أيضًا. إذ إنّ الحقيقة الكونيّة تقضي بأنّ «أونيه كْوِه، تشي يا إي كْوِه». وعليه، فإنّ ما لم يجهر به ولم يؤكّد على وقوعه، لا يمكنني أن أَجهر به وأؤكّد على وقوعه. لذا، إن صمتَ عن ذكر شيء ما، فعليّ أنا، أيضًا، أن ألتزم الصّمت. ما لا يودّ أن يتذكّره، لا أتذكّره. لكن، رغم أنّ مُضيفي لم يستطع الإفصاح والحديث عن تلك الأمور، إلّا أنّه كان يفكّر فيها من دون انقطاع. استقرّت في شرايين أيّامه وكأنّها دماء سرّيّة. وراء كلّ منعطف في كل اليوم، كانت تنبثق وتُوقعه في براثنها.

في بعض الأحيان، حين كان يتمدّد في سريره ويحدّق إلى مصباح كهربائيّ أو قنديل الكاز، مثلما اعتاد منذ إطلاق سراحه من السّجن، كانت الذّكريات تنبثق بألوان حادّة صارخة، وكأنّها كانت سجينة داخل المصباح أو القنديل، ثمّ حرّرت نفسها منه.

شرع في مهمّة تأهيل نفسه من جديد وذهنه أسير عذاب متواصل بسبب تلك الأمور. لكن مع مرور الأيّام، اكتشف أنّ احتلالها لذهنه قد تراجع. أمّا ما شغل باله أكثر، فكان الأحجية العظيمة التي رمتها الحياة في وجهه، والتي كان يتوق إلى حلّها. في البداية، تجنّب تلك الأحجية وابتعد عنها، محاولًا ألّا يحلّها، إذ كان عمّه سيعتبره في مصافّ المجانين لو علم أنّ مجرّد أفكار كهذه كانت تراوده. كان الرّجل الأكبر في العمر قد قال بصريح العبارة إنّ أيّ شيء يجرّ على المرء مثل كلّ هذا الألم والمعاناة لا يستحقّ عناء الحصول عليه. سأله عمّه، وهو رجل حاز بلاغة الآباء القدماء وفصاحتهم، وجرت الأمثال والحكم المعبّرة على لسانه، بأسلوبه الرّقيق الحنون، أيّ نفع سيعود على رجل التقط عقربًا لجمال جلده ثمّ دسّه في جيبه. ولمّا لم يقدّم مُضيفي أيّ إجابة، فمثل هذا السّؤال لم تكن الإجابة عنه هي المراد، تابع الرّجل الأكبر سنًّا حديثه بالقول: «لا، لا، لـ... لـ... لو حدث هذا لـ... لكان عـ... عـ... عين الحماقة».

عندما ترك بيت عمّه، ومعه الخمسة آلاف يورو التي دفعتها المرأة الألمانيّة له كـ«تعويضات»، وكجزء من الإجراءات العقابيّة ضدّها، رجع إلى «أوماهيا» واستأجر شقّة. فتح دكّانًا لبيع العلف في شارع النيجر، واشترى درّاجة ناريّة بما تبقّى من المال. في الأسابيع اللّاحقة، عكف على إعادة تعمير حياته، طوبة فوق طوبة فوق طوبة. «أكواكورو»، إذا وقعت سلحفاة على ظهرها، فحتّى لو استغرقت زمنًا طويلًا، فإنّها ستحاول ببطء العودة إلى الوقوف على أرجلها. لعلّ السّلحفاة لا تفلح

في البداية بسبب حجر سدّ طريقها، لا بدّ لها، إذًا، من التحوّل إلى الجّهة الأخرى. لعلّ هذه هي الطّريقة الوحيدة التي تمكّنها من النّهوض ثانية. «إيبونو»، لا بدّ له من مواصلة العيش، فالسّكون هو الموت بعينه. وهكذا، بحلول نهاية الشّهر، حين زاره عمّه وزوجته وقالا له إنّه «نهض من عثرته»، صدّقهما. فمن تحطّمَ ذات مرّة ثمّ رمّم نفسه وأعاد تأهيلها، بإمكانه أن يبدأ الآن في رؤية أنّ عمليّة تصفية الحساب في حياته قد بدأت. كان هذا إحساسًا مريحًا، بثّ فيه الشّجاعة، وإثر ذلك فقط، عاد إلى التّفكير في تلك الأحجية من جديد، وشرع في محاولة حلّها.

الجهد الذي بذله في هذا السّبيل، اقتاده في إحدى اللّيالي، بعد شهرين على عودته إلى أرض الآباء، إلى بيت فخم في «أغويي إرونسي لاي أوت». تمكّن بصعوبة كبيرة من تحديد موقعه. كان البيت قد تقدّم في العمر، وتمثال المسيح فوق البوّابة أُزيل، تاركًا وراءه بصمة وجوده السّابق كالنّدوب في وجه البوّابة. أمام البوّابة، بين سور البيت وقناة جديدة لتصريف المياه، كان ثمّة بِرْديّ استوى فوق سيقان خشنة، وانتصبت شجرة يافعة وسط المجاري في نهاية الشّارع. بلغ هذه البوّابة وقلبه ينبض بعنف، لذا، لم يقوَ على التّوقّف، لم يقوَ على منح المكان -حيث كانت ندالي تعيش قبل رحيله عن نيجيريا- أكثر من نظرة عابرة. فالمشهد أثار في نفسه فجأة سيلًا جارفًا من الذّكريات. على عجل، تجاوز البيت وانطلق بدرّاجته صوب الشّوارع المظلمة.

بقيتُ متسمّرًا هناك، «أُوزه بروّه»، ذلك أنّ واحدة من أشقّ المهام في وجودي الممتدّ قرابة سبعمئة سنة من سنوات البشر كانت قد حصلت أمام تلك البوّابة. بعد وقت قصير على بدء تنفيذ حكم السّجن بحقّ مُضيفي، لم أعد قادرًا على تحمّل منظره لشدّة ما عانى من عذاب. رجل بريء، «أونياكا يا كيو أوتو»، عُوقب على جريمة لم يرتكبها. كنت محطّمًا مثله. فقد فعل كلّ ما فعله كي يتمكّن من الزّواج بندالي،

لكنّه لم يحقّق شيئًا الآن سوى تدمير نفسه. لأجلها. كنت أريدها أن تعرف ما جرى، لكنّي رأيت بأنّه كان يعدم أيّ وسيلة للتّواصل معها، أمّا أنا، فمجرّد روح بلا جسد، لا قدرة لي على كتابة رسالة أو إجراء مكالمة. لذا، «إيبونو»، لجأت إلى «نْكوه إكيلي»، لأجل إيصال رسالة لها عبر فضاء الحلم. كان قد قيل لي إنّ بوسعنا استخدام هذه العمليّة الباطنيّة في التّواصل مع شخص غير المُضيف، حين كنت قبل أكثر من مئة عام في كهف «نْغودو»، وقابلت هناك قرينًا حاميًا جرّب هذه العمليّة من قبل، ولكنّه نوّه إلى أنّ اللّجوء إليها كان نادرًا. هكذا، أثناء انخراط مُضيفي بالبكاء داخل السّجن، ذهبت في رحلة طيفيّة نجميّة كوكبيّة ووصلت إلى بيتها. اخترقت الجّدران وعبرت إلى الدّاخل، ثمّ تنقّلت من غرفة إلى غرفة، حتّى عثرت على ندالي. كانت متكوّمة فوق زاوية من السّرير وهي تحتضن وسادة أثناء نومها، والأغطية مبعثرة فوق الأرض. كانت بقرب رأسها إحدى الصّور التي التقطتها لمُضيفي، ضامًّا دجاجة إلى صدره ومبتسمًا للكاميرا. كنت على أهبة البدء بترتيل التّعويذات، وهي أولى مراحل عمليّة «نْكوه إكيلي» التي تمكّنني من العبور إلى فضاء الحلم الخاصّ بها، لمّا شعرت بحضورٍ ما على الطّرف الآخر من الغرفة. كانت تلك هي قرينتها الحامية. قالت: «يا ابن نور الفجر، دخلت بلا استئذان، وأتيت للاعتداء على الغير، وإغضاب قرينة حامية لم ترتكب جريرة بحقّك».

«إيبونو»، يجب أن تتفهّم بأنّني أُخذت على حين غرّة من قبل هذا الاتّهام السّافر. أدري أنّ هذه القرينة الحامية ستأتيك عمّا قريب لتخبرك بروايتها الخاصّة عن هذه المواجهة، في حال وقوع ما أخشاه لمُضيفتها بالفعل، لذا، فإنّني أرجوك أن تتذكّر روايتي بهذا الصّدد. وردًّا على سؤالها، كنت قد شرعت في الحديث قائلًا: «لا، لا، إنّني فقط»...

لكنّها قاطعتني وقالت بنبرة حادّة وفوقيّة: «يجب أن تغادر على

الفور! انظر إلى مُضيفتي، ألا يكفي ما عانته حتّى الآن! ألا يكفي ما أصابها به قرار تشننسو على الرّحيل من ألم ولوعة! انظر إلى حالها من بعده، تقضي أيّامها أسيرة الحزن والانتظار. إنّني أكره مُضيفك».

فشرعت بالقول: «يا ابنة الرّبّة 'آلا'»...

لكنّ القرينة الحامية لم تكن تودّ الاستماع، فقاطعتني ثانية وقالت: «هذا اعتداء على الغير. اذهب ودع الطّبيعة تأخذ مجراها. لا تتدخّل بهذه الطّريقة وإلّا أتت الأمور بعكس ما ترجوه. وإن أصرّيت، فسأذهب إلى 'تشوكو' وأبلغه بالأمر».

إثر نطقها بذلك، اختفتْ. من دون توانٍ، غادرتُ الغرفة وعدت إلى مُضيفي في البلد البعيد.

«**أوكا أومه**»، لم يجد النّوم سبيلًا إلى عينيه في تلك اللّيلة. جلس في شقّته المؤلّفة من غرفة واحدة، أمام المروحة فوق الطّاولة التي كانت تطنّ وتدور من جنب إلى جنب. تحت الضّوء المنبعث من المصباح المتدلّي من السّقف بأسلاك رفيعة أُلصقت معًا بشريط لاصق، حاول تشغيل هاتفه. لم يكن الهاتف قد فُتح منذ أن أُلقي به في الكيس الذي ضمّ ما كان يرتديه من ثياب وحذاء يوم نقله إلى المستشفى، ورسالة القبول والإيصالات، وكافّة ما جلبه معه إلى السّجن. ركّب قطعه معًا، لكنّه لم يعمل. كان أحد أفراد الشّرطة قد التقطه من الأرضيّة المبلّلة بالدّماء في بيت المرأة الألمانيّة في «غرنه»، ولم يكن قد شُغِّل منذ ذلك الحين.

انطلق بدرّاجته النّاريّة في اليوم التّالي، تحت جنح الظّلام، وذهب إلى المنزل الفخم. كان ثمّة ضوء منبعث من داخله، عبر مولّد كهربائيّ يطنّ صوته في المكان. في كلّ الأرجاء، كان الظّلام دامسًا، عدا أضواء السّيّارات التي أنقذت الشّوارع من سطوة العتمة. ركن درّاجته وترجّل، ثمّ سار إلى البوّابة بشجاعة داهمته على عجل-كما لو كانت قد وثبت

على هدفها من موضع مستتر خفيّ–وطرق الباب. ولمّا بدأ الحديد بالصّليل، راودته الرّغبة بالفرار. إذ بدا له، الآن وقد أصبح واقفًا على عتبة ما سعى وراءه طوال الوقت، بأنّه لم يكن متهيّئًا لمواجهته في نهاية المطاف. أدرك أنّه رغم كلّ ما حصل له، رغم الوقت الذي انقضى، لم يكن أيّ شيء قد تغيّر. لم يزل «أوتوبو». لم يحصل على شهادة عُليا؛ منزلته لم تتغيّر. في الحقيقة، اشتدّت لحظة الكشف تلك وتعمّقت من خلال صوت الغضب: تدهورت الأمور بالنّسبة له، وأصبح أكثر فقرًا. إن كان يملك بيتًا من قبل، فإنّه لم يعد كذلك الآن. إن كان قلبه ذات مرّة خاليًا من الضّغينة والكراهيّة، فإنّه بات يحمل الآن كيسًا ثقيلًا من الكره حبس فيه الكثيرين. إن كان وسيم الطّلعة من قبل، فإنّ وجهه الآن بات مشوّهًا، وجهًا اضطرّ الأطباء إلى انتزاع زجاج مهشّم من جبينه، وحنكًا فيه غرز جروح منعته حتّى من حلق ذقنه خوفًا من ارتخاء الغرز، وفمًا بعدما سُحق جرى اقتلاع ما لا يقلّ عن ثلاثة من أسنانه المعطوبة. إن كان ألمه وحزنه في الماضي نابعًا ببساطة ممّا فُعل بأحبّائه، فإنّ الألم والحزن ذاتهما عاوداه الآن مع شهوة الانتقام ممّا فُعل به عبر أشكال أخرى، أيضًا. فما أصابه لم يكن مقتصرًا على التّحطّم الجسديّ فقط، بل وعلى التّحطّم والانكسار الدّاخلي أيضًا. كان قد وُطِئ من الخلف من قبل رجل آخر، انتُهك بشكل تخطّى حدود الخلاص من الخطيئة، جُلِد إلى أن خرجت روحه من جسده.

أثناء وقوفه أمام البوّابة، أصبح مدركًا لحقيقة وضعه. اهتزّ من الأعماق، إذ لم يكن قد نظر بعين الحسبان إلى حالته البائسة بتمامها وكمالها بهذه الطّريقة من قبل. خطا إلى الوراء لدى فتح الباب. قال الشّخص الذي أطلّ من البوّابة في زيّ كان مُضيفي قد ارتداه ذات مرّة: «أيّ خدمة أيّها السّيّد؟».

«أه، إنّني أبحث عن، إحم، صديقتي، الآنسة ندالي أوبيالور. أهذا بيتها؟».

«أجل، هذا بيت الزّعيم أوبيالور. لكنّ ابنته ليست هنا الآن».
تسارعت نبضات قلبه وقال: «أه؟ ومتى تعود؟».
«مدام ندالي؟ إنّها لا تعيش هنا. إنّها تعيش في لاغوس. ألم تقل بأنّك صديقها؟».
«أجل، لكنّني كنت مسافرًا، غبت عن البلد لسنوات. منذ اثنين صفر صفر سبعة».
«أوكيه، فهمتك أيّها السّيّد. مدام ندالي تعيش في لاغوس منذ، منذ عام ألفين وثمانية».
استدار الرّجل وقال: «عمت مساء يا أوغا».
لكنّ مُضيفي قال بسرعة: «مهلًا، انتظر يا أخي».
«أوغا، لا أستطيع انتظار أيّ شيء. لا أستطيع الإجابة عن أسئلتك. مدام ندالي ليست هنا؛ إنّها في لاغوس. عمت مساء».
أُغلقت البوّابة كما فُتِحت، ثمّ سمع صوت إيصادها من الدّاخل. حيث وقف، عاد الظّلام، ومعه الضّجّة المتقطّعة للشّارع. وقف هناك، يده فوق صدره، متحسّسًا قلبه. وتنفّس الصّعداء لأنّه بعد أربع سنوات، سمع وأخيرًا شيئًا عن ندالي، وإن كان مجرّد خبر صغير. في طريق عودته إلى شقّته، تساءل عمّا كان سيحصل لو أنّه رآها. هل تغيّرت بقدر ما تغيّر هو وسائر الأشياء في «أوماهيا»؟ واجه مشقّة في التّعرّف على بعض أنحاء المدينة. هنا وهناك، كانت بعض الأسواق قد أُغلقت وطُردت من داخل المدينة إلى ضواحيها. ثورة الاتّصالات الهاتفيّة التي شهد بداياتها، كانت قد اكتملت في غيابه. الجميع الآن يمتلك هاتفًا خلويًّا. أبراج شركات اتّصالات بأسماء ذات حروف متقطّعة مثل «إم تي إن»، «جي إل أو»، و«إيرتيل»، كانت في كلّ مكان. على كلا جانبَي الشّارع، مظلّات صفراء أو خضراء وتحتها طاولات وكراسٍ يجلس عليها رجل أو امرأة. فوق الطّاولات بطاقات اتّصالات هاتفيّة

وبطاقات هواتف خلويّة، ورأى امرأةً تتقاضى من النّاس ثمن إجراء مكالمات من هاتفها. عبر الشّوارع، انتصبت مصابيح جديدة ذات ألواح مسطّحة، يشير النّاس إليها بـ«سولار». بدا له أنّ مزاجًا جديدًا تفشّى بين النّاس مثل الجّرثومة غير الضّارّة، حسّ هزليّ جديد مرير يسفّه عظائم الأمور، وكثير من الرّطانة التي تردّدها الألسن من دون أن يفهم منها شيئًا.

لم ينشغل كثيرًا بتلك التغيّرات لأنّ ندالي كانت تستحوذ على ذهنه. لمّا سدّد له فشله بلا رحمة تلك الضّربة القاضية، في بيت الممرّضة الألمانيّة، كان قد حاول الاتّصال بها. أثناء ارتمائه فوق الأرض، وسط بركة دمائه، مرتعدًا من أنّه سوف يموت، انتصبت أفكاره عنها بثبات في ذهنه مثل الحارس. أعاد عيش كلّ اللّحظات التي أبدت خلالها أيّ شكل من أشكال الممانعة تجاه سفره وتركه نيجيريا، مثل لحظة أخبرته عن الحلم الذي لم تكشف عن تفاصيله. بل إنّه حتّى قبل مجيء الشّرطة ونقله إلى المستشفى، رآها وكأنّها جالسة تراقبه من الجّانب الآخر للغرفة الدّمويّة. بعد أن حملوه وأخذوه إلى المستشفى، حاول الوصول إليها عبر الهاتف، لكنّ هاتفه أسلم الرّوح. حاول الحصول على هاتف آخر، متوسّلًا إلى الممرّضات بإلحاح، لكنّهنّ كنّ يبلغنه في كلّ مرّة بأن لا سبيل إلى مساعدته. كان لديهنّ تعليمات من الشّرطة بعدم تقديم أيّ شيء له سوى الطّعام والعلاج. علاوة على ذلك، كان عاجزًا عن التّواصل معهنّ والحصول على أيّ معلومات منهنّ. كانت واحدة منهنّ فقط قادرة على الحديث بلسان الرّجل الأبيض، حتّى هذه الممرّضة كانت تجد صعوبة بالغة في فهم كلامه. وبمرور الأيّام، احتدم توتّره وغضبه وهذيانه. إذ بات موقنًا من أنّ جامايك والرّوح الشّرّيرة السّاعيين إلى تدميره كانا مواظبين على ذلك بلا هوادة وحتّى النّهاية. والآن تكلّلت جهودهما بالنّجاح. قاتل بشدّة، لكنّه كان يقاتل

ضدّ خصم لا يمكن تحقيق الانتصار في مواجهة أسلحته. فلحظة اعتقد بأنّه نجح في الهرب والإفلات من خطّاف الصّنّارة، كان قد سبح مباشرة إلى خطّاف آخر، أكثر حدّة من الأوّل.

كان الإجهاز عليه قد حصل على مدى عدّة أسابيع، هجره خلالها كلّ من عرفهم والتقى بهم. حتّى توبي، الذي أبطأ سير رحلته لحمل صليب مُضيفي لجزء من الطّريق، لم يقترب ولو لشبر من أرض معاناته المتجدّدة. لم يطلّ عليه سوى ممثّل عن الجّامعة، وأحد الطّلبة القدماء، ونائب رئيس الجّامعة، الذين حضروا إلى المحكمة في اليوم الأوّل من المحاكمة. أمّنوا حاجيّاته واحتفظوا بها لأجله. كان في حالة إطلاق سراحه، سيُرحّل من البلد على الأغلب، لذا، كانوا سيرسلون حاجيّاته إلى المطار. أجروا اتّصالًا بعمّه وأبلغوه بالوضع. في تلك اللّحظات المحمومة، توسّل إلى الطّالب النّيجيريّ دَمِجي كي يساعده في التواصل مع ندالي. بيدين مرتجفتين، سجّل رقمها في ورقة. فسأله دَمِجي قائلًا: «ماذا أقول لها؟».

ردّ قائلًا: «ماذا؟».

«أجل، ماذا أقول لها؟».

«قل لها إنّي أحبّها».

«أهذا كلّ ما تريد قوله؟».

«هو كذلك. أحبّها. سوف أعود. اعتذر لأنّني سافرت، وأعتذر على كلّ شيء».

توقّف لكي يقحم الكلمات في ذهن دَمِجي بقوة عينيه. ولمّا أومأ دَمِجي، تابع القول: «لكنّني سوف أعود. سأعثر عليها. قل لها إنّي أعدها بذلك. إنّني أعدها بذلك».

هذا ما كان، وما سنح لهما الوقت بتداوله. لم ير دَمِجي بعد ذلك قطّ. لم تقع عيناه على أيّ شخص ممّن تعرّف عليهم قبل الوقائع التي أدّت إلى محاكمته في بلد غريب خلال السّنوات الأربع اللّاحقة. كان

الشّخص الوحيد، المرأة الألمانيّة، غريمه الأوّل الذي كان وراء اتّهامه بالتّهم الموجّهة إليه. أمّا الشّخص الآخر، زوجها، الذي كان غائبًا عن الوعي في المستشفى طوال ستّة عشر يومًا، فكان غريمه الثّاني، مؤكّدًا شهادة زوجته. كان هذا الرّجل قد ادّعى بأنّه وجد الرّجل الأسود فوق زوجته التي كانت تقاومه بشدّة. لذا، في ذلك اليوم، كان القاضي قد توجّه بالأسئلة إلى زوج فيونا وخاطبه بالإنجليزيّة قائلًا: «إذًا سيّد أوغلو، هل كنت تعلم من قبل أنّ زوجتك ستقابل هذا الرّجل؟».

«أجل سيّدي. زوجتي ممرّضة. امرأة طيّبة تحبّ مساعدة النّاس. لذا، كانت تودّ مساعدة هذا الإفريقيّ المسكين مغتصب النّساء. والله يا!».

«نرجو أن تراقب ألفاظك أمام هيئة هذه المحكمة يا سيّد أوغلو».

«آسف، حضرة القاضي».

«انسجم مع نفسك. الآن، وهكذا سمحت لها بإحضاره إلى بيتك؟».

«لا، إنّها تساعد النّاس دومًا. أمر طبيعي بالنّسبة لها. وعندما دخلت بيتي، كان يحاول اغتصابها».

«صِفْ لهيئة المحكمة ما رأيته بالضّبط؟».

«كانت زوجتي، ممدّدة فوق الأرضيّة، قرب طاولة الطّعام، وكان هذا الرّجل فوقها، ويده ممسكة بخناقها، يد واحدة. واليد الأخرى، معذرة. كان مشهدًا مقزّزًا، سيّدي القاضي. مقزّزًا للغاية».

«تابع»...

«هجمت عليه مباشرة وبدأنا بالعراك، قبل أن أطلب من زوجتي أن تتّصل بالشّرطة. كان لديّ زجاجة، فجرحته بها، ثمّ عدت إلى زوجتي كي أتفقّد وضعها، كانت ما زالت ممدّدة فوق الأرضيّة، تبكي وتتنفّس بصعوبة. في الأثناء، تقدّم هذا الرّجل بصمت من خلف ظهري وضربني في منتصف رأسي هنا، في هذا المكان، سيّدي القاضي، بكرسيّ خشبيّ صغير. سقطتُ أرضًا، سيّدي القاضي. وهذا كلّ ما أذكره».

«أغباتَّه آلومالو»، يقول الآباء إنّ عِود الخيزران الذي يكسر رأس كلب يجب أن يكون اسمه شيئًا آخر. أُسقط بيد مُضيفي، ولم يعد قادرًا على فعل أيّ شيء للدّفاع عن نفسه. بعد انتهاء تلك الجّلسة الثّانية للمحكمة، تمّ إصدار الحكم. آنذاك، كان إصدار الحكم قد أُجّل من قبل، أُجّل لخمسة أسابيع. صدر الحكم من فم رجل، وبلسان أهل البلد أوّلًا، ثمّ بلسان الرّجل الأبيض، وعُبِّر عنه بكلام لم يعنِ له شيئًا، لأنّ ثمّة حكم آخر أعظم هولًا، حُكم صدر عليه ونُفّذ عبر أفعال مريعة حفرت نفسها في ذهنه إلى الأبد. لذا، حين أعلن الحكم عليه بالسّجن لمدّة ستّ وعشرين سنة بتهمة الشّروع في الاغتصاب والشّروع في القتل، لم يعنِ له ذلك أيّ شيء. فآنذاك، كانت حياته كما عرفها من قبل، قد انفصمت عنه مثل طيف عاثر بُتر من حامله ورُمي من فوق جرف في هاوية النّسيان، وحتّى عبر كلّ هذه السّنين، كان دويّ صراخ ذلك الطّيف أثناء تردّده المتلاحق في الأعماق السّحيقة ما زال يتردّد في مسمعيه.

19

صغار البذور

«**غاغان أَوغو**»، يجب أن أحاججَ هنا بأنّه لأجل التّحقّق من الدّافع الذي حمل مُضيفي على فعل الفعل الذي أزعم ببراءته منه، ينبغي أن يُؤخذ في الحسبان أنّ سبب ما واجهه من المعاناة كان حبّه لهذه المرأة. يقول الآباء الأوّلون إنّ سعي «أُرْجِنتا»، صيّاد «يور» العظيم، وراء أمر نبيل، تسبّب في سقوطه وتقطيعه إربًا. ورغم أنّ هذا قد قيل، حتّى بين الآباء الأوّلين، كحكاية يُضرب بها المثل، إلّا أنّك تعلم بأنّها حادثة حصلت في الزّمن الذي كانت فيه «آلا ايبو» في عنفوانها، ولمّا كان كلّ شيء تقريبًا حسب ما نويتَ له أن يكون. حتّى أنا لم أكن قد خُلقت بعد. في ذلك الوقت، كان النّاس قد بنوا بيوتًا طينيّة مستطيلة، وأقاموا النّصب والهياكل في قلب دُورهم، وكانوا يستشيرون الأسلاف ويطعمونهم على الدّوام، ولم يكن أحد منهم يدوس على طرف الآخر إيمانًا منهم بالقانون الأزليّ للوجود. (قَيِّض للنّسر أن يربض، وقَيّض للصّقر أن يربض، وأيًّا كان من يقول لا ينبغي للآخر أن يربض، فلينقصف جناحاه![1]). كان «أُرْجِنتا» شابًّا سَنَّ لنفسه عادة لقاء خطيبته قبل اكتمال قمرها. وهكذا، كان يختبئ ليلًا خلف دارها ويصفر إلى أن تخرج. تقفز من النّافذة، ثمّ تتبعه إلى قلب الأدغال. كان «أُرْجِنتا» يعلم بأنّ الصّفير ممنوع أثناء اللّيل، لأنّه يزعج أرواح الموتى الأحياء

(1) عِشْ ودَع الآخرين يعيشون بسلام.

في غابة «أُغبُتي». لكنّ الرّجل الواقع في براثن الحبّ لا يردعه حتّى الزّحف إلى جحر أفعى لأجل لقاء محبوبته. لم يعبأ بذلك التّحذير، وتجاهل كائنات اللّيل ورعبها من صياح الإنس وصفيره آناء اللّيل. وفي ليلة من اللّيالي، أثار صفيره حنق أحد الأرواح، فقام بالاستحواذ على جسد نمر أرقط وقاد الوحش عبر الغابة، مزمجرًا، ساحقًا صغار البذور تحت أقدامه، ضاربًا صفوف الـ«يام» بأنيابه، منطلقًا بغضب جهنّمي متمرّد على أبسط شرائع الحضارة. واصل «أُرْجِنتا» الصّفير بينما كانت امرأته تصيخ السّمع لالتقاط صوت لوالديها، أو أيّ صوت آخر داخل البيت، مترقّبة اللّحظة المثلى للقفز سرًّا والذّهاب إلى موعدها اللّيليّ. تابع الوحش عدوه باتّجاه مكان اختباء «أُرْجِنتا»، منطلقًا بجذب مغناطيسيّ شيطانيّ نحو فريسته، ووقع خطاه العنيفة يتردّد عبر بيداء اللّيل المظلمة، إلى أن عثر على النّقطة المحدّدة في اللّحظة نفسها التي رفع فيها «أُرْجِنتا» رأسه بعد أن رأى حبيبته مقبلة. وثب الوحش عليه، وبغضب يعود في منشئه إلى زمن يتجاوز بدء التّاريخ، قبل ميلاد الحبّ والرّومانسيّة، واللّحم والدّم، مزّقه أربًا ثمّ جرّ جثّته إلى قلب الغابة.

«إيبونو»، ما الذي قصده الأوائل من رواية مثل هذه الحكايات؟ ترمي هذه الحكايات إلى تحذيرنا من مخاطر اقتراف أفعال تماثل ما أقدم عليه «أُرْجِنتا». كان هذا هو السّبب الذي حملني، مع السّنة الثّانية لمكوث مُضيفي في السّجن، وبعد مواجهتي الثّانية مع القرينة الحامية لندالي، على محاولة دفعه إلى نسيانها. لكنّي اكتشفت وفهمت أنّ مثل هذه المحاولة أمر عقيم في معظم الأحيان. إذ إنّ الحبّ لا يمكن الاستخفاف به ومحقه من القلب الذي وجد فيه مستقرًّا طيّبًا. رأيت هذا مرّات ومرّات. فضلًا عن ذلك، هناك حدّ لو تخطّاه القرين الحامي لأصبحت اقتراحاته إكراهات. وإكراه القرين الحامي لمُضيفه أمر غير مسموح به، حتّى في مواجهة أشدّ الأخطار عنفًا. فالجنون

عاقبة أيّ خلاف غير قابل للتّسوية بين الرّجل وقرينه الحامي. بل حتّى بين الآباء، كان الإجماع هو المبدأ في كلّ شيء. كانوا يفتتحون أيّ نقاش بالصّيحة المجلجلة: «إكْوَنو»، دعوة للتّأييد، ولو رفض رجل من الجّماعة الاستجابة بقول «يه» ورد بـ«إكوه رو مو»، فلا يمكن متابعة النّقاش إلّا بعد موافقة الأصوات المعارضة.

كيف يمكن للقرين الحامي، إذًا، أن يُعارض مُضيفه؟ كيف يمكن أن يقول لمُضيفه: «دعك من السّعي وراء هذا، فلربّما قادك إلى أماكن مظلمة»، إن كان المُضيف مصمّمًا على المضيّ في هذا السّبيل؟ ألم أشهد خلال تلك السّنوات، أنّ الشّيء الوحيد الذي كان يتوق إليه، وسط العذاب والألم، وسط دعائه بأن تعترف الممرّضة بالحقيقة وأن يُطلق سراحه، لم يكن سوى العودة إليها؟ بل كان يبكي عليها بكاء مرًّا كلّ يوم. قد يبدو الأمر صعبًا على التّصديق، لكنّه كان يبكي يوميًّا من فرط لهفته وحرقته عليها. كان في غاية الشّوق لها. تضرّع وتوسّل لأجل الحصول على قلم وورقة ثمّ كتب لها رسالة، لكن أين كان سيرسلها؟ لم يكن يعرف عنوان بيتها. بل حتّى لو تمكّن من معرفته، فكيف كان سيرسل الرّسالة؟ عاش في أوّل سنتين من سجنه في حالة رعب من الحرّاس. ذلك أنّ تصرّفاتهم كانت تشي باحتقار خاصّ تجاهه، وكان هذا منذ البدء وقبل وقت طويل من الشّرّ العظيم الذي حاق به أثناء مكوثه في السّجن. نعته الحرّاس بـ«آراب» أو «زنجي»، وكانوا يعلّقون دائمًا على اغتصابه لامرأة تركيّة. طلب من هؤلاء الرّجال أن يساعدوه على إرسال رسالته، لكن لم يعِره أحد منهم أيّ اهتمام. في السّنة الثّانية، سيوافق مهموت، المغرم بلاعب كرة قدم من بلد مُضيفي، جاي جاي أُكوتشه، على إرسال الرّسالة. لكن إن كان العنوان داخل قبرص فقط. سيكرّر الرّجل على الدّوام قوله: «نِجيريا، كوك بارا. بارهالي، كوك، كوك، كثير، كثير، سيد غِنوسو. آسف يا صديقي».

ماذا عن النّقود التي كانت في جيب سرواله الذي كان يرتديه يوم اعتقاله؟

«آسف، سيد غِنوسو، نحن ممنوع نأخذ. المحكمة تحجز نقود. لا أحد يأخذ نقود. آسف. أنت تفهم أنا، سيد غِنوسو؟».

بعد أن رفض هذا الرّجل أيضًا، كفّ عن المحاولة. لم يعرف بأنّه حتّى أنا، قرينه الحامي، كنت قد حاولت الوصول إليها.

لذا، «أَغوجِغبه»، بعد عودته من البحث عن ندالي في تلك اللّيلة، تركته يتمدّد في سريره ولم أتدخّل. فانساق ذهنه إلى التّفكير في احتمالات التّصالح معها. وفي وقت متأخّر من تلك اللّيلة، سمح لنفسه، وبقدر ضئيل من الشّجاعة، أن يأخذ بالحسبان ذلك الاحتمال الذي كان يرفض التّفكير فيه، وهو احتمال ألّا تعود إليه ثانية أبدًا. عندئذ، ألقيت في أذن عقله الهشّة فكرة مرور وقت طويل وكافٍ. لعلّها تزوّجت وأنجبت الآن. لعلّها نسيت أمره، بل لعلّها توفّيت. بمن كان بمقدورها أن تتّصل لمعرفة أيّ شيء عنه؟ لم يكن هناك أحد. فكّر بندم شديد أنّه كان ينبغي له أن يعطيها رقم عمّه. أو حتّى رقم إلوتشوكو. فكّر في أنّه لم يكن هناك أيّ احتمال بأن تكون ما زالت في انتظاره طوال تلك المدّة. مرّ عدد كافٍ من السّنوات، كرّر الصّوت في رأسه بنبرة حاسمة، «**ذهبت إلى الأبد**».

صدمة هذا الإدراك ألقت به في هوّة اليأس. «تشوكو»، لطالما احترت في كيف يصبح ذهن الرّجل أحيانًا مصدر المواجهة الذّاتيّة مع النّفس والهزيمة الدّاخلية. كان سقوطه في تلك اللّيلة مدوّيًا، حتّى أنّه عدّ نفسه أحمق لأنّه أضاع كلّ تلك السنوات في التّفكير بها، متشبّثًا بأهداب ذكرياتهما معًا. فلربما كانت مع رجل آخر طوال تلك اللّيالي التي قضاها في سجنه، والتي كان خلالها يجافيه النّوم فيستحضر، بكلّ ما أوتي من قدرة على التّذكّر، لحظة ممارسة جنسية معها، وإعادة تركيب تفاصيلها بدقة، فتستعر رغبته ويداعب نفسه.

فزّ من سريره وأطلق صرخة فجائيّة ثمّ لطم قنديل الكاز فأسقطه في وسط الغرفة. انكسر وغرقت الغرفة على الفور في ظلام دامس، لكنّ صوت تهشّم الزّجاج ظلّ عالقًا في رأسه. وقف وسط الظّلام وقد استشاط غضبًا، صدره هائج مائج، والهواء عابق برائحة الكاز. لكنّ كلّ هذا لم يكن قادرًا على صرف انتباهه عن التّمرّغ في وحل الخاطر الموجع بأنّ ثمّة رجل غريب كان يتلذّذ بالتهام ثديَي «ندالي».

لم يغمض له جفن في تلك اللّيلة، وعاش أيّامه اللّاحقة في ظلّ شعور ذريع بالفشل. بل إنّ هذا الشّعور عرّض حياته للخطر. حتّى أنا، قرينه الحامي، خفت عليه. إذ بلغ به الضّياع في هذا العالم الجّديد المفتقد للمعنى حدّ الانحراف عن الطّريق، والسّياقة في خطّ السّير المعاكس. مرّتان شارف على الموت في حوادث كان من الممكن أن تقتله. ذات مرّة، وبعد اصطدامه بسيّارة قذفته هو ودرّاجته في قناة لتصريف المياه، قال سائق السّيّارة: «كيف نجوت من هذا؟».

كان الرّجل والمارّة، الذين تجمّعوا على الفور، منصعقين من نجاته. قال أحدهم: «قرينك الحامي في غاية اليقظة والانتباه!».

وأصرّ ثالث على أنّ نجاته لا بدّ أنّها حدثت على يد ملاك، مبعوث من قبل إله الرّجل الأبيض.

في كثير من الأوقات، عندما كانت الأفكار المعذّبة الخاصّة بندالي تتكالب على ذهنه، كنت أقارعها بقدح أفكار معاكسة. كنت وراء قدح أفكار في ذهنه مثل: «فكّر في تلك الفتاة اللّطيفة التي قابلتها في متجر العلف ووصفتك بالرّجل الطّيّب. فكّر في عمّك. فكّر في شقيقتك. في مباراة كرة القدم. فكّر في المستقبل الجّيّد الذي بإمكانك أن تبنيه لنفسك».

في بعض الأحيان، بعد فشل كلّ ذلك، كنت ألجأ إلى محاولة المضيّ معه في الاتّجاه نفسه الذي اختاره. محاولًا أن أمنحه قدرًا من

الأمل في أنّه يستطيع العثور عليها: «فكّر في الأمر على هذا النّحو: الحبّ يبقى للأبد، لا يمكن له أن يموت. أعني، أتذكر ذلك الفيلم الذي شاهدته ذات مرّة، الأوديسا، حين رجع الرّجل بعد غياب عشر سنوات فوجد أنّ زوجته كانت ما زالت بانتظاره، فالزّوجة كانت موقنة من حبّ زوجها لها، وأنّ السّبب في غيابه وعدم عودته لا بدّ من أن يكون مانعًا من موانع الحياة ليس إلّا. لهذا ظلّت على إخلاصها له عبر السّنين الطّويلة، وبقيت مصرّة، رغم ما تعرّضت له من ضغط وإجبار، على رفض خيانته. ألا ينطبق هذا الوضع عليك تمامًا؟ أليس ما مرّ، ببساطة، مجرّد أربع سنوات؟ أربع سنوات فقط».

في لحظة من هذه اللّحظات، وفي اليوم نفسه الذي ذكّرته فيه بهذا الفيلم، تعثّرت مصادفة بحادثة لم أكن لا أنا ولا مُضيفي قد فكّرنا فيها بشكل جدّي طوال كلّ تلك السّنوات. أعترف بأنّه كان قد استحضر تلك الحادثة في ذهنه مرّة أو مرّتين، لكنّه لم يتمعّن أبدًا في نتائجها المحتملة. كانا قد شرعا في ممارسة الحب في الفناء تحت أنظار الدجاج عندما انتزعت نفسها من أحضانه، وقالت إنها لا تحبّذ فعل ذلك أمام الطيور. فحملها إلى داخل البيت، وساقاها تلتفان حول جسده، ويداها تتشبّثان بعنقه. كانا قد مارسا الحب بحرقة ولهفة شديدة حتى أنه لما أوشك على القذف وهم بسحب عضوه منها، جذبته إليها بطاقة عجيبة فتلوى متشنّجا. سألته: «هل تحبّني يا سلومون؟».

رغم شعوره بالصّدمة من هذا الموقف؛ إذ منعته من سحب عضوه، وعدم اكتراثها الواضح بأنه كان على وشك القذف، ومناداتها له بـسلومون وهو الاسم الذي عُمّد به، والذي قلّما نادته به، إلّا أنّه ردّ عليها بالقول: «أجل»...

سألته ثانية، بضراوة أكبر، وكأنّها لم تسمع إجابته: «هل تحبّني؟».

«هو كذلك يا مامي. أحبك. لم أعد أحتمل، سأقذف».

«لا يهمني ذلك، رُدّ على سؤالي فقط!».

«أجل، أحبك».

كان قد بلغ الذروة وقذف، فارتعد من النشوة أثناء النطق بكلماته، وبعدما قذف، ارتمى متهالكا فوقها.

قالت: «أتدري أنّنا أصبحنا جسدًا واحدًا الآن، يا ننسو؟».

ردّ بأنفاس لاهثة: «هو كذلك يا مامي. أنا... أنا أدري».

مدّت يدها إلى وجهه وقالت: «لا، انظر إليّ، انظر إليّ».

انزلق جنبها ثمّ أدار وجهه وقابلها. فقالت وهي تنظر في عينيه: «أتدري أنّنا أصبحنا جسدًا واحدًا الآن؟».

«أجل يا مامي».

«أتدري أنّنا واحد الآن؟ لم يعد هناك لا أنت ولا أنا؟».

توقّفت عن الكلام، تهدّج صوتها، وسال الدّمع من عينيها. ظنّ بأنّها انتهت من الحديث، فشرع في الكلام. لكنّها استأنفت القول: «أتدري بأنّنا الآن واحد لا غير؟ نحن؟».

«أجل يا مامي. هو كذلك».

فتحت جفنيها، وابتسمت عيناها الممتلئتان بالدّمع.

جلس مُضيفي بهذه الذّكرى ذات الأثر المسكّن وكأنّها هديّة مفاجئة وغريبة من مبعوث إلهيّ نزل عليه لأجل مساعدته. كانت تلك الحادثة من اللّحظات العزيزة على قلبه في حياته، فما كانت قد أقدمت عليه كان عملًا عظيما. لقد سمحت له بأن يقذف فيها. لكنها، مع ذلك، كانت قد أقدمت على ذلك بشكل مرتجل للغاية، وكأنه كان أمرًا بسيطًا. في تلك المرة، صدمته الشديدة منعته من التعليق على الأمر. لكن لما مارسا الحب ثانية في وقت لاحق من تلك الليلة، وقامت بجذبه إليها بعنف في اللحظة الحاسمة، مرغمة إياه على القذف فيها مثل المرة السابقة، سألها لماذا فعلت ذلك. قالت إنها فعلته لتكشف له

عن مدى حبها له واستعدادها للزواج منه مهما كان الثمن. لكن ماذا لو حملت منه؟ سألها. مالت برأسها إلى جنب، صمتت للحظات كأنّما تفكّر كيف سيكون وقع النبأ على والدَيْها، ثم قالت:

«وإن يكن؟ أهما ربي الذي أعبده؟ هل تريدني أن أتناول حبة «بوستاينر»؟».

سألها متفاجئًا:

«وماذا يكون هذا؟».

ضحكت وهي تقول:

«يا إلهي! أين تعيش أيها القروي؟ حبة تتناولها المرأة في الصباح منعًا لحصول الحمل بعد ممارسة الجنس».

«آه، يا مامي. لا علم لي بهذا».

عندما استحضر هذه اللّحظات بحدّة ووضوح، تفتّحت عيون آماله الواهنة. وخلال الأيّام اللّاحقة، دارت في ذهنه الاحتمالات وتقلّبت الأفكار. لو كانت مؤمنة بما قالته له في ذلك اليوم، بأنّهما أصبحا واحدًا وكُلًّا لا يتجّزأ، فيجب أن تكون في انتظاره بالفعل. لا يمكن أن تكون قد تخلّت عنه بعد أربع سنوات فقط. بدأ في رسم وتخطيط تحرّكاته المقبلة. يوميًا، في الأوقات السّانحة بين غرف مكاييل العلف، من دَخْن، وحبوب، وتربة عضويّة، كان يثب إلى حفرة أفكاره ويبدأ في التّنقيب داخلها. وفي اليوم الرّابع على استحضاره لتلك الذّكرى الجّالبة للأمل، عثر أخيرًا على ما أقنعه بالرّجوع إلى بيتها ومحاولة الحديث مع الحارس ثانية. لعلّ الرّجل يتقاضى أجراً زهيدًا، وربّما تمكّن لقاء بعض المال من الحصول على بعض المعلومات منه. لعلّه يعطيه الرّسالة التي كتبها لها في سنته الأولى في السّجن. أجل، حتّى هذا سيكون كافيًا. كانت الرّسالة تشرح كلّ شيء، كلّ شيء أرادها أن تعرفه حول اختفائه وفشله في الحفاظ على الوعد الذي قطعه لها بأنّه لن يتركها أبدًا.

«أوبا سدي نلو»، يقول الآباء العظماء، في حِكمهم الباطنيّة: «الشّيء الذي يشتهي الرّجل أن يراه في الكون، هو الشّيء الذي سيراه في الكون بالفعل». يا له من قول صدق، «إيبونو»! الرّجل الذي يكره رجلًا آخر سيرى الشرّ في أيّ شيء يفعله هذا الشّخص، مهما كانت نواياه حسنة. كما يقول الآباء أيضًا: «إذا أراد الرّجل شيئًا، وإذا لم يكفّ عن السّعي وراءه، فإنّه سيحصل عليه في نهاية المطاف». رأيت هذا مرّات ومرّات.

لم يخطر في بال صديقي أنّ الكون كان على وشك أن يمنحه في ذلك اليوم ما سعى وراءه لسنين طويلة. كلّ ما هيمن على تفكيره في ذلك اليوم، كان عزمه على الذّهاب إلى بوّاب بيت أهل ندالي، وهذا ما حمله على ترك ما كان يقوم به، طحن بذور البطّيخ في طاحونة يدويّة مثبّتة في طرف مقعد صغير. خلع مريول الشّغل، أغلق المحلّ، ثمّ انطلق إلى بيت أهل ندالي. أثناء تنحيته الحجر الذي يُبقي على باب المحلّ مفتوحًا على مصراعَيْه، داهمه التّفكير فيما سيفوته إن لم يلتزم بعمله. فبعد ساعة، كانت الأستاذة الجّامعيّة المتخصّصة في الزّراعة ستأتي لشراء كيس من علف الدّجاج. كان سيفوِّتُ فرصة البيع في صفقة واحدة ما كان يبيعه خلال أسبوع. لكن حتّى هذا لم يُثنِه عمّا عقد العزم عليه.

امتطى درّاجته وانطلق مسرعًا في الشّارع المفضي إلى دوّار. كانت إلى جنب الشّارع ورشة بناء ممتدّة على طول أمتار، ومطوّقة بألواح من الزّنك المثبّت بقطع من الطّوب. قطع الشّارع على نحو متهوّر رجل كان يحمل لوحًا من الخشب، فأرغم الجّميع على التّوقّف إلى حين بلوغه الطّرف الآخر، حيث كانت توجد سقائف منصوبة في كلّ مكان. كان بيت ذو سقف حرقته الشّمس يطلّ من فوقها، مطليًّا بلون أحمر معتم، ومكتوبًا فوقه رقم 0802 بأحرف بيضاء. من هذه النّقطة، عبر إلى «شارع دانفوديو»، متعرّجًا بالسّير بين صهريج ماء وسيّارة بيضاء.

كانت السّيّارة تسير مثقلة تحت وطأة حمولتها الزّائدة، أكياس الحبوب مكدّسة داخل صندوقها المفتوح. على جانب الطّريق، أسفل يافطة مرتفعة، كان ثمّة رجل يتحدّث عبر مكبّر للصّوت، محاطًا بجمهور من النّاس بين أيديهم أناجيل وقيثارات ومنشورات.

اضطرّ إلى التّوقّف بسبب انسداد منعطف صغير عطّل حركة السّير مؤقّتًا. كان سينطلق إلى الأمام، لكنّ تلك الوقفة، على مسافة عشرات الأمتار من اليافطة، أتاحت له سماع الصّوت المميّز الملعلع من مكبّر الصّوت. رغم مرور سنوات عديدة، إلّا أنّه ميّز ذلك الصّوت على الفور. أوقف درّاجته إلى جنب الطّريق، ولحظة تمكّن من رؤية الرّجل الخطيب، بات واضحًا له بأنّ أمرًا استثنائيًّا حصل في الكون. بالفعل، شعرت بأنّ ثمّة جدلًا عظيمًا قد حُسم داخل عالم الأرواح، جدلًا لم أكن أنا، قرينه الحامي، قد شاركت فيه. والآن، بعد أن كان مُضيفي قد فقد الأمل تمامًا، وبعد أن كان قد سلّم بابتلاع ما دسّته الحياة في فمه الرّضيع وكأنّها أمّ معتوهة، بعد كلّ هذا، سمع الكون توسّلاته وجاء لنجدته.

كان قد قضى ليالٍ في التّوسّل إلى أيّ كان ليمنحه فرصة واحدة، واحدة فقط، كي يعثر على صاحب هذا الصّوت ثانية. كي يحمل هذا الشّخص على دفع ثمن ما فعله به. طلب العون من الآلهة، كبيرها وصغيرها، من «الرّبّ» تارة، ومن «المسيح» تارة أخرى، بل ومن «آلا» ذات مرّة، وعلى نحو غير متوقّع، حتى منّي أنا، قرينه الحامي، في إحدى المرّات. عندما لم تُستجب الدّعوات، أو لمّا اعتقد بأنّها لم تُستجب، كان ينكفئ على ذاته ويصرف الوقت في استحضار مشاهد مواجهته مع هذا الرّجل، بعضها كان أشدّ عنفا من بعضها الآخر. كان يرى في المشهد الأبرز بأنّه سيكون جالسًا لتناول الطّعام في المطعم الذي أكل فيه الطّعام برفقة هذا الرّجل يوم التقاه لأوّل مرّة في عام 2007، وأنّ هذا الرّجل، الآن وقد أصبح ثريًّا لكثرة ما سرقه من نقود الآخرين،

سيدخل برفقة امرأة جميلة. سيدخل الرّجل بأبّهة ووقار، فيثني عليه الجّالسون في المطعم ويكيلون له عبارات المديح والإطراء. بعد ذلك، سيطلب الرّجل مشروبًا للجّميع على حسابه، مزهوًّا بنفسه أمام المرأة التي جلبها معه. لا بدّ من أنّ الرّجل كان يأتي في زيارات قصيرة إلى نيجيريا، ولعلّه كان يعتقد بأنّ ضحيّته ما زال قابعًا في السّجن. لهذا، فإنّه سيكون في غاية الاسترخاء. لن يتفطّن إلى أنّ القدر زرع بذور قصاصه العادل في شخص رجل مثل مُضيفي، رجل مدمَّر ينتظر على أحرّ من الجّمر وصوله إلى نيجيريا.

سيحني مُضيفي رأسه لإخفاء وجهه ريثما يتمكّن الرّجل من الاستقرار في كرسيّه، ثمّ سينهض بسرعة خاطفة، وسيهشّم زجاجة البيرة فوق طاولته، وسيدشّن هجومه. أثناء الهجوم، سيتحوّل إلى شخص آخر لم يتخيّل قطّ أنّ من الممكن له أن يكونه. سيصبح جلّادًا، متوحّشًا، ضرباته قاطعة وسريعة، وقلبه غليظ لا يعرف الرّحمة. بلمح البصر، سيكسر الزّجاجة وسيطعن بها بطن عدوّه. لكنّ هذا لن يكون كلّ ما سيفعله. بل سينتزعها من بطنه ويعود ليغرسها في صدره. لن يردعه انبثاق الدّم أو تدفّقه على الأرض. بل سيواصل الطّعن، في عنق الرّجل، في ذراعيه، في فخذيه، إلى أن يبعده النّاس قسرًا عن الجّثّة. لكنّ المهمّة حينئذ، ستكون قد اكتملت. ستكون عمليّة تصفية الحساب قد أُنجزت، مثلما هو متداوَل ومعروف بين البشر منذ آلاف السّنين. مَنْ سلَك طريقًا ملتويًا وعلا فوق ظهور البشر، سيسقط من عليائه سقوطًا مروّعًا. «إيبونو»، هذا هو المشهد الذي ظلّ ماثلًا في ذهنه، لزمن طويل، كأصدق صورة لذلك اليوم الذي سيقابل فيه هذا الرّجل، ولكنّه الآن تعثّر بهذا اليوم بمحض الصّدفة.

انطلق مُضيفي فوق درّاجته صوب جمهور النّاس، وكان بالكاد قد ترجّل عندما ميّزه الرّجل المذنب. علّق الرّجل خطبته وناول مكبّر

الصّوت بسرعة إلى الشّخص الذي بقربه، مرتديًا، مثله، ثياب الرّجل الأبيض: قميصًا، وربطة عنق، وسروالًا بسيطًا بلا زخارف أو صور. ثمّ ركض الرّجل صوبه، مناديًا بأعلى صوته: «تشننسو-سولمون!».

«إجانغو إجانغو»، في مثل هذه اللّحظات، كثيرًا ما أتمنّى لو كنّا نحن، القرناء الحماة، قادرين على رؤية كيف يفكّر أبناء البشر الآخرين، لا مُضيفينا فحسب. أجل، بدا الخوف بوضوح على الرّجل، لكن هل كان خائفًا حقًّا؟ هل كان خائفًا مثلما كان ينبغي له أن يكون؟ لست أدري. كلّ ما كنت قادرًا على رؤيته في ذلك الوقت هو أنّه رغم هرولته صوب مُضيفي، إلّا أنّ حركته كان يشوبها الحذر. إذ وقف على بُعد خطوات من مُضيفي. أثناء إقبال الخصم عليه، أدرك مُضيفي بأنّ الأمور لن تسير كما تخيّلها. فالمكان الذي عثر فيه على الرّجل كان مكانًا مفتوحًا لا يتيح له فعل أيّ شيء. بوقوفه الآن أمام مُضيفي، انفجر هذا الرّجل بالبكاء. اقترب خطوة وقال: «سولمون»، ثمّ ألقى نظرة على جمهور النّاس، ومدّ يده نحو مُضيفي الذي تقهقر قليلًا إلى الوراء. أنزل الرّجل يده المرتجفة ببطء إلى جنبه ثمّ قال ثانية: «سولمون»، ثمّ استدار وقابل النّاس بوجهه وهتف قائلًا: «أيّها الإخوة، إنّه هو بذاته. إنّه سولمون. هللويا! هللويا!».

ثمّ فتح ذراعيه وهبّ نحوه. من دون أيّ إنذار، قام هذا الرّجل، الذي لطالما كان مُضيفي قد دعا عليه بالموت، بالوثوب عليه ومعانقته. وفي اللّحظة نفسها التي كان ينوي فيها القبض على خناق هذا الرّجل، استدار الرّجل نحو جمهور النّاس، ثمّ اختطف مكبّر الصّوت وقال بحماسة ملتهبة: «ربّي، ربّ السّماوات استجاب لصلواتي! سمع ولبّى دعائي! تبارك الربّ!».

فأمّن النّاس: «هللويا!».

«أيّها الإخوة والأخوات، إنّكم لا تعلمون، إنّكم لا تعلمون بما أنعم الرّبّ عليّ به في هذه اللّحظة».

خبط الرّجل الأرض بقدميه حتّى ثار الغبار حولهما. ثمّ تابع قوله بدهشة: «إنّكم لا تعلمون!».

أخرج الرّجل منديلًا ومسح عينيه. لقد كان يا «إيبونو» يبكي بالفعل. قلّب مُضيفي عينيه هنا وهناك، فرأى أنّ الحشد كان آخذا في التّضخّم. ركن رجل شاحنته الصّغيرة واقترب مع زوجته كي يتابعا المشهد. خرجت امرأة عجوز من بيت على الجّانب الآخر من الشّارع ومالت فوق الشّرفة، كي تتابع هي الأخرى. حدّقت الوجوه والأعين به من كلّ مكان، وكأنّها كانت سلسلة حديديّة خفيّة أحكمت شدّ الخناق عليه. قال الرّجل: «هذا الرّجل هنا هو سبب نجاتي من الضّلال. لقد كنت لصًّا. سرقت منه ومن غيره. لكنّ الرّبّ استخدمه في رفع الغشاوة عن عينيّ. استخدمه الرّبّ لإنقاذي. تبارك الرّبّ!».

فردّ النّاس: «هللويا».

الآن، هل كان بوسع مُضيفي فعل أيّ شيء لهؤلاء النّاس الذين يحيطون به؟ لا، «تشوكو». كانوا سلاحًا قاطعًا حيّد كافّة المشاهد المستحضرة في ذهنه وخططه المفصّلة وأفرغها من أيّ مضمون. لا يمكن استيعاب ما كان يجري، وقد أمسك الرّجل بيده. ما الذي كان بوسعه أن يفعله غير السّماح له بإمساكها؟ ثمّ راقب، مندهشًا، ركوع الرّجل أمامه وقد حمل يده وقال: «أخي تشننسو سولمون، إنّني أنحني هنا بين يديك، باسم الرّبّ الذي خلقنا أنا وأنت، والعالم قاطبة... الصّفح والغفران، الصّفح والغفران. أرجوك أن تغفر لي، أناشدك باسم المسيح».

رغم ضياع بعض الكلمات بسبب رداءة مكبّر الصّوت، إلّا أنّ الجّميع تقريبًا بدا عليهم استيعاب ما قاله الرّجل. علت همهمة بين الجّموع. ثمّ بدأ شابّ في قميص أحمر وربطة عنق عليها صورة كنيسة وصليب بالإنشاد، ضاربًا دفًّا دائريًّا طوّقت حافّته صنوج صغيرة، كلّما قرعت براحة اليد، أطلقت جلجلة مماثلة لقرع الصّولجان الحديديّ بالأرض من قبل السّدَنة والكهنة. رغم عدم قدرة مُضيفي على سماعه،

إلّا أنّه كان قادرًا على استشعار ما كان يقوله هذا الشّخص. لكنّي أنا، قرينه الحامي، سمعت كلّ كلمة قالها: «إلهي كن في عونه. إلهي كن في عونه. أعِنه على الصّفح والمغفرة. اغمُر قلبه بالعطف والرّحمة. إلهي كن في عونه! إلهي كن في عونه!».

«إجانغو إجانغو»، وقف مُضيفي هناك وقد غُلب على أمره. انصعق وأصابه الشّلل تمامًا لمّا نهض خصمه وأقحم مكبّر الصّوت في يده. وفور أن حمله، انفجرت حماسة الجّمهور، وعلا بكاء خصمه أكثر، وكأنّه كان ينوح على أب أو أمّ. صاحبَ ذلك جلجلة الدّفّ بضربات افتتاحيّة، وأطلق الجّمهور الحناجر بالهتاف. كان مُضيفي يعرف بأنّهم كانوا ينتظرون منه الكلام فقال: «أنا... أنا»...

ثمّ رفع مكبّر الصّوت عن فمه وأنزله إلى أسفل. وعندئذ علا صوت الرّجل المذنب مرافقًا بجلجلة الدّفّ الطّقوسيّة: «إلهي، كن في عونه! ساعده أيّها الرّبّ!».

فردّ الجّمهور بصوت واحد: «أجل! أجل!».

قال مُضيفي من جديد: «أنا... أنا لأجل»...

بدأت يدا مُضيفي بالارتجاف. فقد تذكّر الآن، كما لو أنّ شبحًا تجلّى أمام وجهه، تجمّع الرّجال البِيض أثناء عودته إلى زنزانته. أبصر صاحب الوجه المشطور بندبة قبيحة، ورجلًا آخر، مقبلَين صوبه وقد كوّرا قبضتيهما وصاحا فيه: «أنت تغتصب امرأة تركيّة، أنت تغتصب امرأة تركيّة»، ثمّ أتبعا ذلك بسيل من الكلمات التّركيّة التي لم يفهمها. رأى نفسه وقد حاول فتح الزنزانة والفرار إلى داخلها، ملتقطًا عين رجل أسود كان يراقب ما يجري عن بُعد، لكنّ الرّجال رفسوه من الخلف. رأى نفسه وقد سقط فوق القضبان وتشبّث بها لدى محاولة الرّجال انتزاعه من هناك.

علا صوت تلك الآلة الموسيقيّة الغريبة مجلجلًا من جديد، وكرّر

صاحب البذلة وربطة العنق دعاءه قائلًا: «اغمر قلبه بالعطف والرّحمة، أيّها الرّبّ! أيّها المسيح، اغمر قلبه بالعطف والرّحمة!».

ردّ الجمهور: «أجل، اصفَح واغفر! آمين!».

اندفعت الكلمات من حلق مُضيفي: «سأغفر».

انفجر الجّمهور كالبركان في هذه المرّة. ووسط الحمم الحارقة، ألحق به الواقع مزيدًا من الإهانة. فمن دون سابق إنذار، رفع من كان ينبغي له أن يقوم بقتله يد مُضيفي عاليًا كالحَكم الذي يرفع ذراع مصارع منتصر أمام جمهور مهلّل. لكن، مع ذلك، كان مُضيفي قد هُزم للتوّ. ذلك أنّ هذا الرّجل كان جامايك: الرّجل الذي سعى مُضيفي وراءه لزمن طويل، وأحد الأسباب الرئيسة التي أبقته على قيد الحياة في ذلك الوقت. والآن، بعد كلّ تلك السّنوات، ها هو يعثر على جامايك، وما الذي قام بفعله؟ أعلن على الملأ أنّه سيصفح عنه وسيسامحه ببساطة.

صرخ جامايك في الحال: «هناك من يقول بعدم وجود الإله! هؤلاء يزعمون أنّ ما نؤمن به غير صحيح. وأنا أقول: خسِئوا!».

صاح الجّمع: «خسئوا!».

فتابع جامايك: «من القادر على إنقاذي من الضّلال مثلما رأيتم، من سواه؟ من سواه؟».

«أُنويرو!».

«أَغباتَّه آلومالو»، تصاعدت حدّة غضبه وقد شرع جامايك، ببنيته النّحيلة ونظراته البريئة من خلف نظّاراته، والدفء غير المتوقّع المنبعث منه، في سرد شهادة قصيرة حول كيف سرق كلّ شيء من «الأخ تشننسو سولومن» قبل أربع سنوات. كيف سافر «الأخ تشننسو سولومن» إلى شمال قبرص بينما عمد هو، اللّصّ، إلى الفرار جنوبًا إلى جمهورية قبرص. كيف بدأ، بعد سنتين، إثر تعرّضه لحادث، في إعادة النّظر والتّفكير في حياته. هكذا، تواصل مع النّاس في شمال قبرص وعلم مصائر ثلاثة ممّن كان قد احتال عليهم: فتاة في جامعة

الشّرق الأدنى كانت قد أصبحت عاهرة تبيع جسدها، و«الأخّ تشننسو سولومن» هنا، الذي زجّ به في السّجن، والأخّ، والأخ جاي.

لقي جامايك مشقّة في نطق الاسم الأخير، ولمّا نطقه أخيرًا، أتبعه بوقفة وشت بالجّزع واليأس، قام عبرها بمسح عينيه بطرف قميصه. ثمّ قال: «أتعلمون ما حدث له بسببي؟».

ردّ الجّمهور: «لا».

«سمعت بأنّه انتحر! قفز من فوق بناية عالية وقتل نفسه».

علت شهقة بين الجّموع. وانتزع مُضيفي، خوفًا من عدم قدرته على ضبط نفسه، يده من الرّجل ووضعها فوق صدره متظاهرًا بقمع كحّة ما. تابع جامايك قائلًا: «لمّا سمعت هذا الخبر وقصّة أخرى لما فعلته، أسلمت نفسي للمسيح. أيّها الإخوة والأخوات، بدأت ألهج بالدّعاء إلى الرّبّ بأن يقيّضَ لي رؤيته ثانية كي أطلب منه الصّفح والمغفرة. تبارك الربّ!».

هتف الجّمهور: «آمين!».

فتابع جامايك، الآن بلسان الرّجل الأبيض، وكأنّ لسان الآباء لم يعد كافيًا للتّواصل والتّعبير:

«أقول، تبارك الرّبّ!».

فهتف الجمهور ثانية: «آمين!».

فقال جامايك: «أوتايتو دي ري جيسو!».

فهتف الجمهور: «نا نْدو إيبيي!».

استدار جامايك نحوه بعينين ممتلئتين بالدّمع، ووجه يحمل علامات عذابه الواضح. لم يكن مُضيفي قد توقّع هذا: كان جامايك يقف باكيًا بين يديه، بوجه محروق من الشّمس وشفتين مشقّقتين، وجه كان يحمل إمارات الخزي والعار. لم يكن وجه شخص غالِب، بل وجه شخص مغلوب. جرّده هذا الوجه من سلاحه.

«تشوكو»، ما انتابه في تلك اللّحظة كان في الحقيقة مشاعر عجيبة شائعة بين البشر. رأيت هذا مرّات ومرّات. فالوجه، بعيدًا عن أيّ شيء آخر، شيء عارٍ، شيء يعاني من الفقر المدقع. لا يستر نفسه أمام أيّ أحد، ولا حتّى الغرباء. إنّه ذاك الذي لا يحمل أيّ سرّ. ذاك الذي يتواصل بشكل طليق وعلى الدّوام مع العالم. لطالما تحدّث محاربو الزّمن القديم أيّام الآباء العظماء عمّا كان يصيب عزمهم على العنف والبطش من خور وضعف حين كانوا يواجهون وجوه أعدائهم. في تلك اللّحظة، كانت دوافعهم تنقلب ببساطة من دافع القتل لأجل القتل إلى دافع القتل لأجل ألّا يُقتلوا. تنقلب المسألة كما لو أنّ المحارب، أمام وجه عدوّه المكشوف، يُجرِّد نفسه من العداء بأكمله. «إيبونو»، إنّها مسألة شائكة صعبة على الفهم. حتّى الآباء الحكماء انبروا لها، فحاكت ألسنتهم كثيرًا من الحكم والأمثال الرّامية إلى تفسيرها، لكنّها لم تكن أكثر جلاء إلّا عند تعبيرهم عن تلك العاطفة المذهلة التي يطوّرها الرّجل تجاه المرأة أو الأمّ تجاه ابنها. أشاروا إليها بـ«آيهو نا آنيا». إذ إنّهم وعوا بحقّ أنّ الرّجل لا يستطيع أن ينظر في عين رجل آخر إلّا إن كان لا يضمر أيّ ضغينة في نفسه تجاه هذا الرّجل. لذا، حين يقول شخص لآخر: «ضع عينك في عيني»، فإنّه إنّما يريد التّأكّد إن كان الآخر لا يضمر له مشاعر الودّ. في المقابل، فإنّ الرّجل المقنّع، أو الرّجل البعيد، رجل يمكن أن يُؤذَى بسهولة.

إنّني على يقين من أنّ هذا كان السّبب في سماح مُضيفي لجامايك بمعانقته ثانية والبكاء فوق كتفه وسط تصفيق الجّمهور وهتافه بـ«هللويا». يجب أن يكون هذا، مع أنّ مُضيفي لم يكن يعلم ذلك، سبب قيامه بإعطاء هذا الرّجل، الذي ألحق به دمارًا لا يمكن أن يُصلَح، رقم هاتفه. وردّه بالإيماء على طلب خصمه الالتقاء به في اليوم اللّاحق في مطعم «مستر بيغز». قال جامايك: «في الخامسة مساء؟».

ردّ مُضيقي قائلًا: «أجل، في الخامسة مساء».

«سأكون هناك يا أخي تشننسو سولومون».

إنّني على يقين من أنّ المواجهة مع وجه جامايك كانت وراء حمله بعد ذلك على الاستدارة وشقّ طريقه وسط الجّمهور المبتهج. وهي التي كانت وراء ركوبه فوق درّاجته والانطلاق بسرعة بعيدًا عن المشهد ومن دون الالتفات إلى الوراء، لا باتّجاه المكان الذي كان يقصده في الأصل، بل باتّجاه طريق العودة إلى شقّته.

20

تصفية حساب

«**إكوكو أمان أُونيا**»، إنّ التّرقّب عادة من أغرب عادات الذّهن البشريّ. إنّه قطرة دم فاسدة تسري في شريان الوقت، تتحكّم بكلّ ما فيه وتحوّل أسيرها إلى رجل لا قدرة لديه على فعل أيّ شيء سوى القعود والتّضرّع لأجل انقضاء الوقت. إنّ التّرقّب فعل معلّق التّنفيذ من قِبل فاعليّة الوقت الطّبيعيّة، أو من قِبَل تدخّل بشريّ، لكنّه المهيمن بلا انقطاع على أفكار الرّجل. يجثم فوق صدر الحاضر إلى أن يختفي عن مرمى النّظر. إنّه السّبب وراء قول الآباء الأوّلين: «عندما يُطبخ طعام الصّغير، فإنّ عيني الصّغير لا تطرفان ولا تفارقان سطح الموقد». عندما ينتاب المرء قلق التّرقّب، يحاول التّلصّص على الوقت الذي لم يتشكّل بعد، يحاول الفوز بمعلومة عن واقعة لم تحدث بعد. وقد يرى نفسه في بلد لم يسافر إليه بعد. وقد يجد نفسه وهو يرقص مع أهل البلد، ويأكل أطعمتهم المحلّيّة، ويتمشّى في نواحي البلد ذي المناظر الخلّابة. هذه هي كيمياء قلق التّرقّب، متوقّفة على الوعد بشيء، بواقعة، بلقاء، بأمر لا يطيق المترقِّب له انتظارًا. رأيت هذا مرّات ومرّات.

وسط ذلك كلّه، قد يغرق المرء في أسر تفكير وعذاب شديدَين، مثلما فعل مُضيفي بعد مصادفة جامايك. رجع ممتلئًا بالحنق والسّخط، فاندفع إلى غرفته وراح يرفس ما حوله، الرّفّ، السّرير،

الوعاء المطّاطيّ، لاعنًا، شاتمًا. أنحى باللّائمة على السّماء، وعلى كلّ الكينونات المتآمرة، التي كانت وراء ما حصل له. أنحى باللّائمة على إلهه. لماذا كان عليه أن يقابل جامايك بعد كلّ هذه السّنين في مكان عامّ؟ ولماذا كان جامايك، من بين كلّ الأوضاع، في وضع الوعظ والإرشاد، وضع كتّله تمامًا؟ فالهجوم على خطيب خلال إلقائه مواعظ الإنجيل على النّاس كان سيكون أمرًا مستحيلًا تقريبًا. فالنّاس في «آلا إيبو»، وفي عالم الرّجل الأسود على العموم، يكنّون احترامًا كبيرًا لهذا الصّنف من الرّجال الذين صار جامايك واحدًا منهم. أنحى باللّائمة على نفسه لعدم الاتّصال بإلوتشوكو منذ رجوعه. ما كان ينبغي له حين كان في قبرص أن يلوم إلوتشوكو على كثير من الأخطاء، مثل فشله في مساعدته على استرجاع بيته وفشله في الحصول على عنوان جامايك من شقيقته. لو عمد مُضيفي إلى الاتّصال بإلوتشوكو فور عودته، لأخبره بأنّ جامايك في «أوماهيا». لدعا جامايك ببساطة إلى مكان منعزل وأخذ ثأره منه.

«أغوجغِبه»، لم أكن قد رأيت من قبل قطّ تلك الحالة التي انتابت مُضيفي في تلك اللّيلة. استولى عليه الغضب إلى حدّ الشّتم واللّعن، ولكم الحائط، ورفْع سكّين، ثمّ تهديد نفسه به. وفي لحظة التباس مهولة، استغلق عليّ فيها إن كان هذا مُضيفي بالفعل أم روح شرّيرة تمكّنت من تلبّسه، وقف أمام المرآة، ملوّحًا بالسّكّين وهو يقول: «سأطعن نفسي، سأذبح نفسي!». وجّه السّكّين إلى صدره، وبيد مرتجفة، وعينين مغلقتين، هزّه حتّى لمس لحمه. قدحت في ذهنه، على عجل، أفكارًا، وذكّرته بعمّه، وباحتمال لمّ شمله مع ندالي. عليّ أن أذكر، بكلّ تواضع يا «تشوكو»، بأنّي ربّما ساعدت في الحفاظ على حياة مُضيفي! إذ إنّ كلماتي، «ماذا لو كانت ما زالت تحبّك مثل زوجة أوديسيوس؟». أحيت الأمل فجأة في نفسه. ارتخت قبضته،

وسقط السّكّين في المغسلة، مؤدّيًا رقصة طفيفة قبل استقراره بصمت. بعدئذ، أجهش بالبكاء. كان شديد الألم، عارم الحزن، حتّى خفت من أنّه قد لا يعود إلى رشده. فأوحيت له بفكرة أنّ ذلك اللّقاء لم يكن سوى أوّل لقاء بينه وبين ذلك الرّجل. وأنّهما سوف يلتقيان في اليوم اللّاحق، على انفراد هذه المرّة. سيأتي إليه خصمه مثلما اشتهى دومًا، وبمقدوره أن يفعل به ما يشاء، بل بإمكانه أن يُطلع الرّجل على الرّسالة التي كتبها لندالي، والتي استعرض فيها ما حصل معه بتسلسل زمنيّ، لكي يتمكّن الرّجل من معرفة فداحة ما ارتكبه. أوحيت له بأنّه ليس عليه اعتبار تلك الفرصة الضّائعة هي كلّ ما سيسنح له. لا.

للمرّة الثّانية، أنصتَ إلى صوتي. أكّدتُ له على أمر، وتقبَّله. غسل وجهه وتمخّط ثمّ جفّف وجهه بمنشفة معلّقة فوق مسمار مثبّت بالحائط. عاد إلى غرفة الجّلوس وأخرج الرّسالة التي تضمّ سطور قصّة حياته، والتي قرّر الآن بأنّه سوف يُطلِع جامايك عليها في اليوم اللّاحق. تفحّصها بعناية، محاولًا التّأكّد من أنّ التغييرات التي أجراها عليها قبل يومين لم تكن قد بدّلت في فحواها. في الحقيقة، أذهله التّفكير الآن في أنّ القدَر، أو أيًّا ما كان وراء تدشين تلك الوقائع والأحداث، استشرف هذا اللّقاء الموعود بينه وبين جامايك. إذ قبل يومين فقط، استيقظ من نومه في منتصف اللّيل ولم يستطع العودة إلى النّوم، الأمر الذي أصبح جزءًا من حياته منذ خروجه من السّجن وعودته إلى بلده. لهذا، درج على فتح المذياع والإنصات له كي يساعده على الخلود إلى النّوم. ليلتها سلّم نفسه للنّوم على صوت أحد الواعظين المتحدّثين عبر المذياع. وعن ماذا كان يتحدّث؟ عن الجّحيم. الموضوع نفسه الذي كان يستغرق التّفكير فيه خلال سنوات حبسه. مكان لا مهرب منه. عبر إنصاته إلى كلّ ما وصفه الواعظ، أدرك بأنّه لو طرح أيّ سؤال عن الجّحيم، لكان كلام المتحدّث شاملًا لكلّ

الأجوبة: داخل الجّحيم، ليس هناك أيّ خلاص. إنّه مكان للمعاناة الأبديّة حيث يحتجز الرّجل كالسّجين وحيث، مثلما أكّد الواعظ مرارًا وتكرارًا، «الدّودة التي لا تموت أبدًا».

أغلق المذياع وجلس للتّدبّر فيما سمعه بعد أن تلقّى الوعيد نفسه. ثمّ نهض وقرأ الرّسالة التي كتبها لنذالي. لم يكن قد قرأها كاملةً منذ رجوعه إلى أرض الآباء العظماء، لأنّه شعر بأنّ كل ما كان يريد قوله لها كان مكتوبًا هناك. تناول الآن قلمًا وشطب العنوان، وكتب في الأسفل منه عنوانًا جديدًا:

~~«قصّتي: كيف عانيت في قبروص»~~

«قصّتي: كيف ذهبت إلى الجحيم في قبروص»

بعد انتهائه من قراءة الرّسالة، كان راضيًا عن أنّ جوهرها ظلّ على حاله ولم يتغيّر. غدًا، سيعطي الرّسالة إلى الرّجل الذي ساعده في تشكيل سطورها. ولم يُطق انتظار تلك اللّحظة.

«تشوكو»، يقول الآباء الشّجعان: «الرّجل الذي لدغته حيّة يصبح خائفًا من دود الأرض». طوال سنوات، كان الزّمان والمكان قد تواطآ على إخفاء هذا الرّجل بعيدًا عن ناظريه، لكن في ذلك اليوم، سيكون برفقة هذا الرّجل على انفراد. استيقظ فجرًا، من ليلة لم ينل فيها سوى قسط ضئيل من النّوم، لكنّه كان يشعر بشيء من الرّاحة. جلس في سريره وأدار شريط مخطّطاته في رأسه وصولًا إلى النّهاية المتخيّلة، التي سيكون فيها جامايك ممدّدًا فوق الأرض وسط بركة من دمائه. لم يكن قد عرف بعد لجاجة الحقد، وكيف، حتّى عندما يقاومه الرّجل ويحاول دفعه بعيدًا عنه، ينحسر للحظة متكدّسًا فوق نفسه كالموج العظيم، ليعاود اجتياح كلّ شيء، إلى أن يغرق الذّهن فيه من جديد.

«إيبونو»، رأيت مرّات ومرّات ما اقترفته أيدي رجال غرقت قلوبهم

في الحقد. ولو حاولت الإقدام على وصف ذلك كلّه، لخذلني الوقت. لكن تجنّبًا لإثارة مزيد من المشاعر في نفسه، راقبتُ بصمت وشريط مهمّته الدّموية يدور في ذهنه إلى أن أدركه التّعب وسقط في براثن النّوم.

تساقط المطر معظم ذلك الصّباح. منذ عودته إلى «آلا إيبو»، كان هطول المطر هو أكثر شيء يشعره بأنّه عاد إلى أرض الوطن بالفعل. هذا لأنّ معظم ذكرياته المبكرة في «أوماهيا» تشكّلت في ظلّ العواصف. كانت الغيوم صورة حاضرة على الدّوام في ذهنه كطفل صغير. دويّ الرّعد، شظايا البرق، هذا ما كان يمنح هذا العالم قلبًا نابضًا وذكريات حادّة حاضرة في الذّهن كذكريات الحرب. عند بعض الأمم، مثل «أوغو هاوسا»، ربّما هيمنت عناصر أخرى للطّقس، لكنّ المطر كان صاحب اليد العليا هنا. في أوساط شعب «الإيبو»، كانت الشّمس تعتبر شيئًا ضعيفًا ليس بذي بأس.

لم يذهب إلى محلّه في ذلك اليوم. كان المطر استمرّ في الهطول إلى إن سلّم القياد إلى ضوء الشّمس، بعد إفراغ ما في جعبته. فالمطر سيّد كلّ العناصر الأخرى. في اليوم السّابق، عندما صادف جامايك، كانت الشّمس قد طلعت مبكرًا، ساطعة في سماء الصّباح. قبل أن تتجمّع السّحب ببطء، مطالبة بحقّها في البقاء.

كانت شمس واهية تتدحرج بتعثّر عبر طبقات السّحب الثّقيلة عند خروجه من البيت. رفع غطاء الدّرّاجة البلاستيكيّ ثمّ امتطاها. لأوّل مرّة منذ عودته، حمل الحقيبة التي كانت ندالي قد أعطتها له. الكلمات المطبوعة على وجهها ما زالت واضحة: «مؤتمر علماء السّياسة في القارّة الإفريقيّة ومنطقة الكاريبي، إبريل 2002». كلّ محتوياتها ما زالت على حالها، عدا صورتَيّ ندالي ورسالتها. استحضر في ذهنه كيف أنه إثر نقله من المستشفى إلى قسم الشّرطة، أخرج أحد الضّبّاط

الصّورتين أثناء تفتيش الحقيبة. كان يودّ انتزاعهما منه، لكن يديه كانتا مكبّلتَيْن. تناقل الرّجال الصورتَيْن فيما بينهم، ضاحكين ومردّدين شيئًا بغمز ولمز، ثمّ صفع بعضهم الأكفّ براحات اليد، وهي إشارة سيفهم فيما بعد بأنها كانت تعني ممارسة الجنس. أحدهم قال له بإنجليزية متلعثمة: «أنت، أنت تحب الفَرْج، العديد، العديد. الفَرْج الأسود، زين؟ أجل؟ زين؟» كانت لحظة لن ينساها قطّ، تلك التي ضُوعِفت فيها عقوبته كي تشمل أكثر النّاس براءة: ندالي. في ذلك الوقت، على بُعد آلاف الأميال من أرض الآباء، كان واقفًا يرقب تعرّضها للانتهاك من قبل أعين الغرباء. لاحقًا، أحد الرّجال، غاضبًا بجلاء من تصرّفات الآخرين، سيأخذ الصّورتين، ويضعهما في الحقيبة، ثمّ سيقول لمُضيفي: «عذرًا يا صديقي». بعدئذ، سيحمل الرّجل الحقيبة وسيغادر الغرفة. لن يرى الحقيبة مرّة أخرى إلّا بعد إطلاق سراحه. ولمّا سُلّمت إليه، كان أوّل ما فعله هو البحث عن الصّورتين. أمّا رسالتها، فكانت قد أزيلت من سرواله المنقوع بالدّماء إثر وصوله إلى المستشفى، متلَفة تمامًا.

كان يحمل الآن سكّينًا في الحقيبة، مخبّأ بين دفّتي كتاب، فقد رسم خطّته من البداية وحتّى النّهاية. سيذهب إلى المطعم وسيجلس بهدوء إلى طاولة بقرب الباب للخروج بسرعة فور أن ينفّذ خطّته. سيضع الكتاب فوق الطّاولة وسيأكل بسرعة قبل مجيء جامايك، لأنّ الغضب الشّديد الذي سينتابه بعد وصول جامايك سيمنعه من تناول أيّ شيء. سيحاول التّغرير بخصمه عبر حمله على الشّعور بالأمان، بل على التّصديق بأنّه سامحه. ثمّ سيدعو جامايك إلى شقّته. لن يلجأ إلى استخدام السّكّين في مكان عامّ. لكن لو رفض الرّجل دعوته بداعي الشّكّ، فلن يكون لديه أيّ خيار سوى اللّجوء إلى استخدام السّكّين هناك في المطعم. سيطعن الرّجل حتّى الموت ثمّ سيفرّ إلى محطّة

الباص ويذهب إلى لاغوس. سيحاول الوصول إلى شقيقته أو قرية والده والمكوث في بيتهم المقفل هناك.

«تشوكو»، خفت من أنّ هذه الخطة، إن نُفّذت، ستجرّ عليه وبالًا أكبر من الذي عاشه. لذا، قدحت في ذهنه فكرة أنّه إن أقدم على تنفيذ كلّ تلك الأمور التي كان قد خطّط لها فإنّه سيخسر ندالي إلى الأبد. كما أنّني أضفت، ولو بقدر عظيم من التّردّد، أنّ فعلة كهذه ستعيده إلى السّجن وستحرمه من أيّ فرصة للعثور عليها من جديد. قلّب هذا الأمر في ذهنه لوهلة بخوف شديد. بل إنّه أخرج السّكّين من الحقيبة ووضعه فوق الطّاولة. لكنّ حنقًا مهولًا استولى عليه ثانية، فحمل السّكّين وأعاده إلى الحقيبة. ردّد الصّوت في رأسه قائلًا: «سأقتله، سأقتل جامايك وسأعثر عليها. سأقتل جامايك، ولن أعبأ بأيّ شيء آخر!».

«إيبونو»، دائمًا ما يعمدُ الرّجل إلى وضع الخطط، حتّى وهو يعلم بأنّه لا يستطيع رؤية المستقبل. وأنت ترى النّاس يتصرّفون على هذا النّحو يوميًّا. خطيب وخطيبته يرتديان أفضل حلّة ويزوران عائلتيهما لإبلاغ الجّميع بأنّ حفلة زفافهما ستكون بعد خمسة أشهر. على طول الطّريق قرب نهاية الشّارع، هناك ورشات بناء كثيرة. رجل اشترى قطعة أرض، وحفر الأساسات، آملًا في بناء بيت المستقبل. ومع أنّ من الممكن له أن يموت بعد دقيقة من حفر الأساسات، إلّا أنّ هذا الأمر لا يعني له الكثير. في الحقيقة، تتمحور حياة البشر حول وضع التّرتيبات والاستعدادات الخاصّة بمستقبل لا يملكون تجاهه سوى سيطرة ضئيلة! لهذا السّبب، ورغمًا عن كلّ مخطّطاته، لمّا دخل مُضيفي المطعم، سمع من قال له: «أخي تشننسو سولومن». ارتجّ من الأعماق، وكأنّ حصانًا أطاح به من فوق ظهره. كان الرّجل الذي رآه في اليوم السّابق واقفًا الآن، منفردًا به تقريبًا. كانت قبالتهما امرأة تتابعهما من وراء طاولة للبيع. خلف شعرها المجدول، عرضت أشياء للبيع.

أقبل جامايك صوبه قائلًا: «أخي، أخي».

ردّ على الفور، بلسان الآباء، مع أنّه كان حين يجتمع بهذا الرّجل يلجأ أساسًا إلى التّحدّث بلسان الرّجل الأبيض، قال: «أريد أن نجلس فحسب».

ارتخت يد جامايك الممدودة لأجل المصافحة وقال: «أوكيه، يا أخي».

أشار مُضيفي إلى المقعد بقرب الباب وشرع في المشي صوبه. تبعه جامايك وابتسامة واهية فوق محيّاه.

أثناء جلوسه فوق المقعد، أدرك بأنّ شيئًا حصل للمرّة الثّانية وتسبّب في تهدئته مع وجود هذا الرّجل البغيض. لكنّه لم يستطع إدراك كنهه. فجأة، انطفأت جذوة غضبه الجّنوني المستعرة، فجلس فوق المقعد ببطء، مندهشًا من نفسه. مدّ جامايك يده، فقام بمصافحته.

ثمّ هتف جامايك مناديًا: «مدام! مدام!».

أطلّت المرأة من خلف طاولة البيع بعد غيابها داخل المطبخ. فقال جامايك: «من فضلك، زجاجتان من المشروبات الغازيّة. زجاجتا كولا».

ردّت قائلة: «أوكيه أيّها السّيّد».

تفطّن الآن إلى أنّ انطفاء جذوة غضبه يعود في جزء منه إلى ما أبصره من تغيّر شديد طرأ على شكل جامايك. كان الرّجل قد فقد الكثير من وزنه، وعوض رأسه الضّخم المكتنز، كان وجهه الآن ضامرًا وعظامه ناتئة. تقهقرت عيناه إلى الدّاخل فتدلّى الجّفنان وكأنّهما مظلّتان صغيرتان. ما عزّز ضمور جسده ذلك القميص ذو الكمّين الطّويلين الذي ارتداه. كان مقاسه أكبر بكثير من بنيته المتضائلة. كانت شفتاه مشقّقتين، والشّقّ الفاصل بينهما مصبوغًا بمزيج من اللّعاب والدّم. كانت بنيته على العموم، بنية رجل هزيل معذّب، ذاو ومحموم. في عينيه، كانت نذر البكاء. فوق حافّة الطّاولة، وضع إنجيلًا ضخمًا جلبه معه، والآن وضع يده فوقه وقال: «يا أخي، لبثت أبحث عنك، أنتظرك،

لسنوات. لم أعلم بعودتك. بل سألت إلوتشوكو عنك، لكن لم يكن لديه أيّ خبر عنك».

«إيبونو»، كان مُضيفي يودّ الحديث، لكنّه شعر وكأنّ الكلمات مكبّلة في داخله، ولم تستطع الخروج من فمه. تابع جامايك قائلًا: «منذ سمعت... آه، يا إلهي... منذ سمعت بحبسك، وأنا أبحث عنك يا سولو. بحثت عنك في كلّ مكان».

هزّ جامايك رأسه وأكمل: «كنتُ في حالة مريعة للغاية. في حالة مؤسفة يُرثى لها. لم أكن منسجمًا مع حقيقة نفسي. لم أكن، كيف أقول هذا؟ لم أكن حيًّا. ساعدني يا ربّ. ساعد ابنك يا ربّ!».

ثمّ أجهش جامايك بالبكاء. أحضرت المرأة الشّراب ووضعته فوق الطّاولة، وعيناها لم تفارقا الرّجل الباكي. ثمّ فتحت الزّجاجتين وقالت: «هل ترغبان بطلب الطّعام؟».

ردّ مُضيفي قائلًا: «الشّراب كافٍ، شكرًا لك».

فقالت بنبرة معترضة: «أه، الشّراب فقط؟ عذرًا، أوغا، أوه».

ردّ مُضيفي، من دون أن ينظر إلى جامايك: «هو كذلك».

فقال جامايك: «شكرًا لكِ، مدام».

ولمّا انصرفت المرأة، قال مُضيفي: «هلّا ذهبنا إلى البيت يا جامايك؟ أريد أن أروي لك قصّتي».

تكلّم بسرعة لأنّ حقده عاوده، فخشي أن يختفي الحقد ويرجع إلى المكان الذي أتى منه. كان يريد منه البقاء، الحضور معه على الدّوام أثناء وجوده مع هذا الرّجل. فمن دونه كان خائفًا من أنّه لن يستردّ أبدًا سويّته وعافيته من جديد.

قال جامايك: «أوه، ألا تريد أن تأكل؟ أنا سأشتري الطّعام».

«لا، بمقدورنا أن نأكل لاحقًا».

سدّد جامايك ثمن الشّراب وخرجا من المطعم. حمل مُضيفي حقيبته وراح قلبه ينبض بعنف خوفًا من أن تكون نبرة كلامه قد وشت

بحقيقة نيّته. رغم إنصاته لوقع خطوات من كان يتبعه، إلّا أنّه لم يلتفت إلى الخلف عندما قال بصوت عالٍ: «البيت ليس بعيدًا. بمقدورنا أن نأخذ درّاجتي النّاريّة».

ردّ جامايك: «أودّ الذّهاب إلى هناك».

التفت ونظر، للمرّة الأولى في ذلك اليوم، إلى وجه جامايك. ثمّ قال: «دعنا نركب درّاجتي».

أدرك بأنّه لم يكن قد فكّر جيّدًا في هذا العرض إلّا بعد أن ركب جامايك وراءه وتلامس جسداهما. سرت رعدة في جسده، وكأنّ أحدهم وخزه بمهماز. ارتخت قبضته فسقطت المفاتيح من يده. سارع جامايك إلى التقاطها وقال: «أخي سولو، هل أنت على ما يرام؟».

لم يردّ، بل اكتفى بالإشارة إلى الأمام ثمّ شغّل الدّراجة وانطلق.

«**غاغان أوغو**»، الثّأر جبهة من الحطام والرّكام. حالة يلجأ فيها الرّجل الذي هُزم في قتال ذات مرّة إلى جرّ عدوّه من جديد إلى الجّبهة بعد أن تكون المعركة قد كُسبت أو خُسرت، آملًا في إنعاش قتال لفظ أنفاسه وبات في عداد الموتى. يعود لالتقاط الأسلحة الصّدئة، لإزالة الدّم المتيبّس عن السّيوف، ولإيقاد جذوة الحقد العنيف ضدّ خصمه. فالقتال بالنّسبة له، لم ينته أبدًا. أمّا بالنّسبة لخصمه، إن مرّ على المعركة زمن طويل، وإن شعر حينذاك بأنّه المنتصر فيها، فربّما يكون قد نسي أمر المعركة القديمة. لذلك، فإنّ الخصم قد يُصاب بالدّهشة عندما يعمد ذاك الذي مُرّغ بالوحل، وهُشّمت عظامه، وغُلب وقُهر، إلى الإطباق على خناقه وجرّه ثانية إلى ساحة القتال.

وقد يتفاجأ الرّجل المهشَّم نفسه من القوّة التي انقضّ فيها الآن على عدوّه. لكنّ هذا قد يكون بداية سلسلة من المفاجآت. فماذا لو أطبق على خناق عدوّه، وبطحه أرضًا وشرع في خنقه، لكنّ عدوّه لم يبد أيّ مقاومة؟ ماذا لو تمدّد عدوّه هناك ببساطة، ثمّ أغلق عينيه وردّد:

«أرجوك، واصل يا أخي». وماذا لو واصل وجه العدو، المنقوع بالأحمر القاني، توسّلاته له؟ «أنا في المسيح. تبارك الرّبّ. أن أموت، هذا أمر أنا مستعدّ له... آخ... أحبّك، تشننسو سلومون. أحبّك يا أخي».

ماذا كان الرّجل المهشّم ليفعل؟ ماذا كان ليقول عند إعراب الرّجل الذي كان على أهبة قتله عن محبّته له؟ ماذا كان ليقول عندما كان قلبه يتعرّض لمزيد من التّهشيم على يد الحياة وعمليّات تصفية حساباتها العوجاء، من قبل الوقت وكافّة حساباته الخاطئة، من قبل القدر وتقلّباته المريبة؟ ماذا كان ليفعل وهو لم يقترف ذنبًا يستأهل المصائب التي حلّت به؟ جلّ الأمر أنّه وقع في حبّ امرأة، مثل أيّ رجل آخر. ثمّ حاول الزّواج منها، على نحو ما ينبغي لأيّ رجل صالح أن يفعل. حاول والداها وضع العراقيل في وجهه، لكنّه سعى لتخطّي تلك العراقيل، على نحو ما يفعله سائر النّاس حينما يحاولون انجاز هدف ما. والآن، كلّ ذلك قاده إلى بليّة أعظم، لكن ما الذي يفعله؟ خطّط لأخذ الثّأر وسعى وراءه كما لو أنّ حياته كانت متوقّفة على ذلك. استغرق العثور على عدوّه وقتًا طويلًا، لكنّه عثر عليه أخيرًا. والآن يطبق على خناق الرّجل، محاولًا قتله وإلقاء جثّته في نهر «إمو»، مثلما سيفعل النّاس بشخص دمّر حيواتهم. لذا، مثلما ترى، «إيبونو»، هو لم يقم بفعل أيّ شيء خارج عن نطاق المألوف. لكن، مع ذلك، لم يُفضِ أيّ شيء ممّا فعله إلى أيّ نتائج عاديّة!

إن اتّجه إلى الشّمال مثلما يفعل أيّ مسافر آخر، وجد نفسه في الجّنوب. إن غمس يده في طاسة ماء، أحرقه الماء كما لو كان نارًا. إن مشى فوق الأرض، غرق كما لو كان قد مشى فوق الماء. إن رنا ببصره، لم ير شيئًا. إن صلّى، سُمعت صلاته كلعنة. والآن، بعد أن سنحت له فرصة مواجهة رجل شرّير بقتال طالما تخيّله وهيّأ نفسه له، يجد، عوض ذلك، قدّيسًا يصلّي لأجله؛ عوض الاحتجاج، يجد رجلًا يغنّي.

هكذا، أذعن وسلّم بأمره. رفع يديه عن خناق عدوّه، الذي كان يشهق

بذعر، محاولًا سحب الهواء إلى رئتيه. ثمّ خرّ فوق ركبتيه وأجهش بالبكاء، فيما أخذ الرّجل الذي كان يحاول قتله بتلاوة الأدعية همسًا عبر حنجرته المرهَقة: «سامحه يا إلهي، أرجوك. حمّلني كافّة ذنوبه. أنت تعلم ما اقترفته. ساعده يا إلهي، أرجوك. اشفِه، اشفِهِ يا ربّ».

راكعًا فوق ركبتيه، بكى مُضيفي عاليًا، على كلّ شيء. بكى على ذاك الذي ضاع ولن يعثر عليه ثانية. بكى على الوقت الذي لن يعوَّض. بكى على الآفة التي نخرت باطن عالمه وأحالت ذاته القديمة إلى قشرة متفسّخة. بكى على الأحلام التي غرقت في هوّة حياته السّحيقة. بكى على كلّ ما سيأتي، كلّ ما لم يكن بمقدوره أن يراه أو يعلمه بعد. بكى، أكثر من ذلك، على الرّجل الذي تحوّل إليه. رافقت بكاءه تلك الكلمات التي كانت منهمرة مثل مطر مسموم من فم عدوّه الممدّد بقربه: «بلى، يا ربّ، إنّك رحيم. أيّها الأب الرّحيم. يا ملك الملوك. اشفه. اشفِ أخي. اشفه يا ربّ».

«تشوكو»، مكثا على هذا الحالة لبعض الوقت، مُضيفي كان يبكي راكعًا، والرّجل يصلّي بهدوء وهو ممدّد على أرض الغرفة. تناهى إلى مسامعهما صوت العالم في الخارج؛ جار يقطع الحطب وراء البيت، وكلب يعوي من مكان غير بعيد، وسيّارات تطلق أبواقها في الشّارع الطّويل الذي يقود إلى السّوق الكبير. كانت الشّمس قد بدأت في الزّوال، وبقايا ضوء النّهار قابعة خارج النّافذة وكأنّها تتهيّب العبور إلى داخل الغرفة. في ذهنه، كان الوجع العظيم قد بهت مثل عاصفة منحسرة. الآن، جلس شاعرًا بالخواء، وعيناه ترمقان الخيال الذي طبعه ضوء العصر له ولخصمه فوق الحائط.

وسط بقعة السّكون الصّغيرة داخل ذهنه، انبثق مشهد لفرخ الإوزّ. كان ذلك خلال أحد تلك الأوقات التي يبدو فيها وكأنّه نسي فجأة بأنّه كان أسيرًا مقيّدًا بطوق. كان ينسى ذلك أحيانًا، وكان يغضبه

اكتشاف ذلك فيثور محاولًا التخلّص من طوقه. كان سينتفض واقفًا وسيرفرف بجناحيه، فيمنعه الحبل المشدود إلى رِجل كرسيّ أو طاولة من الحركة. بعد أن يدركه الإنهاك والتّعب، يرتمي رافعًا جناحَيْه كما لو كان يعلن الاستسلام. ثمّ يمدّ رأسه إلى أسفل ويبحلق فيه. عيناه الصفراوان على جانبي وجهه الصّغير جاحظتان وكأنّهما ستثبان من محجرَيْهما. لكن، حينئذ، ستنسدل ستائر جفنَيْه الرّقيقين ثمّ ستفتح ثانية، كاشفة عن بؤبؤين متّسعَيْن. سيجلس هكذا لبرهة من الوقت، ثمّ ستعصف به لحظة إلهام مفاجئ وسينتفض من جديد، محاولًا الوصول إلى البركة المألوفة وسط غابة «أغبوتي»، موطنه الحقيقي.

نهض مُضيفي وجلس فوق الكرسيّ الوحيد في الغرفة. سحب أحد المقعدين الخشبيّين الصّغيرين ووضعه قبالته. طرق وجه المقعد بيده وقال لجامايك: «قم واجلس هنا».

نهض جامايك وجلس على الكرسيّ الصّغير، ثمّ طوى ذراعيه فوق صدره. تفحّصه مُضيفي، كمن يريد طمأنة نفسه إلى أنّه كان حقًّا الرّجل نفسه الذي هيمن على تفكيره طوال أربع سنوات. فوجئ ثانية بما رآه. الرّجل الماثل أمامه لم يكن بتاتًا مثل ذاك الذي خزّن صورته في رأسه طوال تلك السّنوات، والذي زاره عبر أحلام شديدة الوضوح. ما يجلس أمامه الآن كان كائنًا شبحيًّا طلع من حلم غير واضح البتّة، كائنًا كان يبدو، على نحو مستعص على التّحديد، وكأنّه عانى من مصير مماثل له.

تناول الحقيبة التي كانت ندالي قد أعطتها له وأخرج الرّسالة. ثمّ قال: «أريدك أن تقرأ هذه الرّسالة. إنّها تتضمّن قصّتي. أريدك أن تقرأها لي بصوت عالٍ. أريد أن نقرأ كلانا شهادتي. هيّا، اقرأ!».

طالع الرّجل الصّفحات الأربع المحشوّة بالأسطر، ثمّ رفع رأسه ونظر إلى مُضيفي قائلًا: «كلّ شيء؟».

«أجل، كلّ شيء».

«أوكيه».

قصّتي: كيف ذهبت إلى الجّحيم في قبروص

عزيزتي مامي،

أكتب لك خلال سنتي الثّانية في السّجن في قبروص. لن تصدّقي قصّتي لكنّ كافّة ما أقوله هنا سيكون هو الحقيقة. أتوسّل إليك باسم الرّبّ الأعظم أن تصدّقيني. أرجوك يا أمِم. إنّك تعلمين بأنّي أحبّك. أتذكرين؟

رفع جامايك رأسه كي ينظر إليه. لكنّ مُضيفي زجره قائلًا: «تابع القراءة! أريد منك أن تقرأ ما عانيته بسببك».

فتابع جامايك القراءة:

بعد وداعك لي في محطّة الباص، قلت لنفسي، سأراك ثانية عمّا قريب. قلت سأعود إليك وسأتزوّجك. مامي. كنت سعيدًا. كنت مؤمنًا بأنّ ما كنت أفعله كان...

قال جامايك وقد استغلقت عليه قراءة سطر ما: «ما هذا؟».

ثمّ انحنى فوق الصّفحة وردّد: «كنت مؤمنًا بأنّ ما كنت أفعله كان لأجلك».

ثمّ قال «أوكيه» وواصل القراءة بصوت عال:

لأجلك، مؤمن بأن ما كنت أفعله كان لأجلك. أطير إلى إستنبول وأنا أفكر بك. لم تفارقيني ولو لدقيقة واحدة. بل إنني، في الواقع، حلمت بك، أحلامًا كثيرة، في المستقبل وفي الماضي. ثمّ سمعتُ، وأنا في الطّائرة، حديث طالبين نيجيريين. كانا يتحدّثان عن هذا البلد الذي كنت ذاهبًا إليه. كانا يتحدّثان كم كانت قبروص سيّئة. قالا إنّها مثل نيجيريا، والوكلاء الذين يطلبون من النّاس القدوم إلى هناك يكذبون عليهم. ما يقولونه غير صحيح. كلّهم يكذبون كذبًا شنيعًا. قبروص ليست مثل أوروبا. قالا إن ذهبت إلى هناك، فسيكون هذا

مثل الوقوع في هاوية. ولن يكون أمامك إلا أن تعود إلى نيجيريا. ولو مكثت فإنك لن تحصل على فرصة عمل أفضل. لن يكون أمامك سوى فرص العمل الوضيعة. لذا، أصبحت خائفًا. بعد وصولنا إلى استنبول سألت الرّجلين إن كان ذلك صحيحًا، وقالا أجل، أجل. هو كذلك. لذا، أصبحت خائفًا مرة أخرى. قلت لهما، لكن زميلي القديم في المدرسة جامايك نواورجي يقول إنّه مكان حسن. لقد كذب عليّ.

تململ جامايك، فعَلا صوت مُضيفي قائلًا: «اسمع، قلت لك بأنّ عليك ألّا تتوقّف. واصل القراءة! غو با!».

ولمّا ظلّ جامايك ممسكًا عن القراءة، ولم يجد مُضيفي وسيلة لحمله على القراءة بالحُسنى، عمد إلى تهديده بالقوّة، لكن لم يكن في نيّته إيذاء هذا الرّجل. لذا، أخرج السّكّين من الحقيبة وحمله بيده. «إجانغو إجانغو»، لا بدّ لي من التّأكيد على أنّ مُضيفي فعل ذلك يأسًا، لأنّه لم يجد وسيلة تحمل جامايك بالحسنى على إكمال قراءة الرّسالة، ولم يكن لديه نيّة ارتكاب أيّ فعل مؤذٍ. فأنا، قرينه الحامي، الذي لا يريد منه أن يسفك الدّماء وأن يجرّ على نفسه غضبك وغضب الرّبّة «آلا»، كنت سأحاول إيقافه. لكن كان بوسعي أن أرى بأنّه لن يستخدم السّكّين، ولهذا لم أتدخّل.

قال مُضيفي ملوّحًا بالسّكّين: «سأقتلك هنا، ولن يعرف أحد، إن لم تتابع القراءة في الحال».

نجح مسعاه. وواصل جامايك، المضطرب بعض الشّيء، القراءة:

حاولت الاتصال به. لكن الرّقم كان معطّلًا. دُهشت كثيرًا لأنّني اتّصلت به من قبل على هذا الرّقم مرّات كثيرة. لذا أسأل الرّجلين ويقولان إنّ الرّقم لم يكن رقمًا قبروصيًا. أحاول مرّات ومرّات. ولما وصلنا إلى قبروص الآن، لم يكن هناك من أثر للرّجل. في الحقيقة، لم يكن هناك من أيّ أثر على الإطلاق. لا أتمكّن بحلول ذلك الوقت

من الوصول إليه على رقمه أيضًا. كنت أدعو قائلًا: ساعدني يا إلهي، أرجوك. كنت خائفًا للغاية. لكنّ نفسي قالت لي: إذا خفت، فإنّ خوفك لن يكون مجديًا. بل سيعني فوز هذا الرّجل. عليك أن تتحلّى بالقوّة. لذا، خرجت من المطار في قبروص. أنتظر، أنتظر، أنتظر. لم يأتِ على الإطلاق. رقمه ما زال معطّلًا. حتّى في قبروص. ماذا أفعل الآن، أسأل نفسي حينذاك. هذا كلّ ما لديّ. وهكذا، قرّرت أن انتظر. طوال ثلاث ساعات، لم يأتِ إلى المطار، بعد كلّ الوعود التي قطعها لي. كنت خائفًا وغاضبًا، أخذت تاكسي...

«تشوكو»، عند هذه النّقطة، هزّ جامايك رأسه بحدّة. كنتُ قد طفتُ ودرتُ في موطن الإنسان مثل الصّقر على مدار زمن طويل، لكنّي لم أرَ أيّ شيء مثل هذا من قبل: رجلًا جُرّد تمامًا من كرامته وحُمل على الوقوف عاريًا والتّحديق إلى صورة نفسه البشعة داخل المرآة المظلمة لشروره السّالفة.

تابع جامايك القراءة:

الأتراك قوم لا يفهمون الإنجليزيّة. لا يسمعونها على الإطلاق. لو قلت حتّى «تعال»، فإنهم لا يفهمون. قلّة قليلة منهم فقط يفهمون. لذا، سائق التّاكسي الذي ركبت في سيّارته لم يفهم الإنجليزيّة. لمّا وصلنا إلى الجّامعة كنت خائفًا للغاية. دعوت، يا ربّ، أرجوك ألّا يكون هذا صحيحًا. أرجوك ألّا يكون صحيحًا. لكنّهم لم يستطيعوا العثور على اسمي. اكتشفت أنّ جامايك لم يسدّد سوى قسط واحد فقط من أقساط الجّامعة، رغم أنّي أعطيته ما يعادل 5,000 يورو لتسديد أقساط فصلين دراسيّين وكلفة السّكن. والمبلغ الذي أعطيته له لفتح حساب مصرفيّ لي أيضًا. هرب بها كلّها. وهكذا، من الـ 7,100 يورو التي أعطيتها له، لم ينفق سوى 1,500 لأجلي. هرب ببقيّة المبلغ كلّه. كلّه يا مامي. كلّه من ثمن البيت ومزرعة الدّجاج.

عندما تململ جامايك مرة أخرى. لوّح مُضيفي بالسّكّين وقال: «اقرأ، إنّني أقول، اقرأ، وإلّا سأقطع عنقك!».

ردّ جامايك قائلًا: «أمن الممكن أن أتوقّف، أرجوك يا أخي؟».

«إن لم تواصل القراءة الآن، سأهشّم رأسك!».

رمى السّكّين بعيدًا ثمّ شدّ قبضته ولكم جامايك على خدّه بكل ما أوتي من عزم. هوى الرّجل عن الكرسيّ إلى الأرض صارخًا، ويداه فوق فمه.

سدّد ضربته بقوّة ساحقة، حتّى شعر باحتراق عظام قبضة يده. قبض الآن يده بيده الأخرى وشرع في نفخ الهواء عليها لتخفيف الألم. كان بوسعه التّخمين بأنّ يده كسرَت شيئًا في وجه جامايك، ورغم أنّه لم يعرف ما الذي كُسر بالضّبط، إلّا أنّ هذا بعث فيه قدرًا من الارتياح.

قال بنبرة لاهثة وصدره يعلو ويهبط: «أقسم بمن خلقني، سأقتلك إذا لم تكمل قراءة هذه الرّسالة إلى النّهاية. أقسم بمن خلقني. يجب أن تعرف كلّ ما حصل».

بالفعل، «أغوجِغبه»، كان الغضب القاتل قد عاد، وكان مُضيفي قد تحوّل، بلمح البصر، إلى شخص لا يمكن التّعرّف عليه حتّى من قِبَلي أنا، قرينه الحامي المخلص له. ذرع الغرفة من طرف إلى آخر بينما كان الرّجل ملقى بلا حراك فوق الأرض، عيناه مغلقتان، ودمه ينزّ من طرف فمه. كانت الشّمس قد هبطت وغطست بعيدًا عن موطن الأحياء من البشر. ما كان ينبعث من طيفها المتقهقر أضاء كلّ شيء بإنارة خافتة.

وقف أمام المرآة الوحيدة في الغرفة، فأبصر نفسه. رأى إلى أيّ حدّ بعيد يمكن للحنق أن يمضي به. كما لو كان مصوّرًا في لوحة داخل المرآة، رأى قدرة الرّجل الجّريح على ارتكاب الأذى إن لم يتحكّم بزمام نفسه. كان هذا ما هدّأه وأعاده إلى الجّلوس على الكرسيّ.

«إيبوبديكي»، ليس عبثًا أن يكون عمر الكون بهذا القدم. ربّما في

كلّ يوم، في كلّ أمّة، بين كلّ النّاس، عبر الزّمن، يقابل النّاس معذّبيهم وجهًا لوجه. ما ينحته الرّجل بيديه، سوف يحمله فوق رأسه. ومرّة ثانية، مثلما يقول الآباء العظماء: «الرّأس الذي يثير عشّ الدبابير، يحمل آثار اللّسعات». يا معشر القَرَناء الحماة، يجب أن نحمل هذا على محمل الجدّ. يجب أن ينصت أبناء البشر إلينا، إلى هذا، إلى هذه القصّة، إلى قصص جيرانهم، ويأخذوا العبرة: هناك قصاص عادل على كلّ شيء: كلّ عمل، كلّ كلمة تلقى جزافًا، كلّ متاجرة جائرة، كلّ غبن وجور. لكلّ شكل من أشكال البغي، سيكون هناك تصفية حساب.

أيّها الإنسان، هل تسرق جارك ولسان حالك يقول: «أوه، إنّه لا يدري؟». حسنًا، إيّاك! يومًا ما، قد يمسك بك مسك اليد ويطالب بالعدل. أيّها الإنسان، هل تأكل ممّا لم تزرع؟ إيّاك! يومًا ما، قد يطرحك ما تأكله في الفراش. يجب أن يُبلّغ كافّة النّاس بهذا الأمر. فلتُبلّغوا في ساحات القرى، وقاعات البلدات، ومحافل المدن الكبيرة. فلتُبلّغوا في المدارس، وفي مجالس الكبار. فلتُبلِّغوا بنات الأمّهات العظيمات، لعلّهنّ يبلّغن به أطفالهنّ. بلّغ، أيّها العالم، بلّغ! بلّغهم بهذا: في نهاية المطاف، سيكون هناك تصفية حساب. يجب أن يردّدوا هذا مثل نشيد وطنيّ. يجب أن يبلّغوا عنه من رؤوس الأشجار، ومن ذرى الجّبال، ومن قمم التّلال، على طول شطآن النّهر، في الأسواق، في ميادين البلدات. يجب أن يردّدوه المرّة تلو الأخرى: في نهاية المطاف، ومهما طال الزّمن. سيكون. هناك. تصفية حساب.

يا معشر القرناء الحماة لأبناء البشر، يا من تقفون في بلاط «بتشوكو» لتقديم الشّهادة، بلّغوا! وإن اعتراهم الشّكّ فيما تبلّغونه، فاطلبوا منهم أن ينظروا إلى مُضيفي: بكى كثيرًا لأجل العدالة، بصوت عالٍ جدًّا، طوال تلك السّنوات، إلى أن آن الأوان ومُنحت له. والآن، عدوُّهُ ممدّدٌ على الأرض، وهو جالس فوق الكرسيّ. كان هذا المساء

شديد الشّبه بذلك اليوم في قبرص الذي أصيب فيه بتلك الجّراح التي ما زال يحمل آثار ندوبها فوق حنكه. لكن في هذه المرّة، قُلبت المعادلة. كانت المواجهة الآن بين مُضيفي، الرّجل الذي لديه سلاح وإرادة منيعة، وجامايك، الرّجل الذي حتى لو كان لديه أيّ قوّة، فإنّه بدا مصمّمًا على عدم استخدامها. لم يكن لدى هذا الرّجل أيّ سلاح ولم يحرّك ساكنًا أمام خصمه. شرع الرّجل، بعد فترة طويلة من الصّلاة والدّعاء، في التّلويح بيد واحدة في الهواء -يده الأخرى كانت فوق فمه المصاب- والهتاف: «الحمد لك يا ربّ. الحمد لك يا ربّ. آمين. آمين. آمين».

اعتدل جامايك جالسًا، فسال الدّم فوق عنقه وقميصه. أعطاه مُضيفي خرقة كي ينظّف نفسه بها، لكنّ جامايك أعرض عن تناولها. ممّا بدا، «إيبونو»، فإنّ جامايك استوعب بأنّ أوان تصفية الحساب قد آن. لا بدّ من أنّ الوعي بهذا كان هو ما حمله على فتح فمه للحديث. لكنّه أغلقه ثانية من دون أن ينطق بشيء، ثمّ هزّ رأسه وقال: «أخي تشننسو سولومن، إنّني آسف على كلّ شيء. لقد سامحني الرّبّ. فهل تسامحني أنت أيضًا؟».

ردّ مُضيفي قائلًا: «أريدك أن تقرأ هذا بكامله أوّلًا. يجب أن تعرف ما حصل لي، ما تسبّبت أنت في إلحاقه بي، كي تتمكن بعدئذ من طلب السّماح وكي أتمكّن أنا من النّظر في ذلك. يجب أن تقرأ، أوّلًا. يجب أن تقرأ. يجب أن تنهي القراءة.

ردّ جامايك قائلًا: «أوكيه».

ناوله مُضيفي الرسالة وقال: «هيا، تابع القراءة من حيث توقفت».

أومأ جامايك وحمل الورقة باليد التي لم تكن ملطّخة بالدّماء، ثمّ قرّبها من وجهه وشرع في القراءة:

شعرت الممرّضة بالأسف الشديد عليّ عندما رويت لها كافّة ما

حصل لي. بل بكت بحرقة لأجلي. أخذتني إلى مطعم واشترت لي الطّعام، وأشياء متنوّعة مثل البسكويت والكولا. ثمّ قالت إنّها ستأتي في الغد وتأخذني إلى مدينة أخرى، هناك في قبروص، اسم المدينة هو «غرنه». كي نذهب ونبحث عن فرصة عمل. في الحقيقة إنّها تستطيع الحديث بالتّركيّة أيضا، هذه المرأة. بشكل جيّد جدًّا أيضًا. منحتني هذه المرأة أملًا، أملًا كبيرًا جدًّا. لهذا اتّصلت بكِ في ذلك اليوم إن كنت ما زلت تذكرين. لم أتّصل بك لمدّة طويلة لأنّني كنت متخوّفًا ممّا سأقوله لك. لكنّي وأخيرًا اتّصلت بك بسبب هذا. أخبرتك بأنّ كل شيء سوف يكون على ما يرام بسبب هذه المرأة. كما أخبرتك أيضًا عن الجّزيرة، كيف أنّها كانت وكأنما أزيلت منها كل الأشجار. مامي، جاءت تلك المرأة في اليوم التّالي. أوكيه، كان هذا بعد انتقالي أنا وصديقي إلى العيش في المدينة، لافكوشيا. أخذتني الممرّضة إلى مدينة «غرنه» حيث قدّمَتني إلى مدير الكازينو. قال الرّجل إنّه سيوظّفني عنده. في الواقع، قال إنّي أستطيع البدء بالعمل في اليوم التّالي أيضًا. لكنّ الممرّضة قالت إنّ هذا يصادف عطلة نهاية الأسبوع، ويجدر بي أن أرتاح وأبدأ يوم الإثنين. كنت سعيدًا جدًّا يا مامي. في الحقيقة، كنت سعيدًا جدًّا وشكرت هذه المرأة جدًّا جدًّا. اعتقدت حقًّا بأنّ الرّبّ أرسلها لمساعدتي. ظننتها حقًّا، مرسلة من قبل الرّبّ.

عند هذا الحد انتبه مُضيفي إلى أنّ الظّلام هبط، وأن الرّجل الجّالس أمامه كان يعاني من القراءة تحت الضّوء المعتم. كانت الكهرباء مقطوعة. لذا، أشار إلى جامايك بالتّوقّف وخرج من البيت إلى ساحته حيث كان المطبخ، موضع نصف مسقوف فيه خزّانات قديمة مسودّة من السّخام. كان أحد الأشخاص الذي يسكنون في الشّقق الأخرى، والذين كان يتقاسم المطبخ معهم، منحنيًا فوق موقد في الزّاوية، محدّقًا إلى قِدر يغلي على ضوء مصباح يدويّ. لم يكلّم الرّجل، الذي

وبّخه على نظافة المطبخ المشترك قبل يومين. كان قد رجع في ذلك اليوم على عجل بسبب الجّوع. ولما وصل البيت، ذهب إلى المتجر المجاور، واشترى شعيريّة «أندومي» وبيضًا، ثمّ طهى الشعيريّة وقلى البيض. ومن فرط عجلته وجوعه، نسي قشر البيض قرب الموقد. سيجد الجّار فيما بعد سربًا من الذّباب متجمّعا فوق القشر، والهواء عطنًا من شدّة العفونة. سيثور غضبه، وسيقرع الرّجل بابه وسيوبّخه، ثمّ سيهدّده بإيصال الأمر إلى صاحب البيت.

تجاوز الرّجل بسرعة، تناول علبة كبريت، ثمّ هرول عائدًا إلى شقّته. ففي تلك اللّحظة، خطر له أنّ بمقدور جامايك أن يذهب قبل رجوعه. لكنه وجد جامايك جالسًا، محتضنًا نفسه وسط العتمة، والصّوت الوحيد المسموع هو أنفاسه وقرقعة أمعائه. كانت الطّريقة التي تصرّف بها جامايك قد أثّرت فيه، كيف سلّم نفسه لغضب مُضيفي. أخبره الصّوت في رأسه بأن يعتبر هذا بمثابة فعل النّدم المطلق. لكنّه لم يستطع حمل نفسه على التّوقّف. كان مصمّمًا، «تشوكو»، على أن يسمع جامايك كلّ ما حصل له، من البداية وحتّى النّهاية. رفع بلّورة مصباح الكاز وأشعل الفتيل.

«إزوَّه»، سيندم لاحقًا على إرغام جامايك على متابعة قراءة الرّسالة. إذ إنّ جامايك شرع في القراءة من الأجزاء التي كان مُضيفي يمتنع دائمًا عن الاقتراب منها. كلّما حاول ذهنه أن يجرّه قرب تلك المواضع، القاتمة أكثر من الظّلام نفسه، كان يقاتل مثل الوحش الجّريح بتحدّ وعنف كي يتجنّب عذاب استحضار ما حدث له فيها. لكنّه الآن رمى نفسه في أتونها عبر طلبه من جامايك أن يقرأها له. فِعل مهول من أفعال جلد الذّات. فلدى قراءة جامايك على مسامعه الوقائع التي حصلت في بيت الممرّضة، شرع في البكاء. ولدى مواصلة جامايك القراءة، شعر بعجز كلماته نفسها عن التّعبير عمّا مرّ به. عندما قرأ

جامايك المقاطع الخاصّة بكيفيّة قضاء أيّامه في السّجن، وفداحة ما حصل له، كان قد عجز عن كتابة التفاصيل (**بخصوص بعض تلك الأمور، أرجو ألّا تطلبي منّي أن أخبرك بها يا مامي. وأرجو ألّا تسألي أيضًا**...)، استحوذ على مُضيفي شعور ملحّ بتصحيح السّرد وما فيه من قصور. كان بودّه أن يضيف، مثلًا، بأنّه كانت ثمّة أوقات لم يرَ فيها مجرّد «رؤى» لا تمتّ للواقع بصلة، بل كان يفقد عقله تمامًا.

إذ كيف كان يمكن له أن يفسّر تلك الأوقات التي كان، بعد أن يغشاه النّعاس في وسط النّهار، يفزّ فيها من النّوم فزعًا بسبب صوت طلق ناريّ متخيّل؟ أو كيف يمكن للمرء أن يفسّر تلك الأوقات التي كان يحسّ فيها، وهو نصف غافٍ، بيد فوق ظهره تحاول خلع ثيابه عنه، وكان صوته عندئذ يعلو بالصّياح والصّراخ؟ يستطيع المرء أن يصف هذه الأمور بالهلوسات، لكنّها كانت حقيقيّة بالنّسبة له. وماذا عن تلك الأوقات، في الشّرفة بين اليقظة والنّوم، التي كان الرّجل الذي يمكن أن يكونه يتجلّى له في النّطاق المرئيّ لذهنه؟ كان الرّجل غير المخلوق يستحضر الطّمأنينة والنّعيم الدّنيويّ. وكان بدوره يرى نفسه وقد جلس يساعد ما سيبدو أنّهما ولداه من ندالي، ولد حسن المظهر وبنت جميلة بجدائل طويلة، في الواجبات المدرسيّة. كان يرى حفل زفافهما، ندالي تتهادى في المشي معه، لكن عندما تتركه دومًا وتنضمّ إلى نسخة عن نفسه لم يكن لها وجود أبدًا، كان ينتابه حسد قاتل. كانت هذه الأمور، ومثلها الكثير، هي ما لم يكن قادرًا على التّعبير عنه في السّرد بسبب قصور الكلمات.

عندما أوشك جامايك على الانتهاء، عندما قرأ الجّزء الخاصّ بعجزه في السّجن، حبسه على جريمة لم يرتكبها، انهار السّدّ الذي بناه في وجه أكثر الذّكريات بشاعة واكتسحت ذهنه. على الفور، استعرت جذوة غضبه العنيف ثانية. انتابته حالة من الرّعب، فقبض على خناق

الرّجل وراح يكيل له الضّربات. لكنّ طوفان الذّكريات لم ينحسر على الإطلاق. كان يشعر كما لو أنّ المشاهد كبّلت يديه وأرغمته على رؤية ما لم يكن يريد رؤيته، وعلى سماع ما لم يكن يريد سماعه. مثلما فعل تمامًا الرجال الذين دبت فيهم الحياة ثانية الآن وأصبحوا واضحين في ذهنه كوضوح الشمس، كانوا قد ثبّتوه ومنعوه من الحركة، أحدهم ثبّت عنقه في الحائط العفن والآخر اغتصبه.

أشبع جامايك ضربًا، لكنّ الصّور في رأسه بقيت، فالذّهن، «إيبونو»، مثل الدّم. لا يمكن أن يتخثّر بسهولة إن كان الجرح عميقًا. بل إنّه ينزف بوتيرته الخاصّة، بإرادته الخاصّة. لا يمكن أن يحمله على التّخثّر سوى شيء ذي مفعول رهيب. رأيت هذا مرّات ومرّات. لكن الآن، لم يكن مثل هذا الشّيء متاحًا. لذا، أحسّ بتعرّق يد الرّجل فوق ظهره وردفيه. أحسّ بالطّعنات المنكرة. أحسّت بها روحه. أحسّ بها قرينه الحامي. ما كان يجري في تلك اللّحظة كان عمليّة تحوّل من شيء إلى شيء آخر، انقلاب جذريّ في الحياة. كلمات الرّجل المتأوّهة، «أنت تغتصب امرأة تركيّة! أنت، إبنه، أورُسبو كوكوغو، أنت تغتصب امرأة تركيّة! نحن نغتصب أنت أيضًا»، لم يكن صوتًا لكائن بشريّ بل لشيء غير مألوف لأيّ إنسان. كان وقعها يشبه شيئًا متجاوزًا للزّمن، متجاوزًا للإنسان: لعلّه صوت وحش من عصور ما قبل التّاريخ لا يُعرَف له اسم. ورائحة الرّجل، التي استطاع استحضارها الآن بحدّة، كانت رائحة الحيوانات المغرقة في القدم.

ركع على الأرض قرب عدّوه، مجهشًا بالبكاء. لكن، «إجانغو إجانغو»، هذه الذّكرى تحديدًا، عندما تبدأ، فإنّها تنزف في الغالب ولا تتوقّف إلّا بعد إفراغ الجّسم من الدّماء وسقوط الجّسم الخاوي من الدّماء أرضًا وانتهائه تمامًا. لذا، فإنّه كان سيستعيد كيف لطّخ مَني الرّجل ردفيه وتساقط فوق وركيه من الخلف. وكان سيتذكّر حتّى كيف

أحسّ عقب ذلك، بعد أن كان العالم قد جلده بأبشع السّياط. كيف بقي مرتميًا هناك طوال أيّام بدت وكأنّها لن تنتهي، كلّ شيء آخر حيّ إلّا هو.

بقربه، كان جامايك، بعد أن تحوّل إلى عجين بشريّ مهروس، متمدّدًا بلا حراك مرّة أخرى، مكوّمًا على هيئة جنين. انبعث منه تأوّه بطيء، وارتجفت يداه الملطّختان بالدّماء. بدا وكأنّ شعورًا بالاشمئزاز استولى عليه وبدأ بترقيع الكلمات معًا، اصطكّت أسنانه، وانهمرت الدّماء من فمه إلى أن اندلعت، وأخيرًا، الكلمات منه بنبرة أقرب إلى الهمس: «اشفِه يا ربّ».

21

رجل الرّبّ

«**غاغان أَوغو**»، يقول الآباء الأجلّاء: «إنّ المرء لو أحصى على ذوي القربى كلّ كبيرة وصغيرة ممّا يرتكبونه بحقّه من ذنوب، لما بقي له أحد منهم». هذا لأنّهم يعرفون بأنّك لم تخلق القلب البشريّ كي يكون قادرًا على التّواؤم مع الكراهية. فأن تضمر الكراهية في القلب، هو أن تربّي نمرًا في بيت مُلئ بالأطفال والعجزة، فلا النّمر قادر على معاشرة البشر، ولا البشر قادرين على ترويضه. لحظة أن يهجع النّمر ويصحو جائعًا من جديد، فإنّه ينقضّ على من ربّاه ويلتهمه. حقًّا، إنّ الكراهية آفة القلب البشريّ ومكمن خرابه ودماره. على كلّ من يسعى إلى القصاص بيده أن يُقلع سريعًا عن ذلك، وإلّا لقامر بتلف نفسه من قبل شهوته المظلمة نفسها. رأيت هذا مرّات ومرّات.

كما هي عادة البشر، فإنّهم لا يدركون هذه الحقيقة في الغالب إلّا بعد أن تحملهم الكراهية على اقتراف أعمال انتقاميّة. في تلك اللّيلة، أدرك مُضيفي تلك الأمور. ساعد الرّجل على النّهوض ثمّ أخذه إلى العيادة في نهاية الشّارع. كان ثمّة شفاء في هذا الإدراك. لكنّ تأثّره بردّة فعل جامايك كان أشد وقعًا في نفسه. كان جامايك بعد اعتناء الممرّضات بجروحه وتنظيفها قد شكره ورفض أن يخبرهنّ بما حصل له. ولمّا رمقت الممرّضات مُضيفي بنظرات مطالبة بسماع الحقيقة منه، قال لهنّ: «هاجمه بعض اللّصوص المسلّحين». فأومأت إحداهنّ

برأسها ثمّ تنهّدت. كان واقفًا هناك ويتوقّع من جامايك أن يقوم بنفي ذلك. لكنّ جامايك لم يتفوّه بشيء، بل أطبق عينيه فقط. وبعد أن خرجا من العيادة، ورأس جامايك ملفوف بالشّاش وقصبة أنفه مضمّدة، قال بلسان الرّجل الأبيض: «أخي تشننسو سولومن، أرجوك ألّا تكذب بعد الآن. فالرّبّ أوصانا في وصاياه العشر بعدم الكذب. وأخبرنا في سفر الرؤيا، الآية الثّامنة من الإصحاح الواحد والعشرين، أنّ الكاذبين سيرثون مملكة الجّحيم. وأنا لا أريدك أن تذهب إلى هناك».

أثناء كلامه، وقد كان يعرج في مشيته، وضع جامايك يده على كتف مُضيفي. لم يردّ مُضيفي بشيء لأنّه كان عاجزًا عن استيعاب ما يحدث، عاجزًا عن استيعاب كيف يكون كذبه، بعد كلّ ما فعله به، هو ببساطة كلّ ما كان يعني هذا الرّجل؟ عندما وصلا إلى الموضع الذي كان مُضيفي قد ركن فيه درّاجته، سأله جامايك إن كان قد سامحه قائلًا: «اقطع يدي أو رجلي إن شئت. لكنّي لا أريد منك أيّ شيء سوى أن تسامحني. لديّ ستّة آلاف يورو في البيت. مالك. مالك الذي أخذته منك. احتفظت به لأكثر من سنتين على أمل العثور عليك».

ردّ مُضيفي قائلًا: «أهذا صحيح؟».

«أجل. قيمة المبلغ تضاعفت الآن. عند تصريف اليورو الآن، يجب أن تحصل على مبلغ يساوي سبعة آلاف».

«أه، جامايك، لماذا لم تخبرني من قبل... قبل أن أفعل ما فعلته بك؟».

أشاح جامايك بنظره ثمّ هزّ رأسه وقال: «كنت أريدك أن تسامحني من قلبك، لا لأنّي رددت إليك ما أخذته منك».

«أُوزه بروّه»، يصعب عليَّ وصف ما أحدثته هذه البادرة من أثر في نفس مُضيفي. كأنّها لمسة الشّفاء الأولى، كأنها قيامة، بعث من موت طويل. هزّته من أعماقه، حتّى أنّه لمّا ذهب إلى شقّته في تلك اللّيلة،

لم يتمكّن من النّوم. اعتقد في بادئ الأمر أنّ جامايك كان يتظاهر بكلّ شيء، ذلك التّحوّل المذهل في شخصيّته، تلك السّلاسة ولين الجانب، حيل وألاعيب، مجرّد قناع زائف يختبئ خلفه رجل شرّير هارب من العدالة. ما كان ليتورّع عن الانقضاض على جامايك لو كان أوّل لقاء بينهما جرى على انفراد لا في مكان عامّ. لكنّ بادرة ردّ ماله عليه أقنعته بأنّ ثمّة تحوّل حقيقيّ طرأ على الرّجل. في تلك اللّيلة، وبتنفّس عسير عبر أنف محتقن، تصارع مع فكرة مسامحة جامايك. لو كان جامايك الذي دمّر حياته قد مات بالفعل، فلماذا يُحمّل هذا الرّجل الجديد ذنوب الآخر ويعاقبه عليها؟ قلّب في رأسه الأسئلة التّالية: ألم يكن ما اقترفه جامايك بحقّه سببًا في تغيّر جامايك نفسه وتحوّله هو إلى رجل جديد؟ ولو كان هذا صحيحًا بالفعل، ألن يكون هذا أمرًا محمودًا؟ ألن يكون أمرًا جديرًا بالاحتفاء؟

«تشوكو»، كنت سأقوم بإثارة هذه الأسئلة أنا بنفسي، لكنّ الصّوت في رأسه قام بطرحها عوضًا عنّي. فعمدت، أنا بدوري، إلى قدح ما يؤكّد عليها في ذهنه. في الصّباح الباكر، أثناء تنظيف مُضيفي لأسنانه، وصل جامايك ومعه مغلّف قديم فيه النّقود. طوال تلك السّنوات، لم يكن قد تخيّل ولو لمرّة واحدة بأنّه سيستردّ نقوده. الآن، لم يكن قد استلم مالًا من المرأة الألمانيّة فقط، بل ومن جامايك أيضًا. أحيا هذا الأمل في نفسه قدرته على استعادة كافّة ما كان يمتلكه ذات مرّة. بينما يعدّ النّقود وينتابه شعور من عدم التّصديق، هبط جامايك فوق ركبتيه ثانية وقال: «سامحني على كلّ ما اقترفته بحقّك، فلعلّ أبي في السّماوات يغفر لي ويسامحني».

التفت إلى الرّجل الذي كانت شهوة قتله قد ملكت عليه نفسه في الماضي. ولمّا همّ بالحديث، رنّ هاتفه. ظهر فوق الشّاشة اسم «يُنوكا»، تاجر حاول إقناعه بشراء علف الدّيوك الرّوميّة. لكنّه تجاهل

المكالمة. ولمّا توقّف الهاتف عن الرّنين، نطق بصوت مهشّم قائلًا: «سامحتك من الآن فصاعدًا يا جامايك. يا صديقي».

«إيبوبديكي»، كانت هذه هي أوّل خطوة له على طريق العفو -لحظة تُعانق فيها روح المُعذَّب بأطرافها المشلولة روح المُعذِّب، ويصبح الاثنان موسومَيْن بهذا العناق إلى الأبد.

«تشوكو»، سأنّوه من جديد إلى الأعمال التي قام بها مُضيفي، والتي لا بدّ لي من الإتيان على ذكرها هنا، كي أوضح خلفيّة ما بدر من مُضيفي فيما بعد، وكي أترافع وأدافع وأؤكّد على أنّه إن آذى تلك المرأة على النّحو الذي أخشى حدوثه بالفعل، فإنّ مُضيفي سيكون قد فعل هذا الأمر بالخطأ وعن غير عمد. لذا، يجب أن أقول، ببساطة، إنّ العناق الذي أشرت إليه حوّل مُضيفي إلى شخص آخر. عمليّة شفائه، «إيبونو»، كانت قد انطلقت. ففي الأسبوع اللّاحق، اشترى سيّارة بقسط من المال الذي ردّه جامايك له -ماله هو! لا حاجة إلى هدر الوقت في وصف ما ولّده هذا الخلاص في نفس مُضيفي من غبطة وراحة. إذ عندما يطول مكوث الرّجل في هوّة البؤس، فإنّه يصبح ضريرًا، لا يبصر مباهج الحياة التي تحيط به مثلما يحيط المحيط باليابسة المنكمشة. أنا، قرينه الحامي، كنت سعيدًا، لأنّه أصبح ثانية رجلًا ينعم بقدر من السّلام الدّاخلي، حتّى وإن كان جزء من نفسه ما زال مظلمًا بالأسى. في تلك اللّحظة الرّاهنة، كان هذا القَدْر كافيًا.

هذا جدّد ثقته بنفسه إلى حدّ كبير، حتّى أنّه حمل جامايك في سيّارته الجّديدة إلى بيته القديم، العقار الذي كان والده قد تركه له. بعد بضعة أيّام على استلامه للنّقود، قرّر الاتّصال بإلوتشوكو. صُدم إلوتشوكو عندما سمع صوته. ولمّا قابل مُضيفي، بكى وقال إنّه لو كان يعلم بما كان سيجري لاحقًا، لما شجّع مُضيفي على السّفر إلى بلد أجنبيّ. ظلّ إلوتشوكو يردّد قائلًا: «كان حبّك لندالي لا يوصف. رأيت هذا يا ننسو.

لمسته بقوة. حتّى اعتقدت بأنّك لن تكون سعيدًا أبدًا إن لم تحاول حلّ المشكلة مع والديها». أقرّ مُضيفي بهذا. فعلًا، ما كان ليصبح سعيدًا لو لم يحاول ويبذل كلّ ما في قدرته لكي يكون معها. حاولا معًا، الاتّصال بالرّجل الذي باع له البيت، لكن لم ينجحا. رقم الهاتف اصار خارج الاستخدام، ولم يعد الوصول إلى الرّجل من خلاله ممكنًا.

في اليوم اللّاحق، ذهب إلى البيت برفقة جامايك. كان هذا من بين أمور وعده جامايك أن يساعده في تحقيقها. كان من بين ثلاثة شروط مهمّة اشترطها على جامايك كي يتمكّن من مسامحته تمامًا، وكي يتمكّن من الشّفاء واسترداد سويّته ثانية. «أوّلًا»، قال لجامايك، الذي بات لا يتكلّم معه الآن إلّا بلسان الآباء، «عليك أن تساعدني في العثور على ندالي، وأن تعيدها لي. إنّني أحبّها ولم أبقَ حيًا إلّا لأجلها. أنت من أبعدها عنّي وأنت من عليه أن يعيدها إليّ بيديه الاثنتين. ثانيًا، عليك أن تساعدني في استرداد كل ما فقدته. بيتي ومزرعة الدّواجن. أريد استرداد أرض والدي وإعادة بناء مزرعة الدّواجن فيها. يجب أن تساعدني في ذلك. ثالثًا، عليك أن تساعدني على نسيان ما صنعه بي الرّجال في السّجن. لا أدري كيف ستقوم بذلك. صلِّ لأجلي، تعهّدني بالموعظة الحسنة، أيّ شيء، لكن عليك أن تعمل على أن أنسى تلك الأمور ولا أتذكّرها أبدًا».

كان أوّل ما قاما بفعله هو الذّهاب إلى بيت أهل ندالي. فبعد أن أطّلع جامايك على رغبته في إيصال الرّسالة عبر البوّاب إلى ندالي، وافقه على ضرورة قيامه بذلك. وهكذا، بعد أسبوع على تصالحهما، انطلقا ليلًا إلى بيت أهل ندالي. ولمّا وصلا إلى هناك، تقدّم مُضيفي من البوّابة ومكث جامايك في السّيّارة. طرق الباب بخوف شديد. فُتح الباب، وأطلّ رجل آخر، أحد أولئك الذين خدم معهم أثناء حفلة والد ندالي قبل أربع سنوات. ولحسن الحظّ، لم يتعرّف الرّجل عليه.

سأله الرّجل: «أوغا، ماذا أنا أفعل لك؟ أنت أردت ترى أوغا أُبيالور؟».

كاد قلبه أن يثب من صدره لمجرّد فكرة رؤية والد ندالي ثانية، فردّ على الرّجل قائلًا: «لا، لا».

تلفّت مُضيفي يمينًا وشمالًا ثمّ عاد ببصره إلى الرّجل. تناول من جيبه حفنة نقود، عشرين ألف نيرة، ومدّها له. تقهقر الرّجل إلى الخلف وقال: «إر، أوغا، ما هذا؟».

فقال مُضيفي بأنفاس لاهثة: «نقود».

«ماذا مقابل؟».

«إم، أريدك أن، إم»...

«أوغا، أنت يريد فعل شرّ في بيت سيّدي أنا؟».

«لا، لا. أريد منك أن تعطي ندالي هذه الرّسالة».

«أوه، تريد مدام ندالي؟».

«لا، أريد أن أوصل لها هذه الرّسالة».

«أوكيه، أعط هي. أنا أذهب أعطي هي إلى أم، وهم يذهب يعطي إلى هي في لاغوس. اعط هي».

«تشوكو»، في بادئ الأمر، أعطى الرّسالة والنّقود للرّجل. لكنّه لمّا أخبر جامايك بما جرى سأله: «لكن ماذا سيحصل لو فتحت أمّها الرّسالة؟».

صُعق مُضيفي عندما سمع ذلك. وتابع جامايك كلامه: «هل كتبت اسمك على المغلّف؟».

فصاح مضيفي: «أجل!».

«إذًا، سيفتحونها، بل سيحولون دون وصولها إليها. يجب أن يعطيك الرّجل عنوانها فقط، أو أن يقوم بتسليم الرّسالة بنفسه من دون علم أهلها».

هرول إلى البوّابة وطلب من الرّجل أن يعيد له الرّسالة. فسأله الرّجل: «لماذا، ألا تريد يا أوغا أن ترسل هي ثانية؟».

ردّ قائلًا: «لا، لا، أنا أذهب أوصل هي. هل تعرف عنوانها؟».

فسأله الرّجل: «عنوابها؟».

«أجل، عنوانها في لاغوس».

«لا، أوه. أنا أكون بوّاب فقط».

«هل تعرف متى هي تأتي؟».

«لا، هم لا يخبر أنا هذا الأمور».

«أوكيه. شكرًا لك. احتفظ بالنّقود».

عاد بخيبة أمل مشوبة بالارتياح لنجاته من عاقبة رؤية والدَي ندالي للرّسالة. نصحه جامايك بعدم اليأس وطمأنه إلى أنّهما سيعثران عليها في نهاية المطاف. قال له إنّ شهر مارس كان في مطلعه، وإنّها لا بدّ من أن تأتي إلى بيت أهلها لقضاء عيد الفصح معهم إن كانوا من الكاثوليك الملتزمين. أشار عليه جامايك بأن يستغلّا الوقت ويحاولا في غضون ذلك استعادة بيته. في لحظة من اللّحظات التي ذكّرتني بتوبي، الرّجل الذي ساعد مُضيفي في البلد الغريب، انطلق جامايك ومُضيفي إلى بيته القديم. ركن سيّارته قرب ما كان في السّابق مزرعته الصّغيرة، وجلس منتظرًا عودة جامايك. لم تعد المزرعة موجودة، بل حلّ مكانها كوم من حصى البناء وبعض الطّوب الإسمنتيّ. ثمّة عربة صغيرة كانت مقلوبة فوق الحصى وخرقة حمراء معقودة في ممسكها. كانت هناك لافتة كبيرة كتب عليها بأحرف عريضة: «روضة ومدرسة الرّحمة الابتدائيّة، 10229، أوماهيا، ولاية أبيا». جال ببصره في الأرجاء. ماذا عن بيت الجيران؟ كان بيتهم ما زال هناك، لكن كان ثمّة ما ظنّ بأنّه عامود هاتف منتصب بجانب بيتهم الآن. فوق السّلك الطّويل، كانت بعض عصافير الدّوري رابضة، تحدّق إلى الأفق بنظرات خاوية.

كي يخفّف من وطأة قلقه، صبّ تركيزه على طائر بلاستيكيّ اشتراه وعلّقه في المرآة الأماميّة. كلّما تحرّكت السّيّارة، كان الطّائر يتأرجح يمينًا ويسارًا، فيذكّره بواحدة من دجاجاته كان يسمّيها «تشنيري». نقر منقار الطّائر البلاستيكيّ، فحمله على الدّوران مثل الدّوّامة. راقب التفاف الخيط على نفسه، ثمّ عودته إلى وضعه، والطّائر المعلّق بالخيط يدور ويدور. عثر هنا على معنى، «تشوكو»، مثلما يعثر الرّجل اليائس، إذا ما أنعم النّظر، على معنى في أيّ شيء تقريبًا -حبّة رمل، نهر ساكن، قارب فارغ قرب شاطئ. الخيط الملتفّ الذي كان يتعلّق به الطّائر، كان يوجّه مسار الطّائر، ذلك الحبل الذي كان يجمع بين شيئين، كان كلّ منهما يتحرّك حينما يتحرّك الآخر، يتحوّل من مكانه حينما يتحوّل الآخر من مكانه.

مكث في السّيّارة قرابة ما ظنّه نصف ساعة، لكنّ جامايك لم يخرج بعد. ورغم فتحه للنّافذة، إلّا أنّ الجوّ كان خانقًا. كان المطر قد توقّف عن الهطول طوال أسبوع، وأصبح الجوّ الآن حارًّا رطبًا. علا صوت جرس من داخل ما كان في الماضي بيتًا له، وارتفعت أصوات التّلاميذ الجّماعيّة بحماسة. وكما لو كان شيء لم يره قد لكزه، خرج من السّيّارة وشرع في الدّوران حول السّور الضّخم الذي كان قائمًا حول العقار، متوقّفًا في المدخل قرب كوم من الحصى وقِطع الطّوب. لاحظ خلال مشيه أنّه لم يتبقّ من السّور الذي كان أهله قد بنوه سوى جزء صغير فقط. كان معظمه الآن مؤلّفًا من قطع طوب جديد غير مدهون تشدّ أركانه طبقة غليظة من الإسمنت. وكانت السّحالي برؤوسها وأذنابها الطّويلة تؤدّي فوق سطحه رقصة ذات حركات بدائيّة. لطالما أحبّتهنّ دجاجاته، ورغم سرعة السّحالي وملمسهنّ الزّلق، إلّا أنّ الدّيوك كان بمقدورها اصطيادهنّ والتهامهنّ. ذات مرّة، طاردت إحدى الدّجاجات البيضاء سحليّة كانت تتمشّى في الفناء وراحت تنقرها إلى أن حشرتها

في زاوية السّور. طوال أيّام، بل لأسابيع، لم تفارق ذهنه تلك الصّورة المدهشة للدّجاجة والسّحلية في فمها. عندما كانت الدّجاجة قد استدارت من زاوية السّور، كان ذيل السّحليّة معقوفًا فوق وجه الدّجاجة، ممتدًّا في المساحة الفاصلة بين عينيها، فبدت وكأنّها ترتدي خوذة قائد رومانيّ، مكتملة بالعرف الأحمر فوق الرّأس.

وقف خلف المدرسة، ولم يفصل بينه وبين المكان الذي ربّى فيه دجاجاته ذات مرّة سوى السّور فقط، وعندئذ عجز عن الحركة. إذ في المكان الذي كانت تتجمّع طيوره فيه قبل سنوات، وتختلط أصواتها في زعيق واحد، كانت الآن ثلّة من الأطفال تردّد نشيدًا جماعيًّا. أحدث هذا شرخًا في درع نفسه الحصين، شرخًا يكفي لنفاد سهم الكراهية من جديد وتحطيم السّلام الدّاخلي الذي جبر نفسه الكسيرة. حطّمه هذا الأمر يا «أغوجِغبه». انحنى، يد على الفخذ، والأخرى على السّور، ثمّ بكى.

عندما استأنف المشي وخرج من خلف سور المدرسة، كان عدوّه في انتظاره. الرّجل الذي كان لأكثر من أسبوع واحد قد أحبّه بشطر من قلبه- الشّطر الوحيد القادر على مثل هذا الأمر. ذلك أنّ الشّطر الآخر كان ميّتًا، مجرّد قطعة لحم مخدّرة. أقبل الرّجلِ بوجه عابس، لكنّه لما رأى مُضيفي، انقبضت ملامحه أكثر. فسأله قائلًا: «ما بك يا أخي؟».

ردّ مُضيفي من دون أن يلقي على الرّجل سوى نظرة واحدة: «أخبرني بما قالوه».

فقال جامايك: «أوكيه. قال القائم على إدارة المدرسة إنّهم لا يستطيعون الآن الانتقال إلى أيّ مكان آخر وترك هذه الأرض. الرّجل الذي اشتروا منه الأرض رحل إلى أبوجا. والمدرسة ناجحة هنا ونالت الاعتراف من الحكومة. الأرض مسألة غير مفتوحة لا للنّقاش ولا للتّفاوض. غبت طويلًا لأنّني مكثت في انتظار الرّجل ريثما ينتهي من اجتماع. اجتماع طويل يا أخي».

لم يتفوّه بشيء بل قاد سيّارته بصمت متجهًا إلى شقّته. لكن على طول الطّريق، تواصل مع صوت ضميره، ذلك الكائن الصّموت القابع في أدراج روحه. «تشوكو»، حين أكون داخل أيّ مُضيف، ويدور حوار بين صوت ضميره وصوت ذهنه، فإنّني أنصت باهتمام بالغ، لأنّني تعلّمت أنّ أفضل القرارات التي يتّخذها الرّجل تأتي من اتّفاق كلا الصّوتين.

- ننسو، إنّك ممتلئ بالكراهية من جديد. تذكّر بأنّه لم يقترف أيّ شيء بحقّك الآن.

- هراء! كيف لعاقل أن يتفوّه بمثل هذا الكلام؟ انظر إلى أرضي، إلى بيت أبي!

- اخفض صوتك. وخفّف من روعك. فالرّجل الذي يهمس بشكل أعلى من اللّازم، سيُسمع من بعيد.

- لا يهمّني ذلك في أيّ شيء!

- وعدت بألّا تحمل تجاهه أيّ ضغينة أبدًا. قلت إنّك سامحته. سألك إن كنت تودّ أن تكون صديقه، فأجبت بنعم. بعد أن ردّ لك مالك، كان بإمكانك أن تقول له لا، وكان سيتركك في حالك. بل لقد صلّيت إلى ربّه وذهبت معه إلى كنيسته. الآن عدت إلى كرهه من جديد. الآن تخطّط لإلحاق الأذى به ثانية. انظر، انظر فقط: سكّين ملقى فوق أرضيّة مخيّلتك تلطّخ بدمائه. هل يستوي هذا الأمر؟ هه؟

- إنّك لا تستوعب مقدار الشّرّ الذي ألحقه هذا الرّجل بي. اصمت! إنّك لا تستوعب ولو شيئًا واحدًا!

- ننسو، هذا غير صحيح بالمرّة. أنت، لا أنا، هو الضّعيف الذي يحتاج إلى الفهم والاستيعاب. ما الذي فعله؟ على مرّ الأسبوعين الماضيين، وهو يقوم بمساعدتك، فعل كلّ ما طلبته منه، كما لو كان عبدًا رقيقًا. صرف معظم وقته معك، فعل كلّ شيء لك. ما مقدار ما حصلت عليه من السّتّة آلاف يورو التي أعطاها لك؟ 1.4 مليون نيرة. أكثر بمئة

ألف من المبلغ الذي أخذه منك قبل أربع سنوات. مع أنّه لا يملك شيئًا. انظر إليه -أليست هذه هي الثياب نفسها التي يرتديها كلّ يوم؟ لقد ذهبت إلى شقّته، شقّته الرّثّة. قديمة متداعية فيها شبّاك واحد ومبنيّة من الخشب. أحيانًا، حين ينام في اللّيل، يتمكّن من سماع دويّ الدّود منقّبًا داخل حوائطها. لو لم يكن قد تغيّر حقًّا، فهل سيملك هذا المبلغ من المال ويتحمّل شظف العيش لأجل أن يتمكّن من جبر ما كان قد انكسر؟

لم يردّ الآن صوت رأسه. فقال صوت ضميره: «أجبني. لمَ سكتّ الآن؟».

لم يقل شيئًا. بل تنهّد وحرّك مقود السّيّارة صوب محلّ سكنه ثمّ ركنها.

وعندئذ قال صوت ضميره: «لن أقول المزيد. عدّ أسنانك بلسانك. عدّ أسنانك بلسانك، يا تشننسو!».

فيما يبدو، كان حواره مع ضميره مثمرًا، إذ إنّ جذوة غضبه كانت قد خبت لمّا عبرا إلى شقّته. وأثناء انتظار عدّوه في غرفة الجّلوس، هامسًا بينه وبين نفسه، مضى عبر الباب الخلفيّ إلى المطبخ في الفناء. تناول السّكّين من الخزانة، ومشهد الطّعن القديم ما زال عالقًا بذهنه، لكنّه عاد ووضعه في مكانه من جديد. ضرب الأرض الترابية بقدميه وسدّد لكمة في الهواء. قال: «بيتي، بيتي». ثمّ سدّد لكمة أخرى في الهواء كما لو كان المعتدي عليه قد ظهر أمامه وسقط فوق ركبتيه. قال: «لا، لن أعاني بمفردي. لا. لا يهمّني ما يظنّه أيّ شخص آخر».

عاد الصّوت إليه وقال هامسًا: «نغوه نو، كا أو دي زاي. افعل ما يحلو لك؛ لن أقول أيّ شيء علاوة على ما قلته».

رجع إلى الشّقّة، والعنت بادٍ على ملامحه. فسأله جامايك: «ما بك يا أخي؟ ما الأمر؟».

حدج الرّجل بنظرة فقط. ثمّ سحب صندوق الفانتا من تحت السّرير، وتناول زجاجتين قائلًا: «سأفتحهما في المطبخ، انتظرني هنا».

ذهب إلى المطبخ ووضع الزّجاجتين فوق الطّاولة. ثمّ أغلق باب المطبخ. دلق في سطل فارغ بعض الفانتا من الزّجاجة التي فتحها ثمّ أنزل سحّاب سرواله. أمسك الزّجاجة فوق السّطل وتبوّل إلى أن امتلأت. لمّا انتهى، أحكم وضع السدّادة فوق فوهة الزّجاجة ثمّ هزّها كي يمتزج البول بالشّراب. ووضع الزّجاجة فوق الطّاولة بجانب الأخرى.

«إيبونو»، كان الرّعب قد تملّكني حتّى قبل أن يبدأ في تنفيذ تلك الفعلة لأنّني كنت قد اطّلعت على نيّة قلبه. لكن، في تلك اللّحظة، لم أستطع فعل أيّ شيء. فقد علّمتني التّجارب أنّ صوت الضّمير هو أقوى صوت تحذيريّ مقنع يمكن للرّجل أن يصغي إليه قبل الشّروع في اقتراف عمل ما. وفي حالة عدم اقتناع الرّجل بما يقوله له ضميره، فلا يمكن لأيّ صوت آخر تغيير ما في ذهنه، حتّى لو اجتمع سائر أسلافه الأحياء في «آلاندِه تشِه». ذلك لأنّ الضّمير هو صوتك، يا «تشوكو»، صوت الإله في قلب الرّجل. ومقارنة بضمير الرّجل، فإنّ صوت قرينه الحامي، أو أخيه الإنسان، أو «آغو»، أو حتّى أحد أسلافه يعدّ لا شيء.

عندما حمل الدّلو وخرج لإفراغه في مصرف خلف المطبخ، خطر له أنّ الزّجاجة قد تفوح منها رائحة البول. لذا، رجع وغسلها بالماء من برميل آخر، محكِمًا إغلاق السدّادة بإصبعه. ثمّ مسح الزّجاجة بخرقة وحملها إلى غرفة الجّلوس. وضع الزّجاجة فوق الطّاولة وقال للرّجل: «تفضّل».

تناولها الرّجل ثمّ شكره وشرب. تجرّع الرّجل المَكْرُوهُ الشّراب بسحنة انقبضت أوّلًا، ثمّ طفحت بالدّهشة. راقبه مُضيفي وقد تجرّع الشّراب كلّه من دون أن ينبس بكلمة. ثمّ انحنى ووضع الزّجاجة الفارغة عند قدميه وقال للرّجل الذي يكرهه: «شكرًا لك يا أخي».

«إجانغو إجانغو»، في تلك اللّيلة، انبثق قرين جامايك من السّقف إلى داخل الغرفة وكأنّ صورته انبثقت من شرخ في عدسة كاميرا الزّمن. قال لي: «يا ابن نور الفجر، لقد كفّر مُضيفي عمّا اقترفه».

لكنّي، يا «تشوكو»، امتعضت من قوله. لذا، حدّثته عن هول ما عاناه مُضيفي، وكيف أنّي لمّا عجزت عن مساعدته، ذهبت إلى كهوف القرناء الحماة بحثًا عنه لكنّي لم أوفّق في العثور عليه. أنصتَ إليّ قرين جامايك الحامي بصمت واتّزان أدهشني. فتابعت الحديث قائلًا: «يقول الآباء العظماء إنْ كذبَ صغيرٌ لا يميّز يمناه عن يسراه كذبة مؤذية، فمن الممكن أن يسامحه الأحياء والأموات. لكن إن كذب الكبير مثل هذه الكذبة، فسيلعنه الجّميع، حتّى أسلافه. نال مُضيفك ما يستحقّه».

فردّ عليّ قائلًا: «يقول الآباء العظماء إنّ التّململ وعدم الارتياح غالبًا ما يعتريا العجوز حين تسمع مثلًا يأتي على ذكر العظام اليابسة. إنّني مذنب باقتراف كل ما ذكرته. لكن، مع ذلك، أسألك أن تستحضر في هذا المقام أنّ الرّجل إن أصرّ على تكسير عظام من يهينه ولو إهانة بسيطة فسرعان ما سيصبح هو نفسه أعرج».

عبر هذه الكلمات، تابع مناشدته لي كي أضبط مُضيفي. لن أعرّج على كل ما قاله، لكن سأؤكّد على أنّه استعرض جوانب شخصيّة مُضيفه الجّديدة وأكّد لي على توبته. بيد أنّه ذكر شيئًا أثّر فيّ تأثيرًا بالغًا، قال لي إنّ جامايك لم يكن في الأصل شخصًا سيّئًا. بل دُفع إلى ذلك دفعًا من قِبل النّاس، بمن فيهم مُضيفي. نوّه القرين إلى الحادثة التي كان مُضيفي قد استحضرها في قبرص وذكّرَته بما ارتكبه هو ورفاقه، في الصّفوف الابتدائيّة، من استهزاء وازدراء متكرّرين بحقّ جامايك، ونعتهم له بـ«نْواغبو» بسبب ضخامة ثدييه. كانت تلك الأمور، مثلما قال القرين، وراء بدء محاولاته في التّحكّم بالآخرين، إثباتًا لحضوره، وأملًا في التّعافي ممّا ألحقه به الآخرون. صدّقته وعزمت على بذل مجهود أكبر في إقناع مُضيفي بمسامحة جامايك.

«أُوزه بروّه»، لو أطال الرّجل المكوث في جبهة حرب انتهت، فإنّه قد يخطو فوق نصل أو شيء يدميه، فتلك الجّبهة ممتلئة بالشّظايا والخردة، ولا يمكن أن يعرف الرّجل ما سيلقاه فيها. بالفعل. عليّ القول إنّ مُضيفي خطا فوق شيء في تلك الأرض الخربة وأصيب بتورّم في قدمه. أصيب بالخزي جرّاء ما فعله بجامايك. كان مقتنعًا بأنّ جامايك عرف ما كان في الزّجاجة ولكنّه، مع ذلك، تجرّع ما فيها. لكن أشكل عليه فهم لماذا فعل جامايك ذلك؟ هل حمَله الخوف على ذلك؟ أم الارتقاء بالنّفس؟ اضطرب إلى حدّ كبير بسبب هذه المسألة: أن يُقدِمَ رجل، وهو يعلم، على شرب بول رجل آخر، وبصرف النّظر عمّا كان هذا الرّجل قد اقترفه من ذنوب فيما مضى!

صمّم على أنّ انتقامه لن يتجاوز حدود هذا الأمر. فما فعله جامايك كان بالنّسبة له توبة نصوحًا، سدّد من خلالها ثمن خسارته للمرأة التي أحبّها، وللاغتصاب الذي انتهكه، وخسارة بيت والده. أقسم على أنّه لن يرفع في وجه جامايك ثانية ولو إصبعًا.

وهكذا، عوض أن يؤذي جامايك، قرّر أن يمتنع عن لقائه. «أَغوجغبه»، لو تذكّر، مثلًا، تلك الحادثة في السّجن أو ما تعرّض له من ضرب في بيت فيونا أو أيّ شيء ممّا كان يشعل فتيل غضبه العارم، ولم يكن جامايك في الجوار، فسيخبو غضبه ثمّ سيفارقه في النّهاية. يمكنه أن ينوح، أو أن يضرب الحائط أو الأثاث، أو يتوعّد نفسه بالأذى، لكنّه لن يمدّ يده على رجل ندم وتاب. أحسّ فعلًا بالأسف على ما ارتكبه بحقّ جامايك، رجل تغيّر تمامًا وردّ إليه ما سرقه منه.

حين أبلغ جامايك بأنّه لم يعد راغبًا في رؤيته، لم يذكر له الأسباب، بل أبلغه بذلك فحسب.

ردّ جامايك وقد بدت عليه إمارات الحيرة: «سأحترم رغبتك. لكن يا أخي، يا ابن الرّبّ الحيّ، أنا أودّ أن أكون صديقًا لك. سأفتقدك.

لكن لن أقدم على فعل أمر لا تريده. صدّقني. لن آتي إلى شقّتك أو متجرك. وكما طلبت، لن أتّصل بك إلّا لأمر طارئ. بل حتّى في هذه الحالة سأرسل لك أوّلًا رسالة نصّيّة، أعدك بذلك. لكن أوه يا أخي، تشننسو سلومون، يا صديقي الحبيب، إنّني أدعو لك. إنّني أدعو لك. لكن سأفعل ما طلبته منّي. أجل، فعلًا، لن أبحث عنك بعد الآن! لن أطرق بابك بعد الآن! باركك الرّبّ، يا أخي، باركك الرّبّ!».

وهكذا انتهى الأمر- احتجاج، إقرار، قبول، دعاء، نواح، محاججة، مناشدة، مناشدة ثانية، احتجاج آخر، مناشدة، ثمّ قبول. لم يعد جامايك يتّصل به. «إيبونو»، طوال ثلاثة أسابيع تقريبًا، عاش مُضيفي لوحده، وأخذت حالته بالتّحسّن، رغم إغواء الأمور التي عاهد نفسه على تركها. تمكّن في تلك المدّة من استيعاب كم كانت حياته قد تغيّرت خلال الفترة التي قضاها مع هذا الرّجل الذي خلع عليه الآن لقب: رجل الرّبّ. رجل حاد عن ذاته السّابقة بشكل جذريّ، بل إنّ مُضيفي كان يتساءل في بعض الأحيان إن كانت تلك الذّات قد وُجدت في الأصل. حتّى طريقة كلام جامايك أصبحت مختلفة الآن، أقلع عن مناداته بلقبه في صغره، «بوبو سولو»، واستخدام كلمة «مهن». لو لم يكن شاهدًا حيًّا على ما اقترفه جامايك القديم من بشاعات، لما كان سيصدّق بأنّها كانت حقيقيّة.

افتقد صداقة جامايك وكاد أن ينتهك الحظر عدّة مرّات، خلال الأسبوع الثّالث، بعد إصابته بالمرض. «أوزه بروه»، الرّجل المريض هو رجل استولى داء على زمام السّيطرة على جسده. يبدأ التّغيّر في جسده عبر الإحساس بحصول شيء غير اعتياديّ. وعندما يتفشّى الألم في جسده، من ضريبة الحمّى داخل جمجمته، تنفجر انفعالاته وعواطفه -توتّر عصبيّ أوّلًا. يتوتّر من يومه، ومن مساره، ومن الحياة نفسها. ثمّ تدير صيغة من القلق آلتها التي لم تكتمل بعد. هل بدأ اليوم؟ هل

ستتدهور حالتي؟ هل سيمضي العالم من دوني؟ إلى متى، وإلى أين سيمتدّ، وإلى أيّ درجة سيدوم هذا المرض؟ لكنّ الأمر لا يتوقّف عند هذا الحدّ فحسب. فبعد القلق يأتي الذّهول، ذهول من طريقة استيلاء المرض على الجسد، والإملاء على صاحبه أيّ الأعضاء عليه أن يدفعها ثمنًا مقابل شفائه. لكنّ المسألة الخطيرة هنا هي كيف يُحمَل المريض على الاعتقاد بأنّه لربّما يكون هو من سبّب لنفسه الإصابة بالمرض. فإن كحّ أو سعل، يجب أن يكون هذا بسبب ذلك الوقت الذي قضاه تحت المطر. وإن أفرغ أمعاءه بشكل متواصل، فيجب أن يكون هذا بسبب ذلك الطّعام التّالف الذي تناوله في اللّيلة الفائتة. يصبح المرض، إذًا، كالحيّة السّاكنة التي إن طُردت من ملاذها الآمن، فإنّها تمتلئ غلًا وحقدًا. وما تنزله بساحة المريض، هو انتقامها المقدّس.

كان مُضيفي قد بدأ يتعافى من مرضه حين رنّ هاتفه في يوم السّوق الرّابع من ذلك الأسبوع الثّالث، الذي يشير إليه الرّجل الأبيض بيوم الخميس. «إجانغو إجانغو»، كان مُضيفي في شقّته، منهمكًا في تنظيف دلو مخصّص لحفظ العلف، حين رنّ الهاتف. كان جامايك هو المتّصل. تجاهله في البداية، متخوّفًا من أنّه لم يسامحه بعد، وأنّه إن رآه سيستحوذ الغضب عليه ثانية، وسيدفعه إلى ارتكاب أشياء لم يكن يودّ فعلها. لذا، واصل تنظيف العلف المتخثّر في الدّلو والتّصفير بلحن رقيق تعلّمه من ندالي. عاود جامايك الاتّصال ثانية، وثالثة، ثمّ أرسل رسالة نصّيّة تقول: «ردّ عليّ يا أخي. لديّ خبر من السّماء! حمدًا للرّبّ!».

قفز قلبه من بين ضلوعه. جلس فوق السّرير ثمّ فتح الهاتف. فسمع الرّجل الآخر يقول على عجل: «هالو، أخي سلومون، وجدتها!».

فزّ مُضيفي على قدميه وقال: «ماذا؟ ماذا؟».

لكنّ جامايك وكأنّه لم يسمع سؤال مُضيفي ظلّ يكرّر: «حمدًا للرّبّ يا أخي، وجدتها!».

فقال مُضيفي متسائلًا: «يا رجل الرّبّ، ما الذي وجدته؟».

ردّ جامايك قائلًا: «ومن غيرها يا أخي؟ ومن غيرها؟ تلك التي كنت تبحث عنها، ندالي!».

حملق في الهاتف وأصابه الخرس. جاء من جديد، ذاك الذي يُخرسه ويحرمه من الكلام، الهبة الإنسانية ذات الحرّيّة المطلقة. جاء بخطى واثقة مثلما كان يفعل على الدّوام.

واصل جامايك القول: «إنّني عاجز عن حمد الرّبّ بما هو أهل له، يا نوانم. تبارك سبحانه. إنّه يمدّ لي يد العون كي أفي بما قطعته لك من وعد تلبية كافّة الأمور التي طلبتها منّي. الآن، وأخيرًا، ستتذوّق حلاوة ما جرّبته أنا من سلام وطمأنينة. ستنال الصّفح منها، من الشّخص الذي يجب أن تحصل عليه منه والذي يجب أن تمنحه له. وحينئذ ستشفى وتتعافى تمامًا».

بالفعل، كان سيشفى ويتعافى تمامًا. لم يستطع أن يتلفّظ بأكثر من كلمتين: «أين هي؟».

«رأيتها في شارع كاميرون. أتعرف الصّيدليّة والمختبر اللّذين يُبنيان هناك؟ مبنى من دورين؟».

كان يعرف.

تابع جامايك قائلًا: «هناك. إنّه ملكها. رجعت لبناء الصّيدلية والمختبر. استجاب الرّبّ لدعائنا يا أخي سلومون!».

كان جامايك قد واصل الحديث متوجّهًا بالشّكر إلى إله الرّجل الأبيض، ومقتبسًا من رسائل «كورنثوس» و«يعقوب» و«إشعيا» و«رومية». أمّا مُضيفي فاشتعل حريق هائل في ذهنه. طلب من صديقه أن يتركه ليرتاح قليلًا ثمّ يعاود الاتّصال به لاحقًا، فانصاع الآخر لهذا الطّلب. وضع الهاتف بشرود، وغاص ذهنه في المعلومات الجديدة. خيّم عليه صمت عظيم، صمت كاسح منعه حتّى من سماع صوت

أنفاسه. لكنّ هذا الصّمت كان صمتًا خادعًا، إذ كان يعلم بأنّ ثمّة جيشًا يزحف في تلك اللّحظة، وأنّ الأرض ستهتزّ تحت أقدامه. وأنّ آلاف الأفكار، والتّخيّلات، والذّكريات، والمشاهد الخاصّة بندالي، ستعصف بذهنه عمّا قريب. لذا، تمدّد ببساطة كما لو كان مجرّد شخص ينتظر شيئًا ما، ساكنًا بلا حراك مثل دجاجة ميّتة متيبّسة الأطراف.

22

النّسيان

«مْمَالاتينا آغو أُغو»، يقول الآباء الأوّلون إنّ السّرّ إذا كُتم لوقت طويل للغاية، فإنّه سيجد طريقه حتّى إلى الآذان الصّمّاء. كما أنّه صحيح أيضًا ما يقوله أعظم الحكماء بين الآباء العظماء، الكهنة، أولئك الذين يأتون في مرتبة ثانية بعدك، «تشوكو»، يقول هؤلاء إذا سعى المرء وراء شيء لا يملكه، وكان هذا الشّيء في منتهى المراوغة، فإنّ المرء سيناله في نهاية المطاف، إن لم تقعده قدماه عن مطاردته. رأيت هذا مرّات ومرّات.

كانت قدما مُضيفي قد طاردتا هذا الشّيء العظيم المراوغ، هذا الشّيء الذي أفلت من المقود الذي أحكم ربطه بقلبه، لأكثر من أربع سنوات. وفي ذلك المساء، بعد نحو ساعة من هرولة جامايك إلى بيته، أصبح على يقين من أنّه عثر على هذا الشّيء.

سأل جامايك قائلًا: «هل رأيتها بالفعل؟».

ردّ جامايك: «أجل يا أخي. لماذا سأكذب عليك؟ ألا تتذكّر بأنّي وعدتك أن أبذل كافّة ما في وسعي كي أعمل على استردادك لكلّ شيء، كلّ شيء؟ إر، ذات يوم، خطر لي، يا أخي، أن ألجأ إلى فيسبوك. كنت قد أمسكت عن استخدام حسابي الخاصّ بسبب حياتي الماضية. ولكنّي قرّرت أن أفتحه من جديد».

فسأله مُضيفي مستفهمًا: «هل تعني بريدك الإلكترونيّ؟».

«لا، فيسبوك. سأشرح لك عنه حين نذهب في المرّة المقبلة إلى المقهى الإلكترونيّ. على أيّ حال، استعنت بفيسبوك وبحثت عنها. ذهبت، ثمّ آه! وجدتها».

«ها، فعلًا؟».

«أجل يا أخي سولومن. ندالي أوبيالور. رأيت وجهها، بشرتها فاتحة ووجهها جميل للغاية. كانت تلفّ رأسها بربطة سوداء. أرسلت لها طلب صداقة، واليوم، جاءني الردّ، وقبلَته!».

ابتهاجا بهذا، صفّق جامايك بيديه. أمّا مُضيفي، الذي أصابه ما سمعه بالحيرة، فأومأ وقال: «تابع».

«مباشرة، حال رجوعي إلى المقهى الإلكترونيّ، فتحت فيسبوك ورأيت بأنّها نشرت صورة للصّيدليّة الجّديدة قرب السّوبرماركت الكبير في شارع كاميرون».

فقال مُضيفي، كما لو أنّ جامايك لم يقل شيئًا على الإطلاق: «هل عثرت عليها فعلًا؟».

«أجل يا سلومون. رأيتها. إنّها هي. المرأة في تلك الصّورة التي حجبتَ نصفها عنّي وأريتها لي».

«ماذا لو كانت امرأة أخرى تشبهها؟».

«لا، أبدًا. بعد أن تركت المقهى الإلكترونيّ، توجّهت إلى الصّيدليّة وسألت إحدى العاملات هناك. فأكّدت لي أنّ ندالي هي صاحبة الصّيدليّة».

«أمتأكّد أنت من أنّها هي نفسها؟ سأريك الصّورة ثانية... تفحّصها، سأغطّي الصدر بورقة. انظر إلى وجهها، تمعّن فيه جيّدًا».

«نظرت يا أخي».

«هل تقول إنّها المرأة التي رأيتها؟».

«أجل، إنّها هي نفسها».

«الأنف نفسه... انظر يا جامايك، انظر جيّدًا... العينان نفسهما؟».

«بالتّأكيد يا أخي. لماذا سأكذب عليك يا أخي؟».

قال مُضيفي مذعنًا: «لا بدّ من أن تكون هي إذًا».

«إجانغو إجانغو»، تكرّر هذا الحديث بينهما في شقّته على مرّ يومين كاملين. وفي ختام كلّ مرّة، كان مُضيفي يذرع الغرفة طولًا وعرضًا بنبض متسارع، يتوقّف، ينحني، يسترق نظرة إلى وجه العالم، يغمض عينيه، ثمّ يهزّ رأسه باستياء ممّا رآه. كان ما زال مريضًا، وروحه مرهقة من وطأة جسده العليل. لكنّه رجل، كان قد سمع الكثير. وكان هذا الكثير حملًا كافيًا لتحطيم الرّجل. كان حملًا ثقيلًا أن يتأكّد الآن من وجود ندالي في «أوماهيا». وكان حملًا ثقيلًا أيضًا أن يعرف الآن بأنّ عليه الذهاب إليها.

قال جامايك ذات مساء: «لا أدري ما الذي دهاك يا أخي. أمضيت سنوات طويلة وأنت تريد أن ترى هذه المرأة، بل لقد عشت لأجل هذه اللّحظة. لكنّك الآن تقوم بسدّ بابك في وجهها؟ ألا تريد أن تراها؟».

كانا يجلسان فوق كرسيَّيْن خشبيَّيْن صغيرين أمام غرفة جامايك لاستنشاق بعض الهواء المنعش. وكان الهدوء يعمّ المكان، باستثناء صوت مذياع صغير منبعث من إحدى الغرف وصوت صراصير اللّيل.

قال مُضيفي: «لا عليك، لا ينبغي لك أن تفهم هذا الأمر. يقول الآباء الأوّلون إنّ قاطف الثّمار لا يبوح بكلّ ما رآه من فوق نخلة».

«صحيح، لكن لا تنسَ أنّ هؤلاء الآباء قالوا أيضًا إنّ غصن المانغروف مهما ظلّ قابعًا تحت الماء، فإنّه لن يصبح تمساحًا».

«أَغباتَّه آلومالو»، كان جامايك على حقّ. فقد كان مُضيفي مشوَّش الذّهن. كما لو أنّه ترقّب لحظة العثور على ندالي، ولمّا أتت أدرك بأنّه لا قوّة لديه على مواجهتها. هكذا، لم يردّ على كلمات صديقه الحكيمة. بل نكش بقايا لحم عالق بين أسنانه، ثمّ بصقه على الأرض.

قال جامايك: «أعرف ما تشعر به. إنّك خائف يا أخي. خائف ممّا قد تكتشفه من أمور تتعلّق بها». ثمّ هزّ رأسه وأكمل: «خائف ممّا قد تكتشفه. من أن تكون قد ضيّعت كلّ شيء على حبّ امرأة ربما لن تكون من نصيبك أبدًا».

اختطف مُضيفي نظرة إلى جامايك. كان، في تلك اللّحظة، ممتلئًا بالغضب. لكنّه قاوم غضبه. وعندئذ قال جامايك: «أعرف أنّني السّبب في كلّ هذا، لكن، يا أخي، أرجوك، إنّك بحاجة إلى مواجهتها مهما حصل. فهذه هي الطّريقة الوحيدة كي تتمكّن من التّعافي التّامّ والمضيّ في حياتك والعثور على امرأة أخرى».

جرّ جامايك كرسيّه كي يقابله وجهًا لوجه، وكما لو أنّه شعر بأنّ مُضيفي لم يفهم ما قاله له، لجأ إلى لسان الرّجل الأبيض على عجل وقال: «إنّها الطّريقة الوحيدة».

نظر إلى جامايك، إذ إنّ مجرّد اقتراح العثور على امرأة أخرى كان قد جرحه. وعندئذ قال جامايك: «على الأقلّ، دعني أحمل لها الرّسالة، أو يمكنني أن أذهب وأخبرها بكلّ ما حصل، ما فعلته أنا، وما فعلته أنت، ثمّ أطلب منها السّماح. إنّها الطّريقة الوحيدة. يجب أن تفهم ذلك».

فقال مُضيفي: «ماذا لو اكتشفتُ بأنّها تزوّجت ولم تعد تحبّني؟ ألن تكون معرفة هذا أسوأ من عدم معرفتي بأيّ شيء عنها؟ في الحقيقة، إنّني غير مسرور بعودتها. كان الوضع سيكون أفضل لو أنّها لم تعد».

«لماذا يا أخي سلومون؟».

«لأن»... قال مُضيفي ثمّ توقّف لبرهة كي تختمر الفكرة في ذهنه، وبعد ذلك تابع كلامه قائلًا: «لأنّه ليس في طاقتي أو قدرتي أن أقبل أو أرضى بأن أخسرها». ثمّ أضاف، مستغلًّا صمت صديقه المشوب بالحيرة: «ففي نهاية المطاف، كلّ معاناتي كانت لأجلها».

كانت تلك الكلمات، من بين سائر ما قالاه في ذلك اليوم، هي ما ظلّ يحوم في ذهنه بعد عودته بسيّارته إلى الشّقّة وتمدّده في فراشه الذي كانت رائحة الحمّى التي أقعدته لأيّام ما زالت عالقة فيه.

«تشوكو»، عبر دوراتي الوجوديّة الكثيرة، أدركت أنّ المرء قد يُقلّب أحيانًا فكرة ما في رأسه مرّات ومرّات، لكنّ مجرّد سماعه لها منطوقة، كفيل بأن يُسبغ عليها معانٍ جديدة ويُكسِبها مظهرًا من الجِدّة. رأيت هذا مرّات ومرّات. طوال تلك السّنوات، لم يكن قد فكّر على النّحو الذي خطر له في تلك اللّيلة، أنّ كلّ المعاناة التي تعرّض لها كانت بسببها. استعرض قصّته وما جرى معه عبر تسلسل زمنيّ مختصَر: كان يعاني من فجيعة فقدان والده حين قابلها فوق الجّسر. ومن تلك النّقطة فصاعدًا، بدأت حياته في اتّخاذ المسار الذي كانت متّجهة فيه الآن. لأجلها، باع كلّ ما كان يمتلكه، سافر إلى قبرص، وانتهى به المطاف في السّجن.

اعتدل جالسًا، قرابة منتصف اللّيل، اعتدل جالسًا، مثقلًا بأفكار جسيمة. توّصل إلى أنّه لولاها، لما حصل له أيّ شيء من هذا كلّه. قال لنفسه بصوت عالٍ: «لا يهمّ». لم يكن أمامٍ ندالي الآن أيّ خيار سوى العودة إليه. ثمّ تنفّس الصّعداء وتابع قائلًا: «دفعت ثمنًا كافيًا كي أستحقّها، ثمنًا كافيًا. وليس هناك أيّ أحد، أكرّر، أيّ أحد، يستطيع انتزاعها منّي!».

سيذهب إليها في الصّباح. لن يوقفه أيّ شيء. تناول هاتفه وأرسل رسالة نصّيّة إلى صديقه، ثمّ أسند ظهره إلى الحائط، لاهثًا، وكأنّ ما قرّر فعله قد استنفد قوّته.

«إكِديورا»، إنّ الحدس الغريزيّ لدى الآباء الشّجعان بلغ منتهاه عندما قالوا إنّ الشّخص كثيرًا ما يصبح قرينًا حاميًا للآخر. هذا صحيح. رأيته مرّات ومرّات. فلربما يكون الرّجل في خطر داهم، وقد لا يكون

هناك أيّ شيء يستطيع قرينه الحامي أن يفعله لأجل مساعدته. لكنّ الرّجل قد يقابل شخصًا أبصر خطرًا مقبلًا، فيقوم بتحذيره منه، منقذًا بذلك حياته. قابلت ذات مرّة في «نْغودو» قرينًا حاميًا ثرثارًا لم يتوقّف عن الشّكوى بمرارة من الشّرّ على الأرض، ومن أنّ البشر لا يستحقّون الحياة. كان هناك الكثير من القرَناء الحماة في الكهف، وكان معظمهم صامتين، يتمدّدون في زاوية الحجرة الغرانيتيّة العظيمة أو يغتسلون قرب البركة أو يتجاذبون أطراف الحديث بأصوات منخفضة. لكنّ هذا القرين الحامي لم يكفّ عن الصّراخ والحديث حول مُضيفه الرّاحل الذي حذّر مرارًا ضحيّةً من مؤامرة تحاك لقتلها. لكنّ هذه الضحيّة أرسلت، فيما بعد، رجالًا لقتل المضيف الذي أنقذ حياتها. «أوه، الإنسان مقزّز أكثر من ديدان القبر! أوه، الإنسان أفظع من النّواح المريع! لا أريد العودة إلى أرض الإنسان!» كانت مراقبة هذا الرّوح المتمرّد لدى تفوّهه بتلك العبارات الكفريّة أمر مربك. تركته في «نْغودو» لكنّي سمعت من قرين حام آخر أنّه رفض العودة إلى الأرض وأنّك لعنته وحوّلته إلى «أجُونْمو» لهُ ثلاثة رؤوس وجذع وحش شنيع. لكنّ ما قام جامايك بفعله لأجل مُضيفي، كان مناقضًا لما تحدّث هذا القرين الحامي عنه. فقد صار جامايك قرينًا حاميًا ثانيًا لمُضيفي، وقاده إلى ما بحث عنه لسنوات طويلة.

ذهب برفقة جامايك للبحث عن ندالي، وقد حمل جرّة خوف في قلبه، وارتدى قبّعة فوق رأسه وغطّى معظم وجهه بنظّارات شمسيّة داكنة. عندما وصلا، رأى أنّ الصّيدليّة كانت مبنى جديدًا قائمًا بين كنيسة «القدّيس بول الأنغليكانية» ومكتب حديث لشركة «أم تي إن» للاتصالات. كان المبنى مؤلّفًا من طابقين تعلوه لافتة كُتب عليها بالحرف العريض: «صيدليّة ومختبر الأمل». بدت على جنب اللافتة، امرأة بيضاء في معطف طبّيّ أبيض تسترق النّظر عبر عدسة

مايكروسكوب. أمام المبنى، وعلى أحد جانبي السّور المحيط به، كان كوم من الرّمل والحصى، مخلّفات تذكاريّة من زمن تعمير المبنى. ركن السّيّارة على الطّرف الآخر من الشّارع، أمام صالون للحلاقة صدحت منه موسيقى صاخبة مختلطة بهدير متواصل لمولّد كهربائيّ.

هزّ جامايك رأسه وقال: «إنّك خائف يا أخي. أنت تحبّ هذه المرأة بحقّ».

نظر إلى صديقه لكنّه لم ينطق بشيء. عرف بأنّه يتصرّف على نحو غير عقلانيّ لكنّه لم يستطع معرفة سبب ذلك. شيء ما في داخله كان يحول بينه وبين ما سعى خلفه بشدّة.

استأنف جامايك الحديث وقال: «يقول الإنجيل 'لا تضطرب قلوبكم. واطرحوا عليه ثقل همومكم كلّها، لأنّه هو يعتني بكم'. هل تصدّق الرّبّ؟ هل تصدّق بأنّ من الممكن أن تكون ما زالت تحبّك ولم تتزوّج؟».

حدّق إلى صديقه، دهِشًا من تحوّله إلى لسان الرّجل الأبيض، اللّسان الذي كان جامايك يلجأ إليه في مناقشة الإنجيل. خائفًا من احتمال صحّة ما تحدّث عنها صديقه، أغلق مُضيفي عينيه، وقال: «أصدّق».

«لنذهب إذًا. لا تخف».

أومأ مُضيفي وقال: «أو دي نْما».

نزلا من السّيّارة وقلبه مضطرب بشدّة، وعبرا الشّارع المزدحم. كانت هناك محلّات في كلّ مكان. محلّ أحذية مغطّى بأحذية متدلّية من مظلّته الأماميّة، مربوطة معًا بحبال مثل حبّات الخرز. محلّ لبيع الطّناجر وأدوات الطّبخ، كتب على يافطته: «أيدي الرّبّ: مستلزمات الطّبخ». أثناء سيرهما، حاول صرف ذهنه إلى النّاس، إلى كيف كانت الشّوارع مختلفة عن تلك التي رآها في قبرص. تقدّمه جامايك بالمشي، كان ما زال يعرج قليلًا من جرح في أحد أصابع قدمه. وحين همّا بقطع

الشّارع، جذب مُضيفي قبّعته إلى أسفل لإخفاء وجهه وأحكم تثبيت نظّارته فوق عينيه. أطلق تاكسي بوقه تحذيرًا لهما، ردّ فعل ربّما على ما تصورّه السّائق محاولة جريئة لقطع الشّارع. نطّ جامايك فوق قناة تصريف المياه الممتلئة بالقاذورات التي كانت تفصل الصّيدليّة عن الشّارع. لو رمت ندالي نظرها في تلك اللّحظة عبر نافذة الصّيدلية الجّديدة اللّامعة، لكانت ربّما رأتهما. جذب مُضيفي قبّعته ثانية إلى أسفل، وقبض على ذراع صديقه قائلًا: «لا أستطيع، لا أستطيع الدّخول».

«لماذا؟».

أحكم قبّعته ونظّارته مرّة أخرى. فأضاف جامايك: «أه، ماذا تفعل؟».

همس مُضيفي قائلًا: «شكلي تغيّر كثيرًا. انظر إلى وجهي. انظر إلى أثر الجّرح الغائر. انظر إلى أسناني: ثلاثة أسنان مخلوعة، النّدبة الطّويلة حول فكّي وأثر الغرَز. انظر إلى الانتفاخ الدّائم في شفتي العليا. أصبحت قبيحًا للغاية يا جامايك، أبدو مثل قرد البابون. أريد أن أغطّي كلّ هذا».

همّ صديقه بالرّدّ، لكنّه أحكم شدّ قبضته عليه وقال: «لن تتعرّف عليّ. لن تتعرّف».

فأجاب جامايك بنبرة لعلّها وشت بما كان يشبه الضّيق: «لكن يا أخي، أنا لا أتّفق معك».

فرمى مُضيفي بصره إلى الصّيدليّة ثمّ إلى صديقه وقال: «لم لا؟ كيف يمكن أن تتعرّف عليّ وأنا أبدو هكذا؟».

«لا يا أخي. لا يمكن أن تكرهك بسبب جروحك».

«هل أنت متأكّد؟».

«أجل. الحبّ لا يعبأ بمثل هذه الأمور».

«أنت تعتقد إذًا بأنّها ستظلّ على انجذابها لي، رغم أنّ وجهي يبدو هكذا؟».

«أجل. كلّ ما تحتاج إلى معرفته هو لماذا سافرتَ واختفيت».

كان متململًا قليلًا، متلفّتًا حوله أثناء كلامه. «إيبونو»، هذا ما كان عليه مُضيفي في تلك اللّحظة: رجل، عندما يداهمه الخوف من عدم اليقين، يدفع نفسه بسرعة صوب الهزيمة الدّاخليّة. وحين يحدث هذا، حين تكون نفسه قد طرحت أرضًا في جولة النّزال تلك، تبدأ هزيمته بالتّجلّي في الصّعيد المادّيّ. إنّه أمر عجيب، لكنّي رأيت هذا مرّات ومرّات.

مسح جامايك العرق عن جبينه، وبدأ في الكلام ثانية، لكنّه أمسك فجأة وجذب مُضيفي لينظر صوب باب الصّيدليّة. ليس من السّهل وصف هذه اللّحظة: تلك التي نظر فيها مُضيفي، الذي عانى الكثير، إلى المرأة التي ما كان ليمتنع عن فعل كلّ ما فعله ثانية لأجلها. خرجت من باب الصّيدلية. كانت قد تغيّرت قليلًا، أثقل وزنًا من تلك المرأة الرّشيقة التي حمل صورتها في رأسه طوال تلك السّنوات. كانت في قماشة طويلة بيضاء ذكّرته بالممرّضة في قبرص. وقف ورصدها، مسجّلًا كلّ شاردة وواردة من حولها. كانت تتحدّث مع امرأة معها طفلين، أحدهما مشدود إلى ظهرها، والآخر مدّ يده نحو ندالي ثمّ سحبها. التفتت وحاولت التقاط يد الطّفل، لكنّه سحبها وضحك ثمّ التصق بأمّه. لمّا استدارت المرأة ومضت في حال سبيلها، ورجعت ندالي إلى داخل الصّيدليّة، قال جامايك: «ألم أقل لك؟ إنّها هي بعينها».

ردّ مُضيفي بنبض مضطرم: «صحيح. إنّها هي بعينها. صحيح يا جامايك، هي بعينها».

كانت فعلًا هي بعينها يا «إيبونو». ندالي، المرأة التي كانت قرينتها الحامية قد واجهتني عند ذهابي لأجل استعطافها نيابة عن مُضيفي. وعندئذ داهمني ذلك الخاطر، على نحو لم أكن قد نظرت إليه بعين الاعتبار طوال تلك السّنوات، خاطر أنّ قرينتها الحامية لربّما نفّذت تهديدها بإبعاد مُضيفتها عن مُضيفي إلى الأبد.

قال جامايك: «إذًا، دعنا ندخل. لن أعود يا أخي من دون أن أقابلها. فأنا أريد لك التّعافي ممّا أصابك، أن تستردّ سويّتك، أن تمتلئ بغبطة الرّوح القدس. يجب أن تفعل هذا. يجب أن تتحلّى بالشّجاعة. إن لم تأتِ، فسأدخل إلى الصّيدليّة بمفردي وسأقابلها. سأكلّمها نيابة عنك».

«مهلًا! يا إلهي، جامايك! انتظر!».

أمسك ثانية بجامايك فرأى في عينَي الرّجل شيئًا منحه الأمل. قال: «حسنًا، سأدخل. لكنّي، أعني، لا أستطيع فعل هذا الأمر دفعة واحدة. كلّ ما أستطيع فعله الآن هو مجرّد النّظر إليها. وبعدئذ، ربّما في وقت آخر، سأكلّمها؟».

قلّب جامايك هذا الاقتراح في ذهنه بابتسامة متفهّمة مائلة إلى جنب حملت جبينه على الإنحناء إلى أسفل. ثمّ قال: «أوكيه، لندخل إذًا يا نوانِم».

مشى بذعر وراء جامايك، والقلق يُثقل خطاه، إلى أن عبرا الصّيدليّة. كانت غرفة كبيرة لها نوافذ زجاجيّة عديدة، لذا، كان المكان غارقًا بالضّوء. مراوح السّقف، صاخبة في دورانها، زوّدت المكان بهواء إضافيّ. جلس بسرعة فوق أحد الكراسي البلاستيكيّة السّتّة المواجهة لطاولة البيع، هيكل خشبيّ كبير أخفى وراءه الجّزء السّفليّ للصّيدلية. هذا ما عمد إلى تثبيت بصره فيه بعد تبادل تحيّة مكتومة مع الرّجل الجّالس إلى جنبه فوق أحد الكراسي. كانت ندالي منشغلة بتلبية حاجة شخص ما لمّا دخلا. ومع أنّ من نادى عليهما كان امرأة أخرى، «الزّبون التّالي»، إلّا أنّه سمع صوتها. لم يلبِّ جامايك النّداء على الفور، بل وقف جنب كرسيّ مُضيفي وعيناه فوق طاولة البيع. أشار مُضيفي إلى جامايك بيده، فانحنى الأخير كي يسمع ما يريد قوله. همس مُضيفي في أذن جامايك قائلًا: «أنت تعرف، أنت تعرف... جئت فقط كي أراها».

أومأ صديقه منزعجًا، وأشار إلى الصّيدلانيّة بالتّمهّل للحظة. قال مُضيفي له: «قل لها فقط بأنّك تريد أن تشتري لي علاجًا للملاريا».

أومأ جامايك برأسه.

راقب ندالي من مكانه، وقبّعته تستر وجهه وعيناه مختفيتان خلف نظّارته الشّمسيّة. بدت له أكثر جمالًا ممّا كانت عليه من قبل. كم عمرها الآن؟ سبع وعشرون سنة؟ تسع وعشرون؟ ثلاثون؟ لم يتمكّن من استحضار سنة ميلادها بالضّبط. بدت الآن مثل امرأة في ربيع عمرها. كان شعرها مملّسًا ومتهدّلًا على كتفيها. بدا له أنّ ثمّة تغيّرًا قد طرأ على كلّ جزء في جسدها، حتّى على شكل وجهها. كانت شفتاها أكثر امتلاء، صبغتهما هذه المرّة بلون ورديّ أغمق ممّا كان بوسعه أن يتذكّره. حدّق لساعات خلال ذلك الصّباح في صورها، الصّور التي أصبحت الآن مصدرًا يزوّده بالمتعة. لكنّ الوجه الماثل أمامه كان قد تغيّر قليلًا. كان أفضل ما يسعه قوله هو أنّها بدت كأنّها رُدّت إلى خالقها لأجل التّرميم ورجعت أجمل وأفضل ممّا كانت عليه.

كانت المرأة الأخرى قد بدأت في وضع الدّواء في كيس صغير عندما فتحت ندالي الباب الصّغير وخرجت من خلف طاولة البيع. حدّق إليها بكلّ ما أوتي من قوّة على التّركيز إلى أن ابتلعها مكتب كتب على بابه: «ندالي إنوكا، أم أس سي. صيدلة». لم يرها بعد ذلك. دفع جامايك ثمن الدّواء للممرّضة وخرجا بكيس من حبوب الملاريا.

«أَغوجِغبه»، عندما يُعلّق الرّجل آماله على توقّع عظيم ويتعهّده بالزّراعة والسّقاية والرّعاية، وحين ينمو هذا التّوقّع ويصل إلى مرحلة طرح الثّمار، فإنّه عادة ما يصيب الرّجل بالارتباك والحيرة. فلربما يقول رجل لأصدقائه: «اسمعوا، اسمعوا، بيت أخي في المدينة البعيدة فارِهٌ وفخم. فأخي رجل ثريّ». لكن سرعان ما يذهب هذا الرّجل نفسه إلى المدينة ويكتشف بأنّ أخاه مجرّد كنّاس في الطّرقات والشّوارع،

يعيش على الفتات. لكن لأنّ توقّع هذا الرّجل كان عظيمًا للغاية، ولأنّه تشبّث به لوقت طويل للغاية، فإنّه سيشكّ بدايةً في حقيقة الواقع الأكيدة، حتّى ولو كان مصدومًا بها. رأيت هذا مرّات ومرّات. حقيقة زواج ندالي، التي يستدلّ عليها من تغييرها لاسمها ومن الخاتم الذي كان جامايك موقنًا بأنّه رآه في إصبع يدها اليسرى، أصابت مُضيفي بالارتباك والحيرة. أطفأت الأنوار من كونه وتركته في عالم من الظّلام الدّامس. وقف في مدخل كنيسة جامايك، مهتزًّا من الأعماق حتّى أنّ دقّات قلبه كان لها وقع السّياط. قال لجامايك: «أعتقد بأنّها ما زالت تحبّني، رغم كلّ شيء».

ردّ جامايك قائلًا: «إنّني أتفهّم ما تقوله يا أخي».

كان ردّ جامايك بلسان الرّجل الأبيض، مثلما يفعل دائمًا عند ذهابهما إلى الكنيسة أو حال خروجهما منها. وكأنّ التّحدّث بلسان الآباء إثم عظيم لا يمكن اقترافه في مثل هذا المكان. لكنّ مُضيفي ردّ بلسان الآباء العظماء: «أرجوك، تحدّث بلسان الإيبو. المسألة جدّيّة للغاية».

«متأسّف، ننام، متأسّف، أو. لكن ما باليد حيلة الآن. مثلما قلت لك مرارًا، ضع الرّسالة في يدها فقط؛ ضعها في يدها. هذا هو كلّ المطلوب منك. وبعدئذ، بوسعك الانصراف إلى شؤون حياتك، وسيرى الرّبّ حينذاك بأنّك أدّيت واجبك».

هزّ رأسه، لا لقبوله بما قاله جامايك، بل لأنّ صديقه لم يفهم الأمر على الإطلاق. كان يريد من جامايك أن ينصرف إلى الدّاخل لأداء مهمّاته الدّينية وأن يتركه كي يقلّب الأمر في ذهنه، ولهذا، قال: «حسنًا، سأنتظرك هنا».

ذهب جامايك للقاء رجلين رتّب معهما أمسية دينيّة خاصّة في ذلك المساء: عرض فيلم مسيحيّ حول حياة «جيسوس كرايست». قعد مُضيفي فوق طوبة وحيدة، إحدى بقايا ورشة بناء الكنيسة، قبل سنة واحدة فقط. رنا ببصره إلى الشّارع وإلى أزمة المرور الخانقة فيه،

حيث تدافع الباعة والمركبات والعربات اليدويّة داخل الحيّز الضّيّق. أثناء ذلك، فكّر في كلّ الأمور التي رآها وتلك المحتجبة عنه. هل لديها أطفال؟ متى تزوّجت؟ بالأمس أم منذ عام؟ هل يمكن أن ذلك حصل في الشّهر نفسه، بل في الأسبوع نفسه، الذي وصل فيه كرجل محطّم إلى نيجيريا؟ بل، لو كانت الأمور قد سارت وفق نمط الحياة المعهود الدّائب على التّهكّم منه، من الممكن أن يكون ذلك قد حصل في يوم عودته. اشتعلت مخيّلته: هو ينزل من الطّائرة إلى رصيف مطار «أبوجا» المتهالك، وهي تتدرّج صوب مذبحِ الكنيسة مع عريسها. تخيّل الكاهن وقد نظر إليها وإلى زوجها، سائلًا إيّاهما إن كانا يتعهّدان لبعضهما بأنّهما سيبقيان معًا في السّرّاء وفي الضّرّاء، إلى الموت. وفي تلك اللّحظة، كانت القوقعة الفارغة التي كانها ذات مرّة تسقط متهاوية عند قدمي عمّه المنتظر في المطار.

أعمَلَ تفكيره في الأمور التي رآها: ندالي، حيّة، موفورة الصّحّة، أكثر جمالًا من قبل. لو كان جامايك لم يظهر في حياته، قادمًا مثل صخرة قذفها عليه عدوّ خفيّ لتدميره، لكان قد تزوّجها. لكانا قد واصلا العيش في بيته ومزرعته، وسط طيوره ودجاجاته، جامعَين البيض في الصّباحات ومستيقظَين على أوركسترا الدّيوك عند بزوغ الفجر. لكان فرحه عظيمًا ولا حدود له. لكنّ كلّ هذا سُلب منه. وعبر إنصاته إلى أزيز البعوض من حوله، والهمس والهمهمة الآتية من داخل الكنيسة، انبثقت جذوة الغضب في داخله.

فزّ على قدميه وشرع في البحث عن سلاح. عثر على عصا قرب مولّد الكهرباء التّابع للكنيسة فالتقطها من الأرض. توجّه نحو الكنيسة مثل المجنون، كاد أن يبلغ الباب حينما توقّف. «إيبونو»، كان ضميره قد تحرّك، فاخترق الظّلامَ المفاجئ الذي خيّم على ذهنه شعاعٌ من النّور. وقعت العصا من يده وعاد إلى الجلوس فوق الطّوبة. وضع

يديه فوق وجهه وصكّ على أسنانه. بعد لحظات، وقد منح نفسه فرصة استعادة الهدوء، شعر بشيء يدبّ فوق وجنته. كانت نملة قد زحفت من العصا إلى يده، ومن هناك إلى وجهه. نفضها بعيدًا عنه.

عندئذ جاءه صوت جامايك من عند المدخل قائلًا: «أخي، أخي، ماذا جرى؟».

نهض قائلًا: «سأذهب إلى البيت وأجلس بمفردي».

«أوه، أخي سلومون. أودّ منك أن تحضر هذا الفيلم، 'آلام المسيح'. سيلامس شغاف قلبك. سيلامس روحك».

كان بودّه أن يتكلّم، بودّه أن يخبر هذا الرّجل بأنّه كان قبل لحظة فقط ممتلئًا بالكراهيّة. لكنّه لم يفعل، لأنّ وجه جامايك جرّده ثانية من أسلحته. انتبه لصوته ينطق قائلًا: «سأحضر».

«تبارك الرّبّ!».

جلس ممزّقًا من الدّاخل في مؤخّرة الكنيسة، لدى انهماك جامايك وأعضاء كنيسته في تجهيز شاشة العرض. ظلّ جالسًا إلى أن بدأت العظة. ظهر الأب فوق المنصّة وتحدّث عن الخلاص، كيف عانى رجل وبذل حياته لأجل الآخرين. أثناء خطبة الرّجل، نهض وترك الكنيسة.

«تشوكو»، عاد إلى البيت، صارع نفسه كي لا يسقط في براثن اليأس من جديد. أدرك، عند منتصف اللّيل، أنّ محنته تنبع بالكامل من رغبته في استعادة ما فقده. لم يكن ما يريده هو الشّفاء والمسامحة، تلك الأشياء التي تكلّم عنها جامايك. عوض ذلك، كان يريد استرجاع حياته السّابقة. كان يريد التقاط جوزة هند سقطت فوق بيت للخلاء وإزالة ما علق بها ثمّ غسلها. اعتقد بإمكانيّة تنظيفها وعودتها إلى سالف عهدها. قعد في السّرير، عاقدًا العزم على أنّ هذا ما يريده، وأنّ هذا من الممكن عمله. فعمل أيّ شيء آخر معناه الإقرار بالهزيمة والاستسلام.

هذه التّعويذة المؤلّفة من تلك الخواطر، لدى اختمارها في ذهنه على مدى وقت طويل، اتّخذت صيغة قرار جازم: سيقاتل في سبيل الحصول عليها، سواء كانت متزوّجة أم لا.

قال لنفسه: «لا، لن أستسلم! قطعت شوطًا بعيدًا للغاية ولا يمكنني الاستسلام. أجل، سأكرّر القول: تؤخذ الزّوجات من الأزواج؛ وكذلك، أيضًا، يؤخذ الأزواج من الزّوجات. يُحرَم الرّجل من طفله، مثلما تُحرَم المرأة من طفلها. تُحرم الإوزّة من فرخها. أنْويغي إِهه نون أوى مْمادو جي نا أكا. أكرّر القول مجدّدًا: لا تعود ملكيّة أيّ شيء في هذا العالم إلى أيّ أحد بشكل قاطع. نحن نملك ما نملكه لأنّنا نتشبّث فيه بقوّة، لأنّنا نرفض التّخلّي عنه. عبر وجودي هنا، عبر وقوفي هنا، تحت سقف، أنا أتشبّث بحياتي. إن تخلّيت عنها، فستؤخذ منّي».

في حركة معبّرة، ضرب صدره بيده. ثمّ أشعل النّور واتّجه صوب المرآة. نظر في صورة الرّجل المتغيّر الذي كان يقف الآن مشيرًا بإصبعه إليه، ووجهه كتالوج من النّدوب الغائرة. خاطبه قائلًا: «قل لي، قل لي، ألم يُؤخذ منّي مستقبلي نفسه؟ ألم ينتزعه من يدي كلّ من جامايك، وتشُكا، ومازي أوبيالور، وفيونا، وزوجها، وشرطة قبرص، والجميع؟».

استدار بعيدًا عن المرآة وأشار بإصبعه إلى الحائط ثمّ أصدر حركات مثل من يواجه بشيء ما، شيء يبعث على الخوف. ثمّ صاح قائلًا: «ألم أحاول التّشبّث به لكنّه أُخذ عُنوة منّي؟ ماذا عن جسدي؟ هل كنت أنا من أعطيته لهم؟ هل فعلت ذلك؟ قل لي!».

تناول المقعد الخشبيّ الصّغير وهشّمه بالأرض. ثمّ صاح: «قل لي!».

وقف الآن، أمام قطعة الأثاث المهشّمة، لاهثًا، متفطّنًا إلى انزلاقه الفجائيّ في هوّة الجنون وإلى أنّه صرخ في منتصف اللّيل. صدمه

ذلك. مرتعدًا، أطفأ النّور على عجل ومدّد نفسه بهدوء فوق السّرير ثمّ مكث هناك متخوّفًا من أن يكون قد أزعج أصحاب الشّقق الأخرى وأيقظهم من نومهم. انتظر مترقّبًا من أحدهم قرع بابه، وبصره مشدود إلى عقبه، حيث كان بمقدوره رؤية أطياف من الضّوء. لبرهة طويلة، ظلّ ممدّدًا هناك وكأنّه مكبّل بالسّرير، يداه فوق بطنه، ورأسه يتلفّت من جنب إلى جنب بشكل هستيريّ. لكن لم يأتِ أحد. من مكان ما، بلغت مسامعه أصوات ما بدا له مثل صلاة حاشدة في كنيسة مرافقة بالطّبول والموسيقى. وعبر السّكينة التي هبطت عليه، خلص إلى أنّ عليه العودة إلى ذلك المكان الذي كان الجّزء الآخر منه مقيمًا فيه ولم يبرحه أبدًا ولو لمرّة واحدة. وعبر تلك العودة سيستردّ سلامه الدّاخليّ، وهناك سيخوض أشرس معاركه.

23

الحكاية القديمة

«**إتشَتايُبايسايك**»، أشرت فيما سلف إلى أنّ الإنسان محدود في قدراته. أقول هذا، مثلما سأروي لك الآن، لأنّ مُضيفي كان سيفعل الأمور بطريقة مختلفة لو امتلك قدرات أكبر. لكنّ هذا لا يعني أنّ طاقة مُضيفي ليست كطاقة أيّ رجل آخر، لا. أنت لم تحرمه من أيّ شيء منحته للآخرين. وأنا ذهبت معه إلى «آفيوك» وحديقة «تشيوكيكي» لالتقاط مواهب وهبات كنت قد سعيت، بفضلك وجَوْدك، إلى إسباغها عليه، مثلما تسبغها على أيّ كائن بشريّ. لكن، مع ذلك، ظلّ محدودًا في قدراته. فهو كسائر البشر مقيّد بقوانين الطّبيعة والزّمن. لذلك، هناك أفعال، عندما يفعلها المرء، لا يمكن أن تنقضي. كلّ ما يمكن للمرء أن يفعله، إن لم يستطع تغيير ظرف ما، هو أن يستسلم للأمر الواقع وأن يمضي إلى الأمام.

«إيبوبديكي»، عادت هذه الحكمة لتواجه مُضيفي بعد ستّة أسابيع على رؤيته ندالي من جديد. ولأنّني لا أريد الإطالة وصرف مزيد من وقت هذا البلاط الجّليل، ولأنّني يجب أن أستحضر فقط تلك التّفاصيل التي يمكن أن تقود بصورة ما إلى خاتمة الأمر الذي حملني على المثول بين أيديكم، يجب أن أدع دفّة الحديث لهذا الرّجل، جامايك. إذ إنّه أدرك بأنّ مُضيفي، ومنذ رأى مجدّدًا المرأة التي أحبّها، وقع في براثن الاضطراب. خرج عن طوع نفسه وكأنّه تحوّل إلى شخص آخر. كان عاجزًا عن المضيّ إلى الأمام أو الرّجوع إلى الخلف.

«يا أخي، قمت بما عليك وبذلت ما في وسعك. بل تجاوزت هذا وزدت عليه ويجب أن تتوقّف الآن. أنصحك لأنّني أحبّك في المسيح، إزِنْوانم، دع كلّ هذا وراء ظهرك وأمضِ قُدُمًا إلى الأمام. إنّني أنصحك، هذا أحسن ما يمكن أن تفعله بحقّ نفَسك».

في هذا الوقت، كان قد مرّ عليهما شهران وهما من أعزّ الأصدقاء. جلسا الآن في محلّ مُضيفي لبيع أعلاف الدّواجن. خلال الأشهر التي انقضت منذ أن اشتراه مُضيفي، كان المحلّ قد توسّع ليشمل بيع العلف، والأسمدة، وغيرها من المستلزمات الزّراعيّة. صفوف من الألواح الخشبيّة كانت قد دقّت في الحائط، ثمّ رصّت فوقها علب المنتجات الزّراعيّة الخاصّة بتربية الدّواجن. رزنامة من وزارة الزّراعة في ولاية «أبيا» علّقت فوق الحائط، مفتوحة على الصّفحة التي أطلّ منها «الرّياديّ الأخير»، مُضيفي، واقفًا أمام محلّه وقد نظر شزرًا إلى الكاميرا. إنّها أوّل صورة ملتقَطة له منذ خضوع وجهه لمبضع العنف في قبرص، بدت فيها آثار الجّروح العميقة فوق جبينه وحنكه وأسنانه المخلّعة.

لكن «تشوكو»، عليّ أن أترك دفّة الحديث لصديقه: «دعني أذكّرك بكلّ ما فعلته، وبأنّك قمت بفعل الكثير. بعد أن تمكّنت من العثور عليها لأجلك، ذهبت أنا وأنت للبحث عنها. في البداية، ولمدّة طويلة بعد رؤيتنا لها، أصرّيت على عدم كشف هويّتك لها. وبصفتك رجلًا ما زال قلبه عامرًا بالحبّ، لم ترغب في أن يتعرّض هذا الحبّ للدّمار إن اكتشفت أنّ تلك التي كنت قد خزّنت لها هذا الكنز من الحبّ لم تعد تبادلك ولو مثقال ذرّة منه.

«لكن رغم مخاوفك هذه، إلّا أنّك لم تستسلم. ذات يوم، قبل خمسة أسابيع، قمت باغتنام فرصتك. كنت هناك معك، نْوانم سلومون. شهدت ما جرى لحظة بلحظة. ظهرتَ أمامها من دون أيّ محاولة للتّنكّر، داخل صيدليّتها. قمت باغتنام فرصتك. كان الأمر مرتّبًا على نحو جيّد. دخلنا

عندما اعتقدنا بأنّه لم يكن هناك أيّ أحد سوى ندالي وإحدى العاملات. بالطّبع، لم نكن نعرف بأنّ اثنين من أصدقائها كانا جالسَيْن في مكتبها الذي كان بابه مفتوحًا. ربّما، وكما كرّرت على مسامعك مرارًا وتكرارًا، ربّما بسبب وجود هذين الشّخصين تصرّفَت بتلك الطّريقة. لمّا رأتك، الرّجل الذي أحبّته بحقّ، والذي أقسمت له على عدم هجره أو نسيانه أبدًا، اعتراها الخوف. لم يُحكَ لي هذا في حكاية، ولم أره في منام. بل رأيته بأمّ عيني. بأمّ عيني، رأيت يديها ترتجفان. العلبة المطّاطيّة التي كانت في يدها، والتي كانت تخربش شيئًا ما فوق سطحها، سقطت حين شهقت وقالت: 'آه!' ثمّ قبضت على قلبها.

«رأيت هذا، أخي سولومن. رأيتها وقد تصرّفت كمن رأى شبحًا في وضح النّهار. من الواضح أنّها اعتقدت بأنّك إمّا كنت ميّتًا أو بأنّك لن ترجع أبدًا إلى نيجيريا. وقفت هناك، يا أخي، ناديتها باسمها، قلت لها إنّك رجعت. كانت يداك مفتوحتين أمام طاولة البيع. لكنّها شهقت وصرخت برعب، فهرع إليها صديقاها من المكتب، واستدارت نحوها العاملة التي كانت منشغلة في تنظيف الرّفّ الممتلئ بالدّواء. إنّني على يقين بأنّ قدوم هؤلاء الأشخاص كان السّبب الوحيد وراء التّغيّر الذي طرأ عليها، تحوّلت من فأر إلى طائر بغمضة عين وبدأت في الصّراخ عليك: 'من أنت؟ من أنت؟'. ثمّ ومن دون أن تتريّث لسماع ولو أيّ ردّ منك، بدأت بالصّراخ ثانية، 'أنا لا أعرفك! أنا لا أعرف هذا الرّجل!'. إنّني على يقين من أنّها كانت قد عرفتك وميّزتك في ذلك اليوم».

أمسك عن الكلام لأنّ مُضيفي كان يهزّ رأسه ويصكّ على أسنانه.

«رأيت هذا بأمّ عينك أنت أيضًا. أوّلًا، كانت هناك شرارة التّعرّف عليك التي لا مراء فيها. لو لم تتعرّف عليك، لماذا كانت ستشهق؟ لماذا كانت سترتجف؟ هل يتصرّف المرء على هذا النّحو حين يقابل فجأة شخصًا لا يعرفه؟ هل تشهق؟ هل ترتجف؟».

اشتعلت في قلب مُضيفي نار ساكنة، ثمّ هزّ رأسه أكثر من المرّة السّابقة وقال: «يا رجل الرّبّ، أنا موافق. موافق تمامًا على كلّ ما ذكرته. هكذا تجلّى الأمر بالفعل. لكنّي أتساءل، لماذا ادّعت بأنّها لا تعرفني؟ ألم يكن وجهي هو السّبب في ذلك؟».

عند ذلك، تبدّلت سحنة صديقه، لكنّي لم أستطع تفكيك شيفرة وجهه والتقاط المغزى من ورائها. قال: «ربّما، نوانم سولومن. ما تتخوّف منه قد يكون صحيحًا بالفعل، وقد لا يكون فقط بسبب أولئك الذين كانوا هناك في ذلك الوقت. ردّة فعلها كانت متطرّفة. صاحت، بل وصرخت بصوت أعلى، حين حاولت أن تشرح لها موقفك وما حصل معك. وعند ذكر اسمك صرخت بالإنجليزيّة: 'لا، لا، أنا لا أعرفك! انصرف من مكتبي! انصرف!' فعلًا، وراء ردّة الفعل هذه ما وراءها. كانت هناك بلا ريب أفعى مختبئة في الدّغل. لكن عليك أن تعرف أيضًا بأنّها ربّما كانت خائفة. فنحن أمام امرأة متزوّجة. امرأة»... ربّما لمعرفة جامايك بما كان لهذه التّفاصيل من وطأة على مسامع مُضيفي، وأنّ ما كان على وشك أن يقوله سوف يلسعه أكثر، ربّما لهذا أحجم عن الكلام. ثمّ، وعيناه خارج نافذة المحلّ، حيث كانت ذبابة دائخة تعلو وتهبط محاولة النّفاد من شبك المنخل، قال: «لديها زوج».

في الواقع، لسعت هذه الكلمات صديقه.

«من الممكن أن يكون الأمر على هذا النّحو: إنّها خائفة من أن الرّجل الذي كانت تحبّه سابقًا سوف يدمّر حياتها الجّديدة. لا بدّ من أنّها كانت خائفة منك».

أومأ علامة على القبول، على الهزيمة.

«لكنّ الأمر لم ينته عند هذا الحدّ بالنّسبة لك. أجل، بعد أن تركنا الصّيدليّة بشكل مخزٍ، تحت تهديد ووعيد صديقَيْها، هربت من الصّيدليّة عبر باب خلفيّ وهي تبكي. ولمدّة من الوقت، أثقل كاهلك ما جرى، يا

صديقي. أشعركَ بالخزي، والإهانة، وأرداك صريعًا. لم يُحكَ لي هذا في حكاية يا أخي. كنت هناك. شاهدته بأمّ عيني. لو كانت قد صدّتك بسبب وجهك المشوّه، فلماذا كانت ستتأثّر على ذلك النّحو البالغ؟».

«إيبوبديكي»، تحدّث صديقه بصراحة الآباء الأوّلين وترك مُضيفي مشوّشًا جرّاء ما كان قد سمعه. رنا إلى خارج النّافذة، فسقطت عيناه على بائع متجوّل كان يبيع أقراصًا مضغوطة فوق عربة صغيرة. أوقفت البائع امرأة كانت تطالع أحد الأقراص بعينيها.

«لكن على المرء أن يضيف، أيضًا، بأنّ تأثّرها البالغ قد يكون بسبب غضبها منك»، قال جامايك فجأة، ثمّ رمى صديقه ثانية بتلك النّظرة التي تقول: **استجمع رباطة جأشك**. «ربّما كرهتك في ذلك الحين لأنّها لا تعلم بعد بقصّتك. **إنّها جاهلة**».

هذه الجّملة الفارقة، التي نطقت بغير لسان الآباء، كان الهدف المنشود منها هو لطم الأذن المستمعة كيما تستقبل ما قيل لها والتي أومأ صاحبها بلهفة من جديد.

«إنّها لا تعرف ما كابدتَه وقاسيته، كيف قضيت بعد وصولك إلى قبرص أسبوعًا في الجّحيم بسبب ما فعلته أنا بك. لم تعرف بعذابك. لم تعرف كم كنت ضائعًا بسبب تخلّيك عن كلّ شيء لأجل الحبّ».

أنصتَ إلى هذا الكلام الشّديد الذي غرس أنيابه في قلبه، مومئًا بين الفينة والأخرى.

«لم تعرف، في ذلك الحين، كيف دفعت ثمنًا باهظًا لأجله. لم تعرف كيف أُهنت، وجُرّدت حتّى العظم، وسُرق منك كلّ شيء كان في حوزتك. لم تكن تعرف بعد ألم مثل هذه التّضحية بالنّفس. بعد هذا، وكأنّه لم يكن كافيًا، رموك في السّجن».

من جديد، «إيبونو»، رمى مُضيفي بتلك النّظرة الكاوية. «لن أقول المزيد، نوانم، لأنّ الكلام الذي قد يستخدمه المرء كي يصف ما مررت

به هناك من شأنه أن يحرق لسان المرء. لكن هذا ما أعنيه: لم يكن لديها بعد أيّ علم بتلك الأمور. لم تكن قد قرأت الرّسالة بعد».

كانت عيناه مسلّطتين على جامايك، الذي سحب منديلًا من جيب سرواله المتواضع. دسَّ الجيب، الذي لحق بالمنديل، داخل السّروال، ثمّ مسح جبينه.

«أجل، لم تعرف عن هذه الأمور في السّابق، لكن بعد ذلك أعطيتها الرّسالة وكان ذلك بعد بضعة أيّام فقط على لقائك بها في الصّيدليّة. أتذكّر ذلك اليوم جيّدًا. كنّا قد توصّلنا إلى خطّة. عثرنا على رجل لعب دور ساعي البريد وحمل الرّسالة، من دون طوابع موسومة بختم، إلى عنوانها الذي حمل اسمها الكامل. تكلّلت خطّتنا بالنّجاح. قال توكُنبو إنّه خرج من الصّيدلية بعد أن سلّمها الرّسالة، ثمّ عبر النّافذة، رآها تفتح الرّسالة وتبدأ في قراءتها. كنّا أنا وأنت قد ابتهجنا. بالنّسبة لي، كان هذا كافيًا. حملتها على فهم أنّك لم تكن من صنف الرّجال الذين حسبتك واحدًا منهم، وإدراك أنّك قاتلت بشدّة لأجل استعادتها. أنت لم تكن مجرّد رجل سافر إلى الخارج واختفى. ولم تكن رجلًا رضخ للظّلم، بل رجلًا واجهه ببسالة. برهنت هناك على حبّك لها، وعلى أنّك لم تنسها ولو لمرّة واحدة طوال تلك السّنوات وما كابدته فيها. كنت تستيقظ كلّ صباح وتتخيّلها معك في الغرفة نفسها، وكنت تقول لها دائمًا: 'سأعود إليك. سأعود إليك'. كانت هذه الكلمات هي ما أمدّك بالحياة خلال تلك السّنوات المؤلمة. ردّدتها في كلّ يوم وقلتها إلى ذلك الوجود المستحضر لها الذي كنت تشعر به داخل زنزانتك. على. مدى. أربع. سنوات. أربع سنوات، بوركت يا أخي سولومن».

كان مُضيفي يومئ برأسه، ونظرات عينيه فارغة، كما لو كان جامايك يتفوّه بكلمات جبّارة قادرة على قهر كلّ حواسه.

«في رسالتك، التي تمكّنت من إيصالها لها، وصفت كيف حصل

هذا، كيف تمكّنت من الصّمود في وجه تلك السّنوات القاسية والنّجاة منها. قلت إنّ الأمر كان مثل المعركة»...

علقت كلمة «المعركة» في فم صديقه مثل السّمكة في الخطّاف، لأنّ رجلين في مريولين أزرقين دخلا إلى المحلّ في تلك اللّحظة. على ثيابهما كُتب: «جامعة مايكل أوكبارا الزّراعية، أُمُدايك».

عرفهما.

خلع أحد الرّجلين قبّعته وقال: «أوغا مربّي الصّقور أبي نا الدّجاج».

فردّ مُضيفي قائلًا: «أه، أهل الجامعة، أونا دون يأتي؟».

«أجل، أوه، لا البروفّيسور أرسل نحن نأتي».

صافحهما. صافحا صديقه.

سألهما: «ماذا هو يريد؟».

ردّ أحد الرّجلين قائلًا: «نخالة قمح. نصف كيس. أيضًا، هي قال ضع طاسة هريس زيادة».

وضع إصبعه فوق شفتيه وقلّب نظره في أرجاء المحلّ ثمّ قال: «نخالة قمح، أه، نخالة قمح. لم نحن نجلب ثانية. مهلًا، انتظر».

دفع باب الغرفة الأخرى، مخزن صغير عطن من رائحة أكياس العلف المخزّنة فيه. مسح بناظريه الأكياس التي كانت ممتلئة بالذّرة فوق الرّفوف الخشبيّة، وشوالات حبوب الدّخن التي كانت مكدّسة فوق بعضها البعض. ثمّ خرج وقال: «لا يوجد. نفدت».

فردّ أحد الرّجلين: «أه!».

عندئذ استدرك مُضيفي قائلًا: «لكن الهريس لدينا. ألا يريد هو هريس؟».

فقال الرّجل: «لا، نحن ذهب نحضر. أوكيه، أعط نحن فقط هريس».

وبعد تشاوره همسًا مع زميله قال: «مثقالان».

فهتف مُضيفي من غرفة المخزن قائلًا: «أوكيه أيّها السّيّد».

رجع من المخزن بطاسة معدنيّة وكيس بلاستيكيّ أسود. غرف مكيالين من الهريس ووضعهما في الكيس. ثمّ أتبعها بطاسة أخرى. وعندئذ، نظر إلى الرّجلين، وغرف حفنة بيديه ووضعها في الكيس. وقال: «وهذا زيادة».

فردّ الرّجلان: «أنت أحسنت صنعًا».

صافحهما وشكرهما.

«**غاغان أَوغو**»، بعد أن سدّد الرّجلان ثمن العلف وتركا المحلّ، عاد مُضيفي إلى الجّلوس مع جامايك وطلب منه إكمال ما كان يقوله. فأغلق جامايك الإنجيل الضّخم الذي انهمك في مطالعته أثناء انشغال صاحبه ووضعه فوق مكبّر الصّوت الموضوع فوق الأرض رأسًا على عقب. ثمّ وضع مرفقيه فوق فخذيه وأكمل حديثه.

«كنت أقول إنّها لو قرأت رسالتك بالفعل، فلا بدّ من أنّها تعلم الآن كلّ ما جرى لك».

رغم أنّ جامايك تكلّم من دون اللّجوء إلى فنّ الخطابة لدى الآباء، إلّا أنّ كلامه حمل قدرة لسانهم على التّنويم المغناطيسيّ. إذ إنّ مُضيفي استقبل كلامه على نحو ما تستحوذ حكاية قديمة ببطء على ذهن السّامع، مثل اشتعال الجّمر من الفحم الخامد. فيما بعد، ذهب جامايك للقيام ببعض الأنشطة التّبشيريّة، حاملًا إنجيله ومكبّر الصّوت، وبقي هو جالسًا لهضم الأمور التي قالها جامايك له، محاولًا إفساح المجال لها كي تخفّف وجع روحه. استردّ كلّ الثّقة التي فقدها. ذهب إلى «مستر بيغز»، المطعم الذي عرّفته عليه، ثمّ تناول وجبة طعام. جلس في الزّاوية القصيّة من المطعم، حيث جلس معها، لكنّ جلوسه الآن كان فوق كرسيّ وطاولة جديدَين. ثمّ ذهب إلى محلّ لبيع

الأجهزة الكهربائيّة في نهاية الشّارع واشترى جهاز تلفاز مستعمل. كان يُعدّ نفسه للوقت الذي سيأتي في نهاية المطاف وسيبدآن فيه بالالتقاء ثانية، حينذاك لن تتهكّم عليه لعدم اقتناء تلفاز.

منذ ذلك اليوم فصاعدًا، سيسعى مُضيفي وراء دفع جامايك للحديث عن ندالي، لكنّ صديقه سيعرض عن ذلك. كان جامايك مقتنعًا بأنّها إمّا ستّتصل برقم الهاتف الملحق في ذيل الرّسالة، أو سترسل رسالة إلى العنوان المكتوب فوق المغلّف. مُضيفي، أيضًا، صدّق هذا. لكنّ الأمر استولى تمامًا على تفكيره. كان ذهنه لا يتوقّف عن السّعي بين هذين السّؤالين، بين ما الذي كانت ستفعله وما الذي لن تفعله. كان يتوق أحيانًا إلى الانعتاق من براثن هذه الأسئلة ولو لحظة، إلى التّفكير في التّدافع خلال مسيرة عيد الصّعود، أو الأنشطة المرتقبة لـ«حركة إقامة دولة بيافرا ذات السّيادة» التي أخبره عنها إلوتشوكو، والذي لم يعد على صلة وثيقة به الآن، والتي من الممكن أن تؤدّي إلى اندلاع أعمال الشّغب والفوضى في المدينة. كان ذهنه يأبى التّفكير في كلّ هذه الأمور، ويتخيّل، عوض ذلك، أنّ ندالي قرأت رسالته وأنّها تودّ لقاءه، أو أنّها قرأت الرّسالة ولم تصدّق كلمة منها. ربّما تصوّرت ببساطة أنّ حصول كلّ تلك الأمور كان في عداد المستحيل؛ ربّما ظنّت بأنّه اختلق كلّ ذلك. أو ربّما قرأت جزءًا منها ثمّ مزّقتها، ولم تطّلع أبدًا على بقيّتها. أو ربّما لم تقرأها على الإطلاق. ربّما مزّقتها، ولمّا رآها مَنْ نقلها لها عبر واجهة الصّيدليّة كانت تقرأ شيئًا آخر لكنّه ظنّه الرّسالة. حقًّا، لنفترض بأنّها قرأت الرّسالة وصدّقت كلّ ما جاء فيها، لكن ألم يكن الوقت قد فات الآن. إنّها امرأة متزوّجة الآن، لا يمكن أن تنفصل عن ذلك الرّجل. لقد أصبحا واحدًا، ولا يمكن أن يفرّق بينهما شيء ولو قُطّعا إربًا. لا يمكن لأيّ شيء. هذا الرّجل شاطرها الفراش لسنوات، كلّ يوم، مدّة أطول بكثير من الوقت الذي قضياه معًا. فات الأوان كثيرًا، فات الأوان، فات الأوان.

هذه الظّنون، هذه المخاوف أتلفت ذهنه حتّى بات سقيمًا من شدّة التّفكير فيما قد تكون فعلته بالرّسالة. في اللّيلة الرّابعة، بعد حديث جامايك الطّويل، نال منه المرض والوهن ولم ينهض من السّرير. هطول الأمطار لم يساعده أيضًا؛ ظلّ المطر يتساقط بشدّة ويقرع سطح شقّته بلا هوادة، فأبقاه مستيقظًا إلى الفجر. علا هدير الرّعد بضع مرّات، فهرعتُ إلى الخارج كي أراه. كان من النّوع الفتيّ، نوع استخدمه «آمانديوها» كسلاح. في أعقابه، لطم البرق وجه الأفق، متجسّدًا على هيئة أغصان رقيقة لأشجار ذات وميض فسفوريّ. بحلول الصّباح، كانت كمّيّات المطر قد أصبحت مهولة للغاية، حتّى بدا وكأنّ ثمّة حركة ما في اليابسة، كما لو أنّ العالم كان بكلّ ما فيه قد أصبح مختزَلًا داخل فُلكٍ -الإنس، والوحش، والطّير، والشّجر، والأبنية- كلّ شيء تكدّس في تلك السّفينة المبحرة نحو شاطئ ما.

لم يترك البيت طوال النّهار، بل مكث في فراشه وهاجس خسارة ندالي يفعل به الأفاعيل. ما بين التّفكير والتّخيّل، برزت بحدَّة أمور في رأسه. كان ينهض ويمشي في أرجاء غرفته. يحدّق إلى نفسه، وجهه، فمه، عبر المرآة. كان يدأب على استعادة تفاصيل ذكرى محدّدة خاصّة بندالي، باتت ضبابيّة الآن، شاحبة بفعل الزّمن. وعندئذ، يفكّر في الرّجل الجّديد في الوضع نفسه. وكان هذا يقتله. كانت صورة عنف مشتهى تثبُ من مخيّلته مثل وحش مزمجر داخل رأسه الملتهب بالضّغينة والمرارة.

«أُوزه بروَّه»، لم يكن لديّ ما أقوله له في ذلك الوقت. خلال السّنوات التي سبقت رؤيته لها ثانية، كنت أقول له دومًا إنّ عليه التحلّي بالإيمان والإصرار مثل الرّجل الأبيض في قديم الزّمان، «أوديسيوس»، بطل الحكاية التي أحبّها في صغره. في تلك الحكاية، كان هذا الرّجل قد مُنع من العودة إلى زوجته من قِبل إله غاضب. كنت سأظلّ أردّد هذه

القصّة عليه، لو أنّ هذا الرّجل لم يلتئم شمله بزوجته في نهاية المطاف. لكن لم أستطع تذكيره بهذه الحكاية لأنّ حبيبته كانت قد استسلمت لرجل آخر. خفت من أنّ تذكيره بها الآن سيغمره بإحساس من الفشل. لم أعرف بتاتًا كيف أمدّ له يد المساعدة. كنت أعرف أنّ تثبيطه عن حبّ هذه المرأة لن يكون إلّا محاولة عقيمة، سيّما وأنّني لا أستطيع فعل أيّ شيء أكثر من الإيحاء. علاوة على هذا، ثمّة ما طرأ على ما يشعر به الآن. لم يكن شعوره مقتصرًا على الحبّ فقط، ولم يكن مقتصرًا على الرّغبة في استردادها فقط، بل كان هناك أيضًا ما حمله صدودها عنه على الشّعور به، بأنّ معاناته كانت عقيمة. كان يريد منها اعترافًا وتقديرًا. تقديم تنازل تجاهه، تجاه الرّجل الذي تحطّم لأجلها.

كانت عقارب ساعة الحائط الصّغيرة تشير إلى تمام الرّابعة عصرًا. نهض من فراشه، نظّف أسنانه، وبصق في المصرف. عرف أنّ أحد جيرانه موجود في الحمّام المشترك، فقد وصله صوت سكب الماء، ورأى رغوة الصّابون متدفّقة في المصرف المكشوف. مضغ بقايا الخبز الذي اشتراه بالأمس، منهيًا إيّاه في لقمتين. ثمّ ارتدى ثيابه وخرج.

رأى أنّ ماء المطر شكّل مضيقًا مائيًّا في الخارج. «إيبونو»، رغم أنّي منذ أيّام حبس مُضيفي قلّصت من وتيرة خروجي من جسده إلى حدّ بعيد، إلّا أنّي في تلك اللّيلة خرجت لرؤية المطر مثلما فعلت مع الرّعد، كي أغتسل تحته أثناء استغراق مُضيفي في النّوم. قضيت معظم اللّيلة هناك، برفقة ألف من الأرواح المتعدّدة الأصناف والأشكال، مستنشقين رائحة «بنمو» السّماويّة. كنت متأكّدًا من أنّه بسبب العاصفة، لن ينصرف أيّ روح إلى البحث في الأرجاء عن أجساد لاحتلالها أو لإيذائها. والآن، بخروج مُضيفي من شقّته، سنحت لي فرصة مشاهدة ما خلّفه المطر وراءه. كانت الأرض التّرابيّة قد أصبحت مثل العجين، فخلّف حذاؤه أثناء سيره آثارًا غائرة فوق وجهها. البيت المقابل للشّقق

السّكنيّة التي كان يعيش فيها مُضيفي، والمصنوع من التّراب المخلوط بالقشّ، وقف الآن على نحو متداعٍ فوق رفّ من الوحل والطّين.

وصل إلى جوار الصّيدليّة، ووجهه مختف خلف نظّارة شمسيّة، وطيّات سرواله المثنيّ ملطّخة بالوحل. على الجّانب الآخر، قبالة متجر الأحذية الكبير، أبصر إلوتشوكو ومجموعة من الرّجال، كان معظمهم في فانيلّات سوداء ويرفعون رايات «بيافرا» أثناء سيرهم صوب الطّرف الآخر من الشّارع. جماعة «حركة إقامة دولة بيافرا ذات السّيادة». لم يكونوا في مظاهرة احتجاجيّة، بل كانوا يسيرون ببساطة، من كان يحمل العصيّ منهم قام بتحويل حركة المرور. أبصر إلوتشوكو بينهم، ورأى أنّ أعمال الشّغب تلك كانت قد استحوذت عليه تمامًا. هزّ مُضيفي رأسه وتابع السّير باتّجاه الصّيدليّة.

لمّا صار على مسافة قصيرة، رأى سيّارة ندالي، سيّارتها التي طالما أتت فيها إلى بيته. حين نظر إلى السّيّارة، إلى الملصق الصّغير فوق الشبّاك الخلفي، فقد شجاعته ثانية وأخذ يسأل نفسه لماذا جاء إلى هنا. ارتبك ولم يدرِ ما عليه أن يقوم به إثر ذلك. قدحت في ذهنه بأنّ عليه الحذر، ذكّرته بكلمات جامايك التي أوصاه فيها بعدم محاولة الالتقاء بها بمفرده: «لا تفعل، تشا تشا، أرجوك، أستحلفك باسم المسيح، ابن الرّبّ. إن كانت متزوّجة وقالت إنّها لا تريدك، فبعد السّعي إلى التماس السّماح منها، اتركها وشأنها».

لكنّه لم يقدر على ذلك. بل إنّه حين حاول أن يحمل نفسه على ذلك، على التخلّي عن الأمر برمّته، كان شيء يجذبه إلى الوراء. تارة، رغبة قاهرة في لمّ الشمل. وتارة أخرى رغبة في إقرارها وتقديرها لمعاناته وتضحيته.

تابع سيره صوب الجّانب الآخر من الشّارع، مارًّا عن صفّ قصير من الباعة المتجوّلين الذين كوّموا فاكهتهم فوق طاولات متهالكة. سار

بجواره صَبيّان في الزّيّ المدرسيّ، انهمكا في الحديث عن خنزير. حقيبة أحدهما كانت مفتوحة، متدلّية عن ظهره. توقّف مُضيفي أمام طاولة «جي أس إم» على بُعد بضعة أمتار ثمّ جلس قبالة البائعة فوق كرسيّ بلاستيكيّ. قال: «أنا أريد مكالمة».

فردّت عليه قائلة: «أوه، ’جي أل أو‘، ’أم تي إن‘، أم ’أيرتيل‘؟».

«إم، ’جي أل أو‘».

ضرب رقم جامايك مستخدمًا الهاتف الذي قدّمته له السّيّدة. ردّ جامايك بصوت مبحوح قائلًا:

«أخي، انتهينا حالًا من الوعظ والإرشاد. هل أغلقت أبواب محلّك وانتهيت من العمل؟».

«أجل، هل بمقدورك أن تأتي؟ هناك أمر أودّ أن أحدّثك عنه».

«أوكيه، سآتي في المساء».

كرّ عائدًا إلى البيت، وفي الطّريق اشترى علبة «غَاري» وكيسًا من البرتقال المقشّر. أثناء انتظار جامايك، راجع الفكرة التي خطرت له أثناء وقوفه قرب سيّارة ندالي. «تشوكو»، سآتي على ذكر تفاصيلها لاحقًا. حاول أن يسبكها في قوالب لفظيّة متعدّدة حتّى توصّل إلى الصّيغة النّهائيّة التي ظنّ بأنّها كانت مُحكمة. وهكذا، حين وصل جامايك لم يتلعثم بالحديث. قال: «ستشدّ الرّحال بعد يومين لأجل هذه الصّلاة الطّويلة، ولن أراك طوال... كم يومًا؟».

«طوال أربعين يومًا وأربعين ليلة. هذا هو عدد الأيّام التي قضاها السّيّد المسيح في الصّيام والصّلاة».

فقال مُضيفي بمرارة: «أوكيه، أربعون يومًا».

نقّل بصره في أرجاء الغرفة، منقّبًا عن آثار العذاب الذي أرّقه خلال اليومين الماضيين. ودّ أن يخبر جامايك عنه لكنّه قرّر عدم فعل ذلك.

وعندئذ قال جامايك: «أخبرني، أخي سلومون، بأيّ شيء تريده، وسأقوم بفعله. فأنت تعلم بأنّي صديقك».

«دالو».

اعتدل في قعدته فوق السّرير ليقابل جامايك الذي كان جالسًا على الكرسيّ الخشبيّ الوحيد في الغرفة. وبعدئذ قال: «أريد أن نتبوّل معًا كي نتمكّن من توليد رغوة تفوق ما يولّده تبوّل الواحد منّا على انفراد».

ردّ صديقه قائلًا: «أوكيه، يا أخي».

بالفعل، «إجانغو إجانغو»، لم يكن من الشّائع جدًّا بين أطفال الآباء الأوّلين، الآن وقد باتوا يستخدمون طرائق الرّجل الأبيض في تحقيق مصالحهم عوض أن يحاولوا محاربتها، اللّجوء إلى فصاحة وبلاغة الآباء الحكماء العظماء في أحاديثهم. لكنّ هذا كان يرد على لسان مُضيفي كلّما هَمَّ بقول شيء نابع من تأمّل داخليّ عميق. قال لصديقه: «أعرف أنّك تغيّرت تمامًا، وأنّك رجل صالح لأنّك ولدت من جديد، أُنيه إزي أُمومي. أنت تعتقد بأنّ عليّ ترك ندالي وشأنها رغم معاناتي لأجلها، لأنّها متزوّجة».

أومأ جامايك برأسه موافقًا على كلّ كلمة. فتابع مُضيفي كلامه: «استمعت إلى كلّ ما قلته بهذا الصّدد. أنا لن أضايقها، يا نوانم، مع أنّ حبّها في قلبي لم ينقص ولو ذرّة واحدة. ما زال حبّها يملأ قلبي، بل يفور ويفيض ولا سبيل إلى سَدّه. ما أعانيه، جرّاء علمي برفضها لي وصدودها عنّي، أمر أبشع من أيّ شيء عانيته من قبل».

توقّف عن الكلام لأنّ بصره وقع على صرصور حطّ فوق المرآة المعلّقة على الحائط. راقبه وقد فرد جناحيه ثمّ طار وهبط وراء الكرسيّ. ثمّ استأنف كلامه: «هذا أبشع من أيّ شيء آخر يا أخي، إنّني أعني حقًّا ما أقوله. إنّه سجن لا لنفسي، بل لقلبي. قلبي سجين، محبوس، موصد عليه من قِبَلها».

انتقل إلى طرف السّرير واتّكأ على الحائط. ثمّ أكمل: «يا رجل الرّبّ، لا أريد أن أحبّها. لا أريد ذلك بعد الآن. بعد أن بصقَت على الرّجل الذي باع كلّ ما لديه حتّى يتمكّن من الزّواج بها. لا يمكنني أن أسامحها على فعل ذلك. لا، لا أستطيع».

حتّى أثناء كلامه، كان يعلم أنّ ما يريده أكثر من أيّ شيء آخر، رغم شعوره الشّديد بالمرارة، هو استرداد ندالي، وقضاء تلك اللّيالي معها ثانية. رمق جامايك الذي لم يكفّ عن هزّ رأسه ثمّ تابع: «على الأقلّ، يا جامايك، أريد أن أعرف ما حصل معها. أريد أن أعرف متى قرّرت أن تتركني وأن تتزوّج من غيري. أتفهم ما أعنيه؟ بعت كلّ ما أملك، وسافرت لأجلها، أريد أن أعرف ما فعلته هي لأجلي. أريد أن أعرف لماذا، ما الذي حمل الفأر على الخروج من جحره والرّكض إلى الشّارع في وضح النّهار».

تمتم جامايك بنبرة مطابقة لنبرة مُضيفي: «بلى، فهمت. ما تقوله حكيم للغاية».

قال مرّة أخرى: «أريد أن أعرف ما حصل معها».

ثمّ أردف بنبرة موجعة: «أردت أن أكتب لها، لكن لم أستطع في السّجن أن أعثر على مَنْ يساعدني في إرسال الرّسالة عبر البريد».

«تشوكو»، كان هذا صحيحًا. وما سبّبه من إحباط لمُضيفي دفعني إلى محاولة الوصول إلى ندالي بنفسي، عبر القيام بفعل «نُكوه إكيلي» الاستثنائيّ الذي قصدت منه أن أظهر في منامها وأبلغها بكلّ ما كان مُضيفي يريد أن يبلغها به. بالفعل، «إيبونو»، مثلما شرحت لك في السّابق، قرينتها الحامية حالت دون حصول هذا. كما رفض كثير من الحرّاس، مثلما شرحت في السّابق، مساعدة مُضيفي في إرسال الرّسالة. أمّا الحارس الوحيد، الذي كان يتكلّم الإنجليزيّة، فقال له لو

كانت الرّسالة موجّهة إلى عنوان في قبرص، لتمكّن من مساعدته، أمّا إلى نيجيريا، فلن يستطيع بسبب الكلفة.

رفع ناظريه إلى صديقه وثمّة رعب في عينيه. ثمّ تابع قائلًا: «أريد أن أعرف إن كانت بذلت أيّ مجهود لأجلي خلال تلك الأوقات».

تنحنح جامايك كي يتكلّم، لكنّ مُضيفي واصل الحديث: «أريد منك أن تساعدني. بل يجب أن تساعدني. أرأيت ما سبّبته لي من أذى، أرأيت؟».

أومأ الآخر وقد اعترت وجهه إمارات الخزي. فتابع مُضيفي قائلًا: «لذا، يجب أن تساعدني يا جامايك. يجب أن تذهب إلى زوجها بصفتك رجل دين من أهل الخير، وأن تقول له إنّك رأيت رؤيا متعلّقة به. كلّمه كما لو كنت تعرف الكثير عن شؤون حياته. قل له، مثلًا، إنّك تعرف زوجته. قل له إنّك رأيت في الرّؤيا شخصًا، رجلًا من حياتها الماضية، كان يلاحقها، وإنّه سوف يدمّر العائلة ما لم يقم بالصّلاة».

نظر إلى صديقه، الذي كان يحتضن رأسه بين كفّيه ويحدّق إليه بعينيه، ثمّ أكمل: «أفهمتَ مُرادي؟ قل للرّجل إنّك تريد معرفة إن كانت قد أخبرته من قبل عن رجل من حياتها الماضية».

قال جامايك وقد بدا عليه الخضوع والإذعان بسبب شعوره بالذّنب: «ماذا لو أنّها أخبرت زوجها عن الرّسالة وبأنّك موجود هنا؟».

«أجل؟ لكنّه لن يعرف، ينبغي ألّا يعرف بأنّك آتٍ من طرفي. تجنّب الحديث عنّي بشكل مباشر، قل إنّك رأيت دمارًا، إنّ الرّبّ أراك نواحًا وعويلًا وقع بسبب هذا الرّجل».

توقّف الآن في الغرفة المعتمة عن الحديث كي يُقلّب في ذهنه الكلمات التي قالها، ولمّا فعل، صُعق من فداحتها. «إيبونو»، أرجوك أن تنصت جيّدًا لما سيقوله مُضيفي، لأنّ كلماته بالغة الأهمّيّة بالنّسبة لشهادتي في هذه اللّيلة، فهي دليل قاطع على أنّه لم يرتكب أيّ أذى

بحقّها عن عمد وقصد. هذا ما قاله: «لا أقول إنّني سأؤذيها، لا. فما أكنّه لها من حبّ عظيم يمنعني من ذلك، لكنّي، مع ذلك، أشعر بالغضب، بغضب شديد نحوها. أشعر بخليط عجيب ومحيّر من المشاعر. حبّ عميق يفوق الوصف. لكن لا، سأقتل أيّ رجل يمسّها بيده حتّى ولو كان زوجها».

أومأ جامايك برأسه، وعلامات عدم الارتياح بادية فوق سحنته، ثمّ تململ في كرسيّه وقال: «سأفعل. إذا قلت إنّ عليّ فعل ذلك، فسأفعله يا أخي. لكن هذا فيه إثم ومعصية. لا تستطيع أن تدّعي بأنّ الرّبّ قال شيئًا وهو لم يفعل ذلك». هزّ جامايك رأسه وتابع: «لا أستطيع اقتراف أمر كهذا يا صديقي لأنّه كذب. بل سأقول للرّجل إنّي أريد أن أدعو له، دعاء خاصًّا عندما أتوجّه إلى الجّبل، وأريد معرفة كلّ شيء عن علاقته بزوجته كي أتمكّن من الدّعاء على أيّ شيء في حياتهما السّابقة يحاول تدمير مستقبلهما».

لم يعرف كيف يردّ، فالتزم الصّمت ومراقبة صديقه. أكمل الأخير كلامه قائلًا: «أريدك أن تستردّ سويّتك يا أخي سولومن. إنّني تسبّبت في حصول كلّ هذا لك، وعليّ أن أقوم بإصلاح الأمر ثانية. وإن كان فعل ما تطلبه الآن سيساعدني في تحقيق ذلك، فإنّني سوف أذهب. مثلما ذكرت لك سابقًا، أخبرَني شخص يعملٍ قرب الصّيدليّة أنّ زوجها يعمل في مصرف 'آفري بانك' في ميدان 'أكبارا'. سوف أذهب إلى هناك وأطلب مقابلته، أُغبونا إنوكا».

أومأ مُضيفي برأسه وتنفّس الصّعداء.

لاحقًا، بعد أن أوصل جامايك إلى بيته بالسّيّارة، هدأت نفسه، وبدا لي أنّ ترقّبه لمعرفة قصّتها قد خفّف عنه وساعده على التّعافي. نام جيّدًا في تلك اللّيلة ثمّ قام مبكرًا وتوجّه إلى محلّه. أخبره جيرانه بأنّ كثيرًا من الأشخاص كانوا قد جاؤوا وسألوا عنه. هاتف بعض الزّبائن وقضى

ردحًا من الصّباح في نقل أكياس العلف لهم. عند طلوع الشّمس بعد هطول المطر في الصّباح، رجع إلى المحلّ مع سيّارة «بيك أب» تابعة لشركة توزيع الأعلاف الكبرى «أغبام وأبناؤه للعلف». خلال تفريغ الحمولة ونقلها إلى داخل محلّه، اتّصل به جامايك. استقبل المكالمة بيدين مرتجفتين.

قال جامايك: «تحدّثت معه يا أخي. لا أدري، لكن أعتقد بأنّني تمكّنت من إقناعه. ذهبت إلى هناك برفقة الأخت ستيلا، وعلّقت على صدر معطفي بطاقتي التّعريفيّة التّابعة للكنيسة».

«فهمت».

«أودّ أن أراك كي أحدّثك بما جرى. وكي أودّعك أيضًا، لأنّني لن أراك إلّا بعد عودتنا من الجّبل».

«أجل، أجل، عليك أن تأتي».

«في المساء إذًا».

«ولماذا ليس الآن؟».

«سآتي إليك يا أخي. سآتي في المساء».

«أوزه بروَّه»، إن أرسل رجل في طلب حكيم، وإن كان هذا الرّجل مريضًا، وقيل له إنّ الحكيم في الطّريق، فإنّه يبدأ في عدّ خطوات الحكيم المتّجهة إليه. كنت قد تحدّثت عمّا يصنعه التّرقّب بالرّجل، وكنت قد رأيت هذا مرّات ومرّات. لم يطِقْ مُضيفي انتظار وصول جامايك في ذلك المساء.

شرع جامايك في الحديث قائلًا: «لمّا ذهبت إلى مكتبه، كنت خائفًا. إذ كذبت أيضًا على أختي في المسيح، ستيلا. اقترفت إثمًا».

«نعم، نعم، أقدّر ذلك».

«لكنّي فعلت ذلك لأجلك يا أخي سولومن. على أيّ حال، لمّا

دخلت المكتب، وجدت الرّجل وسيمًا. قامته طويلة وشعره أجعد. أُغبونا إفرايم إِنوكا. إفرايم هو اسمه الذي عُمِّد به. قال إنّ جدّه كان شقيق الأب تازي. لذا، قمنا أنا والأخت ستيلا التي كانت جالسة معنا بالدّعاء له. ثمّ سألته إن كان يؤمن بالنّبوءات. فردّ قائلًا كالتالي: 'بلى، ولم لا؟ ألستُ مسيحيًّا؟ ألم يقل الإنجيل العار على من يقولون إنّهم أتقياء لكنّهم يجحَدون بقوّة التّقوى والإيمان؟' وهنا صحّحت له ما قاله، وهو آية في الرّسالة الثّانية إلى تيموثاوس تقول: '**لهم صورة التّقوى، ولكنّهم منكرون قوّتها. فأعرض عن هؤلاء**'. فقال بلسان الإيبو: 'أوه، هو كذلك'. ثمّ رجع إلى التّحدّث بالإنجليزيّة وقال: 'إنّني مؤمن بقوّة الرّبّ'. فقلت: 'يسعدني سماع ذلك أيّها السّيّد. سأخبرك إذًا. كنت أصليّ وأنا في الرّوح القدس لدى مروري بالأمس من أمام هذا المصرف، فقال لي الرّبّ، ثمّة رجل يُدعى أُغبونا هنا وزوجته في خطر، في خطر داهم. ثمّة عدوّ ظهر على عتبة دارهم وهو يطرق الباب'. عندئذ سألني الرّجل: 'قال الرّبّ إنّ اسم الرّجل هو أُغبونا؟'. فقلت: 'أجل، أجل. أعطاني الأب اسمك الأوّل فقط'. فقال: 'أوكيه'. فقلت: 'هل هناك أُغبونا آخر هنا؟'. فأجاب: 'لا، أنا فقط، على حدّ علمي'. فقلت: 'إنّ روحي تؤكّد لي هذا الآن لدى جلوسنا هنا. إنّني أسمع الأيّام من قديم الزّمان، أسمع الأسد الذي من سبط يهوذا[1]، أسمع الأصوات تقول هذا هو الرّجل. ثمّة لهب قديم جاء إلى زوجتك وهو قادر على تدمير زواجك'. فرقع الرّجل بإصبعيه وقال: 'لا سمح الرّبّ ولا قدّر! أيّها المسيح! أيّها الرّبّ نجّنا من كلّ سوء'. فقلت: 'أجل، أيّها الأخ. لذا، هل بوسعك أن تخبرني، هل هناك أيّ رجل أقدمت زوجتك على الإساءة إليه؟ أيّ أحد؟'. عندئذ لاحظت

(1) المقصود هنا هو المسيح.

التشوّش الذي اعتراه، كان واضحًا من وجهه. فكّر للحظة ثمّ قال: 'لا، لا أحد'. فقلت: 'هل هناك أيّ رجل يقوم بملاحقتها؟'. فقال: 'لا، لا أعتقد. فهي امرأة متزوّجة ولديها ابن'».

هنا قال جامايك معلّقًا: «عند هذه النّقطة يا أخي، ساورني القلق من أنّ هذا الرّجل لم يكن يعرف أيّ شيء عنك. لذا، سألته ثانية: 'سيّد أُغبونا، هل هناك أيّ رجل كانت زوجتك قد أخبرتك بأيّ شيء عنه؟'. عندئذ نظر إليَّ وقد تغيّرت سحنته ثمّ قال: 'أجل، بسبب الرّبّ، بسبب الرّبّ فقط سأنطق وأقول، لأنّ هذا الأمر سرّ'. فقلت: 'لا عليك، قله لعبد الرّبّ وخادمه'. فقال: 'كادت في الماضي أن تتزوّج من رجل تركها ورحل إلى الخارج. وكان هذا الرّجل هو الشّخص الثّاني في حياتها الذي أقدم على الإساءة إليها بهذه الطّريقة'. فسألته: 'اختفى هذا الرّجل إذًا؟'. فردّ قائلًا: 'أجل، لم يصل منه أيّ خبر لأيّ أحد بعد ذلك. هذا كلّ ما أعرفه بهذا الصّدد'. هممت بالحديث، لكنّ الأخت ستيلا قالت: 'إذًا، لم تره ثانية قطّ؟'. فقال الرّجل: 'هذا كلّ ما أعرفه يا رجل الرّبّ'».

اختتم جامايك حديثه حول ما جرى قائلًا: «عند هذه النّقطة يا أخي، كنت خائفًا من أنّني لو ضغطت عليه أكثر، فلربّما أثرت شكوكه. لذا، قلت علينا بالدّعاء؛ بأنّني سأذهب إلى الجّبل وأدعو، وبأنّ عليه أن يتحدّث مع زوجته كي يرى إن كان هناك رجل يلاحقها».

فقال مُضيفي: «آي. أوه، أوه جامايك. هذا غير كافٍ».

فاعترض جامايك قائلًا: «لكن»...

فقاطعه مُضيفي قائلًا: «ماذا لو قام بسؤالها أثناء غيابك؟ وماذا لو»...

توقّف عن الكلام لمّا سمع صوت درّاجته، كان قد أعارها لأحد جيرانه، ملأ ضجيجها المكان قبل أن يطفئها ويركنها أمام البيت.

مصابيحها الأماميّة أطلقت شعاعَين ضوئيَّيْن عبر السّتائر وأضاءت الغرفة، فانسكب خيالهما فوق الحائط كما لو كانا قد رُسما بحبر أسود كثيف. عند إطفاء المحرّك وتبدّد الضّوء، تابع ما كان يقوله: «ماذا سيحصل إن سألها أثناء غيابك؟».

لطم جامايك بعوضة قرصته في رجله وقال: «لا أظنّ أنّها ستقول له أيّ شيء. أعتقد أنّها لا تريد فعل شيء كهذا».

فكرّر مُضيفي سؤاله ثانية: «أجل، ولكن ماذا لو قرّرت أن تخبره بعد أن تكلّم معه رجل من رجال الرّبّ بخصوص هذا الشّأن؟».

قَلّب جامايك هذا في ذهنه بشكل خاطف ثمّ قال: «عندئذ سأعرف ما لديها. سأعرف ما لديها بعد أن أعود. أليس كلّ ما تريده فقط هو معرفة تفاصيل ما فعلته بشأن ذهابك وغيابك؟ لن تفعل أيّ شيء حيال معرفة تلك التّفاصيل، كلّ ما تريده هو أن تعرف فقط».

وافقه مُضيفي على ذلك. فتابع قائلًا: «إذًا سآتيك بالتّفاصيل بعد أن أعود. لا تقلق يا أخي».

عندما خرجا، كي يمرّ جامايك على الكنيسة قبل الذّهاب إلى البيت، كان الظّلام قد خيّم. مرّا بجحافل صاخبة من التّلاميذ الصّغار العائدين من المدرسة، كلّ زمرة منهم قطعت الشّارع معًا. انحنى صبيّ صغير فوق قناة تصريف المياه، ثمّ تقيّأ وأخذ يكحّ، تحلّق حوله أصحابه وعبّروا له عن أسفهم ورثائهم لحاله. توقّف رجل بالغ وطلب من أحدهم إعطاء الصّبيّ المريض بعض الماء. عبّر مُضيفي وصديقه عن أسفهما للصّبيّ. ثمّ وضع جامايك يده فوق رأس الصّبيّ وراح يغمغم بكلام غير مفهوم وكأنّه الهذيان، عمل فهمت بعد زمن بأنّه مظهرٍ عجيب من مظاهر الرّجل الأبيض الدّينيّة وهو كالرقية، «أفا»، في «أدادينالا». لما انتهى جامايك من ذلك، تحوّل إلى الحديث بلغة الرّجل الأبيض وقال: «الحمد لك أيّها الرّبّ، الحمد لك يهوه يرأه،

أيّها الشّافي والمعافي، الحمد لك يهوه شمه، الحمد لك على شفاء هذا الصّبيّ الصّغير».

«**أوكاومي**»، بعد ذلك، رجع مُضيفي إلى شقّته وبحوزته تلك المعلومات التي حصل عليها من جامايك بخصوص ندالي. كان غارقًا في التّفكير أثناء تسخين طنجرة «أرزّ جولوف» التي طهاها في ذلك الصّباح. تجمّعت الحشرات فوق موقد الكاز وقد ارتفعت حرارة الطّنجرة. كان يقوم بإنزال الطّنجرة من فوق الموقد حين عاد التّيّار الكهربائيّ فجأة، ثمّ انقطع من جديد. عاد إلى غرفته وقد حمل طعامه ثمّ شرع في تناوله ببطء، متسائلًا لماذا أخبرت زوجها بأنّه اختفى ببساطة ولم يبلغها منه أيّ شيء على الإطلاق. كيف قالت إنّه اختفى؟ كيف؟ ألم يبلغها دِمجي برسالته؟ طلب منه أن يخبرها، أن يتّصل بها، قبل إصدار الحكم عليه بالضّبط. كما طلب من توبي أن يفعل الأمر نفسه. ألم تسمع قطّ بما حصل له؟ خلص إلى استبعاد ذلك. إذ كان هناك احتمال كبير بأنّها سمعت وعرفت ولكنّها على الأرجح أخفت الأمر عن زوجها. حيّره هذا الأمر إلى حدّ كبير. لماذا أخفت هذا الأمر عن زوجها؟

في مثل هذه الأوقات، على الرّجل أن يتوخّى الحذر، ففي لحظات التّوق إلى إجابة عن سؤال صعب، يعمل الذّهن على التّوصّل إلى أجوبة عديدة. لكن، هناك جزء في الرّجل يمكن له أن يكون غير عقلانيّ، جزء ينحصر وجوده في بثّ الارتياح في نفسه. لذلك، سيحاول هذا الجّزء، في مثل هذا الظّرف، أن يمدّ نفسه باتّجاه ما بمقدوره الوصول إليه، خفْض غصن في الشّجرة، ثمّ التقاطه والتّشبّث به. في المقابل، ما يتوجّب على القرين الحامي فعله هو محاولة التقاط أكثر اقتراح معقول وفتح الطّريق أمامه ليطغى على ما سواه. هكذا، من بين الاحتمالات

العديدة التي خطرت له في ذلك المساء، اخترت الاحتمال القاضي بأنّ الأمر قد يكون ببساطة أنّ ندالي لم تستلم قطّ أيّ رسالة منه، قبل تلك التي أرسلها لها مؤخّرًا. لكنّه اختار احتمالًا مختلفًا، احتمالًا يقضي بقولها إنّ مُضيفي اختفى كي تخدع زوجها، كي تحمله على الاعتقاد بأنّها لم تعد تريد مُضيفي أبدًا، في حين أنّها في الحقيقة ما زالت تحبّه.

24

المنبوذ

«**أَغباتَّه آلومالو**»، ما من شيء يشلّ الرّجل ويقعده كالحبّ من طرف واحد. قالت ندالي له ذات مرّة، إنّها لم تكن لتلقي بنفسها في النّهر على أيّ حال، لكنّ الشّهامة التي أبداها ومحاولاته في إبعادها عن الجّسر كانت في البداية سبب فوزه بقلبها. والآن خطف قلبها منه رجل كان يعمل في مصرف، ولا يعرف أيّ شيء عن التّضحيات التي بذلها لأجلها. وكان هذا الأمر أعظم من قدرته على التّحمّل. أحسّ بهزيمة مريرة في الأيّام التي أعقبت ما توصّل إليه جامايك من معلومات. وفي ظلّ غياب جامايك في الأسبوع اللّاحق، سيطر عليه هوَس مطاردتها. حاول الفكاك منه في البداية، عبر الذّهاب إلى محلّه والتّركيز في عمله، لكن بعد انتهاء العمل وإغلاق المحلّ، كان سينطلق يوميًّا بسيّارته إلى الصّيدليّة ثمّ سيركن في الجّانب المقابل. ومن زاوية مطلّة، وبوجه محجوب خلف نظّارة شمسيّة داكنة، كان سيحدّق إلى الصّيدليّة لمدّة من الوقت.

في بعض الأحيان، كانت أمطار يوليو تشوّش مجال بصره، فيجلس هناك عاجزًا عن رؤية ما يودّ رؤيته. وبعد مراقبة وتفكير طويل، كان سيشعر بأنّ قلبه ثقيل كقطعة من الصّلب، كان سيلمحها إمّا لدى خروجها من الصّيدليّة أو ابتعادها بسيّارتها الزّرقاء. وكانت تلك اللّمحة الخاطفة تساعده على الرّجوع إلى بيته بقسط من الارتياح. كان يراها دائمًا في معطفها الأبيض وما يظهر تحته من قطع الثّياب.

في معظم الأيّام، كانت ثيابها تتألّف من قميص وتنّورة. وأحيانًا، بلوزة من أقمشة «أنكارا». في الأيّام التي كان سيحظى برؤيتها، كان سيعود إلى البيت، محدّثًا نفسه عن كيف كانت تبدو جميلة، كيف بدا شعرها، أو لون أظافرها. ذات مرّة، كانت قد صبغَتها بالأزرق، تمكّن من رؤية أظافرها لدى مرورها قرب سيّارته من دون أن تنتبه لأنّ الرّجل الذي كان بداخلها، بقبّعة ونظّارات شمسيّة، كان مُضيفي. حينذاك، ظلّ واقفًا في مكانه، استحضر في ذهنه، كيف راقبها ذات مرّة وقد جلست فوق المقعد في الفناء وانهمكت في طلي أظافرها بعد أن تركت الغرفة خوفًا عليه من الاختناق من رائحة الطّلاء النفّاذة. وفي إحدى المرّات، فركت أظفرها بإحدى الدّجاجات البيضاء، فتلطّخ الرّيش ببقعة حمراء عصيّة على التّنظيف. أصابها هذا بنوبة شديدة من الضّحك حتّى سالت دموعها فوق وجنتَيْها.

كان سيعود إلى البيت وهو يتوق إلى التّواصل معها. كان سيفكّر في سائر الإمكانيّات ويقلّبها في رأسه. سيلاحظ بأنّه كلّما رآها أكثر، كلّما اشتدّ استحضاره لذكرياتهما الحميمة، واستعر أوار شهوته لها أكثر فأكثر. ما الذي كان سيفعله؟ كانت ستفضحه ثانية لو ذهب إليها وربّما ستكرهه أيضًا. كانت قد قرأت رسالته، رأت كلّ ما واجهه من معاناة، لكنّها لم تبدِ أيّ أسف أو ندم. حينما كانت ستعتريه هذه الأفكار، كان مزاجه سينقلب من الرّغبة إلى السّخط ثمّ إلى النّقمة. كان سيصكّ على أسنانه، وسيدّك الأرض برجليه، وسيرتجف من الغضب. كان سينام بهذا المزاج وسيستيقظ في اليوم اللّاحق وسيستأنف الرّوتين نفسه: الذّهاب إلى محلّه آملًا أن يتوصّل إلى حيلة ما لرؤيتها في المساء، ثمّ الشّعور بخليط من المشاعر المتضاربة لاحقًا.

في أحد تلك الأيّام، تتبّعها لدى ركوبها وانطلاقها في سيّارتها، دفعه الفضول لرؤية ما كانت ستقوم به، إذ كان قد عنّ في باله أنّها ربّما لديها عشيق. ذهبت إلى مدرسة، مدرسة ابتدائيّة خاصّة، حيث كان ابنها

ينتظرها عند البوّابة. راقب ما يجري من شارع جانبيّ، داخل سيّارته المركونة على بُعد مئتي متر. لاحظ أذنَيّ الصّبيّ؛ كيف كان يشبه نداللي في لون البشرة. تبعهما إلى منزلهما، بيت من طابقين منتصب بأبّهة في «شارع المصنع». كان مسوَّرًا وله بوّابة بطول السّور نفسه. ركن بقرب المنزل واستطلع المنطقة المحيطة به، كانت الشّجيرات والأعشاب قد عربدَت فيها. على الجّانب الآخر من الطّريق غير الممهَّد، كان ثمّة محلّ بقالة قبالة ما بدا عيادة صغيرة. وعلى مسافة أمتار من هناك، كانت ثمّة سقيفة تجلس تحتها امرأة وتقلي الموز و«اليام» والبامية. رجع إلى شقّته من دون أن يعرف ما يمكنه فعله بمعلوماته الجّديدة تلك.

بعد انقضاء الأسبوع الأوّل على غياب جامايك، لم يعد في استطاعته أن يحمل نفسه على الذّهاب إلى العمل. فالمرارة التي استولت عليه في اللّيلة المنقضية، لم تبرحه في صباح اليوم التّالي. قضى تلك اللّيلة في البكاء من حرقة ألم صدودها وإعراضها عنه. «إيبونو»، ما كنت أشهده في مُضيفي كان شيئًا عجيبًا مفزعًا. إنّه كيمياء الحبّ المعروفة، شيء مفعَم بالطّاقة والحيويّة وسط حالة من العفن. في ذلك اليوم، أقسم على أنّه سيقوم بمواجهتها لدى خروجها من صيدليّتها. وهكذا، في ذلك اليوم، قرّر أن يترك سيّارته وأن يجلس مع المرأة التي كانت تشرف على كشك هواتف شركة «جي أس إم» في الجّانب المقابل للصّيدليّة. وأثناء عبثه بأحد الهواتف، سألته المرأة إن كان هو الرّجل نفسه الذي يجلس دائمًا في سيّارة مركونة ويراقب منها الصّيدليّة. فأصيب بالفزع وقال: «هل رأيتني؟».

ضحكت المرأة وصفّقت بمرح ثمّ قالت: «بالطّبع. أنت تأتي كلّ يوم، كلّ يوم. كيف لن نراك ولن نلاحظك؟ بل كيف لن يلاحظك حتّى من هم داخل الصّيدليّة؟».

تجمّد في مقعده ثمّ تحوّل بصره إلى الشّارع، إلى راعٍ كان يسوق ماشيته ويضربها بعصاه.

سألته المرأة ثانية: «لم تُجبْ عن سؤالي، لماذا تفعل ذلك؟».

أدرك مُضيفي المنصعق أَنّه لن يتمكّن من الاستمرار في مغامرته تلك بعد الآن. ثمّ سألها بحيرة: «لكنّي أرتدي نظارة شمسيّة دائمًا، كيف تعرّفت عليّ؟».

«لأنّني رأيتك تنزل من السّيّارة نفسها».

ردّ وقد أسقط في يده: «أوكيه، كنت متزوّجًا من الصّيدلانيّة في السّابق».

ثمّ كذب عليها وراح يسرد عليها كيف قام زوجها الرّاهن بخطفها منه عن طريق السّحر ورميها بتعويذة «جوجو» المعروفة. شعرت الفتاة السّاذجة بالأسف عليه، وأثناء محاولة التّخفيف عنه، طبطبت على يده. لم يكن قد أحسّ بشيءٍ تجاه هذه الفتاة إلّا في تلك اللّحظة، حين لامست بشرتها بشرته، فذُهل لأنّه كان منجذبًا إليها. وعندئذ، سارعت إلى استغلال الفرصة السّانحة لإبعاد مُضيفي عن هوَسه المستمرّ والمدمّر بندالي. قدحت في ذهنه فكرة إمكانيّة أن ينال هذه المرأة، وأن تحبّه دائمًا. ولدى انبثاق هذه الفكرة في رأسه، تفحّص المرأة عن كثب. كان مظهرها متواضعًا في العادة؛ ثيابها رخيصة، بشرتها خشنة، ولونها الدّاكن دليل على الفقر والعوز. لكن في ذلك اليوم، كانت مهندمة على خلاف العادة؛ بلوزتها حسنة، تنّورتها قصيرة، وشعرها مسرّح في حلقات.

جلس هناك أثناء انشغالها في تلبية طلبات الزّبائن وراح يطالعها.

قال لها: «أعتقد أنّ عليّ أخذك اليوم إلى بيتي، كي تتمكّني من معرفة الطّريق، وكي نصبح صديقَيْن».

ابتسمت ولم تنظر إليه. تشاغلت بحزم البطاقات ورصّها فوق بعضها البعض. ثمّ قالت: «إنّك حتّى لم تتعرّف عليّ».

«ألا تريدين المجيء، إيه؟ أوكيه، ما اسمك؟».

«لم أقل ذلك. اسمي تْشِدِنما».

«أنا ننسو. هل ستأتي إذًا يا تْشِدِنما؟».

«أوكيه، ولكن بعد انتهائي من العمل».

«أكاتاكا»، مكث هناك إلى أن أغلقت المرأة محلّها، ثمّ حملها في سيّارته إلى بيته، واشترى في طريقه زجاجتي مشروب «مالطا غينيس». لم أترك مُضيفي لأنّني أردت التّأكّد من أنّ الأمر سيسير على ما يرام. ورغم أنّي ساهمت في هندسته، إلّا أنّني كنت أودّ أيضًا استيعاب هذه الظّاهرة الجّديدة: رجل كان قبيل لحظات فقط يكابد الأمرّين لفرط رغبته في امرأة معيّنة، ثمّ ها هو الآن يحترق فجأة وبالحِدّة نفسها قبالة امرأة أخرى. كانت هذه المسألة في منتهى الغموض بالنّسبة لي. باستثناء سؤال المرأة ما إن كان سيستمرّ في ملاحقة «زوجته السّابقة» أم أنّه سيحبّها هي عوض ذلك، وهو ما ردّ عليه قائلًا: «سأحبّك عوض ذلك»، لم تكن هناك ممانعة. أقبل عليها بنهم، حتى كاد أن يمزق ثيابها عنها. مدَّ يدَيه إلى صدريتها والتقم ثديها بلهفة مسعورة. كانت سنوات طويلة قد مرت منذ أن كان قد رأى امرأة عارية، فضلا عن ملامستها. لذا، حين بلغ الموضع بين فخذيها، أصابه الدوار.

في هذه اللحظة، لدى تأكدي من أن غير المتوقَّع سيقع، تركت جسده. لكن ضجيج «بنمو» في تلك الليلة كان عنيفًا جدًا، فاضطررت إلى الرجوع إلى مضيفي على الفور، وكأن وحشًا ضاريًا كان في إثري. لذلك، أرغمت على معاينة كيمياء إيلاج الذكر في الأنثى. عدت وكانت المرأة، في تلك اللحظة الملتهبة، تلحّ عليه لاستخدام واقٍ ذكري. لكنه كان في واد آخر. ردَّدت برجاء: «لا تقذف في الداخل، أوه»، بينما كان يطعن أعماقها بعنف، والسرير يئن ويولول. رأيته وقد أطلق صرخة ثم استدار وأراق ماؤه فوق الأرض.

تمددت المرأة جنبه وتشبثت به، لكنه قابل الحائط بوجهه. وأثناء استرخاء عضلة قلبه وجفاف عرَقه، بدأت مشاعره في التبدّل والتحوّل. عاد بتفكيره إلى الوراء، كيف كان قد جلس إلى طاولة المرأة. ما رآه

الآن، «إيبونو»، كان مختلفًا. مختلفًا! رأى وجه المرأة الطافح بالبثور، وكانت إحداها متقيّحة. فكر في سِنّ المرأة المخلوع، وفي أثر جرح عميق فوق ثديها. فكر في قذارة أظافرها، وكيف نقبت بها القذى من عينيها. فكر في الفرجة المظلمة بين فخذيها وفي حصن فرجها المنيع. أعرض عنها ونأى بجنبه، ثم نهض من السرير وفتح النافذة، رنا ببصره إلى أعلى، واستحضر جسد «ندالي». تذكر يوم ألحَّت محاوِلةً أن تدفع بفمه نحو فرجها وكيف استولت عليه مشاعر القرف.

لمّا استدار نحو الغرفة، كانت المرأة قد غطّت نفسها بملاءة السّرير. طغت عليه مشاعر النّفور. ولسبب لم يقدر، لا هو ولا أنا، على معرفته، أحسّ بأنّه يكرهها. جلس فوق الكرسيّ وأكمل زجاجة الشّراب، التي كان قد احتسى نصف ما فيها.

قال: «هل ستعودين إلى البيت؟».

ردّت وقد اعتدلت جالسة: «إر؟».

نظر إليها. تجلّى قبحها أكثر، فاقشعرَّ ندمًا. سألها: «قلت، هل تريدين قضاء اللّيل والنّوم هنا؟ أودّ معرفة هذا فحسب».

فردَّت وهي على وشك البكاء: «إيه، أتريدني أن أذهب؟».

«لا، لا، إنّني أسأل أن كنت تودّين الذّهاب؟».

هزّت رأسها وفرقعت بإصبعيها ثمّ قالت: «قضيت وطرَك، والآن تطلب منّي الذّهاب إلى البيت؟».

حدّق إليها من دون أن يردّ، متفاجئًا من التّحوّل السّريع الذي ألمّ به تجاهها.

راقبها لدى ارتدائها ملابسها من جديد. داخليًا، أحسّ بأنّه قد انتُهك على نحو عجز عن تفسيره. انتابه خوف ممزوج بالغضب. أغمض عينيه ولم يعرف متى انتهت المرأة من ارتداء ثيابها. صوت الباب انتزعه من شروده. فزّ على قدميه، لكنّها كانت قد خرجت. ركض وراءها وسط الظّلام، حافي القدمين، عاري الصّدر، غرفته مفتوحة، مناديًا: «تشِدِنما،

تشدِنما، مهلًا، مهلًا». لكنّها لم تتمهّل. بل تابعت طريقها وقد أجهشت بالبكاء ولم تردّ عليه.

رجع وجلس في غرفته التي لم يبق فيها سوى رائحة المرأة فقط. انتابته الحيرة إزاء مشاعره المتضاربة، هل هو يشعر بالنّدم على معاملته القاسية لهذه المرأة، أم أنّه يشعر بالغضب إزاء إحساسه الغامض بالانتهاك؟ انتظر انقضاء ساعة، ثمّ اتّصل بالمرأة، لكنّها لم تردّ. أرسل لها رسالة نصّيّة أعرب فيها عن أسفه. فردّت عليه بالنصّ التّالي: «أبد، أبد في حياتك تأتي إلى محلّي ثانية! أبد في حياتك!! فليعاقبك الرّبّ». انتفض في مقعده وقد حطّ خاطر عنيف في ذهنه، محمولًا فوق جناحَيّ الاحتقار الأسودين. شطب رقم المرأة من هاتفه، وقطع دابر الأمر. في تلك اللّيلة، خلال نومه، اقتحم روحان شريدان البيت أثناء عراك بينهما. دلفا عبر الحائط، من دون انتباه لأنهما انتهكا حدًّا بشريًّا فاصلًا. «تشوكو»، لا بدّ أن أنوّه إلى أنّ هذه الحوادث تحصل باستمرار، لكنّ معظمها لا يستحقّ الاستحضار. أمّا هذه الحادثة بالتّحديد، فإنّها حرّكت مشاعري، لما لها من صلة بوضع مُضيفي.

كان أحد الرّوحين قرينًا حاميًا لرجل اختطف زوجة رجل آخر. أمّا الرّوح الثّاني فكان شبح زوج المرأة السّابق. كان القرين الحامي يقول كم استبدّ به التّعب بعد سنوات من محاولة إبعاد هذا الشّبح. قال: «لمَ لا تذهب وترتاح؟».

ردّ شبح الرّجل الميّت: «كيف يمكن أن أجد سبيلًا إلى الراحة ومُضيفك لم يسرق منّي زوجتي فحسب، بل وحياتي أيضًا؟».

فقال القرين الحامي: «لكن يجب أن ترتاح. اذهب إلى ’آلاندِه تْشِه‘، ثمّ ارجع في دورة حياتيّة أخرى، واسترجع ما كان لك».

فردّ الشّبح: «لا، أريد العدالة الآن. الآن. الآن. قل لمُضيفك ألّا يمسّ نغوزي، وإلّا فإنّي لن أتركه في حاله. سأواصل مطاردته في

أحلامه، سأحاول الاستحواذ عليه، سأحمله على الهلوسة إلى أن تأخذ العدالة مجراها».

ردّ القرين الحامي قائلًا: «حسنًا، إن عدلتَ عن هذا، فإن 'آلا' و'تشوكو' سينفّذان العدالة نيابة عنك. لكن أن تأخذ على عاتقك التّصدّي لهذا»...

استمرّ النّقاش بينهما وقد أشرت لهما بيدي كي يخرجا من البيت، فعمدا، وقد ألقيا بالكاد نظرة نحوي ونحو مُضيفي، إلى الرّجوع عبر الحائط إلى الظّلام من جديد. لم أدرِ لماذا شهدت هذا، لعلّك أنت من قيّض لي رؤيته، لعلّه كان إنذارًا منكَ كي أبذل مزيدًا من الجّهد في ثني مُضيفي عن مطاردة الوهم، مطاردة قد تؤول به إلى أن يصبح «أكاليُغولي»، روحًا هائمة متشرّدة، بلا موئل لا في السّماوات ولا في الأرض.

«**إِنشه تاوبي سايك**»، رجع مُضيفي إلى الوضع الذي كان عليه، رجلٍ ذي أفكار متضاربة. كان قد جرى وكأنه عنصر سائل ما ثمّ عاد إلى الاستقرار في الوعاء الذي كان يحتويه. أقلع عن الذّهاب والانتظار قرب صيدليّتها وصرف انتباهه إلى بيتها. بات يركن سيّارته على بُعد أمتار قليلة، ثمّ يسير إلى محلّ البقالة المقابل لمنزلها. صادقَ البائع. راح يشتري منه البسكويت والكولا ويجلس على المقعد الوحيد الذي وضعه الرّجل جنب المحلّ، يأكل ويشرب ويتجاذب أطراف الحديث مع الرّجل الذي كانت إنجليزيّته ممسوخة. من هذا الموقع المشرف على بيتها، وعبر النظّارة الشّمسيّة التي لن تفارق وجهه ولو لمرّة، يروح يراقب أوّلًا وصولها مع الصّبيّ، ثمّ وصول زوجها. في اليوم الثّالث من هذا الرّوتين الجّديد، خطر له أن يستفسر عن العائلة من صاحب المحلّ.

ردّ الرّجل، وكان من «الهَوْسَا» الذين لا يتكلّمون لغة الآباء: «السّيّد أُبونا؟».

«أجل، وزوجته؟».

«أوه، تلك المدام؟ أنا كلّا أعرف عنهم كثير، أوه. هي لا تكلّم أبد، أبد. فقط قليل، مثل هي لا له فم. هيٍ كلّا تأتي هنا كثير».

رمق الرّجل لدى انصرافه إلى حك وسم قبيلته المميّز فوق وجنته، ندبين طويلين. وعندئذ، أقبل رجل بشورت وقميص صوب المحلّ. ألقى الزّبون التّحيّة على مُضيفي قائلًا: «أحسنت، أوه».

فردّ مُضيفي: «أحسنت يا أخي».

سأل الزّبون صاحب المحلّ: «مالام[1]، عندك حليب كاوبيل؟».

«أيّ صنف؟ بودرة في كيس؟».

«بودرة. أريد أربعة أكياس. كم ثمنها يا سيف؟».

«تم تم نيرة. أربع نا أربع نيرة».

بعدما ذهب الزّبون، عاد مُضيفي إلى سؤال الرّجل إن كان يعرف أي شيء عن السّيّد أغبونا وابنه. ردّ الرّجل قائلًا: «أه، نعم، نعم. أنا أعرف هما كثير كثير».

«إيبونو»، ذكرت لك أنّ مُضيفي حاز على هبة الحظّ. صحيح أنّه تعرّض لكثير من الأمور السّيّئة، لكنّ ما كانت «أونيه آوى» التّابعة له قد التقطته من جنّة «تشيوكيكي» لا يمكن الاستهانة بقوّة مفعوله. إذ كيف يمكن أن أفسّر ما تعثّر به هنا بالقول إنّه كان من قبيل الصّدفة المحضة؟ كيف، «إزوه»؟ فكلّ ما فعله مُضيفي كان مجرّد طرح سؤال عن العائلة أتبعه بسؤال منطقيّ آخر: «هما لديهما فقط ذلك الابن؟».

وبناء على هذا السّؤال، ردّ الرّجل قائلًا: «اتنين ولدين؟ لا، ولد واحدة فقط. تْشِنُمسو، واحد ولد فقط».

---

(1) كلمة في لغة الهوسا مشتقّة من كلمة «مُعلّم» العربية. كانت تستخدم في السّابق لتمييز الرّجل صاحب العلم بالعربية والعلوم الدّينيّة الإسلاميّة. تستخدم اليوم في نيجيريا لمخاطبة الهوسا المسلمين من أبناء الشّمال النيجيري من باب الاحترام.

«أُبا سيدي نلو»، فزّ مُضيفي واقفًا، إذ إنّه لم يكن قد ذكر اسمه للرّجل. ثمّ سأل الرّجل بدهشة عظيمة: «إر، ماذا؟».

فردّ الرّجل مستغربًا من ردّة فعل مُضيفي: «الابن، الولد، قلت اسمه تْشِنُمسو».

تجمّد في مكانه، عاجزًا عن تحريك قدميه. حدّق إلى الرّجل، ثمّ إلى المنزل، ثمّ عاد إلى التّحديق إلى الرّجل.

«أوغا، ماذا حدث؟».

هزّ رأسه وقال: «لا شيء».

عندئذ تابع الرّجل الحديث عن أنّ السّيّد أُغبونا عندما يشتري شيئًا يترك الفكّة أحيانًا ولا يأخذها، وكيف أنّه أهداه شاة في عيد الفطر. استمع بذهن شارد. ولمّا نهض وتوجّه إلى سيّارته، أصبح متفطّنًا، كما لو أنّ وعيه قد تجدّد، إلى المعلومات التي حصل عليها للتوّ. كيف يمكن أن تكون قد سمّت ابنها باسمه؟ كيف؟

لم يرهقه التّفكير في أيّ سؤال أكثر من هذا. قعد عاجزًا عن فعل أيّ شيء. كان السّؤال مراوغًا أنهكه ببساطته الخادعة. بدا الجّواب سهلًا، وكأنّه فوق رفّ على رأسه تمامًا. لكن كلّما حاول أن يمدّ يده لتناوله، أدرك أنّه كان بعيد المنال. وهذا أتعبه أكثر من أيّ شيء آخر. لم ينل سوى قسط بسيط من النّوم في تلك اللّيلة، ولمّا استيقظ، خشي أن يفقد عقله من شدّة التّفكير في هذا الأمر. كان جائعًا، محطّمًا، مذعورًا، ممدَّدًا هناك وكأنّه قُطِع أربًا. اتّصل به زبائنه من الجّامعة الزّراعيّة مرّتَين، ثمّ أرسلوا له رسالة نصّيّة قالوا فيها إنّهم لن يشتروا العلف منه بعد الآن لأنّه لم يعد جدّيًا في عمله. كانوا ضمن أربعة من الزّبائن الدّائمين الذين انصرفوا عن التّعامل معه لقلّة ذهابه إلى محلّه. بعد قراءة الرّسالة النصّيّة، جُنّ جنونه. صاح ونهض من الفراش قائلًا: «لماذا أنا خائف منها؟ لماذا، بعد كلّ ما فعلته، بعد كل ما فعلته لأجلها؟ لا، عليها أن تتحدّث معي».

ذرع الغرفة طولًا وعرضًا، مستحضرًا اليوم الذي أنكرت معرفتها به أمام الملأ، وصياحها وبكاءها بأنّها لم تكن تعرفه. قال: «عليها أن تعطيني أجوبة اليوم، اليوم».

كانت نبرته قاطعة فدُهش من كَمّ الجرأة التي تملّكته. ذهب إلى الحمّام المشترك الكائن خلف الشّقّة كي يستحمّ. قبالة الحمّام، كانت زوجة أحد الجّيران، رجل من اليوربا امتاز بصوت أنثويّ، جالسة فوق كرسيّ خشبيّ صغير، منحنية فوق وعاء الغسيل. رغوة الصّابون كانت متناثرة من حولها. كانت المرأة قد لفّت جسدها بقطعة قماش متدلّية على صدرها، ومعقودة تحت إبطها. حيّته المرأة، ولدى مروره، أزعجه قِدر اللّحم المكشوف أمام ناظريه. خطرت في باله امرأة متجر الهواتف، كيف كانت مشاعره قد فاجأته. لدى إغلاقه باب الحمّام، المصنوع من الزّنك، وتكويم ثيابه فوق حافّته، صعق لمّا دار في خلده أنّ تجربته مع تلك المرأة ونفوره العامّ تجاه النّساء الأخريات إنّما سببه هو أنّه ما زال يحبّ ندالي.

رجع ثانية إلى منزلها وركن سيّارته على بعد أمتار قليلة، بعكس الاتّجاه الذي كانت تقبل منه على بيتها. ركن سيّارته تحت شجرة مزدحمة بالعصافير المغرّدة، ومطلّة على بيت كبير علت منه أصوات الصّغار بين الفينة والأخرى. ثمّ انتظر، وعيناه على الطّريق، إلى أن حلّ العصر ورأى سيّارتها مقبلة. كان قد فكّر في الأمر وأعاد التّفكير فيه ثمّ عقد العزم. رصد المكان من قبل، ورأى أنّ حركة السّيّارات كانت قليلة في ذلك الاتّجاه، فنهاية الشّارع كانت مسدودة. لكن إن كانت هناك سيّارة تتبع سيّارتها، ولم يستطع سدّ الطّريق، فإنّه سيترك سيّارته بكلّ بساطة وسيلحقها ويعترضها قبل أن تتمكّن من بلوغ البوّابة والضّغط على بوق السّيّارة كي يفتح البوّاب لها الباب.

«إيبونو»، ما حصل في تلك اللّحظة كان مطابقًا لما رسمه في مخيّلته. حال أن رأى سيّارتها، شغّل سيّارته وهرع إلى الأمام، ثمّ انحرف

ووقف في عرض الطّريق. كادت السّيّارتان أن تتصادما، والصّرخة التي علت في تلك اللّحظة كانت قد أنذرت حتّى ذهنه المشتّت نفسه. مكث جالسًا للحظة كي يلتقط أنفاسه. ثمّ خرج من السّيّارة. رآها، لكنّه لم يرَ الصّبيّ الجّالس في الخلف. أمّا الآن فأبصرهما معًا. استدارت نحو الصّبيّ لتقول له شيئًا ما. مشى إلى أن بلغ مقدّمتَيّ السّيّارتَيْن ثمّ وقف هناك بلا حراك. منذ وقت طويل، على مدى أشهر، ومنذ رجوعه إلى نيجيريا، كان يتوق إلى هذه اللّحظة. أحسّ بارتجاف أوصاله، شيء ما انبثق من صميم فؤاده.

سائق السّيّارة المتوقّفة خلف سيّارته أطلق بوقه ثلاث مرّات ثمّ مرّ متجاوزًا بحنق عن سيّارته. لكنّه لم يحرّك ساكنًا. ثمّ خرجت من سيّارتها. نظرت إليه ونظر إليها. بدت إمارات الحياة في ذلك الوجه، الحياة التي عرفها ذات مرّة. لكنّه، مع ذلك، لم يكن بالوجه الذي من السّهل أن يتعرّف عليه. ثمّة شيء جديد قد طرأ عليه، مع أنّ معظم قسماته كانت مألوفة.

قالت، كما لو كانت تستفسر عن طبيعة كينونته: «أنت؟».

أومأ برأسه وردّ قائلًا: «مامي».

انسحبت إلى الوراء، انحنت وقالت شيئًا للصّبيّ. ثمّ أغلقت الباب ورجعت. قالت: «أنت ثانية؟ ماذا تريد؟».

هزّ رأسه، إذ إنّه يا «إيبونو»، كان خائفًا. قال: «مامي، إنّني آسف على كلّ شيء. إنّني آسف. إنّني آسف. هل قرأتِ رسالتي؟ هل قرأتَ الـ»...

صاحت فيه قائلة: «عذرًا! عذرًا!».

تقهقرت إلى الخلف، وضعت يدها فوق وجهها، ثمّ أشارت بأصابعها المصبوغة إليه وقالت: «لماذا تلاحقني؟ لماذا تأتي إلى صيدليّتي وإلى منزلي؟ ما معنى هذا، إه؟».

«مامي»...

«لا، لا، توقّف! توقّف عن هذا! لا تناديني بهذه الكلمة، أرجوك، أتوسّل إليك».

كان على أهبة أن يردّ عليها، لكنّها التفت إلى الوراء، صوب السّيّارة والصّبيّ. ثمّ استدارت نحوه ثانية، وقالت وقد أغلقت عينيها: «دعني أقل لك، أنا لا أريد أن أراك ثانية أبدًا. ما هذا؟ لماذا تطاردني»...

تقدّم نحوها وقال: «ندالي، اسمعيني»...

«قف! قف هناك!».

تقهقرت بسرعة أثارت الذّعر في نفسه. ثمّ تابعت قولها: «لا تقترب منّي أبدًا. اسمع، استحلفك باسم الرّبّ، دعني وشأني. إنّني امرأة متزوّجة الآن، أوكيه؟ اذهب واعثر على امرأة أخرى، واتركني في حالي. إن جئت إلى بيتي ثانية، فسأعمل على اعتقالك».

ثمّ رآها وقد استدارت ومضت نحو سيّارتها، فلحق بها. ولمّا كان على بُعد سنتمترات منها، استدارت وقابلته من جديد. قال لاهثًا من فرط إسراعه في اللّحاق بها: «ابنك، اسمه على اسمي».

في تلك اللّحظة الحاسمة، حين أصبح مُضيفي والمرأة التي أحبّها على مسافة سنتمترات، بدأت حافلة صغيرة في الاقتراب من الموضع الذي كانت فيه سيّارتاهما في نقطة التقاء واحدة. كانت لحظة غريزيّة، خاطفة، كاللّمحة التي يلقيها القاتل على ضحيّته في الدّقيقة الأخيرة، لكنّها لحظة مفعمة بسموّ وتعالٍ يفوق تقدير البشر. بخطوة واحدة غير مرحّب بها، عبر إلى مجال رؤيتها، علقت رجلاه في أنشوطة لم يتمكّن من تحرير نفسه منها. لاحظ بأنّها كانت تودّ الحديث، لكنّها استدارت، فجأة، ورجعت إلى سيّارتها.

كان سائق الحافلة قد توقّف وشرع هو والرّكّاب في السّباب والشّتم. عاد إلى سيّارته وجرّها إلى الوراء. انطلقت سيّارتها واتّجهت إلى بوّابة منزلها. راقبها وقد ابتلعتها البوّابة، تحت وابل من اللّعنات التي صبّها عليه سائق الحافلة وركّابه الحانقين لدى مرورهم عنه.

«إيبوبديكي»، سأتجنّب الخوض في تفاصيل ما فعله فيما بعد، لأنّ في هذا مشقّة ووجعًا عظيمًا بالنّسبة لي. دمّر هذا اللّقاء مُضيفي تمامًا. الكلمات القليلة التي قالتها ندالي له، حملها في جراب جوفه الواهن وهضمها في موضع اللّقاء، وازنًا كلّ كلمة منها. لكنّه كالشّاة، حوّل تلك الكلمات إلى طعام مجترّ. وفي كلّ ليلة، عندما كانت حياته، التي اكتسبت قلقًا يماثل بندول السّاعة، تجنح نحو السّكون، كان يُخرج الطّعام المجترّ من جوفه ويمضغه بجرعة جديدة من اللّعاب. لكن كان هناك شيء واحد لم يتمكّن من التخلّص منه، شيء لم يكن من الممكن مضغه أو هضمه. فقد كان صلبًا مكتمل التّكوين. كان قد أبصره في عينيها، ومع علمه بأنّ من الممكن لذهنه الإفراط في النّشاط في مثل هذه الحالة، إلّا أنّه كان مقتنعًا بأنّ ما رآه في عينيها كان الازدراء.

يشقّ عليّ وصف ما فعله به هذا الشّعور. ارتمى في البيت طوال أيّام، محاطًا بأصوات ذلك اللّقاء، أصوات كأنّها لأشباح بلا أجساد. لم يتناول من الزّاد غير القليل. كلّم نفسه. ضحك. بكى. خرج في عتمة اللّيل، مشى بوهَن ثمّ هرول عائدًا إلى غرفته ثانية، متجرّعًا مياه المطر المتساقط فوق وجهه.

اعتراني الخوف، «إيبونو»، من أنّه كان ينحدر إلى هاوية الجّنون. فوق هذا، كانت تطارده في نومه أحلام غريبة، كثير منها عن الطّيور -دجاج، بطّ، نسور، وحتّى صقور. كشفت أحلامه هذه عن مدى احتقان ذهنه المريض. أصبح كالمنبوذ، من لفظته الأرض والسّماء. «أَكاليُغولي» على قيد الحياة. اعتراني الخوف لأنّي أعرف أنّ أقوى أصناف الحبّ غالبًا ما تكون في قلب رجل يقابله موضوع حبّه بالنّأي والإعراض، حبّ لا يستطيع الحصول على مراده منه. لكنّ هذا المراد هو ما تتوق روحه إليه وتهفو، وهو الزّنزانة السّامية التي يقبع فؤاده بداخلها. أمّا الطّريقة الوحيدة لإنقاذه، فهي العثور له على حبّ جديد يضاهي الحبّ الأوّل الذي لا يستطيع الحصول على مبتغاه منه. لكن،

لأنّ مثل هذه المرأة لم تكن حاضرة في أيّ مكان قريب، اعتراني الخوف عليه.

انحطاطه إلى هذه الحالة استمرّ لأيّام، «إيبونو»، وذات مساء، أثناء جلوسه وغمغمته لنفسه بأنّها تكرهه، لم ينتبه لرجوع صديقه.

كادت أن تستولي عليه الصّدمة لمّا سمع طرقًا عاليًا فوق الباب، مشفوعًا بالنّداء: «أخي تشننسو، يا ابن الرّبّ الحيّ!».

فهبّ على عجل لفتحه.

25

الخوف

«أكوا أكورو»، دأب الآباء العظماء في حِكَمهم الفذّة على القول: «الشّيء الذي يخاف الرّجل منه، هو شيء أعظم من قرينه الحامي». ورغم أنّ هذه المقولة صعبة، إلّا أنّ من الصّحيح القول بأنّ الخوف ظاهرة عظيمة في حياة الرّجل. فحينما يكون الرّجل طفلًا، تكون حياته محكومة بخوف مستمرّ. وعندما يبلغ الحلم ويصبح شخصًا بالغًا، يصبح الخوف جزءًا لا يتجزّأ منه. كلّ شيء يُقدِم الكائن البشري على فعله محكوم بالخوف. إنّ من الحُمق أن تسأل، كيف يمكن للمرء أن يكون حرًّا طليقًا من الخوف؟ حسنًا، أليس الخوف نفسه- ربّما خوف المرء من هيمنة الخوف على ذهنه- هو ما يحمل الشّخص على طرح سؤال كهذا؟ يجب على المرء أن يعيش وفق مقتضيات الخوف. فالرّجل يأكل لأنّه يخاف أن يموت إذا لم يفعل. لماذا يقطع الشّارع بحذر؟ لماذا يذهب الرّجل وابنه إلى عيادة طبّيّة؟ بسبب الخوف. الخوف أشبه بإله، متحكّم صامت في عالم البشر. ولعله العاطفة الإنسانيّة التي لا تبزّها أيّ عاطفة أخرى في الشّدّة والتّأثير. «غاغان أَوغو»، خذ مثلًا حكاية أُزكه، الرّجل الذي قتل شقيق زوجته في عراك دار بينهما قبل ثلاثمئة وسبعين عامًا. حكم على هذا الرّجل بالموت كاهن الرّبّة «آلا» جزاء قضائه على حياة رجل آخر من دون وجه حقّ. كان مُضيفي في ذلك الوقت، تْشِتايز إِجَكوبا، من بين الرّجال الذين اقتادوه إلى الغابة

وأعدموه شنقًا هناك. شهدت عبر مُضيفي كيف كانت حالة هذا الرّجل المُدان، كيف تغيّرت حتّى حركته وصوته بفعل الخوف، وكان من الواضح أنّ كلّ لحظة من لحظات حياته، منذ صدور الحكم، كانت مسكونة بالخوف من الموت. الرّجل الذي يزيّن لنفسه العيش بلا خوف سرعان ما سيكتشف بأنّه هرب عاريًا إلى بلد الجّنون، موضع يكون فيه بلا أنيس أو جليس في جميع الأحوال.

عندما جاء جامايك للزّيارة، لقي مُضيفي وقد استحكم به الخوف، والرّغبة، والحنق، والحبّ، والفجيعة. لكن بوجه أخصّ، كان الخوف من أنّه لن يظفر أبدًا بندالي مرّة أخرى. الخوف، يا «تشوكو»! إله قاسٍ، وجلّاد البشريّة -إنه يشدّ الرّجل إلى مقود لا يقدر على الهرب منه. دعه ينطلق كالسّهم في أرجاء البيت، دعه يحطّ فوق حواف النّوافذ، دعه يخفق بجناحيه الأبيضين اليافعَيْن قدر ما يشاء، دعه ينادي ويطلق أوركسترا المغلوبين؛ لن يتمكّن من الهرب. لو حلّق إلى أعلى، فسيردّه السّقف، ثمّ سيلزمه مكانه. هل الرّجل سعيد في هذه اللّحظة من حياته؟ هل يحتسي نبيذ النّخل في عرسه؟ هل يتلقّى بركات والديه والثّناء من أقاربه؟ هل يطارح زوجته الغرام؟ هل أتى مخاض زوجته، وبات يترقّب مولد طفل؟ لا يهمّ. بعدما يفرغ من ذلك -بعد انتهاء العرس، وبعد انصراف المدعوّين، وبعد قضاء وطره واسترداد هدوئه ثانية، وبعد أن يكون الطّفل قد ولد وهو غافٍ الآن- يعود الخوف بحضور أقوى من ذي قبل ويشدّه إلى الوراء مثلما يفعل الصّقّار بصقره.

هكذا، احتاج مُضيفي في ظلّ هذا الخوف العظيم إلى المساعدة. على الأقلّ، عليه محاولة أن يعرف؛ محاولة أن يعثر على طريقة ما. طريقة ما؟ كان هذا ما حاول مُضيفي أن يخبر جامايك به. والآن، بعد أن أضناه الأمر، سقط على ركبتيه وتشبّث بصديقه الذي رجع إليه من جبل الصّلوات، ممتلئًا بروح الإله المعبود في البلدان القصيّة والمعبود

أيضًا من قبل أبناء الآباء الأتقياء. قال له: «جامايك. أدري بأنّك رجل من رجال الرّبّ. وأدري أنّ الرّبّ قد منّ عليك ومنحك حياة أخرى، لكن أودّ أن تفعل هذا لأجلي. إنّني تعيس، ما زلت رجلًا تعيسًا للغاية. ما زلت مدنَّسًا نجسًا. لن أشعر بالخلاص إلّا بعد أن أستردّ زوجتي».

رغم معرفته في تلك النّقطة بأنّها قد ضاعت منه، بل رغم أنّه كان قادرًا على الإحساس بأنّه الآن على حافّة الجّنون، إلّا أنّ ما أقلقه في تلك اللّحظة هو ما رآه من ارتياع في وجه جامايك.

شدّ على رِجل جامايك النّحيلة بقبضته وصرّ على أسنانه ثمّ أردف بحدّة: «أجل يا جامايك. إنّها زوجتي. إنّها لي. كنّا قد نوينا الزّواج. عانيت ما عانيته لأجلها».

بانت إمارات الحيرة على صديقه ولم تسعفه الكلمات. اكتفى بالتّحديق إلى مُضيفي الذي أرخى قبضته قليلًا ثمّ تابع الحديث قائلًا: «قبل نحو أسبوع، قابلتها أمام منزلها يا جامايك. رأيتها هي وابنها عن قرب. هل تعرف اسمه، هل تعرف اسم ابنها؟ إنّه تشننسو».

فقال جامايك بدهشة: «اسمك أنت؟».

عندئذ توثّب ذلك الجّانب الأكثر عقلانيّة في نفس مُضيفي وأصبح مفعمًا بالحيويّة والنّشاط، إذ بدا له أنّه وُفّق في الضّرب على وتر حسّاس لدى الرّجل الذي كان يتوخّى الحصول على مساعدته. قال: «هو كذلك، هذا هو اسم الطّفل».

«أمر لا يصدّق يا أخي».

قال مُضيفي: «أعتقد»...

لكنّ صدره الذي اضطرب وحمله على الشّهيق أخرسه. لذا بدأ من جديد، فقال: «أعتقد أنّ ثمّة سببًا وراء ذلك وأنا أريد أن أعرفه. هل ظنّت بأنّي فارقت الحياة؟ أم أنّه يوجد سبب آخر؟».

كحّ وبصق في منديل ثمّ تابع القول: «الطّفل، رأيته بأمّ عيني، وروحي تقول لي إنّه ابني».

«حقًّا؟».

«هو كذلك».

ثمّ فرقع بإصبعيه وقال: «في الحقيقة، ما عمر الطّفل؟ إنّه يبدو في الخامسة أو السّادسة من عمره. متى تزوّجت من هذا الرّجل؟ ألم تذكر أنّ هذا حدث منذ أمد قريب؟».

«هيه، هذا صحيح. لـ... لكن متى بالضّبط؟».

«لا أعرف. لا أعرف. لا أعرف. الرّبّ أعلم. لكن، يا أخي، قلبي محطّم. حال الميّت أحسن من حالي. نفسي تعفّ عن النّوم والزّاد. لا أدري لماذا حياتي بهذا الشّكل. لكنّي أريد أن أعرف لماذا يحمل ابنها اسمي».

«ما تقوله صحيح، أخي سولومن. يقول 'نْدِه تْشِه'[1] لا يركض العلجوم في وضح النّهار إلّا لسبب. فإمّا أنّ شيئًا ما يطارده، وإمّا أنّه يطارد شيئًا ما».

لقد أصاب، «غاغان أَوغو»: تلك كانت من حكم الآباء الأذكياء!

واصل جامايك القول: «أتفهّم ما تقوله، نوانم سولومن. أطلب منّي ما شئت وسأقوم بفعله. أودّ مساعدتك».

هنا، رفع مُضيفي ناظريه إلى أعلى، فانتبه في تلك اللّحظة لأنّه كان راكعًا على الأرض ومتشبّثًا برجلَي صديقه النّحيلتين، صديقه المسكين الذي ظلّ طوال أربعين نهارًا وأربعين ليلة بلا طعام. صُدم عندما لاحظ هزال صديقه، فسحب يديه على عجل وجلس أمامه فوق السّرير. «إيبونو»، كانت كلمة «مساعدتك» وما حملته في طيّاتها من وعد بشيء من التّنفيس عنه، هي ما أعانه على القيام والجّلوس. اعتدل الآن وهزّ رأسه ثمّ قال: «أريدُ منك أن ترجع إلى زوجها، وتقول له إنّ الرّبّ أرسلني إليك، سيّد أُغبونا، كي أحذّرك من أنّهم قد يكونون في خطر».

---

(1) «نْدِه تْشِه»: الأسلاف.

انتظر ردًّا من جامايك، لكنّ يد صديقه ارتفعت إلى فمه الفاغر ومسحت زاويتيه.

فقال مُضيفي: «لن ترتكب أيّ معصية. لا يتعدّى الأمر أكثر من محاولتك أن تعرف إن كانت... ما إن كانت في مأمن من الخطر. وهذا أمر لا يحرّمه الرّبّ. علاوة على ذلك، أنت خوري. لذا، ليس هناك كذب في الموضوع».

هزّ جامايك رأسه. ورغم ما بدا عليه من مجهود عظيم بذله لفتح فمه أخيرًا، إلّا أنّه لم يقل: «لكنّ الرّبّ لم يرسلني إليه. هذا كذب»، مثلما تخوّف مُضيفي. بل قال بنبرة قاطعة مثل ضربة منجل إنّه سيفعل ما طلبه منه مُضيفي. ثمّ، وكما لو أنّ مُضيفي لم يسمعه، كرّر ما قاله ثانية بشكل مقنع.

انتاب الهدوء مُضيفي. ثمّ، بمساعدة يد لم يتمكّن من رؤيتها، نهض واقفًا.

«تشوكو»، يقول الآباء العظماء إنّ من صالح الصّيّاد أن يكون للظّبي كيس خصيتين منتفخ. فالصّيّاد، حتّى لو كان عجوزًا هرمًا، سيكون من السّهل عليه أن يصوّب سهمه المسموم وأن يصيب الظّبي في مقتل. والسّيّد «أُغبونا»، زوج حبيبته، الرّجل الشّرّير الذي استغلّ غيابه وسرق عروسه، الرّجل الذي حطّمه، الرّجل الذي يعاني الآن بسببه، الرّجل الذي ربما كان يدّعي الآن بأنّه أب لابنه، كان كيس خصيتيه قد تورّم وتضخّم منذ أجل. سلّم نفسه إلى خوري مقنّع، جاسوس يعمل لصالح مملكة مُضيفي الخربة. والآن، مساء اليوم اللّاحق، حين ارتدى الأفق نفسه قناعًا ملوّنًا بالرّمادي الواهي وبالأحمر القاني لنملة الصّحراء، انطلق مُضيفي وصديقه بالسّيّارة صوب المصرف الذي كان يعمل فيه زوج ندالي.

انتظر قرب ورشة ميكانيكيّ بينما ذهب جامايك إلى المصرف.

كانت الورشة قد بنيت تحت شجرة «أُغبه» قديمة، شجرة عرفتها على الفور. كانت هناك منذ سنوات طويلة.

قبل مئتي سنة أو يزيد، كان رجال قبيلة «آرو تشوكو» يجرّون جماعة من النّاس الذين اختطفوهم لأجل بيعهم عبيدًا، وكان هؤلاء، ومن جملتهم مُضيفي ياغازي، مكبَّلين في الأصفاد. أثناء ذلك المسير الطّويل، سقطت امرأة تحت تلك الشّجرة وأغمي عليها. وهذا ما حمل الخاطفين على وقف المسير. لكنّ أحدهم، وكان رجلًا متين البنية، أمر البقيّة بإيماءة منه، ومن دون أن يكلّف نفسه عبء فتح فمه، بالتّقدّم ومواصلة السّير، ثمّ قال إنّ المرأة قد تكون مريضة، وربّما لن تبلغ ساحل البحر وهي على قيد الحياة. تركوها هناك، كما لو كانت غافية، في رقعة مكشوفة لم يكن فيها سوى هذه الشّجرة العجوز.

ترك مُضيفي سيّارته ووقف تحت الشّجرة مع عمّال الورشة، انساق بصره إلى علَم «بيافرا»، الذي كان مربوطًا بقطعة من الخشب داخل الورشة. كانت الرّاية مسودّة من السّخام، وفي طرفها مزق كبير. عرض عليه العمّال الجّلوس على مقعد متّسخ بقرب إطار كبير، لكنّه آثر الوقوف. طوى ذراعيه فوق صدره، وانشغل في مراقبة الشّارع.

كان قد فرغ للتوّ من شراء كيس بارد من «الماء الصّافي» من أحد الباعة المتجوّلين، وانهمك في شربه لمّا أقبل جامايك. جاء جامايك وكأنّه مصاب بالبكم، كأنّ شيئًا قد أخرسه. أشار صوب السّيّارة وقال لمُضيفي على عجل: «دعنا نذهب ونتحدّث في مكان آخر».

عادا إلى شقّة مُضيفي، ولم يبدأ الحديث إلّا بعد أن جلسا، هو على السّرير وجامايك على الكرسيّ. عندئذ شرع جامايك في الحديث قائلًا: «يا أخي، لمّا دخلت على الرّجل، شعرت كأنّه كان ينتظرني. هبّ واقفًا وقال: 'أيّها الخوري، أيّها الخوري، إنّني في ورطة'. فسألته عن الأمر، فأجاب: 'أيّها الخوري، زوجتي، زوجتي'. كان قلقًا مضطربًا. قال إنّ

نداليِ صادفت الرّجل الذي كادت تتزوّج منه، وأن الرّجل اكتشف بأنّ الولد هو ابنه».

فزّ مُضيفي واقفًا على رجليه.

رفع جامايك رأسه ونظر إلى مُضيفي ثمّ قال: «أجل، إنّه ابنك يا أخي».

«كيف حصل ذلك؟ كيف؟».

«قال الرّجل إنّها كانت حاملًا قبل سفرك إلى قبرص. بعد رحيلك، وانقطاع أخبارك، حاولت العثور عليك. اتّصلت بالجّامعة».

«إجانغو إجانغو»، لك أن تتخيّل ما فعله هذا بمُضيفي. لم يستطع أن يقول شيئًا أكثر من: «قل ما قلته ثانية. إزي غي ني؟».

«اتّصلت بالجّامعة، تكلّمت مع دِهان يا أخي سولومن».

هبط فوق السّرير وخيّم عليه الصمت. قدحت في ذهنه ذكرى تينك الحادثتين أثناء المضاجعة، حين تشبثت به وطلبت منه ألّا يريق ماؤه في الخارج. ثم ومضت ذكرى حادثة أخرى، ما جرى في تلك الليلة التي انقضى عليها الآن زمن طويل، لما كان ذهنه مشغولا بما طرأ في حياته، وترك العنان لنفسه وقذف، ولما ابتعد كان معظم ماؤه قد استقر في داخلها. لكنه لم يخبرها بما جرى خوفًا من توبيخها له. إثر ذلك، طلبت منه إشعال النور كي تتمكن من تنظيف نفسها بالمحارم الورقية. ففعل، متنفسًا الصعداء لأنها لم تسأله إن كان قد ابتعد في اللحظة المناسبة. بعدما أشعل النّور، رأى ريشة بيضاء سابحة في الهواء. سحرت تلك الرّيشة نداليِ، فسألته من أين جاءت وكيف وصلت إليهما وسبحت هكذا في الهواء. فردّ عليها بأنّه لا يدري. كانت هذه مجرّد حادثة من بين حوادث عديدة ذكّرتُه بها. أمّا ما تذكّره من تلقاء نفسه، فكان ما استحضره الآن، عندما اتّصل بها هاتفيًّا إثر وعد الممرّضة بمساعدته في الحصول على عمل، وقالت له إنّ هناك

أمرًا تودّ أن تقوله ولكنّها ستخبره به في وقت لاحق. ما زلت أذكر ما قالته حرفيًّا عبر الهاتف رغم انقضاء سنوات كثيرة: «إنّه خبر عظيم، عظيم جدًّا، حتّى بالنّسبة لي، إنّني متفاجئة. لكنّي سعيدة جدًّا!».

قال جامايك: «لمّا انقطعت أخبارك، ولم يعد بإمكانها الوصول إليك، انتابها قلق شديد يا أخي. يا ابن الرّبّ، كانت تحمل في أحشائها ابنك، وفجأة، لم تسمع منك ولو كلمة واحدة لأيّام كثيرة. انتظرت لأسابيع طويلة، ولكن أيضًا من دون أن تسمع منك ولو كلمة واحدة. كانت لديها نسخة عن رسالة قبولك في الجّامعة. اتّصلت بالجّامعة فأخبروها بما كنت قد فعلته».

همّ بالحديث، لكنّ جامايك لم يتوقّف وتابع كلامه: «قالوا لها إنّك اغتصبت امرأة بيضاء وحُكم عليك بالسّجن لمدّة ستّ وعشرين سنة. في الحقيقة، قالوا لها إنّ المحكمة كانت متساهلة في هذا الحكم لأنّ عقوبة الاغتصاب في معظم البلدان المسلمة هو الإعدام».

«من قال لها هذا؟».

«لم يخبرني، لكنّي أعتقد بأنّها كانت دِهان. لم يكن مطّلعًا على كافّة تفاصيل القصّة؛ لا أعتقد أنّه يعرف الحكاية بأكملها. لكنّها حاولت. بحثت عنك، حاولت أن تساعدك. قال إنّها لم تصدّق بأنّك ارتكبت تلك الفعلة، وإنّها بلّغت السّفارة النّيجيريّة في تركيا بالأمر، لكنّهم لم يفعلوا أيّ شيء. أتذكّر هذا، يا أخي، فعندما اتّصلت بأصدقائي الذين زرتهم في 'غرنه'، قالوا لي إنّ السّفارة النّيجيريّة في تركيا اتّصلت بالجّامعة. لهذا، فإنّني أصدّق ما ذكره الرّجل بخصوص محاولاتها لمساعدتك يا أخي. أنا من تسبّب بكلّ ذلك، لكنّها حاولت أن تفعل شيئًا ما لمساعدتك».

كان غضب مُضيفي القديم قد شرع في الاستيلاء عليه ثانية. قال: «ثمّ ماذا؟ ماذا جرى عدا عن هذا؟».

فقال صديقه، الذي كانت الدّموع قد بدأت تطفر من عينيه: «أهلها، جنّ جنونهم بسبب هذا الوضع. فهي لم تكن حاملًا خارج رباط الزّوجيّة فحسب، بل كانت منهمكة، أيضًا، في تحريك جهات دوليّة لأجل إنقاذ رجل جُرّم وحُبس من قبل دولة أخرى. لهذا، طلبوا منها في البداية أن تذهب للعيش في لاغوس. أُغبونا، لم يقل هذا يا أخي، لكنّي أعتقد بأنّها حاولت. بعد ذلك، أقلعت عن المحاولة».

«إجانغو إجانغو»، تحرّك شيء في أمعاء مُضيفي، وأحسّ بحرارة في الدّاخل، وكأنّ شيئًا ساخنًا انزلق فيها ببطء ثمّ وطأها بهمجيّة. «أقلعت عن المحاولة»، ما معنى ذلك؟ «أكاتاكا»، معناه أنّ شخصًا ما حاول أن يقوم بأمر ما ثمّ توقف. لعلّ ذلك الشّخص كان قد حاول رفع شيء ما، ثمّ تبيّن له أنّه لن يستطيع أبدًا رفع ذلك الشّيء، لذا كفّ عن المحاولة وأقلع عنها.

جلس مُضيفي هناك، منصعقًا، وكأنّ العالم الذي وُلد فيه، وعاش، ومارس الحبّ، ونام، وعانى فيه، ثمّ تعافى، ثمّ عانى فيه ثانية، كان طوال ذلك الوقت مجرّد خدعة بصريّة، رؤية تلتقطها على حين غرّة عينا عجوز ضرير: مشعّة متوهّجة في لحظة، وفي اللّحظة التّالية، مجرّد سراب يتبدّد حال أن يُرى.

26

عناكب في بيوت الرّجال

«تشوكو»، أذناك تجمّلتا بالصّبر. أصغيت. استمعت إليّ وأنا أقدّم شهادتي بين يدي المجلس السّماويّ هنا. أصغيت بينما ارتدت كلّ شجرة في «بِغويه» الألحان السّاحرة وكأنّها الحلل اللّامعة. حتّى وأنا أتكلّم الآن، تنصبّ الموسيقى من كافّة أرجاء الأروقة المنيرة كما يتصبّب العرق من المسام. وفي كافّة الأنحاء قرَناء حماة ينتظرون حلول الدّور عليهم لرفع شهاداتهم بين يديك. لكن الآن يجب أن أعجّل في ردم الصّدعِ الذي نشب في حكايتي. وهذا، «غاغان أَوغو»، لن يستغرق وقتًا طويلًا.

كي أعجّل، يجب أن أذكّر بما يردّده الآباء العظماء دومًا، وهم أهل المعرفة بالحرب والمعركة. يقول هؤلاء: «ذاك الذي لا بدّ وأنّه قاتل الرّجل ليس بالضّرورة أن يكون عارفًا باسم هذا الرّجل». هذا قول صدق بحقّ مُضيفي. إذ إنّ وصف حاله، في الأيّام والأسابيع عقب اكتشافات جامايك، مؤلم للغاية. لكن يجب أن أخبرك بعواقب هذا التغيّر، لأنّ المسألة التي أترافع عنها تتطلّب ذلك. «إيبونو»، أصبح مُضيفي جِنًّا، طيفًا، متشرّدًا، هائمًا على وجهه، شيئًا زاحفًا في بطن الأدغال، منبوذًا حكم على نفسه بالنّفي، منقطعًا عن العالم. رفض الإنصات إلى نصح صديقه، الذي ناشده بأن يَعُفّ عن القتال. أقسم، في الواقع، على أنّه سوف يقاتل. أقسم يمينًا قاطعًا على أنّه سوف

يستردّ ابنه. أصرّ على أنّ هذا كان الشّيء الوحيد الذي بقي له في العالم والذي يستحقّ أن يقاتل لأجله. لا يمكن لأيّ أحد، ولا حتّى أنا، قرينه الحامي، أن يقنعه بالعدول عمّا عقد عليه العزم.

هكذا بدأ من جديد في التّواري داخل الدّغل المحيط بمنزلها، وكلّما رجعت بسيّارتها، حاول اعتراض طريقها ومفاتحتها بالكلام. لم تقابل هذا بالنّزول من سيّارتها، بل بالالتفاف من حوله والابتعاد إلى مكان آخر. لمّا فشل هذا، ذهب إلى صيدليّتها، صارخًا ومطالبًا باسترداد ابنه. لكنّها حبست نفسها في الغرفة واستنجدت بجيرانها من نافذتها المقفلة. هرع ثلاثة رجال إلى الصّيدليّة وجرّوه إلى الخارج، أثخنوه ضربًا حتّى تورّمت شفتاه وانبجس الدّم من جانب عينه اليسرى.

لكنّ هذا لم يردعه، «إيبونو». توجّه بعد ذلك إلى مدرسة الولد وحاول أن يأخذه بالقوّة. وهنا أعتقد أنّ بذرة ما جلبني إلى هنا في هذه اللّيلة العصيبة كانت قد بُذرت. إذ أنّني رأيت هذا مرّات ومرّات، «أوزه بروه». تعلّمت أنّ الرّجل الذي يؤوب إلى مكان تهشّمت فيه روحه ذات مرّة لن يسامح أولئك الذين جرّوه إليه. وعن أيّ مكان أتحدّث؟ إنّه ذلك المكان الذي يتعطّل فيه وجود الرّجل، والذي يعيش فيه حياة جامدة مثل تمثال الرّجل والطّبل الكائن في وسط الشّارع أو الطّفل الفاغر بفمه قرب قسم الشّرطة.

رغم أنّ معاملة الحرّاس في هذه المرّة كانت مختلفة، مجرّد شتائم وصفعات، إلّا أنّ الذّكريات التي أثارتها في نفسه عذّبته إلى حدّ رهيب. بكى في الزّنزانة. لعن نفسه. لعن العالم. لعن البؤس. ثمّ، «تشوكو»، لعنها. ولمّا غفا في تلك اللّيلة، تجلّى له زمن من الماضي، وسمع صوتها يقول: «ننسو، دمّرتَ نفسك بسببي!». من أرضيّة الزّنزانة الجرداء، هبّ بفزع واعتدل جالسًا، كما لو أنّ هذه الكلمات استغرقت سنوات كي تصل إليه وها هو يسمعها الآن للمرّة الأولى، بعد أربع سنوات على نطقها بها.

«إزوَّه»، جاء جامايك لإخراجه بكفالة في صباح اليوم الثّالث. بعد خروجهما من قسم الشّرطة قال له: «قلت لك، دعها وشأنها. لا يمكنك أن تجبرها على العودة إليك. دعك من الماضي وامض إلى الأمام. اذهب إلى «أبا»، أو لاغوس. ابدأ من جديد. ستعثر على امرأة طيّبة. انظر إليَّ أنا، قضيت كلّ تلك السّنين في قبرص، هل عثرت هناك على أحد؟ لكن عثرت على ستيلّا هنا. والآن، ستصبح زوجتي».

تحدّث جامايك مع رجل بدا وكأنّه بلا فم، إلى أن وصلا إلى شقّته، وتضافرت نصائح جامايك مع كلّ الأمور التي رآها وعملها. ولمّا توقّف التّاكسي أمام شقّته، شكر صديقه وطلب منه أن يتركه لوحده.

قال جامايك: «كما تحبّ. سآتي لزيارتك في الغد».

فقال: «في الغد».

«أُبا سيدي نلو»، يقول الآباء العظماء بحصافة دبلوماسيّة فذّة: «اللّحن الذي سيلعبه عازف النّاي هو ما سيرقص عليه الرّاقص». من الجنون أن ترقص على لحن وأنت تستمع إلى لحن آخر. كان مُضيفي قد لُقّن هذه الحقائق القاسية من قبل الحياة نفسها. لكن كنت قد بذلت له النّصح والمشورة، أيضًا، وكذلك فعل جامايك، الصّديق الذي كان يعوِّل عليه الآن. بهذه النّصائح التي استقرّت في قلبه فتح مصاريع البوّابة وتوجّه إلى شقّته. ألقت عليه التّحيّة زوجة جاره، كانت تنقّي حبوب فاصولياء مفرودة فوق صينيّة، فغمغم بردّ مقتضب. فور أن دخل، هجمت عليه رائحة خانقة. التفت باتجاه دويّ الذّباب، فعرف السّبب. يوم إلقاء القبض عليه كان قد اشترى «موي موي» وتناول نصف الكمّيّة فقط. والآن، كانت الدّيدان قد ملأت الكيس البلاستيكيّ، وسال سائل حليبي من الطّعام العفن فوق الطّاولة.

خلع قميصه ووضع الطّعام فيه، فجنّ جنون الذّباب. مسح السّائل النّتن عن الطّاولة ورمى القميص في القمامة. ثمّ تمدّد فوق السّرير،

أغلق عينيه، وضع يديه فوق صدره، وحاول ألّا يفكّر في أيّ شيء. لكنّ هذا، «إيبونو»، من قبيل المستحيل، فذهن الرّجل كالحقل وسط الغابة، لا بدّ من أن يرعى فيه شيء بصرف النّظر عن كبر أو صغر حجمه. وما أتى لم يكن بمقدوره أن يردّه: أمّه. رآها جالسة فوق المقعد في الفناء، تدقّ فلفلًا أو «يامًا» في الجّرن، وهو إلى جنبها، منصتًا إلى حكاياتها. رآها، كان على رأسها وشاح أبيض.

لم يبارح هذا المكان، هذه الشّرفة الممتدّة بين الوعي واللّاوعي، إلى أن خيّم الظّلام. ثمّ اعتدل جالسًا وترك الفكرة تزهر في ذهنه، عليه أن يترك «أوماهيا» ويرمي كلّ ما فيها وراء ظهره. لقد فكّر في هذا وهو في السّجن، حتّى قبل أن يقوله له جامايك من جديد. واجتهدت أنا في أن يظلّ ملحًّا على تفكيره. كانت هذه الفكرة خلال الأيّام الثّلاثة التي قضاها هناك تأتي إلى ذهنه وترحل عنه كالزّائر القلق. شيء ما في رؤية أمّه الآن حمل تلك الفكرة على أن تقرّ في ذهنه، حتّى وإن لم يدر ما كنهها. هل كان ما حدث بعد وفاتها وما كرّره هو نفسه على مسامع والده المرّة تلو الأخرى بأنّ عليه أن ينساها؟ تعارك مع الرّجل عدّة مرّات، قال له ما من أحد يتشبّث بما فُقِدَ إلّا الأطفال. خاصّة تلك اللّيلة، عندما دخل عليه والده الغرفة وهو سكران. كانا في عصر ذلك اليوم قد ذبحا دجاجة وأوصلاها إلى امرأة تعِدّ وليمة عرس لابنتها التي في عمر شقيقته. ربّما كان هذا ما أثار ضيق واضطراب الرّجل. دخل والده مترنّحًا إلى غرفته في منتصف اللّيل وشرع في البكاء والقول: «أُكبارام، أنا فاشل. فاشل فشلًا ذريعًا. حين كانت والدتك في غرفة المخاض، فشلتُ في حمايتها. لم أتمكّن من إرجاعها إلى بيتها. والآن شقيقتك، فشلتُ في حمايتها. ما هي حياتي الآن؟ أهي مجرّد سجلّ من الخسارات؟ هل بات ما خسرته يحدّد حياتي؟ من هو الذي أخطأت بحقّه؟ كيدو إِهي نْميري؟».

حين استحضر هذه الذّكريات في الماضي، فكّر في والده كشخص ضعيف، شخص لم يقدر على تحمّل المكاره، شخص لم يعرف كيف يدير ظهره. الآن صُعق من أنّه هو نفسه كان متشبّثًا بما فُقِدَ، بما لا يمكن له أبدًا أن يحوز عليه ثانية.

سيرحل. سيعود إلى «أبا»، إلى عمّه، وسيترك كلّ شيء وراء ظهره. لم يتمكّن من تغيير ذاك الذي أعاد إنتاج نفسه لأجل مقاومة التغيير. كان عالمه -لا، بل عالمه القديم- قد أعاد إنتاج نفسه ولم يعد بمقدوره أن يتغيّر. ما كان متاحًا فقط هو التّقدّم إلى الأمام. ترك جامايك ميدان عاره، طلب السّماح من مُضيفي وأرضاه، ثمّ انطلق إلى الأمام. وهذا، أيضًا، ما كانت ندالي قد فعلته. محت ما سطره بيده فوق روحها وكتبت أشياء جديدة. لم يعد هناك تذكار للأشياء الماضية.

علاوة على ذلك، بات واضحًا بالنّسبة إليه الآن أنّه لم يكن الشّخص الوحيد الذي يضمر في نفسه كراهية أو إبريقًا طافحًا بالنّقمة، وكلّما خطا خطوة في رحلته الوعرة فوق درب الحياة المهترئ، انسكبت منه قطرة أو قطرتان. كان أمثاله كُثر، ربّما كلّ أهل المدينة، كلّ أهل «آلا إيبو»، بل كافّة أهل البلاد، أهلها الذين يعيشون فيها برعب وقد كُمّمت أفواههم وعُصبت عيونهم. ربما كان كلّ واحد منهم يضمر كراهيّة ما. قطعًا. حتمًا، هناك ضَيْم قديم، مثل وحش لا يموت، كان موصدًا عليه في زنزانة منيعة داخل قلوبهم. يجب أن يكونوا غاضبين من شحّ الكهرباء، من شحّ المرافق العامّة، من الفساد. متظاهرو «حركة إقامة دولة بيافرا ذات السّيادة»، مثلًا، الذين قتلوا بالرّصاص في «أُورَّي»، وأولئك الذين أصيبوا بالجّراح خلال الأسبوع الماضي في «أَرياريا»، ممّن رفعوا صوتهم للمطالبة بمولد أمّة ميّتة من جديد، لا بدّ من أن يكون هؤلاء، أيضًا، غاضبين على ما فُقِد ولم يعد من الممكن أن يعود إلى الحياة. وماذا عن سائر من فقدوا حبيبًا من أحبّائهم أو صديقًا من

أصدقائهم؟ قطعًا، في سويداء القلب، لا بدّ من أنّ كلّ رجل أو امرأة يضمر نقمة ما. ليس هناك أيّ أحد يتمتّع بسلام داخليّ تامّ. لا أحد.

فكّر مليًّا، واتّسم تفكيره بالصّدق والإخلاص، إلى أن نالت فكرة الرّحيل القبول من قلبه. مثلما نالت قبولي أنا، قرينه الحامي، أيضًا. يجب أن يرحل، ويجب أن يكون رحيله فوريًّا. هذا ما منحه طمأنينة وسلامًا. في اليوم التّالي، مضى يبحث عمّن يستأجر محلّه ويشتري منه بضاعته. وبعد أن أنجز ذلك، عاد إلى البيت برضى. اتّصل بعمّه وأخبره بكلّ ما جرى معه وبأنّه يجب أن يهرب من «أوماهيا». انزعج العجوز كثيرًا وكرّر على مسامع مُضيفي القول: «قل... قلت لك، لا تعد إلى تـ... تلك المرأة». ثمّ أمره بأن يأتي إلى «أبا» في الحال.

حزم متاعه القليل، محاولًا بشدّة عدم التّفكير في ندالي وابنه. سيعود يومًا ما، في المستقبل، بعد أن يعيد ترتيب حياته، ثمّ سيطالب به من جديد. هذا ما سيفعله، فكّر أثناء وقوفه وسط غرفته الفارغة التي لم يعد فيها الآن سوى فرشته القديمة الممدّدة على الأرض.

«أغوجيغبه»، سيرحل في تلك اللّيلة ولن يعود. سيرحل! بلّغ جامايك بهذا، وفور أن يأتي صديقه لوداعه، سينطلق في رحلته. كان ينتظر رجوع الدّاعية من مهامه التّبشيريّة كي يدعو له قبل مضيّه بسيّارته المحمّلة بمتاعه.

«تشوكو»، عند هذه النّقطة، يجب أن أقول، وللأسف، إنّه بعد مجيء جامايك، ودعائه له، وبكائه عليه، ومعانقته، جاء الحنق القديم، الرّعب، الإحساس المركّب الذي ابتلع كلّ الأشياء، جاء ثانية واستحوذ على مُضيفي. لم يعرف تمامًا كنه ما اعتراه، ولكنّه استولى عليه وطرحه في الهاوية التي كان قد جُرّ منها جرًّا. كانت، «إيبونو»، ذكرى واحدة هي التي فعلت كلّ ذلك، كانت بمثابة عود الثّقاب الكفيل بإشعال الحريق في مبنى كامل. كانت استعادة اليوم الذي نام معها فيه لأوّل مرة واليوم

الذي ركعت فيه فوق أرضيّة الفناء ومصّت فحولته إلى أن ترنّح وسقط فوق المقعد. كيف ضحكا معًا وتحدّثا عن مراقبة الدّجاج لهما.

«إجانغو إجانغو»، اسمع: لا يستطيع رجل مثل مُضيفي أن ينسحب من قتال بكلّ هذه البساطة؛ نفسه لا تستطيع أن تكون راضية. لا يستطيع أن يرفع هامته، إثر هزيمة منكرة، وأن يقول لربعه، لكلّ من رآه ممرّغًا بالوحل، لكلّ من شهد إذلاله وإهانته، أن يقول إنّه سلّم ورضي. **بكلّ هذه البساطة**. إنّه أمر صعب، «تشوكو». لذا، حتّى حين قال لنفسه بحزم: «سأرحل الآن وسأبتعد عنها إلى الأبد»، عاد بعد لحظات، أثناء هبوط اللّيل، واستسلم أمام الخواطر المظلمة. تكالبت عليه من كلّ حدب وصوب، واحتلّت عالمه الدّاخلي بالكامل، واقنعته بأن يذهب إلى المطبخ وأن يأخذ صفيحة كاز وعلبة ثقاب. عندئذ فقط تركته. لكنّ الصّفقة كانت قد أبرمت. كان هو بنفسه قد أحكم سدّ غطاء صفيحة الكاز ووضعها في سيّارته، أمام المقعد الأمامي. رجع بعدئذ وانتظر، ثمّ انتظر، كي يمرّ الوقت. وما أصعب الانتظار وروح المرء مشتعلة بالنّار.

«**إيبونو**»، قرب منتصف اللّيل، ركب سيّارته وانطلق تحت جنح الظّلام. سار ببطء، خائفًا من أنّ ما حمله كان مادّة سريعة الاشتعال مع كافّة متاعه في السّيّارة، كي يكون جاهزًا للانطلاق في رحلته فيما بعد. ساق في الشّوارع الخالية وقطع نقطة حراسة أهليّة، حيث سلّط رجل ضوء مصباح يدويّ على سيّارته ثمّ لوّح له بمتابعة طريقه. ووصل إلى الصّيدليّة.

ركن سيّارته ثمّ التقط علبة الثّقاب وقال: «لم أخسر كلّ ما كنت أملكه يا ندالي لأجلك حتّى تعامليني بهذه الطّريقة! بهذه الطّريقة!». فتح السّيّارة، حمل صفيحة الكاز وعلبة الثّقاب، ثمّ مضى وسط سكون اللّيل، ليل بهيم أشدّ حلكة من معظم اللّيالي.

توقّف لالتقاط أنفاسه وقال: «سدّدت لي ثمن كلّ ما فعلته لأجلك عبر أفعال شرّيرة. نبذتِني. عاقبتني. رميتِ بي في السّجن. ألحقتِ بي الفضيحة والعار».

وقف الآن أمام المبنى، والصّمت مطبق على العالم من حوله، عدا عن تراتيل كنسيّة من مكان لم يستطع تحديد مصدره. قال: «ستذوقين الآن طعم الخسارة، وستعرفين معناها. ستعرفين، ستشعرين بما شعرت به يا ندالي».

رأيت الآن في صوته وفي قلبه، «إيبونو»، ذاك الذي يحيّرني دائمًا، ومنذ بداية الزّمن، تجاه البشريّة. كيف يمكن للرّجل أن يحبّ امرأة في وقت ما، وأن يعيش لأجلها، وأن يرزق بمولود منها، وبمرور الزّمن، كيف يتلاشى كلّ هذا ولا يبقى له أيّ أثر. يتلاشى كلّه، «إجانغو إجانغو»! وما الذي يحلّ في محلّه؟ بعض الظّنّ؟ شيء من الغضب؟ لا. ما يحلّ محلّه هو حفيد الكراهيّة نفسها، بذرتها الوحشيّة: الاحتقار.

أثناء كلامه، وخوفًا ممّا كان على أهبة القيام به، خرجت منه. وعلى الفور، أصابني ضجيج «إزِنمو» المريع بالصّمم. في كلّ مكان، كانت هناك أرواح سائرة أو معلّقة فوق أسطح البيوت أو السّيّارات، انصرف كثير منها إلى مراقبته وكأنّها كانت قد أبلغت مسبقًا بما كان مُضيفي على أهبة فعله. هرعت إلى مُضيفي وقدحت في ذهنه أن يعود إلى شقّته، أو أن يتّصل بجامايك، أو أن يرحل، أو أن ينام. لكنّه لم يصغِ لي، وصوت ضميره -المُقنِع الأعظم- كان صامتًا. شرع في التّنفيذ، وبعد أن تأكّد من عدم وجود أيّ إنسان، سكب الكاز حول المبنى. ولما نفد الكاز، ذهب إلى صندوق سيّارته وجلب صفيحة بنزين صغيرة، ثمّ سكبها حول المكان. بعد ذلك، أشعل عود ثقاب ورماه. وفور أن اشتعلت النّيران، ركض إلى سيّارته، شغّل المحرّك، ثمّ انطلق بسرعة إلى قلب الظّلام. لم يلتفت إلى الوراء.

«غاغان أَوغو»، كنت أعرف بأنّ ما من روح سيسعى وراء الاستحواذ على جسد مضيفه الآن وقد كان هناك قوت للأرواح الهائمة: نيران مستعرة. لهذا، خرجت منه كي أشهد، كي أرى ما ارتكبه، وإذا سُئلت عن يومه الأخير، سأكون قادرًا على طرح سجلّ وافٍ بأفعال مُضيفي. في المسافة البعيدة، لدى وقوفي أمام المبنى المحترق، بدا مُضيفي مبتعدًا بسيّارته. لمّا اختفى عن الأنظار، كان أكثر من عشرة أرواح قد تجمّعوا حول النّيران، سابحين في الهواء كالذّبذبات المرئيّة. في البداية، راقبت جمال المشهد المثير من الخارج لدى اقتراب الأجسام غير المتجسّدة أكثر فأكثر، وتجاوزها عنّي. واحد من بينها، هائج إلى حدّ الجنون، ارتقى فوق المبنى ووقف معلّقًا وسط عامود ضخم من الدّخان الأسود. هلّل الآخرون لدى حجب الدّخان لذلك الرّوح تارة وإظهاره تارة أخرى.

كنت منشغلًا في مراقبة هذا، لمّا رأيت، وكدت ألّا أصدّق، قرينة ندالي الحامية تخرج من المبنى المحترق وهي تولول. رأتني على الفور، فصاحت على عجل: «أيّها القرين الحامي الشّرّير أنت ومُضيفك! انظر إلى ما فعلته. حذّرتك منذ زمن طويل وطلبت منك أن تصرف مُضيفك عن ملاحقة مُضيفتي، لكنّ مُضيفك لم يتركها في حالها، بل ظلّ يطاردها ويسعى وراءها، إلى أن عطّل حياتها. بعد أن قرأت رسالته البلهاء قبل يومين، والتي ظلّت خائفة من قراءتها، انقلبت موازينها رأسًا على عقب! بدأت في التّشاجر مع زوجها. وفي هذه اللّيلة، هذه اللّيلة القاسية، تركت البيت ثانية وسط شجار عنيف وأتت إلى هنا»...

استدارت القرينة الحامية الآن، لأنّها سمعت صرخة عالية حادّة من داخل المبنى المحترق، واختفت وسط ألسنة اللّهب في الحال. هرعت خلفها، وداخل الحريق العظيم، رأيت، لحظة كان شخص يحاول

النّهوض من فوق الأرض، سقوط قطعة خشبية مشتعلة من السّقف فوق ظهرها. تلوّت من الألم وارتمت ثانية فوق الأرض. لكنّها كانت مرغمة على النّهوض ثانية، بعد أن رأت جبلًا من النّار التي انبثقت فجأة أمامها في الطّرف الآخر من الغرفة. كانت النّيران المتأجّجة قد أطاحت بخزانة عقاقير وبدأت في التهامها، ومدّت ألسنتها ولعقت السّجادة وبدأت في التقدّم باتّجاهها. تحسّست عنقها واكتشفت أنّ السّائل الذي كان يقطر فوق ظهرها كان دماء. في تلك اللّحظة فقط، تفطّنت فيما يبدو إلى أنّ قطعة الخشب التي سقطت من السّقف دقت مسمارًا في لحمها. بعويل جهنّمي وبقطعة الخشب المدقوقة في ظهرها، اندفعت إلى مسرح النّار الأصفر الغاصّ بالطّاولات المنحنية، والنّوافذ المصفّقة، والسّتائر الرّاقصة، والزّجاجات المتفجّرة. كتلة من الطّوب المحترق تهاوت فوقها لدى اقترابها من الباب، ولمّا فتحته، سقطت بقايا الخشب المحترق. الألم الحارق حملها على الرّكوع مثل قسّ هوى فوق ركبتيه وغاب في صلاة فجائيّة. عندئذ بدت مدركة أنّ من الأفضل لها ألّا تقف. لذا، بدأت في الزّحف إلى خارج الصّيدليّة مثل حيوان يرعى في حقل من اللّهب.

خلال محاولة هروبها، كان جمع من النّاس قد تجمّع حول الحريق -أفراد الحراسة الأهليّة، الجّيران، وغيرهم. استقبلوها بدلاء الماء، وحين رشقوها به، خرّت مغشيًّا عليها.

تركتها هناك وسارعت للبحث عن مُضيفي. كان في الطّريق السّريع، منطلقًا بسرعة عبر الظّلام، ودموعه منهمرة فوق خدّيه. لم يعرف بما فعله. «إجانغو إجانغو»، تطرّقت عدّة مرّات في هذه اللّيلة إلى الحديث عن ذلك النّقص الفارق لدى الرّجل وقرينه الحامي: إلى عدم قدرتهما على معرفة ذاك الذي لا يستطيعان رؤيته أو سماعه. لذا، بالفعل، لم يكن مُضيفي قادرًا على معرفته. بل كان غافلًا تمامًا عنه. ندالي

التي كانت واقفة في ذهنه الآن لدى قيادته سيّارته، كانت ندالي التي أحبّته ذات مرّة ولكن التي نبذته فيما بعد. كانت ندالي التي خسرها. لم يعرف أيّ شيء عن ندالي التي كانت وسط ألسنة النّار، ندالي الممدّدة الآن فوق الأرض أمام ما كان ذات مرّة صيدليّتها. واصل سيره، متخيّلًا إيّاها في أحضان زوجها، مفكّرًا في كيف لم يفلح أيّ شيء ممّا فعله في إعادتها إليه ثانية. واصل سيره، باكيًا نائحًا، مردّدًا لحن أوركسترا المغلوبين.

«إيبونو»، كيف كان من الممكن أن يخطر في باله أنّ امرأة متزوّجة لديها بيت ستختار المبيت في متجرها عوض النّوم في دارها؟ لا. لماذا ستفعل أمرًا كهذا؟ لم يكن هناك سبب يحمله على التّفكير في هذا. هذا هو السّبب في أن الرّجل الذي قتل شخصًا ما للتوّ ينصرف إلى قضاء حاجاته وشؤونه بشكل عاديّ من دون أن يعلم بما فعله، كما لو أنّ شيئًا لم يحدث. شبّه الآباء الأجلّاء هذه الظّاهرة بالعناكب في بيوت الرّجال حين قالوا: «كلّ من يحسب نفسه جبّارًا قهّارًا، دعه يقلّب بصره في أرجاء بيته كي يرى إن كان يعرف بالضّبط متى بدأت العنكبوت في نسج شباكها». هذا هو السّبب في أنّ الرّجل الذي سيُقتل عمّا قريب قد يعبر إلى البيت الذي اجتمع فيه أولئك الذين جاؤوا لقتله وجلسوا بانتظاره، غافلًا عن مخطّطهم، وجاهلًا بأنّ نهايته قد حانت. وقد يتناول الطّعام معهم، مثل ذاك الرّجل في أحد الكتب التي قرأها مُضيفي الأسبق إِزيكي ذات مرّة. تلك الحكاية كانت عن رجل حكم أرضًا في بلد الرّجل الأبيض تدعى روما. لكن لماذا نذهب بعيدًا في سَوْق الأمثلة، وهنا مباشرة، في أرض الآباء الأجلّاء، أنا نفسي رأيت هذا مرّات ومرّات؟

يدخل مثل هذا الرّجل إلى تلك الغرفة من دون أيّ علم بأن ما سيقتُله سيكون قد وصل -على نحو ما تأتي الأمور، على نحو زحف العفن والتّحوّل، على الأشياء بخطوات عرضية خفيفة وحصول

تحوّلات عظيمة من دون أدنى إشارة إلى أنّها كانت قد حصلت. لكنّ الموت سيأتي، فجأة، بلا إنذار، وسيحطّ على عتبة عالمه. سيكون قد أتى على حين غفلة، بلا ضوضاء، من دون أن يعطّل الفصول، بل من دون أن يعطّل بالضّرورة اللّحظة الماثلة. سيكون قد أتى من دون أن يغيّر طعم البرقوق في الفم. سيكون قد انزلق إلى الدّاخل كالحيّة، من دون أن يُرى، متحيّنًا اللّحظة المؤاتية. تفحُّص الحائط لن يكشف عن أيّ شيء: لا شقّ، لا علامة، لا خَرق ربّما كان قد عبر منه. لا شيء ممّا يعرفه الرّجل سيعطيه أيّ إشارة: لا نبض العالم الذي لن يغيّر من إيقاعه. لا الطّيور التي ما زالت تغرّد من دون أيّ تحوّل طفيف في نغَمها. لا الحركة الدّائبة لعقرب السّاعة النّابض. لا الزّمن، الذي يتواصل، من دون معيق، وفق ما درجت عليه الطّبيعة نفسها. وهكذا، حين يحصل الموت، ويراه الرّجل ويميّزه، سيصدمه. إذ إنّه سيظهر كندب لم يعرف الرّجل بأنّه خطّ نفسه فوق جبينه مثل شيء تشكّل منذ بدء الزّمن نفسه. إذ سيبدو لمثل هذا الرّجل بأنّه حصل بشكل فجائيّ تامّ، بلا سابق إنذار. ولن يعلم بأنّه حصل منذ زمن طويل، وغاية ما في الأمر، أنّه كان ينتظره بصبر ريثما يلاحظ.

كلمة المؤلّف

«أوركسترا المغلوبين» رواية تمتدّ جذورها في عمق ثقافة شعوب الإيبو التي أنتمي إليها، ورؤيتهم الكونيّة المبنيّة على منظومة معقّدة من المعتقدات والتقاليد الموروثة التي كانت -ولا تزال أحيانًا- تقود خطاهم. ولأنّ عملي هذا من وحي الخيال المبنيّ على واقع حيّ، فقد يدفع الفضول القارئ للبحث عن تلك الرّؤية الكونيّة، خصوصًا وأنّها ترتبط بمفهوم الـ«تشِه». ومن ثمّ وجب عليّ أن أوضح، على منوال تشينوا أتشيبي في مقالته حول الـ«تشِه» التي استوحيتُ منها جزءًا من نصوص هذا الكتاب، أنّ «ما أحاول فعله هنا ليس سدّ الفجوة، ولكن لفت الانتباه لها بأسلوب يتناسب مع شخص يمثّل الأدب عشقه الأساسيّ، وليس الدّين أو الفلسفة أو اللّغويّات».

لذلك يمكن القول إنّ هذا الكتاب عملٌ أدبيّ من وحي الخيال، وليس نصًّا تقريريًّا حول ثقافة الرؤية الكونيّة لدى شعوب الإيبو أو الدّيانات الأفريقيّة. غير أنّني أرجو له أن يصير كتابًا مرجعيًّا وافيًا بهذا الشّأن. لعلّ ذلك يرجع إلى أنّ رواية «أوركسترا المغلوبين» مستلهمة من العديد من الكتب التي تتناول الرّؤية الكونيّة لشعوب الإيبو وثقافتهم، نذكر منها After God Is Dibia (بعد الرّبّ يكون ديبيا) لجون أنينيتشوكو أوميه، وÖdïnani (أوديناي) لإيمانويل كانانيتشوكو أنيزوبا، وThe Igbo Trilogy (ثلاثيّة الإيبو) لتشينوا أتشيبي (ويطلق عليها عادةً «الثّلاثيّة الأفريقيّة») ومقالته حول «التشِه»، وEden in Sumer on the Niger (جنّة عدن صيفًا في النّيجر) لكاثرين

أوبيانوجو أتشولونو، وLeopards of the Magical Dawn (نمور الفجر السّحريّ) لنزي تشوكووكاديبيا نوافور، وAnthropological Report on the Igbo-Speaking Peoples of Nigeria (التّقرير الأنثروبولوجيّ حول الشّعوب النّيجيريّة النّاطقة بالإيبو) لنورثكوت و. توماس، وغير ذلك من المراجع القيّمة التي دعمَتْها أبحاث ميدانيّة أجراها والدي بمجهود فرديّ، وأجريتُ أنا بعضها في مسقط رأسي، نكبا، بولاية أبيا النّيجيريّة.

ولقد اخترت من قبيل التّفضيل الأسلوبيّ صياغة تهجئة معظم الأسماء والإشارات والألقاب التي تشير إلى الآلهة بكلمة مفردة بدلًا من الأسلوب الشّائع الذي يلجأ للمفردات المركّبة. فتجد كلمات مثل «ندي-إيشيا» مذكورة في كتابي بصيغة «نديتشِه». فرغم إقراري باتّفاقيّة «الإيبو-الاتّحاديّة» بشأن استخدام الشّرطات المتوسّطة، إلّا أنّني أجد مصداقيّة أكبر في الطّريقة السّلسة، غير المتقطّعة التي يتهجّى بها شعب «نكبا» هذه الكلمات. وعلى هذا النّهج اقتديت حيال العديد من أسماء الـ«تشوكوو». ومرّة أخرى أقرّ بأنّ «غاغا-نا-أوغو» هو الهجاء الشّائع، إلّا أنّني اخترت بدلًا منها «غاغان أَوغو». وثمّة أسماء مثل «إيبونو» ربما لا يجدها القارئ في أيّ مكان آخر على الإطلاق. أمّا بالنّسبة لهؤلاء المهتمّين بتهجئة «الإيبو-الاتّحاديّة»، فأقترح عليهم الرّجوع إلى الكتاب الرّائع لجون أنينيتشوكو أوميه «بعد الرّبّ يكون ديبيا» وكذلك Igbo Dictionary and Phrasebook (قاموس مفردات وعبارات الإيبو) لنيكولاس أودي وأونيكاتشي وامبو، وغيرهما.

يا غا زي.

تشيغوزي أوبيوما

إبريل 2018

إهداءات

استُلهمَت هذه الرّواية من وحي تجارب عديدة، غير أنّ المصدر الأوّل بكلّ تأكيد هو الاسم المرتبط بطفولتي «نغباروكو»، وهو اسم الرّجل الذي لطالما اعتقدت أنّني أُجسّده. ومن ثمّ، فكلّ الشّكر والعرفان لوالدي، وعمّي أونيلاتشيا موزس، وأمّي بليسينج أوبيوما، وغيرهم ممّن بذروا في نفسي روح الفضول منذ طفولتي.

كما أُقرّ بالامتنان لقارئتي ومساعدتي الأولى، زوجتي كريستينا، لما أمدّتني به من فيض عطائها، فهي ملاذي الذي ترسو عليه قلاعي في بحر الحياة. وكلّ الشّكر لوكيلتي جيسيكا كرايج التي لا تزال من قرّائي الأوائل، وواحدة من أبطال عملي، والتي تتحمّل إزعاجي لها. ولا أنسى دور محرّرتيَّ جودي كلاين وعائله أحمد اللّتين أحيتا كتابي من الرّقاد، فما كان لـ«أوركسترا المغلوبين» أن يخرج إلى النّور من دونهما هما وفريقيهما في مؤسّسة «ليتل براون» بالولايات المتّحدة الأميركيّة والمملكة المتّحدة.

وأودّ أن أُقدِّر مدى الدّعم الذي قدّمه كوام داوس وزوجته لورنا الذي لا يمكن لأحد سواي أنا وهما تقديره. وأتوجّه بالشّكر والعرفان إلى إيزا ودانييل كاتو على المساحة التي منحاني إيّاها في قلعتهما الخاصّة لمراجعة الكتاب، وإلى الرّفاق في معهد أسبن، وإلى أوائل المتحمّسين كاميلا سوندرجارد وبياتريس مانسيني وهافدان فريهو ونوت أولفستاد من فونت فورلاج وتوماس ثيب وبيل أندرسون، وإلى النّاشرين الآخرين على دعمهم. وكذلك إلى زملائي في جامعة

نبراسكا لنكولن على تشجيعهم، وإلى الجّامعة نفسها على ما هيّأته لي من أجواء تشجّع على الإبداع. كما أتوجّه بالشّكر إلى كارين لاندري وباربرا كلارك وألكساندرا هوبس وكلّ من مدّوا يد العون في إصدار هذا الكتاب.

وأخيرًا أتقدّم بخالص العرفان والتّقدير إلى جميع الكُتّاب الذين ذكرتهم في قسم «كلمة المؤلّف»، وإلى جميع من يواصلون التّأكيد على عدم اندثار الرّؤية الكونيّة لشعب الإيبو وفلسفته. ومرّة أخرى أشكر والدي على دوره كباحث ومحرّر وبطل، وعلى تذكيري دومًا بمقولة أجدادنا العِظام: «أوكو كو وا ممادو، أو غا كوارو ممادو إيبي يا. أوكو كو وا إيهو، أو غا نا أوسيسي كو أونويا أو كو».

توضيحات للقارئ

خلود عمرو

تعد الأعمال الأدبية الإفريقية المتوفّرة باللغة العربية قليلة، إن لم تكن نادرة، سواء ما كُتب منها بالعربية او ما تُرجم من لغاتها الأصلية إلى العربية. لذا، فإن اطلاع القراء العرب على المشهد الأدبي الأفريقي والإلمام بالفضاء الثقافي الثري للقارة السمراء ظلّ محدودًا. ولعل ترجمة هذه الرواية التي كانت ضمن القائمة القصيرة لجائزة مان بوكر البريطانية للرواية سنة 2019، تُسهم، ولو بجزءٍ بسيطٍ، في سدّ هذه الثغرة الثقافية في فضاء الثقافة العربية.

«أوركسترا المغلوبين» ليست رواية عادية وتحتاج إلى فهم الوجهة التي يريد المؤلف أخذ القارئ إليها. رواية عبقرية في تداخل عوالمها وخيالها ومناخها وشخوصها، تظلّ تُنقِّل القارئ بين عالم الحياة الأفريقية على الأرض وعوالم الغيب العلوية للآلهة والأسلاف والعوالم السفلية للأرواح الشريرة والشريدة. ولأنها ليست رواية عادية فإن ترجمتها فرضت تحدّيات غير عادية، واستدعت كتابة هذا التوضيح الذي رأيتُه ضرويًا، ليكون مدخلًا يُسهل على القارئ الولوج إلى عالم الرواية السحري والاستمتاع به. لقد كان الهاجس الأكبر الذي فرض نفسه عليَّ أثناء مهمة نقل هذه الرواية إلى القارئ العربي هاجسًا مزدوجًا، وهو تعريبها بشكل شيِّق ورشيق ودقيق من دون المساس بمناخها وبيئتها ونكهتها الأفريقية والمحلّية الخاصّة. ولم يكن هذا بالأمر الهيّن. إنني أدعو القارئ إلى مرافقتي للاطلاع على أهم التحدّيات التي واجهتني في نقل النصّ، وكيف عالجتها خلال عملية الترجمة التي استغرقت مني شهورًا عدة.

أولًا: نصٌّ واحدٌ وثلاث لغات؛ تحدّي الحوارات في الرواية

رغم أن نص الرواية مكتوب باللغة الإنجليزية، إلا أن توليفته اللغوية تتألّف من ثلاثة مكوِّنات لغوية: اللغة الإنجليزية، ولغة الـ«نايجا»؛ وهي لغة هجينة مستخدمة في عموم نيجيريا، ثم لغة الإيبو المحلّية المستخدمة في مناطق جنوب وشرق نيجيريا، حيث تدور حوادث هذه الرواية. وعلاوة على استخدام لغة الإيبو في الحوارات، فإن النصّ الإنجليزي يزخر بمفردات وعبارات من هذه اللغة أيضًا.

يستخدم المؤلف، وهو نفسه من شعب الإيبو، هذه المكوِّنات اللغوية الثلاثة ليعكس ثقافة الإيبو ونظرتهم إلى الكون من خلال هذه الرواية. وقبل أن نناقش التحدّي الذي فرضه هذا الواقع اللغوي المركَّب على عملية الترجمة، من المهم أن نفهم السياق التاريخي الذي أفرزه في الأساس.

إن اللغة المتداولة اليوم في عموم نيجيريا هي لغة «النايجا»، وهي لغة هجينة يستخدمها النيجيريون على اختلاف مشاربهم وأصولهم ولغاتهم المحلية في التواصل في ما بينهم. ففي هذا البلد يعيش حوالى 200 مليون إنسان، وهؤلاء منقسمون إلى نحو 250 إثنية، ويتحدّثون نحو 500 لغة ولهجة محلّيَّة. في الزمن الماضي، كانت كل جماعة أو قبيلة تعيش في منطقتها وتتكلّم لغتها الخاصّة. لكن حين جاء الاستعمار البريطاني في العام 1914، وأعاد رسم خارطة القارّة، برزت نيجيريا إلى الوجود كوحدة سياسية، ولدت مع الوقت لغة هجينة جديدة هي «النايجا»، لغة خلطت اللغة الإنجليزية وعجنتها مع مئات اللغات المحلية... هذه اللغة تشبه الإنجليزية، لكن ابن اللغة الإنجليزية، البريطاني او الأمريكي مثلًا، لا يفقهها. ومع الوقت صارت «النايجا» لغة رسمية، يتواصل بها النيجيريون إلى جانب لغاتهم المحلية الأخرى.

الإيبو، الذين يحتلّون هذه الرواية بشخوصها ومناخها، مثل غيرهم في نيجيريا، يتحدّثون لغتهم الأصلية في التواصل في ما بينهم، لكنهم يستخدمون أيضًا «النايجا» في التواصل مع أبناء البلد الآخرين (من غير الإيبو)، إضافة إلى استخدام الإنجليزية السليمة، التي يتكلّم بها الطبقة العليا والذين تعلّموا في المدارس. هذا الواقع اللغوي الثقافي المعاش للإيبو نجده حاضرًا في هذه الرواية، بمكوّناتها اللغوية الثلاثة التي تعكس السياق التاريخي والوضع الطبقي، والمكانة الاجتماعية لشخصياتها المختلفة والمتعدّدة داخل مجتمع الإيبو في نيجيريا. يعكس استخدام الإنجليزية السليمة في الرواية انتماء المتكلّم بها إلى الطبقة البرجوازية المتعلّمة، أما استخدام «النايجا» فيعكس وضعًا اجتماعيًا ومهنيًا متواضعًا.

هذا الوضع اللغوي المركّب للرواية ـ شكّل تحدّيًا أمام ترجمة الرواية إلى العربية. فلو تُرجمَت الرواية بالاعتماد على الفصحى فقط، لاستحال على القارئ التقاط هذا الواقع اللغوي المركب والحاضر في بيئة وحياة شخصيات الرواية، ولانطمست الدلالات الاجتماعية والثقافية المهمّة لهذا الواقع. عوض ذلك، لجأتُ إلى حل ثلاثي الأبعاد يمكّن النص العربي من الحفاظ على الفوارق المهمّة بين الاستخدامات اللغوية الثلاثة الماثلة في النصّ الأصلي، تبعًا للآتي:

1 - استخدام اللغة العربية الفصحى في ترجمة السرد العادي الوارد باللغة الإنجليزية في النصّ.

2 - استخدام كلام عربي ركيك لترجمة الكلام (الركيك إنجليزيًّا) الوارد في الحوارات بلغة «النايجا». وهذا الكلام العربي الركيك يشبه كثيرًا الكلام العربي المفكّك الذي يستخدمه أبناء العمالة الأجنبية في البلدان العربية. كلام خارج عن قوالب اللغة المُعتادة، لكن صاحبه مع ذلك يتمكّن، من إيصال المعنى إلى الآخرين. وهذا، بدوره، يشبه، إلى حد بعيد، ما تصنعه «النايجا» باللغة الإنجليزية. سأوضح ذلك عبر ضرب عدد من الأمثلة ومناقشتها تحت بندٍ خاصٍّ بالحوارات.

3 - استخدام المفردات والعبارات نفسها الواردة في الرواية بلغة الإيبو، والمكتوبة بأحرف لاتينية ونقلها إلى النصّ المترجَم حرفيًّا، لكن بعد نسخها بأحرف عربية. أما مبرّر النقل الحرفي لها من دون ترجمة معانيها إلى العربية، فيتمثّل في الالتزام بمرامي الكاتب من وراء استخدامها في نصّه الإنجليزي. إذ إنه لم يترجم معانيها إلى الإنجليزية بل تعمَّد استخدامها بلغة الإيبو لكن رسمَ حروفها بالأحرف اللاتينية وترك للسياق مهمة إيصال المعنى للقارئ. وفي ظنّي أن الكاتب يهدف من ذلك إلى إضفاء مسحة واقعية على شخصياته، والمحافظة على أصالة بيئة ومناخ روايته. ولهذا، سلكت نفس مسلكه في الترجمة العربية. لكن حين كنت أشعر بأن المعنى قد يستغلق على القارئ أو قد تفوته معلومة مفيدة أو طريفة، كنتُ أضيفُ هامشًا توضيحيًا في أسفل الصفحة. وعليَّ أن أشير هنا إلى أن جميع الهوامش الواردة في الرواية هي من إضافة المترجمة. وسأتناول هذه النقطة بمزيد من الشرح والإيضاح عند التطرّق إلى التحدّي الثاني وهو: لغة الإيبو بأحرف عربية.

مثال توضيحي حول ترجمة الحوارات

يدور حوار في الفصل الثاني بين البطل وهو من الإيبو، وإحدى بائعات الهوى، وهي نيجيرية، لكنها ليست من الإيبو، أي إنها لا تفقه لغة الإيبو. لهذا يتواصل الاثنان عبر اللغة الهجينة، «النايجا»، ويمزجان الإنجليزية بلغاتهما المحلّية لأجل التفاهم في ما بينهما كما يلي:

"What? You wan just waste your money like that?" the woman said.

He said yes. He stood up and reached for his clothes.

"I no understand, look how your prick still dey stand."

"*Biko, ka'm laa*" , he said.

"You no sabi speak English? Speak pidgin, I no be Ibo" , the woman said.

"Okay, I say I wan go" .

"Eh, na wa oh. Me I neva see this kain thing before, oh. But I no want your money make e waste" .

الترجمة في النصّ العربي:

«قالت المرأة:

- ماذا؟ يريد أنت يبدِّد نقوده هكذا؟

أجاب بنعم، ثم نهض والتقط ثيابه.

لكنها ردّت قائلة:

- أنا كلا استوعب. انظر إلى انتصابك، هو ما زال قائمًا.

رد بلسان «الإيبو» قائلًا:

- بِكو، كا آم لا.

فأجابت:

- أنت كلا سابي يتكلّم إنجليزية؟ تكلّم إنجليزية، أنا كلا لغة إيبو.

وعندها رد قائلًا:

- أوكيه، أنا أقول أنا يريد أذهب.

قالت:

- إيه، نا وا أوه. أنا كلا أرى مثل هذا من قبل، أوه. لكن أنا كلا يريد أنت أن يبدّد نقوده هكذا».

سنلاحظ في النص الإنجليزي أعلاه أن استخدام الإنجليزية اقتصر على الربط بين أجزاء الحوار:

«the woman said، he said ...»وأن معظم الحوار دار باستخدام «النايجا»، اللغة التي تمزج الإنجليزية باللغتين المحليَّتَيْن للمتكلّمين.

ثم سنلاحظ في النص المترجم أن الترجمة التزمت التفريق بين هذين الأمرين عبر ترجمة المقاطع الإنجليزيَّة: «He said yes. He stood up and reached for hisclothes.»، باستخدام الفصحى: «أجاب بأجل ثم نهض والتقط ثيابه». في المقابل التزمتُ بترجمة المقاطع المحكية بلغة «النايجا» بالعربية المفكّكة التي أشرنا لها سابقًا. أما الكلام المحكي بلسان الإيبو والمكتوب بأحرف لاتينية: *"Biko, ka'm laa,"* فنُقل حرفيًا إلى العربية بأحرف عربية: «بكو، كا آم لا».

معظم الحوارات الواردة في الرواية هي خليط بين هذه اللغات الثلاث. أما الترجمة فقد التزمت بالنهج الذي أتينا على شرحه آنفًا في التفريق بين تلك المكونات اللغوية الثلاثة. وحريٌّ بنا أن نشير إلى أن وضوح المعنى وعدم استغلاقه على الفهم كان ماثلًا دائمًا نصب أعيننا عند ابتكار كلام عربي ركيك يقابل الكلام المحكي باللغة الهجينة.

ثمة نقطة أخرى أود الإشارة إليها في ما يتعلّق بالحوارات الواردة في الرواية. سيلاحظ القارئ تنصيص الكلمات الأعجمية في متن الرواية المترجَمة مثل أسماء الأشخاص والأماكن والأشياء، وعدم تنصيصها حين ترد في الحوارات المباشرة بين الشخصيات. أما السبب في ذلك فهو أن كثرة الكلمات الأعجمية في الرواية وكثرة التنصيص قد تثقل على النظر من الناحية الشكلية على الأقل. لذا حاولتُ أن أتخفّف من التنصيص في الحوارات المباشرة على اعتبار أنها كلام منطوق وليست كلامًا مكتوبًا.

ثانيًا: لغة الإيبو بأحرف عربية

ظلت لغة الإيبو عبر العصور لغة شفوية لم تكتب إلا في العصر الحديث، بعد أن تبنّى أهلها الحرف اللاتيني وكتبوا به. وهناك أسلوبان شائعان في طريقة كتابة كلمات هذه اللغة بالأحرف اللاتينية. يقوم الأول على تقطيع الكلمة الطويلة إلى مقطعين أو ثلاثة مقاطع صوتية. أما الأسلوب الثاني، فيقوم بالحفاظ على وحدة

الكلمة «الإيبوية»، مهما طالت مقاطعها الصوتية وحتى لو بلغت حروفها ستة عشر حرفًا، ونُقلت في كلمة واحدة بأحرف لاتينية متتابعة. تبنّى الكاتب الأسلوب الثاني الذي يحافظ على بنية الكلمة الإيبوية، وطعَّم الرواية بكثير من كلمات الإيبو الأصلية المكتوبة بالحرف اللاتيني مثل:

«Mmalitenaogwugwu» «Echetaobiesike» «Osimiriataata», «Akwaakwuru», «Obasidinelu».

رغم اتفاقي مع المؤلف على ضرورة نقل هذه الكلمات «الإيبويَّة» حرفيًا من دون ترجمة المعنى وكتابتها، عوضًا عن الحرف اللاتيني بالحرف العربي، بما يضفي واقعية على الشخصيات وأصالة على بيئة الرواية، إلا أنني اختلفت معه في أسلوب كتابتها. فلغة الإيبو تُعدّ في علوم اللسانيات لغة نغمية إلى حدٍّ بعيدٍ كاللغة الصينيّة، ويصعب على غير أبنائها التقاط التنغيم الشديد في بنية كلامها، الذي يشبّهه البعض بأصوات تغريد الطيور، أو وقع حوافر الخيل، أو فرقعة اللسان. كما أن أساليب اللغة العربية في التقطيع الصوتي والكتابة تتصادم في أحيان كثيرة مع اجتماع أحرف معينة في الكلمة «الإيبوية»، مثلًا: لا يستقيم في العربية أن نكتب الألف الممدودة وبعدها ألف مهموزة، مثل: «مْمالِتيناأُغو أَغو»، هذه الكلمة غير مقروءة باللغة العربية. لا يمكن أن نكتب بالعربية الألفاظ السابقة في كلمة واحدة من دون أن نكسر قواعد العربية في الكتابة وأن نصيب القارئ بالحيرة. وهذه المسألة لا تقتصر على كلمة هنا أو كلمتين هناك، بل إنّ نصّ الرواية زاخر بهذه «الألفاظ الإيبوية» المبثوثة في سياق ثقافي واعتقادي شائك، ليس من السهل خوض غماره. وكما سيلاحظ القارئ، فإن الكاتب يستهلّ معظم فقرات روايته، وأحيانًا بين سطورها، بمخاطبة كبير الآلهة عند الإيبو، «تشوكو» أو الإله الخالق، عبر استخدام اسم أو صفة من صفاته بلغة الإيبو. وكان عليَّ أن أجتهد أمام هذه المشكلة، وأتوصّل إلى حلٍّ وسطٍ ومقاربةٍ تنجح في كتابة هذه الكلمات «الإيبوية» بطريقة عربية سليمة لا تصيب القارئ بالصدمة، ولا يحمله شكلها الذي قد يبدو عشوائيا ومنفّرًا إلى القفز عنها وإضاعة فرصة تذوّق إيقاعها وموسيقاها على الأقل. ولذا، استعنت بأشخاص من الإيبو الأصليين وطلبت منهم ترديد تلك الكلمات وتسجيلها، ثم إرسالها إليَّ منطوقة. ثم رحتُ أنصتُ مرارًا وتكرارًا لتلك الكلمات، وأجتهد في تقطيعها إلى مقاطع صوتية بحسب أصول التقطيع الصوتي في اللغة العربية. وهكذا، عوض أن أنقل حرفيًا كلمة مثل:

«مْمالِتِيناأُغو أَغو»، قمت بتقطيعها إلى ثلاثة مقاطع صوتية عربية قريبة من لفظها «الإيبوي»، بحسب ما سمعته من أهله، فأصبحت هذه الكلمة في النصّ العربي: «مْمَالاتينا أَغو أُغو». وسرت على هذا النهج في نقل سائر الكلمات «الإيبويّة» الواردة في النص الأصلي.

ثالثاً: إشكالية المحافظة على ثقافة النصّ الأصلي

تدور حوادث هذه الرواية في حيّز جغرافي وبيئي ومناخي مختلف عن نظيره العربي. مختلف بمناخه الاستوائي وأمطاره الغزيرة وغاباته الكثيفة ومياهه الوفيرة وطيوره وحيواناته المتنوّعة. مختلف في ثقافته ومعتقداته وتصوراته عن الإنسان والكون والحياة. وسائر هذه الاختلافات البيئية والثقافية حاضرة بقوة في الرواية، وأثارت جملة من الإشكالات والتحدّيات أمام عملية الترجمة. تحدّيات خاصّة بتعريب النصّ الأصلي واتخاذ قرارات في بعض المواضع إزاء تغليب ثقافة النصّ الأصلي أم ثقافة النصّ المترجَم. وسأشير هنا إلى بعض الأمثلة التي تجسّدت فيها هذه الاشكالات وكيف حاولت تجاوزها في سياق ترجمة الصور المجازية، وسياق ترجمة الامثال والحكم. وفي السياقين، كما في الرواية كلّها، حاولتُ أن أُعرِّب النصّ الأصلي لجهة تحويل النص الإنجليزي إلى نصٍّ عربيٍّ سلس القراءة، وتعريب البنى والتراكيب الإنجليزية لتبدو وكأنها كتبت بلغة عربية سليمة، لكن مع تجنّب إضفاء لبوس ثقافي عربي على مناخ وثقافة النص الأصلي، لتظلّ الرواية في نصّها العربي محتفظة بهويتها ومناخها ونكهتها الإفريقية المميزة.

سياق الصّور المجازيّة:

ترد في الرواية صور مجازية واستعارات غير مألوفة في اللغة العربية، بل وقد تبدو ركيكة ومستهجَنة. ومع أن نقل المعنى الأصلي عبر اللجوء إلى استخدام صور مجازية، تعَدّ من وجهة نظر لغة وثقافة النص المُترجم أكثر رصانة وجزالة مسألة ممكنة، إلا أن اللجوء إلى ذلك سيكون على حساب ضياع بعض المعاني الثانوية أو الظلال الجانبية للمعنى الأصلي. كما سيساهم أيضًا في نزع روح الأصالة عن الرواية وشخصياتها، ويؤدّي إلى وقوع ثقافة النص الأصلي ومنطق أصحابها في التفكير والتعبير تحت هيمنة ثقافة النصّ المُترجم.

المثال الأول:

«Jamike had painted a portrait of the place where he lived, Cyprus, as a place where everything was in order. Electricity was constant; food was cheap; hospitals were plentiful and free, if you were a student; and jobs, "like water."»

«كان «جامايك» قد رسم صورة للمكان الذي يعيش فيه، قبرص، كمكان كل شيء كان فيه منظّمًا ومرتّبًا. كانت الكهرباء متوفّرة من دون انقطاع؛ الطعام رخيص؛ المشافي كثيرة ومجانية، إن كنت طالبًا؛ وفرص العمل، «مثل الماء»».

يسترجع الراوي في هذه الفقرة ما كان «جامايك» قد قاله لصديقه «ننسو»، والاثنان من أبناء الإيبو وتجمعهما ثقافة واحدة.

إن التشبيه الذي استخدمه «جامايك» في التعبير عن وفرة فرص العمل، «مثل الماء»، قد يبدو غريبا للقارئ العربي. فنحن نعبّر بالفصحى عن مقصود الكلام السابق بالقول: «فرص العمل كثيرة ومتاحة للجميع»، وبالعامّية نقول: «على قفا مين يشيل». أما أن نقول عن وفرة فرص العمل بأنها «مثل الماء»، فأمر غريب ومستهجن لأن الماء شحيح عندنا، وهذا له انعكاسات على طريقة تفكيرنا وأساليب التعبير لدينا.

في المقابل، ينتمي كل من «جامايك» و«ننسو» إلى حيز جغرافي وبيئة مختلفة تمامًا. فنيجيريا بلد استوائي يمتاز بكثرة أنهاره وبحيراته وأمطاره الغزيرة. وتكثر الإشارة في الرواية إلى أن الماء العذب هناك «على قفا من يشيل». والآن، إن لجأنا في الترجمة إلى القول: «فرص العمل على قفا من يشيل»، فإننا سنجرّد الكلام من صبغته ونكهته التي تعكس البيئة المكانية الخاصّة بشخصيات الرواية، وسنحرم القارئ من تذوّق هذه النكهة. لهذا، آثرتُ الإبقاء على التعبير الأصلي ونقله كما هو إلى العربية للاحتفاظ بنكهة الرواية والأجواء والمناخات الخاصّة بأصحابها وضروبهم في التعبير التي تخالف أحيانًا طرق العربية في ضرب الأمثلة والاستعارات والكنايات والمجاز.

المثال الثاني:

"Have you not heard the adage: 'It is God that swats flies from the bottom of a tailless cow and from the food of the blind man?'

«ألم تسمع القول المأثور الذي يقول: الرب هو من يهش الذباب عن مؤخرة بقرة بلا ذيل وعن طعام رجل ضرير؟»».

يرد هذا القول على لسان إحدى الشخصيات، وهو قول غريب ومستهجَن بل

قد يكون صادمًا في الفضاء الثقافي للنصّ المترجم. فليس من المعهود أبدًا في اللغة العربية أن تجد قولًا، أو جملة، تجمع بين الرب والذباب ومؤخّرة بقرة وذيلها، أو تنسب فعل (هشّ) الذباب عن مؤخرة بقرة بلا ذيل إلى الرب الأعلى. وأن يكون مرمى هذه الجملة الإشارة إلى رحمة الرب ولطفه بمخلوقاته الضعيفة. فثمة حساسية دينية في الثقافة العربية تجاه اسم الرب والامتناع عن ذكره كيفما وأينما اتفق. لكن الأمر يختلف بالنسبة لثقافة النصّ الأصلي، وأهل هذه الثقافة لا يجدون غضاضة في هذا الجمع للتدليل على مدى رحمة الربّ ورأفته بمخلوقاته. لو راعينا الحساسيات الدينية لثقافة النص المترجم لتحوّلت تلك الجملة إلى شيء من قبيل: «إن الله نصير من لا نصير له»، أو «إن الله يدافع عن الفقراء والمساكين». ولك أن تتخيّل قدر الطمس الدلالي الذي ستقع فيها الترجمة في هذه الحالة.

المثال الثالث:

«CHUKWU, your ears have been patient. You have listened. You have heard me recount all these things before the divine council here. You have listened while every tree in Beigwe wore the enchanting tunes like shiny garments. Even as I speak <u>the music is pouring out of everywhere in the luminous halls like sweat from the pores of the skin</u>.»

«"تشوكو»، آذانك تجمَّلت بالصبر. أصغيت. استمعت إليَّ وأنا أقدّم شهادتي بين يدي المجلس السماويِّ هنا. أصغيت بينما ارتدت كل شجرة في «بِغويه» الألحان الساحرة وكأنها الحلل اللامعة. حتى وأنا أتكلم الآن، <u>تنصبّ الموسيقى من كافة أرجاء الأروقة النيّرة كما يتصبب العرق من المسام</u>».

يرد هذا التشبيه في الفصل الأخير. ويقوم على الجمع بين الموسيقى وبين العَرق في موضع واحد، وتشبيه انسيابها في أرجاء المكان بتصبّب العرق من مسام الجلد. في الذائقة اللغوية للقارئ العربي «العرَق» له دلالات منفّرة، ولا تُربط عادة بشيء شفّاف وعذب كالموسيقى، خاصّة إذا كان هذا الكلام موجَّها في حضرة العرش السماوي، كما هو الحال في الفقرة السابقة. ورغم أن نقل المعنى الرئيس عبر تغيير الصورة المجازية الواردة في النصّ الأصلي بما ينسجم مع مزاج لغة النصّ المترجم مسألة ممكنة، إلا أن فعل ذلك يخضع ثقافة النص الأصلي لثقافة النص المترجم وينزع عنه هويته وخصوصيته الصادمة أحيانًا للقارئ العربي.

قال الكاتب النيجيري المبدع، تشنوا أتشيبي، ذات مرة: «الأمثال هي زيت النخيل الذي تؤكل به الكلمات». وهذه الشهادة الصادرة عن أهم أبناء الإيبو اللامعين، وأحد أهم كتاب القارة المبرزين، تعكس الأهمية البالغة للأمثال والحِكم في ثقافة الإيبو والثقافة الإفريقية على العموم.

لعبت الأمثال والحكم منذ القدم دورًا مركزيًا في الحفاظ على إرث وثقافة ومعارف الإيبو الذين عاشوا قرونًا طويلة ضمن مجتمعات شفوية لم تعرف الكتابة. وظلّت ثقافتهم حتى عهد قريب جدًا تعتمد على تناقل الميراث الشفوي من جيل لآخر. ولهذا، فإن أمثالهم وحكَمهم، التي تعد اليوم بالمئات، لم تترك شيئًا من جوانب حياة مجتمع الإيبو إلا وسجّلته وتناولته. وأضحت سجلًا واسعًا يستبطن فلسفة الإيبو ونظرتهم إلى الكون ومعتقداتهم وطقوسهم وأخلاقهم وقيَمهم. ولعل الدور الذي اضطلعَت به في هذا المجال يشبه في جانب منه دور الكتب المقدسة عند أبناء الديانات الكبرى في العالم، هذه الكتب التي تحفظ وتسجل التعاليم والمثل والأخلاق والمعتقدات والطقوس الخاصّة بتلك الأديان. ولعل أمثال الإيبو، كذلك، تشبه ذلك الدور الذي اضطلع به الشعر قديمًا في حياة العرب. ففي ظلّ مجتمعات العرب الشفوية القديمة، سجل الشعر أنماط عيشهم وأيامهم ومثلهم وقيَمهم وأخلاقهم، وصار «ديوانهم» الذي تناقلوه شفويًا من جيل لآخر.

لكن الشعر لم يعد ديوان العرب مع التحوّلات الثقافية والتاريخية التي طرأت على مجتمعاتهم في القرون اللاحقة. أما الأمثال عند الإيبو فظلّت «ديوانهم» حتى يومنا هذا. فمجتمع الايبو لم يعرف الكتابة إلا في القرن الماضي بعد مجيء الاستعمار البريطاني، وبعد أن تبنّوا الحرف اللاتيني، والبدء في كتابة لغة الإيبو الشفوية. ولهذا، ظلت أمثال الإيبو القديمة حيّة وقيد الاستخدام حتى يومنا الحاضر.

إننا نرى من خلال أمثال الإيبو الغزيرة كيف استعان آباؤهم الأوَل بقالب المثل اللغوي، القائم على إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية، في تبسيط المفاهيم والتصوّرات الفلسفية والأخلاقية المتّسمة بالتجريد والتعقيد وإيصالها إلى عامّة الناس. وظّفوها في التعليم والتعليل والمحاججة والاقناع والتوجيه والنصح والتحذير. صاغوها بأسلوب مجازيٍّ يحثّ على التفكير ويثير الفضول والتشويق، أسلوب يكشف عن جزء من المعنى ويحجب الجزء الآخر كي يحمل السامع على التأمل والتدبّر واستنباط ما لا يراه بالتنقيب داخل نفسه.

وقبل أن نضرب بعض الأمثلة والشواهد، حريٌّ بنا أن نلفت الانتباه إلى أن أمثال الإيبو وحكمهم الواردة في نص الرواية الأصلي هي أمثال مترجمة باللغة الإنجليزية عن الأمثال الأصلية في لغة الإيبو. وهكذا، فإن الأمثال المقابلة في النصّ المترجم هي ترجمة عربية عن ترجمة إنجليزية للأمثال الأصلية في لغة الإيبو. ولا شك في أن هذا النقل اللغوي عن نقل لغوي سابق للمثل في نسخته الأصلية قد يفوته التقاط بعض الدلالات الثقافية أو المضامين والإشارات اللغوية. لهذا، حاولت تلافي هذه المشكلة بالبحث والاطلاع على شروحات لتلك الأمثلة في الكتب والدراسات المختلفة وأن أعكس ذلك خلال عملية الترجمة.

وأما النقطة الثانية المهمّة فهي الإشارة إلى أن أمثال الإيبو وحكَمهم على العموم تتشابه من حيث المضمون مع كثير من الأمثال والحكم في بقاع العالم المختلفة. لكنها، ، مع ذلك، مختلفة في الشكل وأسلوب التعبير والمزاج والنكهة المحلّية الخاصّة. وهناك الكثير من الأمثال والحكم العربية التي تقابل في معناها أمثلة ترد في نص الرواية، إلا أن استخدامها في الترجمة سيضفي مذاقاً ومزاجًا عربيًا على النصّ المترجم، وسيجرّد المضمون أو المعنى من قالبه ونكهته الخاصّة، وسيظهر شخصيات الرواية بمظهر عربي قُحٍّ. ولهذا ابتعدت عن استخدام الأمثال العربية في ترجمة ما يرد في الرواية من أمثال وحكم.

المثال الأول:

«They say that dust lies on the ground and stars lie in the sky. They do not mix ...»

«يقولون: التراب مكانه الأرض، والنجوم مكانها السماء. وهما لا يلتقيان» ...

رغم أن المثل العربي القائل: «أين الثرى من الثريا؟!»، يلتقط مضمون المثل السابق باقتدار، إلا أنني لم استخدمه في النصِّ المترجم حفاظًا على هوية النصّ الأصلي وعدم إضفاء مسحة ثقافية عربية عليه.

المثال الثاني:

«Ezeuwa, let the eagle perch, let the hawk perch, and whichever says the other should not perch, may its wings break!»

«"إِزوَّه»، قيِّض للنسر أن يربض، وقيض للصقر أن يربض، وأيًّا كان من يقول لا ينبغي للآخر أن يربض، فلينقصف جناحاه!».

يعتبر هذا المثل من بين أهم الأمثال الفلسفية الأخلاقية عند الإيبو. إذ إنه يتضمّن المبدأ الأخلاقي الأساسي الذي يقوم عليه مجتمعهم، مبدأ السلام الجماعي ووحدة الجماعة. فهو يحرم على أي فرد إلحاق الأذى أو الظلم بالجار تحت أي ظرف من الظروف. كما أنه يوجّه الأفراد نحو ضرورة اللجوء والتقيّد بحكم القانون، والابتعاد عن العنف والالتزام باحترام الخصم والصديق على حدٍّ سواء. إنه يقابل القاعدة الأخلاقية الذهبية العامة لدى كثير من المجتمعات، والتي تقول ببساطة: «عش ودع الآخرين يعيشون بسلام»، أو ما نقوله بالعربية: «أحبَّ لغيرك ما تحبُّ لنفسك».

وفي الحقيقة، لن أزعم بأني التقطت هذا المعنى مباشرة عند قراءة المثل في النصّ الأصلي. وعليَّ أن أعترف بأن معناه أصابني في البداية بشيء من الحيرة دفعتني إلى البحث عنه في أماكن أخرى. وبعدها تبيّن لي المعنى المقصود كما أوردته أعلاه. وما بين الالتزام بعدم استخدام مقابل عربي في النصّ المترجم، حفاظًا على أصالة ونكهة النصّ الأصلي، وعدم ترك المعنى مستغلقًا على القارئ العربي، لجأت إلى حل وسط. ترجمت المثل على نحو يلتزم بنسخته في النصّ المترجم، ثم ألحقت به هامشًا في ذيل الصفحة مرفقًا بالقاعدة الذهبية في الأخلاق: «عش ودع الآخرين يعيشون بسلام».

رابعا: منظومة اعتقادية لا تنتمي إلى فضاء الأديان التوحيدية

يجدر بنا قبل الخوض في هذه المسألة، أن نلفت الانتباه إلى أن الواقع الديني الذي يعيشه الإيبو في الزمن الحاضر، والمتجلّي في الرواية، هو واقع مركّب. واقع يجمع بين منظومة الاعتقاد القديمة للإيبو من جهة، والديانة المسيحية من جهة أخرى، وهي التي اعتنقها الإيبو مع مجيء الاستعمار البريطاني وما رافقه من نشاط تبشيري محموم. مع ذلك، فإنّ المنظومة الاعتقادية المهيمنة في فضاء الرواية هي المنظومة الاعتقادية القديمة. ذلك أنّ كافة حوادث الرواية ووقائعها تُروى من قبل إحدى شخصيات تلك المنظومة القديمة، وهو «القرين الحامي» لبطل الرواية، وهذا هو، بالمعنى التقني، «السارد العليم» الذي من وجهة نظره تُنقل لنا وتُسرَد علينا الحكاية من أولها إلى نهايتها.

إذًا نحن أمام واقع ديني ثنائي يقوم على الاعتقادات والتصوّرات الدينية القديمة للإيبو، وعلى الاعتقاد بالديانة المسيحية. والآن، وفي ما يخصّ عملية الترجمة

وما يتعلّق منها بالديانة المسيحية في النصّ الأصلي، لم تكن هناك تحدّيات تُذكر، فقد قمتُ بترجمة ما يرد في نص الرواية من إشارات وصلوات وآيات من الإنجيل بالرجوع إلى المصادر المسيحية العربية ونقلت آيات الكتاب المقدس كما هي موجودة في الأناجيل العربية.

على أن المسألة لم تكن بهذه السهولة في ما يتعلّق بترجمة ونقل ما تعلّق في منظومة الاعتقاد القديمة للإيبو. إن نقل الحمولة الدينية والثقافية لهذه المنظومة إلى العربية كان أهم تحدٍّ ثقافي واجهتُه كمترجمة، لأنها مختلفة بشكل جوهري عن المنظومة الاعتقادية المهيمنة في الثقافة العربية، والمتمحورة حول المفاهيم والتصوّرات القائمة على الفكرة التوحيدية. فكثير من المفاهيم والتصوّرات غير موجود أصلًا في فضاء اللغة العربية، ولا توجد لها مصطلحات مقابلة أو مسمَّيات أو مفردات دالّة عليه. ألقى هذا التحدي عبئاً مضاعفًا على كاهلي كمترجمة، وتطلب مني الرجوع إلى كثير من الأبحاث والدراسات المتخصّصة، باللغة الإنجليزية بسبب افتقار المكتبة العربية لمثل هذه الأدبيات، لأجل استيضاح وفهم كثير من التصوّرات والاعتقادات والطقوس الخاصّة بالإيبو قبل ترجمتها ونقلها إلى اللغة العربية. توخّيت في الترجمة وضوح المعنى وسلاسة الأسلوب، والالتزام بثقافة ومناخ الرواية. ثم أضفت الهوامش الشارحة لكل مستزيد. وتجنّبت خيانة النص الأصلي عبر اللجوء إلى الحلول السريعة، والوقوع في إغراء التعبير عما ورد فيه من معتقدات وتصوّرات، بمفردات ومصطلحات اعتقادية توحيديّة صِرفة، وفي متناول اليد. وهنا سأستعرض بعض الأمثلة الدالة على هذا التحدي.

المثال الأوّل:

«May their union bring them fulfilment in this cycle of life and in the seventh and eighth cycles of life—*Uwa ha asaa, uwa ha asato!*

—**Iseeh**! she said, and without a moment's wait, she returned into her host.»

«وليكن لم شملهما مدعاة لجلب الرضا والحبور في حياتهما خلال هذه الدورة من الحياة وخلال دورات الحياة السابعة والثامنة أيضًا: أوى ها آسا، أوى ها آساتو!

فتمتمت ثم اختفت في جسد مضيفتها بلمح البصر: - **إسيه!**»

مع أن السياق سياق دعاء ويبدو من الطبيعي استخدام كلمة «آمين» في العربية،

إلا أن كلا المتحدّثَين هنا لا يعتقدان بالأديان التوحيدية، ولا يستخدمان ألفاظها وتعبيراتها في الدعاء والصلاة. وإقحام «آمين» على ألسنتهم فيه تشويه لتصوراتهما ومعتقداتهما. لا سيما وأنني عرفت من خلال البحث والاطلاع أن المتمسّكين بتراث الإيبو لديهم حساسية ونفور شديد من استخدام كلمة «آمين» بدل كلمة «إسيه»، ولا يرون أن الكلمتين متطابقتان تمامًا في مراميهما. ولهذا، أبقيت على «إسيه» في النصّ المترجم لكني أضفت هامشًا يشرح معناها للقارئ.

المثال الثاني:

«We were followed in the distance by a group of the adaigwes, the spotless, luminously beautiful maidens of Eluigwe who sang of the joy of living on earth...»

«سارت خلفنا مجموعة من الـ«أدايغويه»، وصيفات «إلوِغويه» الطاهرات صاحبات الجمال الساطع اللواتي غنين الأغنيات عن غبطة العيش في الأرض ...».

ابتداءً، لا بد من توضيح أن «إلوِغويه» عند الإيبو تقابل مفهوم السماوات الأعلى، وفي ذلك النطاق السماوي العلوي يقطن «تشوكو»، رب الأرباب، وفي النطاق الآخر منه «آلانْدِه تشه»، يقطن الأسلاف الصالحون. إن الجملة الإنجليزية السابقة تشير إلى مجموعة من النساء باستخدام لفظ من لغة الإيبو «أدايغويه»، ثم تشرح معناه بالإشارة إلى أنهنّ نساء طاهرات، يتّصفن بالجمال الباهر والصوت العذب الساحر، وينسبهنّ إلى «إلوِغويه»، الذي يوصف في مواضع عديدة في الكتاب وكأنه الجنة. لعل كلمة «حوريات» مناسبة جدًّا في ترجمة هذه الكلمة ضمن السياق الذي شرحناه، ولكن بسبب ارتباط هذه الكلمة بمفهوم «الحور العين» في التصوّرات الدينية الإسلامية، وخشية أن يلقي هذا الاستخدام دلالات مشابهة على «أدايغويه» في النصّ المترجم، تجنّبتُ استخدام مفردة «حوريات» واستخدمتُ بدلًا منها كلمة «وصيفات إلوِغويه» في هذا الموضع، وكلمة «حسناوات إلوِغويه» في موضع آخر من الترجمة.

المثال الثالث:

«Jisos Kraist»

من الواضح أن «Jisos Kraist» بهذه الصيغة هو تحريف للأصل الإنجليزي «Jesus Christ»، وهذا يعني أن «Jisos Kraist» هو الاسم المحرّف الذي تستخدمه اللغة

المهجنة «النايجا» للتعبير عن «Jesus Christ». ورغم تحريف الاسم عن الإنجليزية إلا أنه في صيغته هذه «Jisos Kraist» يظلّ الاسم الذي ينطقه ملايين الإيبو والذي يعرفون به «يسوع المسيح» في الواقع. وهو من هذه الجهة له مذاق ونكهة خاصّين، ويعكس الواقع اللغوي المركّب الذي أسلفنا الإشارة إليه، كما أن دلالته واضحة وغير ملتبسة. لهذا، تجنّبت استخدام الأصل الإنجليزي «جيسس كرايست»، أو استخدام الاسم العربي «يسوع المسيح»، وأشرت إلى المسيح بالاسم الذي تستخدمه شخصيات الرواية، «جيسوس كرايست».

المثال الرابع:

«Chi»: «Guardian spirit»

سأشرح أولًا هذا المفهوم عند الإيبو ثم سأوضح كيف نقلته إلى العربية بصيغة «القرين الحامي». إن التقاط ما يعنيه هذا المفهوم بالغ الأهمية في فهم الرواية، لأن كاتبها أوكل مهمة السرد، وببراعة، إلى الـ«Guardian spirit» الخاص بالبطل الرئيس. فنحن إذا نستمع إلى حكاية يرويها علينا هذا الـ«Guardian spirit» أو «القرين الحامي».

يعتقد الإيبو أن «تشوكو»، يقوم عند ميلاد اي إنسان بتكليف «قرينٍ حامٍ» بمهمّة حماية هذا الشخص وصيانته وإرشاده إلى الصواب وإبعاده عن الأذى. وكما سيرد في النصّ، لا يملك «القرين الحامي» أي سلطة أو قدرة على إكراه مضيفه الإنسان على فعل أي شيء ضد إرادته. لكن «تشوكو» منحه قدرة قدح الأفكار وبثها في ذهن المضيف، أما مسألة العمل بموجب تلك الأفكار أو تجاهلها فأمر منوط بإرادة المضيف نفسه.

إن «القرين الحامي»، وفق مفهوم الإيبو، ليس بـ«ضمير»، أو «روح» أو «نفس» الإنسان. بل هو كينونة لا مادية ذات طبيعة روحية، بمعنى أنه روح غير متجسّدة. ولهذا، فإن كل قرينٍ حامٍ يحلُّ داخل جسد مضيفه ويلازمه من ميلاده إلى وفاته. وبعد وفاة المضيف، يتركُ «القرين الحامي» جسد مضيفه ويتوجّه إلى بلاط أو عرش «تشوكو» كي يقدّم له شهادة بكل ما فعله مضيفه في حياته. إن الإيبو ينظرون إلى «القرين الحامي» كإله شخصي لصاحبه، «تْشِه» الخاصّ به، على اعتبار أنه وسيلة أو حلقة وصل بين الإنسان والإله.

بالطبع، من الممكن أن تترجم «Guardian spirit» بـ«الروح الحارس»، أو «الروح الحامي»، لكن ترجمة «spirit» بـ«روح» في هذا المقام قد تؤدّي إلى الخلط بين الـ «guardian spirit» وبين «روح الإنسان»، وهما شيئان مختلفان عند الإيبو. ولعل التمييز بين الأمرين أسهل في اللغة الإنجليزية مما هو عليه الحال في العربية، لأن «روح الإنسان» في الإنجليزية هي «hissoul»، أما في اللغة العربية فلا تمييز من ناحية اللفظ اللغوي بين «soul» و«spirit» وكلاهما يترجم بـ«روح».

لهذا كان لا بد من العثور على ترجمة تحول دون الخلط بين مفهوم «روح الإنسان» ومفهوم «Guardian spirit» عند الإيبو. بحثت كثيرًا واجتهدت في نحت «القرين الحامي» كمقابل لـ«Guardian spirit» من خلال الاستعانة بمفهوم «القرين» الوارد في الموروث الديني العربي.

وردت الإشارة إلى مفهوم «القرين» في الآية التي تقول: «قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد». كما ترد الإشارة إليه في الحديث الذي يقول: «ما منكم من أحد إلا وقد وكِّل به قرينه من الجن ...».

وتذكر التفاسير أن المقصود بـ«القرين» في الآية هو الشيطان، أما «القرين» المقصود في الحديث فهو من الجن.

هناك أوجه تشابه واختلاف بين مفهوم «القرين» في التراث العربي ومفهوم «Guardian spirit» عند الإيبو. ولكن توظيف أوجه التشابه العديدة في مصطلح «القرين» مفيد في نحت مصطلح مقابل لـ «Guardian spirit»، ثم تمييزه عن «القرين» بإضافة كلمة أخرى ليصبح في النهاية «القرين الحامي». وسنرى أن إضافة «الحامي» تلتقط جانبًا مهمًّا من الاختلاف بين المفهومين وتحول، إلى حد ما، دون الخلط بينهما.

إن «القرين» لغة هو الرفيق والصاحب، أما اصطلاحًا فهو إما كائن من الجن، وفق الحديث السابق، أو هو الشيطان، وفق ما ورد في تفسير الآية السابقة. وهكذا، وفقًا للميراث اللغوي، فإن القرين هو الرفيق والصاحب، وهذا المعنى يدل على الملازمة التي يتضمّنها مفهوم «Guardian spirit» عند الإيبو، وفي الرواية يشير الـ«Guardian spirit» إلى صاحبه بـ«my host» بمعنى «مضيفي» الذي ألازمه داخل جسده من يوم ميلاده وإلى يوم وفاته.

أما النقطة الثالثة المهمّة، فهي أن «القرين» في الموروث العربي، سواء أكان جنًا أو

شيطانًا، يعمل على «الوسوسة» لصاحبه، أي إنه يبث أفكارًا في ذهنه لصرفه عن طريق «الحق»، وهنا يلتقي ويفترق المفهوم العربي والمفهوم عند الإيبو. يلتقي المفهومان في وظيفة هذه الكينونة، وهي قدح وبث الأفكار في ذهن الإنسان، ويفترقان في طبيعة تلك الأفكار وغايتها، فهي في الموروث العربي أفكار سيئة تصرف الإنسان عن جادة الصواب، أما عند الإيبو فإنها أفكار ترشد الإنسان إلى السداد وفعل الصواب.

اجتهدتُ ورأيت أن مفهوم «القرين» في التراث العربي وتشابه مضامينه بمضامين الـ«Guardian Spirit» أو «Chi» عند الإيبو، يُسهم في تبسيط وتقريب الفكرة إلى ذهن القارئ العربي. أما ما يحول دون الخلط بينهما فهو أن المصطلح العربي يكتفي باستخدام كلمة «القرين»، أما المصطلح المترجم فيضيف إلى هذه الكلمة كلمة «الحامي» التي تنبّه القارئ إلى أن هذا الكائن غير المادّي في طبيعته لا «يوسوس» لصاحبه كي يضلّه ويبعده عن الصواب، بل هو يبث الأفكار في ذهن صاحبه كي يرشده إلى جادة الصواب. بمعنى أن الدور الذي يلعبه «القرين الحامي» وفق تصور الإيبو هو دور محمود وجليل، يدلّل على كائن صالح لا يريد سوى الخير لصاحبه. ولهذا اعتبر الإيبو «القرين الحامي» بمثابة إله شخصي لصاحبه.

تشيغوزي أوبيوما

أوركسترا المغلوبين

بعد عزلة ومعاناة بسبب وفاة والده وهرب أخته، يلتقي مزارع الدّواجن تشننسو بحبّ حياته، ندالي. ورغم أنّها لا تؤمن بالطّبقية الاجتماعية، إلّا أن أهلها يعارضون بشدّة ارتباطها بمزارع الفقير لا يحمل شهادة جامعية. لذا يبيع تشننسو كل ما يملك ليسافر إلى قبرص ويحصل على تلك الشّهادة، ولكنّه سيكتشف هناك أنّه وقع ضحيّة محتال أخذ كلّ نقوده وجنى عمره وسلّم مصيره للمجهول.

هذه الحكاية البسيطة، كما قد تبدو، يرويها القرين الحامي لتشننسو، الرّوح التي يؤمن شعب الإيبو أنّها ترافق الإنسان منذ يتكوّن جنينًا وحتى يفارق الحياة. وهذا الرّاوي الفريد سيروي لنا الحكاية بأسلوب عجائبيّ وروحانيّ فريد، كما سيأخذنا إلى عوالم ثقافة الإيبو ونظرتهم إلى الكون وإلى الإنسان.

***

رواية مكتوبة بإبداع احترافي مع لمحة من الواقعية السحرية وجرعة مكثّفة من واقع محزن.
The Washington Post

عمل أصيل وعميق، سيجعل القرّاء يضحكون ويغضبون ويتعاطفون مع البطل المكافح لتحديد مصيره.
Kirkus, starred review

حكاية مليئة بالطموح والدفء، عن الحب والتضحية، ترويها روح قديمة. رواية جريئة من كاتب مثير للاهتمام.
Brit Bennett, New York Times


ISBN 978-614-472-166-7
9 786144 721667



daraltanweer.com
بيروت • القاهرة • تونس